

https://telegram.me/ilmokitab

دولة الامارات العربية المتحدة
وزارة الشؤون الإسلامية والاوقاف

سلسلة



المجلد التاسع

دولة الامارات العربية المتحدة
وزارة الشؤون الإسلامية والاوقاف

الدين والحياة

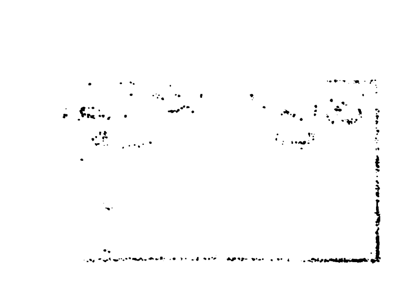
نشرات التوعية الدينية

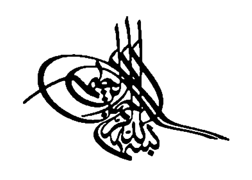
المجلد التاسع

من إعداد

الإدارة العامة للدعوة بوزارة الأوقاف
بجمهورية مصر العربية
القاهرة
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨

وأعيد طبعها على نفقة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف
بدولة الإمارات العربية المتحدة
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
توزع مجانا





الحمد لله تعالى، الذي جعل في قلب كل مؤمن واعظاً يدله على طريق الخير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَن تبعهم من أئمة الهدى والفقه، ومَن خَلَفهم اليوم من الدعاة الوعاة العاملين. و بعد:

فان وزارة الشؤون الاسلامية والأ وقاف بدولة الامارات العر بية المتحدة لحريصة كل الحرص على أن يرتفع المستوى العلمي ونوع الأداء لدى دعاة الاسلام في بلاد الخليج، من الوعاظ وأئمة المساجد الذين ينتسبون لها ولوزارات الاوقاف الأخرى، ومن مدرسي التربية الاسلامية بمدارس وزارات التر بية والمؤسسات العسكرية، ومن غيرهم ممن يصدع بالحق و يبشر بالتوحيد و يأمر بالمعروف حسبة لله عز وجل.

وقد وجدت في هذا الباب موسوعة جاهزة اعدتها وزارة الأ وقاف بجمهورية مصر العر بية، سبق لها أن طبقتها في تجر بة رائدة ناجحة، فآثرت أن تستفيد منها، وان تعيد تعميم خيرها، وللسابق الفضل والشكر.

وتقع هذه السلسلة النافعة في عشرين من مثل هذا المجلد، تتجه النية الى اعادة طبعها كلها في بضع سنين إن شاء الله، مع تصرف يسير تقتضيه المصلحة.

اللهم وفق و بارك وأعن، واجعل كلمتك هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

اللهم واقذف في قلوب دعاة الاسلام الثبات وحب التفقه، وزد السنتهم فصاحة في الحق.

آمين، آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



نشرات التوعية الدينية

العدد ١٥٩ السنة الثامنه

غرة المحرم سنة ١٣٩٦ هـ — ٢ من ينـاير سنة ١٩٧٦ م

الأمانة وأثرها فى تقدم الامم

المقـدمة :

تمهيـد : التعريف بالأمانة

العناصر

العنصر الأول : ترغيب الاسلام فى أداء الأمانة

العنصر الثانى : الأمانة صفة الرسل •

العنصر الثالث : الأمانة من أبرز صفات المؤمنين •

العنصر الرابع : أنواع الأمانة •

العنصر الخامس : موالاة الأعداء خيانة •

العنصر السادس : أثر الخيانة على الفرد والمجتمع •

العنصر السابع : جزاء الأمناء فى الآخرة •



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه الى يوم يبعثون ،

وبعد :

فلقد خط الاسلام لأبنائه طريقا مستقيما فى كل ميدان من ميادين الحياة النافعة ، وأقام لهم وللدنيا من حولهم أسسا راسخة ثابتة هى زاد الانسانية وطبها الى أن تلقى ربها ،

فعلمهم الخلق العف والسجايا الحميدة ورباهم على الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ، وحثهم على اداء الأمانة ورعاية الذمم وغير ذلك من الأسس الكريمة الحكيمة التى تنهض بها الأمم وتؤسس عليها الحضارات والتى كونت الدعائم القومية فى بناء هذه الأمة الفاضلة التى يستعرض العالم اليوم مآثرها فيشهد بما شهد به القرآن من قبل بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وأن فى أسسها وقيمها أمان الانسانية وسلامها فى هذه الايام التى تتسابق فيها الدنيا الى ابتكار ما تدمر به نفسها ،

ان التأمل لما جاء به الاسلام يراه قد أحيا فى نفوس أبنائه الضمير الحى الذى تصان به الحقوق وتحرس فى رحابه الحرمات وترعى فى ظله الذمم ، وذلك بفضل ما أوجب عليهم من تكاليف غدت هى الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ،

وفى موضوعنا الذى نحن بصدده (الأمانة وأثرها فى تقدم الأمم) نطالع القارىء أول ما نطالعه بتعريف الأمانة ، نروقه ببعض النصوص والآثار التى تلقى مزيدا من الضوء على هذا التعريف الموجز لتكون أمام عين القارىء صورة جلية متألقة لهذه الصفة الجليلة ،

ولقد رغب الاسلام فى رعاية الأمانة فأمر القرآن الكريم أمرا صريحا بأدائها لذويها ، كما رهب من خيانتها واعتبرها خيانة لله ورسوله لينآى بالمسلمين عن الوقوع فى مثل هذا الجرم الذى يجب أن يربأ كل مسلم بنفسه عن الوقوع فيه لتظل للأمانة فى نفوس المسلمين قدسيتها ومكانتها ، وهذا ما بيناه فى العنصر الاول ،

ولقد كانت الأمانة سـمة بارزة فى حياة أنبياء الله ورسـله أولئك الأعلام البارزين الذين قادوا الانسانية بكلمة الله الى حياة فاضلة مزدانة بالخلق السمح والضمير الحى والثقة والطمأنينة فأشـاعوا فى ربوع الدنيا التقدم والرقى .

لقد اتصفوا جميعا بالأمانة وكانت شعارهم الصادق الذى يواجه به كل نبى منهم قومه فيقول لهم (انى لكم رسـول أمين) . ليكون ذلك مدعاة للثقة فيهم ثم لثقة أقوامهم فيما يبلغون عن رب العالمين .

ولقد قالوها جميعـا ما تخلف عن قولتها واحد منهم صـلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا ما بيناه فى العنصر الثانى .

لقد هدف الاسلام الى بناء أمة واثقة فى يومها مطمئنة فى غدها ينعم أفرادها بالهدوء والسكينة فربى أفرادها على الأمانة وحثهم عليها وعدها من أبرز صـفات المؤمنين . حتى لكأن ايمان المؤمن يتنزه به عن خيانة الأمانة .

ليودع فى نفوس المؤمنين احترامها وتوقيرها وهذا ما بيناه فى العنصر الثـالث .

وقد يخطىء الكثير فيقصر الأمانة على الوديعة التى يستودعها المسلم أخاه لكن الحقيقة أن الأمانة أوسـع من هـذا بكثير فهى أنواع شـتى وأشكال متعددة . منها أمانة العبد مع ربه ثم أمانته مع نفسه ثم أمانته مع الآخـرين .

وهذا ما بيناه فى العنصر الرابع .

وكل أمة لابد لها من دولة يأوى اليها أبناؤها وواجب كل واحد منهم تجاهها لا يقل عن واجب كل واحد منهم تجاه نفسه .

ولقد أمر الاسلام باتخاذ العدة للدفاع عن الدين والوطن . كما أمر أبناء الأمة أن يكونوا الأمناء على أسرار دولتهم الاوفياء لها المحافظين على مكاسبها . وحذرهم من اذاعة أسرارها أو موالاة أعدائها .. وعد اذاعة أسرار الدولة أو التجسس عليها أو موالاة أعدائها خيانة كبرى توعد مرتكبها بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

وهذا ما بيناه فى العنصر الخامس .

ولا شك أن للخيانة آثارها الضارة فهى ما توفرت فى شخص الا قلت هيبته وكره الناس معاملته وتحاشوا مخالطته .

والأمة التى يتكون أفرادها من هذا القبيل من الخائنين يخمد ذكرها وتتقيد خطاها على طريق التقدم وتتخلف فى ميدان السبق عن الاقران .

ولقد علمنا الرسول . صلى الله عليه وسلم . أن خيانة الأمانة تضعف الايمان فيقل الوازع الدينى الذى هو المحرك الأول فى الانسان . وهى أيضا طريق الى بغض الله للعبد الخائن وغضبه عليه كما أنها تسبب البلاء فى الدنيا وتشيع البغضاء بين الناس . وهذه الآثار السيئة تقود الفرد والمجتمع الى الانحلال والضياع .

وهذا ما بيناه فى العنصر السادس .

والأمانة طريق مذلل الى تقدم الفرد والأمة حيث أنها ما توافرت فى انسان الا كان محط الأنظار ومحل الثقة والاحترام . فأحبه الناس وأخلصوا له فكان النصر حليفه والخير فى ركابه .

والأمة التى يتكون أفرادها من هذا الصنف من الاوفياء الأمناء تتقدم الصفوف بنباهة ذكرها وعالى صيتها فتكون فى طليعة ركب التقدم تؤسس

منارة المجد وتعلى شأنها ويقودها هؤلاء الأمناء الأوفياء من نصر الى نصر فى كل ميدان من ميادين الحياة .

وأما فى الآخـرة فانها تورث الجنـة وتؤدى الى رحمـة الله تعالى ورضوانه ومن ذلك يتضح لنا أن الانسان الأمين يحوز — بفضل أمانته— عز الدنيا ونعيم الآخرة . وهذا ما يأمله العقلاء من الحياة .

وهذا ما بيناه فى العنصر السابع .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية اذ يضـع بين يدى القارىء بمعالم الأمانة وأثرها . فانه يدعو الله مخلصـا فى دعائه أن يكـون منارة هادية لأمتنا الناهضـة . لتقتنى أثرها فتعيش كما عاش اسـلافها الأمجاد الذين انبثق بهم فجر الحضـارة وترعرعت بفضلهم شـجرة المدينة وارفة الظلال دانية الثمار .
هيأنا الله لما نصبوا اليه من غاية وما ننشده من هدف انه على ما يشاءقدير

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية بوزارة الاوقاف

التعريف بالأمانة

لقد حرص الاسلام وهو يضع حجر الأساس لنهضة شاملة تمتد عبر العصور والدهور أن يعلم المسـلم كيف يكون جنديا واعيا محافظا على هذه النهضـة ونمائها .

فأهله لذلك بكريم الصـفات وجليل الخلال التى تجعله يسـمو عن الدنايا ويترفع عن الخطايا ويحمى حقوق الآخرين ويصون حرماتهم .

ومن أجل ما حث الاسلام بنيه على اتباعه — وكل ما حثهم عليه كريم حكيم — هو حفظ الأمانة والسهر على رعايتها . صيانة للحقوق ورعاية للذمم وأداء لحق العباد كما أمر رب العباد دون تقصير أو تضييع .

وهذه الأمانة هي التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ٠ فما هى الأمانة اذن ؟؟

هذا ما سنحاول أن نضع أيدينا عليه الآن بحثا فى تراث سلفنا الصالحين ٠

يقول صاحب قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ٠

(أمن وثق وطمأن وصدق وأمنه وائتمنه اتخذه أمينا والأمانة ضد الخيانة وهى الوديعة)
(قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ص ٢٧)

ويقول المراغى فى تفسيره :

(الأمانة الشىء الذى يحفظ ليؤدى الى صاحبه ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظا وأمينا ووفيا ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائنا)
(تفسير المراغى ص ٦٩ ج ٥)

ويقول الشيخ محمد الغزالى :

(والأمانة فى نظر الشارع واسعة الدلالة وهى ترمز الى معان شتى مناطها جميعا شعور المرء بتبعة فى كل أمر يوكل اليه وادراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه على النحو الذى فصله الحديث الكريم ٠

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالامام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته » قال ابن عمر ـ راوى الحديث ـ سمعت هؤلاء من النبى ـ صلى الله عليه وسلم وأحسبه قال ٠٠ « والرجل فى مال أبيه راع ومسئول عن رعيته ») رواه أحمد وغيره باسناد صحيح خلق المسلم ص ٥١

ويقول صاحب تفسير المنار وهو يبين معنى الأمانة :

الأمانة ما يؤمن عليه الانسان من الأمن وهو طمأنينة النفس وعدم الخوف يقال أمنته كسمعته على الشىء « هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم

على أخيـه من قبل ويقال أمنه بكذا « ومن أهـل الكتاب من ان تأمنـه بقنطار يؤده اليك » ويقال ائتمن فلانا أى عده أو اتخذه أمينا أو ائتمنه على الشيء كأمنه عليه « فليؤد الذى ائتمن أمانته » .

وكل أمانة يجب حفظها ومنه مايحفظ فقط كالسر وفى الحديث المرفوع « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والضياء عن جابر وابو يعلى فى سنده عن أنس وأشار السيوطى فى الجامع الصغير الى صحته . ومنه يعلم أن كل ما يدل على الائتمان من يقول وعمل وعرف وقرينة يجب اعتباره والعمل به وتقدم تصريح الاستاذ الامام بذلك . ومنها أى الامانة ما يحفظ ليؤدى الى صاحبه سواء أكان هو الذى أئتمنك عليه أو غيره لأجله ويسـمى من يحفظ الأمانة ويؤديها حفيظا وأمينا ووفيا ويسمى من لا يحفظها أو لا يؤديها خائنا « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » فمن خان عامدا عالما كان من العصاة ووجب عليه الضمان .

(تفسير المنار جـ ٥ ص ١٧٣ ، ١٧٤)

العنصر الاول .. ترغيب الاسلام فى أداء الأمانة

الأدلة من القرآن :

لقد حث الاسلام أبناءه على التحلى بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات التى تنتج مجتمعا نابها يعلم الانسـانية بتعليم الله له كيف يكون الوفاء والصـدق والاخاء .

وكانت الأمانة من أجل الصفات التى حث الاسلام أبناءه على التمسك بها حين أبصرها طريقا معبدا ينتهى بالسـائر فيه الى الثقة والاطمئنان والى راحة القلب والعقل ثم الى انجاز الأعمال واتقانها وهذا ما تنهض به الأمم وتتبوأ مكانتها اللائقة بها .

ولقد زخر القرآن الكريم بالكثير من الآيات التى تدعو المؤمنين الى أداء الأمانة والحرص عليها .

١ — قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ». (النساء : ٥٨)

قال ابن كثير في تفسيره :

(روى ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله عز وجل « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » قال لما فتح رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. مكة دعا عثمان بن طلحة فلما أتاه قال ارني المفتاح فاتاه فلما بسط يده اليه قام اليه العباس قال يا رسول الله بابي انت وامي اجمعه لي مع السقاية فكف عثمان يده فقال رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. (أرني المفتاح ياعثمان) فبسط يده يعطيه فقال العباس مثل كلمته الاولى فكف عثمان يده فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يا عثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاته فقال هاك بأمانة الله . قال فقام رسول الله .. صلى الله عليه وسلم وفتح باب الكعبه فوجد في الكعبة تمثال ابراهيم عليه السلام معه قداح يستقسم بها فقال رسول الله ... صلى الله عليه وسلم ... (ما للمشركين قاتلهم الله وما شأن ابراهيم وشأن القداح) ثم دعا بجفنة فيها ماء فأخذ ماء فغمسه فيه ثم غمس به تلك التماثيل وأخرج مقام ابراهيم وكان في الكعبة فألزقه في حائط الكعبة ثم قال يا أيها الناس هذه القبلة : قال ثم خرج رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. فطاف بالبيت شوطاً أو شوطين ثم نزل عليه جبريل فيما ذكر لنا برد المفتاح . ثم قال رسول الله ... صلى الله عليه وسلم ... « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » حتى فرغ من الآية وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك وسواء أكانت نزلت في ذلك أولا فحكمها عام)

(تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥١٦)

وقال أيضا : (أمر الله عز وجل بأداء الأمانة فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه يوم القيامة كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم (لتؤدن الحقوق الى أهلها حتى ليقتضى للشاة الجماء من القوقاء) وقال ابن ابي حاتم . حدثنا محمد بن اسماعيل الاحمس . حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زادان عن عبد الله بن مسعود قال : (ان الشهادة تكفر كل الذنوب الا الامانة يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل في سبيل الله فيقال أد امانتك فيقول : نى اوديها وقد ذهبت الدنيا ؛ . فتمثل له الامانة في قعر جهنم فيهوي اليها فيحملها على عاتقه قال فتنزل عن عاتقه فيهوي على إثرها أبد الآبدين) قال زادان فأتيت البراء فحدثته فقال صدق اخي أما سمعت الله يقول « إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ») . (تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥١٥ بتصرف)

ويقول القرطبي : (وقد اختلف من المخاطب بها . فقال علي بن أبي طالب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب وابن زيد هذه الآية لولاة المسلمين خاصة فهي للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وامرائه ثم تتناول من بعدهم وقال ابن جريج وغيره ذلك خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن ابي طلحة من بني عبد الدار ومن ابن عمه شيبة بن ابي طلحة فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضاف له السدانة الى السقاية فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان وأخرج مقام ابراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية قال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقرأ هذه الآية وما كنت سمعتها منه قبل فدعا عثمان وشيبة فقال (خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم الا ظالم) . وحكى مكي أن شيبة أراد ألا يدفع المفتاح ثم دفعه وقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خذه بأمانة الله . وقال ابن عباس الآية في الولاة خاصة في أن يعظوا النساء في النشوز ونحوه ويردوهن الى الأزواج . والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما اليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في الحكومات وهذا اختيار الطبري . وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير

ذلك كالرجل يحكم فى نازلة ما ونحوها والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى) .

(فالاية شاملة بنظمها لكل أمانة وهى اعداد كثيرة وأمهاتها فى الأحكام الوديعه واللقطة والرهن والعارية . وروى أبى بن كعب قال سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول « أد الأمانة الى من آئتمنك ولا تخن من خانك » . أخرجه الدرافطنى ورواه أنس وأبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وروى أبو امامة قال سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول فى خطبته عام حجة الوداع « العارية مؤداة والمنحه مردودة والدين مقضى والزعيم غارم » صحيح أخرجه الترمذى وغيره وزاد الدارقطنى فقال رجل فعهد الله ؟ .قال « عهد الله أحق ما أدى ») .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٥ ص ٢٥٥ — ٢٥٧ بتصرف)

٢ — وقال تعالى « انا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

(الأحزاب : ٧٢)

(أ) ويقول المراغى :

(انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) أى انا لم نخلق السموات والارض على عظم أجرامها وقوة أسرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهى والتبصر فى شئون الدين والدنيا ولكن خلقنا الانسان على ضعف منته وصغر جرمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية الى الغضب فكان ظلوما لغيره وركب فيه حب الشهوات والميل الى عدم التدبر فى عواقب الامور . ومن ثم كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى وتخفف من سلطانها عليه وتكبت من جماحها حتى لا توقعه فى مواقع الردى) .

(تفسير المراغى جـ ٢٢ ص ٤٦)

(ب) ويقول القاسمى :

(وعبر عن التكاليف بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الانقياد والطاعة وأمرهم بمراعاتها والمحافظه على آدائها من غير اخلال بشىء من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة الى استعداد ماذكر من السموات وغيرها بالعرض عليهن لاظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة فى قبولهن لها — وعن عدم استعدادهن لقبولها بالاباء والاشفاق منها لتهويل آمرها وتربية فخامتها — وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة منها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة . والمعنى أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وادراك لأبين قبولها وأشفقن منها (وحملها الانسان) أى عند عرضها عليه . اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده أو بتكليفه اياها يوم الميثاق — أى تكلفها والتزامها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة (انه كان ظلوما جهولا) أى أنه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل . أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا) . (محاسن التأويل للقاسمى ص ٤٩٢٤ جـ ١٣ بتصرف)

٣ — وقال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . (الأنفال : ٢٧)

(أ) يقول المراغى :

(روى أن أبا سفيان خرج من مكة « وكان لا يخرج الا فى عداوة الرسول — صلى الله عليه وسلم والمؤمنين » فأعلم الله رسوله بمكانه فكتب رجل من المنافقين الى أبى سفيان : ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله (لا تخونوا الله والرسول) الآية .

وروى أنها نزلت فى أبى لبابة وكان حليفا لبنى قريظة من اليهود فلما خرج اليهم النبى — صلى الله عليه وسلم بعد اجلاء اخوانهم من بنى النضير أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ وكان من حلفائهم من قبل عذرهم ونقضهم لعهد النبى — صلى الله عليه وسلم فأشار اليهم أبو لبابة ألا تفعلوا وأشار الى حلقه ويريد أن سعدا سيحكم بذبحهم) فنزلت الآية .

قال أبو لبابة : ما زالت قدماى عن مكانها حتى علمت أنى خنت الله ورسوله .. وروى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سأل امرأته أيصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ؟ .. فقالت انه ليصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله .

وقد روى أن أبا لبابة شد نفسه على سارية من المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على ثم مكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له : قد تيب عليك .. فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون الله ورسوله هو الذى يحلنى فجاء فحله بيده) . (تفسير المراغى جـ ٩ ص ١٩٢ ، ١٩٣)

(ب) ويقول الامام ابن جرير الطبرى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) يقول الله تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبيه — صلى الله عليه وسلم — يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تخونوا الله وخيانتهم الله ورسوله كانت باظهار من أظهر منهم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الايمان فى الظاهر والنصيحة وهو يستسر الكفر والغش لهم فى الباطن يدلون المشركين على عورتهم ويخبرونهم بما خفى عنهم من خبرهم)



(جامع البيان فى تفسير القرآن للامام الطبرى جـ ٩ ص ١٤٥)

الأدلة من السـنة :

وكما زخر القرآن الكريم بالآيات الكثيرة التى تحث على أداء الأمانة وتبين حرمتها عند الله وتحذر من خيانتها •• فان السنة المطهرة قد زخرت كذلك بالكثيرالذى يدعونا الى الأمانة ورعايتها •

١ — روى البخارى فى التاريخ وأبو داود والترمذى والحاكم عن أبى هريرة والدارقطنى والضياء عن أنس والطبرانى عن أبى أمامة وأبو داود عن رجل من الصـحابة والدارقطنى عن أبى بن كعب باسـناد صحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم قال :

(أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك)

(الجامع الصغير جـ ١ ص ٢١)

٢ — عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن النبى — صلى الله عليه وسلم قال •• (اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة • اصـدقوا اذا حدثتم وأوفوا اذا وعدتم وأدوا اذا ائتمنتم واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم)

(رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى)

(الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣)

٣ — وروى عن على رضى الله عنه قال :

« كنا جلوسا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم فطلع علينا رجل من أهل العالية فقال يا رسـول الله أخبرنى بأشـد شىء فى هـذا الدين وألينه ؟ (فقال الينه شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأشده يا أخا العالية الأمانة انه لا دين لمن لا أمانة له ولا صلاة له ولا زكاة له) الحديث رواه البزار •

(الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٥)

العنصر الثانى — الأمانة صفة الرسل

لقد اختار الله رسله واصطنعهم لنفسه وصاغهم على نسق عال تناهى فى العدالة والسمو واصطفاهم من أعلى طبقات الانسـانية خلقا وأعفهم

لسانا وذيلا وأزهدهم فى متاع هذه الدنيا وأبعدهم عن جاهها وسلطانها. ذلك لأنهم أعدوا اعدادا خاصا ليكونوا قادة الأمم ورواد الشعوب .

وكما اتفقت كلمتهم جميعا على هذا النداء (اعبدوا الله مالكم من اله غيره) فقد اتصفوا جميعا بالأمانة .

ذلك . لأن الأمانة مؤهل عال لابد أن يزود به الدعاة الى الله . ليؤدوا أمانة الله التى أمروا بتبليغها الى من أرسلوا اليهم دون زيادة أو نقصان .

ولذلك قال القرآن الكريم وهو يتحدث عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الأمين .

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يراها وهى تعرض لقصص الأنبياء والمرسلين توضح أنهم كانوا يبينون لأقوامهم أول ما يبينون أنهم أمناء حملوا كلمة الله فهم يؤدونها كما أمروا بتبليغها دون تقصير أو تضييع قال تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين) (الشعراء — ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧)

(أ) يقول القرطبى :

« كذبت جماعة قوم نوح وقال « المرسلين » لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل . لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل . وقيل كذبوا نوحا فى النبوة وفيما أخبرهم به من مجىء المرسلين بعده . « اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين » . أى صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى وقيل أمين فيما بينكم . فانهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل . كمحمد — صلى الله عليه وسلم فى قريش .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١٣ ص ١١٩ بتصرف)

(ب) ويقول المراغى :

« بعد أن قص على رسوله — صلى الله عليه وسلم قصص أبيه ابراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم اليه من أدلة التوحيد وما حجهم به من الآيات . أردف بقصص الأب الثانى وهو نوح عليه السلام وفيه مالاقاه من قومه من شديد التكذيب لدعوته وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان وأنه مع طول الدعوة لهم لم يزدهم ذلك الا عتوا واستكبارا .. وقد وصف نوح نفسه بأمرين .

انى لكم رسول أمين . أى انى رسول من الله اليكم . أمين فيما بعثنى به أبلغكم رسالاته . لا أريد فيها ولا أنقص منها .

« فاتقوا الله وأطيعون » فقد وضح الأمر لكم . وبان نصحى وأمانتى فيما بعثنى الله به وائتمننى عليه » .

(تفسير المراغى جـ ١٣ ص ٨١ ، ٨٢ بتصرف)

(جـ) ويقول ابن كثير :

« هذا اخبار من الله عز وجل عن عبده نوح عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله الى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد فبعثه الله ناهيا عن ذلك ومحذرا من وبيل عقابه فكذبه قومه فا ستمروا على ماهم عليه من الفعال الخبيثة فى عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ونزل اللهتعا لى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل فلهذا قال تعالى « كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون » أى ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره «انى لكم رسول أمين» أى انى رسول من الله اليكم أمين فيما بعثنى الله به أبلغكم رسالات ربى ولا أزيد فيها ولا أنقص منها»

(تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٣ ص ٣٤٠)

وقال تعالى : (كذبت عاد المرسلين .. اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول أمين) (الشعراء ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥)

(أ) يقول المراغى :

« جاءت هذه المقالة على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه الى أن بعثه الأنبياء أسها الدعاء الى معرفة الله وطاعته فيما يقرب المدعو الى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وان اختلفوا فى تفصيل الأحكام تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور وأن الأنبياء منزهون عن المطامع الدنيوية لا يأبهون بها ولا يجعلونها قبلة أنظارهم ومحط رحالهم » (تفسير المراغى جـ ١٩ ص ٨٦)

(ب) ويقول حجازى :

« المعنى أرسل الله هودا الى قومه عاد وكانوا قوما أولى بأس وشدة ورخاء ونعيم فقال لهم اعبدوا الله وحده فما لكم من اله غيره ألا تتقون الله وتخافون عذابه انى لكم رسول أمين على رسالتى التى هى من عند الله فاتقوا الله وأطيعونى يصلح لكم أعمالكم ويحفظ عليكم نعمكم » (التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازى جـ ١٩ ص٥٥)

٣ — (وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين) . (يوسف : ٥٤)

(أ) يقول ابن كثير :

يقول تعالى : (اخبارا عن الملك حين تحقق من براءة يوسف عليه السلام ونزاهه عرضه مما نسب اليه . قال ائتونى به استخلصه لنفسى) أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى « فلما كلمه » أى خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك « انك اليوم لدينا مكين أمين » أى انك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٢)

(ب) ويقول المراغى :

« فلما كلمه قال : انك اليوم لدينا مكين أمين » أى فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به . قال انك لدينا ذو مكانة سامية ومنزلة عالية وأمانة

تامة فأنت غير منازع فى تصرفك ولامتهم فى أمانتك » •
(تفسير المراغى ج ١٣ ص ٥)

(ج) ويقول القاسمى :

« فلما كلمه » أى فلما أتوه به وكلمه أى خاطبه الملك وعرفه وشاهد فضله وحكمته وبراعته « قال انك اليوم لدينا مكين » أى ذو مكانة ومنزلة « أمين » أى مؤتمن على كل شيء قال بعضهم ان من أمعن النظر فى قصة يوسف عليه السلام • علم يقينا أن التقى الأمين لا يضيع الله سعيه بل يحسن عاقبته ويعلى منزلته فى الدنيا والآخرة • وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه • ولا يخاف صروفه ونوائبه • فان الله يعضده وينجح مسعاه ويخلد ذكره العاطرة على مر الأدهار » •
(محاسن التأويل للقاسمى ج ٩ ص ٣٥٥٨ بتصرف)

٤ — (قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين) • (سورة القصص : ٢٦)

(أ) يقول حجازى :

« لما جاء موسى الى شعيب(١) وكلمه وطمأنه • وأزال عنه الخوف قالت احدى بناته • يا أبت استأجره يرعى غنمنا فهو الرجل القوى الأمين وهما الصفتان الممدوحتان فى العامل ولقد رأت قوته فى سقيه لهما — وأمانته فى طلبه لها أن تسير خلفه وتنعت له الطريق »
(التفسير الواضح — للشيخ محمد محمود حجازى ص ٢٧ ج ٢٠)

(ب) ويقول القاسمى :

« قالت احداهما يا أبت استأجره » أى اجعله أجيرك ليرعى غنمك فانه حقيق بذلك « ان خير من استأجرت القوى الأمين » أى خير من أردت جعله أجيرا القوى على العمل المؤتمن عليه •

---

(١) وأصح الروايات انه عبد صالح وليس صاحب مدين •

قال الزمخشرى وقولها « ان خير من استأجرت القوى الأمين » كلام حكيم جامع لا يزاد عليه . لأنه اذا اجتمعت هاتان الخصلتان أى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول « استأجره لقوته وأمانته » (محاسن التأويل — للقاسمى جـ ١٣ ص ٤٧٠٢ ، ٤٧٠٣)

الآثار :

ولقد لقب رسول الله — صلى الله عليه وسلم فى صغره بالصدق والأمانة .. وكان ذلك من أسباب ثقة الناس به وحبهم له والتفافهم حوله ورضائهم بحكمه رغم صغره وفى القبيلة من هو أسن منه .

قال ابن هشام : (ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة كل قبيلة تجمع على حده ثم بنوها حتى بلغ البنيان الركن . فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال) .

ثم يقول :

(ان أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلها . قال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا . فكان أول من دخل عليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا حكمه هذا محمد . فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم « هلم الى ثوبا » فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال . لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . ثم ارفعوه ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه .

وكانت قريش تسمى رسول الله — صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى الصادق الأمين) (سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٢٧ بتصرف)

(ب) وقال ابن أسحق :

« وكانت خديجة بنت خويلد تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضــاربهم عليه بشىء تجعله لهم وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صــدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت اليه فعرضــت عليه أن يخرج فى مال لها الى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار » .

ثم يقول « ثم باع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سلعته التى خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى ثم أقبل قافلا الى مكة ومعه ميسرة . فكان ميسرة فيما يزعمون اذا كانت الهاجرة واشتد الحريرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره . فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا ــ وكانت خديجة امرأة حازمة شريفه لبيبة مع ما اراد الله لها من كرامة . فلمــا أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالت له فيما يزعمون يا ابن عم انى قد رغبت فيك لقرابتك ومنزلتك فى قولك وأمانتك وحســن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا . كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه ؟ (سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ بتصرف)

(جـ) قال ابن أسحق :

« ولم يعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أحد حين خرج الا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وآل أبى بكر . أما على فان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمره أن يتخلف حتى يؤدى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الودائع التى كانت عنده للناس وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه الا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته » .

(السيرة النبوية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٤)

العنصر الثالث .. الأمانة من أبرز صفات المؤمنين

الأدلة من القرآن :

رعاية الذمم وصيانة الأعراض بل وحفظ الحقوق كل الحقوق لذويها هى السمة الأولى التى أمر الاسلام أولياءه أن يتسموا بها حين يشبون على الطوق . وأمرهم بهذا يستلزم نهيهم عن الغش والخداع والخبث والمكر ويعلمهم التضحية وحفظ الأسرار وصيانة الحقوق وأداءها لذويها .

وهذه لعمرى هى الأمانة التى هى احدى الركائز الأصيلة فى بناء الشخصية المؤمنة التى تحدث عنها القرآن الكريم .

قال الله تعالى « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (المؤمنون الآيات من ١ : ٨)

يقول القرطبى ..

« قوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون) قرأ الجمهور « لأماناتهم » بالجمع . وابن كثير بالافراد . والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الانسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا . وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك وغاية ذلك حفظه والقيام به والأمانة أعم من العهد وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد » . (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١٢ ص١٠٧)

ويقول القاسمى ..

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » أى قائمون بحفظها واصلاحها والآية تحتمل العموم فى كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوصي فيما حملوه من أمانات الناس

وعهودهم» ولذا عدت الخيانة فى الأمانة من آيات النفاق فى الحديث المشهور » .
(محاسن التأويل للقاسمى ج ١٢ ص ٤٣٩٠)

ويقول المراغى ..

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » أى والذين اذا أئتمنوا لم يخونوا بل يؤدون الأمانة لأهلها واذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بما عاهدوا عليه اذ الخيانة وخلف العهد من صفات المنافقين »
(تفسير المراغى ج ١٨ ص ٦)

ويقول الشيخ حجازى ..

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » وهم اذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها الى أهلها واذا عاهدوا أو عقدوا عقدا قاموا به ووفوا ما عليهم وهكذا المسلمون دائما يوفون بالعهد وعلى عكسهم المنافقون الذين وصفهم الرسول بقوله « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان » .
(التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازى ج ١٨ ص ٥)

الادلة من السنة :

ولقد بينت لنا السنة المطهرة أن كمال الايمان لا يجتمع مع خيانة الأمانة قط .

١ — روى أحمد فى مسنده والترمذى والنسائى والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم)
(كنز العمال ج ١ ص ١٣٣)

٢ — وروى أحمد فى مسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

(يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة) .

(كنز العمال جـ ١ صـ ١٤٨)

الآثـار :

١ — (حمل مرة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مال عظيم من الخمس فقال) إن قوماً أدوا الامانة في هذا لأمناء) فقال بعض الحاضرين (إنك أديت الأمانة الى الله تعالى فأدوا اليك الأمانة ولو رتعت لرتعوا) .

(السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٤٤)

٢ — ان بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك فقال أدركت عمر بن عبد العزيز فقيل له ياأمير المؤمنين أفقرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شيء لهم وكان رضي الله عنه في مرض موته فقال أدخلوهم علي فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : (يابني والله ما منعتكم حقا هو لكم ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها اليكم، وإنما أنتم أحد رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين وإما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله .. قوموا عني) قال فلقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس في سبيل الله (يعني أعطاها لمن يغزو عليها) قال وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه فأخذ كل واحد منهم ستمائة ألف دينار ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس أي يسألهم بكفه .

يقول ابن تيمية تعليقا على هذه الحادثة (إن مؤدي الامانة مع مخالفة هواه يثيبه الله فيحفظه في أهله وماله بعده والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله ويذهب ماله .

(السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢١ ، ٢٢ بتصرف)

٣ — حدث الطبري قال :

(لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض (١) أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقباض فقال الذي معه ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله

(١) الأقباض : المغانم

ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا هل أخذت منه شيئا فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به فعرفوا ان للرجل شأناً فقالوا من أنت ؟ . فقال لا والله لا اخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقربوني ولكن أحمد الله وارضى بثوابه فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى اصحابه فسأل عنه فاذا عامر بن قيس) .

يقول الندوي تعليقا على هذه الحادثة :.

(وكان الايمان حارسا لأمانة الانسان وعفافه، وكرامته تملك نفسه النزع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً وقد وقع في تاريخ الفتح الاسلامي من قضايا العفاف عن المغنم وأداء الأمانات الى آهلها والاخلاص لله ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره وما ذاك الا تتيجة رسوخ الايمان ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان) .

(ماذا خسر العالم ما نحطاط المسلم لأبى الحسن الندوى ص ٨٨)

العنصر الرابع .. أنواع الأمانة

لقد أمر الاسلام أبناءه بالأمانة حين أمرهم بمكارم الأخلاق وحميد الصفات ليتخذ كل منهم من نفسه رقيباً على نفسه يعصمها من الزلل .

وقد يقصر العامة من الناس الأمانة على الوديعة من الانسان لأخيه الانسان ولكن الحقيقة غير ذلك .

فإن الشارع ينظر الى الأمانة نظرة أوسع وأشمل فهي أنواع شتى وأصناف متعددة .

فمنها أمانة الانسان مع ربه بالوقوف عند حدود الشريعة أمراً ونهيا .

ومنها أمانة الانسان مع الناس بحفظ أسرارهم ورد ودائعهم وبيان عيب المعيب لهم والنصح متى وجب ذلك .

ومنها أمانة الانسان مع نفسه بأن يختار لها الطريق الأمثل فى دينها ودنيـــاها •

ومنها أمانة أولى الأمـــر فى مصـــالح رعاياهم التى قلدهم الله اياها فنيطت بكاهلهم وتعلقت بذممهم •

ومنها أمانة الشريك مع شريكه فى تجارة أو زراعة لهما يتقاسمان سويا ربحها أو خسارتها •• صيانة للمال المشترك ونماء له •

وهذه هى أنواع الأمانة التى حث الاسلام بنيه على التمسك بها وهى تشمل كل ما يؤتمن المسلم عليه •

قال تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان ســميعا بصيرا) • (النساء ٥٨)

يقول المراغى فى تفسيره :

« الأمانة أنواع » ••

١ ـ أمانة العبد مع ربه •• وهى ما عهـد اليه حفظه من الائتمان بما أمره به •• والانتهاء عما نهاه عنه واستعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه من ربه وقد ورد فى الأثر « أن المعاصى كلها خيانة لله عز وجل » •

٢ ـ أمانة العبد مع الناس •• ومن ذلك رد الودائع الى أربابها وعدم الغش وحفظ السر ونحــو ذلك مما يجب للأهل والأقربين وعامة الناس والحكام ويدخل فى ذلك عدل الأمراء مع الرعيــة • وعدل العلمــاء مع العوام بأن يرشــدوهم الى الاعتقادات والأعمـــال التى تنفعهم فى دنياهم وأخراهم من أمور التربية الحسنة والكسب الحلال ومن المواعظ والأحكام التى تقوى ايمانهم وتنقذهم من الشرور والآثام وترغبهم فى الخير والاحسان

وعدل الرجل مع زوجته بألا يفش أحد الزوجين سرا للآخر ولا سيما السر الذى يختص بهما ولا يطلع عليه عاده سواهما .

٣ ـ أمانة الانسان مع نفسه بألا يختار لنفسه الا ماهو الأصلح والأنفع له فى الدين والدنيا . ولا يقدم على عمل يضره فى آخرته أو دنياه ويتوقى أسباب الامراض والاوبئة بقدر معرفته . وما يعرف من الاطباء . وذلك يحتاج الى علم الصحة ولا سيما فى وقت انتشار الامراض والاوبئة
(تفسير المراغى جـ ٥ ص ٧٠)

وقال ابن تيمية :

٤ ـ مصالح الرعية أمانة فى أعناق اولى الأمر ..

فقد دلت سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن الولاية أمانه يجب آداؤها .. يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى ذر فى الولاية « انها أمانة . وانها يوم القيامه خزى وندامة الا من أخذها بحقها وادى الذى عليه فيها » .
(رواه مسلم جـ ٣ ص ٤٤٣ .. والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢٢)

٥ ـ المشورة أمانة ..

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « المستشار مؤتمن » أى أنه أمين فيما سئل .

رواه أصحاب السنن (تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٠)

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : « من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه » .

رواه أبو داود (التاج الجامع للاصول جـ ٥ ص ٧٦)

٦ ـ الشركة أمانة ..

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : يقول الله عز وجل .. « أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه . فاذا خان أحدهما صاحبه خرجت من بينهما » .

رواه أبو داود والحاكم (الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٩٣)

وروى الدارقطنى أنه — صلى الله عليه وسلم قال ..

« يد الله على الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه فاذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما » . (الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٩٣)

٧ — حفظ الأسرار أمانة ..

رب كلمة عابرة يلقيها الرجل عامدا أو غير عامد يكشف بها سرا ويمزق سترا ويشتت شملا وربما تلقفها العدو فدمره أو دمر امته تدميرا والله تعالى يقول : « ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . (الاسراء : ٣٦)

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « من صمت نجا » .
رواه الطبرانى باسناد جيد من حديث عبدالله بن عمرو (الاحياء جـ٣ص١٠٥)

وقال أيضا : « من كف لسانه ستر الله عورته » .
رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن عن ابن عمر (الاحياء جـ٣ص١٠٦)
وقال أيضا : « ان العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها الى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » متفق عليـــه عن أبى هريرة (رياض الصالحين ص ٥٤٩) .

فلا ينبغى أن يطلق الانسان لســانه فيما يعرف وما لايعرف ويتدخل فيما يعنيه ومالا يعنيه من شئون الآخرين . فلا يدع سرا الا أذاعة ولايتخيل حدثا الا جعله حقيقة ملموسة اذ كل ذلك وخيم العاقبة . ولهذا نصـــح الرسول — صلى الله عليه وسلم أصحابه فقال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لا تغتابوا المســلمين ولا تتبعوا عوراتهم فان من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته » .
رواه أبو داود عن أبى برزة باسناد جيد (احياء علوم الدين جـ ٣ ص١٣٩)

وكان من اخلاق الرسول — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يدعو الى الله سرا . ويوطى المســلمين الأوائل بكتمان أمرهم حتى جاء أمـــر الله

بالاعلان ، وكتم صلوات الله عليه وسلامة أنباء هجرته وأخفى خط سيره فيها ليضمن السلامة من ملاحقة الأعداء .

(زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥٢ بتصرف)

وحدثت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت : « لما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ (أى مهاجرين) أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبى بكر فخرجت اليهم : فقالوا : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ قالت : قلت . لا أدرى ـ والله ـ أين أبى . قالت : فرفع أبو جهل ـ لعنه الله ـ يده (وكان فاحشا خبيثا) فلطم خدى لطمة فطرح منها قرطى . قالت : ثم انصرفوا . فمكثنا ثلاث ليال . وما ندرى أين وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم » . (ابن هشام جـ ٢ ص ٣٢٧)

كما أنه ليس من الحكمة أن يفش المسلم سر جيشه أو أمته لعدوه . بل عليه أن يكون حذرا كتوما للسر . فقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « اذا أراد غزوة ورى بغيرها . فاذا أراد غزوة حنين مثلا سأل عن نجد والطريق اليها وما فيها ومن فيها » (زاد المعاد جـ ٢ ص ٦٤ بتصرف)

وهذا الاحتياط من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزمه فى غالب غزواته فكان اذا أراد وجهة روى بغيرها الا اذا اقتضت ضرورة التحديد والابانة .

وفى غزوة الفتح نأخذ درس كتمان السر من موقف عائشة مع أبيها أبى بكر رضى الله عنهما حين سألها عن وجهة النبى ـ صلى الله عليه وسلم . فلم يعرف منها أى شىء . مما يدل على أهمية السر حتى عن أقرب الناس للانسان . سواء كان والدا أو ولدا أو زوجا .

(امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٦١ بتصرف)

عن أنس رضى الله عنه . قال : « أتى على رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وأنا ألعب مع الغلمان . قال : فسلم علينا . فبعثنى الى حاجة فأبطأت على أمى . فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ قلت : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لحاجة . قالت : ما حاجته ؟ قلت : انها سر . قالت:

لا تحدث بسر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أحدا » .

(صحيح مسلم جـ ٧ ص ١٦٠)

فالسر أمانة وافشاؤه خيانة ، ولقد فهم سلفنا الصالح الحكمة من وراء هذا الخلق وطبقوه ، يروى أن معاوية رضى الله عنه ، أسر الى الوليد بن عتبة حديثا فقال لأبنه : يا أبت ، ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا وما أراه يطوى عنك ما بسطه الى غيرك، قال : فلا تحدثنى به ، فان من كتم سره ، كان الخيار له ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال : فقلت : يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه فقال : لا والله يابنى ، ولكن أحببت ألا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال : يا وليد ، أعتقك أبوك من رق الخطأ فافشاء السر خيانة وهو حرام اذا كان فيه اضرار ، ولؤم اذا لم يكن فيه اضرار » .

(احياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٢٩)

والذى يجب أن نأخذه من هذه الدروس الغالية والعظات البالغة هو حرصنا على تنمية هذا الخلق فى نفوسنا ونفوس أبنائنا وشبابنا فان لأمتنا أسرارها الحربية والسياسية والاقتصادية والعلمية وكلها أمانات لابد من الوفاء بحقها ، وفى افشاء أسرارها خطر عظيم على الأفراد وعلى المجتمعات، فليتق الله المسلم فى قوله وليرحم من لسانه نفسه ومجتمعه وأمته وليحذر الكلمة منطوقة أو مكتوبة فان لها أثرها فى الفرد والجماعة والأمة ، الأمر الذى يجعل الانسان يزن منطقه بميزان عقله ودينه قبل الخوض فى الحديث حتى لا يتورط فيما يضره أو يضر بأمته ، ورب كلمة أثارت شرا مستطيرا وقضت على أمجاد بذل فيها من الجهد والعرق والدم الكثير ، وان المرجفين بالقول زورا وبهتانا مطرودون من رحمة الله وليسوا أهلا لمراعاة حرماتهم أو الحفاظ على حقوقهم « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . (النور : ٦٣)

العنصر الخامس .. موالاة الأعداء خيانة

الأدلة من الكتاب :

ان من أهم الأمور التى يجب أن يعيها الناس ويلتزموها ويأخذوا أنفسهم بها حفظ الواجبات العامة للأمة ورعاية ما يربطهم بها من حرمات وذمم . وخاصة ما يتصل منها بقضاياها العامة وأسرارها الخاصة . وعلائقها بغيرها من الأمم والدول .

فذلك كله أمانة واجبة الحفظ والرعاية فى أعناق الأفراد تحرم خيانتها أو التفريط فيها .

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » . (سورة الممتحنة آية : ١)

قال القرطبى فى تفسيره :

روى الأئمة ــ واللفظ لمسلم ــ عن على رضى الله عنه قال : بعثنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنا والزبير والمقداد . فقال :« ائتوا روضة خاخ(١) فان بها ظعينة (٢) معها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا تعادى(٣) بنا خيلنا فاذا نحن بالمرأة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب . فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاذا فيه :

من خاطب بن أبى بلتعة .. الى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله ــ صلى

(١) موضع بين مكة والمدينة على اثنى عشر ميلا من المدينة .
(٢) الظعينة : هى المرأة فى الهودج . ولا يقال ظعينة الا وهى كذلك .
(٣) أى تجرى .

الله عليه وسلم : « يا حاطب ما هذا ؟ قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، اني كنت امرأً ملصقاً في قريش — قال سفيان : كان حليفاً لهم ولم يكن من أنفسها — وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم • فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي • ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام • فقال النبي — صلى الله عليه وسلم : (صدق) فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق • فقال : (انه قد شهد بدرا • وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم• فأنزل الله عز وجل : «ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » • (الجامع لأحكام القرآن • للقرطبي جـ ١٨ ص ٥٠)

وفى رواية أخرى لابن أبي حاتم • عن علي :

فقال عمر فقال : يا رسول الله • خان الله ورسوله فائذن لي فلأحزب عنقه • فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : (أليس قد شهد بدرا ؟) قالوا : بلى ، قال عمر : بلى ، ولكنه قد نكث ، وظاهر أعداءك عليك • فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : (فلعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإني بما تعملون بصير •

(تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٦)

وقال المراغي في تفسيره :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » أي لاتجعلوا الكفار أنصاراً وأعواناً لكم • ثم فسر هذه الموالاة فقال :

« تلقون اليهم بالمودة » أي تبلغونهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم التي لا ينبغى لأعدائه أن يطلعوا عليها من خطط حربية أو أعمال نافعة فى نشر دينه وبث دعوته بسبب ما بينكم وبينهم من مودة •

ثم ذكر أن ممايمنع هذا الاتخاذ أمرين :

١ — « وقد كفروا بما جاءكم من الحق » أي وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذي أنزله عليكم • فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصاراً وتسرون

اليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم ويعوق لشر دعوتكم .

٢ — « يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » أى يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد واخلاص العبادة لله وحده ولم يكن لهم جريرة ولاجرم سوى ذلك .

ونحو الآية قوله : « وما نقمـوا منهم الا أن يؤمنـوا بالله العزيز الحميـد » وقوله : « الذين أخرجوامن ديارهم بغير حـق الا أن يقولوا ربنا الله » .

وفى هذا تهييج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم . ثم زادهم تهييجا بقوله : « ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى » أى ان كنتم خرجتم مجاهدين فى سـبيلى باغين مرضـاتى عنكم . فلا تولوا أعدائى وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم حنقا عليكم وسخطا لدينكم .

ثم توعد من يفعل ذلك وشدد النكير عليه وذكر ما فيه أعظم الزجرله فقال : « ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السـبيل » أى ومن يفعل هذه الموالاة ويبلغ أخبار الرسول — صلى الله عليه وسلم لأعدائه . فقد جار عن قصد الطريق التى توصل الى الجنة ورضوان الله تعالى » .

(تفسير المراغى جـ ٢٨ ص ٦٢ ، ٦٣)

وقال صاحب التفسير الواضح :

« يأيها الذين اتصفتم بالايمان . لايليق بكم لأجل هذا الوصف أن تتخذوا عدو الله وعدوكم أولياء وأصدقاء ولو فى الظاهر . لا عن عقيدة وايمان . لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء حالة كونكم تلقون اليهم بالمودة وتسرون اليهم بها كما فعل أخوكم حاطب بن أبى بلتعة عن حسن نية .

لا تتخذوهم أولياء والحال أنهم كفروا بما جاءكم من الحق والقرآن . فأنتم مؤمنون به مصدقون له . وهم كافرون فبينكم عداوة شـديدة فى العقيدة فكيف تلتقون ؟ هم كفروا بالله ورسوله . والحال أنهم يخرجون الرسول واياكم من دياركم وأموالكم وأوطانكم لا لشىء أبدا الا لأنكم تؤمنون بالله ربكم عجبا . كيف تجعلونهم أولياء وتسرون اليهم بالمودة ؟!!

ان كنتم خرجتم للجهاد فى سـبيل الله وابتغاء مرضاته فلا تتخذوهم أولياء أى لا تتولوا أعدائى ان كنتم أوليائى .

كيف تلقون اليهم بالمودة تسرون اليهم بأخبار الرسـول سرا . وأنا أعلم السر وأخفى ، نعم الله يعلم ما أخفيتم وما أعلنتم . ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل وأخطأ طريق الهدى والحق .

(التفسير الواضح جـ ٢٨ ص ٢٦ ، ٢٧)

الأدلة من السـنة :

ان المسلمين جميعا أعضاء فى جسد واحد يجمعهم دين واحد ويضمهم وجدان واحد ويعيشون جميعا قضايا واحدة أو هكذا يجب أن يكونوا .

لذا ينبغى أن يكونوا تجاه عدوهم جبهة واحدة متحدة بعيـدة كل البعـد عن الثغرات التى تؤدى الى خلل الصـفوف وضـعف العزيمة . أسرارهم مأمونة ومعلوماتهم مصونة لا يطلع عليها عدو ولا يعرفها خصـم والا كان هذا خيانة للأمة . ليس بعدها خيانة .

١ ـ عن أبى هريرة . عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم . فمن أخفر (١) مسـلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه يوم القيامة عـدلا ولا صرفا (٢) » رواه أحمد وغيره .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٩ ص ٢٣٣)

٢ ـ وعن عطية بن سعد . قال : جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث ابن الخزرج الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسـول الله ان لى موالى من يهود كثير عددهم . وانى أبرأ الى الله ورسوله من ولاية يهود . وأتولى الله ورسوله .

فقال عبد الله بن أبى . انى رجل أخاف الدوائر . لا أبرأ من ولاية موالى .

---

(١) أخفر مسلما : نقض زمامه وعهده .

(٢) فرضا ولا نفلا ولا توبة .

فقال رسـول الله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ لعبد الله بن أبى : « يا أبا الحباب : ما بخلت به من ولاية يهـود على عبادة بن الصـامت • فهولك دونه » قال : قد قبلت • فأنزل الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء •• » رواه ابن جرير •
(تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٨ ، ٦٩)

٣ ــ وعن ابن عمر رضى الله عنهما • قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : عند حجرة عائشة • رضى الله عنها • يقول : « ينصـب لكل غادر لواء يوم القيامة ولا غدرة أعظم من غدرة امام عامة » •
رواه أحمد وغيره (الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٩ ص٢٣٣)

العنصر السادس •• أثر الخيانة على الفرد والمجتمع

من معانى خلافة الانسان فى الأرض أن يفقه أن الحياة حقوق وواجبات متبادلة فبنفس القدر الذى يحس الانسـان فيه بحقوقه يجب أن يشـعر أيضا بواجباته حتى تستقيم الحياة للجميع ونسـيان الواجب والمغالاة فى ادعاء الحقوق يشيع روح الخيانة ويقضى على الأمن والطمأنينة • والخيانة حين يعتادها الانسان تضعف ايمانه وحينئذ لا يكون الانسان الا شريرا شرها متكالبا على متاع الحياة غير عابىء بقيمها ولا بحقـوق الآخرين • وهذا الصنف من الناس يبغضه الله ويكله الى نفسه وبكثرة هذا الصنف تتكاثر الأزمات وتصير الحياة بلاء وفى ظل هذا تتقطع الأواصر وتشـيع روح العداء • وهذا سر عظمة الاسلام حين يجعل الأمانة قرينة الايمان وشعار المسلمين •

(أ) ضعف الايمان :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : لا ايمان لمن لا أمانة له ولا صـلاة لمن لا طهور له •• الحديث •
رواه الطبرانى (الترغيب والترهيب جـ ٤ ص٥)

وعن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : حدثنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم : أن الامانه نزلت فى جذر (١) قلوب الرجال • ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل اثرها من أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه مشبرا وليس فيه شيء ثم أخذ حصـاة فدحرجها على رجله فيصـبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال ان فى بنى فلان رجلا أمينا ، ثم قال :

حتى يقال للرجل ما أظرفه ما أغفله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان • رواه مسلم وغيره • أ هـ (الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٤)

قال فى دليل الفالحين •

قال صاحب التحرير :

معنى ألحديث • أن الأمانة تزول عن القلوب شـيئا فشـيئا (بفعل المعاصى واعتيادها) فاذا زال أول جزء منها زال نوره وخلفه ظلمة كالوكت « وهو اعراض لون مخالف للون الذى قبـله فاذا زال شيء آخر صـار كالمجل « التنفرح » وهو أثر محكم لا يكاد يزول الا بعد مدة وهذه الظلمة فوق التى قبلها ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه فى القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة اياه شبه ذلك بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى النفط وأخذه الحصـاة ودحرجته اياها أراد به زيادة البيان والايضاح والله أعلم : (دليل الفالحين جـ ٢ ص ٣٠٤)

(ب) بغض الله :

قال الله تعالى :

(ولا تجادل عن الذين يختانـون أنفسـهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما) (سورة النساء الآية ١٠٦)

---

(١) أصل قلوب الرجال • (٢) مرتفعا •

قال صاحب تفسير المنار :

يختانون أنفسهم . أي يخونونها بل يتعملون ويتكلفون ما يخالف الفطرة من الخيانة التى تعود على انفسهم بالضرر . قال الاستاذ الامام ان هؤلاء الخائنين يوجدون فى كل زمان ومكان . وهذا النهى « أى النهى عن الدفاع عن الخائنين » لم يكن موجها الى النبى صلى الله عليه وسلم خاصة وانما هو تشريع وجه الى المكلفين كافة . وقد جعله بصيغة الخطاب له « للنبى صلى الله عليه وسلم » وهو أعدل الناس وأكملهم مبالغة فى التحذير من هذه الخلة المعهودة من الحكام وهى الميل مع الخائنين والدفاع عنهم لأسباب بعيدة عن موضوع القضية » (ان الله لا يحب من كان خوانا آثيما) اى لا يحب الله من اعتاد الخيانة وألف الاثم فلم يعد ينفر منه ولا يخاف العقاب الا لهى عليه فيراقبه فيه ، وانما يحب الله أهل الأمانة والاستقامة . أ . هـ

(تفسير المنار جـ ٥ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨)

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا ، فاستوفى منه العمل ، ولم يوفه أجره . رواه البخارى .

(الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٠)

(جـ) البلاء فى الدنيا :

عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة فقد حل بها البلاء . قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : اذا كان المغنم دولا . واذا كانت الأمانة مغنما . والزكاة مغرما . وأطاع الرجل زوجته وعق أمه . وبر صديقه وجفا أباه . وارتفعت الأصوات فى المساجد . وكان زعيم القوم أرذلهم . وأكرم الرجل مخافة شره . وشربت الخمر ولبس الحرير . واتخذت القينات والمعازف . ولعن

آخر هـذه الأمة أولها • فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء أو خسفا أو مسخا • رواه الترمذى • (الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٥)

(د) اشاعة البغضاء بين الناس :

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الله عز وجل اذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء • فاذا نزع منه الحياء لم تلقه الا مقيتا ممقتا • فاذا لم تلقه الا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة فاذا نزعت منه الأمانة لم تلقه الا خائنا مخونا فاذا لم تلقه الا خائنا مخونا نزعت منه الرحمة • فاذا نزعت منه الرحمة لم تلقه الا رجيما ملعنا • فاذا لم تلقه الا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة الاسلام •
(سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ٥٠١)

وعن بريدة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما نقض قوم العهد الا كان القتل بينهم ولا ظهرت الفاحشة فى قوم الا سلط الله عليهم عدوهم ولا منع قوم الزكاة الا حبس عنهم القطر • رواه الحاكم •
(الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١١)

العنصر السابع •• جزاء الامناء فى الآخرة

ان الأمانة من أعظم السمات التى تصف أصحابها المؤمنين فى عداد الأتقياء الأصفياء الذين يحرزون عن الدنيا وكرامة الآخرة بل ان الأمة المؤمنة التى تشيع فيها فضيلة الأمانة ويتحلى بها أفرادها هى الأمة الوارثة التى يورثها الله الشرف الأعظم ويمنحها الجزاء الأوفى من النعيم والخلود والرضا والرضوان فى الدار الآخرة •

قال تعالى ••

(•• والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون • والذين هم على صلواتهم يحافظون • أولئك هم الوارثون • الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) • (الآيات من ٨ : ١١ سورة المؤمنون)

قال المراغى :

لما كان الجزاء فى الآخرة نتيجة للعمل فى الدنيا وما فيها من نعيم حصاد لما زرع فيها رتب على تلك الصفات المتقدمة ومنها الأمانه قوله تعالى (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) أى اولئك المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يتبوأوا ارفع مراتب الجنات كفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة والآداب العالية ويبقون خالدين فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون وقصارى ما سلف ــ ان فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر العظيمة الأثر فى حياته الروحية وكمالاته النفسية .

روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل فأنزل عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فاستقبل القبلة فقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا . ثم قال . لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر) .

(المراغى جـ ١٨ ص ٧ بتصرف)

وقال صاحب التفسير الواضح فى الآيات المتقدمة :

.. أولئك البعيدون فى درجات الكمال المتصفون بهذه الصفات ومنها « الأمانة » التى تثبت الايمان فى قلب المؤمن والتى تغرس فى قلبه حب الدين والخوف من الله والتى تنتج لنا المؤمن الكامل المؤمن القوى المؤمن العامل فى جيش الاسلام فهذه صفات تبنى الفرد وهناك صفات أخر للمؤمنين كجماعة من الجماعات (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة . الآية)

أولئك هم الأحقاء بأن يأخذوا الجنة ويستحقوا الفردوس استحقاق الوارث فى مال مورثه جزاء ما عملوا ونتيجة لما قدموا وهم فيها خالدون .

(وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) .
(التفسير الواضح جـ ١٨ ص ٥ ، ٦ بتصرف)

وقال تعالى :

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعــون . والذين هم بشــهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون.أولئك في جنات مكرمون)
(الآيات من ٣٢ : ٣٥ سورة المعارج)

قال المراغي :

.. لقد وعد الله هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف ومنها الأمانة وعدهم بحسن المآل فقال (أولئك في جنات مكرمون) أي هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال في بســاتين يكرمون فيها بأنواع الملذات والمسرات . والى ذلك أشار الحديث « فيها مالا عين رأت ولا أذن ســمعت ولا خطر على قلب بشر » .
(المراغي جـ ٢٨ ص ٧٣)

الأدلة من الســنة :

ان الأمانة لها أثر كبير في حياة الفرد والأمة في الدنيا وفي الآخرة حيث تقود الانسان في دنياه الى حياة مثالية راشدة وفى أخراه الى جنــة الله ونعيمه وحسن رضوانه وواسع رحمته .

ولقد أفصح رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في حديثه عن هذا مبينا أن الأمانة من أهم العناصر التي تصل الانسان بفضل الله وثوابه :

عن عبادة بن الصــامت رضي الله عنه : أن النبى ــ صلى الله عليــه وسلم . قال : « اضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة : اصدقوا اذا حدثتم . وأوفوا اذا وعدتم،وأدوا اذا ائتمنتم واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم » . رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقي .
(الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣)



وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفني



العدد ١٦٠ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

١٦ من محرم سنة ١٣٩٦ هـ ١٧ من يناير سنة ١٩٧٦ م

العدل وأثره في حياة الأمة (أ)

المقدمة :

تعريف العدل

العناصر :

العنصر الأول : دعوة الإسلام إلى العدل

العنصر الثاني : أعدل الشرائع شريعة الله

أ ـ أنها حق
ب ـ ثباتها وعدم تغيرها
جـ ـ وسطيتها
د ـ شمولها ومرونتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • والصلاة والسـلام على أشرف المرسـلين • سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

وبعـد ••

فان الاسلام هو دواء الانسانية وشفاؤها وطبها الذي يقيها من أدوائها ويبرئها من عللها •

وهو هداها الذي يعيد اليها صـوابها ويرد اليها رشـادها ويمنحها طمأنينتها وسلامها •

وهو الطهر الذي يغسلها من أدرانها ويعيد اليها ضياء انسانيتها وصفاء فطرتها حيث لا انحراف ولا ظلم ولا طمـع ولا شره ولا افراط في حـق ولا تفريط في واجب •

وهو المنهج الذي يصقل في المسلمين وجدانهم ويضبط فيهم سلوكهم ويعدل فيهم ميولهم وغرائزهم •

لقد جاء الاسلام ليلبى فى الناس داعيتهم ويغطي فيهم حاجتهم ويحل لهم مشكلاتهم جاء وفي جوهره ومقاصده يسـتهدف أن يبقى على النوع الانساني ناهضاً بتبعاته التي حملها قائماً بواجباته التي أهل لها معانا عليها بحياة رشيدة وادعة آمنة مطمئنة قويمة مسـتوية على نمط رفيع لا ترى فيهـا ظلماً ولا هضما • فالعـدالة والقسـطاس والانتصـاف سـمتها وسداها ، والاستواء والاستقامة ورعاية الحقوق وأداء الواجبات هي الأمل والعمل والسبيل والهدف •

ان البشرية كلها لم تعرف دعوة الى العدل كما عرفتها من الاسـلام تستوجب التلبية وضرورة التنفيذ ليأخذ العدل في حياة المجتمع وضـعه العملي يحكم الناس على هديه ويحتكمون اليه ، يرشدون به ولا يغوون ويسعدون به ولا يشقون •

ان العدل قيمة من أبرز القيم التي لا يرقى اليهـا في مرقاها الرفيع الا الصفوة الممتازة من الناس ولا يلتزم بها ويتعامل إلا كل مجتمع فاقه رشيد مدرك لحقيقة وجوده ومقتضيات حياته وواجبات يومه وتطلعات مستقبله موقن تماماً أن العدل ماء الحياة والقطب الأصيل الذى تدور عليه أسرار البقاء والكمال للمجتمعات والأمم والشعوب .

بل ان العدل هو الجوهر الذي قامت عليه السموات والأرض ومابينهما من العـوالم والمجرات والأفلاك والأكوان ومقادير الأشـياء ومكونات الأجسام والأبعاد والأعماق وآماد الزمان والمكان كاملة تامة من غير نقص ولا خلل «وكل شىء عنده بمقدار» (١) «وخلق كل شىء فقدره تقديرا (٢)»

واذلك فالاسلام حين يدعونا الى العدل يجب أن نلوذ به ونطبقه ونلتزمه في أنفسنا وأخلاقنا وسلوكنا ومعاملاتنا وعملنا وقولنا وكل علاقاتنا وشتى شـئون حياتنا . فانما يدعونا الى سر الوجود والبقاء الآمن والى أرقى آفاق القيم والمثل والى أكمل الكمالات التي عرفتها الحياة حتى يتسـق الانسـان في ذاته بهذه القيمة وهذا الوجود وذلك الكمال مع الكون في كماله ودقته واتساقه ونظامه وتمام انضباطه . ثم حتى يتكامل الانسـان ويتسق فيغدو قريبا من الكمال المطلق لله رب العالمين .

وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الأول .

ان الاسلام هو هدية الله الى البشر ونعمته عليهم ورحمته لهم . وذلك بما احتوى من نظام يقود الناس الى كل آفاق الحق والخير ، وما اشتمل عليه من منهج يرسمه لهم ويهديهم الى عز الدنيا وكرامة الآخرة ، وماتضمن من تشريع تشرف به الحياة ويسمو به البشـر ويتكاملون وتعتدل به كفتا الميزان دون افراط ولا تفريط .

وكيف لا يكون الاسـلام كذلك وهو دين العدل المطلق الذي نزل ليرعى الحقوق ويصون الواجبات ويهدي للتي هى أقوم وكيف لا يكون كذلك وقد اتسمت شريعته بما يجعل العدالة فيها أمراً ذاتياً أصيلاً ولازماً لا ينفك عنها ولا يفارقها .

---

(١) سورة الرعد آية : ٨ (٢) سورة الفرقان آية : ٢

ان أبرز الصفات التي رسمت شريعة الاسلام لتكون أعدل الشرائع اتصافها بالحق ونبوها عن الباطل والزور والبهتان ونفورها عن الكذب والخداع والضلال ولزومها جادة الصدق وفصل الخطاب . كذلك اتصفت شريعة الاسلام بالثبات والأصالة والملاءمة لكل المقتضيات والمناسبات والأحوال والظروف التي يعيشها البشر أو تجد عليهم . ولكل البيئات والأزمنة والأمكنة التي تشملهم وتضمهم . كذلك اتسمت شريعة الاسلام بوسطية التشريع بحيث لا ترى فيها قصورا ولا تطرفاً ولا تفريطاً ولاافراطا فهي القاسم المشترك الذي يجمع في عدالته بين الحزم والعزم والرحمة والانصاف . أما الصفة التي تتصل اتصالاً مباشراً وقريباً بصلاحيته للزمان والمكان جميعا ، بل بما يصلح به الزمان والمكان والحياة والأحياء معاً . فهي شموله واحاطته وحيويته ومرونته واتساقه مع مجريات الزمن وأحداث الحياة يشع عليها من عليائه باشعاعاته الهادية دون أن تخفت أو تبيد ويحتويها جميعاً في محيطه بمبادئه الحقة وقضاياه العادلة .

ان وقائع الناس وظروفهم ومشاكلهم تجدُّ أمامه وتتلاحق فيعالجها ويجسمها وتتناهى دون أن يتناهى الاسلام أو يستوحش . انه في تفصيله ومجمله وعمومه وخصوصه لا تندُّعنه في الحياة شاردة ولا واردة إلا وله فيها مقال وعلاج تتقاصر دونها أعناق الرجال وأفكار المشرعين ، وكيف لا ، وهو تنزيل الله العزيز الحميد « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . وهذا ما بيناه فى العنصر الثانى .

ان العدل هو أمل البشرية ورجاؤها . وهدفها وغايتها . انه بلسم حياتها الذي يطب جروحها ويستنقذها من ويلاتها على مستوى الفرد والجماعة .

ولن تجد البشرية أروع من الاسلام يدعو الى العدل ويهتف به ويشرع له أوفى شريعة عرفتها الحياة .

وما أحوج المجتمع الانساني كله على الصعيد العالمي والمحلي الى أن يحتكم فى حياته وقضاياه ومشاكله الى عدالة الاسلام وما طبعت عليه من قسطاس وانصاف ، وحق وثبات ومرونة وشمول .

ان المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية وهو يتقدم الى القارىء الكريم بهذه النشرة (أ) فى موضوع (العدل وأثره فى حياة الأمة) ليسعده أن يلتقى به فى نشرة أخرى تحت هذا العنوان حتى تكون لدى القراء صورة متكاملة عن أهم معلم من معالم الاسلام الوضيئة .

لنسأل الله أن يبصرنا بديننا وأن يهيئنا الى العمل بكتابه وسنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وأن يأخذبنواصينا الى الحق والعدل والقسطاس المستقيم .والله الموفق . والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية بوزارة الاوقاف

العدل وأثره في حياة الأمة

تعريف العـــدل :

العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور ، وفي أسماء الله سبحانه « العدل » وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور والعدل الحكم بالحق ، يقال هو يقضي بالحق ويعدل وهو حكم عادل . والعدل من الناس المرضي قوله وحكمه وعدل الموازين والمكاييل ســـواها ، وعدل الشيء يعدله وازنه ، والمعتدله من النوق الحسنة المتفقه الأعضاء .

وكتب عبد الملك الى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه : ان العدل على أربعة أنحاء . العدل في الحكم ، قال الله تعالى : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » والعدل في القـــول قال تعالى : « واذا قلتم فاعدلوا » والعدل في الندية قال الله عز وجل : « ولا يقبـــل منها عدل » والعدل في الاشراك قال الله عز وجل : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون(١) .

تعريف العدل اصـــطلاحا

لقد عرف العلماء العدل فقال يحيى بن عدى : العدل : « هو القسط اللازم للاستواء وهو اســـتعمال الأمور من مواضعها وأوقاتها وجواهرها ومقاديرها في غير اسراف ولا تقصير ، ولا تقديم ولا تأخير (٢) .

وقال ابن عطية : هـــو كل مفروض من عقائد وشرائع وأداء الأمانات وترك الظلم والانصاف واعطاء الحق .

وقال ابن العربي : العدل بين العبـــد وربه ايثار حقه تعالى على حظ نفســـه وتقديم رضاه على هواه ، واجتناب الزواجر ، وامتثال الأوامر . وأما العدل بينه وبين نفســـه فمنعها مما فيـــه هلاكها : قال تعالى « ونهى النفس عن الهوى » وعزوب الأطماع عن الاتباع ، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى .

---

(١) لســـان العرب جـ ١١ ص ٤٣٠ : ٤٣٢ بتصرف ، تهـــذيب اللغة للثعالبي جـ ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٣ بتصرف .

(٢) محاضرات في الاخلاق : د : على معبد وآخرين ص ٣٧

وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قل وكثر ، والانصاف من نفسك لهم بكل وجه ولا يكون منك اساءة لأحد بقول ولا فعل لافى سر ولا فى علن والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى وأقل ذلك الانصاف وترك الأذى (١) .

قال ابن مسكويه : فالعدل على هذا يمس جميع الأعمال الارادية بلا استثناء فهو يساوى الحكمة ويكون هو الفضيلة الكلية المطلقة (٢) .

العنصر الأول :

دعوة الاسلام الى العدل :

ان البشرية لم تعرف دعوة الى العدل كما عرفتها من الاسلام فلقد دعا الله الأمة اليه وأمرها به أن تأخذه وتلتزمه وتحتكم اليه فى كل أمر من أمورها وفى شتى شئونها ومعاملاتها من الأخذ والعطاء والبيع والشراء والكيل والميزان ، والقول والعمل بحيث يصبح المؤمن فى كل أموره عدل الله وقسطاسه المستقيم .

قال تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (النحل : ٩٠)

قال القرطبى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » روى عن عثمان بن مظعون أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتها على على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فتعجب فقال : يا آل غالب اتبعوه تفلحوا ، فوالله ان الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق ، وفى حديث أن أبا طالب لما قيل له : ان ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية قال : اتبعوا ابن أخى فوالله انه لا يأمر الا بمحاسن الأخلاق .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٦٦

(٢) محاضرات فى الاخلاق : د : على معبد وآخرين ص ٣٧

وقال عكرمة : قرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » الى آخرها فقال يابن أخي اعد !فاعاد عليه ، فقال : والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان اصله لمورق واعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر ، وذكر الغزنوى أن عثمان بن مظعون هو القارىء قال عثمان ما اسلمت ابتداء الا حياء من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلت هذه الاية وانا عنده فاستقر الايمان فى قلبى فقراتها على الوليد بن المغيرة فقال يا ابن آخي أعد ! فاعدت فقال والله ان له لحلاوة .. وذكر تمام الخبر وقال ابن مسعود . هذه أجمع آية لخير يمتثل وشر يجتنب . (تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٦٥)

وقال المراغى فى تفسيره :

« آخرج البيهقى فى شعب الايمان عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ أنه قرأهذه الايه « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية ثم قال : ان الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة فوالله ما ترك العدل والاحسان من طاعه الله شيئا الا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا الا جمعه : قال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة عن على بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال : « بلغ أكثم بن صيفى فخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا أنت كبيرنا ، لم تكن لتخف اليه قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، قال ثم تلا عليهم : «ان الله يأمر بالعدل والاحسان» الآية قالوا ردد علينا القول فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا أبى أن يرفع نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا فى مضر وقد رمى الينا بكلمات سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : انى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا أذنابا وكونوا فيه أولا ولا تكونوا آخرا » .

ومعنى قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل » ان الله يأمر فى هذا الكتاب الذى أنزله اليك أيها الرسول بالعدل والانصاف ، ولا تصفه أجمل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه ، والشكر له على افضاله وحمده ، وهو أهل للحمد ، ومنع ذلك عمن ليس له بأهل ، فالأوثان والأصنام لا تستحق شيئا منه ، فمن الجهل عبادتها وحمدها وهى لا تنعم فتشكر ولا تنفع فتعبد ، ومن ثم وجب أن تشهد أن لا اله الا الله وحده .

أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : دعانى عمر ابن عبد العزيز فقال : صف لى العدل : فقلت : بخ سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أبا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسامهم ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتكون من العادين .

وأخرج البخارى فى تاريخه عن على بن أبى طالب أنه مر بقوم يتحدثون فقال : فيم أنتم ؟ فقالوا نتذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك فى كتابه اذ يقول : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » فالعدل الانصاف والاحسان التفضل فما بقى بعد هذا ؟

« وايتاء ذى القربى » أى واعطائهم ما تدعو اليه الحاجة وفى الآية ارشاد الى صلة الأقارب والأرحام ، وترغيب فى التصدق عليهم . وبعد أن ذكر الثلاثة التى أمر بها أتبعها بالثلاثة التى نهى عنها فقال :

« وينهى عن الفحشاء » وهى الغلو والميل الى القوة الشهوانية كالزنا وشرب الخمر والسرقة والطمع فى مال الناس .

« والمنكر » هو ما تنكره العقول من المساوى الناشئة من الغضب كالضرب والقتل والتطاول على الناس .

« والبغى » وهو ظلم الناس والتعدى على حقوقهم .

وخلاصة ما سلف ، ان الله يأمر بالعدل وهو أداء القدر الواجب من الخير . وبالاحسان ، وهو الزيادة فى الطاعة ، والتعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلقه ومن أشرف ذلك صلة الرحم .

وينهى عن التغالى فى تحصيل اللذات الشـهوانية التى يأباها الشرع والعقل وعن الافراط فى اتباع دواعى الغضب بايصال الشر للناس وايذائهم وتوجيه البلاء اليهم وعن التكبر على الناس والترفع عليهم ، وتصعير الحد عليهم « يعظكم لعلكم تذكرون » أى أمركم بثلاث ونهاكم عن ثلاث كى تتعظوا وتعملوا بما فيه رضاه سبحانه وتعالى . وما فيه صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم . (تفسير المراغى ج ١٤ ص ١٣١ ، ١٣٣ بتصرف)

٢ ـ وقال تعالى :

« والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . (الرحمن : ٧:٩)

قال القرطبى :

« والسماء رفعها » قرأ أبو السمال « والسماء » بالرفع على الابتداء ، والباقون بالنصب على اضمار فعل يدل عليه ما بعده « ووضع الميزان » أى العدل عن مجاهد وقتادة والسدى أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به يقال وضع الله الشريعة ووضع فلان كذا أى ألقاه ، وقيل على هذا الميزان القرآن لان فيه بيان ما يحتاج اليه ، وهو قول الحسين بن الفضل ، وقال الحسن وقتادة ـ أيضا ـ والضحاك هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل . يدل عليه قوله تعالى : « وأقيموا الوزن بالقسط » والقسط العدل ، وقيل هو الحكم ، وقيل أراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال « ألا تطغوا فى الميزان » أى لئلا تطغوا كقوله تعالى « يبين الله لكم أن تضلوا » أى لئلا تضلوا ، والطغيان مجاوزة الحد ، فمن قال الميزان العدل قال طغيانه الجور ، ومن قال انه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس . قال ابن عباس لا تخونوا من وزنتم له ، وعنه أنه قال : ما معشر الموالى وليتم أمرين بهما هلك الناس المكيال والميزان ومن قال انه الحكم قال طغيانه التحريف .

« وأقيموا الوزن بالقسط » أى افعلوه مستقيما بالعدل ، وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل ، وقال ابن عيينة الاقامة باليد والقسط بالقلب ، وقيل هو كقولك أقام الصلاة أى أتى بها فى وقتها . وأقام الناس أسواقهم أى أتوها لوقتها أى لا تدعو التعامل بالوزن بالعدل .

« ولا تخسروا الميزان » ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن قال قتادة فى هذه الآية : اعدل يابن آدم كما تحب أن يعدل لك ، وأوف كما تحب أن يوفى لك فان العدل صلاح الناس .

(تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٥٤ ، ١٥٥ بتصرف)

وقال ابن كثير :

« والسماء رفعها ووضع الميزان » يعنى العدل كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » وهكذا قال ههنا « ألا تطغوا فى الميزان » أى خلق السموات والأرض بالحق والعدل ولهذا قال : « وأقيموا الوزن بالقسط » كما قال تعالى : « وزنوا بالقسطاس المستقيم » . (تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٠)

وقال المراغى :

« والسماء رفعها ووضع الميزان » أى جعل العالم العلوى رفيع القدر اذ هو مبتدأ أحكامه ، ومتنزل أوامره ونواهيه لعباده وسكن ملائكه الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه ، وجعل نظم العالم الأرضى تسير على نهج العدل ، فعدل فى الاعتقاد كالتوحيد الذى هو وسط بين انكار الاله والشرك به ، وعدل فى العبادات والفضائل والآداب ، وعدل بين القوى الروحية والبدنية فأمر عباده بتزكية نفوسهم وأباح كثيرا من الطيبات لحفظ البدن ونهى عن الغلو فى الدين والاسراف فى حب الدنيا وهكذا ترى أن عدله شامل لكل ما فى هذا العالم لا يغادر الصغير ولا الكبير منه .

« ألا تطغوا فى الميزان » أى فعل ذلك لئلا تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغى من العدل والنصفة وجرى الأمور وفق ما وضع لكم من سنن الميزان فى كل أمر فترقى شئونكم ، وتنتظم أعمالكم وأخلاقكم .

ثم أكد هذا بقوله : « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » أى وقوموا وزنكم بالعدل ولا تنقصوه شيئا ، وفيه اشارة الى مراعاة ذلك فى جميع أعمال الانسان وأقواله .

والتكرير للتوصية به وتأكيد الأمر باستعماله والحث عليه وقد أمر سبحانه أولا بالتسوية ثم نهى عن الطغيان الذى هو مجاوزة الحد ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس .

(تفسير المراغى جـ ٢٧ ص ١٠٧ ، ١٠٨)

قال تعالى : (... واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) (الأنعام : ١٥٣)

قال الطبرى فى تفسيره : (يقول تعالى ذكره « واذا قلتم فاعدلوا » أى اذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم واعدلوا وانصفوا ولا تجوروا ولو كان الذى يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم ولا يحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم اليكم فيه « وبعهد الله أوفوا » يقول وبوصية الله التى أو صاكم بها فأوفوا وايفاء ذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم — وذلك هو الوفاء بعهد الله — وأما قوله « ذلكم وصاكم به » يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم — قل للعادلين بالله الأوثان والاصنام من قومك هذه الأمور التى ذكرت لكم فى هاتين الآيتين هى الأشياء التى عهد الينا ربنا ووصاكم بها ربكم وأمركم بالعمل بها لا بالبحائر والسوائب والوصائل والحام وقتل الأولاد ووأد البنات واتباع خطوات الشيطان « لعلكم تذكرون » يقول أمركم بهذه الأمور التى أمركم بها فى هاتين الآيتين ووصاكم بها وعهد اليكم فيها لتتذكروا عواقب أمركم وخطأ ما أنتم عليه

مقيمون فتنزجروا عنها وترتدعوا وتنيبوا الى طاعة ربكم وكان ابن عباس يقول هذه الآيات هن الآيات المحكمات •

(تفسير الطبرى جـ ٨ ص ٦٣ ، ٦٤)

وقال المراغى فى تفسيره : (•• واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) أى وعليكم أن تعدلوا فى القول اذا قلتم قولا فى شهادة أو حكما على أحد • ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة فيكم اذ بالعدل تصلح شئون الأمم والأفراد • فهو ركن ركين فى العمران وأساس فى الأمور الاجتماعية. فلا يحل لمؤمن أن يحابى فيه أحدا لقرابة ولا غيرها فالعدل كما يكون فى الأفعال كالوزن والكيل يكون فى الأقوال • ونحو الآية قوله « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » وقوله « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » « وبعهد الله أوفوا » أى وأوفوا بعهد الله وهذا شامل لما يأتى :

(أ) ما عهده الله تعالى الى الناس على ألسنة الرسل •

(ب) ما آتاهم من العقل والوجدان والفطرة السليمة كما قال « ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان » وقال « ولقد عهدنا الى آدم من قبل » •

(جـ) ما عاهده الناس عليه كما قال « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » وقال « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » •

(د) ما عاهد الناس عليه بعضهم بعضا كما قال فى وصف المؤمنين « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » فمن آمن برسول من رسله فقد عاهد الله حين الايمان به أن يمتثل أمره ونهيه وما شرعه للناس ووصاهم به فهو مما عهده اليهم . وما التزمه الانسان من عمل البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد عليه ربه كما قال تعالى ناعيا على المنافقين سوء فعلهم (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به) وكذلك من عاهد السلطان وبايعه على الطاعة فى المعروف أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع وجب عليه الوفاء اذا لم

يكن من قبيل المعصية . روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب . واذا وعد أخلف . واذا عاهد غدر . واذا خاصم فجر .

«ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون» التذكر يطلق حينا على تكلف ذكر الشىء فى القلب أو التدرج فيه بفعله المرة اثر الأخرى . وحينا على الاتعاظ والتدبر كما قال تعالى « وما يتذكر الا من ينيب » وقال « سيذكر من يخشى » .

والخلاصة — ان ذلك الذى تلوته عليكم من الأوامر والنواهى وصاكم الله به رجاء أن يذكره بعضكم لبعض فى التعليم والتواصى الذى أمر الله به فى مثل قوله « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » لما فيه من مصالح ومنافع كتدارك النسيان والغفلة من كثرة الشواغل الدنيوية أو رجاء أن يتعظ به من سمعه أو قرأه .   (تفسير المراغى جـ ٨ ص ٧١ ، ٧٢)

وقال صاحب التفسير الواضح فى قوله تعالى : (.. واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) أى فاعدلوا فى القول ولا تتجاوزوا منه الحد المقبول مشرعا . ولو كان الذى تقولون فيه من ذوى القربى . اذ بالعدل تبنى أسس الدولة . وتصلح شئون الأمم والأفراد فهو ركن العمران وأساس النجاح « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

« وبعهد الله أوفوا » أى وأوفوا بعهد الله اذا تعاهدتم سواء أكان عهدا بين الله والناس على ألسنة الرسل فى الكتب المنزلة . أو بين الناس وبعضهم « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » « ألم أعهد اليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان » ذلكم وصاكم الله به لعلكم تذكرون » وتتعظون . أى رجاء أن يذكره بعضكم لبعض فى التعليم والتواصى الذى أمر الله به »   (التفسير الواضح جـ ٨ ص ٢٨)

الأدلة من السنة :

ان العدالة من أفضل الأمور التى أتانا بها الاسلام فأمرنا بها ورغبنا فيها . والعدل من أبرز القيم التى اتصفت بها الأنبياء ومن لف لفهم ودار فى فلكهم ولم تبلغ فضيلة من الفضائل مثل ما بلغه العدل حين يطبق قربى لله وزكاة للنفس وبرا بالأمة ومعية من الله وتأييدا منه لكل من يلتزمونه ويحتكمون اليه .

١ — عن أنس رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم . « اذا حكمتم فاعدلوا واذا قلتم فأحسنوا ان الله يحب المحسنين » رواه الطبرانى فى الأوسط . (الجامع الصغير جـ ١ ص ٣٨)

٢ — وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم . « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود : العدل فى الغضب والرضا والقصد فى الفقر والغنى وخشية الله فى السر والعلانية » رواه الحاكم . (المصدر السابق جـ ١ ص ٣٨)

٣ — وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « يوم من امام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحا » . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط . (الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤٥٥)

٤ — وعن ابن أبى أوفى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « ان الله مع القاضى ما لم يجر ، فاذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان » رواه الترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم .
(المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٥٥)

العنصر الثانى : أعدل الشرائع شريعة الله .

لقد عرفت الانسانية كثيرا من القوانين والشرائع التى احتكم اليها الناس فى القديم وفى الحديث ، ولكنها جميعا جاءت دون ما يتطلعون اليه من قسطاس وعدالة .

أما الاسلام فانه دين جاء فى أعلى ما يرتقب البشر من العدل والانصاف وذلك بفضل ما اتسم من سمات الحق ومميزاته والذى تكرر نزوله وتدرج حتى وصل الى القمة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

(أ) انها حق :

قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز » (الحديد : ٢٥)

قال ابن كثير :

يقول تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » أى بالمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات . « وأنزلنا معهم الكتاب » وهو النقل الصدق « والميزان » وهو العدل قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ، وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة كما قال تعالى: « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شـاهد منه » وقال تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وقال تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان » ولهذا قال فى هذه الآية « ليقوم الناس بالقسط » أى بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به ، فان الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حـق كما قال : « وتمت كلمة ربك صـدقا وعدلا » أى صـدقا فى الاخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ولهذا يقول المؤمنـون ، اذا تبـوأوا غرف الجنات ، والمنـازل العاليـات ، والسرر المصفوفات « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسـل ربنا بالحق » وقوله تعالى « وأنزلنا الحديد فيه بأس شـديد » أى وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ولهذا أقام رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سـنة توحى اليه السـور المكيـة ، وكلها جدال مع المشركين وبيان ايضاح التوحيد ، وبينات ودلالات فلما قامت الحجة على من خالف . شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب ، والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده .

« وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » أى من نيته فى حمل السلاح نصرة الله ورسوله « ان الله قوى عزيز » أى هو قوى عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه الى الناس وانما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض » (تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٤ ، ص ٣١٥ بتصرف)

وقال القاسمى فى تفسير قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » فان قيل الجمل المتعاطفة لا بد فيها من المناسبة ، وأين هى فى انزال الحديد مع ما قبله ؟ فالجواب أن بينهما مناسبة تامة لأن المقصود ذكر ما يتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا حتى ينالوا السعادة فى الأخرى ، ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين ، بالكتب والشرائع المطهرة ، ومن أطاعهم وقلدهم من العامة ينتظم أمره باجراء قوانين الشرع العادلة بينهم ومن تمرد وطغاوقسا يضرب بالحديد ، الراد لكل مريد . والى الأولين أشار بقوله « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان » فجمعهم وأتباعهم فى جمله واحدة. والى الثالث أشار بقوله : «وأنزلنا الحديد » فكأنه قال أنزلنا مايهتدى به الخواص ، وما يهتدى به أتباعهم ، وما يهتدى به من لم يتبعهم ، فهى حينئذمعطوفة لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، اذ لاداعى له وليس فى الكلام ما يقتضيه بل فيه ما ينافيه .

قال العنبى فى تاريخه : كان يختلج فى صدرى أن فى الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافرا ، وسألت عنه فلم أحصل على مايزيح العلة وينقع الغلة حتى أعملت التفكر فوجدت الكتاب قانون الشريعة ،ودستور الأحكام الدينية يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادى والتظالم، ودفع التباغى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم الابهذه الآلة فلهذا جمع «الكتاب والميزان» وانما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف وجذوة عقابه وعذب عذابه وهو الحديد الذى وصفه الله بالبأس الشديد فجمع بالقول الوجيز معانى كثيرة .

وقال الغاشانى :«البينات » المعارف والحكم ،« والكتـاب »الكتابة

«والميزان» العدل لأنه آلته « والحديد» السيف لأنه مادته قال وهى الأمور التى يتم بها الكمال النوعى ، وينضبط النظام المؤدى الى صلاح المعاش والمعاد اذ الأصل المعتبر ، والمبدأ الأول هو العلم والحكمة ، والأصل المعول عليـه فى العمل والاستقامة فى طريق الكمـال هو العدل ..ثم لاينضبط النظام ولا يتمشى صـلاح الكل الا بالسـيف والقلم الذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع وصلاح الجمهور .

تفسير القاسمى جـ ١٦ ص ٥٦٩٣ ، ٥٦٩٤)

قال تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدرك لعل الساعة قريب » (سورة الشورى : آية : ١٧)

قال القرطبى : قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب » يعنى القرآن وسائر الكتب المنزلة (بالحق) أى بالصدق . (والميزان) أى العدل قاله ابن عباس وأكثر المفسرين ، والعدل يسمى ميزانا لأن الميزان آلة الانصاف والعدل وقيل الميزان ما بين فى الكتب مما يجب على الانسان أن يعمل به وقال قتـادة : الميزان العـدل فيما أمر به ونهى عنـه وهـذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل أنه الميزان تفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس قال تعالى«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » قال مجاهد هو الذى يوزن به ومعنى أنزل الميزان هو الهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا به .

« وما يدريك لعل الساعة قريب » فلم يخبره بها ليحضه على العمل بالكتاب والعدل والسوية ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئه الموت الذى يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال فيوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف . قال الكسائى قريب نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد قال تعالى :«ان رحمة الله قريب من المحسنين» (تفسير القرطبى جـ١٦ص١٥)

وقال المراغى :

«الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان» أى الله أنزل كتبه على أنبيائه حاوية للحق الذى لا شبهة فيه بعيدة عن الباطل الذى لا خير فيه وأنزل العدل ليقض بين الناس بالانصاف ويحكم بينهم بحكمه الذى أمر به فى كتابه ونحو الآية قوله : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب

والميزان ليقوم الناس بالقسط » ثم رغب سبحانه فى الآخرة وزهد فى الدنيا فقال : « وما يدريك لعل الساعة قريب ؟ » أى شىء يعلمك لعل الساعة التى تقوم فيها القيامة تكون قد أزفت ؟ فعليك أن تتبع الكتاب وتواظب على العدل بين الناس واعمل بما أمرت به قبل أن يفجأك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى كل عامل جزاء عمله . والمراد بذلك حث المؤمنين على اتباع نهج الشرع وترك مخالفته .   (تفسير المراغى ج ٢٥ ص ٣١)

الأحاديث :

١ ـ ولقد بينت السنة المطهرة ، من عظمة الاسـلام وعدالته وألقت من الأضواء على كتاب الله وقيمته سيما فى مجال العدل وضرورة الاحتكام اليه فهو حجة الله الفاصلة التى لا تزيغ بها الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تضل به العقول .

١ ـ عن على ـ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ يقول : « ألا انها سـتكون فتنـة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضـله الله ، وهو جبل الله المتين ، وهـو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولاتلبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى تنته الجن اذا سمعته حتى أن قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم . رواه الترمذى فى صحيحه .   (تفسير بن كثير ج ١ ص ٤ فى فضائل القرآن)

الآثـار :

ان العدالة فى الاسلام لا تنطلق من فراغ ، وانما تدور فى اطار معين وتنطلق من قواعد محـدودة ومنهج معروف . تبتـدىء بكتـاب الله وما أحكمته السنة ثم محكم الأقوال لأئمة الفقه والهدى . ثم مشـورة أولى العلم والفضل .

١ ـ عن ابن وهب قال : قال لى مالك الحكم الذى يحكم به بين الناس حكمان . مافى كتاب الله أو أحكمته السنة فذلك الحكم الواجب لك الصواب . والحكم الذى يجتهد فيه العالم برأيه فلعله يوفق وثالث متكلف فما أحراه ألا يوفق .

(جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٢٧٠)

٢ ـ وقال عمر بن عبد العزيز الى عروة فى كتابه الذى أرسله اليه : كتبت الى تسألنى عن القضاء وان رأس القضاء اتباع ما فى كتاب الله ثم القضاء بسنة رسول الله ثم بحكم أئمة الهدى ثم استشاره ذوى العلم والرأى . (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٢٧٠)

(ب) ثباتها وعدم تغيرها :

ان التشريع الاسلامى يمتاز بالثبات والأصالة والصدق ، والبعد كل البعد عن الاضطراب أمام الوقائع والاهتزاز تجاه الحوادث التى تجد فى حياة الناس وكأنه فى كل حادثه تجد له ويعالجها قد نزل حكمه فيها خصيصا من أجلها .

قال تعالى : وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » (سورة الأنعام : آية : ١١٥)

وقال الفخر الرازى فى تفسيره : اعلم أن هذه الآية تدل على أن كلمة الله تعالى موضوعة بصفات كثيرة .

الصفة الأولى : كونها تامة واليها الاشارة بقوله « وتمت كلمة ربك » وفى تفسير هذا التمام وجوه (الوجه الأول) أنها كافية وافية لكونها معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام (الوجه الثانى) : أنها كافية فى بيان مايحتاج المكلفون اليه الى يوم القيامة عملا وعلما . (والثالث) أن حكم الله تعالى هو الذى حصل فى الأزل . ولا يحدث بعد ذلك شيىء . فذلك الذى حصل فى الأزل هو التمام والزيادة عليه ممتنعة . وهذا الوجه هو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن والى يوم القيامة .

الصفة الثانية : من صفات كلمة الله كونها صدقا . والدليل عليه أن الكذب نقص والنقص على الله محال .

الصفة الثالثة : من صفات كلمات الله كونها عدلا وفيه وجهان : الأول أن كل ما حصل فى القرآن نوعان ، الخبر والتكليف أما الخبر فالمراد كل ما أخبر الله عن وجوده أو عن عدمه . واما التكليف فيدخل فيه كل أمر ونهى موجه منه سبحانه على عباده واذا عرفت انحصار مباحث القرآن فى هذين القسمين فنقول قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا) ان كان من باب الخبر (وعدلا) ان كان من باب التكليف — وهذا ضبط فى غاية الحسن . الوجه الثانى .

وفى تفسير قوله (عدلا) ان كل ما أخبر الله تعالى عنه من وعد ووعيد وثواب وعقاب فهو صدق لأنه لا بد أن يكون واقعا . وهو بعد وقوعه عدل لأن أفعاله منزهة عن أن تكون موصوفة بصفة الظلمية .

الصفة الرابعة : من صفات كلمة الله قوله « لا مبدل لكلماته » وفيه وجوه : الأول أنها تامة فى كونها معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى أن هؤلاء الكفار يلقون الشبهات فى كونها دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام الا أن تلك الشبهات لا تأثير لها فى هذه الدلائل التى لا تقبل التبديل البتة لأن تلك الدلالة ظاهرة باقية جلية لا تزول بسبب تراهات الكفار وشبهات أولئك الجهال .

الوجه الثانى : أن يكون المراد أنها تبقى مصونة من التحريف والتغيير كما قال تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

والوجه الثالث : أن يكون المراد أنها مصونة عن التناقض كما قال « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

الوجه الرابع : أن يكون المراد أن أحكام الله لا تقبل التبديل والزوال لأنها أزلية والأزلى لا يزول .

(تفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ١٣ ص ١٦٠ ، ١٦٢ بتصرف)

(جـ) وسطيتها :

لقد أراد الله للأمة الاسلامية أن تكون أمة وسطا وأن يكون لها

أيضا تشريع وسط ليس فيه افراط ولا تفريط ولا خلل ولا قصور ولا غلو ولا جمود • جاء بحيث يلبى داعية الناس ويغطى حاجتهم ويحل مشاكلهم • دون مخلفات لذلك أو مشكلات •

قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم » •
(سورة البقرة آية : ١٤٣)

قال الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى تفسيره : قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » عطف على قوله سبحانه « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » أى قد هديناكم الى صراط مستقيم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » أى أمة قائمة على صراط مستقيم هو الوسط بين التقصير والغلو ، وهذا هو أعدل المناهج وأقومها حيث ان التقصير يقعد بصاحبه عن اللحاق بالركب كما أن الغلو يقطع صاحبه عن مواصلة الرحلة بعد أن يكل جهده ويفتر عزمه ، وقوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » تعليل شارح للأمة الوسط ومكانها المحمود بين الأمم فأهل هذه الأمة هم بموقفهم الوسط شهادة قائمة على على الناس جميعا اذ كان سيرهم على خط الحياة سيرا يحتمله جهد الأقوياء والضعفاء جميعا ، انه سير يحفز همة الضعيف ويشحذ عزمه على حين أنه يمسك زمام الشارد ويرد أنفاسه المبهورة •

وقوله تعالى : « ويكون الرسول عليكم شهيدا » هو الميزان يضبط الأمة الوسط ويحكم قيامها على هذا الطريق السوى حيث كان الرسول الكريم هو المثل الأمثل لأمته فهو فى الأمة الوسط شهادة قائمة عليها يأخذ بقوله وعمله خط الوسط فيها فيمسك بالضعاف أن ينزلوا عن المستوى الجامع للأمة الوسط ويهتف بالمغالين أن لايتفلتوا من خط هذه الأمة وينقطعوا عنه ، والوسط من كل شىء هو مركز الاعتدال منه ونقطة التوازن فيه • وطبيعى أن فوق الوسط منزلة أعلى منه وأنه ليس غاية

الكمال ومع هذا فانه فى مجموعة خير مما فوقه ، وأنه أثبت وأدوم وأنه أقرب الى تناول الناس ان لم يكن الناس جميعا فالأغلب الأعم منهم أن الاعتدال فى أى شىء وفى كل شىء هو مما يحتمله الناس ويقدرون على الوفاء به ويصبرون على ما يكرهون منه ، أما ما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله أكثر النفوس ولا تصبر عليه ، وقد يرتفع الانسان الى أكثر مما يحتمل فيختل توازنه ويسقط ولا تكون السلامة والعافية الا حيث الاعتدال الذى يجد الانسان فى مجاله القدرة على التحرك الى فوق والى تحت ، وهو فى تلك الحركة بحكم الوسط لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به حيث يظل بالوضع الذى هو فيه مشرفا على الأرض مستشرفا للسماء .

وقد يقول بعض القائلين : « ان الوسط لا طعم له ولا ذاتية لوجوده . انه أشبه بالخط الوهمى بين شيئين انه ليس شيئا ولا ضد شىء ، أن القسمة فى الأمور هى الشىء وما يقابله الخير والشر ، الأبيض والأسود ، الحلو والمر الجميل والقبيح اليمين والشمال . أما الوسط الذى يفصل بين هذه المتقابلات فليس الا خطا وهميا فنقول اننا لا ننكر أن الوسط ليس هو الكمال كله وأن فوق الوسط منازل كثيرة للفضل ، وأنه ليس محجورا على الناس أن يرتفعوا اليها وأن يتنافسوا فيها . ان ذلك مندوب محمود ولكن هذا شىء والتشريع العام شىء آخر . التشريع الزام لا انفكاك منه . التشريع عقد بين صاحب الشريعة وأتباع هذه الشريعة فهم مطالبون بالوفاء بما شرع لهم ، وهم ملومون مأخوذون بالعقاب اذا قصروا ، وليس الأمر كذلك فيما كان عن تطوع واختيار . اذ للانسان أن يمضيه أو يعفى نفسه منه ولا لوم عليه .

والتشريع حين يكون عاما لأمة أو للانسانية كلها تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائما على معيار يسع الناس جميعا الأقوياء والضعفاء فى جميع الأزمان والأوطان لذلك اقتضت رحمة الخالق بعباده فى دعوتهم الى الاسلام الذى أريد له أن يكون دين الانسانية يختتم رسالات السماء . اقتضت هذه الرحمة الراحمة أن تكون شريعة هذا الدين مقدرة على قدر

ما يحتمل الضعفاء لا الاقوياء . وان يكون ما فى الاقوياء من قدرة على احتمال ما فوق هذا التشريع هو فضل من فضل الله عليهم يزادون به كمالا فوق الكمال الذى بلغوه باداء ما كلفوا . فانه ما على المحسنين من سبيل . (التفسير القرآنى للقرآن للاستاذ /عبدالكريم الخطيب جـ٢ ص١٦٥ـ١٦٨)

وقال الشيخ / محمد محمد المدنى قامت الشريعه الاسلامية على رعاية الفطرة في كل ما جاءت به من أحكام سواء فى جانب العقيدة أو فى جانب المناهج والتشريعات العمليه والخلقيه ورسوم العبادات . وهذا الروح الذى يسيطر على جميع الأحكام هو الوسطية» اى الاعتدال والتوسط بين الاطراف . وهو الذى يلائم الطبيعه المزدوجة للأنسان اذ يرعى حق الجسم وحق النفس ويوائم بين مقتضيات هذا وذاك ويحفظ التوازن الذى لابد منه بينهما .

كما وصفت الأمة التى شرع لها هذا الدين الوسط بأنها أمة وسط آى معتدلة لأنها ذات المقاييس المعتدلة والمناهج المعتدلة التى جعلت لتكون هدى للناس وفضلا بينهم وذلك ما قدره القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ومعنى كون الأمة شهداء على الناس أن مقاييسها هى المقاييس الصحيحة وسننها هى السنن القويمة وذلك أن الأمم اذا اصلحت واستقامت واعتدلت كانت نموذجا لغيرها من الأمم فى افعالها وأقولها وما يعد صالحا وما يعد فسادا .

ومعنى كون الرسول شهيدا على هذه الأمة الوسط أن الله تعالى عهد اليه بهذه الشريعة فأنزل عليه كتابها وأوحى اليه بيانها وتفصيلها وجعل سننه وطريقته هى مفتاحها ومدخلها والفيصل الحاسم فيما عسى أن يكون من خلاف فى فهمها فالرسول شهيد على المؤمنين . وقوله هو الفصل فيما شجر بينهم : (فلاوربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (١) وهذا أمر منطقى لأن الرسول هو أمين الله على هذه الشريعة تبليغا وهو المكلف ببيانها وتفصيل مجملها وتطبيقها على الأنفعال والحوادث فاذا وجدنا فيها

---

(١) النساء : آية ٦٥

شيئا اختلفنا فيه ثم وجدنا للرسول صلوات الله وسلامه عليه حكما فى ذلك أو سنة سنها كان ذلك فصلا وحسما للخلاف وشهادة مرجحة للجانب الذى تدل عليه هذه السنة .

هذه هى شريعتنا السمحة فى عدالتها وتوسطها وهى تجعلنا نفهم حق الفهم معنى قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهدا على الناس» فليست هذه الوسطية الاالمنهج القويم العدل الذى يلاحظ الفطرة ويعالج الطبيعة ويرد المجتمع الى اليسر مع التماسك فيبعده عن الفساد والانحلال معالرحمة به والتخفيف عنه وان هذا لهو الصراط المستقيم الذى علم الله عباده أن ينشدوه ويطلب منه هدايتهم اليه حيث يقول فى السورة التى يقرؤها المؤمنون فى كل ركعة من ركعات صلواتهم اليومية « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين ».

فالمسلمون هم أصحاب الصراط المستقيم تعصمهم شريعتهم وكتاب ربهم أن يضلوا عنه وأن يعاندوا فيه فأن المعاندين يستحقون غضب رب العالمين والمخرفين يتعرضون للضلال المبين .

(وسطية الاسلام الشيخ محمد محمد المدنى ص ٢٠،٢١،٨٩ بتصرف)

د ـ شمولها ومرونتها

لقد اتسم الاسلام باعتباره دين الحياة وشريعته شريعة الدهر كله والاجيال كلها ـ اتسم بالاحاطة والاستيعاب والشمول لم تند عنه من حياة الناس أو مشكلاتهم أو أقضيتهم شاردة أو واردة صغيرة أو كبيرة سواء فى ذلك بداوتهم أو حضارتهم وتقدمهم مع يسر الحياة أو تعقدها ، بحيث احتوت نصوصه من صور المرونة والحيوية ما اتاح للناس بها حرية الحركة وسرعة التكيف ويسر الأداء ومنحهممن أجل ذلك عديدا من القواعد والمنطلقات فضلا عن القرآن والسنه هيأهم للاجتهاد والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف لحسم ورفع الحرج وغير ذلك .

يقول الدكتور محمد عبد الله العربى :(لما أراد الله أن يجعل من الاسلام الدعوة الخالدة الى التقدم المطرد للانسانية فقد جاءت صياغة تعاليمه على أسلوبين فى كيفية التنفيذ : تعاليم ثابتة لاتتبدل ولاتقبل التطوير

فهى ثابته هدفا وتنفيذا وتعاليم أخرى ثابتة من حيث الهدف ولكنها غير جامدة على أسلوب واحد من التنفيــذ ، بل المفروض على كل مجتمع أن يهتدى بها ويستخدم العقل ــ هبة الله للانسان ــ فى تطوير تنفيذها بمايفى بحاجات المجتمع فى زمن معين على الوجه الأكمل •

فمن الأولى تعاليم العبادات كما جلاها القرآن وفصلها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم فهذه تعاليم ثابته لاتتبدل الى يوم الســاعة ، ويلحق بها فى صفة الثبات والدوام الاحكام التى تعالج أمورا تتعلق بوجودنا الفردى أو الاجتماعى المستقل كل الاستقلال عن التأثر بالتغيير الزمنى كأحكــام الأسرة وأحكام الميراث ، وأحكام الحدود ، وكل ما حرم بنص •

ومن الثانيه التعاليم المنظمة للمجتمع وأوضاعه السياسية والاقتصادية والدوليه ،فقد جاءت هذه التعــاليم فى صيغة كلية وتوجيهات عامــة غير مفصلــة وذلــك لحكمــة مقصودة ، وهى أن التعميم الذى لاينزل الى التفصيلات الجزئية لا يفيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات بل يتركها حرة تقتبس الوضع الذى تتوافر فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان مادامت تســوده التعاليــم الكليــة بوجــه عام وينبثق عن توجيهاتها وهذه هى المرونة اللازمة التى يراد لها الخلود لتكون ملائمة لتطور حاجات البشر •

ولتوضيح هذه الحقيقــه نتأمل مايأتى : ان الدارس لعهد الخلفــاء الراشدين يرى كيف اختلفت أساليبهم فى تطبيق مقتضيات الشورى ، وهى الأمر الحاسم الذى جاء به القرآن فى صيغة كلية « وأمرهم شورى بينهم »• اختلفت أساليبهم فى تطبيق أحد مقتضيات هذه الشورى وهو اختيار رئيس الدولة ــ اختلفت بين تولية أبى بكر ثم تولية عمر ثم تولية عثمان ثم تولية على كل هذا تم فى فترة قصــيرة لا تتجاوز الثلاثين عاما وهى مع هــذا الاختلاف تتحد وتتماثل فى بلوغ الهدف ، وهو هنا تطبيــق الشورى فى اختيار رئيس الدولة •

وفى تأمين سلامة الدولة الاسلامية اختلفت أساليبهم أيضا بين حروب داخلية فى قمع الفتنه ، ثم حروب لتأمين التخوم والحدود • ثم اضطرهم المحيط الدولى الى مباشرة حروب خارجية • وهكذا اختلفت الجهود تبعا

لمقتضيات المحيط الدولى المعاصر ولكن الهدف من كل هذه الجهود هدف واحد هو تأمين سلامه الدوله الاسلاميه ، وتامين الدعوة الاسلاميه فى تحرير الانسان من كل طغيان ، وكلها تنميد لفريضه اسلامية . هى فريضه الجهاد فى سبيل الله .

(نظام الحكم فى الاسلام : د . محمد عبد الله العربى ص ٣١ . ٣٤ بتصرف)

١ — اجتهاد الصحابة :

١ — من المعروف ان الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لافعال المكلفين خاصه وهذه الافعال لا يحصرها العاد ويجد منها انواع وضروب على مدى الزمان دائما ، ولهدا كان اجتهاد الصحابة والفقهاء ضرورة لا محيص عنها ، ولهدا نرى الشهرستانى وهو يتكلم عن الاجتهاد ووجوبه وشروطه يقول : وبالجمله نعلم قطعا ويقينا ان الحوادث والوقائع غير متناهية فى العبادات والتصرفات ونعلم قطعا ويقينا أنه لم يرد فى كل حادثه نص ولا يتصور ذلك أيضا ، والنصوص اذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية ومالا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد .

وقد حفل تاريخ الفقه بنقل عديد من هذا الاجتهاد الذى استلزمه التطور وتغير الأزمان وتشير من ذلك الى مثال وقع فى عصر الصحابة رضوان الله عليهم .

التسوية فى العطاء :

كان الصديق أبو بكر — رضى الله عنه — يسوى بين الناس فى أعطياتهم فلا يفضل فيها أحدا على الآخر ، وفى هذا يذكر بن أبى حبيب عالم مصر وفقيهها فى زمنه أن أبا بكر لما قدم عليه المال جعل الناس فيه سواء وقال وددت أنى أتخلص مما أنا فيه بالكفاف ، ويخلص لى جهادى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما يحدث الليث بن سعد فقيه مصر وتلميذ يزيد بن أبى حبيب أن أبا بكر كلم فى أن يفضل بين الناس فى القسم فقال فضائلهم عند الله فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير .

هكذا مضى الحال أيام الصديق فلما جاء عهد الفاروق وجاءت الفتوحات الاسلامية بمال كثير عدل فى قسمة هذا المال وتوزيع العطاء بين

الناس الى غير ما كان يراه سلفه ــ رضى الله عنهما ــ اذ رأى أن لا يسوى بين من قاتل رسول الله وبين من قاتل معه ، وأن يجعل الناس مراتب وطبقات فى هذا المال حسب درجة كل منهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان وكان من كلامه فى هذا : ما أنا (أى فى المال) الا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وتلاده فى الاســلام ، والرجل وغناؤه فى الاســلام ، وحاجته فى الاسلام ، وهكذا فضل الفاروق البعض على البعض فى العطاء .

(تاريخ الفقه الاسلامى : محمد يوسف موسى ص ٧٢ : ٧٤ بتصرف)

٢ ــ القيــاس :

يعرف علماء الأصــول القياس بأنه بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بالحاقه بأمر معلوم حكمه بالنص عليه فى الكتاب أو السنة ، ويعرفونه أيضاً بأنه الحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصــوص على حكمه للاشتراك بينهما فى علة الحكم .

(أصول الفقه ص ٢٠٩ : الشيخ محمد أبو زهرة)

ولقد انعقد الاجماع من الصحابة على ثبوت القياس فى الأحكام فنجد أن أبا بكر أعطى الجد حكم الأب فى الميراث باعتبــاره أبا لأن فيه معنى الأبــوة .

وابن عباس قاس الجد على ابن الابن ، وأن عمر بن الخطاب أمر أبا موسى الأشــعرى وقال له : « اعرف الأشــباه والنظائر ثم قس الأمــور عنــد ذلك » .

ومن الصحابة من بايع أبا بكر لأن النبى صلى الله عليه وسلم اختاره فى امامة الصلاة . فقاسوا الامامة العامة على امامة الصلاة وقال : اختاره لأمر ديننا أفلا نختاره لأمر دنيانا » .

وعلي بن أبى طالب قاس حد الشرب على حد القذف باعتبار أن الشرب يؤدي اليه .

(أصول الفقه : الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٣ ، ٢١٤ بتصرف)

٣ ــ الاستحســان :

وهو عدول المجتهد عن مقتضى قياس جلى الى مقتضى قياس خفى ،

أو عن حكم كلى الى حكم جزئى اســتثنائى لدليل اقدح فى عقله رجح لديه هذا العدول . قال الامام الشاطبى فى (الموافقات) من استحسن لم يرجع الى مجرد ذوقه وتشهيه ، وانما رجع الى ما علم من قصد الشارع فى الجملة فى أمثال تلك الأشــياء المعروضة كالمســائل التى يقتضى فيها القياس أمرا الا أن ذلك الأمر يؤدى الى تفويت مصلحة من جهة أو جلب مفسدة كذلك . (الفكر القانونى الاسلامى : فتحى عثمان ص ٧٣)

مثال ذلك بيع العرية بخرصها تمرا فانه . بيع الرطب باليابس ولكنه أبيح لما فيه من الرفق ورفع الحرج بالنسبة الى المقرى والمعرى .

(الموافقات للشاطبى ج ٤ ص ٢٠٧)

ومن هذا القبيل ما يسمى بالاستصناع وهو أن تتعاقد مع صانع على أن يصنع لك رداء أو شيئا من الأثاث مثلا فالمعقود عليه مفقود وقت العقد ولكنه اجيز استحسانا أيضا لجريان العرف والتعامل به من الأمة جميعا .

(الفقه الاسلامى : د . محمد يوسف موسى ص ١٨٩ ، ١٩٠)

٤ — المصالح المرســلة :

يراد بالمصالح المرسلة كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو الى اعتبارها أو عدم اعتبارها . وفى اعتبارها مع هــذا جلب نفع أو دفع ضرر . (المرجع الســابق)

وقد حمل الامام مالك لواء الأخذ بالمصالح المرســلة وقد اشــترط للأخذ بها شروطا ثلاثة :

أولها : الملاءمة بين المصلحة التى تعتبر أصلا قائما بذاته وبين مقاصد الشارع فلا تنافى أصلا من أصوله ولا تعارض دليلا من أدلته القطعية بل تكون متفقة مع المصالح التى يقصد الشارع الى تحصيلها بأن تكون من جنسها وليست غريبة عنها وان لم يشهد لها دليل خاص .

ثانيها : أن تكون معقولة فى ذاتها جرت على الأوصاف المناسبة المعقولة التى اذا عرضت على أهل العقول تلقتها بالقبول .

ثالثها : أن يكون الأخــذ بها رفع حــرج لازم بحيث لو لم يأخــذ بالمصلحة المعقولة فى موضــعها لكان الناس فى حرج والله تعالى يقول : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

وهذه شروط معقولة تمنع الآخذ بهـذا الأصـل من أن يخلع الربقة ويجعل النصوص خاضعة لأحكام الأهواء والشهوات باسم المصالح ومن أمثلة ذلك : أن الصحابة قد جمعوا القرآن فى مصاحف ولم يكن ذلك فى عهد الرسـول ، وما دفعهم الى هذا الا المصـلحة وهى حفظ القرآن من الضياع وذهاب تواتره بموت حفاظه من الصحابة وأن ذلك تحقيق لقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » •

٥ ــ العـرف :

هذا أصـل أخذ به الحنفية والمالكية فى غير موضـع النص والعرف ما اعتاده الناس من المعاملات واستقامت عليه أمورهم وهذا يعد أصلا من أصول الفقه قد أخذ من قوله صلى الله عليه وسلم : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » فان ذلك الأثر يدل بعبارته ومرماه أن العرف من الأمور الحسنة المعتبرة : يقول شارح كتاب الأشباه والنظائر الثابت بالعرف ثابت بدليل شرعى ، واذا خالف العرف الكتاب أو السنة كتعارف الناس فى بعض الأوقات على تناول بعض المحرمات كالخمـر وأكل الربا فعرفهم مردود عليهم •

وعلى هذا فالعرف قسمان • عرف فاسد لا يؤخذ به وعرف صحيح يعتبر الأخذ به أخذا بأصل من أصول الشرع •

هذا وقد خالف المتقدمين المتأخرون فى كثير من المسـائل المبينة على العرف الماضى اذا خالفت العرف الحاضر • ومن ذلك تضمين الأجير المشترك حيث شاع الفساد وعم ، وخان الأمناء ، فأصبح الاحتياط يوجب تضمينه ليحفظ ما تحت يده ، ولكيـلا يغتاله بدعوى هلاكه ، وان ذلك مخالف لقاعدة اليد الأمينة • من حيث لا تضمن الا بالتعدى •

(اصول الفقه · الشيخ محمد أبو زهرة ص ٦١ ، ٦٤ بتصرف)

٦ ــ عـدم الحرج ·

يقول الله تعالى : « •• ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » •

(سورة المائدة آية : ٦)

ويقول جل شأنه : « .. وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .
(سورة الحج : من الآية : ٨٧)

ويقول عز من قائل : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » . (سورة الفتح من الآية : ١٧)

ويقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .
(سورة البقرة من الآية : ١٨٥)

ويقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

وهكذا نرى من هذه الآيات أن الرحيم الرحمن العالم بتفاوت الناس رفع عنا الحرج ودفع المشقه عن الناس جميعا فى كل ما شرع .

ومن مظاهر التيسير فى باب العقوبات والحدود . نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم فان وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله ، فان الامام لأن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى باب العقوبة .

ولذلك ورد أن النبى — صلى الله عليه وسلم — أتى بلص قد اعترف اعترافا ولم يوجد معه متاع فقال : « ما أخالك سرقت » قال : بلى « أى سرقت » فأعاد عليه مرتين أو ثلاثا ، فأمر به فقطع . ولذلك — أيضا — يسقط الحد عن السارق لما يقتات به حفظا لنفسه اذا كان لا يجد شيئا ، وعن من سرق ما يسد حاجته من مال يدعى أن له حقا فيه » .

(الفقه الاسلامى : د . محمد يوسف موسى ص ١١٦ — ١١٨ بتصرف)

ويقول الشاطبى — رحمه الله — ان الله وضع هذه الشريعة المباركة خفيفة سمحة سهلة ، حفظ فيها على الخلق قلوبهم وحببها لهم بذلك . فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة لدخل عليهم فيما كلفوا به مالا تخلص به أعمالهم ألا ترى الى قوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » الى آخرها . فقد أخبرت الآية أن الله حبب الينا الايمان بتيسيره وتسهيله ، وزينه فى قلوبنا بذلك وبالوعد الصادق بالجزاء عليه »

(الموافقات فى اصول الشريعة للشاطبى جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ بتصرف)

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٦١ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

غرة صفر سنة ١٣٩٦ هـ أول فبراير سنة ١٩٧٦ م

العدل وأثره فى حياة الأمة (ب)

مقـــدمة :

العنـــــاصر :

١ — ضرورة التزام الحـاكم بالعدل .
٢ — العدل فى الاسلام فوق العواطف والأهواء .
٣ — فى العدل رشاد الأمة و صلاحها .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،

وبعـــد :

فإن حياة البشر سيل لاينقطع فى التعامل والتبادل للحقوق والواجبات وحركة دائبة للأخذ والعطاء وصورة نشطة للتعايش اليومى الذى يختلط فيه الناس وتشتبك مصالحهم فى حرص حريص على جلب المنفعة ودفع المضرة الأمر الذى يؤدى بهم إلى الاحتكاك المستمر واختلاف وجهات النظر فيما بينهم . وخلافهم على ما يملكون ويتبادلون .

وحياة على هذا الوجه تحتاج إلى تشريع يسوى مابين الناس ويحسم نزاعهم ويعيدهم إلى صفاء النفس واستواء السلوك وقد جاء الإسلام فعلا يلبى هذه الحاجة بتشريع عدل محكم دعا الناس إلى التزامه والأخذ به

الأمر الذى تناولناه فى نشرة (١) تحت عنوان (العدل وأثره فى حياة الأمة).

والحق أن التشريع وحده لايكفى . ولا تبرز صورته الطبيعية فى حسم الأمور وتسوية المشاكل وقيادة البشر على أسس العدالة وركائز الإنصاف إلا إذا توفر له الالتزام الأكيد الذى تتعاون الأمة جميعا على إبرازه . والتعامل به والاحتكام إليه .

ورأس الأمر فى كل شىء غالبا ما يقع عليه واجب قيادته وتوجيه زمامه

وزمام الأمة دائما فى يد الحاكم وتوجيهها فى قبضته ، وعليه وحده دون سواه تقع مسئولية الحكم وفى عنقه تتعلق تبعة العدل وضرورة الالتزام والحرص عليه وأخذ الرعية بأحكامه وعدم التفريط فى كل ما يمسه أو يتصل به بحيث يكون حازما فى ذلك كل الحزم ، لايتهاون ولايهادن ولا يمالىء ولايتحيز .

الحق غايتـه التى لا يحيد عنها ، ونصب عينيه لا يفر منه بعيدا كل البعد عن مضلات الهوى ومزالق الفتنة . وتيارات التحلل عن الحق والخروج على أحكامه فإن وفى وقى نفسه وأمته من شر العثار والهلكة وإلا فقد عرض نفسه وأمته لسنة الله التى تصيب الخارجين المذنبين بذنوبهم .

إن الحـاكم مسئول عن توطين العدل فى أمته لتوطيد الحق فيها وتوفير أسباب الفوز والنجاة له ولها ، وإلا كانت العاقبة فى الدنيا وخيمة والنتيجة سيئة وهكذا يوم القيامة فكه عدله أو أوبقه جوره .

إن الرعيل الأول الذين قادوا المسلمين وتولوا حكمهم من عهد رسول الله، محمد ﷺ ـ كانوا مثلا رائعة ونماذج رائدة فى التزامهم بالعدل وإحكام مسيرتهم على هداه بحيث لم يستثنوا من تطبيق العـدالة شريفا لشرفه أو قويا لقوته أو شخصا لقرابة أو صداقة أو ولاء . وإنما بلغ بهم الأمر أن كانوا فى القضاء موازين قسط وأوعية عدل فى التنفيذ والتطبيق حازمين وصارمين حتى عطروا تاريخ الحكم والقضاء والعدالة بخالد الذكر وماجد الأثر .

وتاريخ الحـكم والقضاء فى الإسلام حافل بالصور العديدة والنماذج الباهرة للوقائع والأقضية التى كان الولاء فيها للحق والعدل والإنصاف دون غيره من الجور والرغبات والأهواء .

وهذا مابيناه فى العنصر الأول .

والأمة التي تحب أن تبنى نفسها وأن تدعم وجودها وأن يتأكد الأمن والاستقرار في ربوعها لابد وأن ترتكز حياتها على الحق دون الباطل وعلى الموضوعية دون العاطفة وعلى العقل دون الهوى ، وعلى الحيدة الكاملة دون الممالأة والتحيز .

وأوجب مايجب أن يلتزم فيه بذلك ما يمس حياة الناس ومشاكلهم من قريب وما يتصل بحقوقهم وواجباتهم ومايفصل فيما بينهم من خلاف ويحسم من نزاع . أجل إن عودة الحق إلى نصابه والحقوق إلى ذويها تستدعى حاكما حين يقضى ويحكم وينفذ أن يكون فى قمة الشعور بالمسئولية وذروة الإحساس بالتبعية وفى أعلى درجات الوعى بما يمكن أن يترتب على ما يصدر من حكم وذلك يستوجب بالضرورة تحكيم الحق واستهداف العدل ورضوان الله جل جلاله وابتغاء وجهه لا يلوى الحاكم عن ذلك هوى متبع أو اعراض عن حق وجنوح عن صواب أو عزوف عن منطق كما لا يكون لغير ذلك من عواطف الحب والكره وصلات الصداقة والقربى وأعراض الغنى والفقر أى تأثير .

أن أمور المسلمين وعلاقتهم والأواصر التى تربطهم يجب أن تكون مركوزة على هذه العدالة مضبوطة بمنطقها قائمة على الإنصاف والموضوعية والمنطق حتى تصان الحقوق فلا تهدر وتحفظ الواجبات فلا تمتهن ولا يشارك فى ظلم ولا يعان على باطل .

ولقد التزم سلفنا الصالح بهذه المعانى فحكموا الحق ولم يحيدوا والتزموا بالمنطق ولم يميلوا وجنحوا إلى العقل ولم يكن للهوى فى تصرفاتهم أدنى نصيب من التوجيه ، سواء فى كل ذلك ما يتعلق بهم داخل المجتمع وما يتعلق بهم مع

عدوهم ، فصانوا بذلك أنفسهم من الزيغ وحرسوها من الزلل ، وحققوا بهذه العدالة والموضوعية مايبغونه لأمتهم من ألفة وتماسك وطمأنينة واستقرار ورشاد .

وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الثانى .

والأمة التى تبغى صلاح دينها ودنياها ورشاد حاضرها ومستقبلها هى الأمة التى تحرص ما وسعها الحرص على طهارة القلوب ونقاء الضمائر ورعاية وصيانة الحقوق وأداء الواجبات واستتباب الأمن وتوطيد دعائمه وضمان الاستقرار وتدعيم قوائمه وتجنيب المجتمع عوامل الاضطراب والفوضى وأسباب الخوف وبواعث القلق والحق أن ذلك أمر باهظ التكاليف فادح التبعات ، يحتاج إلى الكثير من الجهد والعناء بيد أن الذى يختصر الطريق إلى ذلك ويقلل من جهده ويمهد السبيل إليه والوصول إلى الغاية المثلى فيه والهدف المرجو منه ـ ليس إلا أن تلتزم الأمة جانب الحق وجادة المنطق وأن تحتكم فى كل ما يعن لها أوتقع فيه أوينشأ من خلاف أو يثور من نزاع ـ إلى منهج العدل الحق وميزان القسط الواجب بكل ما يحيط به من الشرعية المفروضة وللموضوعية الأمينة والحيدة اللازمة .

وليس هناك من أمة فى البشر أحوج إلى هذه الغاية من الأمة الإسلامية وليس هناك من سبيل إلى غايتها هذه أقوم ولا أدق ولا أعدل من شريعة الإسلام إنها العامل الوحيد الذى يبعدها عن الزيغ والضلالة والانحراف ومظاهر الاضطراب والفوضى وأسباب التفرق والتمزق وأسباب الانحلال والضعف ويقودها إلى كل ما فيه انضباطها وألفتها وتماسكها ورشادها وسدادها الأمر الذى يكفل لها عز الدنيا وكرامة الآخرة .

أجل . إن الأمة التى لايقدس فيها الحق ولا يحترم فيها الواجب ولاتستعلى فيها العدالة ولايحتكم فيها إلى كتاب الله وشريعته ينتصف بها للمظلوم من الظالم وللضعيف من القوى ـ أمة تشيع فيها للظالم وللفاسد وتهضم فيها الحقوق وتضيع المصالح ويختفى الحق ويتحكم الباطل ويتوارى العدل ويظهر الجور .

ومجتمع على هذا النحو إنما هو مجتمع ينخر السوس فى كيانه وتطحن الأدواء عظامه ولايزال أمره كذلك يتآكل من الداخل ويحفر قبره بيده ويسعى إلى حتفه بظلفه حتى ينحدر إلى هاوية الصراع الداخلى والاستعمار الخارجى فيسلط الله عليهم عدوهم فيستولى عليهم ويبيد خضراءهم .

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث

حقا إن بقاء الأمة رهن باستقامتها موقوف على شيوع العدل فيها .

والحزم والعدل يحرسان السلطان والحكم ، ولاتصلح الرعية إلا العدل . والعدل باب السلام فى المجتمع وعماد الأمن فى الأمة وباعث الطمأنينة والاستقرار فى كل أرجائها وربوعها .

إن المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية وقد أصدر فى موضوع (العدل وأثره فى حياة الأمة) نشرته (أ) يسعده أن يتبعها بنشرته (ب) تحت هذا العنوان على أمل اللقاء بالقارىء الكريم فى نشرة خاتمة لهذا الموضوع .

نسأل الله أن يأخذ بنواصينا إلى الحق والخير والعدل وأن يستخدمنا لدينه وأن يسخرنا لطاعته وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

العنصر الأول

ضرورة التزام الحاكم بالعدل

إن الحاكم فى الإسلام يحكم وظيفته مسئول عن الحكم بين الناس وتحكيم العدل بينهم بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليهم بحيث تكون بكل منابعها وروافدها المصدر الوحيد الذى يستمد منه أحكامه فيما يرفع إليه من أقضية الرعية ونزاعاتها لا يحيل عن ذلك يميناً ولا يساراً اتباعاً لهوى أو ميلاً لرغبة مع الحرص الأكيد على ذلك والحذر البالغ من الافتتان عنه وقاية لنفسه ولأمته. وأنعم بهذا من منهج حكيم وفريضة واجبة يلتزم بها الحاكم ويؤديها.

١ – قال تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ».

(سورة النساء – ٥٨)

يقول القرطبي فى تفسيره :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » قال الضحاك بالبينة على المدعى واليمين على من أنكر وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام. ويدخل فى ذلك بالمعنى جميع الخلق كما ذكرنا فى أداء الأمانات قال ﷺ « إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » وقال ﷺ « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهله وهو مسئول

عنهم والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنه والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » فجعل فى هذه الأحاديث الصحيحة كل هؤلاء رعاة وحكاما على مراتبهم وكذلك العالم الحاكم لأنه إذا أفتى حكم وقضى وفصل بين الحلال والحرام والفرض والندب والصحة والفساد فجميع ذلك أمانة تؤدى وحكم يقضى « إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا » وصف الله تعالى نفسه بأنه سميع بصير يسمع ويرى كما قال تعالى « إننى معكما أسمع وأرى » أى فالله سبحانه وتعالى سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . (تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٥٨)

ويقول ابن كثير فى تفسيره ، « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس . ولهذا قال محمد بن كعب وزيد ابن أسلم وشهر بن حوشب ، إن هذه الآية إنما نزلت فى الأمراء يعنى الحكام بين الناس وفى الحديث « إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه » وفى الأثر « عدل يوم كعبادة أربعين سنة » وقوله (إن الله نعما يعظكم به) أى يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة وقوله تعالى (إن الله كان سميعا بصيرا) أى سميعاً لأقوالكم بصيراً بأفعالكم . كما قال ابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية « سميعاً بصيرا » يقول بكل شىء بصير وقد قال ابن أبى حاتم حدثنى أبو يونس سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » إلى قوله (إن الله نعما

يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا » ويضع إبهامه على أذنه والتى تليها على عينه ويقول هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع أصبعيه. رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه وابن مردويه فى تفسيره من حديث أبى عبد الرحمن المقرى بإسناده نحوه.

(تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٥١٦)

قال المراغى فى تفسيره :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » أمر الله بالعدل فى آيات كثيرة. منها هذه الآية، ومنها « اعدلوا هو أقرب للتقوى » وقوله « كونوا قوامين بالقسط » وقوله « فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » والحكم بين الناس له طرق فيها الولاية العامة والقضاء وتحكيم المتخاصمين لشخص فى قضية خاصة.

والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور :

١ — فهم الدعوى من المدعى والجواب من المدعى عليه ليعرف موضوع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين.

٢ — خلو الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين.

٣ — معرفة الحاكم الحكم الذى شرعه الله ليفصل بين الناس على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة.

٤ — تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام.

وقد أمر المسلمين بالعدل فى الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق

قال تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ثم بين حسن العدل وأداء الأمانة فقال :

« إن الله نعما يعظكم به » أى نعم الشىء الذى يعظكم به أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم فى الدارين .

« إن الله كان سميعاً بصيراً » أى عليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم منكم بالمسموعات والمبصرات ، فإذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم وإن أديتم الأمانة فهو بصير بذلك . وفيه إيماء إلى الاهتمام بحكم الولاة والقضاة لأنه قد فوض إليهم النظر فى مصالح العباد .

(تفسير المراغى جـ ٥ ص ٧١ بتصرف)

وقال تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون »

(سورة المائدة . آية : ٤٩)

يقول صاحب المنار :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » أى أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله . وأنزلنا إليك فيه أن احكم بينهم بما أنزل الله إليك فيه . ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لبعضهم وقبول كلامه ولو لمصلحة فى ذلك وراء الحكم . كتأليف قلوبهم

وجذبهم إلى الإسلام . فإن الحق لا يتوسل إليه بالباطل «واحذرهم أن يفتنوك» أى يستزلوك باختبارهم إياك ويتزلوك عن بعض ما أنزل الله إليك لتحكم بغيره .

أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس « من اليهود » اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه . فأتوه فقالوا : يا محمد إنك عرفت، إنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا . يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك . فأبى ذلك . وأنزل الله عز وجل فيهم « وأن احكم بينهم بما أنزل الله — إلى قوله — لقوم يوقنون » اهـ .

يعنى أن الحكمة فى إنزال هذه الآية إقرار النبى ﷺ . على ما فعل من عدم الحكم لهم وأمره بالثبات والدوام على ما جرى عليه من التزام حكم الله وعدم الانخداع لليهود . وتسجيل هذه العبرة فى كتاب الله .

وروى بن جرير عن ابن زيد أن فتنتهم أن يقولوا : فى التوراة كذا وكذا فيصدقوا . والأول أظهر .

فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم » أى فإن تولوا عن حكمك بعد تحاكمهم إليك فاعلم أن حكمة ذلك هى أن الله تعالى يريد أن يعذبهم ببعض ذنوبهم فى هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة — فاضطرابهم فى دينهم واستثقالهم لأحكام التوراة وتحاكمهم إليك رجاء أن تتبع أهواءهم وإعراضهم عن حكمك بالحق. ومحاولتهم لخادعتك وفتنتك عن بعض ما أنزله الله إليك — كل هذه مقدمات من فساد الأخلاق وروابط الاجتماع لا بد أن تنتج وقوع عذابهم.

قيل : المراد بالعذاب هنا ما حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم . وإنما يصح هذا إذا كان نزول الآية قبل ذلك . وعلى هذا يكون نزول هذا السياق كله قبل نزول أوائل السورة فى حجة الوداع . فإن ثبت أنه لم يصبهم عذاب فى عصر النبى . ﷺ . بعد نزولها . فلا يبعد أن يكون المراد بالعذاب إجلاء عمر من أجلاهم منهم فى خلافته .

وقيل : المراد عذاب الآخرة وإنما ذكر بعض الذنوب لبيان أن بعضها يوبقهم ويهلكم فكيف يكون العقاب على جميعها ؟ وهو كما ترى .

ثم قال : « وإن كثيرا من الناس لفاسقون » أى لا يرعك أيها الرسول ما تراه من فسوقهم من دينهم . وعدم اهتدائهم إلى دينك . فإن كثيرا من الناس قد صاروا الفسوق والعصيان والتمرد من صفاتهم الثابتة التى لا تنفك عنهم .

(تفسير المنار ج ٦ ص ٤٢٠-٤٢٢)

الأدلة من السنة :

إن الحكم فى الإسلام أمانة كبرى وتبعة فادحة ومسؤولية عظمى والحاكم العادل الذى يتحرى فى أحكامه جوهر الحق وجادة العدل يجد من عون الله له وتوفيقه إياه ما يضمن له استواء نفسه على الطريق وبقاءه على الدرب ، وإلا وكله الله إلى نفسه وهواه وشيطانه فزاغ وغوى وجار وانحرف ، والحاكم العادل والقاضى المقسط هو الذى يعى تماما أبعاد واجبه وأعماق تبعته فيتحرى الحق ويهدف دائما إلى العدل واضعا نصب عينيه أنه مسؤول عن رعيته قلت أو كثرت .

وأن هذه المسؤولية إنما هى غله وسلاسله التى تغل يداه يوم القيامة لا يفكه إلا أداؤها على وجهها وعدله فيها وإلا أوبقه جوره وظلمه ثم كبه الله على وجهه فى النار .

ولو يعلم القضاة والحكام مدى حرج هذه الساعة يوم القيامة لتمنى كل منهم أن لو كان قد أعفى من منصبه نظرا لخطورة ما وكل إليه من حقوق الناس ومصالحهم .

١ — فعن ابن أبي أوفى ـ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ «ان الله مع القاضي مالم يجر فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان» رواه الترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم . (الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥٥)

٢ — وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليأتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة قط» رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه . (الترغيب والترهيب ج٣ ص ٤٤٠)

٣ — وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «مامن وال ثلاثة إلا لقى الله مغلولة يمينه ، فكه عدله أوغله جوره» رواه ابن حبان فى صحيحه

(الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥٧)

٤ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل» . رواه احمد باسناد جيد ورجاله رجال الصحيح . (الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥٧)

٥ — وعن معقل بن يسار ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «من ولى أمة من أمتى قلت أو كثرت فلم يعدل فيهم إلا كبه الله على وجهه فى النار» .
رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد (الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥٦)

الآثار :

إن تاريخ سلفنا الصالح فواح بعطر العدالة وشذى الإنصاف وتحكيم القسط .
ولقد بلغ بهم أمر الحرص على شريعة الإسلام لتأخذ مجراها ـ يحتكم إلى عدالتها

الناس فينتصف للمظلوم من الظالم وللضعيف من القوى - أن أعانوا هذا فى كثير من خطب الخلافة وبيانات الولاية ففاضت بها حياتهم وأحكامهم .

ولقد وضعوا القوة فى سلطانهم موضعها الصحيح خادمة للعدل مسخرة للحق . ومنهج القضاء ووقائعه خير شاهد على ذلك .

١ - خطب أبو بكر - رضى الله عنه - خطبته الجامعة بعد أن بويع بالخلافة فقال : أيها الناس . إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة . الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله . والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

(زعماء الإسلام : د : حسن إبراهيم ص ١٥ بتصرف)

٢ - وروى أن عمر بن الخطاب لما أخذ ابنه عاصما من زوجه المطلقة اختصم إلى أبى بكر ليقضى بينهما فى احتضان الولد فقضى أبو بكر بحضانة الأم للولد مخاطبا عمر «ريحها وشمها ولطفها خير له منك» هكذا قضى أبو بكر بالحق دون أن يكترث بمكانة عمر وهو من هو عند أبي بكر مكانة واعزازا .

(زعماء الإسلام : د : حسن إبراهيم ص ٢٠)

٣ - وخطب عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . بعد أن بويع بالخلافة فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبى ﷺ ثم قال : بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله . ﷺ . بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟

ومن قال ذلك فقد صدق ، قد كنت مع رسول الله - ﷺ - فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة وكان كما قال الله «بالمؤمنين رؤوف رحيم » فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدني أو يدعني فأمضي فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعد ، ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه فكنت خادمه وعونه أخلط شدتي بلينه فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدني أو يدعني فأمضي فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد ، ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف . ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها . لكم على أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم على إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه . . . فاتقوا الله عباد الله واعينوني على أنفسكم بكفها عني واعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » (أخبار عمر : لعلي الطنطاوي وناجي الطنطاوي : ص ٧٦ ، ٧٧ بتصرف)

وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أبي موسى الأشعري كتابا يحدد فيه شروط القضاء قال فيه : أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة سنة

متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له ، وآس بين الناس في وجهك وعدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولايمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة نبيه ثم اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور بنظائرها ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه ، فمن احضر بينة أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا في ولاء أو نسب ، فإن الله عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام

(الأحكام السلطانية . تأليف أبى الحسن
الماوردي الطبعة الثانية ص ٧١ ، ٧٢ بتصرف)

وسابق محمد بن عمرو بن العاص مع أحد المصريين فلما سبقه المصري اغتاظ محمد بن عمرو وضربه بالسوط قائلا (خذها وأنا ابن الأكرمين) وحبس عمرو المصري مخافة أن يشكو ابنه إلى الخليفة ، فلما انفلت من محبسه ذهب إلى المدينة وشكا لعمر ما أصابه فاستبقاه عنده واستقدم عمرا وابنه من مصر ودعاهما إلى مجلس القصاص فلما مثلا فيه نادى عمر : أين المصري ؟ دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين ، فضرب المصري محمد بن عمرو حتى أثخنه وعمر يقول :

اضرب ابن الأكرمين ، فلما استوفى حقه نظر عمر مغضباً إلى عمرو بن العاص وقال : ياعمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

(الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل ج ٢ ص ٢١٨ بتصرف)

ولما وفد جبلة بن الأيهم – أحد ملوك بني غسان – بعد أن أسلم وأقام بالمدينة زمنا خرج إلى الحج مع أمير المؤمنين عمر فبينما هو يطوف بالبيت وطىء إزاره رجل من بني فزارة فانحنى فرفع جبلة يده فهشم بها أنف الفزارى ، فشكاه الفزارى فدعا عمر جبلة وسأله فأقر بما حدث قال عمر لقد أقررت فإما أن ترضى الرجل وإما أن أقيده منك وأنكر جبلة ماسمع وقال : وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟ قال عمر إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء الا بالتقوى والعافية قال جبلة . لقد ظننت ياأمير المؤمنين أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية . قال عمر : دع عنك هذا ، إنك إن لم ترض الرجل أقدته منك قال جبلة إذن : أتنصر قال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك لأنك أسلمت فإن ارتددت قتلتك فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه ، ثم هرب مستخفيا بالليل إلى الشام وتنصر ، وندم على ما كان منه .

(الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل ج ١ ص ٢٤٣)

وقدم على عمر بن عبد العزيز رجل من حلوان زعم أن أرضه غصبت إذ أن الخليفة عبد الملك بن مروان أقطعها لوالد عمر بن عبد العزيز حينما كان واليا على مصر فقال له عمر : إن لى فيها شركاء من إخوة وأخوات لايرضون أن أقضى فى هـذا الأمر بغير قضاء قاض ، وقام معه إلى القاضى ، فقعد بين يديه ، وأدلى المدعى بحجته فقضى له ، فقال عمر لقد أنفق عليها فى إصلاحها ألف درهم فرد عليه القاضى قائلا كانت من غلتها بقدر ذلك وأزيد فثلجت نفس عمر ، وقال :

هل القضاء إلا هذا ، والله لو قضيت لى ولإخوتى ماوليت عملا من قبلى قط .

(نظام الحكم والإدارة فى الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية . المستشار على على منصور ص ٢٨٥ بتصرف)

وقد أنصف المأمون امرأة من الشعب على ابنه ، ذلك بأن امرأة شكت إليه ابنه العباس ، فأمره أن يجلس معها مجلس الخصوم فجعلت تتكلم بصوت يعلو صوت العباس ، فقال لها أحمد بن خالد يا أمة الله . إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، اخفضى صوتك فقال المأمون : دعها يا أحمد ، فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها وعاقب العباس على ظلمه لها وأمر بنفقة وكتب إلى عامله ببلدها أن يعفى ضيعتها من الخراج ، ويحسن معاملتها .

(تحت راية الإسلام : د . الحوفى ص ٩٣)

العنصر الثانى

العدل فى الإسلام فوق العواطف والأهواء

إن العدل شريعة الله فى خلقه وميزانه فى عباده ، والحق أن العدل لا يمكن الوصول إليه إلا عند التجرد المحصن عن العواطف والأهواء والابتغاء الخالص لوجه الله فى كل نزاع يفصل فيه وفى كل حكم من الأحكام . لا يلوى الناس عن العدل وموضوعيته وضرورة الحيدة فيه ميل ولا رغبة ولا علاقة من قـرابة أو صداقة أو عداوة ولا عرض من أعراض الدنيا من غنى أو فقر أو صحة أو مرض . فإنه ليس هناك من شىء يقرب المرء إلى ربه وينجيه من مؤاخذته قدر تقواه وحده وتحكيم شريعته وعدله دون غيرهما

١ — قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . (سورة النساء : آية : ١٣٥)

قال ابن كثير فى تفسيره :

« يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أى بالعدل فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاولا تأخذهم فى الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه وقوله : « شهداء لله » كما قال « وأقيموا الشهادة لله » أى أدوها ابتغاء وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا خالية من التحريف والتبديل والكتمان ولهذا قال : « ولو على أنفسكم » أى اشهد شهادة الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه وقوله : « أو الوالدين والأقربين » أى وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضرر الشهادة عليهم فإن الحق حاكم على كل أحد وقوله : « إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما » أى لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره . الله يتولاهما بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما وقوله : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل فى أموركم وشئونكم بل الزموا العدل على أى حال كان كما قال تعالى : « ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ومن هذا قول

عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي اياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم فقالوا بهذا قامت السموات والأرض . وقوله « وإن تلووا أو تعرضوا » قال مجاهد وغير واحد من السلف تلووا تحرفوا الشهادة وتغيروها والى هو التحريف وتعمد الكذب . قال تعالى : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب » الآية والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها قال تعالى : « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » وقال النبي ﷺ : « خير الشهداء الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسألها » ولهذا توعدهم الله بقوله : « فإن الله كان بما تعملون خبيرا » أى وسيجازيكم بذلك

(تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٦٥ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » القوام هو المبالغ فى القيام بالشىء والإتيان به مستوفيا تاما لانقص فيه وقد أمر الله بإقامة الصلاة وإقامة الشهادة وإقامة الوزن بالقسط تأكيدا للعناية بهذه الأشياء · أى فلتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم راسخة فيكم والعدل كما يكون فى الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم يكون فى العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم ولو سار المسلمون على هدى القرآن لكانوا أعدل الأمم وأقومهم بالقسط وقد كانوا كذلك ردحا من الزمن حين كانوا مهتدين بهديه . ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم فصارت تضرب بهم الأمثال فى ظلم حكامهم وسوء أحوالهم .

« شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » أي كونوا شهداء لله بأن تتحروا الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة أحد ولامحاباته ولو كانت الشهادة علي أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها لأن الشهادة إظهار الحق أو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم إذ ليس من بر الوالدين أو من صلة ذوى الرحم أن يعانوا على ماليس لهم بحق . كالإعراض عن الشهادة عليهم أولها والتحريف فيها . بل البر والصلة في الحق والمعروف وليس من شك فى أن الحياة قصاص فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم، فتكون المحاباة من أسباب فشو الظلم والعدوان والمفاسد التى لايؤمن شرها .

« إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما » أى إن يكن المشهود عليه من الأقارب أو غيرهم غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما وشرعه أحق أن يتبع فيهما فحذار أن تحابوا غنيا طمعا فى بره ولا خوفا من أذاه وشره ، ولا فقيرا عطفا عليه وشفقة به فمرضاة كل منهما ليست خيرا لكم ولا لهما من مرضاة الله تعالى ولستم أعلم بمصلحتهما من ربهما ولولا أنه يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق خير للشاهد والمشهود عليه لما شرع ذلك ولما أوجبه .

قال قتادة فى هذه الآية : هذا فى الشهادة فأقم الشهادة ياابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو على ذى قرابتك وأشراف قومك فإنما الشهادة لله وليست للناس والعدل ميزان الله فى الأرض . به يرد الله من الشديد على الضعيف ومن الصادق على الكاذب ومن المبطل على المحق . أ هـ

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى فلا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل إذ فى الهوى الزلل .

« وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » أى وإن تلووا ألسنتكم بالشهادة وتحرفوها أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها فالله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه قصدكم فهو مجازيكم بما تعملون .

وعبر بالخبير ولم يعبر بالعليم . لأن الخبرة العلم بدقائق الأمور وخفاياها والشهادة يكثر فيها الغش والاحتيال حتى لقد يغش الإنسان فيها نفسه ويلتمس المعاذير فى كتمان الشهادة أو تحريفها .

فليتدبر المسلمون ذلك وليعملوا بهدى كتابهم ويقيموا الشهادة بالحق ففى ذلك فلاحهم فى دينهم ودنياهم .

(تفسير المراغى ج ٥ ص ١٧٨ ـ ١٨٠ بتصرف)

لمحات من أسرار هذه الآية وأحكامها :

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

« إنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه : الأول أن أكثر الناس عادتهم أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف فإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركوه حتى إن أقبح القبيح إذا صدر عنهم كان فى محل المسامحة وأحسن الحسن وإذا صدر عن غيرهم كان فى محل المنازعة فالله سبحانه نبه فى هذه الآية على سوء هذه الطريقة وذلك أنه تعالى أمرهم بالقيام بالقسط أولا ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانيا تنبيها على أن الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الإنسان مع نفسه فوق مضايقته مع الغير .

الثانى : أن القيام بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير وهو الذى عليه الحق ودفع الضرر عن النفس مقدم عن دفع الضرر عن الغير .

الثالث : أن القيام بالقسط فعل والشهادة قول والفعل أقوى من القول .

(التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١١ ص ٧٣ بمصرف)

وقال القاسمي : قال بعض مفسري الزيدية لهذه الآية ثمرات هي أحكام !

الأول : وجوب العدل على القضاة والولاة وأن لا يعدل عن القسط لأمر تميل إليه النفوس وشهوات القلوب من غنى أو فقر أو قرابة بل يستوي عنده الدنىء والشريف والقريب والبعيد ويروى أن عمر أقام حداً على ولد له . فذاكره في حق القرابة فقال إذا كان يوم القيامة شهدت عند الله أن أباك كان يقيم عليك الحدود .

الثاني : أنه يجب الإقرار على من عليه الحق ولا يكتمه لقوله تعالى : « ولو على أنفسكم » والمراد بالشهادة على النفس الإقرار وهذا ظاهر . وقيل المعنى ولو كانت الشهادة وبالا ومضرة على أنفسكم وآبائكم بأن تكون الشهادة على سلطان ظالم وهذه المسألة فيها خلاف بين الفقهاء إذا خشي مضرة دون القتل هل يجب عليه الشهادة أم لا ؟ فقيل يجب لأنه لا يحفظ ماله بتلف مال غيره . وعن الشافعية والمتكلمين وصحح المذهب أنه لا يجب لأن الشهادة أمر بمعروف وشرطه أن لا يؤدي إلى منكر ولكن إنما يسقط عنه أداء الشهادة بحصول الظن لمضرته لا بمجرد الخشية وقد قال المؤيد بالله في (الإفادة) على الشاهد أن يشهد وإن خشي على نفسه وماله لأن الذي يخشاه مظنون ولعله غير كائن يؤول على أن مراده يجوز لا أنه قد ظن حصول المضرة وهذا يجوز له الشهادة مع الخشية على نفسه قال في (شرح الإبانة) : يجوز إذا كان قتله إعزازا للدين كالنهي عن المنكر أما لو كتم لغير عذر فلا إشكال في عصيانه : وعن ابن عباس ذلك من الكبائر .

الحكم الثالث : يتعلق بقوله (شهداء لله) أى تشهدون لوجه الله كما أمركم وفى هذا دلالة على أن أخذ الأجرة على تأدية الشهادة لا يجوز . لأنه لم يقمها لله . وقد استثنى أهل الفقه صورا جوزوا أخذ الأجرة على تأدية الشهادة . منها : إذا طلب إلى موضع لأن الخروج غير واجب عليه . ومنها : إذا كان غيره يشهد ويحصل به الحق فإن شهادته غير لازمة . انتهى .

(تفسير القاسمى ج ٥ ص ١٦٠٦)

وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » . (من سورة المائدة : آية : ٨)

قال الطبرى فى تفسيره لقول الله تعالى : يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا » يعنى بذلك — جل ثناؤه — يأيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل فى أوليائكم وأعدائكم ولا تجوروا فى أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم فى أعدائكم لعداوتهم لكم ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامى وحدودى فى أوليائكم لولايتهم ولكن انتهوا فى جميعهم إلى حدي واعملوا فيه بأمري .

وأما قوله « ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا » فإنه يقول ولا تحملنكم عداوة قوم على أن لا تعدلوا فى حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة » .

وقوله تعالى : «اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»

يعنى جل ثناؤه بقوله اعدلوا أيها المؤمنون على كل أحد من الناس ولياً لكم كان أوعدوا فاحملوهم على ما أمرتم أن تحملوهم عليه من أحكامى ولا تجوروا بأحد منهم عنه .

وأما قوله « هو أقرب للتقوى » فإنه يعنى بقوله هو العدل عليهم أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى يعنى إلى أن تكونوا عندى باستعمالكم اياه من أهل التقوى وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه فى شىء من أمره أو يأتوا شيئاً من معاصيه . وإنما وصف جل ثناؤه العدل بما وصف به من أنه أقرب للتقوى من الجور لأن من كان عادلا كان لله بعدله مطيعا ومن كان لله مطيعا كان لا شك من أهل التقوى ومن كان جائرا . كان لله عاصيا . ومن كان لله عاصياً كان بعيداً من تقواه .

وأما قوله « واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » فإنه يعنى واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا فى عباده فتتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءه الذى بين لكم فيحل بكم عقوبته وتستوجبوا منه أليم نكاله « إن الله خبير بما تعملون » يقول إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه من عمل به أو خلاف له محص ذلكم عليكم كله حتى يجازيكم به جزاءكم المحسن منكم بإحسانه والمسىء بإساءته فاتقوا أن تسيئوا » .

(تفسير الطبرى ج ٦ ص ٩١ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ماتعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم

بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق بدون اعتداء على أحد وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

« شهداء بالقسط » الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به أو إظهاره هو له بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة فالعدل هو ميزان الحقوق إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس وانتشرت المفاسد وتقطعت روابط المجتمع فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغابرها ولكن الناس لا يعتبرون .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا » أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب حق أو الحكم لهم بذلك . فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة ويجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببها .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » هذه الجملة توكيد للجملة السالفة للعناية بأمر العدل وأنه فريضة لا هوادة فيها . لأنه أقرب لتقوى الله والبعد عن سخطه وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاسد التى تقوض نظم المجتمعات ، وتقطع الروابط بين الأفراد وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

« واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » أى واتقوا سخطه وعقابه لأنه لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ظاهرها وباطنها واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم

للعدل . وقد مضت سنته فى خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل فى الدنيا الذلة والمهانة للأمم والأفراد ، وفى الآخرة الخزى يوم الحساب » .

(تفسير المراغى ج ٦ ص ٦٨ ، ٦٩)

الادلة من السنة

كثيرا مايحيد الناس عن الحق ويميلون عن العدل بسبب الهوى أو بدافع العاطفةأو بحكم العصبية أو القرابة أو غير ذلك من الصداقة والعداوة .

بيد أن الإسلام يمقت هذا الصنف من السلوك ويأمر بالنزوع عنهوالعزوف عن بواعثه الدنيا ثم يرمى بعد ذلك إلى تعديله وتبديله عندمن طبعوا عليهوصبغت حياتهم على سننه زمنا طويلاً حتى يعودوا إلى سنن الفطرة وصبغتها الأولى .

١ — عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه قال نحلنى أبى نحلة فقالت أمى عمرة بنت رواحة لالا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ فجاءه ليشهده على صدقتى فقال ﷺ «أ كل ولدك نحلت مثله قال لا . فقال اتقواالله وأعدلوا فى أولادكم » وقال : « إنى لا أشهد على جور » قال فرجع أبى فرد تلك الصدقة » متفق عليه . (تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠)

الأثار .

١ — وعن الليث قال تقدم إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه خصمان فأقامهما ثم عادا فأقامهما ثم عادا ففصل بينهما . فقيل له فى ذلك . فقال تقدما إلىَّ فوجدت لأحدهما مالم أجد لصاحبه فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك . ثم عادا فوجدت بعض ذلك ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما .

٢ — وروى عمر أيضا أنه قال لرجل إنى لا أحبك قال أفتنقصنى من حقى شيئا قال عمر لا : قال الرجل فما يفرح بحب بعد هذا إلا النساء .

(زعماء الإسلام ص ٣٦)

العنصر الثالث .

فى العدل رشاد الأمة وصلاحها .

من أوجب واجبات الحكم وفرائضه أن يقوم الحاكم بمسئوليته وأن ينهض بتبعته فى رعاية الحقوق وأداء الواجبات وصيانة مصالح الناس ومشاكل الأمة وضرورة الإحتكام إلى العدالة ووجوب الانتصاف للمظلوم من الظالم . وللضعيف من القوى وللالتزام بالحق ـ والحق وحده ـ فى كل ذلك والرغبة عن الأهواء أن تتبع وعن العواطف أن تهبط به فيميل عن الجادة ويجنح عن الصواب وإلا ضل وزاغ وانحرف عن سواء السبيل .

بل إن الأمة كلها فى الظروف الطارئة التى تحاول أن تلوى عنقها أو تفرط عقدها . أو يذر فيها قرن الشيطان أو تستيقظ فيها الفتنه ـ مطالبه بالوقوف مع العدالة لنجدتها والنهوض بأمرها وتجنيد القوة لخدمتها . وتحقيقها إذا اقتضى الأمر .

ومجتمع تشيع فيه العدالة على هذا النحو يرعاها الحاكم والمحكوم ويفزع من أجلها الجميع ـ مجتمع متماسك متلاحم حى يقظ تصان فيه الحقوق وتؤدى الواجبات وترعى فيه الذمم ويسير فى طريق الرشاد والصواب إلى غايته .

الأدلة من الكتاب :

١ — قال تعالى : «ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» . (سورة ص : آية : ٢٦)

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسيره : فى تفسير كونه خليفة وجهان :

الأول : جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى ، وفى سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه ، وذلك إنما يعقل فى حق من يستحق عليه الغيبة وذلك على الله محال .

الثانى : إنا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ، ومنه يقال خلفاء الله فى أرضه ، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله تعالى فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم فى تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم .

ثم قال تعالى : « فاحكم بين الناس بالحق » واعلم أن الإنسان خلق مدنيا بالطبع لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة ، حتى إن هذا يحرث وذلك يطحن ، وذلك يخبز وذلك ينسج وهذا يخيط وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهم وتنتظم مصالح الجميع أعمال الجميع فثبت أن الإنسان مدنى بالطبع ، وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ، ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وهو السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل ، فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس ، إن كان حكمه على وفق هواه وطلب دنياه عظم ضرره على الخلق ، فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه ، وذلك يفضى إلى تخريب العالم ، ووقوع الهرج والمرج فى الخلق ، وذلك يفضى بالأخرى إلى هلاك ذلك الملك أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة لأحكام الشريعة الحقة الإلهية انتظمت مصالح العالم . واتسعت أبواب الخير على أحسن الوجوه . فهذا هو المراد من قوله : « فاحكم

بين الناس بالحق » يعنى لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم .

ثم قال : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » أى إن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، وتدعو إلى الاستغراق فى اللذات الجسمانية والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التى هى الباقيات الصالحات ، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر .

(التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٢٦ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ بتصرف)

وقال القاسمى فى تفسير :

« يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض » أى استخلفناك على الملك فى الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على البلاد ويملكه عليها .

« فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » أى هوى النفس من الميل إلى مال أو جاه أو قريب أو صاحب « فيضلك عن سبيل الله » أى صراطه للوصل للكمالات كحفظ المملكة والنصر على الأعداء والنجاة فى الآخرة ورفع الدرجات فيها . (تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٥٠٩٥)

وقال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

(سورة الحجرات : آية ٩)

قال الطبرى فى تفسيره : يقول تعالى ذكره وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فإن بغت إحداهما على الأخرى » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله لها وعليها وتعدت ما جعل الله عدلا بين خلقه وأجابت الأخرى منهما فقاتلوا التى تبغى » يقول قاتلوا التى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكم الله « حتى تفىء إلى أمر الله » يقول حتى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه .

«فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل» أى فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها إلى الرضا بحكم الله فى كتابه فأصلحوا بينهما وبين الطائفة الأخرى التى قاتلتها بالعدل يعنى بالإنصاف بينهما . وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلا بين خلقه . وبنحو الذى قلنا روى عن أهل التأويل : فعن ابن عباس فى معنى قوله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » قال : إن الله سبحانه أمر النبى ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى كتاب الله وينصف بعضهم من بعض فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ويقروا بحكم الله .

وعن الحسن « وإن طائفتان من المؤمنين » اقتتلوا قال : كانت تكون الخصومة بين الحيين فيدعوهم إلى الحكم فيأبون أن يجيبوا فأنزل الله . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى

فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله» يقول ادعوهم إلى الحكم فكان قتالهم الدفع.

وعن قتادة في معنى قوله تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة[1] في حق بينهما فقال أحدهما للآخر لآخذن عنوة ـ لكثرة عشيرته — وأن الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبي الله — ﷺ — فأبى أن يتبعه فلم يزل الأمر حتى تدافعوا وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف فأمر الله أن تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله كتاب الله وإلى حكم نبيه ﷺ — وليست كما تأولها أهل الشبهات أن المؤمن يحل لك قتله فوالله لقد عظم الله حرمة المؤمن حتى نهاك أن تظن بأخيك إلا خيرا فقال إنما المؤمنون أخوة».

(تفسير الطبري جـ ٢٦ ص ٨٠ — ٨٢ بتصرف)

وقال الشيخ محمد محمود حجازي في تفسيره:

المعنى: وإن اقتتلت طائفتان من المؤمنين فالواجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما ويقضوا بالحق الذي شرعه الله في كتابه إما القصاص والقود وإما العقل والدية. هذا الواجب العام على المسلمين يقوم به الإمام أي الحاكم فيدعوا المتنازعين إلى الصلح وإلى تحكيم كتاب الله والرضا بما فيه مع التسامح والتساهل.

فإن تعدت إحدى الطائفتين ولم تقبل نصحا بل ركبت رءوسها وقاتلت الطائفة الأخرى بغير حق. والواجب على المسلمين — والإمام هو الذي ينفذ مادام موجوداً وإلا فعلى عامة المسلمين وجمهورهم — الواجب قتال الفئة الباغية

(١) المدارأة: المدافعة من درأ الشيء أي دفعه.

وردها عن ظلمها حتى ترجع إلى كتاب الله وتحكيمه فإن رجعت بعد القتال وثابت إلى الهدوء والسكينة وترك الشرور والحروب فالواجب الصلح بينهما بالعدل صلحا على السواء والإنصاف بلا تحيز لا صلح القوى مع الضعيف والمنتصر مع المهزوم كما يحصل اليوم والواجب الإصلاح بالعدل لغسل الضغائن. وتزول الأحقاد ويعود الصفاء ويحل محـــل الخصام وبذلك يأمن الناس الرجوع إلى الحرب، والله تعالى يحب المقسطين العدول.

وهذه الحروب الداخلية لها أحكام خاصة فى كتب الفقه الإسلامى منها. أنه لا يُجْهَزَ على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها ولا تؤخذ أموالها، والذى يتلف فى غير القتال فمضمون، وأما فى القتال فلا ضمان.

(التفسير الواضح : ج ٢٦ ص ٦٠، ٦١)

الأدلة من السنة :

إن الأمة التى لا يقدس فيها الحق ولا مؤدى فيها الواجب ولا ينتصف فيها للمظلومين والضعفاء وأصحاب الحقوق .. أمة خفيفة الوزن عند ربها هنية على نفسها وعلى الناس.

وأى مجتمع كذلك لا يلبث طويلا إلا ريثما يبتلى بطغيان الحكم وجور سلطان واستبداد الحاكم ولا يزال أمره على هذا النحو - يجتاحه الاستبداد. وينخر فى عظامه الظلم حتى يتهاوى تحت مطارق الضعف والإنحلال.

١ — عن معاوية — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع. رواه الطبرانى ورواته ثقات. (الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٠٤)

٢ — وعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : كنا عند رسول الله — ﷺ قال : كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن ، ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ومامنع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ومابخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله الا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض مافى أيديهم ، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه — ﷺ إلا جعل الله بأسهم بينهم — رواه الحاكم . (الترغيب والترهيب ج٣ص٤٥٠)

الآثار :

إن صلاح الأمة رهن باستقامتها والتزام حكامها بالعدل الذى لاتصلح الرعية إلا به ولايتماسك كيانها ويرتفع بناؤها إلا على قوائمه ولا تستقر أمورها إلابوجوده . فهو باعث الطأنينه وفى رحابه يتحقق الأمن وتحقق أعلام السلام .

١ — أخرج البخارى عن قيس بن أبى حازم قال دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تتكلم ، فقال مالها لا تتكلم ؟ فقالوا حجت مصمتة قال لها تكلمى فإن هذا عمل لا يحل ، هذا عمل الجاهلية ، فتكلمت ، فقالت : من أنت ؟ قال امرؤ من المهاجرين ، قالت : أى المهاجرين ؟ قال : من قريش ؟ قالت : من أى قريش ؟ قال : إنك لسؤول ، أنا أبو بكر ، قالت : مابقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذى جاء الله به بعد الجاهلية ؟ قال بقاؤكم عليه مااستقامت أئمتكم . قالت : وما الأئمة ؟ قال : أو ما كان لقومك رؤس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ؟ قالت : بلى . قال : فهم أولئك الناس .

(تاريخ الخلفاء : للسيوطى ص ٩٩ ، ١٠٠)

٢ — وعن على بن أبى طالب : « إمام عادل خير من مطر وابل » وقال سليمان ابن داود عليهما السلام : الرحمة والعدل يحرزان الملك ، واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا . الملك بناء ، والجند أساسه فإذا قوى الأساس دام البناء ، وان ضعف الأساس انهار البناء فلا سلطان الا بجند ، ولا جند إلا بمال ، ولا مال إلا بجباية ، ولا جباية إلا بعمارة ولاعمارة الا بعدل . فصار العدل أساسا لسائر الأساسات ـ وقال كسرى : اتفق ملوك العجم على أربعة خصال : إن الطعام لايؤكل إلا على شهوة ، والمرأة لاتنظر إلا إلى زوجها . والملك لا يصلحه إلا الطاعة والرعية لايصلحها إلا العدل .

(سراج الملوك ص ٥٣ ، ٥٤)

٣ — وخطب عمير بن على على منبر حمص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق ، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل ، ولايزال الا سلام منيعا ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ، ولا ضربا بالسوط ، ولـكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل » .

(السمير الواعظ : الشيخ / محمد يوسف ص ٢٣٨)

وقال الأستاذ / محمد ضياء الدين الريس : « إن عدل الحاكم أو ولى الأمر فيما يتعلق بحقوق الناس فى أموالهم أو الحقوق المترتبة على أعمالهم ، هو الذى يؤدى إلى أن تشعر الرعية بالاطمئنان و يحفزهم على الاقبال على العمل والجد فيه فينتج عن ذلك نماء العمران واتساعه وتوحيد الأموال وتكـثر الخيرات ، والمال والعمل يؤديان إلى تقوية الدولة وبقاء الحكم واستمراره »

(النظريات السياسية والإسلامية

للأستاذ / ضياء الدين الريس ص ٢٥٩ بتصرف)

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٦٢ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

١٦ من صفر سنة ١٣٩٦ هـ ١٦ من فبراير سنة ١٩٧٦ م

العدل وأثره فى حياة الأمة (ج)

مقدمـــة :

العناصر :

١ — العدل مع غير المسلمين .

٢ — ضرورة طاعة الحاكم العادل .

٣ — جـــزاء العادلين .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد :

فإن الإسلام دين أنزله الله تعالى لهداية البشر وصلاحهم وقيادتهم إلى مافيه رشادهم فى دنياهم وآخرتهم .

والإسلام دين عالمى لا يتحدد بجيل أو قبيل . ولا ينحصر فى زمان أو مكان وإنما هو ـ بكل سماته من الشمول والإحاطة والاحتواء والحيوية ـ المنهج الأمثل للحياة كلها .

وعالمية هذا الدين إحدى معالمه البارزة الظاهرة التى تبدو فى عقيدته وشريعته ، وفى كل فرائضه ومبادئه .

وحين استهدف الإسلام صيانة الحقوق وأداء الواجبات لم يكن ما اتخذه إلى تلك الغاية المثلى من أمور إلا تشريعات فطرية سوية . وموضوعية عالمية تسلم بها كل العقول فى كل عصر ومصر : الأمر الذى تناولناه فى نشرتينا (ا) و (ب) فى موضوعنا الذى مازلنا بصدده (العدل وأثره فى حياة الأمة) .

لقد جاء الإسلام يدعو إلى العدل والإنصاف والقسطاس المستقيم ليقيم على ذلك مجتمعاً راشدا متحابا متماسكا مؤديا واجباته محترما حقوقه لايتصارع ولايخون ولا يهمل ولا يفرط ولايتواطأ ولا يمالىء ولا يعتدى بعضه على حقوق البعض الآخر .

وفى هذا المجال بلغ الإسلام من رحابة الأفق وعمق النظرة شأواً بعيداً حيث لم يجعل للعواطف فيه أدنى أثر . ولا لاختلاف الدين أى دخل فى لىّ عنق العدالة أو إخفاء وجهها .

فلقد أمرنا الإسلام أن نحتكم إلى الحق وحده لانحيد عنه ولا نميل بغض النظر عما يدين به المتحاكمان . بل إن الإسلام ارتفع فى تشريعه إلى أبعد من العدالة وضرورة تحكيمها وحدها بصورة بعيدة عن الأهواء والرغائب إلى ندب المسلمين إلى بر المخالفين والرفق بهم والإحسان إليهم وعدم إيذائهم أو الجفاء معهم . فإنه إذا لم تجمعنا وإياهم علائق الإيمان فإن الروابط الإنسانية تجمعنا بهم . وهذا يستوجب بطبيعته حسناً فى المعاملة وبراً فى العلاقة الأمر الذى حرص على الاستمساك به سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

وهذا مابيناه فى العنصر الأول .

إن صلاح الأمة وسداد أمرها ورشاد حاضرها ومستقبلها لايتم إلا بالعدل ولا ينهض إلا عليه بحيث يتعاون على تحكيمه وإرساء قوائمه كل من الحاكم والمحكوم على السواء . الحاكم بوجوب التزامه وضرورة تجسيده وعدم التفلت منه أو الزيغ عنه . والمحكوم بحتمية اللجوء إلى العدالة والاحتكام لها ، وضرورة طاعة الحاكم العادل فيما يحكم به ويفصل فى أية مشكلة أو نزاع فى تنفيذ كامل محفوف بكل صور الرضا التام ومظاهر التسليم المطلق .

وكمال الإيمان وتمام اليقين رهن بهذا الأمر ووقف على استجابة النفوس إليه . وإذعانها له واطمئنانها به من غير حرج ولا تململ ولا استنكاف . من

حق الحاكم العادل أن يحكم وينفذ، وأن يسمع ويطاع، ومن واجب الأمة أن تذعن وتسلم وأن تسمع وتطيع سيما بعد أن بايعته فأعطته صفقة يدها ومنحته ثمرة فؤادها تطيعه فى طاعة الله وتعصيه فى معصيته حيث لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وإلا فمن تأبى على إمامه وخرج على حاكمه ولم يطعه فيما توجه من واجب وما لزم من حق. فمات مات ميتة جاهلية. فإذا بعث يوم القيامة مثل بين يدى ربه منقطع الحجة فاقد البرهان على الولاء لدينه والانتماء له.

وهذا ما بيناه فى العنصر الثانى.

إن أحب الناس إلى الله عز وجل هم هؤلاء الذين يرعون العدالة ويحتكمون إليها ويحملون غيرهم على الأخذ بها وعدم النكوص عنها وأولئك هم أدنى الخلق من ربهم يوم القيامة وأحظاهم لديه. يظلهم فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ويوليهم إعزازه ويحبوهم بكرمه ويباهى بهم فى ذلك اليوم على رءوس الأشهاد ويجعلهم من أهل نعيمه وورثة جنته.

لقد أعزوا رعاياهم بعدالة التشريع وحكومة الحق التى تحرص على الإنصاف والقسطاس المستقيم فترد الأمور إلى نصابها والحقوق إلى ذويها فكان جزاؤهم هو ما فوق العدل من فضل الله تعالى وبره ونعيمه.

وذلك ما ضمناه فى العنصر الثالث:

لقد جاء الإسلام بالعدل ودعا إليه وجعل شريعته أمثل منهج له وأمر الحاكم والمحكوم بضرورة الالتزام بالعدالة احتكاما وتطبيقاً والتزاما مع الحيدة الكاملة والموضوعية الأمينة. ففى ذلك رشاد الأمة وفلاحها فى دنياها وآخرتها.

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية إذ يختتم بهذه النشرة (ج) موضوع (العدل وأثره فى حياة الأمة) فإنه ليرجو أن يكون قد أعطى صورة واضحة متكاملة المعالم عن العدل فى الإسلام وصلته بالحياة وأثره فى الأمة .

نسأل الله تعالى أن يعيننا على نفوسنا وأن يأخذ بنواصينا إلى رحاب العدل وقصد السبيل . والله الموفق والحمد لله رب العالمين

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

العنصر الأول .

العدل مع غير المسلمين

إن الإسلام دين الحق والمنطق والشريعة العادلة والقسطاس المستقيم الذي إن احتكم إليه الناس صانوا حقوقهم وأدُّوا واجبهم لأنه يتحرى بأحكامه وضع الحق في نصابه ورد الحقوق إلى ذويها والانتصاف للضعيف من القوي وللمظلوم من الظالم لا فرق في ذلك بين مسلم وغيره فإذا احتكم المخالفون لنا في الدين إلى الحاكم المسلم وجب الحكم بشريعة الإسلام وعدم الزيغ عنها والجنوح عن عدالتها لتعصب أو هوى هذا فضلا عما يجب نحوهم من إحسان معاملتهم والعطف عليهم والسير بهم نظرا لما تربطنا بهم من علائق الإنسانية .

١ — قال تعالى « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما » .

(سورة النساء : ١٠٥ ، ١٠٦)

قال المراغي في تفسيره :

قوله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » أي إنا أنزلنا إليك هذا القرآن لتحقيق الحق وبيانه لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله من الأحكام .

« ولا تكن للخائنين خصيما » أي ولا تكن لمن خان خصيما . أي مخاصما ومدافعا تدفع عنه . من طالبه بحقه الذي خان فيه .

وخلاصة ذلك — إن عليك ألا تتهاون في تحري الحق اغترارا بلحن الخائنين وقوة جدلهم في الخصومة لئلا تكون خصيما لهم وتقع في ورطة الدفاع

عنهم . ويؤيد هذا حديث أم سلمة : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى بنحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار »

« واستغفر الله » مما يعرض لك من شئون البشر وأحوالهم بالميل إلى من تراه ألحن بحجته أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسينا للظن به ، فهذا ونحوه صورته صورة من أتى ذنبا يوجب الاستغفار وإن لم يكن متعمدا للزيغ عن العدل ، والتحيز للخصم .

وفى هذا من زيادة الحرص على الحق والتشديد فيه مالا يخفى حتى كأن مجرد الالتفات إلى قول المخادع يجب الاحتراس منه .

كما أن فيه إيماء إلى أن الاعتقاد الشخصى والميل الفطرى والدينى لاينبغى أن يظهر لهما أثر فى مجلس القضاء وإلى أن القاضى لايساعد من يظن أنه صاحب الحق بل عليه أن يساوى بين المتخاصمين فى كل شىء . والنبى ﷺ لم يحكم فى هذه القضية قبل نزول الآيات ولم يعمل بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق ، لكنه أحسن الظن فى أمر بيّن له علام الغيوب حقيقة الواقع فيه . وما ينبغى أن يعامل به ذويه .

ثم رغبهم فى المغفرة فقال : « إن الله كان غفورا رحيما » أى إنه تعالى مبالغ فى المغفرة والرحمة لمن استغفره .

(تفسير المراغى جـ ٥ ص ١٤٧ ، ١٤٨ بتصرف)

٢ — وقال تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك

فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » .

(سورة المائدة : ٤٢)

قال القرطبي في تفسيره :

قوله تعالى « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » هذا تخيير من الله تعالى . ذكره القشيري . وكان اليهود إذ ذاك أهل موادعة لا أهل ذمة . فإن النبي . ﷺ . لما قدم المدينة وادع اليهود . ولا يجب علينا الحكم بين الكفار إذا لم يكونوا أهل ذمة . بل يجوز الحكم إن أردنا . فأما أهل الذمة فهل يجب علينا الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا ؟ قولان للشافعي .

وإن ارتبطت الخصومة بمسلم يجب الحكم . قال المهدوي ، أجمع العلماء على أن على الحاكم أن يحكم بين المسلم والذمي . واختلفوا في الذميين فذهب بعضهم إلى أن الآية محكمة وأن الحاكم مخير . روى ذلك عن النخعي والشعبي وغيرهما. وهو مذهب مالك والشافعي وغيرهما سوى ماروى عن مالك في ترك إقامة الحد على أهل الكتاب في الزنى . فإنه إن زنى المسلم بالكتابية حد ولا حد عليها . فإن كان الزانيان ذميين فلا حد عليهما وهو مذهب أبي حنيفة ومحمد بن الحسن وغيرهما . وقد روى عن أبي حنيفة أيضاً أنه قال يجلدان ولا يرجمان . وقال الشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وغيرهم عليهما الحد إن أتيا راضيين بحكمنا .

قال ابن خويز منداد : ولا يرسل الإمام إليهم إذا استعدى بعضهم على بعض ولا يحضر الخصم مجلسه إلا أن يكون فيما يتعلق بالمظالم التي ينتشر منها الفساد كالقتل ونهب المنازل وأشباه ذلك . فأما الديون والطلاق وسائر المعاملات

فلا يحكم بينهم إلا بعد التراضى ، والاختيار له : ألا يحكم ويردهم إلى حكامهم . فإن حكم بينهم حكم بحكم الإسلام وأما إجبارهم على حكم المسلمين فيما ينتشر منه الفساد فليس على الفساد عاهدناهم ، وواجب قطع الفساد عنهم ، منهم ومن غيرهم . لأن فى ذلك حفظ أموالهم ودمائهم ، ولعل فى دينهم استباحة ذلك فينتشر منه الفساد بيننا ، ولذلك منعناهم أن يبيعوا الخمر جهارا وأن يظهروا الزنا وغير ذلك من القاذورات لئلا يفسد بهم سفهاء المسلمين ، وأما الحكم فيما يختص به دينهم من الطلاق والزنا وغيره فليس يلزمهم أن يتدينوا بديننا فالحكم بينهم بذلك إضرار بحكامهم وتغيير ملتهم وليس كذلك الديون والمعاملات . لأن فيها وجها من للظالم وقطع الفساد .

وفى الآية قول ثان وهو ما روى عن عمر بن عبد العزيز والنخعى أيضا : أن التخيير المذكور فى الآية منسوخ بقوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» وأن على الحاكم أن يحكم بينهم . وهو مذهب عطاء الخراسانى وأبى حنيفة واصحابه وغيرهم .

وقال الزهرى : مضت السنة أن يرد أهل الحقوق فى حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم الا أن يأتوا راغبين فى حكم الله فيحكم بينهم بكتاب الله . قال السمرقندى : وهذا القول يوافق قول أبى حنيفة أنه لايحكم بينهم مالم يتراضوا بحكمنا .

قال النحاس : ولا اختلاف عند أبى حنيفة وزفر وأبى يوسف ومحمد على أنه إذا تحاكم أهل الكتاب إلى الإمام أنه ليس له أن يعرض عنهم . غير أن أبا حنيفة قال : إذا جاءت المرأة والزوج فعليه أن يحكم بينهما بالعدل . وإن جاءت المرأة وحدها ولم يرض الزوج لم يحكم ، وقال الباقون : يحكم .

وقوله تعالى : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » روى النسائى عن ابن عباس قال : كان قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، وكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به . وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة ودى مائة وسق[1] من تمر . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا ادفعوه الينا لنقتله . فقالوا بيننا و بينكم النبى . صلى الله عليه وسلم فنزلت : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » النفس بالنفس ونزلت : « أفحكم الجاهليه يبغون »

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ٦ ص ١٨٤ - ١٨٧ بتصرف)

وقال القاسمى فى تفسيره :

« فإن جاءوك » يعنى اليهود . لتحكم بينهم « فاحكم بينهم » لأنهم اتخذوك حكما . « أو أعرض عنهم » لأنهم لايقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل مايوافق أهواءهم . أى فأنت بالخيار .

وقد استدل بالآية من قال : إن الإمام مخير فى الحكم بين أهل الذمة أو الإعراض عنهم . وعن بعض السلف أن التخيير المذكور نسخ بقوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » والتحقيق أنها محكمة والتخيير باق وهو مروى عن الحسن والشعبى وغيرهما . لأنه لامنافاة بين الآيتين فإن قوله تعالى « فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » فيه التخيير . وقوله تعالى :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله » فيه كيفية الحكم إذا حكم بينهم .

« وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » أى فلن يقدروا على الإضرار بك لأن الله تعالى عصمك من الناس « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » أى

(١) الوسق : ستون صاعا

بالعدل الذى أمرت به وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل . «إن الله يحب المقسطين» أى العادلين ولوا وحكموا . روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا » .

(محاسن التأويل للقاسمى جـ ٦ ص ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ بتصرف)

٣ — وقال تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

(سورة الممتحنة : ٨)

قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره :

يقول تعالى ذكره « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين » من أهل مكة . « ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » أى وتعدلوا فيهم باحسانكم إليهم وبركم بهم .

واختلف أهل التأويل بالذين عنوا بهذه الآية . وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب . قول من قال : عنى بذلك . لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم . إن الله عز وجل عم بقوله : « الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم » جميع من كان ذلك صفته ولم يخصص به بعضا دون بعض لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب أو ممن لاقرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرّم ولا منهى عنه إذا لم يكن فى ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح ويبين صحة ذلك ماروى عن عبدالله

ابن الزبير عن أبيه قال نزلت فى أسماء بنت أبى بكر و كانت لها أم فى الجاهلية يقال لها : قتيلة بنت عبد العزى . فأتتها بهدايا .. فقالت لا أقبل لك هدية ولا تدخلى علىّ حتى يأذن رسول الله . ﷺ . فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ فأنزل الله لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم .. الآية . (تفسير الطبرى جـ٢٨ صـ٤٣ بتصرف)

وقال أصحاب تفسير القرآن الكريم :

« إن الله يجيز للمسلمين أن يحسنوا معاملة من لم يقاتلوهم ممن ليسوا على دينهم ماداموا لم يكونوا ممن تآمروا على إخراجهم من مكة بل يقابلوهم بالحسنى ويعاملوهم بالعدل والقسطاس لأن الله يأمر بالعدل والإحسان ويحب من يتصف بهاتين الخلتين . وفى هـــذا إشعار بأن علينا أن نحسن معاملة من يقيمون معنا فى ديارنا ممن ليسوا على ديننا »

(تفسير القرآن الكريم لبرانق وآخرين جـ٢٨ صـ٥٥ بتصرف)

العـــدل مع غير المسلمين

الأحاديث :

لقـــد كانت حياة الرسول ﷺ مثلا رائداً وتجسيداً حياً لـكل ما جاء به الإسلام وفى مجال وجوب العدل مع غير المسلمين والحكم عليهم والفصل فيما بينهم بما أنزل الله كان الرسول الـكريم قمة شامخة فى تحكيم كتاب الله تعالى وشريعته على المخالفين له فى الدين من اليهود الذين جاوروه فى المدينة فى كل ما رفع إليه من خصوماتهم فيما بينهم وفيما بينهم وبين المسلمين لم يجر فى حكمه ولم يزغ عن عدله .

١ — عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه قال : زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض ، اذهبوا إلى هذا النبي فانه بعث بالتخفيف ، فان أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها ، واحتججنا بها عند الله قلنا فتيا نبي من أنبيائك قال : فأتوا النبي ـ ﷺ، وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا يا أبا القاسم . ما تقول فى رجل وامرأة زنيا ؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم فقام على الباب فقال : « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى : ما تجدون فى التوراة على من زنى ؟ إذا أحصن » قالوا يحمم [1] و يجبه [2] و يجلد . قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه ـ ﷺ ـ سكت ألظ به ﷺ النشدة . فقال : اللهم إذ أنشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم فقال النبي ﷺ : « فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟ » قال زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل فى أثره من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه ، وقالوا لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم . فقال النبي ﷺ ـ « فانى أحكم بما فى التوراة فأمر بهما فرجما » قال الزهرى : فبلغنا أنه نزل فى ذلك (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا . . الآية) فكان النبي ﷺ منهم » رواه مسلم . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢ صـ٥٨)

العــدل مع غير المسلمين

الآثــار

لقد حذى الخلفاء الراشدون والحكام المسلمون حذو رسول الله ﷺ فى وجوب تحري العدل والحكم بالقسطاس المستقيم على غير المسلمين ممن رفعت

---

(١) أى يطلى بشيء أسود كالقار ونحوه .

(٢) أى يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما .

إليهم خصوماتهم دون تعصب أو ممالأة . الأمر الذى أثار انتباه هؤلاء المخالفين إلى عظمة الاسلام فما وسع بعضهم إلا الانجذاب إليه والإيمان .

١ — عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه — أن مسلما ويهوديا . اختصما إلى عمر — رضى الله عنه — فرأى الحق لليهودى فقضى له عمر به فقال له اليهودى والله لقد قضيت بالحق — فضربه عمر بالدرة وقال : ومايدريك ؟ فقال اليهودى : والله إنا نجد فى التوراة ليس قاض يقضى بالحق إلا كان عن يمينه ملك وعن شماله ملك يسددانه ويوفقانه للحق مادام على الحق فإذا ترك الحق عرجا وتركاه . رواه مالك . (الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤٥٥)

٢ — ووجد على — رضى الله عنه — درعه عند رجل من أهل الكتاب فأقبل به الى شريح قاضيه يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال . إنها درعى ولم أبع ولم أهب فسأل شريح الرجل : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال ما الدرع إلا درعى وماأمير المؤمنين عندى بكاذب : فالتفت شريح الى علي يسأله : ياأمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال أصاب شريح ما لى بينة فقضى بالدرع للرجل فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه إلاأن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . الدرع والله درعك ياأمير المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق . فقال على · أما إذا أسلمت فهو لك .

(العدالة الاجتماعية للأستاذ / سيد قطب ص ١٩٢)

العنصر الثانى
ضرورة طاعة الحاكم العادل

إن طاعة الحاكم العادل فريضة واجبة على كل فرد من أفراد رعيته حيث أن فى ذلك عونه الايجابى على دوام استمراره فى عدالته وممارسته لواجبه. ولقد أمر الله الأمة الاسلامية أن تكون على هـذا المستوى تجاه هذه الفريضة فتطيع الحاكم فى طاعة الله وتستجيب لحكم الله الذى يحكم به . وتستمان بهذا حتى يصبح شامتها البارزة وسمتها الواضح ولا يكتمل إيمان الأمة ولا ترقى فى مدارجه إلا بتجسيد هـذا الدين وترجمة شريعته فى احتكام اليها وتطبيق لها وإذعان مطلق وتسليم تام لما تحكم به ورضا نفس بذلك تختفى معه كل صور الوجدان المخالف.

١ — قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (سورة النساء آية : ٦٥)

يقول الطبرى فى تفسيره :

« يعنى بقوله — جل ثناؤه — (فلا) فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك ، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ويصدون عنك إذا دعوا اليك يا محمد . واستأنف القسم — جل ذكره — فقال وربك يا محمد لا يؤمنون أى لا يصدقون بى وبك وبما أنزل اليك «حتى يحكموك فيما شجر بينهم» يقول حتى يجعلوك حكما بينهم فيما اختلط بينهم من أمورهم فالتبس عليهم حكمه . يقال شجر يشجر ، وتشاجر القوم إذا اختلفوا فى الكلام والأمر « ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت » ليس المعنى لا يجدوا فى أنفسهم ضيقاً مما قضيت وإنما معناه ثم لا تحرج أنفسهم مما قضيت أى لا تأثم بإنكارها ما قضيت وشكها فى

طاعتك وأن الذى قضيت به بينهم حق لايجوز لهم خلافه . كما روى عن مجاهد (حرجا مما قضيت) قال شكا . وعن الضحاك فى قوله « لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت » قال إثما (ويسلموا تسليما) أى ويسلموا لقضائك وحكمك إذعانا منهم بالطاعة وإقراراً لك بالنبوة تسليما .

نزلت هذه الآية فى الزبير بن العوام وخصم له من الأنصار . فعن ابن شهاب أن عروة بن الزبير حدثه أن عبد الله بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام أنه خاصم رجلا من الأنصار ـ قد شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ـ فى شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل فقال الأنصارى سرح الماء يمر فأبى عليه فقال رسول الله ﷺ : أسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الأنصارى وقال : يارسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال أسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك واستوفى رسول الله ﷺ للزبير حقه : قال أبو جعفر والصواب استوعب وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه الشفقة له وللأنصارى فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصارى استوعب للزبير حقه فى صريح الحكم قال فقال الزبير ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » الآية .

وروى الزهرى عن عروة قال : خاصم الزبير رجل من الأنصار فى شرج من شراج الحرة فقال رسول الله ﷺ يازبير اشرب ثم خل سبيل الماء فقال الذى من الأنصار اعدل يانبى الله وإن كان ابن عمتك قال فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى عرف أن قد ساءه ما قال ثم قال يازبير احبس الماء إلى الجدر أو إلى

الـكعبين ثم خل سبيل الماء قال ونزلت : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . (تفسير الطبرى جـ ٥ ص ١٠٠ ، ١٠١ بتصرف)

وقال صاحب المنار فى تفسيره :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هذه الآية متصلة بما قبلها أشد الاتصال والسياق محكم متسق وإن ذكروا أسبابا خاصة لنزولها اقسم الله تعالى بربوبيته لرسوله ﷺ مخاطبا له فى ذلك خطاب التكريم . أقسم تعالى بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم إليه ﷺ وأمثالهم وهم من المنافقين الذين يزعمون الإيمان زعما . لا يؤمنون إيمانا صحيحا حقيقيا وهو إيمان الإذعان النفسى إلا بثلاث .

(الأولى) أن يحكموا الرسول ﷺ فيما شجر بينهم أى فى القضايا التى يختصمون فيها ويشتجرون فلم يتبين الحق فيها لهم أو لم يعترف به كل منهم بل يذهب كل مذهباً فيه ، فمعنى شجر اختلف واختلط الأمر فيه .

(الثانية) قوله : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت » الحرج الضيق . والقضاء الحكم . والمعنى ثم تذعن نفوسهم لقضائك وحكمك فيما شجر بينهم بحيث لا يكون فيها ضيق ولا امتعاض من قبوله والعمل به . ولما كان الإنسان لا يملك نفسه أن يسبق إليها الألم والحرج إذا خسرت ما كانت ترجو من الفوز والحكم لها بالحق المختصم فيه ، عفا الله تعالى عن الحرج يفاجىء النفس عند الصدمة الأولى ، وجعل هذا الشرط على التراخى فعطفه بثم . والمؤمن الكامل الإيمان ينشرح صدره لحكم الرسول من أول وهلة لعلمه أنه الحق وأن الخير له فيه والسعادة فى الإذعان له .

فإذا كان فى إيمانه ضعف ما ضاق صدره عند الصدمة الأولى ثم يعود على نفسه بالذكرى وينحى عليها باللوم حتى تخشع وتنشرح بنور الإيمان وإيثار الحق الذى حكم به الرسول ﷺ على الهوى . وقيل المراد بنفى وجدان الحرج عدم الشك فى حقية الحكم بأن يكون موقناً بأنه قضاء بمر الحق الذى لاشبهة فيه قال هـذا من قاله وهو خلاف المتبادر لأن وجدان القلب لا يتعلق به تكليف ، وقد علمت ما هو الصواب .

(الثالثة) قوله تعالى : « ويسلموا تسليما » التسليم هنا الانقياد بالفعل وما كل من يعتقد حقية الحكم ولا يجد فى نفسه ضيقا منه ينقاد له بالفعل وينفذه طوعا ، وإن لم يخش فى ترك العمل به مؤاخذة فى الدنيا .

قال الأستاذ الإمام : قوله تعالى « فلا وربك » إلخ تفريع على ماسبقه وهو نفى وإبطال لظن الظانين أنهم بمجرد محافظتهم على أحكام الدين الظاهرة يكونون صحيحى الإيمان مستحقين للنجاة من عذاب الآخرة والفوز بثوابها لا وربك لا يكونون مؤمنين حتى يكونوا موقنين فى قلوبهم مذعنين فى بواطنهم ولا يكونون كذلك حتى يحكموك فيما شجر واختلط بينهم من الحقوق ، ثم بعد أن تحكم بينهم لا يجدوا فى أنفسهم الضيق الذى يحصل للمحكوم عليه إذا لم يكن خاضعا للحكم فى قلبه فإن الحرج إنما يلازم قلب من لم يخضع . ذلك بأن المؤمن لا ينازع أحداً فى شىء إلا بما عنده من شبهة الحق ، فإذا كان كل من الخصمين يرضى بالحق متى عرفه زالت الشبهة عنه كما هو شأن المؤمن فحكم الرسول يرضيهما ظاهرا وباطنا لأنه أعدل من يحكم بالحق .

(تفسير المنار جـ ٥ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩ بتصرف)

٢ — وقال تعالى : يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً . (سورة النساء آية : ٥٩)

قال ابن كثير فى تفسيره قال البخارى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس ابن عدى إذ بعثه رسول الله ﷺ فى سرية وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه وروى الإمام أحمد عن على قال بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم فى شيء . قال : فقال لهم أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعونى قالوا بلى . قال فاجمعوا لى حطبا ثم دعا بنار فأضرمها فيه ثم قال عزمت عليكم لتدخلنها قال : فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ فإن أمركم أن تدخلوها فلا تدخلوها قالوا فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فقال لهم لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا إنما الطاعة فى المعروف . أخرجاه فى الصحيحين . وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » أخرجاه أيضا من حديث يحي بن القطان » وعن عبادة بن الصامت قال بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا . وألا ننازع الأمر أهله قال « إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان » أخرجاه وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس « وأولى الأمر منكم» يعنى أهل الفقه والدين وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصرى وأبو العالية « وأولى الأمر منكم » يعنى العلماء .

والظاهر والله أعلم أنها عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء قال تعالى.

« لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت » وقال تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وفى الحديث الصحيح المتفق على صحته عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصا الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصا أميرى فقد عصانى » فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ولهذا قال تعالى « أطيعوا الله » أى اتبعوا كتابه « وأطيعوا الرسول » أى خذوا بسنته « وأولى الأمر منكم » أى فيما أمروكم به من طاعة الله لا فى معصية الله فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله كما تقدم فى الحديث الصحيح « إنما الطاعة فى المعروف وقوله ﷺ « لا طاعة فى معصية الله » رواه الإمام أحمد بسنده عن عمران بن حصين وقوله « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول » قال مجاهد وغير واحد من السلف أى إلى كتاب الله وسنة رسوله وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال ولهذا قال تعالى « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » أى ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر وقوله (ذلك خير) أى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما فى فصل النزاع خير .

« وأحسن تأويلا » أى وأحسن عاقبة ومآلا كما قال السدى وغير واحد.
وقال مجاهد وأحسن جزاء وهو قريب .
(تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥١٧ ، ٥١٨ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره (يأيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) أى أطيعوا الله واعملوا بكتابه وأطيعوا الرسول لأنه يبين للناس مانزل إليهم فقد جرت سنة الله أن يبلغ عنه شرعه رسل تكفل بعصمتهم وأوجب علينا طاعتهم .

« وأولى الأمر » وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا أمناء وألا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله التى عرفت بالتواتر . وأن يكونوا مختارين فى بحثهم فى الأمر واتفاقهم عليه .

وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الدينى فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب وليس لأحد رأى فيه إلا ما يكون فى فهمه فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع وكانوا مختارين فى ذلك غير مكرهين بقوة أحد ولا نفوذه فطاعتهم واجبة . كما فعل عمر حين استشار أهل الرأى من الصحابة فى الديوان الذى أنشأه وفى غيره من المصالح التى أحدثها برأى أولى الأمر من الصحابة ولم تكن فى زمن النبى ﷺ ولم يعترض عليه أحد من علمائهم فى ذلك .

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » أى فإذا لم يوجد نص على الحكم فى الكتاب ولا فى السنة ينظر أولو الأمر فيه . لأنهم هم الذين يوثق

بهم فإذا اتفقوا وأجمعوا وجب العمل بما أجمعوا عليه . وإن اختلفوا وتنازعوا وجب عرض ذلك على الكتاب والسنة وما فيهما من القواعد العامة فما كان موافقا لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به . وما كان مخالفا لهما علم أنه غير صالح ووجب تركه وبذا يزول التنازع وتجتمع الكلمة . وهذا الرد واستنباط الفصل فى الخلاف من القواعد هو الذى يعبر عنه بالقياس والأول هو الإجماع الذى يعتد به .

ومما تقدم تعلم أن الآية مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية وهى :

(١) الأصل الأول القرآن الكريم والعمل به هو طاعة الله تعالى :

(٢) الأصل الثانى سنة رسول الله ﷺ . والعمل به طاعة الرسول ﷺ .

(٣) الأصل الثالث إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كالتجار والصناع والزراع ورؤساء العمال والأحزاب ومديرى الصحف ورؤساء تحريرها وطاعتهم حينئذ هى طاعة أولى الأمر .

(٤) الأصل الرابع عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة فى الكتاب والسنة وذلك قوله : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » .

فهذه الأربعة الأصول هى مصادر الشريعة . ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة ممن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن .

ويجب على الحكام الحكم بما يقررونه وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين : الأولى : الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن (الهيئة التشريعية) والجماعة الثانية : جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون (السلطة التنفيذية) .

وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سراً وجهراً وهى بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله ﷺ بإذنه أو حكم نفسها الذى استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت باخلاصهم وعدم اتفاقهم إلا على ماهو الأصلح لها .

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . أى ردوا الشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحظوظ الدنيا .

وفى هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه فانه لا يكون مؤمناً حقا .

« ذلك خير وأحسن تأويلا » أى ذلك الرد للشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم ، لأنه أقوى الأسس فى حكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم ، ومن ثم لم يشرع لكم فى كتابه ، وعلى لسان رسوله إلاما فيه مصالحكم ، ومنافعكم ، وما هو أحسن عاقبة لما فيه من قطع عرق التنازع وسد ذرائع الفتن » . (تفسير المراغى ج ٥ ص ٧٢ — ٧٤)

٣ — وقال تعالى : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » .
(سورة النور : آية ٥١)

قال ابن كثير فى تفسيره : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا » أى سمعا وطاعة ولهذا وصفهم الله بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى : « وأولئك هم المفلحون » وقال قتادة فى هذه الآية « أن يقولوا سمعنا وأطعنا » ذكر لنا أن عبادة بن الصامت ـ وكان عقبياً بدريا أحد نقباء الأنصار أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك ؟ قال بلى قال فإن عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شىء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله. وقال قتادة ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ولا خير إلا فى جماعة والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة . قال وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين ، رواه ابن أبى حاتم . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٢٩٩)

وقال الطبرى : فى تفسير الآية :

يقول تعالى ذكره إنما كان ينبغى أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله ليحكم بينهم وبين خصومهم أن يقولوا سمعنا ما قيل لنا وأطعنا

من دعانا إلى ذلك ولم يعن بكان فى هذا الموضع الخبر عن أمر قد مضى فيقضى ولكنه تأنيب من الله للذين نزلت هذه الآيات بسببهم وتأديب منه آخرين غيرهم وقوله « وأولئك هم المفلحون » يقول تعالى ذكره « والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم » وبين خصومهم « أن يقولوا سمعنا وأطعنا » «المفلحون » أى هم المدركون طلباتهم بفعلهم ذلك المخلدون فى جنات الله .

(تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ١٢١ بتصرف)

الأدلة من السنة :

إن طاعة الحاكم العادل حق مقدس وواجب مشروع سيما بعد أن منحته رعيته البيعة وخولته سلطان حكمها فعدل وأمانة مسئوليتها فأدى . وهذه الطاعة الواجبة تظل الأمة مطالبة بها على وجه الالتزام وضرورة الوفاء ما بقى الحاكم يعدل فى حكمه بين رعيته ويسير بينهم وفق شريعة الله وفى إطار الحق الذى أنزله فمن فرط فى شىء من ذلك من رعيته مات ميتة جاهلية ثم يبعث يوم القيامة مديناً عديم البرهان منقطع الحجة بين يدى ربه عز وجل .

١ — عن أم حصين أنها سمعت رسول الله — ﷺ . خطب فى حجة الوداع يقول : « لو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا وأطيعوا » رواه مسلم . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٥١٧)

٢ — وعن ابن عمر — رضى الله عنهما — أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له . ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه مسلم .

(تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥١٧)

٣ — وروى مسلم عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال دخلت المسجد فإذا عبد الرحمن بن عمرو بن العاص جالس فى ظل الكعبة والناس حوله مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله ـ ﷺ فى سفر فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو فى جشره[1] إذ نادى منادى رسول الله ـ ﷺ ـ الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنه لم يكن نبى من قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن هذه الأمة جعلت عافيتها فى أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور ينكرونها وتجىء فتن يرقق بعضها بعضاً. وتجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتى ثم تنكشف وتجىء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر. قال فدنوت منه فقلت: أنشدك بالله: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال سمعته أذناى ووعاه قلبى فقلت له هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ويقتل بعضنا بعضاً والله تعالى يقول: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما» قال فسكت ساعة ثم قال: أطعه فى طاعة الله وأعصه فى معصية الله. » رواه مسلم.

(تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٥١٧)

---

(١) الجشر: المكان الذى ترعى وتبيت فيه الدواب.

العنصر الثالث

جزاء العادلين

الأدلة من الكتاب :

إن العدل من حيث الأخلاق ملاك الفضائل ولحمتها وسداها ومن حيث الشريعة قطب الدائرة الذى تدور عليه أحكامها ومن حيث السلطان والحكم هو نقطة الارتكاز فى استتباب الأمن واستقرار النظام ومن حيث موقعه فى تقدم الأمة هو أساس أصيل ودعامة كبرى من دعائم فلاحها وموجب رشادها ومن ثم كان الجزاء عظيما دونه كل جزاء للملتزمين به المطبقين له فى كل مايوكل إليهم من أمور وما يعهد إليهم من تبعات وليس هناك فوق حب الله جزاء يمنحه الله لهم .

قال تعالى : «وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» . (سورة الحجرات آية : ٩)

يقول الطبرى فى تفسيره :

« وأقسطوا » أى واعدلوا أيها المؤمنون فى حكمكم بين من حكمتم بينهم بأن لا تتجاوزوا فى أحكامكم حكم الله وحكم رسوله .

« إن الله يحب المقسطين » أى إن الله يحب العادلين فى أحكامهم القاضين بين خلقه بالقسط .

(جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى ج٢٦ ص ٨٢ بتصرف)

ويقول القاسمى فى تفسيره :

« وأقسطوا » أى اعدلوا فى كل ما تأتون وتذرون .

« إن الله يحب المقسطين » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

(محاسن التأويل للقاسمى ج ١٥ ص ٥٤٥٢)

الأدلة من السنة :

ليس هناك من إنسان يكون أحب إلى الله ولا أقرب درجة منه ولا أعلى منزلة عنده من رئيس عادل وأمير مقسط وقاض منصف ينصف الناس من نفسه ويعطى كل إنسان حقه ويريح على المظلومين وللمستضعفين ما منعوه أو سلب منهم أولئك فى الدنيا هم أهل الحظوة عند ربهم فى خلوتهم وجلوتهم إن طلبوا منه أعطاهم وإن سألوه أجابهم ثم هم فى الآخرة عن يمين الرحمن وفى ظل ضيافته وبحبوحة كرمه وفى رحاب نعيمه وفراديس جناته فهنيئا لهم الجنة حسنت مستقرا ومقاما .

١ — عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله . ﷺ : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناه منه مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر » . رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط . (الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥٠)

٢ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله . ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن — وكلتا يديه يمين — الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » .

رواه مسلم والنسائى .(المصدر السابق ج ٣ ص ٤٥٠)

٣ — وعن أبى هريرة . رضى الله عنه . عن النبى . ﷺ . قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله . إمام عادل . وشاب نشأ فى عبادة الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » . متفق عليه . (المصدر السابق ج ٣ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨)

٤ — وعن عياض بن حمار — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول : « أهل الجنة ثلاثة . ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » رواه مسلم .

(المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٥٠)

٥ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم . الصائم حتى يفطر . والإمام العادل . ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء . ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » . رواه أحمد والترمذى وحسنه (المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٤٩)

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٦٣ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

غرة ربيع الأول سنة ١٣٩٦ هـ ٢ مارس سنة ١٩٧٦ م

الاحسان وأثره فى حياة الأمة (١)

مقـــدمة :

التعريف بالإحسان ·

العنـــــاصر :

١ — إحسان الله إلى عباده

(ا) الإحسان بمعنى الاتقان

(ب) الإحسان بمعنى الإنعام

٢ — دعوة الإسلام إلى الإحسان

٣ — الإحسان فى القول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد :

فإن الإسلام دين المثل الكامل الذى أنزله الله للبشر . وهو المنهج الحق الذى أراد لهم أن ينهجوه ويحيوا فى إطاره . وهو إن اعتنقوه والتزموا به لبى فيهم كل هواتف الروح وأشواق البدن وضرورات العيش ومقتضيات الاجتماع وأحاطهم بكل مافيه أمنهم وسلامهم ورشادهم فى حنايا النفس وشئون الفرد ورحاب المجتمع ، ثم قادهم فى النهاية إلى عز الدنيا وكرامة الآخرة .

ولقد دعانا الإسلام إلى عديد من الفضائل العليا والقيم الرفيعة . وفى طليعة ما لبى به منها دواعى النفس والمجتمع ـ فضيلة الإحسان بمضمونها الشامل وصورتها العملية وأثرها البار بحاضر الإنسان ومستقبله الوفى بأمردنياه وآخرته المستوعب لكل العلاقات والروابط التى تصله بربه ونفسه وأمته .

وحينما يندبنا الحق ـ جل وعلا ـ إلى فضيلة من الفضائل أو قيمة من القيم فإنما يندبنا ـ كما هو الشأن دائما ـ إلى ذرى الأمور ومعاليها .

وفى موضوعنا الذى نعالجه (الإحسان وأثره فى حياة الأمة) نجد أن إحسان الله فى عالم الخلق يتحقق فى أمرين بارزين .

أما الأول :

فهو ما يبدو فى الخلق من إتقان بلغ الكمال وأدنى على الغاية فى شمول

بين وإحاطة تامة تشمل السموات بما فيها من مجرات ومدارات وأفلاك سيارة وكواكب دوارة وأحاط بالأرض وما فيها من جبال ونجاد ووهاد ونبات وشجر وزروع وثمر وكنوز ومواد ومعادن . وما خلق الله عليها من سائر الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان الذى أبدعه الله فأحسن إبداعه وأتقنه فأحكم إتقانه . وقومه خير تقويم فى شكله وجوهره ومظهره ومخبره . وزوده بالعديد من الأجهزة الدقيقة والأعضاء المناسبة ظاهرة وباطنة حتى يستطيع أن يقوم بوظيفته خير قيام وأن ينهض فى خلافته عن الله فى أرضه على النحو الذى أراد له الله عز وجل أن يكون . ثم مابثه الله فى الوجود كله من نواميس وقوانين يمضى على سننها الكون بكل جماده ونباته وحيوانه وإنسانه وأفلاكه فى ألفة وثبات واطراد .

الأمر الذى بدا فيه إحسان الله فيما خلق وإتقانه فيما أبدع .

وأما الأمر الثانى الذى يتجلى فيه إحسان الله تعالى إلى خلقه وإنعامه عليهم فإن هذا أمر تتقاصر العقول والأفكار عن أن تجول فيه أو تحيط بكنهه أو تحصيه أو تأتى عليه إذ كل مافى الكون من آلاء الله وآياته مظهر من أجل مظاهر إحسانه تعالى إلى خلقه ولسان صدق ينطق بأبلغ بيان بإنعامه عليهم وذلك من أدق كائن فى الكون إلى أعظم كائن فيه . هذا فضلا عما أودع الله فى الوجود من طاقات منظورة وغير منظورة . وعما يسبغه على الناس فى حياتهم وفى أنفسهم مما يكون له أكبر الأثر فى عرفانهم بإحسانه بهم وإنعامه عليهم .

وهذا ما بيناه فى العنصر الأول .

لقد جاء الإسلام يهتف فى الناس بكل خلق جميل . ويندبهم إلى كل

فضيلة مثلى ، ويدعوهم إلى كل ما يعود بهم إلى أصل الفطرة وإلى كل ما يدعمها وينهضها ويعلى شأنها . وفى إطار هذا جاء الإسلام يدعو المؤمنين به إلى فضيلة الإحسان لا كأمر نظرى مجرد . وإنما كفضيلة لها منهجها العملى العام وخطوطها الحيوية البارزة فى الواقع العقائدى والتشريعى والعملى والسلوكى والأخلاقى والاجتماعى . وبحيث لا يقتصر المؤمن المحسن على المفروض والواجب . وإنما يرمى إلى ما فوق ذلك من كمالات وآفاق لا يرقى إليها ولا يحلق فيها إلا من تعامل بهذا المنهج واستقام عليه ووضحت أمامه بعد المقارنة للموضوعية والأمينة . الرؤية الشاملة لما يجب أن يعتنقه ويحتكم إليه ويباشره ويمارسه فى حياته اليومية واضعاً نصب عينيه واجباته ومسئولياته تجاه ربه ونفسه وأمته ودينه ودنياه وآخرته ماضياً فى كل ذلك على بصيرة من أمره . وشعاره فى مسيرته : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهذا ما وضحناه فى العنصر الثانى .

ولقد تفضل الله على الإنسان بعديد من الآلاء والنعم . من أجلها وأعلاها أثرا فى تمييز الإنسان عن غيره ، وتكريمه على ماسواه . نعمتا التفكير والتعبير . نعمة الحركة المتكنة المستورة للفكر والذهن والجنان . ونعمة الحركة المتعلنة المنظورة للفم والشفتين واللسان . واحتكاك الإنسان بأخيه الإنسان وممارسته معه شئون الحياة وحركتها الدائبة . أمر يستوجب من المرء أن يكون مصقول الفكرة موضوعى الخواطر بعيداً كل البعد عن العفوية والارتجال . فإذا صب فكرته فلتكن فى عبارة منتقاة ودعاء طهور ولفظ ألوف لا يعافه الطبع الرضى ولا تمجه الفطرة الزاكية .

فإن كانت الفكرة أداة من أدوات الدعوة إلى الله وأسلوبا من أساليبها فلتكن على مستوى ما جندت له من غاية الدعوة وما استهدفته من هدف الحق اتساقا وترتيباً وموضوعية بعيدة كل البعد عن بواعث الإثارة السلبية وعوامل التأثير الصاد ومواطن العاطفة الجامحة موزونة بميزان الحق ماضية على سننه ملتزمة بآداب البحث الأصيل وأصول الجدل الهادف ومنهج المناظرة العملى . قوية الأسلوب لماحة العبارة حساسة اللفظ محسوبة الكلمات حكيمة اللهجة حسنة الوقع .

إننا مطالبون بالإحسان فى القول فى كل كلمة وعبارة ولفظة وحديث ابتداء ومبادرة أو جوابا ومحاورة . وهذا من شأنه أن يختصر المسافات بين النفوس وأن يقرب فيما بينها وأن يربطها برباط وثيق من الحب والأمن والطمأنينة والسلام .

وهذا ما وضحناه فى العنصر الثالث .

إن الإحسان فضيلة كبرى من فضائل الإسلام التى دعانا إليها وباب واسع من أبواب الخير الذى دلنا عليه يرتفع بأصحابه إلى ما فوق مستوى الواجب فى كل شأن من شئون البشر وعقائدهم وتشريعهم وسلوكهم وسائر أنماط حياتهم .

وما ارتفعت الأمة إلى أفقه الرحب إلا تماسكت لبناتها وسعدت فى دنياها . ثم عزت بين يدى ربها يوم القيامة .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية يسره وهو يقدم نشرته (١) فى موضوع : (الإحسان وأثره فى حياة الأمة) يعتزم إلحاقها بنشرتين أخريين

فإن كانت الفكرة أداة من أدوات الدعوة إلى الله وأسلوبا من أساليبها فلتكن على مستوى ما جندت له من غاية الدعوة وما استهدفته من هدف الحق اتساقا وترتيبا وموضوعية بعيدة كل البعد عن بواعث الإثارة السلبية وعوامل التأثير الصاد ومواطن العاطفة الجامحة موزونة بميزان الحق ماضية على سننه ملتزمة بآداب البحث الأصيل وأصول الجدل الهادف ومنهج المناظرة العملى . قوية الأسلوب لماحة العبارة حساسة اللفظ محسوبة الكلمات حكيمة اللهجة حسنة الوقع .

إننا مطالبون بالإحسان فى القول فى كل كلمة وعبارة ولفظة وحديث ابتداء ومبادرة أو جوابا ومحاورة . وهذا من شأنه أن يختصر المسافات بين النفوس وأن يقرب فيما بينها وأن يربطها برباط وثيق من الحب والأمن والطمأنينة والسلام .

وهذا ما وضحناه فى العنصر الثالث .

إن الإحسان فضيلة كبرى من فضائل الإسلام التى دعانا إليها وباب واسع من أبواب الخير الذى دلنا عليه يرتفع بأصحابه إلى ما فوق مستوى الواجب فى كل شأن من شئون البشر وعقائدهم وتشريعهم وسلوكهم وسائر أنماط حياتهم .

وما ارتفعت الأمة إلى أفقه الرحب إلا تماسكت لبناتها وسعدت فى دنياها . ثم عزت بين يدى ربها يوم القيامة .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية يسره وهو يقدم نشرته (ا) فى موضوع : (الإحسان وأثره فى حياة الأمة) يعتزم إلحاقها بنشرتين أخريين

تحت هذا العنوان حتى تتكامل لدى القارىء الكريم الصورة المشرقة عن عن الإحسان فى ديننا الحنيف .

نسأل الله — جل جلاله — أن يعاملنا بفضله وإحسانه وأن يأخذ بنواصينا إلى مجالات الحق والخير والإحسان وأن يستخدمنا لدينه وطاعته إنه سميع مجيب . والله الموفق والحمد لله رب العالمين ؟

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

التعريف بالاحسان :

الإحسان : ضد الإساءة ، وفسر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل . صلوات الله عليه وسلامه . فقال : « هو أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وهو تأويل قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وأراد بالإحسان : الإخلاص ، وقيل : أراد بالإحسان . الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة . فإن من راقب ربه أحسن عمله ، وقد أشار إليه فى الحديث بقوله : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وقوله عز وجل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » أى ما جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن إليه فى الآخرة » . (لسان العرب ج ١٣ ص ١١٧ بتصرف)

ويقول العلامة الألوسى : « وإحسان الأعمال والعبادة . أى الإتيان بها على الوجه اللائق . وهو إما بحسب الكيفية كما يشير إليه ما رواه البخارى من قوله ﷺ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» أو بحسب الكمية . كالتطوع بالنوافل الجابرة لما فى الواجبات من النقص »

(روح المعانى للألوسى ج٤ ص ٣٤١)

ويقول صاحب مختصر النبراوى على الأربعين النووية : إن للاحسان مرتبتين عليا ودنيا ، فالعليا : أن يصور العابد نفسه حين أداء العبادة بصورة من يرى المعبود فيزداد هيبة وخشوعا ومبالغة فى إتقان العبادة التى تقربه إلى ربه . والمرتبة الدنيا : أن يلاحظ أن الله مطلع عليه يعلم سره ونجواه وإتقانه للعبادة وتقصيره فيها فذلك يكون حافزا له على إتقان العبادة والإخلاص فيها لله ليرضى عنه . قال العلماء : وبقى للاحسان فرد ثالث . وهو تأدية العبادة على

التعريف بالاحسان :

الإحسان : ضد الإساءة ، وفسر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل . صلوات الله عليه وسلامه . فقال : « هو أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهو تأويل قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وأراد بالإحسان : الإخلاص ، وقيل : أراد بالإحسان . الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة . فإن من راقب ربه أحسن عمله ، وقد أشار إليه فى الحديث بقوله : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وقوله عز وجل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » أى ما جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن إليه فى الآخرة » . (لسان العرب ج ١٣ ص ١١٧ بتصرف)

ويقول العلامة الألوسى : « وإحسان الأعمال والعبادة . أى الإتيان بها على الوجه اللائق . وهو إما بحسب الكيفية كما يشير إليه ما رواه البخارى من قوله ﷺ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» أو بحسب الكمية . كالتطوع بالنوافل الجابرة لما فى الواجبات من النقص » (روح المعانى للألوسى ج٤ ص ٣٤١)

ويقول صاحب مختصر النبراوى على الأربعين النووية : إن للاحسان مرتبتين عليا ودنيا ، فالعليا : أن يصور العابد نفسه حين أداء العبادة بصورة من يرى للمعبود فيزداد هيبة وخشوعا ومبالغة فى إتقان العبادة التى تقربه إلى ربه . والمرتبة الدنيا : أن يلاحظ أن الله مطلع عليه يعلم سره ونجواه وإتقانه للعبادة وتقصيره فيها فذلك يكون حافزا له على إتقان العبادة والإخلاص فيها لله ليرضى عنه . قال العلماء : وبقى للاحسان فرد ثالث . وهو تأدية العبادة على

وجه يسقط به الطلب بأن تكون مستوفية للأركان والشروط . فهو من الإحسان بشرط أن يخلو من الرياء . »
(مختصر النبراوى على الأربعين النووية للأستاذ عبد الرحيم فرج الجندى ص ٩)

وقال الحافظ ابن حجر : « الإحسان مصدر يتعدى بنفسه وبغيره تقول : أحسنت كذا إذا أتقنته ، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع »
(فتح البارى ج ١ ص ١٢٨)

ويقول العلامة الألوسى : « وأما المتعدى بإلى . فانه يقال : أحسنه وأحسن إليه . أى الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم . فقد أخرج ابن النجار فى تاريخه من طريق العكلى عن أبيه قال : مر علىّ بن أبى طالب كرم الله تعالى وجه بقوم يتحدثون فقال : فيم أنتم ؟ فقالوا : نتذاكر المروءة . فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذاك فى كتابه إذ يقول . « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » فالعدل : الإنصاف ، والإحسان : التفضل . فما بقى بعد هذا » .

وأعلى مراتب الإحسان على هذا : الإحسان إلى من أساء .
وقد أمر به نبينا ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : « إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك . ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك » .
(روح المعانى للألوسى ج ٤ ص ٤٣١)

والفرق بين الإحسان والإنعام . أن الإحسان لنفس الإنسان ولغيره . تقول : أحسنت إلى نفسى ، والإنعام لا يكون إلا لغيره .
(لسان العرب ج ١٢ ص ١١٧)

يقول القشيرى : « وإحسان الحق : إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له »
(الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٤٩٠)

وقال الفضيل : « لو أن العبد أحسن الإحسان كله . وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين » (المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٩٠)

العنصر الأول
احسان الله إلى عباده

(١) الاحسان بمعنى الإتقان :

إن إحسان الله تعالى إلى خلقه من حيث الإتقان والإبداع والدقة يبدو بارزا وجليا فى جميع ما احتواه الوجود واشتمل عليه الكون . فالسموات ومافيها . والأرض وما فيها وما عليها . وما يحكم كلا منهما ويضبطه من سنن الله وقوانينه ـ كله من أدق ذرة إلى أعظم جرم فيه . إنما يشهد بجلال الله وينطق باحسانه ويهتف باتقانه وبديع خلقه شكلا وصورة ومخبرا وجوهرا .

والإنسان كنموذج لإحسان الله وإتقانه لخلقه يعتبر آية الآيات فى هذا المقام حيث خلقه فسواه وعدله فى أى صورة ماشاء ركبه . وقومه فأحسن تقويمه وأحاله وهو المخلوق من طين إلى كائن حى يتصدر قائمة الكائنات الراقية بفضل مازوده الله به من القدرات والطاقات مستورة ومنظورة « صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

١ — قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (التين : ٤)

يقول القشيرى : « وإحسان الحق : إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له »
(الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٤٩٠)

وقال الفضيل : « لو أن العبد أحسن الإحسان كله . وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين » (المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٩٠)

العنصر الأول
احسان الله إلى عباده

(١) الاحسان بمعنى الإتقان :

إن إحسان الله تعالى إلى خلقه من حيث الإتقان والإبداع والدقة يبدو بارزا وجليا فى جميع ما احتواه الوجود واشتمل عليه الكون . فالسموات ومافيها . والأرض وما فيها وما عليها . وما يحكم كلا منهما ويضبطه من سنن الله وقوانينه ـ كله من أدق ذرة إلى أعظم جرم فيه . إنما يشهد بجلال الله وينطق باحسانه ويهتف باتقانه وبديع خلقه شكلا وصورة ومخبرا وجوهرا .

والإنسان كنموذج لإحسان الله وإتقانه لخلقه يعتبر آية الآيات فى هذا المقام حيث خلقه فسواه وعدله فى أى صورة ماشاء ركبه . وقومه فأحسن تقويمه وأحاله وهو المخلوق من طين إلى كائن حى يتصدر قائمة الكائنات الراقية بفضل مازوده الله به من القدرات والطاقات مستورة ومنظورة « صنع الله الذى اتقن كل شيء » .

١ — قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (التين : ٤)

قال القرطبي :

المراد بالإنسان آدم وذريته . « في أحسن تقويم » وهو اعتداله واستواء شبابه ؛ كذا قال عامة المفسرين . وهو أحسن ما يكون ؛ لأنه خلق كل شيء منكبا على وجهه ، وخلقه هو مستويا ، وله لسان ذلق ، ويد وأصابع يقبض بها ، وقال أبو بكر بن طاهر : مزيناً بالعقل ، مؤديا للأمر ، مهديا بالتمييز ، مديد القامة يتناول مأكوله بيده . ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فان الله خلقه حياعالما قادرًا مريداً متكلما سميعا بصيراً ، مدبراً حكيما . وهذه صفات الرب سبحانه ، وعنها عبر بعض العلماء ووقع البيان بقوله : « إن الله خلق آدم على صورته » يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها ، وفي رواية «على صورة الرحمن» ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة فلم يبق إلا أن تكون معاني ـ وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال : كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حبا شديداً فقال لها يوما : أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر فنهضت واحتجبت عنه وقالت طلقتني ! . وبات بليلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور ، فأخبره الخبر وأظهر للمنصور جزعا عظيما ؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم . فقال جميع من حضر : قد طلقت ؛ إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة ، فانه كان ساكتا فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم ، والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقدخلقنا الإنسان في أحسن تقويم . يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ولاشيء أحسن منه . فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل فأقبل على زوجتك ، وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أطيعي زوجك ولا تعصيه فما طلقك .

فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنا وظاهراً ، جمال هيئة وبديع تركيب : الرأس بما فيه والصدر بما جمعه ، والبطن بما حواه ، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشتاه ، والرجلان وما احتملتاه . ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالم الأصغر إذ كل ما فى المخلوقات جمع فيه .

(القرطبي ج ٢٠ ص ١١٤)

ويقول المراغى :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »

أى لقد خلقنا الإنسان فى أحسن صورة ، فجعلناه مديد القامة ، حسن البزة ، يتناول ما يريده بيده لا كسائر الحيوان يتناول ما يريده بفيه ، إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف ، واستنباط الحيل التى بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات ، وله من الحول والطول ما يمتد إلى كل شىء .

(المراغى ج ٣٠ ص ١٩٥)

٢ — وقال تعالى :

« الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » . (غافر : ٦٤)

قال المراغى :

« وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات » أى وخلقكم فأحسن

فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنا وظاهراً ، جمال هيئة وبديع تركيب : الرأس بما فيه والصدر بما جمعه ، والبطن بما حواه ، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشتاه ، والرجلان وما احتملتاه . ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالم الأصغر إذ كل ما فى المخلوقات جمع فيه .

(القرطبي جـ ٢٠ ص ١١٤)

ويقول المراغى :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »

أى لقد خلقنا الإنسان فى أحسن صورة ، فجعلناه مديد القامة ، حسن البزة ، يتناول ما يريده بيده لا كسائر الحيوان يتناول ما يريده بفيه ، إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف ، واستنباط الحيل التى بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات ، وله من الحول والطول ما يمتد إلى كل شيء .

(المراغى جـ ٣٠ ص ١٩٥)

٢ — وقال تعالى :

« الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » . (غافر : ٦٤)

قال المراغى :

« وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات » أى وخلقكم فأحسن

خلقكم ، إذ خلق كلا منكم منتصب القامة بادى البشرة ، متناسب الأعضاء ، مهيأ لمزاولة الصناعات واكتساب الكمالات . (المراغى ج٢٤ ص ٩٠)

ويقول القاسمى :

« وصوركم فأحسن صوركم » .

أى يجعل كل عضو فى مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته . (القاسمى ج ١٤ ص ٥١٧٨)

٣ — وقال تعالى :

« خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير »

(التغابن : ٣)

قال المراغى :

(خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة المتضمنة لمنافع الدين والدنيا . « وصوركم فأحسن صوركم » حيث أودع فيكم القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة وجعلكم صفوة جميع مخلوقاته ، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته ، فالإنسان يضم روحا هو من عالم الأرواح وبدنا هو من عالم الأشباح ، وأنشدوا .

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

(المراغى ج ٢٨ ص ١١٩ ، ١٢٠)

ويقول القاسمي :

«خلق السموات والأرض بالحق» أي بالحكمة البالغة التي ترشد إلى المصالح الدينية والدنيوية « وصوركم فأحسن صوركم » أي حيث برأكم في أحسن تقويم وذلك أنه تعالى جعل الانسان معتدل القامة على أعدل الأمزجة وآتاه العقل وقوة النطق والتصرف في المخلوقات والقدرة على انواع الصناعات « وإليه المصير » أي مرجعكم للجزاء . (القاسمي ج ١٦ ص ٥٨١٩)

٤ — وقال تعالى :

« الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» (السجدة :٧)

قال القرطبي :

المعنى على ماروى عن ابن عباس : أحكم كل شيء خلقه أي جاء به على ماأراد لم يتغير عن إرادته . وقول آخر ـ أن كل شيء خلقه حسن ، لأنه لا يقدر أحدا أن يأتي بمثله وهو دال على خالقه ، وقيل المعنى : أحسن كل شيء في خلقه . وروى معناه عن ابن عباس و « أحسن » أي أتقن وأحكم ، فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان ويجوز : خلقه بالرفع ، على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى ، والمعنى حسّن خلق كل شيء حسن . وقيل: هو عموم في اللفظ والمعنى ، أي جعل كل شيء خلقه حسنا .

(القرطبي ج ١٤ ص ٩٠ بتصرف)

ويقول القاسمي :

«خلق السموات والأرض بالحق» أي بالحكمة البالغة التي ترشد إلى المصالح الدينية والدنيوية « وصوركم فأحسن صوركم » أي حيث برأكم في أحسن تقويم وذلك أنه تعالى جعل الانسان معتدل القامة على أعدل الأمزجة وآتاه العقل وقوة النطق والتصرف في المخلوقات والقدرة على انواع الصناعات « وإليه المصير » أي مرجعكم للجزاء . (القاسمي ج ١٦ ص ٥٨١٩)

٤ — وقال تعالى :

« الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» (السجدة :٧)

قال القرطبي :

المعنى على ماروى عن ابن عباس : أحكم كل شيء خلقه أي جاء به على ماأراد لم يتغير عن إرادته . وقول آخر — أن كل شيء خلقه حسن ، لأنه لا يقدر أحدا أن يأتي بمثله وهو دال على خالقه ، وقيل المعنى : أحسن كل شيء في خلقه . وروى معناه عن ابن عباس و « أحسن » أي أتقن وأحكم ، فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان ويجوز : خلقه بالرفع ، على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى ، والمعنى حسّن خلق كل شيء حسن . وقيل: هو عموم في اللفظ والمعنى ، أي جعل كل شيء خلقه حسنا .

(القرطبي ج ١٤ ص ٩٠ بتصرف)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

هو الله لا إله إلا هو الذى أحسن كل شىء خلقه ، إذ هو مرتب وجار على ما اقتضته الحكمة ، وأوجبته المصلحة ، فكل شىء فى الكون له مكانه ونظامه وترتيبه حتى الكلاب والقور والثعبان والحية ، فالله خالق هذا العالم كله ، على نظام دقيق ، وترتيب محكم ، وما يعقل هذا إلا العالمون ، وإنك قد ترى نباتا أو حيوانا أو شيئا فى هذا الكون وتخفى عليك حكمته ، ويعمى عنك سر وجوده ، ثم تكشف لك الأيام عن أسرار وحكم لا يجليها لوقتها إلا خالقها العليم بها البصير بكنهها . (الواضح جـ ٢١ ص ٥١)

(ب) ـ الإحسان بمعنى الإنعام :

لقد فاض الكون كله بأنعم الله تترى على عباده من فوقهم ومن تحتهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم تتمثل فيما يمدهم به ويهديهم إليه من أسباب الحياة والنماء والبقاء «ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وفيما يشملهم به من ألوان رعايته وعنايته وحفظه . وفيما يمنحهم إياه من المتغيرات والبدائل التى تحيل عسرهم إلى يسر وشدتهم إلى فرج وقلقهم وفزعهم إلى أمن وطمأنينة وسلام .

والحق أن حياة الإنسان كلها سلسلة من إحسان الله وإنعامه متصلة الحلقات لا يقدرها قدرها إلا الفاقهون من المرسلين والمؤمنين .

١ — قال تعالى :

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم

من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » . (يوسف : ١٠٠)

قال القرطبي .

قوله تعالى « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن » ولم يقل من الجب استعمالا للكرم لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم بقوله « لا تثريب عليكم » .

قلت وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذكر الجفا وقت الصفا جفا . وهو قول صحيح دل عليه الكتاب . وقيل لأن دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » وكان فى الجب بإرادة الله تعالى له . وقيل لأنه كان فى السجن مع اللصوص والعصاة ، وفى الجب مع الله تعالى ، وأيضا فإن المنة فى النجاة من السجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أمرهم به ، وأيضا باختياره إذ قال « رب السجن أحب إلى » فكان الكرب فيه أكثر ، وقال فيه أيضاً « اذكرنى عند ربك » فعوقب فيه . « وجاء بكم من البدو » يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواش وبرية ، وقيل : كان يعقوب تحول إلى بادية وسكنها ، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية .

وعن الضحاك عن ابن عباس « من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » بإيقاع الحسد قاله ابن عباس : وقيل أفسد ما بينى وبين إخوتى ؛ أحال

ذنبهم على الشيطان تكرما منه « إن ربى لطيف لما يشاء » أى رفيق بعباده . وقال الخطابى : اللطيف هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون كقوله « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » . وقيل اللطيف العالم بدقائق الأمور والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قتادة : لطيف بيوسف باخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ونزع من قلبه نزغ الشيطان . (القرطبى جـ ٩ ص ٢٦٧ بتصرف)

وقال القاسمى :

« وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن » أى فنجانى من العبودية ، وجعل الملك مطيعا لى ، مفوضا إلى خزائن الأرض ، وفى الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه وفخامة شأنه ــ من التواضع ، وتذكر ماسلف من الضراء استدامة للشكر ، مافيه من أدب النفس الباهر .

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

« وجاء بكم من البدو » أى البادية وقد كانوا أصحاب مواش « من بعد أن نزغ الشيطان » أى أفسد « بينى وبين إخوتى » أى بالحسد وأسنده إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإلقائه ، وفيه تفاد عن تثريبهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعا .

« إن ربى لطيف لما يشاء » أى لطيف التدبير له والرفق به ، « إنه هو العليم » بوجوه المصالح ، « الحكيم فى أفعاله وأقضيته » .

(القاسمى ج ٩ ص ٣٥٩٦ ، ٣٥٩٧ بتصرف)

وقال المراغى :

« وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو » أى وقد أحسن بى ربى إذ أخرجنى من السجن وسما بى إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شظف العيش وخشونته ، ونقلكم إلى الحضر حيث تعيشون فى نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتتعاونون على ترقى العلوم والصناعات . ولم يذكر له إخراجه من الجب لوجوه :

١ — إنه ذكر آخر المحن المتصلة بنهاية النعم .

٢ — إنه لو ذكر حادث الجب لكان فى ذلك تثريب لإخوته وقد قال : « لا تثريب عليكم » .

٣ — إنه بعد خروجه منه صار عبداً لا ملكا .

٤ — إنه بعد خروجه منه وقع فى مضارة تهمة المرأة التى بسببها دخل السجن .

وعلى الجملة فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن .

« من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » أى من بعد أن أفسد

الشيطان ما بينى وبين إخوتى من عاطفة الأخوة وقطع ماييننا من وشيجة الرحم وهيج الحسد والشر .

« إن ربى لطيف لما يشاء » أى إن ربى عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده فينفذ مايشاء فى خلقه بحكمته البالغة ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده إن الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزج فى غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

« إنه هو العليم الحكيم » .

أى إنه هو العليم بمصالح عباده فلا تخفى عليه مبادىء الأمور وغايتها . الحكيم بفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العافية للمتقين . (المراغى ج ١٣ ص ٤٤)

الأدلة من السنة :

إن إحسان الله تعالى بمعنى إتقانه وإنعامه إنما يتجلى بكل معانيه فى أمرين بارزين : فيما أبدع الله تعالى عليه خلق الإنسان من حيث كونه من أطيب عنصر وعلى أحسن تقويم . ثم فيما ينعم به على بنى الإنسان من نعم لاتحصى ولاتعد وفى مقدمتها مضاعفة الأجر على العمل الصالح . وإلى ذلك تشير أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم .

١ — عن عائشة رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت

الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار . وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم » رواه أحمد ومسلم .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى ج ٢٠ص ١٧)

٢ — وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل » رواه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم . (المصدر السابق ج ١٩ ص ٧)

٣ — وعن أبى ذر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : « من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد . ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر . ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة . ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعا . ومن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » رواه أحمد ومسلم وابن ماجه . (تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٩٦)

العنصر الثانى

دعوة الإسلام إلى الاحسان

إن دعوة الإسلام إلى الإحسان هى دعوة إلى الشرف فى أفقه الأسمى وإلى الكمال فى برجه العالى . لأنها دعوة إلى الإحسان بمعناه المطلق أولا ثم بمعناه العملى المتصل الذى يتناول ولاء الإنسان وتدينه واتباعه لأحسن ما أنزل الله

من الكتب والشرائع وتطبيقه للخير والحق من خلال ما يسمع من القول والحديث بعد سبر معناه واختبار مدلوله ثم اختيار أوفقه للفطرة وأدناه للشريعة وأقربه للمنطق. ومن الطبيعى إذن بعد هذا أن يترجم الاحسان إلى عمل وأن يتجسد فى سلوك يكون عنوانا من الانسان على حسن ولائه لله وشكره.

١ — قال الله تعالى :

« إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (النحل : ٩٠)

قال القرطبى :

قال سفيان بن عيينة : العدل هاهنا استواء السريرة ، والاحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية. وقال على بن أبى طالب : العدل الانصاف، والاحسان التفضل ، قال ابن عطية : العدل كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات وترك الظلم والانصاف ، وإعطاء الحق. والاحسان هو فعل كل مندوب إليه ، فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنها ماهو فرض ، إلا أن حد الإجزاء منه داخل فى العدل والتكميل الزائد على الإجزاء داخل فى الاحسان.

قال علماؤنا : الاحسان مصدر أحسن يحسن إحسانا : ويقال على معنيين : أحدهما متعد بنفسه ؛ كقولك أحسنت كذا ، أى حسنته وكملته ، وهو منقول بالهمزة من حسن الشىء. وثانيهما متعد بحرف جر ؛ كقولك : أحسنت إلى فلان ، أى أوصلت إليه ما ينتفع به.

قلت : وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معا : فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض ، حتى إن الطائر فى سجنك والسنور فى دارك لا ينبغى أن تقصر فى تعهده بإحسانك وهو تعالى غنى عن إحسانهم ، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمن . وهو فى حديث جبريل بالمعنى الأول لا بالمعنى الثانى ؛ فإن المعنى الأول راجع إلى اتقان العبادة ومراعاتها بآدائها المصححة المكملة ، ومراقبة الحق فيها ، واستحضار عظمته ، وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار وهو المراد بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وأرباب القلوب فى هذه المراقبة على حالين : أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه . ولعل النبى ﷺ أشار إلى هذه الحالة بقوله « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » :

وثانيهما ـ لا تنتهى إلى هذا ، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له وإليه الإشارة بقوله تعالى « الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين » وقوله « إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه » .

(القرطبى جـ ١٠ ص ١٦٦ ، ١٦٧ بتصرف)

ويقول ابن كثير :

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب إلى الإحسان وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : « إن الله يأمر بالعدل » قال: شهادة أن لا إله إلا الله وقال سفيان بن عيينة العدل فى هذا الموضع .

هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا ، والإحسان أن

تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته .

وقال سعيد عن قتادة قوله « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » « الآية » ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه . وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها . (ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٢ بتصرف)

٣ — وقال تعالى :

« واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » . (الزمر : ٥٥)

يقول القرطبي :

قوله تعالى « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » .

« أحسن ما أنزل إليكم » هو القرآن وكله حسن ، والمعنى ما قاله الحسن التزموا طاعته واجتنبوا معصيته ، وقال السدى : الأحسن ما أمر الله به فى كتابه ، وقال ابن زيد : يعنى المحكمات وكلوا علم المتشابه إلى عالمه .

وقال : أنزل الله كتباً التوراة والإنجيل والزبور ، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجزة . وقيل : هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة وقيل يعنى العفو ؛ لأن الله تعالى خير نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص وقيل ما علم الله النبي عليه السلام وليس بقرآن

فهو حسن ، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية . (القرطبي جـ ١٥ ص ٢٧٠)

ويقول الإمام الطبرى .

واقبلوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة وارجعوا إليه بالطاعة له واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه من توحيد وافراد الألوهة له وإخلاص العبادة له .

واتبعوا أيها الناس ما أمركم به ربكم فى تنزيله واجتنبوا ما نهاكم فيه عنه وذلك هو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا . فإن قال قائل ومن القرآن شيء أحسن من شيء قيل له القرآن كله حسن وليس معنى ذلك ما توهمت ، وإنما معناه واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهى والخبر والمثل والقصص والجدل والوعد والوعيد أحسنه ، وأحسنه أن تأتمروا لأمره وتنتهوا عما نهى عنه لأن النهى مما أنزل فى الكتاب فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه فذلك وجهه وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل .

(الطبرى جـ ٢٤ ص ١٢ ، ١٣)

٤ — وقال تعالى :

« الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » . (١٨ : الزمر)

يقول المراغى :

« فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

أى فبشر هؤلاء الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأنابوا إلى ربهم وسمعوا القول فاتبعوا أولاه بالقبول ، بالنعيم المقيم فى جنات النعيم .

« أولئك الذين هداهم الله » أى هؤلاء هم الذين وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب ، لا الذين يعرضون عن سماع الحق ويعبدون مالا يضر ولا ينفع .

« وأولئك هم أولوا الألباب » .

أى وأولئك هم أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة التى لا تطيع الهوى ولا يغلبها الوهم ، فتختار خير الأمرين فى دينها ودنياها .

(المراغى ج ٢٣ ص ١٥٦ ، ١٥٧)

ويقول القاسمى :

« فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله » أى إيثارا للأفضل واهتماما بالأكمل .

قال الزمخشرى : أراد أن يكونوا نقادا فى الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر وأبينها دليلا وأمارة وأن تكون فى مذهبك كما قال القائل .

شعر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

يريد المقلد . انتهى . ويدخل تحته أيضاً إيثار الأفضل من كل نوعين اعترضا كالواجب مع الندب والعفو مع القصاص والاخفاء مع الابداء فى الصدقة .

(القاسمى ج ١٤ ، ص ٥١٣٤)

ويقول الإمام الطبرى :

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ فبشر يا محمد عبادى الذين يستمعون القول من القائلين فيتبعون أرشده وأهداه إلى الحق وأدله على التوحيد والعمل بطاعة الله ويتركون ما سوى ذلك من القول الذى لا يدل على رشاد ولا يهدى إلى سداد. عن السدى فى قوله فيتبعون أحسنه قال : أحسن ما يؤمرون به فيعملون به .

وقوله « أولئك الذين هداهم الله » وفقهم للرشاد وإصابة الصواب لا الذين يعرضون عن سماع الحق ويعبدون مالا يضر ولا ينفع وقوله « وأولئك هم أولوا الألباب » يعنى أولوا العقول والحجى وذكر أن هذه الآية نزلت فى رهط معروفين وحدوا الله وبرئوا من عبادة كل مادون الله قبل أن يبعث نبى الله فأنزل الله هذه الآية يمدحهم .

حدثنى يونس قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها الآيتين حدثنى أبى أن هاتين الآيتين نزلتا فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله زيد بن عمرو وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى نزل فيهم « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » فى جاهليتهم « وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

(الطبرى ج ٢٣ ص ١٣٢ بتصرف)

ويقول القرطبى :

قوله تعالى « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » قال ابن عباس هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا

يتحدث به وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، وقيل : يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أى محكمه فيعملون به وقيل يستمعون عزما وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص وقيل يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو . « أولئك الذين هداهم الله » لما يرضاه ، « وأولئك هم أولوا الألباب » أى الذين انتفعوا بعقولهم . (القرطبي جـ ١٥ ص ٢٤٤)

٥ — وقال تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

(٧٧ : القصص)

قال القرطبي :

« وأحسن كما أحسن الله إليك » أى أطع الله واعبده كما أنعم عليك ومنه الحديث : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه » وقيل هو أمر بصلة المساكين ، قال ابن العربى فيه أقوال كثيرة جماعها : استعمل نعم الله فى طاعة الله . وقال مالك الأكل والشرب من غير سرف ، قال ابن العربى : أرى مالكا أراد الرد على المغالين فى العبادة والتقشف ، فإن النبى ﷺ كان يحب الحلواء ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء ويشرب الماء البارد .

« ولا تبغ الفساد فى الأرض » أى لا تعمل بالمعاصى « إن الله لا يحب المفسدين » . (القرطبي جـ ١٣ ص ٣١٤ ، ٣١٥)

ويقول المراغى :

« وأحسن كما أحسن الله إليك » أى وأحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك فيما أنعم به عليك ، فأعن خلقه بمالك وجاهك وطلاقة وجهك وحسن لقائهم والثناء عليهم فى غيبتهم .

« ولا تبغ الفساد فى الأرض » أى ولا تصرف همتك بما أنت فيه إلى الفساد فى الأرض والأساءة الى خلق الله .

ثم اتبعوا هذه للواعظ بعلتها فقالوا :

« ان الله لا يحب المفسدين » أى ان الله لا يكرم المفسدين ، بل يهينهم ويبعدهم من حظيرة قربه ، ونيل مودته ورحمته . (المراغى ج ٢٠ ص ٩٤)

الأدلة من السنة :

قمة الإحسان أن يؤدى الإنسان الواجب لذات الوجب وهـذا يدفعه بطبيعة الحال الى بذل أقصى الوسع فى سبيل اجادته واتقانه والاخلاص فيه ويبلغ أمر ذلك قمتـه وأعلاه حين يباشر المسلم عمله امتثالا لأمر الله مستحضرا عظمة ربه مستشعرا وجوده كأنه يحسه ويراه وينظره . والا فهو بيقين يراه ربه ويرقبه ويشاهده ويحصى عليه أعماله ومن ثم فإن من يدرك هذا لا يجد مناصا من أن يتقن فى أعماله حتى يكون بها فى مقام الإحسان .

١ — قال رسول الله ﷺ « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تـكن تراه فإنه يراك فاذا فعلت ذلك فقد أحسنت »

رواه أحمد والبزاز عن ابن عباس والطبرانى عن ابن عمر وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم

٢ — قال رسول الله ﷺ « اعبد الله ولا تشرك به شيئا واعمل لله كأنك تراه واعدد نفسك فى الموتى واذكر الله عند كل حجر وكل شجر فاذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة السر بالسر ، والعلانية بالعلانية .

رواه الطبرانى والبيهقى عن معاذ بن جبل (كنز العمال ج٣ ص ١٣)

العنصر الثالث

الاحسان فى القول

إن اللفظ قالب الفكرة ووعاء المعنى . وبقدر ما يكون حرص الإنسان على حسن اللفظ وحلاوة الكلمة وطلاوة الحديث بقدر ما تكون منزلته لدى الناس وإقبالهم عليه وألفتهم له . ومن ثم دعانا الإسلام إلى إحسان القول واختيار اللفظ وأوجب علينا ذلك حين يكون المقام مقام دعوة إلى الله وتبليغ لها . فإن هذا أدعى إلى أن يفتح الله بالكلمة الطيبة واللفظ الحسن قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما . أوحين يكون المقام مقام تحية واجبة الرد والإجابة . وحقا فالنفس بطبيعتها أسيرة الكلمة الطيبة واللفظ الجميل .

١ ـ قال تعالى :

« وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » (٨٣ : البقرة)

يقول صاحب المنار :

قوله تعالى « وقولوا للناس حسنا » فهو كلام جديد له شأن مخصوص ولذلك تغير فيه الأسلوب فلم يرد على النسق الذى قبله مع دخوله فى الميثاق فانه

بين فيما سبق الحقوق العملية وعبر عنها بالإحسان ويستحيل أن يحسن الإنسان بالعمل إلى جميع الناس لأنه لا يمكن أن يعامل جميع الناس ، فالذين لابد له من معاملتهم هم أهل بيته وأقاربه الذين ينشأ فيهم ويتربى بينهم فجاء النص بوجوب الإحسان فى معاملتهم لتصلح بذلك حال البيوت .

ثم ان اليتامى والمساكين من قومه هم الذين لايستغنون عن احسانه واحسان أمثاله بالفعل لأنه لاقيم الاولين ولا غناء عند الآخرين ففرض عليه أن يجعل لهم حظا منه ، ثم بعد بيان مابه اصلاح البيوت من اعانة الأقربين وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على اصلاح بيوتهم بقى بيان حقوق سائر الأمة وهى النصيحة لهم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيهم فهـذا هو معنى قوله تعالى « وقولوا للناس حسنا » وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجادلة بالخطاب فحسب فالحسن هو النافع فى الدين أوالدنيا وهو لايخرج عما ذكرنا .

فلما كان هذا النوع من الحقوق مستقلا بذاته جاء بأسلوب آخر ولاشك أن فى القيام بهذه الفرائض اصلاح الأمة كلها . (المنار جـ ١ ص ٣٦٨)

ويقول القرطبى :

قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر قاله سفيان الثورى وقال أبو العالية : قولوا لهم الطيب من القول ، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به وهـذا كله حض على مكارم الأخلاق ، فينبغى للإنسان أن يكون قوله للناس لينا ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر ، والسنى والمبتدع ، من غير مداهنة ، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضى مذهبه ، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون « فقولا له قولا لينا » . فالقائل ليس

بأفضل من موسى وهارون ، والفاجر ليس بأخبث من فرعون ، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه . وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء انك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل فىّ حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ ، فقال : لاتفعل يقول الله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » .

(القرطبي ج٢ ص١٦ بتصرف)

ويقول القاسمي فى قوله تعالى :

« وقولوا للناس حسنا » أى قولا حسنا . أى : كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا . وفيه من التأكيد والتحضيض على احسان مقاولة الناس ، أنه وضع المصدر موضع الإسم ، وهذا انما يستعمل للمبالغة فى توكيد الوصف كرجل عدل وصوم وفطر . (القاسمي ٢ ص ١٨٠)

٢ ـ وقال تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (النحل : ١٢٥)

يقول القاسمي :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « والموعظة الحسنة » أى العبر اللطيفة والوقائع المخيفة ليحذروا بأسه تعالى « وجادلهم بالتى هى أحسن » أى جادل معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وحسن الخطاب من غير عنف فإن ذلك أبلغ فى تسكين لهبهم (القاسمي ج ١٠ ص ٣٨٧٧)

ويقول المراغى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »
أى ادع أيها الرسول من أرسلك اليهم ربك بالدعاء الى شريعته التى شرعها لخلقه بوحى الله الذى يوحيه اليك وبالعبر والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم وذكرهم بها فى تنزيله كالذى عدده فى هذه السورة وخاصمهم الخصومة التى هى أحسن من غيرها بأن تصفح عما نالوا به عرضك من أذى وترفق بهم بحسن الخطاب كما قال فى آية أخرى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم . . . الآية » وقال آمرا موسى وهارن عليهما السلام حين بعثهما الى فرعون « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »

(المراغى ج ١٤ ص ١٦١)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »
ادع إلى سبيل ربك كل من يصادفك دعوة عامة والرسول ﷺ أرسل للناس كافة ولكن ادع بالحكمة والمقالة المحكمة التى تصيب المحز وتحرك النفس وتستولى على القلب فتنزع أعراق السوء وتقلع جذور العادات السيئة الموروثة ادع إليه بالحكمة والموعظة الحسنة التى تستحسنها العقول السليمة وتألفها الطباع المستقيمة وإن صادفت فى طريقك أشياء فجادل بالتى هى أحسن « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » .

وإياك أن تصادم قوما فى معتقداتهم الباطلة قبل أن تهيء نفوسهم وعقولهم لقبول كلامك وإلا كنت داعيا للفرقة والفساد واعلم أن من النفوس نفوسا

لا تلين بوعظ ولا تستجيب لعقل وهؤلاء قوم أضلهم الله فأعمى أبصارهم وهو أعلم بهم فإذا صادفك شيء من هذا فكل الأمر لله ولا عليك شيء أبدا إن عليك إلا البلاغ والزمن كفيل لتحقيق ما تطلب .

(الواضح ج ١٤ ص ٦٩)

٣ — وقال تعالى :

«وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » . (الاسراء : ٥٣)

يقول القرطبي : قوله تعالى « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » الآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهم بقتله ، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » وقيل نزلت لما قال المسلمون : إئذن لنا يارسول الله فى قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ، فقال : (لم أومر بعد بالقتال) فأنزل الله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » وقيل المعنى : قل لعبادى الذين اعترفوا بأنى خالقهم وهم يعبدون الأصنام ، يقولوا التى هى أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة .

وقيل المعنى ، وقل لعبادى المؤمنين إذا جادلوا الكفار فى التوحيد أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن . كما قال : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحمك الله ! هذا قبل أن يؤمروا بالجهاد . وقيل المعنى : قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه ، وعلى هذا تكون الآية

عامة فى المؤمن والكافر ، أى قل للجميع . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة ، بحسن الأدب وإلانة القول وخفض الجناح وإطراح نزغات الشيطان ، وقد قال ﷺ (وكونوا عباد الله إخوانا) ، وهذا أحسن ، وتكون الآية محكمة .

(القرطبي جـ ١٠ ص ٢٧٦ : ٢٧٧ بتصرف)

ويقول المراغى :

أمر الله سبحانه أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحابوا مخالفيهم ويجادلوهم باللين ولا يغلظوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسبوهم ، فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس ، وتميل بها إلى الاقتناع ، كما يعلم ذلك الذين تولوا النصح والإرشاد ، من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للاقناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى . (المراغى جـ ١٥ ص ٥٨ ، ٥٩)

ويقول صاحب التفسير الواضح .

وقل لعبادى المؤمنين يقولوا المقالة التى هى أحسن من غيرها عند محاورة المشركين (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) . (فقولا له قولا لينا) لأن الشدة فى الخطاب تنفر الناس وتجعلهم يعاندون ويستكبرون خصوصاً هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ومعهم الشياطين التى لا تألو جهداً فى إيقاع الفساد والشر فيما بينهم وبين غيرهم إن الشيطان ينزغ بينهم ويفسد ، إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ظاهر العداوة بينها . (الواضح جـ ١٥ ص ٢٨)

عامة فى المؤمن والكافر ، أى قل للجميع . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة ، بحسن الأدب وإلانة القول وخفض الجناح وإطراح نزغات الشيطان ، وقد قال ﷺ (وكونوا عباد الله إخوانا) ، وهذا أحسن ، وتكون الآية محكمة .

(القرطبى جـ ١٠ ص ٢٧٦ : ٢٧٧ بتصرف)

ويقول المراغى :

أمر الله رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحابوا مخالفيهم ويجادلوهم باللين ولا يغلظوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسبوهم ، فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس ، وتميل بها إلى الاقتناع ، كما يعلم ذلك الذين تولوا النصح والإرشاد ، من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للاقناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى . (المراغى جـ ١٥ ص ٥٨ ، ٥٩)

ويقول صاحب التفسير الواضح .

وقل لعبادى المؤمنين يقولوا المقالة التى هى أحسن من غيرها عند محاورة المشركين (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) . (فقولا له قولا لينا) لأن الشدة فى الخطاب تنفر الناس وتجعلهم يعاندون ويستكبرون خصوصاً هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ومعهم الشياطين التى لا تألو جهداً فى إيقاع الفساد والشر فيما بينهم وبين غيرهم إن الشيطان ينزغ بينهم ويفسد ، إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ظاهر العداوة بينها . (الواضح جـ ١٥ ص ٢٨)

٤ — وقال تعالى :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » . (العنكبوت : ٤٦)

يقول القرطبي :

اختلف العلماء في قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب » فقال مجاهد هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته رجاء إجابتهم إلى الإيمان لا على طريق الاغلاظ والمخاشنة وقوله على هذا : « إلا الذين ظلموا منهم » معناه ظلموكم ، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق .

وقيل المعنى : لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلام ومن آمن معه « إلا بالتي هي أحسن » أي بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك . وقوله على هذا التأويل : « إلا الذين ظلموا » يريد به من بقي على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم والآية على هذا محكمة .

قوله تعالى : « وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » روى البخاري عن أبي هريرة : قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله ﷺ : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم) « وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » وروى عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء

فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق وإما أن تصدقوا بباطل) .

(القرطبي جـ ١٣ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ بتصرف)

ويقول ابن كثير : هذه الآية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين فيجادل بالتى هى أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » الآية وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد .

وقوله تعالى « إلا الذين ظلموا منهم » أى حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم .   (ابن كثير جـ ٣ ص ٤١٥ ، ٤١٦)

ويقول القاسمى :

ولما بين تعالى طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصول اليأس ممن امتنع ، بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » أى بالخصلة التى هى أحسن . وهى اللين والأناة « إلا الذين ظلموا منهم » أى بالاعتداء ، بأن أفحشوا فى القتال وأقذعوا فى الجدال ، فلا حرج فى مقابلتهم بالعنف ، لتنكبهم عن جادة اللطف . وهذا كما قال تعالى « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » وهذه الآية فصل فى آداب المناظرة والجدال « وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » أى مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .   (القاسمي جـ ١٢ ص ٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤)

فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق وإما أن تصدقوا بباطل) .

(القرطبي جـ ١٣ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ بتصرف)

ويقول ابن كثير : هذه الآية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين فيجادل بالتى هى أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » الآية وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد .

وقوله تعالى « إلا الذين ظلموا منهم » أى حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح المحجة وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم . (ابن كثير جـ ٣ ص ٤١٥ ، ٤١٦)

ويقول القاسمى :

ولما بين تعالى طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصول اليأس ممن امتنع ، بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » أى بالخصلة التى هى أحسن . وهى اللين والأناة « إلا الذين ظلموا منهم » أى بالاعتداء ، بأن أفحشوا فى القتال وأقذعوا فى الجدال ، فلا حرج فى مقابلتهم بالعنف ، لتنكيبهم عن جادة اللطف . وهذا كما قال تعالى « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » وهذه الآية فصل فى آداب المناظرة والجدال « وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » أى مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . (القاسمي جـ ١٢ ص ٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤)

٥ — قال تعالى « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . إن الله كان على كل شيء حسيبا » (النساء : ٨٦)

قال ابن كثير « قوله تعالى وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلم فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة .

عن ابن عباس قال من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيا ذلك بأن الله يقول « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وقال قتادة فحيوا بأحسن منها يعنى المسلمين أو ردوها : يعنى لأهل الذمة .

(ابن كثير جـ ١ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ بتصرف)

ويقول المراغى :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى إذا حياكم أحد بتحية فردوها بتحية مثلها ، أو بتحية أحسن منها ، فقولوا لمن قال : السلام عليكم ، وعليكم السلام ، أو وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا قال هذا فى تحيته فالأحسن أن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وهكذا يزيد المجيب على المبتدىء كلمة أو أكثر . وقد يكون حسن الجواب بمعناه أو كيفية أدائه وإن كان بمثل لفظ المبتدىء بالتحية أو مساويه فى الألفاظ أو أخصر منه فمن قال لك السلام عليكم بصوت خافت يشعر بقلة العناية ، فقلت له : وعليكم السلام بصوت أرفع وإقبال يشعر بالعناية وزيادة الإقبال والتكريم . كنت قد حييته بتحية أحسن من تحيته فى صفتها ، وإن كانت مثلها فى لفظها .

وفى هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس ، ووجوب رد التحية على من يسلم علينا ويحيينا . (للمراغى جـ ٥ ص ١١٠ ، ١١١ بتصرف)

ويقول القاسمى .

« وإذا حييتم بتحية » أى إذا سلم عليكم فدعا بسلامة حياتكم وصفاتكم التى بها كمال الحياة بتحية ، فقيل السلام عليكم (فحيوا) أى أداء لحق المسلم عليكم (بأحسن منها) أى بتحية أحسن منها بأن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله ولو قالها المسلم زيد : وبركاته . قال الراغب : أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ، ثم استعملت فى كل دعاء .

وكانت العرب إذا لقى بعضهم بعضا ، يقول : حياك الله . ثم استعملها الشرع فى السلام . وهى تحية الإسلام . قال الله تعالى : « تحيتهم فيها سلام » .
وقال تعالى « تحيتهم يوم يلقونه سلام » وقال : « فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله » قالوا فى السلام مزية على (حياك لما أنه دعا بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية ، وهى مستلزمة لطول الحياة ، وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك . ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لاريب فى فضله ومزيته « أو ردوها » أى أجيبوها بمثلها . ورد السلام ورجعه : جوابه بمثله لأن المجيب يرد قول المسلم ويكرره « إن الله كان على كل شىء حسيبا» أى فيحاسبكم على كل شىء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به . (القاسمى جـ ٥ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤)

الأدلة من السنة :

إن الكلمة عنوان النفس ودليل طويتها . وهى فى الوقت ذاته بالنسبة

وفى هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس ، ووجوب رد التحية على من يسلم علينا ويحيينا . (المراغى جـ ٥ ص ١١٠ ، ١١١ بتصرف)

ويقول القاسمى .

« وإذا حييتم بتحية » أى إذا سلم عليكم فدعا بسلامة حياتكم وصفاتكم التى بها كمال الحياة بتحية ، فقيل السلام عليكم (فحيوا) أى أداء لحق المسلم عليكم (بأحسن منها) أى بتحية أحسن منها بأن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله ولو قالها المسلم زيد : وبركاته . قال الراغب : أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ، ثم استعملت فى كل دعاء .

وكانت العرب إذا لقى بعضهم بعضا ، يقول : حياك الله . ثم استعملها الشرع فى السلام . وهى تحية الإسلام . قال الله تعالى : « تحيتهم فيها سلام » . وقال تعالى « تحيتهم يوم يلقونه سلام » وقال : « فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله » قالوا فى السلام مزية على (حياك لما أنه دعا بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية ، وهى مستلزمة لطول الحياة ، وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك . ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لاريب فى فضله ومزيته « أو ردوها » أى أجيبوها بمثلها . ورد السلام ورجعه : جوابه بمثله لأن المجيب يرد قول المسلم ويكرره « إن الله كان على كل شىء حسيبا » أى فيحاسبكم على كل شىء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به . (القاسمى جـ ٥ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤)

الأدلة من السنة :

إن الكلمة عنوان النفس ودليل طويتها . وهى فى الوقت ذاته بالنسبة

الآخرين عامل للجاذبية أو عامل للنفور . والإسلام وقد طالبنا بإشاعة السلام في المجتمع جعل الكلمة الطيبة واللفظ الحسن والقول الجميل أحد بواعث هذا السلام وعوامل شيوعه ينطلق بذلك لسان المؤمن دعاء للمؤمنين الخير ورجاء لهم وتحية عليهم . مع البعد البعيد بطبيعة الحال عن كل مايؤزم العلائق ويشل الصلات ويؤرث العداوة ويوغر الصدور .

١ ـ عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء)

(أخرجه الترمذى ـ تيسير الوصول ج ١ ص ٢٠٢)

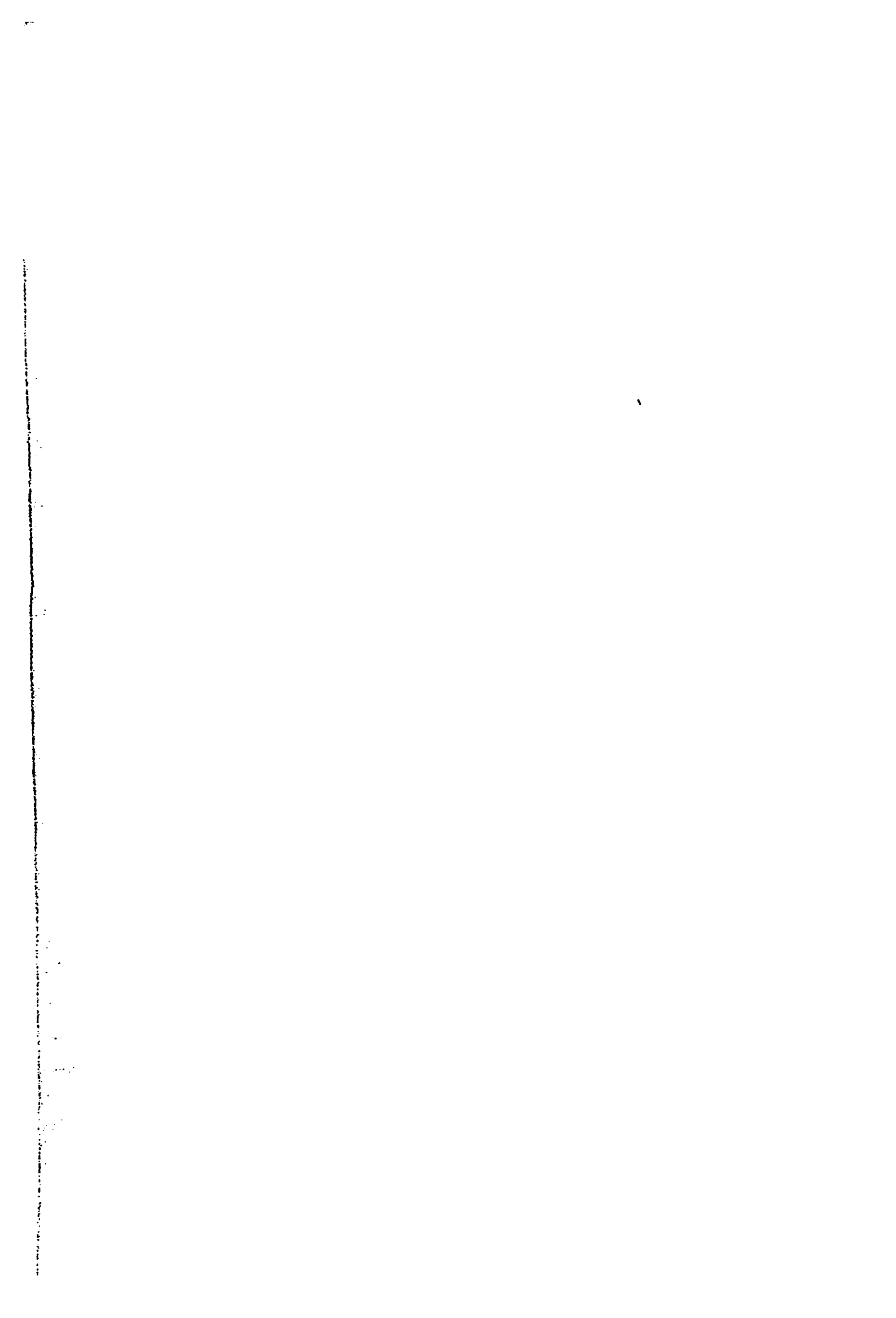
٢ ـ وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له بيت فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها) (أخرجه الترمذى)

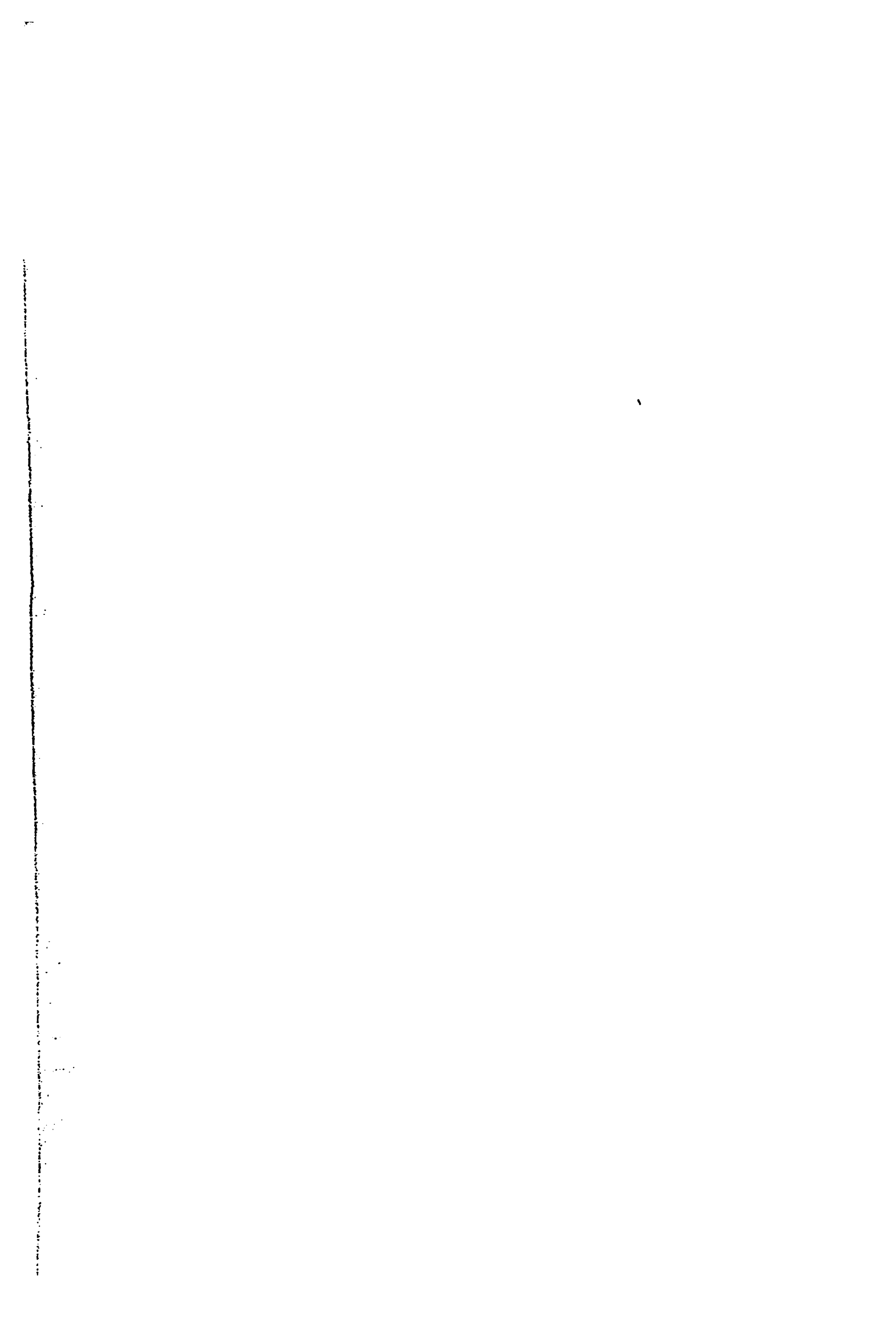
وربض مشيه بربض المدينة وهو ماحولها من العمارة

(تيسير الوصول ج ١ ص ٢٣٣)

٣ ـ وعن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل النبى ﷺ أى الإسلام خير ؟ قال : (تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف)

(رواه البخارى ـ صفوة صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٦)





وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



نشرات التوعية الدينية

العدد ١٦٤ السنة الثامنة

١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٩٦ هـ ١٧ من مارس سنة ١٩٧٦ م

الاحسان وأثره فى حياة الأمة (ب)

مقدمــــة :

العناصر :

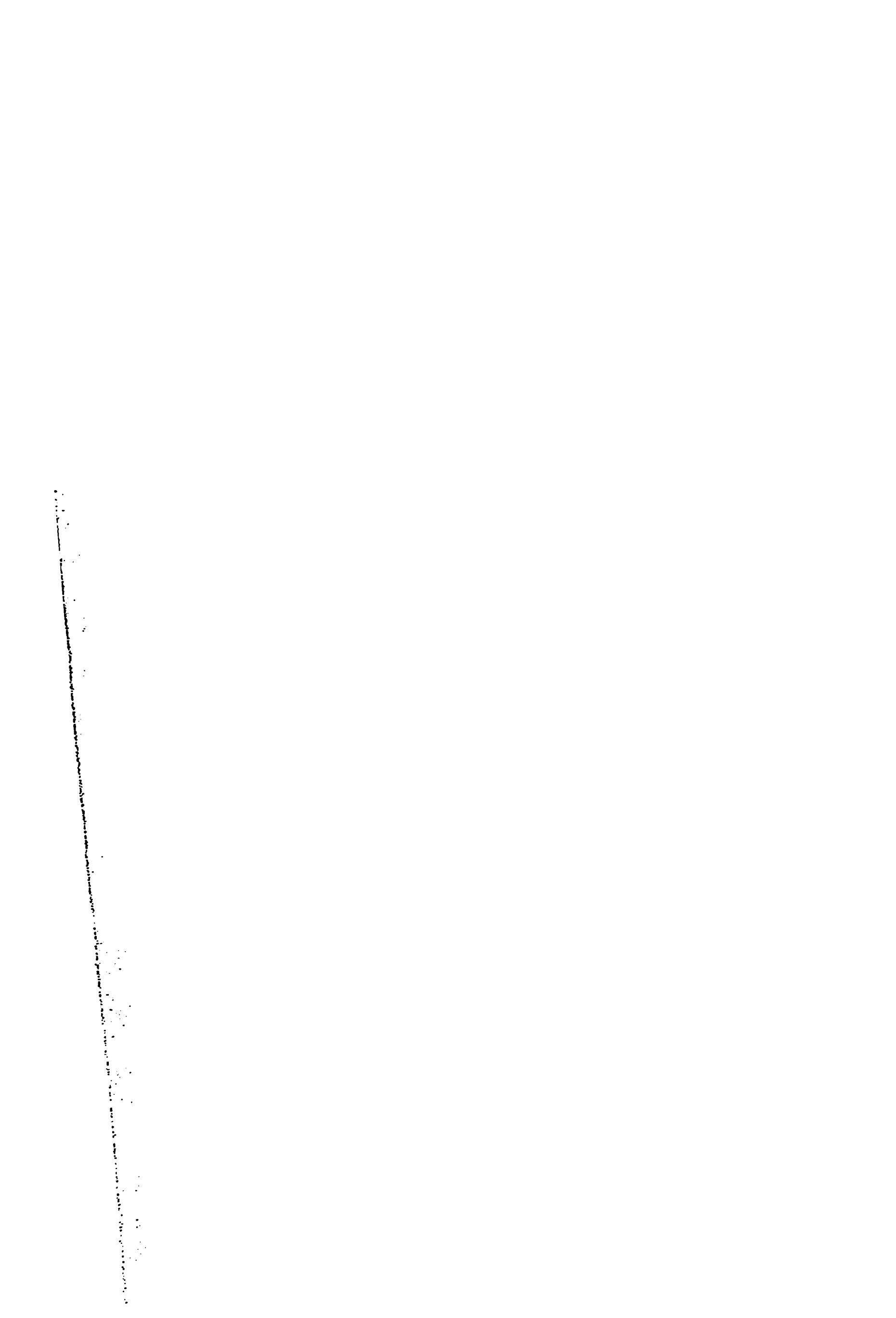
١ — الاحسان إلى الوالدين .

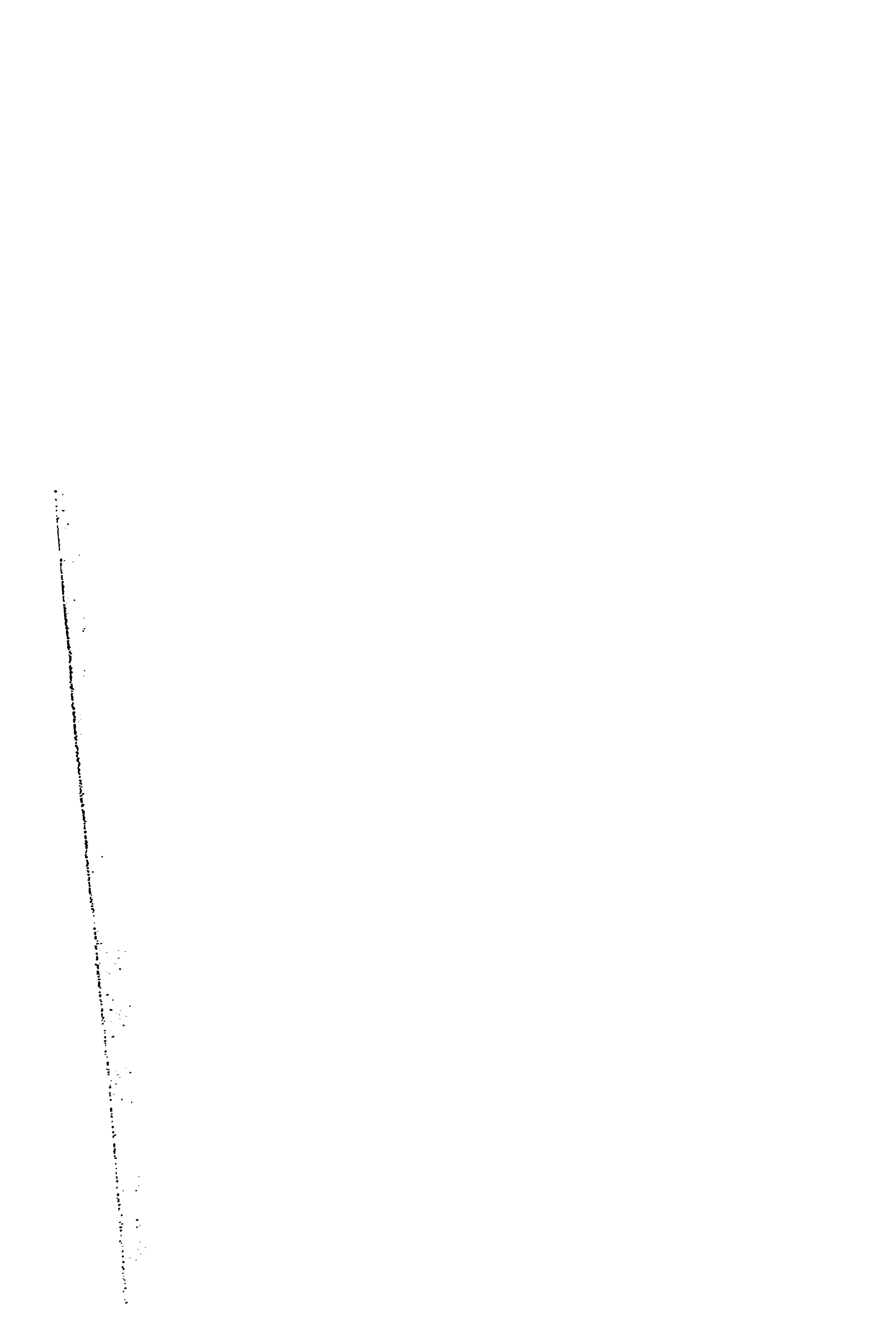
٢ — الاحسان إلى الأقارب .

٣ — الاحسان إلى اليتامى والمساكين .

٤ — الاحسان إلى الجار .

٥ — الاحسان الى الصديق وابن السبيل .





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد :

فإن الإسلام دين الفضائل العليا والقيم الرشيدة التى يرمى بها إلى تكوين النفس و بناء الفرد وتشكيل المجتمع على نحو يتناسب ومنهج الحياة المتكامل الذى جاءنا به الحق عز وجل .

ولقد كان الاحسان بمعنييه الإتقان والانعام من أبرز الكمالات التى اتصف بها الحق تبارك وتعالى وبدت آثارها واقعا ملموسا فى الخلق والكون والحياة .

كما كان من أهم الفضائل التى حبانا الله بها ودعانا إليها وأمرنا أن نلتزم بها فى كل مجال من مجالات القول والعمل . وألا نتهاون أو نفرط فيها بحال من الأحوال .

الأمر الذى تناولناه فى النشرة (١) فى موضوعنا الذى نعالجه ومازلنا بصدده : (الإحسان وأثره فى حياة الأمة) .

إن الخلال التى جاءنا بها الإسلام ـ ضمن منهجه الأخلاق والسلوكى ليست ـ على مثاليتها وكمالها ـ من قبيل الأمور النظرية أو الترفيه التى كثيرا ما ولع بها فى القديم والحديث المفكرون والفلاسفة والحكماء وشغلوا بها الناس والحياة زمنا طويلا دون أن يكون لها واقع .

وإنما جاءت هذه الخلال جزءاً حيويا من منهج متكامل عام وشامل، تصب جميع وحداته وروافده فى إيجاد المبادىء العليا وتأصيلها وأخذ الناس بها . ثم فى بناء النفس الإنسانيـــة وتكوين الفرد المسلم وشد علاقاته وتقوية روابطه وتوثيق أواصره بغيره من أفراد المجتمع الإنسانى . سيما إذا تمثلت فى أسلوب . وترجمت إلى واقع وتجسدت فى خطة مصونةومرعية لبناء الفرد وتشكيل المجتمع وإعادة تركيبه ليأخذ طابعا معينا ذا ملامح مميزة وخصائص معينة .

ولقد رأينا من خلال تجوالنا مع القرآن الكريم والسنة المطهرة أن الإحسان يزامل الفرد المسلم ويغوص به ومعه حتى يصل به إلى قاع المجتمع مارًّا به فى دوائر متوالية من القرابات والعلائق والصلات .

وفى مقدمة ذلك إحسان المرء إلى والديه وبره بهما ورعايته لهما وعدم الضجر منهما والتبرم بهما مع ضرورة خفض الجناح لهما ولين الجانب نحوهما والإغضاء عما يبدر منهما وكثرة الدعاء لهما بالمغفرة والرحمة . فعن طريقهما ـ بعد الله تعالى ـ انتقلت إلى الإنسان نعمة الوجود . وقد بذلا من جهدهما وطاقتهما مالا يمكن أن يبذله إنسان لآخر إلا إذا كان من والد لولده وأم لابنها حيث سهرا لينام وتعبا ليستريح وشقيا ليسعد . وأعطيا أعظم ما يكون البذل والعطاء فى جهاد وفدائية وإيثار من غير انتظار عوض ولا بديل . وإذن . فهل جزاء الإحسان منهما إلا وجوب الإحسان إليهما والعرفان لهما .

وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الأول .

وإنما جاءت هذه الخلال جزءاً حيويا من منهج متكامل عام وشامل ، تصب جميع وحداته وروافده فى إيجاد المبادىء المليا وتأصيلها وأخذ الناس بها . ثم فى بناء النفس الإنسانيـــة وتكوين الفرد المسلم وشد علاقاته وتقوية روابطه وتوثيق أواصره بغيره من أفراد المجتمع الإنسانى . سيا إذا تمثلت فى أسلوب . وترجمت إلى واقع وتجسدت فى خطة مصونة ومرعية لبناء الفرد وتشكيل المجتمع وإعادة تركيبه ليأخذ طابعا معينا ذا ملامح مميزة وخصائص معينة .

ولقد رأينا من خلال تجوالنا مع القرآن الكريم والسنة المطهرة أن الإحسان يزامل الفرد المسلم ويغوص به ومعه حتى يصل به إلى قاع المجتمع مارًّا به فى دوائر متوالية من القرابات والعلائق والصلات .

وفى مقدمة ذلك إحسان المرء إلى والديه وبره بهما ورعايته لهما وعدم الضجر منهما والتبرم بهما مع ضرورة خفض الجناح لهما ولين الجانب نحوهما والإغضاء عما يبدر منهما وكثرة الدعاء لهما بالمغفرة والرحمة . فعن طريقهما ـ بعد الله تعالى ـ انتقلت إلى الإنسان نعمة الوجود . وقد بذلا من جهدهما وطاقتهما ما لا يمكن أن يبذله إنسان لإنسان إلا إذا كان من والد لولده وأم لابنها حيث سهرا لينام وتعبا ليستريح وشقيا ليسعد . وأعطيا أعظم ما يكون البذل والعطاء فى جهاد وفدائية وإيثار من غير انتظار عوض ولا بديل . وإذن . فهل جزاء الإحسان منهما إلا وجوب الإحسان إليهما والعرفان لهما .

وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الأول .

إن الدائرة التي تلى دائرة الإحسان إلى الوالدين هى دائرة الإحسان إلى ذوى القربى من الأبناء والبنات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخـوال والخالات وأولادهم ، وكل من تربط الإنسان بهم علائق القربى ، ووشائج الرحم فهؤلاء جميعا يدعو الاسلام الى الاحسان اليهم والبر بهم وصلة أرحامهم وقرابتهم كل حسب مكانته منـا ، وحسب ما يتناسب معـه من نوعية الاحسان وجنس الصلة مما قـد يكون ماديا أو أدبيا الأمر الذى ينبغى أن يبذل فى تجرد وسخاء وإحساس عميق بوجوبه ولزومه ، ومسئولية الانسان عنه . وضرورة أدائه بحيث لا تحول دونه عاطفة ولا تمنع منه رغبة ولا يؤخر وصوله فتور القريب أو كراهيته .

والاحسان إلى ذوى القربى لو تم على هذا النحو الواجب السامى فإنه يعطى أطيب الثمرات وأعظم النتائج فى دعم الروابط الأسرية وتوثيق العرى الاجتماعية بين أفراد المجتمـع المسلم وعشائره الذى تتشابك فروعه وتلتقى أغصانه قرابة وأرحاما ومصاهرة .

وهذا ماوضحناه فى العنصر الثانى .

وأما اليتامى والمساكين فقد أوجب الإسلام علينا الاحسان إليهم والعطف عليهم ورعايتهم والعناية بهم وعدم التفريط فيهم . واليتامى والمساكين شريحة فى المجتمع لها سمت خاص ووضع معين تحتاج إلى وجوب تعهدهم وضرورة الـبر بهم ودوام العون لهم فإن اليتامى صغار فقدوا عائلهم وراعيهم ومتعهدهم . وإن المساكين فقدوا موارد رزقهم أو ضاقت عليهم أو ألمت بهم شدة فلا يحصلون على كفايتهم . ويوشك هؤلاء وأولئك . ما لم يقم المجتمع بواجبه لهم وحقهم عليه

أن يجوعوا ويضيعوا بصورة قد لاتقف عند حد الجوع والضياع المادى وإنما تتعداهما إلى ماوراء ذلك من مجالات الأخلاق والسلوك والاجتماع .

وسواء أكان هـذا أم ذاك أم كـلاهما فإن الخطر فادح والتبعة جسيمة والعواقب وخيمة تبوء الأمة جميعا بكفلها . فإن جاع المسكين وضاع اليتيم . فليقرأ المجتمع للفرط الذى ينتميان إليه قول النبي ﷺ: « أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع إلا برئت منهم ذمة الله » . وإن ماتا فمن الأئمة من يحمل المجتمع كله مسئولية موتهما وهلاكهما فيوجب عليه الدية .

وإن ضاع كل منهما وانحرف غدا فى ذاته معول هدم لنفسه وجرثومة دائبة فى بوار أمته وهلاك مجتمعه . وإشاعة القلق والفساد بين فئاته . ولا علاج للأمة ولا طب للمجتمع من هـذه الويلات والعواقب إلا بأداء واجب الإحسان إلى اليتامى والمساكين وكفالتهم ورعاية شئونهم وتعهدهم أدبيا وماديا بما يؤهلهم لأن يكونوا أفرادا أسوياء ولبنات صلبة فى بناء المجتمع وإعلاء صرحه .

وعمل كهذا يخدم المجتمع ويقوم كيانه . عمل يعدل الطاعة الدائمة أو الجهاد فى سبيل الله . ومن ثم فالجزاء عليه عند الله تبارك وتعالى جزاء عظيم يقود صاحبه إلى صحبة النبي ﷺ ، والاقتران به فى بحبوحة الجنة ونعيمها يوم القيامة .
وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الثالث .

إن الاسـلام يحرص الحرص كله على أن يكـون الفرد المسلم بؤرة نفع فى مجتمعه ومركز إشعاع فى قبيله . وأول ما يجب أن يكون معهم كذلك جيرانه فى كل موقع من مواقع الحياة وخاصة فى المسكن والعمل ، الأقرب منهم فالأقرب ، هؤلاء يمنحهم من وده وكرمه ، ويضفى عليهم من عطفه وبره . ويوليهم من معروفه

وإحسانه و يعطيهم من رفده وخيره ، ويعزل عنهم أذاه وشره وغشمه وظلمه ، ويكون معهم فى كل أحوالهم وتقلبات الحياة بهم وما يمر بهم و يمرون به من الأعراض اليوميــة من العسر واليسر والفرح والترح والغنى والفقر والصحة والمرض ، يهاديهم ويعودهم و يواسيهم و يشاركهم آلامهم وآمالهم يفرح لفرحهم و يأسى لأسامهم .

وهذا أمر من شأنه أن يزرع فى القلوب الألفة وأن يبث فيها الحب وأن ينشر فى ربوع المجتمع روح المشاركة الوجدانية بصورة عملية وواقعية أكيدة وبارة و بارزة .

وهذا ما ضمناه فى العنصر الرابع .

ويمضى الاسلام بالمجتمع فيربيه على فضيلة الاحسان لا فى حله فحسب وإنما فى ترحاله وأسفاره وتنقلاته أيضا مع رفقته وصحبته وأبناء السبيل وحسبك بالسفر حالة تكشف عن عنصر الانسان وتبين عن خصائصه وفعاله وأسلوب تربيته وأنماط حياته ومنهجه الذى صقله وكونه وهيأه لنوعية من السلوك وتطلعات فى الحياة على نحو خاص . فإذا كان الانسان على المستوى الواجب الذى أراد الاسلام : مؤمنا حقا ، محسنا صدقا فإنما سيكون قطعا آية الآيات على ما فيــه من التزام وعلى ما فى دينه من تميز .

وأبرز ما يبرز الإحسان من المسلم فى هذا المقام بره برفقته وعطفه عليهم ولين الجانب لهم والإغضاء عن هفواتهم والترفع عن نقائصهم وعــدم مجاراتهم فى نزواتهم الدنيا وتطلعاتهم الهابطة وكبت ما عساه أن يشب تجاههم من انفعالات فائرة وكف الأذى عنهم . ثم مد يد العون والمساعدة إليهم مادية وأدبية من

نصح وإرشاد وفضل ظهر وفضل زاد الخ .. ما يمكن أن يدخل فى إطار الإحسان ونطاق البر ..

وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الخامس .

إن المجتمع الذى يتربى على الاسلام عامة وخلة الإحسان خاصة مجتمع تشيع فيه الألفة والمحبة ، وأمة صيغت على هذا النحو ونشأت عليه وتكونت به أمة بارة متماسكة اللبنات وثيقة العرى قوية البنيان متحدة الشعور فى آلامها وآمالها ونحو هدفها .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية يسعده وقد قدم نشرته (ا) فى موضوع (الإحسان وأثره فى حياة الأمة) أن يلحقها فيه بنشرته (ب) على أن يتبعهما بنشرة أخرى تحت هذا العنوان إن شاء الله .

نسأل الله . عز وجل . أن يجعلنا من المؤمنين والأبرار المحسنين الذين يعرفون حق الله وواجب المجتمع وأن يسخرنا لدينه و يستخدمنا لطاعته إنه سميع مجيب والله الموفق . والحمد لله رب العالمين ؟

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

الاحسان وأثره فى حياة الأمة (ب)

العنصر الأول

(ا) الإحسان إلى الوالدين

الأدلة من الكتاب :

إن الإحسان إلى الوالدين والبر بهما من أوجب الواجبات التى نيطت بالإنسان وتعلقت به . ومن أعظم القربات التى يتقرب بها الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى . جعلها الله امرا واجب التنفيذ . وفريضة واجبة الأداء ووصية من أهم الوصايا التى وصى بها البشر من الأزل إلى الأبد .

ونظرا لأهمية الإحسان إلى الوالدين . ومدى أثره فى حياة الأسرة وتماسك فروعها بأصولها . فقد جعله الإسلام بعد معرفة الله وعبادته طليعة الواجبات حيث يتعين على الإنسان معرفة ما للوالدين من جميل وأداء ما وجب لهما من حق سيما عند كبرهما وشيخوختهما وحاجتهما إلى البر والإحسان والعطف. ومن ثم يجب عليه أن يكون معهما مطيعا فيما يأمرانه به من خير وحق . لين الجانب متواضعا، خفيض الجناح ، رحيما ، متسامحا ، داعياً لهما بالمغفرة والرحمة ، وصولا لرحمهما ، واداً لمعارفهما ، وكما يدين الفتى يدان .

« وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

١ — قال تعالى « واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالا فخوراً » .

(٣٦ النساء)

يقول القاسمى :

أوصى سبحانه بالإحسان إلى الوالدين ، إثر ما يتعلق بحقوق الله عز وجل التى هى آكد الحقوق وأعظمها ، تنبيها على جلالة شأن الوالدين بنظمهما فى سلكها بقوله « وبالوالدين إحسانا » وقد كثرت مواقع هذا النظم فى التنزيل العزيز كقوله : « أن اشكر لى ولوالديك » « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » أى أحسنوا بهما إحسانا يفى بحق تربيتهما . فإن شكرهما يدعو إلى شكر الله المقرب إليه مع ما فيه من صلة أقرب الأقارب للموجب لوصلة الله وقطعها لقطعه . (القاسمى جـ ٥ ص١٢٢٧)

ويقول صاحب تفسير المنار .

والإحسان فى المعاملة يعرفه كل أحد وهو يختلف باختلاف أحوال الناس وطبقاتهم وإن العامى الجاهل ليدرى كيف يحسن إلى والديه ويرضيهما مالا يدرى العالم النحرير إذا اراد أن يحدد لهذلك . قال بعضهم : إن جماع الإحسان المأمور به أن يقوم بخدمتهما ولا يرفع صوته عليهما ولا يخشن فى الكلام معهما ، وأن يسعى فى تحصيل مطالبهما والانفاق عليهما بقدر سعته ، وأنت تعلم أن من فعل ذلك وهو لا يلقاهما إلا عابسا مقطبا ، أو أدى النفقة التى يحتاجان إليها وهو يظهر الفاقة والقلة فإنه لا يعد محسنا بهما ، فالتعليم الحرفى لا يحدد الإحسان المطلوب من كل أحد ، بل العمدة فيه اجتهاد المرء واخلاص قلبه فى تحرى ذلك بقدر طاقته وحسب فهمه لأكمل الارشاد الالهى التفصيلى فى ذلك بقوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض

لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا » .

فأنت ترى الرب العليم الحكيم الرحيم قد قفى هذه الوصية البليغة الدقيقة ببيان أن العبرة بما فى نفس الولد من قصد البر والاحسان والإخلاص فيه ، وأن التقصير مع هذا مرجو الغفران ، وقد فصل بعض العلماء القول فى ذلك ، كالغزالى فى الاحياء ، وابن حجر فى الزواجر .

قال الاستاذ الامام : الخطاب لعموم الأفراد أى ليحسن كل لوالديه وذلك أنهما السبب الظاهر فى وجود الولد ونموه بما بذلا من الجهد والطاقة فى تربيته بكل رحمة وإخلاص ، وقد بينت كتب الاحكام الظاهرة ما للوالدين من حقوق النفقة وبينت كتب الدين جميع الحقوق ، والمراد بكتب الدين كتب آدابه كالاحياء للغزالى . ويجمع هذه الحقوق كلها آيتا الاسراء .

إن هاهنا مسألة مهمة قلما تجد أحداً من علمائنا بينها كما ينبغى ، وهى أن بعض الوالدين يتعذر إرضاؤهما بما يستطيعه أولادهما من الإحسان بل يكلفون الأولاد مالا طاقة لهم به ، وما أعجب حكمة الله فى خلق هذا الإنسان ، قلما تجد ذا سلطة لا يجور ولا يظلم فى سلطته حتى الوالدين على أولادهما ، وهما اللذان آتاهما الفاطر من الرحمة الفطرية مالم يؤت سواهما ، قد تظلم الأم ولدها قليلا مغلوبة لبادرة الغضب أو طاعة لما يعرض من أسباب الهوى ، كأن تتزوج رجلا تحبه وهو يكره ولدها من غيره ، وكأن يقع التغاير بينها وبين امرأة ولدها وتراه شديد الحب لامرأته يشق عليه أن يغضبها لأجل مرضاتها هى فنى مثل هذه الحال قلما ترضى الأم بالعدل . وتعذر ولدها فى خضوعه لسلطان الحب ،

وإن هو لم يقصر فيما يجب لها من البر والإحسان . بل تأخذها عزة الوالدية حتى تستل من صدرها حنان الأمومة ويطغى فى نفسها سلطان استعلائها على ولدها ، ولا يرضيها إلا أن يهبط من جنة سعادة الزوجية لأجلها وربما تلتمس له فى مثل هذه الحال زوجا أخرى ينفر منها طبعه وما حيلته وقد سلب منه قلبه كما أنها تظلمه من أول الأمر بمثل هذا الاختيار وظلم الآباء فيه أشد من ظلم الأمهات ولا تجب طاعة الوالدين فى مثل هذا وياويح الولد الذى يصاب بمثلهما ، ولا سيما إذا كانا جاهلين بليدين يتعذر إقناعهما ·

ولعلك إذا دققت النظر فى أخبار البشر لا تجد فيها أغرب من تحكم الوالدين فى تزويج الأولاد بمن يكرهون ، أو إكراههم على تطليق من يحبون. ثبت فى الهدى النبوى الشريف أن الثيب من النساء أحق بنفسها فليس لأبيها ولا لغيره من الأولياء أن يعقدوا لها إلا على من تختاره وترضاه لنفسها لأنها لممارستها الرجال تعرف مصلحتها ، وأن البكر على حيائها وغرارتها وعدم اختيارها وعلم ما يعلم الأب الرحيم من مصلحتها يجب أن تستأذن فى العقد عليها، ويكتفى من إذنها بصماتها ، وظاهره أنها إذا لم تظهر الرضى بل صرحت بعدمه لا يجوز العقد عليها ، ومن قال من الفقهاء إن الأب يجبر كالشافعية اشترطوا فى صحة تزويجه لبنته بدون إذنها أن يكون الزوج كفؤاً لها وأن يكون موسراً بالمهر حالا وأن لا يكون بينها وبينه عدواة ظاهرة ولا خفية ، وأن لا يكون بينها وبين الولى العاقد عداوة ظاهرة فهذا قولهم فى العذراء المخدرة ، وأما الرجل فهو أحق من أبيه بتزويج نفسه إجماعا وليس لأبيه ولاية عليه فى ذلك فكيف يتحكم الوالد فى ولده بما لا يحكم به الشرع ولا ترضى به الفطرة ؟ أليس هذا من ظلم الاستعلاء الذى يوهم الرجل أن ابنه كعبده ، يجب ألا يكون له معه

رأى ولا اختيار فى أمره ، لافى حاضره ولا فى مستقبله الذى يكون عليه بعده ، وإن كان الوالد جاهلا بليداً ، والولد عالما رشيداً وعاقلا حكيما ؟ والويل كل الويل للولد إذا كان والده الجهول الظالوم غنياً ، وكان هو معوزا فقيرا فإن والده يدل عليه حينئذ بسلطتين ، ويحاربه بسلاحين ، لايهولنك أيها السعيد بالأبوين الرحيمين ما أذكر من ظلم بعض الوالدين الجاهلين القساة ، فإنى أعلم من أمر الناس مالا تعلم ، إنى لأعرف ما لا تعرف من أخبار الأمهات اللواتى تحكمن فى أمر زواج بناتهن أو أبنائهن تحكما كان سبب القتال ، والداء العضال فالموت الزؤام ، ثم ندمن ندامة الكسعى[1] ولات ساعة مندم ولعلك تعلم أن تحكم الآباء فى ذلك أشد وأضر ، وأدهى وأمر .

ومن ضروب ظلم الوالدين الجاهلين للولد العاقل الرشيد منعه من استعمال مواهبه فى ترقية نفسه فى العلوم والأعمال ، ولا سيما إذا توقف ذلك على السفر والترحال والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة جداً فى كل زمان ومكان .

وإنما أطلت فى هذا لأن الناس غافلون عنه فهم يظنون أن وصايا الدين حجة على أن للوالدين أن يعبثا باستقلال الولد ماشاء هواهما ، وإنه ليس للولد أن يخالف رأى والديه ولا هواهما ، وإن كان هو عالما وهما جاهلين بمصالحه وبمصالح الأمة والملة وهذا الجهل الشائع مما يزيد الآباء والأمهات إغراء بالاستبداد فى سياستهم للأولاد فيحسبون أن مقام الوالدية يقتضى بذاته أن يكون رأى الولد وعقله وفهمه دون رأى والديه وعقلهما وفهمهما ، كما يحسب الأمراء والملوك المستبدون أنهم أعلى من جميع رعاياهم عقلا وفهما ورأيا أو يحسب هؤلاء وأولئك

(١) الكسعى : رجل إسمه محارب ابن قيس من بنى الكسع . يضرب به المثل فى الندم .

أنه يجب ترجيح رأيهم وإن كان أفيناً ، على رأى أولادهم ورعاياهم وإن كان حكيما .

إذا طال الأمد على هذا الجهل لتفاشى فى أمتنا فإن الأمم التى تربى أولادها على الاستقلال الشخصى تستميه من بقى من شعوبنا خارجا عن محيط سلطتها قبل أن ينقضى هذا الجهل . يجب أن نفهم أن الإحسان بالوالدين الذى أمرنا به فى دين الفطرة هو أن نكون فى غاية الأدب مع الوالدين فى القول والعمل بحسب العرف حتى يكونا مغبوطين بنا ، وأن نكفيهما أمر ما يحتاجان إليه من الأمور المشروعة المعروفة بحسب استطاعتنا ، ولا يدخل فى ذلك شىء من سلب حريتنا واستقلالنا فى شئوننا الشخصية والمنزلية ولا فى أعمالنا لأنفسنا ولملتنا ودولتنا ، فإذا أراد أحدهما أو كلاهما الاستبداد فى تصرفنا فليس من البر ولا من الإحسان شرعا أن نترك ما نرى فيه الخير العام أو الخاص ، ونعمل ما فيه الضرر العام أو الخاص ، عملا برأيهما واتباعا لهواهما من سافر لطلب العلم الذى يرى أنه واجب عليه لتكميل نفسه أو خدمة دينه أو دولته ، أو سافر لأجل عمل نافع له ولأمته ووالداه أو أحدهما غير راض لأنه لا يعرف قيمة ذلك العمل فإنه لا يكون عاقا ولا مسيئاً شرعا ولا عقلا ، هذا ما ينبغى أن يعرفه الوالدون والأولاد . البر والإحسان لا يقتضيان سلب الحرية والاستقلال . أرأيت لو كانت أمهات سلفنا الأماجد كأمهاتنا أ كانوا فتحوا الممالك ، وفعلوا هاتيك العظائم ؟ كلا بل كانت الأسيفة الرقيقة القلب منهن كتماضر الخنساء رضى الله عنها تدفع بنيها الأربعة إلى القتال فى سبيل الله وترغبهم فيه بعبارات تشجع الجبان بل تحرك الجماد ، فقد روى ابن عبد البر عن الزبير بن بكار أنها شهدت حرب القادسية ومعها أربعة بنين لها فقالت لهم من أول الليل : يابنى إنكم أسلمتم . طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذى

أنه يجب ترجيح رأيهم وإن كان أفيناً ، على رأى أولادهم ورعاياهم وإن كان حكيما .

إذا طال الأمد على هذا الجهل المفاشى فى أمتنا فإن الأمم التى تربى أولادها على الاستقلال الشخصى تستميه من بقى من شعوبنا خارجا عن محيط سلطتهاقبل أن ينقضى هذا الجهل . يجب أن نفهم أن الإحسان بالوالدين الذى أمرنا به فى دين الفطرة هو أن نكون فى غاية الأدب مع الوالدين فى القول والعمل بحسب العرف حتى يكونا مغبوطين بنا ، وأن نكفيهما أمر ما يحتاجان إليه من الأمور المشروعة المعروفة بحسب استطاعتنا ، ولا يدخل فى ذلك شىء من سلب حريتنا واستقلالنا فى شئوننا الشخصية والمنزلية ولا فى أعمالنا لأنفسنا ولملتنا ودولتنا ، فإذا أراد أحدهما أو كلاهما الاستبداد فى تصرفنا فليس من البر ولا من الإحسان شرعا أن نترك مانرى فيه الخير العام أو الخاص ، ونعمل مافيه الضرر العام أو الخاص، عملا برأيهما واتباعا لهواهما من سافر لطلب العلم الذى يرى أنه واجب عليه لتكميل نفسه أو خدمة دينه أو دولته، أو سافر لأجل عمل نافع له ولأمته ووالداه أو أحدهما غير راض لأنه لا يعرف قيمة ذلك العمل فإنه لا يكون عاقا ولا مسيئاً شرعا ولا عقلا ، هذا ما ينبغى أن يعرفه الوالدون والأولاد . البر والإحسان لا يقتضيان سلب الحرية والاستقلال . أرأيت لو كانت أمهات سلفنا الأماجد كأمهاتنا أ كانوا فتحوا الممالك ، وملوا هاتيك المظالم ؟ كلا بل كانت الأسيفة الرقيقة القلب منهن كتماضر الخنساء رضى الله عنها تدفع بنيها الأربعة إلى القتال فى سبيل الله وترغبهم فيه بعبارات تشجع الجبان بل تحرك الجماد ، فقد روى ابن عبد البر عن الزبير بن بكار أنها شهدت حرب القادسية ومعها أربعة بنين لها فقالت لهم من أول الليل : يابنى إنكم أسلمتم . طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذى

لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنوا امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت[1] حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية، خير من الدار الفانية. يقول الله تعالى. «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

فإذا أصبحتم إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت[2] عن ساقها، واضطرمت لظى[3] على سياقها، وجللت ناراً[4] على أرواقها، فيمموا وطيسها[5]، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها[6] تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد المقامـة فلما كان القتال فى الغد كان يهجم كل واحد منهم ويقول شعرا يذكر فيه وصية العجوز ويقاتل حتى يقتل فلما بلغها خبر قتلهم كلهم قالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته. ولو شئت أن أروى لك مثل خبرها عن أم عبد الله بن الزبير وغيرها لفعلت. أفترى هذه الأمة تعتبر اليوم بسيرة سلفها وهى لم تعتبر بما بين يديها وأمام عينيها، وما يتلى كل يوم

---

(١) هجنت حسبكم: الهجنة. العيب والعار. أى تفتخر بصراحة نسبها وعراقة عروبتها.

(٢) شمرت: التشمير. الهم بالشىء والجد فيه والاجتهاد.

(٣) اضطرمت لظى على سياقها، بمعنى اشتدت الحرب.

(٤) جللت ناراً على أرواقها، جلل الشىء غطاه والمراد أن لمعان السيوف المتصارعة ترى وكأنها نار تجلل أروقة الميدان. أى نواحيه.

(٥) وطيسها: الوطيس. هو الاضطراب فى الحرب.

(٦) خميسها: الخميس الجيش سمى به لأنه مقسوم إلى خمسة أقسام المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب وقيل لأنه تخمس فيه الغنائم.

عليها، من أحوال الأمم التى كانت دونها فى العلم والقوة والعزة والثروة، فأصبحت منها فى موقع النجم تشرف عليها من سماء العظمة بالأمر والنهى، ومنشأ ذلك كله الاستقلال الشخصى فى الارادة والعقل، فإن الآباء والأمهات متفقون فيها على تربية أولادهم على استقلال العقل والفهم فى العلم، واستقلال الإرادة فى العمل، فقرة أعينهم أن يعمل أولادهم بارادة أنفسهم واختيارهم مايعتقدون أنه هو الخير لهم ولقومهم.

وإنما قرة أعين أكثر آبائنا وأمهاتنا أن ندرك بعقولهم لا بعقولنا، ونحب ونبغض بقلوبهم لا بقلوبنا، ونعمل أعمالنا بارادتهم لا بارادتنا، ومعنى ذلك أن لا يكون لنا وجود مستقل فى خاصة أنفسنا، فهل تخرج هذه التربية الاستبدادية الجائرة أمة عزيزة عادلة، مستقلة فى أعمالها وفى سياستها وأحكامها؟ فمالكم يا علماء الدين والأدب أن تبينوا لأمتكم فى المدارس والمجالس حقوق الوالدين على الأولاد وحقوق الأولاد على الوالدين، وحقوق الأمة على الفريقين ولا تفسروا قاعدتى الحرية والاستقلال فهما الأساس الذى قام عليه بناء الإسلام، وإن علماء الشعوب الشمالية التى سادت فى هذا العصر علينا يعترفون بأنهم أخذوا هاتين المزيتين (استقلال الفكر والإرادة) عنا وأقاموا بناء مدنيتهم عليهما، ولله در القائل منا « لاعب ولدك سبعاً، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً، ثم اجعل حبله على غاربه ».

(المنار جـ ٥ ص ٨٤—٩٠ بتصرف)

٢ — وقال تعالى:

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر

عليها ، من أحوال الأمم التى كانت دونها فى العلم والقوة والعزة والثروة ، فأصبحت منها فى موقع النجم تشرف عليها من سماء العظمة بالأمر والنهى ، ومنشأ ذلك كله الاستقلال الشخصى فى الارادة والعقل ، فإن الآباء والأمهات متفقون فيها على تربية أولادهم على استقلال العقل والفهم فى العلم ، واستقلال الإرادة فى العمل ، فقرة أعينهم أن يعمل أولادهم بارادة أنفسهم واختيارهم مايعتقدون أنه هو الخير لهم ولقومهم .

وإنما قرة أعين أكثر آبائنا وأمهاتنا أن ندرك بعقولهم لا بعقولنا ، ونحب ونبغض بقلوبهم لا بقلوبنا ، ونعمل أعمالنا بإرادتهم لا بإرادتنا ، ومعنى ذلك أن لا يكون لنا وجود مستقل فى خاصة أنفسنا ، فهل تخرج هـذه التربية الاستبدادية الجائرة أمة عزيزة عادلة ، مستقلة فى أعمالها وفى سياستها وأحكامها؟ فمالكم يا علماء الدين والأدب أن تبينوا لأمتكم فى المدارس والمجالس حقوق الوالدين على الأولاد وحقوق الأولاد على الوالدين ، وحقوق الأمة على الفريقين ولا تنسوا قاعدتى الحرية والاستقلال فهما الأساس الذى قام عليه بناء الإسلام، وإن علماء الشعوب الشمالية التى سادت فى هذا العصر علينا يعترفون بأنهم أخذوا هاتين المزيتين (استقلال الفكر والإرادة) عنا وأقاموا بناء مدنيتهم عليهما ، ولله در القائل منا « لاعب ولدك سبعاً ، وأدبه سبعاً ، وصاحبه سبعاً ، ثم اجعل حبله على غاربه » .

(المنار جـ ٥ ص ٨٤—٩٠ بتصرف)

٢ — وقال تعالى :

« و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر

أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

(٢٣ ، ٢٤ سورة الاسراء)

يقول ابن كثير :

«وبالوالدين احسانا » أى وأمر بالوالدين إحسانا . كقوله فى الآية الأخرى « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » وقوله:« إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف»أى لا تسمعهما قولا سيئا حتى ولا التأفف الذى هو أدنى مراتب السيء « ولا تنهرهما » أى لا يصدر منك إليهما فعل قبيح كما قال عطاء ابن أبى رباح فى قوله « ولا تنهرهما » أى لا تنفض يدك عليهما ، ولما نهاه عن القبيح من القول والفعل أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال« وقل لهما قولا كريما » أى لينا طيبا حسنا بتأدب وتوقير وتعظيم « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة »أى تواضع لهما بفعلك «وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً »أى فى كبرهما وعند وفاتهما . (ابن كثير جـ ٣ ص ٣٤ بتصرف)

ويقول القرطبى .

أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك كما قرن شكرهما بشكره ، ومن البر بهما والاحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، وعقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن برهما ،موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه إن لم يكن ذلك الأمر معصية ، ولا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما

الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما : ومن تمام برهما صلة أهل ودهما .

قوله تعالى « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » .خص حالة الكبر لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر ، فألزم فى هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ، لأنهما قد صارا كلاً عليه ، فيحتاجان أن يلى منهما فى الكبر ما كان يحتاج فى صغره أن يليا منه ، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر ، وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة وأقل المكروه مايظهره بتنفسه المتردد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة وهو السالم من كل عيب فقال :« فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » قوله تعالى:« فلا تقل لهما أف » أى لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم ، وعن أبى رجاء العطاردى : قال ، الأف الكلام القذع الردىء الخفى . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما فى حال الشيخ الغائط والبول الذى رأياه منك فى الصغر فلا تقذرهما وتقول أف والآية أعم من هذا . قال علماؤنا : وإنما صارت قوله « أف » للأبوين أردأ شىء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية ورد الوصية التى أوصاه فى التنزيل بها و « أف » كلمة مقولة لكل شىء مرفوض ، ولذلك قال إبراهيم لقومه « أف لكم ولما تعبدون من دون الله » أى رفض لكم ولهذه الأصنام معكم .

قوله تعالى « ولا تنهرهما » النهر : الزجر والغلظة « وقل لهما قولا كريما » أى لينا لطيفا مثل : ياأبتاه ، ويا أماه من غير أن يسميهما أو يكنيهما .

قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » هــذه استعارة فى الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة فينبغى بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه فى خير ذلة ، فى أقواله وسكناته ونظره ولا يحد إليهما بصره فإن تلك هى نظرة الغاضب .

قوله تعالى « كما ربيانى صغيرا » خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما فى التربية ، فيزيده ذلك اشفاقا لهما وحنانا عليهما .

(القرطبى جـ ١٠ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٦ بتصرف)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

وقضى ربك بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا كاملاً فى المعاملة ، إحسانا ليس بعده إحسان اذ يجتمع فيهما كل أسباب المودة والعطف ، فمن قرابة قريبة إلى صلة وشيجة وجوار كريم ، وعطف سابق ، وحنان أبوى كريم ، إذ هما أول من يعطف عليك عطفا غريزيا وأنت فى أشد الحاجة إليه فمن المروءة أن ترد الجميل لا أقول بأحسن منــه ، فليس هناك جميل يوازى عملهما ، ولهذا ترى القرآن الكريم يجمع بين الأمر بعبادة الله والأمر بالإحسان اليهما وفى آية أخرى « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » ولا غرابة فوالداك هما اللذان كونا الظاهر من جسمك ، والله الذى خلقك وسواك ونفخ فيك من روحه اعبده وحده ولا تشرك به شيئا وأحسن إلى والديك إحسانا يكافىء ماقدماه لك ، وهذا الأمر بالإحسان عام فى كل حال ، وهناك أوضاع خاصة تقتضى التنصيص عليها بخصوصها مثلا .

إن يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما كلمة ضجر أو تألم والكبر

ملازم للضعف والعجز والحاجة إلى المعين والناصر الذى يتغاضى عن العيب والأذى « وهو الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » وليس النهى عن التضجر والتألم خاصا بحالة الكبر بل فى كل حال خصوصا التى يتهاون فيها الولد بأبيه لضعفه وعجزه عن الكسب .

إذا تبتم إلى الله وندمتم على ما فعلتم فاعلموا أن الله غفور للأوابين رحيم بهم . وقل لهما قولا لينا لطيفا مع حفظ الكرامة ، والأدب والحياء ؛ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وهذا كناية عن حسن رعايتهما وتدبير أمرهما فكأنه قال : واضممهما إلى نفسك كما فعلا بك وأنت صغير وتواضع لهما ؛ وألن جانبك معهما واخفض لهما الجناح الذليل من أجل فرط الشفقة بهما والعطف عليهما إذ هما فى حاجة إلى عطف من كان أفقر خلق الله إلى عطفهما .

ولا تكتف بهذا بل قل رب ارحمهما ، وتجاوز عن سيئاتهما فإنهما ربيانى صغيرا . وأنت ترى أن الله بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر منها جلود العاقين . (الواضح ج١٥ ص ١٨ ، ١٩)

ويقول المراغى :

« وبالوالدين إحسانا » أى وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ليكون الله معكم « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وقد أمر سبحانه بالإحسان إليهما للأسباب الآتية :

١ – شفقتهما على الولد ، وبذل الخير إليه ، وإبعاد الضر عنه بجهد المستطاع فوجب مقابلة ذلك بالإحسان إليهما والشكر لهما .

ملازم للضعف والعجز والحاجة إلى المعين والناصر الذى يتغاضى عن العيب والأذى « وهو الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » وليس النهى عن التضجر والتألم خاصا بحالة الكبر بل فى كل حال خصوصا التى يتهاون فيها الولد بأبيه لضعفه وعجزه عن الكسب .

إذا تبتم إلى الله وندمتم على ما فعلتم فاعلموا أن الله غفور للأوابين رحيم بهم . وقل لهما قولا لينا لطيفا مع حفظ الكرامة ، والأدب والحياء ؛ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وهذا كناية عن حسن رعايتهما وتدبير أمرهما فكأنه قال : واضممهما إلى نفسك كما فعلا بك وأنت صغير وتواضع لهما ؛ وألن جانبك معهما واخفض لهما الجناح الذليل من أجل فرط الشفقة بهما والعطف عليهما إذ هما فى حاجة إلى عطف من كان أفقر خلق الله إلى عطفهما .

ولا تكتف بهذا بل قل رب ارحمهما ، وتجاوز عن سيئاتهما فإنهما ربيانى صغيرا . وأنت ترى أن الله بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر منها جلود العاقين . (الواضح ج١٥ ص ١٨ ، ١٩)

ويقول المراغى :

« وبالوالدين إحسانا » أى وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ليكون الله معكم « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وقد أمر سبحانه بالإحسان إليهما للأسباب الآتية :

١ ـ شفقتهما على الولد ، وبذل الخير إليه ، وإبعاد الضر عنه بجهد المستطاع فوجب مقابلة ذلك بالإحسان إليهما والشكر لهما .

٢ ـ إن الولد قطعة من الوالدين كما جاء فى الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال « فاطمة بضعة منى » .

٣ ـ أنهما أنعما عليه ، وهو فى غاية الضعف ، ونهاية العجز ، فوجب أن يقابل ذلك بالشكر حين كبرهما ، كما قال الشاعر العربى يعدد نعمه على ولده وقد عقه فى كبره :

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تعل[1] بما اجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أومل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

والخلاصة ـ إنه لا نعمة تصل إلى الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ، ثم نعمة الوالدين ، ومن ثم بدأ بشكر نعمته أولا بقوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ثم أردفها بشكر نعمة الوالدين بقوله: « وبالوالدين إحسانا » .

ثم فصل مايجب من الإحسان إليهما بقوله :

« إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » أى إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف

---

(١) تعل : العل : هو الشرب بعد الشرب

والعجز وصارا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله ـ وجب عليك أن تشفق عليهما وتحنو لهما تعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه . ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور الخمسة الآتية :

(ا) ـ ألا تتأفف من شيء تراه من أحدهما أومنهما مما يتأذى به الناس ولكن اصبر على ذلك منهما ، واحتسب الأجر عليه ، كما صبرا عليك فى صغرك .

(ب) ـ ألا تنفض عليهما بكلام تزجرهما به ، وفى هذا منع من إظهار المخالفة لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، وفيما قبله منع من إظهار الضجر القليل أو الكثير .

(ﺟ) ـ أن تقول لهما قولا حسنا ، وكلاماً طيبا مقرونا بالاحترام والتعظيم مما يقتضيه حسن الأدب وترشد إليه المروءة كما تقول : يا أبتاه ويا أماه ولا تدعوهما بأسمائهما ولا ترفع صوتك أمامهما ولا تحدق فيهما بنظرك .

(د) ـ أن تتواضع لهما وتتذلل وتطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن معصية لله ، رحمة منك بهما وشفقة عليهما إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما وذلك منتهى ما يكون من الضراعة والمسكنة .

وقوله من الرحمة ، أى يكون ذلك التذلل رحمة بهما لا من أجل امتثال الأمر وخوف العار فقط ، فتذكر نفسك بما تقدم لهما من الإحسان إليك ، وبما أمرت به من الشفقة والحدب عليهما .

وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لتربيته ، فإنه يخفض له جناحه ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك حال صغرك .

(ﻫ) ـ أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية كفاء رحمتهما لك فى صغرك وجميل شفقتهما عليك .

والعجز وصارا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله ـ وجب عليك أن تشفق عليهما وتحنو لهما تعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه . ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور الخمسة الآتية :

(ا) ـ ألا تتأفف من شيء تراه من أحدهما أومنهما مما يتأذى به الناس ولكن اصبر على ذلك منهما ، واحتسب الأجر عليه ، كما صبرا عليك فى صغرك .

(ب) ـ ألا تنفض عليهما بكلام تزجرهما به ، وفى هذا منع من إظهار المخالفة لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، وفيما قبله منع من إظهار الضجر القليل أو الكثير .

(جـ) ـ أن تقول لهما قولا حسنا ، وكلاماً طيبا مقرونا بالاحترام والتعظيم مما يقتضيه حسن الأدب وترشد إليه المروءة كما تقول : يا أبتاه ويا أماه ولا تدعوهما بأسمائهما ولا ترفع صوتك أمامهما ولا تحدق فيهما بنظرك .

(د) ـ أن تتواضع لهما وتتذلل وتطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن معصية لله ، رحمة منك بهما وشفقة عليهما إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما وذلك منتهى ما يكون من الضراعة والمسكنة .

وقوله من الرحمة ، أى يكون ذلك التذلل رحمة بهما لا من أجل امتثال الأمر وخوف العار فقط ، فتذكر نفسك بما تقدم لهما من الإحسان إليك ، وبما أمرت به من الشفقة والحدب عليهما .

وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لتربيته ، فإنه يخفض له جناحه ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك حال صغرك .

(هـ) ـ أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية كفاء رحمتهما لك فى صغرك وجميل شفقتهما عليك .

والخلاصة — إنه سبحانه بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر منها جلود أهل العقوق ، وتقف عندها شعورهم ، من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ، ثم شفعها بالإحسان إليهما ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر ، مع موجبات الضجر ، ومع أحوال لا يكاد الإنسان يصبر معها ، وأن يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالدعاء ، والترحم عليهما .

(للراغى جـ ١٥ ص ٣٣ — ٣٧ بتصرف)

٣ — وقال تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » (١٥١ . الأنعام)

قال القاسمى :

« وبالوالدين إحسانا » أى وأحسنوا بالوالدين إحسانا قال الحاكم : والإحسان ما يخرج عن حد العقوق ، ومثل هذا قوله تعالى « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » ولما كان إيجاب الإحسان تحريما لترك الاحسان ذكر فى المحرمات . وكذا حكم ما بعده من الأوامر . فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهى عن ضده . بل هو عينه عند البعض ، كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها ، ومن سر ذلك هنا — أعنى وضع « وبالوالدين إحسانا » موضع « النهى عن الإساءة إليهما » — للمبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ، بخلاف غيرهما .

(القاسمى جـ ٦ ص ٢٥٦٤ ، ٢٥٦٥)

ويقول صاحب التفسير الواضح .

« وبالوالدين إحسانا » أى أحسنوا إلى الوالدين إحسانا كاملا ، بإخلاص لله سبحانه فما بالكم بالإساءة مهما قلت ؟ وأما العقوق فكبيرة من الكبائر والقرآن الكريم قرن الأمر بعبادة الله بالإحسان للوالدين « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » : « أن اشكر لى ولوالديك » وقد روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » قلت ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » وهذا دليل على عظم العناية بحقوقهما وعلى أن مكانتهما تستحق ذلك فهما قد خلقا الجسم فى الظاهر ، والله سبحانه هو الخالق حقيقة وفى الواقع ... والمراد بالإحسان إليهما معاملتهما معاملة كريمة معاملة مبنية على العطف والمحبة لا الخوف والرهبة فبرهما سلف لك ودين ، فقد ورد فى الحديث « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم » وأنت فى شبابك قد لا تحتاج إلى الغير ، ولكن فى كبرك محتاج إلى من يعينك ويقوم بأمورك ، ومحبة الوالد لولده غريزة من الغرائز فلم يوص عليها الشرع ، ومحبة الولد لوالديه جزاء ومكافأة لهما ، ولذا نبه القرآن عليها وشدد ، على أن عقوق الوالدين يفسد الأبناء وتكوينهم وينشئهم على الغلظة وعدم الشفقة ، وعلى الوالدين حسن الرعاية والعناية والعطف عليهم ، وعدم التحكم فى المسائل الشخصية الخاصة إلا بقدر محدود .

(الواضح جـ٨ ص ٢٦)

ويقول المراغى :

المراد ببرهما احترامهما احترام المحبة والكرامة ، لا احترام الخوف والرهبة ، لأن فى ذلك مفسدة كبيرة فى تربية الأولاد فى الصغر ، وإلجاء لهم إلى العقوق

ويقول صاحب التفسير الواضح .

« وبالوالدين إحسانا » أى أحسنوا إلى الوالدين إحسانا كاملا ، بإخلاص لله سبحانه فما بالكم بالإساءة مهما قلت ؟ وأما العقوق فكبيرة من الكبائر والقرآن الكريم قرن الأمر بعبادة الله بالإحسان للوالدين « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » : « أن اشكر لى ولوالديك » وقد روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » قلت ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » وهذا دليل على عظم العناية بحقوقهما وعلى أن مكانتهما تستحق ذلك فهما قد خلقا الجسم فى الظاهر ، والله سبحانه هو الخالق حقيقة وفى الواقع ... والمراد بالإحسان إليهما معاملتهما معاملة كريمة معاملة مبنية على العطف والمحبة لا الخوف والرهبة فبرهما سلف لك ودين ، فقد ورد فى الحديث « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم » وأنت فى شبابك قد لا تحتاج إلى الغير ، ولكن فى كبرك محتاج إلى من يعينك ويقوم بأمورك ، ومحبة الوالد لولده غريزة من الغرائز فلم يوص عليها الشرع ، ومحبة الولد لوالديه جزاء ومكافأة لهما ، ولذا نبه القرآن عليها وشدد ، على أن عقوق الوالدين يفسد الأبناء وتكوينهم وينشئهم على الغلظة وعدم الشفقة ، وعلى الوالدين حسن الرعاية والعناية والعطف عليهم ، وعدم التحكم فى المسائل الشخصية الخاصة إلا بقدر محدود .

(الواضح جـ٨ ص ٢٦)

ويقول المراغى :

المراد ببرهما إحترامهما احترام المحبة والكرامة ، لا احترام الخوف والرهبة ، لأن فى ذلك مفسدة كبيرة فى تربية الأولاد فى الصغر ، والجاء لهم إلى العقوق

فى الكبر ، والى ظلم الأولاد لهم كما ظلمهم آباؤهم ، وليس لهما أن يتحكما فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا سيما تزويجهم بمن يكرهون أو منعهم من الهجرة لطلب العلم النافع أو لكسب المال والجاه إلى نحو ذلك .

(المراغى جـ ٨ ص ٦٧)

٤ ـ وقال تعالى :

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »

(٨ : العنكبوت)

يقول ابن كثير :

يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان فالوالد بالإنفاق والوالدة بالاشفاق ، ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والاحسان إليهما فى مقابلة إحسانهما المتقدم قال « وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما » أى وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فإياك وإياها فلا تطعهما فى ذلك فإن مرجعكم إلى يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أى حبا دينيا .

(ابن كثير جـ ٣ ص ٤٠٥)

وقال المراغي .

«ووصينا الإنسان بوالديه حسنا» أي وأمرناه بتعهدهما والبر بهما والإحسان إليهما .

« وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما » أي وإن حرضاك على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك أن تفعل ذلك وجا في الحديث « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ومعنى قوله « ماليس لك به علم » أنه لا علم لك بإلهيته ، وإن كان لا يجوز له أن يتبع فيما لا يعلم صحته فأحرى به ألا يتبع فيما يعلم بطلانه .

ثم توعد من يفعل ذلك بقوله :

« إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » أي مرجعكم جميعا إلى يوم القيامة من آمن منكم ومن كفر ، ومن بر والديه ومن عق ، ثم أجازيكم على أعمالكم المحسن بإحسانه ، والمسيء بما هو أهل له .

(المراغي ج ٢٠ ص ١١٧ ، ١١٨ بتصرف)

ويقول القاسمي :

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا » أي أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلاً ذا حسن عظيم .

« وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما » أي في الشرك إذا حملاك عليه .

ومعنى «ماليس لك به علم» أي لا علم لك بإلهيته قال القاضي: عبر عن نفيها بنفي العلم

وقال المراغى .

«ووصينا الإنسان بوالديه حسنا» أى وأمرناه بتعهدهما والبر بهما والإحسان إليهما.

« وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما » أى وإن حرضاك على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك أن تفعل ذلك وجا فى الحديث « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ومعنى قوله « ماليس لك به علم » أنه لا علم لك بإلهيته ، وإن كان لا يجوز له أن يتبع فيما لا يعلم صحته فأحرى به ألا يتبع فيما يعلم بطلانه .

ثم توعد من يفعل ذلك بقوله :

« إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » أى مرجعكم جميعا إلى يوم القيامة من آمن منكم ومن كفر ، ومن بر والديه ومن عق ، ثم أجازيكم على أعمالكم المحسن بإحسانه ، والمسيىء بما هو أهل له .

(المراغى ج ٢٠ ص ١١٧ ، ١١٨ بتصرف)

ويقول القاسمى :

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا » أى أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلاً ذا حسن عظيم .

« وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما » أى فى الشرك إذا حملاك عليه .

ومعنى «ماليس لك به علم» أى لا علم لك بإلهيته قال القاضى: عبر عن نفيها بنفى العلم

بها ، للإيذان بأن مالا يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه ، فكيف بما علم بطلانه « إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » أى إلى مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازيكم حق جزائكم. فيه التحذير من متابعتهما على الشرك والحث على الثبات والاستقامة فى الدين بذكر المرجع والوعيد .

(القاسمى ج ١٣ ص ٤٧٣٨ ، ٤٧٣٩ بتصرف)

٥ ـ وقال تعالى :

« ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون . والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين . أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » . (١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ سورة الأحقاف)

يقول صاحب التفسير الواضح :

هذه الآيات الكريمة سيقت لبيان جانب من جوانب نعم الله على الإنسان وفضله عليه حيث تعهده فى الصغر ، ووضع فى قلب والديه وخاصة الأم غريزة حبه والعطف عليه حتى يكتمل ، وبعد بلوغ عقله وكماله كان منه من وفق إلى

الخير واهتدى ورد بعض الجميل إلى أهله ، ومنه من ضل وبغى ولم يرع لحق حرمة بل كفر وأنكر رغم الحاح والديه عليه وإرشادهما له ، ولـكل درجات فانظر ـ وفقك الله تعالى إلى الخير ـ مكانك فى الناحيتين .

المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن يحسن لهما إحسانا ، وألزمناه إحسانا إليهما فهما أحق الناس ، والأمر بالإحسان إليهما محل اعتناء من الله ، فكان وصية لا أمراً إذ هما قد توليا ايجاده ظاهراً ، والله تولى خلقه حقيقة وباطنا ، والأم أحق بذلك من الأب فهى حملته على كره وتعب ووضعته بمشقة وألم .

ومدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا والولد فيها حمل على أمه ، فبطنها وعاء له ، وثديها سقاء له ، وهى فوق ذلك تسهر وتتعب ، وتشقى ليسعد ، فمن باب الذوق ورد الجميل الإحسان إلى الوالدين وخاصة الأم . فإذا عاش الرضيع ودرج كما يدرج الصبيان ، وأيفع مع الشبان حتى إذا بلغ أشده واستحكم عقله واستوت قوته وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى ووفقنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى حيث وضعت فى قلوبهما العطف على ، وخلقتنى بسببهما على أتم صورة ورعيتنى فى الصغر وربيتنى وحفظتنى وأنعمت على نعما لا تحصى ، ويظهر ـ والله أعلم ـ أن قول الإنسان هذا عند بلوغه الأشد وا كتمال العقل وبلوغ الأربعين قوله هذا من حيث هو إنسان فقط بقطع النظر عن الارشادات والتعاليم التى تأتى على ألسنة الرسل ، وتجعل الطفل عند البلوغ أو الاحتلام مكلفا بكل فروع الشريعة إذ طلب الإنسان من ربه إن يوفقه إلى العمل وأن يهديه إلى الشكر ورد الجميل ليس موقوفا على بلوغ الأربعين وكمال الأشد .

رب اهدنى إلى شكرك حيث أنعمت على وعلى والدى نعما لا تحصى واهدنى

الخير واهتدى ورد بعض الجميل إلى أهله ، ومنه من ضل وبغى ولم يرع لحق حرمة بل كفر وأنكر رغم الحاح والديه عليه وإرشادهما له ، ولكل درجات فانظر ـ وفقك الله تعالى إلى الخير ـ مكانك فى الناحيتين .

المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن يحسن لهما إحسانا ، وألزمناه إحسانا إليهما فهما أحق الناس ، والأمر بالإحسان إليهما محل اعتناء من الله ، فكان وصية لا أمراً إذ هما قد توليا ايجاده ظاهراً ، والله تولى خلقه حقيقة وباطنا ، والأم أحق بذلك من الأب فهى حملته على كره وتعب ووضعته بمشقة وألم .

ومدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا والولد فيها حمل على أمه ، فبطنها وعاء له ، وثديها سقاء له ، وهى فوق ذلك تسهر وتتعب ، وتشقى ليسعد ، فمن باب الذوق ورد الجميل الإحسان إلى الوالدين وخاصة الأم . فإذا عاش الرضيع ودرج كما يدرج الصبيان ، وأيفع مع الشبان حتى إذا بلغ أشده واستحكم عقله واستوت قوته وبلغ أربعين سنة قال: رب أوزعنى ووفقنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى حيث وضعت فى قلوبهما العطف على ، وخلقتنى بسببهما على أتم صورة ورعيتنى فى الصغر وربيتنى وحفظتنى وأنعمت على نعما لا تحصى ، ويظهر ـ والله أعلم ـ أن قول الإنسان هذا عند بلوغه الأشد وا كتمال العقل وبلوغ الأربعين قوله هذا من حيث هو إنسان فقط بقطع النظر عن الارشادات والتعاليم التى تأتى على ألسنة الرسل ، وتجعل الطفل عند البلوغ أو الاحتلام مكلفا بكل فروع الشريعة إذ طلب الإنسان من ربه إن يوفقه إلى العمل وأن يهديه إلى الشكر ورد الجميل ليس موقوفا على بلوغ الأربعين وكمال الأشد .

رب اهدنى إلى شكرك حيث أنعمت على وعلى والدى نعما لا تحصى واهدنى

إلى صالح الأعمال ، واجعل التقوى والصلاح ساريا فى ذريتى راسخا فى أبنائى لأنى تبت إليك وأنبت ، وإنى من المسلمين القانتين فاغفرلى ووفقنى ياأكرم الأكرمين .

أولئك — والإشارة للتعظيم — الذين نتقبل عنهم أحسن أعمالهم ، وكلها بسبب كمال الإخلاص من أحسن الأعمال ، و نتجاوز عما فرط من سيئاتهم ، وعدهم ربك بذلك وعدا هو الصدق بعينه ، الذى كانوا يوعدون به على ألسنة الرسل أما الصنف الثانى الذى لم يرع فى الله حقا ، ولم يرع لوالديه حرمة ، ورد الجميل بالقبيح ، وجازى الحسنة بالسيئة ، فهذا والداه وهما كما عرفت تعبا وسهرا لراحته ، وصنعاه حتى اكتمل وأشارا عليه بمافيه خيره وسعادته ومع هذا مازاده ذلك كله إلا استكباراً وعناداً وكفرا وجحوداً .. انظر إليه وهو يقول : والذى قال لوالديه — حينما أشارا إليه بالإسلام والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر — قال لهما ، أف لكما أتعدانني بالبعث وأنى سأخرج من القبر للحساب ، والحال أنه قد خلت القرون من قبلى ومضت آلاف السنين ولم نر أحداً بعث ، يريد بهذا إنكار البعث . وهما يستغيثان بالله من أفعاله ، ويلجآن إلى الله أن يرشده ويهديه ويقولا له : ويلك وهلاكك آمن مع المؤمنين ، وليس مرادهما الدعاء عليه بالويل والثبور ، بل هما يحثانه على الإيمان والدخول فيه بسرعة ، لأن وعد الله حق ، وقد وعد المؤمنين بالثواب والكافرين بالعقاب .

أولئك — والإشارة للتحقير — الذين حقت عليهم كلمة ربك بالعذاب وهى « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » حالة كونهم فى عداد أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس ، لأنهم كانوا خاسرين .

ولكل من الفريقين ، فـــريق المؤمنين ، وفريق الكافرين درجات معلومة بسبب أعمالهم التى عملوها ، فريق فى الجنة له درجات عليا ، وفريق فى السعير له درجات سفلى ، وقد فعل ذلك ربك ليوفيهم جزاء أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، وهم لا يظلمون شيئا بنقص ثواب وزيادة عقاب .

(الواضح جـ ٢٦ ص ١٠ ـ ١٢ بتصرف)

الأدلة من السنة :

إن الإحسان إلى الوالدين طاعة لاتعدلها طاعة . بل هو الطاعة الدائمة أو الجهاد للوصول . من أجل ذلك فاضت أحاديث النبي ﷺ . بالجليل من من التوجيهات الحيوية فى رعاية الوالدين والإحسان إليهما . ولكم كان شغف الصحابة بالإيمان ومقتضياته فى بؤرة شعورهم . وكثيراً ما دفعهم هذا إلى كثرة سؤالهم النبي ﷺ . عما يقربهم إليه من جهاد وهجرة وعمل وطاعة وصحبة . فكان الجواب فى كثير من الأحيان يعود إلى بر الوالدين وإحسان صحبتهما وطاعتهما فى الخير . والجهاد فى مرضاتهما فى الحق .

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى[1] قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك[2] » رواه الشيخان

٢ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أقبل رجل إلى نبى الله . ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة[3] والجهاد أبتغى الأجر من الله

---

(١) أى من أولى الناس بحسن العشرة والاحسان .

(٢) ذكر الأم ثلاث مرات ثم ذكر الأب بعدها لعظم حقها مما قاسته فى حمله وإرضاعه ثلاثين شهرا وسهرها به واحتراق قلبها عليه حق ربته .

(٣) مفارقة الوطن وسكنى المدينة .

تعالى ؟ فقال : « هل لك من أبويك أحد حى ؟ » قال : نعم بل كلاهما قال : فتبتغى الأجر من الله تعالى ؟ قال : نعم قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » متفق عليه (رياض الصالحين ص ١٥٥)

٣ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان ؟ فقال : « ارجع إليهما فأضحكهما [١] كما أبكيتهما » رواه أبو داود .

٤ — وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت قدمت على أمى وهى راغبة [٢] أفأصل أمى ؟ قال نعم صلى [٣] أمك »

رواه البخارى ومسلم وأبو داود (الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٩٤، ١٠٠)

العنصر الثانى

الإحسان إلى الاقارب

الأدلة من الكتاب :

من أبرز المجالات التى يجب فيها الإحسان مجال الإحسان إلى ذوى القربى ومن تربط الانسان به علائق الرحم والقرابة من البنوة والأخوة والعمومة والخؤولة والمصاهرة فإن البر بهؤلاء وإسداء المعروف لهم والإحسان إليهم يوثق الصلة بين أفراد الأسرة الواحدة ثم بين باقى أسر المجتمع وأفراده الأمر الذى يشد أواصره ويقوى كيانه .

---

(١) أى أدخل عليهما السرور وأجلب لهما الفرح .
(٢) أى طامعة فيما عندى تسألنى الاحسان إليها .
(٣) أى قدمى لها إحسانا ومودة .

١ — قال تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون »

(٨٣ : البقرة)

يقول صاحب تفسير المنار : « وذى القربى »

الاحسان هو الذى يقوى غرائز الفطرة ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين حتى تبلغ البيوت فى وحدة المصلحة درجة الكمال والأمة تتألف من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها وههنا قال الأستاذ الامام كلمة جليلة هى: من لم يكن له بيت لاتكون له أمة . وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد ثم بين سائر الأقربين ، فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله فأى خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزء من بنية أمة ، لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التى هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ؛ فأى لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزء منهم يسره ما يسرهم ويؤلمه ما يؤلمهم ، ويرى منفعتهم عين منفعته ومضرتهم عين مضرته وهو ما يجب على كل شخص لأمته ، قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة ، وصلتها أمتن من كل صلة

---

(١) أى الأقرب لك من الأصول والحواشى .

فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . (المنار ج ١ ص ٣٦٧)

٢ — وقال تعالى . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » . (٣٦ : النساء)

يقول صاحب تفسير المنار :

قال تعالى «وبذى القربى» أى وأحسنوا بمعاملة ذى القربى وهم أقرب الناس إلى الإنسان بعد الوالدين الذين يلونهم فى الحقوق. وفى سورة البقرة « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى ... الخ الآية » فأعيد الجار هنا ، ولم يعد هناك . قال بعض المفسرين النكتة فى ذلك أن الوصية بذى القربى مؤكدة فى هذه الأمة زيادة على تأكيدها فى بنى إسرائيل لأن إعادة الجار للتأكيد . وعندى أنه يمكن أن تكون إعادة الجار لإفادة التنويع فإن الإحسان بالوالدين غير الاحسان بالأقربين إذ يجب للوالدين من الرعاية والتكريم والخضوع مالا يجب لغيرهما . ومتى ارتقت الشرائع بارتقاء الأمة حسن فيها مثل هذا التحديد والتدقيق فى الحدود والواجبات لاستعداد الأمة له .

إذا قام الإنسان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته وصلحت أعماله ، وقام بحقوق الوالدين فصلح حالهما وحاله ، تكون بذلك وحدة البيوت الصغيرة

المركبة من الوالدين والأولاد ، وبصلاح هذا البيت الصغير يحدث له قوة فإذا عاون أهله البيوت الأخرى التي تنسب إلى هذا البيت بالقرابة وعاونته هي أيضا يكون لكل من البيوت المتعاونة قوة كبرى . يمكنه أن يحسن بها إلى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مؤونة الحاجة إلى الناس الذين لايجمعهم بهم النسب وهم الذين عطفهم على ذوى القربى .

(المنار جـ ٥ ص ٩٠ ، ٩١)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

وأحسنوا إلى ذوى القربى كالأخ والأخت والعم والخال وأبنائهم فإن الانسان إذا أحسن للوالدين والأقارب تكونت أسرة قوية متعاونة متساندة وهى نواة المجتمع ومنها تتكون الدول لاسيما إذا كان هذا العمل بعد الايمان بالله والاخلاص له . (التفسير الواضح جـ٥ ص ١٥)

الأدلة من السنة :

إن رعاية ذوى القربى وتعهدهم والإحسان إليهم والبر بهم ماديا وأدبيا من أبر الأعمال وأحبها إلى الله تعالى وأعظمها أثرا وأجزلها عطاء حيث تقرب البعيد وتدنى القريب وتزكى العلائق وتعطر عودها بعطر الحب والمودة وحيث تقى الإنسان من شؤم القطيعة وغضب الله وتبعده عن النار وتقوده إلى الجنة .

١ ـ عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى امرأة ومعها ابنتان تسألنى فلم تجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها[1] ثم قامت فخرجت

---

(١) فالمرأة مع شدة جوعها لم تطعم من الثمرة شيئا بل قسمتها بين أبنتيها رحمة بهما وشفقة عليهما .

فدخل النبي ﷺ فحدثته فقال: « من بُلى من هذه البنات بشيء[١] فأحسن إليهن كُن له ستراً من النار » رواه الشيخان والترمذى

٢ — وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن[٢] واتقى الله فيهن فله الجنة » رواه الترمذى وأبو داود

٣ — وعن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن[٣] »

(روى هذه الثلاثة والترمذى)

٤ — وعنه رضى الله عنه أن رجلا قال: يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيئون إلى وأحلم عنهم ويجهلون على فقال: « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ[٤] ولايزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك[٥] ».

رواه مسلم (التاج جـ ٥ ص ٦ - ١٠)

---

(١) واحدة أو أكثر له أو لغيره.

(٢) عشرتهن.

(٣) والأدب الحسن أن يعلمه كيف يأكل وكيف يشرب وكيف يعامل الناس وكيف يسعى لعيشه بينهم ويحسن عشرتهم والواجب عليه لربه ولخلقه فيدخل فى هذا تعليمه بما يناسب الزمان والمكان.

(٤) الرماد (٥) ناصر ومعين

العنصر الثالث

الإحسان إلى اليتامى والمساكين

إن اليتامى والمساكين صنفان من الناس فى أشد الحاجة إلى الإحسان إليهم والمساعدة لهم . فإن اليتيم الذى فقد عائله وراعيه فى حاجة قصوى إلى نصير يقف إلى جواره ويشد من أزره ويظل معه حتى يشتد عوده ويقف على قدميه . وكذلك المسكين الذى لا يجد من النفقة ما يكفيه يحتاج إلى من يمد إليه يداً محسنة حانية ، عطوفة بارة . واليتيم والمسكين كلاهما إن ضاع أو جاع أو انحرف فلا يعفى المجتمع المفرط من عواقب تفريطه فى حقهما .

١ — قال تعالى : « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » .

(٨٣ : البقرة)

يقول صاحب تفسير المنار :

« واليتامى والمساكين » .

واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة فعلم أنها مقصودة لذاتها .

قال الأستاذ الإمام : أكد الله تعالى الوصية باليتيم وفى القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على آكل ماله تشديداً خاصاً ولو كان السر فى ذلك غلبة المسكنة على اليتامى

لا كتفى هنا بذكر المساكين . كلا إن السر فى ذلك هو كون اليتيم لا يجد فى الغالب من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه والعناية بأموره الدينية والدنيوية ، فإن الأم إن وجدت تكون فى الأغلب عاجزة ولا سيما إذا تزوجت بعد أبيه فأراد الله تعالى — وهو أرحم الراحمين — بما أكد من الوصية بالأيتام أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم يربونهم تربية دينية دنيوية لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم فينتشر الفساد فى الأمة فتنحل انحلالا فالعناية بتربية اليتامى هى الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد . والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة .

(المنار جـ ١ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨)

ويقول المراغى :

« واليتامى والمساكين » .

فالإحسان إلى اليتيم بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضياع وحسبك قول النبي ﷺ « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وأشار بالسبابة والوسطى .

إن الأيتام أعضاء فى جسم الأمة فإذا فسدت أخلاقهم وساءت أحوالهم تسرب الفساد إلى سائر الأمة .

والإحسان إلى المساكين يكون بالصدقة عليهم ومواساتهم حين البأساء والضراء وقدم اليتيم على المسكين لأن هذا يمكنه أن يسعى بنفسه للحصول على قوته بخلاف الأول فإن الصغر مانع له من ذلك .

(المراغي جـ ١ ص ١٥٧ ، ١٥٨ بتصرف)

٢ — وقال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » . (٣٦ : النساء)

يقول ابن جرير فى تفسيره :

وأما قوله « واليتامى » جمع يتيم وهو الطفل الذى قد مات والده وهلك . والمساكين جمع مسكين وهو الذى قد ركبه ذل الفاقة والحاجة فتمسكن لذلك يقول تعالى ذكره استوصوا بهؤلاء إحساناً إليهم وتعطفوا عليهم والزموا وصيتى فى الإحسان إليهم . (الطبرى ج ٥ ص ٥٠)

ويقول صاحب تفسير المنار :

« واليتامى والمساكين » فإن الله تعالى يوصى باليتامى فى مثل هذا المقام لأن اليتيم يهمل أمره بفقده الناصر القوى الغيور وهو الأب ، أو تكون تربيته ناقصة بالجهل الذى هو جناية على العقل . أو فساد الأخلاق الذى هو جناية على النفس ، وهو بجهله وفساد أخلاقه يكون شراً على أولاد الناس يعاشرهم فيسرى إليهم فساده ، وقلما تستطيع الأم أن تربى الولد تربية كاملة مهما اتسمت معارفها وكذلك المساكين لا تنظم الهيئة الاجتماعية إلا بالعناية بهم وصلاح حالهم فإن أهمل أمرهم الأغنياء كانوا بلاء وويلا على الناس ، وقلما ينظر الناس فى المسكنة إلى غير العادم ، صفر الكف والمهم معرفة سبب ذلك فإن من الناس من يكون سبب عدمه وعوزه ضعفه وعجزه عن الكسب أو نزول الجوائح السماوية تذهب بماله من غير تقصير منه ، وهذا هو المسكين الحقيقى الذى تجب مواساته

٢ — وقال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » . (٣٦ : النساء)

يقول ابن جرير فى تفسيره :

وأما قوله « واليتامى » جمع يتيم وهو الطفل الذى قد مات والده وهلك . والمساكين جمع مسكين وهو الذى قد ركبه ذل الفاقة والحاجة فتمسكن لذلك يقول تعالى ذكره استوصوا بهؤلاء إحساناً إليهم وتعطفوا عليهم والزموا وصيتى فى الإحسان إليهم . (الطبرى جـ ٥ ص ٥٠)

ويقول صاحب تفسير المنار :

« واليتامى والمساكين » فإن الله تعالى يوصى باليتامى فى مثل هذا المقام لأن اليتيم يهمل أمره بفقده الناصر القوى الغيور وهو الأب ، أو تكون تربيته ناقصة بالجهل الذى هو جناية على العقل . أو فساد الأخلاق الذى هو جناية على النفس ، وهو بجهله وفساد أخلاقه يكون شراً على أولاد الناس يعاشرهم فيسرى إليهم فساده ، وقلما تستطيع الأم أن تربى الولد تربية كاملة مهما اتسعت معارفها وكذلك المساكين لا تنتظم الهيئة الاجتماعية إلا بالعناية بهم وصلاح حالهم فإن أهمل أمرهم الأغنياء كانوا بلاء وويلا على الناس ، وقلما ينظر الناس فى المسكنة إلى غير العادم بصفر الكف والمهم معرفة سبب ذلك فإن من الناس من يكون سبب عدمه وعوزه ضعفه وعجزه عن الكسب أو نزول الجوائح السماوية تذهب بماله من غير تقصير منه ، وهذا هو المسكين الحقيقى الذى تجب مواساته

بالمال الذى يقع موقعا من كفايته ، ومنهم العادم الذى ماعدم المال إلا بالإسراف والتبذير والحيلة والفخفخة الباطلة ، ومنهم العادم الذى ما عدم المال إلا لكسله وإهماله الكسب، طمعاً فيما فى أيدى الناس واتكالا عليهم ، أو بسلوكه فيه مسلك الغش والخيانة حتى يفضح سره ويظهر أمره فيحبط عمله فالمساكين على ضربين مسكين معذور يساعد بالمال ينفقه أو يساعد على تحصيله بكسبه إن كان قادراً على ذلك . ومسكين غير معذور يرشد إلى تقصيره ، ولا يساعد على إسرافه وتبذيره ، بل يدل على طرق الكسب فإن اتعظ وقبل النصح ، وإلا ترك أمره إلى أولى الأمر ، والله بصير بالعباد . (المنار جـ ٥ ص ٩١)

٣ — وقال تعالى :

« فأما اليتيم فلا تقهر » . (٩ سورة الضحى)

يقول القرطبي :

قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر » أى لا تتسلط عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه واذكر يتمك ، قاله الأخفش . وعن مجاهد « فلا تقهر » فلا تحتقر .

وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى ، فغلظ فى أمره ، بتغليظ العقوبة على ظالمه .

ودلت الآية على اللطف باليتيم ، وبره والإحسان إليه حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . وروى عن أبى هريرة أن رجلا شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه ، فقال : « إن أردت أن يلين فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » .

(القرطبي جـ ٢٠ ص ١٠١ بتصرف)

ويقول المراغى :

« فأما اليتيم فلاتقهر » أى لاتقهر اليتيم ولاتستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب وهذبه بمكارم الأخلاق ، ليكون عضواً نافعاً فى جماعتك ، لا جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى من يخالطها من أمتك .

ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه فما أجدره أن يستشعرها فى غيره وقد كان ﷺ يتيما ، فباعد الله عنه ذل اليتم فآواه فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكراً لله على نعمته .   (للمراغى ج ٣٠ ص ١٨٧)

الأدلة من السنة :

إن الإحسان إلى اليتامى والمساكين وكفالتهم وتعهد أمرهم ورعاية شأنهم أمر جليل . إذ هو الطاعة الدائمة والجهاد الموصول الذى يقود صاحبه إلى نعيم الله ورضوانه . ويجعله فى شرف صحبة رسول الله ﷺ .

١ — فعن أبى هريرة رضى عنه الله قال : قال رسول الله ﷺ « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار بالسبابة والوسطى .

رواه مسلم (صحيح مسلم شرح النووى ج ١٨ ص ١١٢ ، ١١٣)

٢ — وعن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وقال بأصبعيه السبابة والوسطى[1] » .

(رواه الأربعة)

---

(١) وقال أى أشار وفرج بين السبابة والوسطى ، فكافل اليتيم وهو من يقوم بتربيته حتى يستغنى عنه برشده أو موته أو زواجه إن كان أنثى له درجة عظيمة فى الجنة قريبة من النبى ﷺ .

ويقول المراغى :

« فأما اليتيم فلاتقهر » أى لاتقهر اليتيم ولاتستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب وهذبه بمكارم الأخلاق ، ليكون عضواً نافعاً فى جماعتك ، لا جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى من يخالطها من أمتك .

ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه فما أجدره أن يستشعرها فى غيره وقد كان ﷺ يتيما ، فباعد الله عنه ذل اليتم فآواه فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكراً لله على نعمته .   (المراغى ج ٣٠ ص ١٨٧)

الأدلة من السنة :

إن الإحسان إلى اليتامى والمساكين وكفالتهم وتعهد أمرهم ورعاية شأنهم أمر جليل . إذ هو الطاعة الدائمة والجهاد الموصول الذى يقود صاحبه إلى نعيم الله ورضوانه . ويجعله فى شرف صحبة رسول الله ﷺ .

١ — فعن أبى هريرة رضى عنه الله قال : قال رسول الله ﷺ « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار بالسبابة والوسطى .

رواه مسلم (صحيح مسلم شرح النووى ج ١٨ ص ١١٢ ، ١١٣)

٢ — وعن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وقال بأصبعيه السبابة والوسطى[1] » .

(رواه الأربعة)

---

(١) وقال أى أشار وفرج بين السبابة والوسطى ، فكافل اليتيم وهو من يقوم بتربيته حتى يستغنى عنه برشده أو موته أو زواجه إن كان أنثى له درجة عظيمة فى الجنة قريبة من النبى ﷺ .

٣ — وعن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أنا وامرأة سفعاء[1] الخدين كهاتين يوم القيامة وأومأ بالوسطى والسبابة امرأة آمت[2] من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى باتوا[3] أو ماتوا » . رواه أبو داود (التاج جـ ٥ ص ١٣ ، ١٤)

٤ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » وأحسبه قال : « وكالقائم لا يفتر[4] وكالصائم لا يفطر » رواه مسلم .

(صحيح مسلم شرح النووى جـ ١٨ ص ١١٢ ، ١١٣)

العنصر الرابع

الاحسان الى الجار

الأدلة من الكتاب :

إن القرآن الكريم يدعونا إلى ضرورة الإحسان إلى الجار ومعرفة حقه وتوكيد العلاقة به ومشاركته فى آلامه وآماله وسائر أحواله وإشعاره بأنه لا يعيش وحده وإنما من حوله جيران له يرتبطون به ويشاركونه ويبادلونه يسره وعسره .

---

(١) متغيرة لون الخدين من المشقة والضنك .

(٢) صارت أيما لا زوج لها .

(٣) أى كبروا واستغنوا عنها أو ماتوا إلى رحمة الله .

(٤) لا يضعف.

١ ـ قال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .

(٣٦ : النساء)

يقول القرطبي :

قوله تعالى « والجار ذى القربى والجار الجنب » . أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعى ذمته فى كتابه وعلى لسان نبيه . ألا تراه سبحانه قد أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين : « والجارذى القربى » أى القريب « والجار الجنب » أى الغريب قاله ابن عباس . وقال نوف الشامى « والجار ذى القربى » للمسلم « والجار الجنب » اليهودى والنصرانى .

قلت وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلما كان أو كافرا وهو الصحيح والإحسان قد يكون بمعنى المواساة وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه .

وقد أكد عليه الصلاة والسلام ترك إذايته بقَسَمِه ثلاث مرات ، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره فينبغى للمؤمن أن يحذر أذى جاره ، وينتهى عما نهى الله ورسوله عنه ، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه .

واختلف الناس فى حَدّ الجيرة ، فكان الأوزاعى يقول : أربعون داراً من كل ناحية .

حض عليه الصلاة والسلام على مكارم الأخلاق لما يترتب عليها

١ ـ قال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .

(٣٦ : النساء)

يقول القرطبي :

قوله تعالى « والجار ذى القربى والجار الجنب » . أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعى ذمته فى كتابه وعلى لسان نبيه . ألا تراه سبحانه قد أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين : « والجارذى القربى » أى القريب « والجار الجنب » أى الغريب قاله ابن عباس . وقال نوف الشامى « والجار ذى القربى » للمسلم « والجار الجنب » اليهودى والنصرانى .

قلت وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلما كان أو كافرا وهو الصحيح والإحسان قد يكون بمعنى المواساة وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه .

وقد أكد عليه الصلاة والسلام ترك إذايته بقَسَمِهِ ثلاث مرات ، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره فينبغى للمؤمن أن يحذر أذى جاره ، وينتهى عما نهى الله ورسوله عنه ، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه .

واختلف الناس فى حَدِّ الجيرة ، فكان الأوزاعى يقول : أربعون داراً من كل ناحية .

حض عليه الصلاة والسلام على مكارم الأخلاق لما يترتب عليها

من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة ، فإن الجار قد يتأذى بقتار[1] قدر جاره وربما تكون له ذرية فتهيج من ضعفائهم الشهوة ، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة ، لاسيما إذا كان القائم ضعيفا أو أرملة فتعظم المشقة ويشتد منهم الألم والحسرة . من إكرام الجار ألا يمنع من غرز خشبة له إرفاقا به .

ورد حديث جمع النبي ﷺ فيه مرافق الجار ، وهو حديث معاذ بن جبل قال : قلنا يارسول الله ، ماحق الجار ؟ قال : « إن استقرضك أقرضته وإن استعانك أعنته وإن احتاج أعطيته وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته وإن أصابه خير سرك وهنيته وإن أصابته مصيبة ساءتك وعزيته ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها وإلا فأدخلها سراً لا يخرج ولدك بشيء منه يغيظون به ولده وهل تفقهون ما أقول لكم لن يؤدى حق الجار إلا القليل ممن رحم الله » . (القرطبي جـ ٥ ص ١٨٣ – ١٨٨ بتصرف)

ويقول المراغى :

« والجار ذى القربى والجار الجنب » الجوار ضرب من ضروب القرابة فهو قرب بالمكان والسكن ، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب .

فيحسن أن يتعاون الجيران ، ويكون بينهم الرحمة والاحسان ، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس ، وقد حث الدين على الاحسان فى معاملة الجار ولو غير مسلم فقد عاد النبي ﷺ ابن جاره اليهودى ، وذبح ابن عمر شاة فجعل يقول لغلامه : أهديت لجارنا اليهودى ، أهديت لجارنا اليهودى .

---

(١) القتار : ريح القدر والشواء ونحوهما .

وحدد الحسن البصري الجوار بأربعين جارا من كل جانب من الجوانب الأربعة والأولى عدم التحديد بالدور وجعل الجار من يجاوره ويتراءى وجهك وجهه في غدوك أو رواحك إلى دارك .

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام وزاده الاسلام توكيداً بما جاء في الكتاب والسنة ، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه ، ودعوته إلى الطعام ، وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك .

(المراغي ج ٥ ص ٣٦ بتصرف)

الأدلة من السنة :

إن الإيمان ليس كلاما يقال أو أمنية تدعى وإنما هو أسلوب عملي لحياة إنسانية واجتماعية أفضل . وفي مجال الاحسان لايبلغ الانسان درجة الايمان الكامل إلا إذا تحول هذا الايمان إلى عمل بار وتجسد في واقع حيوي يلمسه المجتمع وفي مقدمته الجار بحيث يصل إليه بر المؤمن وإحسانه وكرمه وعطفه وخيره . ويعزل عنه شره وأذاه وغشمه وظلمه .

١ ـ عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .
رواه مسلم (رياض الصالحين ص١٥١)

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

وحدد الحسن البصري الجوار بأربعين جارا من كل جانب من الجوانب الأربعة والأولى عدم التحديد بالدور وجعل الجار من يجاوره ويتراءى وجهك وجهه في غدوك أو رواحك إلى دارك .

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الاسلام وزاده الاسلام توكيداً بما جاء في الكتاب والسنة ، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه ، ودعوته إلى الطعام ، وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك .

(المراغي ج ٥ ص ٣٦ بتصرف)

الأدلة من السنة :

إن الإيمان ليس كلاما يقال أو أمنية تدعى وإنما هو أسلوب عملي لحياة إنسانية واجتماعية أفضل . وفي مجال الاحسان لايبلغ الانسان درجة الايمان الكامل إلا إذا تحول هذا الايمان إلى عمل بار وتجسد في واقع حيوي يلمسه المجتمع وفي مقدمته الجار بحيث يصل إليه بر المؤمن وإحسانه وكرمه وعطفه وخيره . ويعزل عنه شره وأذاه وغشمه وظلمه .

١ ـ عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .
رواه مسلم (رياض الصالحين ص ١٥١)

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » رواه البخارى

(صفوة صحيح البخارى، ج ٤ ص ١٥٦ ، ١٥٧)

٣ - وعن أبى شريح رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ؟ قيل من يارسول الله : قال الذى لا يأمن جاره بوائقه »[١] رواه البخارى (التاج ج ٥ ص ١٥)

٤ - وعن عائشة عن النبى ﷺ قال : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » رواه الأربعة (نفس المرجع)

٥ - وعنها رضى الله عنها قالت : « قلت يارسول الله إن لى جارين فإلى أيهما أهدى قال إلى أقربهما منك بابا[٢] » رواه النجار

٦ - وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال قال لى رسول الله ﷺ « إذا طبخت مرقة » فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك[٣] » رواه مسلم (التاج ج٥ ص١٠)

٧ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يانساء المسلمات لاتحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » متفق عليه

(رياض الصالحين ص ١٥١)

---

(١) البائقة هى الغائلة والشر :

(٢) لأنه يرى مايدخل فى بيت جاره فيتشوق إليه

(٣) بإذا طبخت لحما فأكثر مرقه وأتحف الجيران بالثريد فانه عند الله عظيم.

العنصر الخامس

الإحسان إلى الصديق وابن السبيل

الأدلة من الكتاب :

الصديق والصاحب والرفيق وابن السبيل حق على الإنسان . وأوجب ما يتوجه إليه هذا الحق فى حال السفر والترحال والانتقال حيث تتكشف المعادن وتتجلى الخصائص وتظهر النفوس على سجيتها وتبدو الحوائج وتعز المساعدة . هنا يوجب الإسلام أن يقوم الإنسان بحق الإحسان والعون والبر والبذل . يبذله فى سخاء لأصدقائه ورفقته وصحبه وأبناء السبيل .

١ — قال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .

(٣٦ : النساء)

يقول المنار :

قال تعالى : « والصاحب بالجنب » روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فيه قولان : الرفيق فى السفر ، والمنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك ، وروى عن عبد بن حميد عن على كرم الله وجهه . أنه المرأة . أى لأنها هى التى قضت الفطرة ونظام المعيشة أن تكون بجنب بعلها ، وإذا كان الأصل فى خطاب الشرع أن يكون للرجال والنساء جميعاً وإن كان بضمير المذكر للتغليب جاز أن تقول:

العنصر الخامس

الإحسان إلى الصديق وابن السبيل

الأدلة من الكتاب :

الصديق والصاحب والرفيق وابن السبيل حق على الإنسان . وأوجب ما يتوجه إليه هذا الحق فى حال السفر والترحال والانتقال حيث تتكشف المعادن وتتجلى الخصائص وتظهر النفوس على سجيتها وتبدو الحوائج وتعز المساعدة . هنا يوجب الإسلام أن يقوم الإنسان بحق الإحسان والعون والبر والبذل . يبذله فى سخاء لأصدقائه ورفقته وصحبه وأبناء السبيل .

١ — قال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .

(٣٦ : النساء)

يقول المنار :

قال تعالى : « والصاحب بالجنب » روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فيه قولان : الرفيق فى السفر ، والمنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك ، وروى عن عبد بن حميد عن على كرم الله وجهه . أنه المرأة . أى لأنها هى التى قضت الفطرة ونظام المعيشة أن تكون بجنب بعلها ، وإذا كان الأصل فى خطاب الشرع أن يكون للرجال والنساء جميعاً وإن كان بضمير المذكر للتغليب جاز أن تقول:

إن المراد بالمرأة الزوج ورجلها مثلها فيجب على كل منهما الإحسان بالآخر ؛ ويحتمل أن يكون الإمام عبر بلفظ الزوج ، المراد به الجنس فظن الراوى أنه يريد المرأة لأنها أحوج إلى إحسان بعلها منه إلى إحسانها فرواه بالمعنى ، وقال الأستاذ الإمام هو من صاحبته وعرفته ولو وقتا قصيراً وهذا القول أعم وأشمل من قول بعضهم إنه الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فإنه بقيد « ولو وقتاً قصيراً » يشمل صاحب الحاجة الذى يمشى بجانبك ويستشيرك أو يستعينك .

قال تعالى : « وابن السبيل » المشهور فى تفسيره هنا المسافر والضيف وقيل هو المنقطع فى السفر لا يتصل بأهل ولا قرابة كأن السبيل أبوه وأمه ورحمه وأهله ؛ وقال الأستاذ الإمام هنا إنه من تبناه السبيل فى غير معصية أى السائح الرحالة فى غرض صحيح غير محرم ، والمتبادر أنه من لا يعرف إلا من الطريق أو فى الطريق ؛ وإنما ضيقوا فى تفسيره فى آية مصارف الزكاة لأنهم لا يرون كل من عرف فى الطريق مستحقاً للزكاة ، وأما الإحسان المطلق فالأمر فيه أوسع وهو مطلوب دائماً فى كل شىء ومع كل أحد ، كل شىء بقدره وفى الحديث الصحيح « إن الله كتب الإحسان فى كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » .

وإنما جاءت الآية فيمن يتأكد الإحسان بهم والضعيف والمسافر منهم وإن لم يكونا مستحقين للزكاة والأمر بالإحسان بابن السبيل يتضمن الترغيب فى السياحة والإعانة عليها وقد أهملها المسلمون فى هذه العصور .

إن اللقيط يوشك أن يدخل فى معنى ابن السبيل . واللفظ يتسع للقيط ولا سيما فى باب الإحسان مالا يتسع لغيره . وهو أولى وأجدر من اليتيم

وإنما غفل جماهير المفسرين عن ذكره لندرة اللقطاء فى زمن المتقدمين منهم .

وقد كثر فى هذه الأزمنة اللقطاء ، ولولا عناية الجمعيات الدينية من الأوربيين بجمعهم وتربيتهم وتعليمهم لكان شرهم فى البلاد مستطيرا فلله در هؤلاء الأوربيين ما أشد عنايتهم بدينهم ، ويالله ما أشد غفلة المسلمين وجهل جماهيرهم بأنفسهم وبغيرهم ، فإنهم يزعمون إنهم أشد من الإفرنج عناية بدينهم وغيرة عليه وعملا به ، بل يزعمون أن الإفرنج تركوا الدين ألبتة ، ونحن أحق الناس بتربية اللقطاء وجميع أنواع البر والإحسان . (المنار جـ ٥ ص ٩٢ ، ٩٤ بتصرف)

ويقول القرطبى :

قوله تعالى : « والصاحب بالجنب » أى الرفيق فى السفر ، وأسند الطبرى أن رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين ، فدخل رسول الله ﷺ غيضة (١) ، فقطع قضيبين أحدهما معوج ، فخرج وأعطى لصاحبه القويم فقال : كنت يا رسول الله أحق بهذا : فقال كلا ، يا فلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسئول عن صحابته ولو ساعة من نهار » وقال ربيعة ابن أبى عبد الرحمن للسفر مروءة وللحضر مروءة ، فأما المروءة فى السفر فبذل الزاد وقلة الخلاف على الأصحاب وكثرة المزاح فى غير مساخط الله ، وأما المروءة فى الحضر فالإدمان إلى المساجد ، وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان فى الله عز وجل وقال على وابن مسعود وابن أبى ليلى : « الصاحب بالجنب » الزوجة وقال ابن جريج : هو الذى يصحبك ويلزمك رجاء نفعك .

قوله تعالى : « وابن السبيل » قال مجاهد : هو الذى يجتازيك ماراً .

---

(١) الغضبة: هى مجتمع الشجر فى مغيض ماء

وإنما غفل جماهير المفسرين عن ذكره لندرة اللقطاء فى زمن المتقدمين منهم .

وقد كثر فى هذه الأزمنة اللقطاء ، ولولا عناية الجمعيات الدينية من الأوربيين بجمعهم وتربيتهم وتعليمهم لكان شرهم فى البلاد مستطيرا فلله در هؤلاء الأوربيين ما أشد عنايتهم بدينهم ، ويالله ما أشد غفلة المسلمين وجهل جماهيرهم بأنفسهم وبغيرهم ، فإنهم يزعمون إنهم أشد من الإفرنج عناية بدينهم وغيرة عليه وعملا به ، بل يزعمون أن الإفرنج تركوا الدين ألبتة ، ونحن أحق الناس بتربية اللقطاء وجميع أنواع البر والإحسان . (المنار جـ ٥ ص ٩٢ ، ٩٤ بتصرف)

ويقول القرطبى :

قوله تعالى : « والصاحب بالجنب » أى الرفيق فى السفر ، وأسند الطبرى أن رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين ، فدخل رسول الله ﷺ غيضة (١) ، فقطع قضيبين أحدهما معوج ، فخرج وأعطى لصاحبه القويم فقال : كنت يا رسول لله أحق بهذا : فقال كلا ، يا فلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسئول عن صحابته ولو ساعة من نهار » وقال ربيعة ابن أبى عبد الرحمن للسفر مروءة وللحضر مروءة ، فأما المروءة فى السفر فبذل الزاد وقلة الخلاف على الأصحاب وكثرة المزاح فى غير مساخط الله ، وأما المروءة فى الحضر فالإدمان إلى المساجد ، وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان فى الله عز وجل وقال على وابن مسعود وابن أبى ليلى : « الصاحب بالجنب « الزوجة وقال ابن جريج : هو الذى يصحبك ويلزمك رجاء نفعك .

قوله تعالى : « وابن السبيل » قال مجاهد : هو الذى يجتازيك ماراً .

---

(١) الغضبة: هى مجتمع الشجر فى مغيض ماء

والسبيل : الطريق ، فنسب المسافر إليه لمروره عليه ولزومه إياه ومن الإحسان إليه إعطاؤه وإرفاقه وهدايته ورشده .

(القرطبي جـ ٥ ص ١٨٨ ، ١٨٩ بتصرف)

ويقول القاسمي :

قوله تعالى « والصاحب بالجنب » قال سعيد بن جبير : هو الرفيق الصالح وقال زيد بن أسلم : هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر ، أي فإنه كالجار وأوضحه الزمخشري بقوله : هو الذي صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا في السفر وإما جاراً ملاصقا وإما شريكا في تعلم علم أو حرفة وإما قاعدا إلى جنبك في مجلس أو مسجد أوغير ذلك ، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن تراعي ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الاحسان . وروي عن علي وابن مسعود قالا : هي المرأة . أي لأنها تكون معك وتضجع إلى جنبك .

«وابن السبيل» أي ابن الطريق . أي للمسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به نسب إلى السبيل الذي هو الطريق لمروره عليه وملابسته له أو الذي يريد البلد غير البلد لأمر يلزمه وقال ابن عرفة هو الضعيف المنقطع به ، يعطى قدر ما يتبلغ به إلى وطنه وقال ابن بري : هو الذي به الطريق كذا في (تاج العروس) (القاسمي جـ ٥ ص ١٢٣١ ، ١٢٣٢) .

الأدلة من السنة :

إننا إذا ذهبنا نستعرض أحاديث النبي ﷺ . نجدها تطالعنا في هذا المقام بمزيد من التوجيه الايجابي الكريم الذي يبعثنا على الاحسان ويدعونا إليه . سيا بالنسبة للأصدقاء والصحب والرفقة . وخصوصا في أحوال السفر والترحال والانتقال . نبسط لهم من أموالنا وأزوادنا ونفوسنا ورواحلنا .

بل إن النبي ﷺ ليدعونا بعمله وسلوكه أن نتأسى به ونقتدي بعد أن دعانا إلى ذلك بمنهجه وتعليمه .

١ — فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينما نحن في سفر[١] إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا[٢] فقال رسول الله ﷺ « من كان معه فضل ظهر[٣] فليعد به على من لا ظهر له[٤] ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له[٥] » فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق[٦] لأحد منا في فضل » رواه مسلم

٢ — وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو فقال : « يا معشر[٧] المهاجرين والأنصار ، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عشيرة[٨] فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة فما لأحدنا[٩] من ظهر يحمله إلا عقبة[١٠] كعقبة » يعني « أحدهم » قال : فضممت إلى اثنين أو ثلاثة مالي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي . رواه أبو داود

٣ — وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي[١١] الضعيف ويردف[١٢] ويدعو له » رواه أبو داود بإسناد حسن

(رياض الصالحين ص ٣٩٤ ، ٣٩٥)

---

(١) مع النبي ﷺ (٢) ينظر من يتوسم فيه الإعانة (٣) مركوب فاضل عن حاجته إليه (٤) يواسي عنده ذلك المحتاج بإركابه على الظهر (٥) زاد فاضل عن حاجته . (٦) لا استحقاق في فاضلها يجب دفعها للمحتاج .

(٧) المعشر : الجماعة (٨) قبيلة (٩) الأغنياء الواجدين (١٠) ركوب مركب واحد بالنوبة من جملي أي من ركوبه (١١) يسوق (١٢) يركب على دابة آخر فيمان ببركة دعوته ويصل لمطلبه .

بل إن النبي ﷺ . ليدعونا بعمله وسلوكه أن نتأسى به ونقتدى بعد أن دعانا إلى ذلك بمنهجه وتعليمه .

١ — فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينما نحن في سفر[١] إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا[٢] فقال رسول الله ﷺ « من كان معه فضل ظهر[٣] فليعد به على من لا ظهر له[٤] ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له[٥] » فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق[٦] لأحد منا في فضل » رواه مسلم

٢ — وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو فقال : « يا معشر[٧] المهاجرين والأنصار ، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عشيرة[٨] فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة فما لأحدنا[٩] من ظهر يحمله إلا عقبة[١٠] كعقبة » يعني « أحدهم » قال : فضممت إلى اثنين أو ثلاثة مالي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي . رواه أبو داود

٣ — وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي[١١] الضعيف ويردف[١٢] ويدعو له » رواه أبو داود بإسناد حسن

(رياض الصالحين ص ٣٩٤ ، ٢٠٥)

---

(١) مع النبي ﷺ (٢) ينظر من يتوسم فيه الاعانة (٣) مركوب فاضل عن حاجته إليه (٤) يواسي عنده ذلك المحتاج بإركابه على الظهر (٥) زاد فاضل عن حاجته . (٦) لا استحقاق في فاضلها يجب دفعها للمحتاج .

(٧) المعشر : الجماعة (٨) قبيلة (٩) الأغنياء الواجدين (١٠) ركوب مركب واحد بالنوبة من جملي أي من ركوبه (١١) يسوق (١٢) يركب على دابة آخر فيمان ببركة دعوته ويصل لمطلبه .

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



نشرات التوعية الدينية

العدد ١٦٥ السنة الثامنة

غرة ربيع الثانى سنة ١٣٩٦ هـ أول أبريل سنة ١٩٧٦ م

الاحسان وأثره فى حياة الأمة (جـ)

مقدمـــة :

العنـــاصر

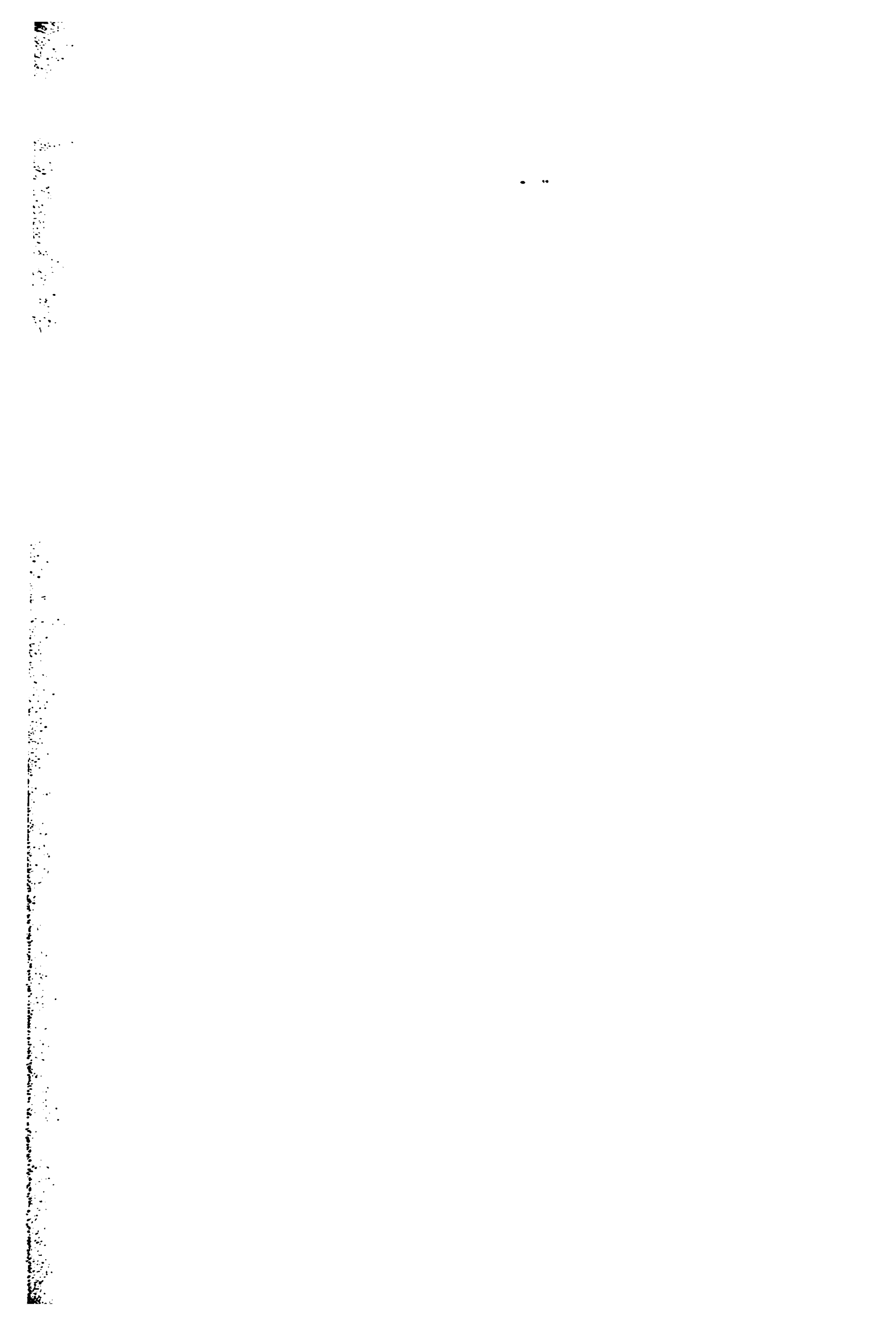
١ — الإحسان وضبط النفس

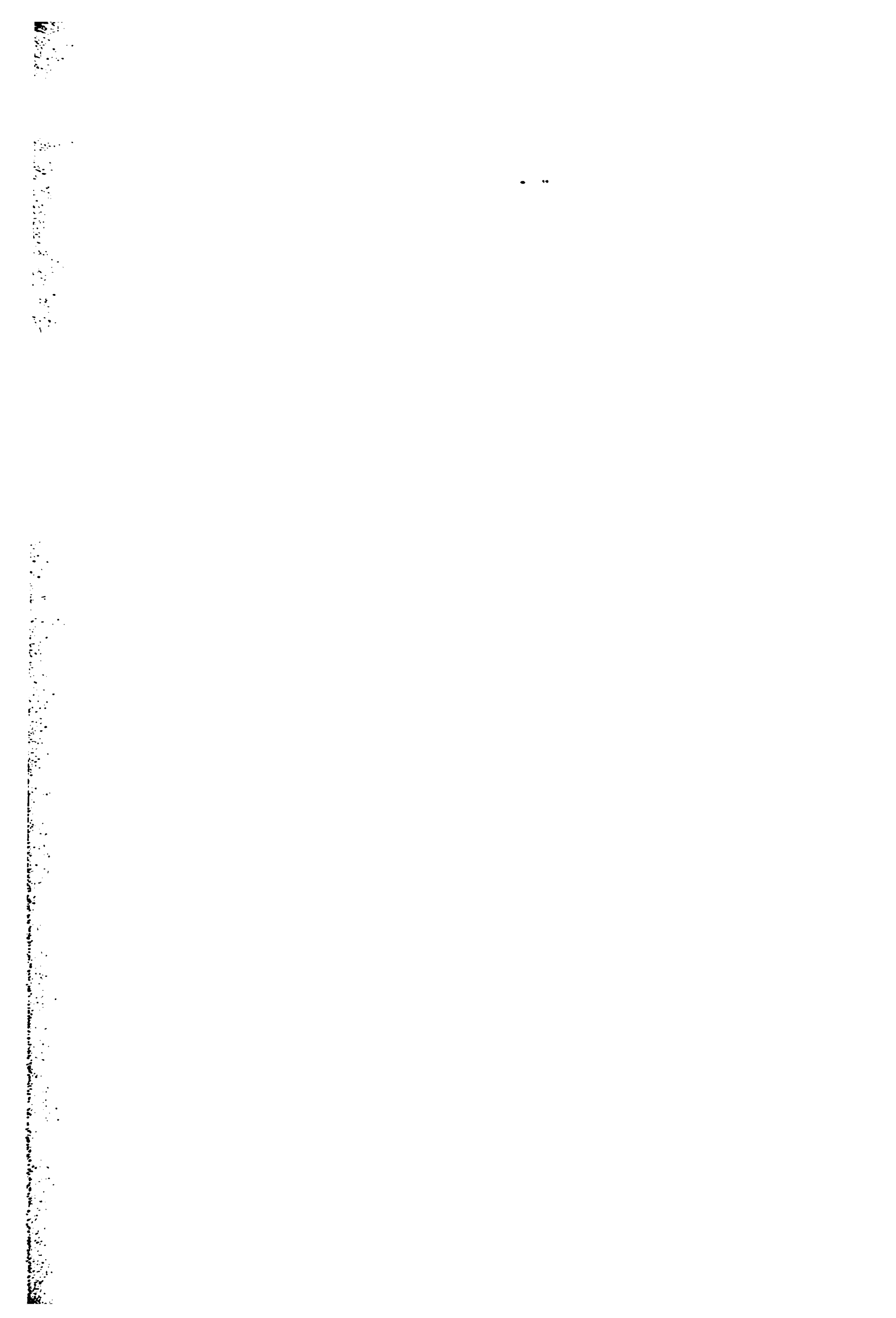
٢ — الإحسان يوثق صلة العبد بربه

٣ — حب الله للمحسنين

٤ — تأييد الله للمحسنين

٥ — الإحسان يضاعف الله به الأجر





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد . . .

فإن خلة الإحسان فى الإسلام من أعظم الخلال وأبرها وأوفاها بأشواق الروح وهواتف الإيمان وعواطف النفس . ثم بما يصدر من الإنسان من قول وعمل وما يكون له من صلات وعلائق تشده بغيره من ذويه وأهله وعشيرته ومجتمعه الذى يعيش فيه . الأمر الذى تناولناه فى نشرتينا (ا) و (ب) فى موضوعنا الذى ما زلنا بصدده « الإحسان وأثره فى حياة الأمة » .

إن الإنسان فى حياته اليومية يحتك بالناس ويعايشهم ويتعامل معهم ويتجاذب وإياهم أطراف الحياة ووسائل العمل ومظاهر الكسب ويتبادل معهم للمصالح والمنافع ، وكلاهما متشابك متداخل . وفى خلال ذلك تتحرك العواطف وتستيقظ المشاعر وتتنبه الوجدانات لتأخذ أشكالها المختلفة فى الخير والشر وصورها المتغايرة فى الحق والباطل وانفعالاتها المتباينة تجاه المواقف تكيفاً معها أو نفوراً منها أو شذوذاً عنها أو إسرافاً فى فهمها ومغالاة بها .

وفى مثل هذه الأمور يكون الإنسان فى مسيس الحاجة إلى ما يضبط نفسه ويحد من غلوه ويطمئن من انفعاله ويكفكف من سرفه ويقوم من عاطفته بحيث يرده إلى صوابه ويعيده إلى رشده ويشده إلى قصده واعتداله سيما إذا كان ذلك فى موقف تثور فيه النفس ويتحرك فيه الغضب .

ولن يكون كالإحسان — على نحو ما جاء به الإسلام — صمام أمن من الانفلات وأداة إطفاء للغضب ومانعاً وحائلا دون توتر الأعصاب وانفجارها بالاندفاع والانفعال ثم اللجاجة والخصومة والعداوة إلى المدى الذى قد تتقطع معه العلائق والأواصر مما لا يعلم عواقبه إلا الله .

إن الإسلام لا يجافى الفطرة ولا يصادمها . وإنما يزاملها ليدعمها ويرتفع بها ، ومن ثم فهو لا يرضى للانسان أن يكون بليد الحس متجمد الشعور إذا استغضب لا يغضب ، وإذا استثير لا يثور ، وإنما — وهو بصدد الإعلاء له والارتقاء به — يندبه أن يصقل نفسه وأن يضبط أعصابه . وألا تقوده انفعالاته ولا تتحكم فيه عواطفه . وإنما يروضها على أن تضيق من مجالها وأن تحد من نطاقها بحيث تكون فى إطار المتذوق ومن أجل الحق وفى حدود القصد لا تتعداه والموضوعية لا تخرج عنها . ثم مهما بلغت المواقف ذروتها من الغليان والاحتدام ، وغايتها من التأزم والتوتر فإن المؤمن كما يوجهه الإسلام يشكو ولكنه لا يثور ، ويغضب ولكنه لا يجور ، ويخاصم ولكنه لا يفجُر ، ويقدر ولكنه لا ينتقم ، أليس من وصايا الرسول التى لا تنسى « . . . القصد فى الرضا والغضب » .

ثم يرتفع الإسلام بالمؤمن عند غضبه — وشأنه ألا يغضب إلا لله ولا ينتقم لنفسه قط كما يعلمنا نبى الله ﷺ — يرتفع به إلى ما هو أعلى من القصد والعدل إلى ما يبلغ به درجة الإحسان بحيث يقابل السيئة بالحسنة ، والمظلمة بالعفو ، والقطيعة بالوصل ، والحرمان بالعطاء ، والجفاء والخصومة بالملاينة والمودة .

وحسبك بالإحسان يطالبك به الإسلام سيما فى حالة الغضب أن تأخذ به نفسك وأن تروض به عاطفتك وأن تكفكف به انفعالك وأن تستعلى به على

ولن يكون كالإحسان — على نحو ما جاء به الإسلام — صمام أمن من الانفلات وأداة إطفاء للغضب ومانعاً وحائلا دون توتر الأعصاب وانفجارها بالاندفاع والانفعال ثم اللجاجة والخصومة والعداوة إلى المدى الذى قد تتقطع معه العلائق والأواصر مما لا يعلم عواقبه إلا الله .

إن الإسلام لا يجافى الفطرة ولا يصادمها . وإنما يزاملها ليدعمها ويرتفع بها ، ومن ثم فهو لا يرضى للانسان أن يكون بليد الحس متجمد الشعور ، إذا استغضب لا يغضب ، وإذا استثير لا يثور ، وإنما — وهو بصدد الإعلاء له والارتقاء به — يندبه أن يصقل نفسه وأن يضبط أعصابه . وألا تقوده انفعالاته ولا تتحكم فيه عواطفه . وإنما يروضها على أن تضيق من مجالها وأن تحد من نطاقها بحيث تكون فى إطار المنطق ومن أجل الحق وفى حدود القصد لا تتعداه والموضوعية لا تخرج عنها . ثم مهما بلغت المواقف ذروتها من الغليان والاحتدام ، وغايتها من التأزم والتوتر فإن المؤمن كما يوجهه الإسلام يشكو ولكنه لا يثور ، ويغضب ولكنه لا يجور ، ويخاصم ولكنه لا يفجُر ، ويقدر ولكنه لا ينتقم ، أليس من وصايا الرسول التى لا تنسى « . . . القصد فى الرضا والغضب » .

ثم يرتفع الإسلام بالمؤمن عند غضبه — وشأنه ألا يغضب إلا لله ولا ينتقم لنفسه قط كما يعلمنا نبى الله ﷺ — يرتفع به إلى ما هو أعلى من القصد والعدل إلى ما يبلغ به درجة الإحسان بحيث يقابل السيئة بالحسنة ، والمظلمة بالعفو ، والقطيعة بالوصل ، والحرمان بالعطاء ، والجفاء والخصومة بالملاينة والمودة .

وحسبك بالإحسان يطالبك به الإسلام سيما فى حالة الغضب أن تأخذ به نفسك وأن تروض به عاطفتك وأن تكفكف به انفعالك وأن تستعلى به على

خصمك ، لا فى مجال الخصومة معه ، ومقابلة السيئة بمثلها أو أنكى منها . وإنما تستعلى بالإحسان إليه والعطف عليه والقرب منه « . . . فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (فصلت : ٣٤) .

بهذا الأسلوب السامى والسلوك الرشيد والانضباط والحكمة تتبين معادن الناس وتتميز مكانتهم فى مدارج الرقى ومعارج الكمال .

وهذا ما بيناه فى العنصر الأول .

إن الإنسان الذى يسلم وجهه لله ويؤمن به ويلتزم بدينه ويأتمر بأمره وينتهى بنهيه . ويغدو فى الناس فإذا هو الشامة البيضاء والعلامة البارزة فيهم بتدينه ويقينه وإيمانه وتجسيده الحى له فى واقع وأسلوب وسلوك . هذا الإنسان لا تجد له وصفا سوى أنه أحسن فيما بينه وبين نفسه فعرف قدرها ، وأحكم ضبطها ، وأتقن قيادها ، وأحسن فيما بينه وبين مجتمعه فعرف ماله من حقوق وأدى ما عليه من واجبات ودعم به علاقاته ووطد به صلاته الأقرب فالأقرب والأحق فالأحق ، ثم أحسن فيما بينه وبين ربه فأطاعه وتقرب إليه وأدى ماوجب له عليه ، وانطلق فى كل أقواله وأعماله يباشرها ونصب عينيه استحضاره لقيومية الله ومراقبته له وخشيته منه .

ومن فعل ذلك ووطن عليه نفسه وربط به يومه وحياته وحاضره ومصيره فقد وثق صلته بربه وأكد علاقته به وعقد حباله بأسباب السماء الأمر الذى يستوجب أعظم الأجر ويستتبع بالتالى الأمن والوقاية من كل ما يسبب الخوف والقلق ويثير الحزن والندم والأزمات والكروب والضوائق .

وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الثانى .

إن الإحسان بكل واقعه النفسى والإنسانى والاجتماعى عمل يحتاج إلى ضرورة ترويض النفس عليه وتدريبها على ممارسته ومباشرته ، وبالتالى فإن الجهد المبذول فيه حتى تصقل به النفس وينضبط به الوجدان ويستقيم به السلوك ، جهد من شأنه ـ وقد جاهد فيه الإنسان ميوله الدنيا ورغائبه الهابطة ـ أن يجعل صاحبه قريباً من ربه الذى يجزيه على ذلك أحسن الجزاء . وليس فوق حب الله للمحسنين جزاء يجازيهم به ويتفضل به عليهم . ومن أحبه الله كان الله له ، يسدده ويشد من أزره ويستنقذه من كل شدة ويعيذه من كل مكروه ويستخلصه من كل غبراء مظلمة .

وما نعم عبد بحب الله له إلا وجد الكون كله وأهل السموات وأهل الأرض يحبونه ويتقبلونه قبولا حسناً .

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث .

إن المحسنين هم أصحاب تقوى الله ، والخشية منه ، والعرفان بذاته ، والالتجاء إليه ، والاعتزاز به ، والاحتماء بحوله وطوله وقوته ، وهؤلاء إن استغاثوا الله أغاثهم ، وإن استعاذوا به أعاذهم ، وإن استنصروه نصرهم ، وإن استفتحوا جاءهم الله بالفتح ، أو أمر من عنده فيصبحوا بحمد الله على ما أولاهم به من نصر فرحين « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين[1] » .

ذلك لأنهم كانوا مع الله فى كل شأن من شئونهم ، وعلى كل حال ومقام من أحوالهم ومقاماتهم ملتزمين بدينه محتكمين إليه مستمسكين به منضبطين عليه

(١) سورة آل عمران : آية رقم ١٧١

إن الإحسان بكل واقعه النفسى والإنسانى والاجتماعى عمل يحتاج إلى ضرورة ترويض النفس عليه وتدريبها على ممارسته ومباشرته ، وبالتالى فإن الجهد المبذول فيه حتى تصقل به النفس وينضبط به الوجدان ويستقيم به السلوك ، جهد من شأنه — وقد جاهد فيه الإنسان ميوله الدنيا ورغائبه الهابطة — أن يجعل صاحبه قريباً من ربه الذى يجزيه على ذلك أحسن الجزاء . وليس فوق حب الله للمحسنين جزاء يجازيهم به ويتفضل به عليهم . ومن أحبه الله كان الله له ، يسدده ويشد من أزره ويستنقذه من كل شدة ويعيذه من كل مكروه ويستخلصه من كل غبراء مظلمة .

وما نعم عبد بحب الله له إلا وجد الكون كله وأهل السموات وأهل الأرض يحبونه ويتقبلونه قبولا حسناً .

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث .

إن المحسنين هم أصحاب تقوى الله ، والخشية منه ، والعرفان بذاته ، والالتجاء إليه ، والاعتزاز به ، والاحتماء بحوله وطوله وقوته ، وهؤلاء إن استغاثوا الله أغاثهم ، وإن استعاذوا به أعاذهم ، وإن استنصروه نصرهم ، وإن استفتحوا جاءهم الله بالفتح ، أو أمر من عنده فيصبحوا بحمد الله على ما أولاهم به من نصر فرحين « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين[1] » .

ذلك لأنهم كانوا مع الله فى كل شأن من شئونهم ، وعلى كل حال ومقام من أحوالهم ومقاماتهم ملتزمين بدينه محتكمين إليه مستمسكين به منضبطين عليه

(١) سورة آل عمران : آية رقم ١٧١

لايحيدون ولا يخرجون ، لا يسفون إذا سف الناس ، ولا يهبطون إذا هبطوا . هممهم دائما معلقة بذرى الأمور ومعاليها ، ونفوسهم وثيقة الصلة برضوان الله وجلاله . فكان الله معهم يهديهم ويرعاهم ، يصوب أمرهم ويسدد خطاهم ويبارك جهدهم ويمنحهم من عونه وحوله وقوته وطوله وتأييده ونصره مايبلغون به عز الدنيا وكرامة الآخرة ، وشرف المحيا والممات .

وكأننا بهم فى كل خطاهم وشئونهم وقضاياهم يهتف بهم الحق تبارك وتعالى فى أعماقهم بهذا الهتاف ، يزرع به فى حياتهم الأمل ويبث فى جوانحهم الثقة وينشر فى آفاقهم من الطمأنينة مايستلهمون به كل ما يشحن نفوسهم بضرورة البذل والعطاء ومواصلة الكفاح « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم[1] » .

وهذا ما ألحنا إليه فى العنصر الرابع .

إن الجزاء دائماً من جنس العمل وجزاء المحسنين أن يحسن الله تعالى إليهم وأن يتفضل عليهم وأن يمنحهم من وده وفيضه وأن يضاعف لهم من الأجر والثواب وأن يفتح لهم من أبواب رحمته ويتيح لهم من ألوان نعيمه وينشر عليهم من رضوانه وينعم عليهم يوم القيامة بجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين[2] » .

---

(١) سورة محمد آية رقم ٣٥

(٢) سورة آل عمران . آيتى ١٣٣ ، ١٣٤

أولئك لهم عظيم الأجر وجزيل الثواب ثم الحظوة التى ليس وراءها حظوة والفضل الذى ليس فوقه فضل . وهو أن يتجلى الله عليهم بنوره وبهائه « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة[1] » .

وهذا ما تناولناه فى العنصر الخامس .

إن الإحسان بكل ما يحمل من معان وما يدور فى فلكه من كل شئون القول والعمل فى النفس والفرد والمجتمع وبكل ما يترتب عليه من ثمار ونتائج . وبكل ما بدا فيه من المنهجية والعموم والإحاطة والشمول . والإيجابية والواقعية لهو الأمر الذى يجب على الأمة جميعاً من أول لبنة فيها أن تألفه وتهش له وتأنس به وتتعامل على ضوئه .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية وقد اختتم موضوع (الإحسان وأثره فى حياة الأمة) بنشرته (ج) — هذه — يسره أن يقدمها إلى القارىء الكريم آملا أن يكون قد وفى هذا الموضوع حقه وأعطى به صورة مشرقة عن الإسلام فى جزئية من جزئياته تبين منها إلى أى مدى كانت أصالة الإسلام وحيويته وتجدده . ثم تجديده لكل ما بلى ورم فى حياة البشر من صلات وعلائق ، وبناؤه لكل ما تصدع أو تهدم من قيمهم وفضائلهم .

فما أحوج أمتنا خاصة والبشرية عامة أن تولى وجهها شطر هذا الدين الذى أكمل الله به الملة وأتم به النعمة ورضيه الله لنا دينا .

نسأل الله أن يبارك جهدنا وأن يضاعف أجرنا وأن يأخذ بنواصينا إلى الحق والخير وأن يستخدمنا لدينه ويسخرنا لطاعته وأن يجعلنا من المحسنين .

والله الموفق . والحمد لله رب العالمين ؟

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

---

(١) سورة القيامة آيتى ٢٢ ، ٢٣

أولئك لهم عظيم الأجر وجزيل الثواب ثم الحظوة التى ليس وراءها حظوة والفضل الذى ليس فوقه فضل . وهو أن يتجلى الله عليهم بنوره وبهائه « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة[1] » .

وهذا ما تناولناه فى العنصر الخامس .

إن الإحسان بكل ما يحمل من معان وما يدور فى فلكه من كل شئون القول والعمل فى النفس والفرد والمجتمع وبكل ما يترتب عليه من ثمار ونتائج . وبكل ما بدا فيه من المنهجية والعموم والإحاطة والشمول . والإيجابية والواقعية لهو الأمر الذى يجب على الأمة جميعاً من أول لبنة فيها أن تألفه وتهش له وتأنس به وتتعامل على ضوئه .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية وقد اختتم موضوع (الإحسان وأثره فى حياة الأمة) بنشرته (ج) — هذه — يسره أن يقدمها إلى القارىء الكريم آملا أن يكون قد وفى هذا الموضوع حقه وأعطى به صورة مشرقة عن الإسلام فى جزئية من جزئياته تبين منها إلى أى مدى كانت أصالة الإسلام وحيويته وتجدده . ثم تجديده لكل ما بلى ورم فى حياة البشر من صلات وعلائق ، وبناؤه لكل ما تصدع أو تهدم من قيمهم وفضائلهم .

فما أحوج أمتنا خاصة والبشرية عامة أن تولى وجهها شطر هذا الدين الذى أكمل الله به الملة وأتم به النعمة ورضيه الله لنا دينا .

نسأل الله أن يبارك جهدنا وأن يضاعف أجرنا وأن يأخذ بنواصينا إلى الحق والخير وأن يستخدمنا لدينه ويسخرنا لطاعته وأن يجعلنا من المحسنين .

والله الموفق . والحمد لله رب العالمين ؟

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

---

(١) سورة القيامة آيتى ٢٢ ، ٢٣

العنصر الأول

الإحسان وضبط النفس

من أبرز الأسس التي ربى الإسلام عليها البشر ترويضهم على ضبط أنفسهم وتدريبهم على قيادتها والإمساك بزمامها وكبح عواطفها وكفكفة انفعالاتها . ومن أهم المواقف التي تستوجب ذلك ما يكون باعثاً إلى الثورة دافعاً إلى الغضب والانفعال والتوتر وخاصة عند اللجاجة والخصومة التي يرسم الإسلام أقوم علاج للنفس إزاءها إذ يندب إلى القصد والاعتدال ثم إلى الإحسان في مقابلة الإساءة وإلى العفو في مقابلة المظالمة . وإلى الوصل في مقابلة القطيعة . إنها فضيلة الإحسان التي تشد العلائق بعد تفككها وتعيد الصلات بعد تمزق وتبين عن معدن صاحبها فإذا هو في نظر خصمه القمة التي يرنو إليها ويتعشقها ويأمل أن يعيش في فلكها ورفقتها .

١ — قال تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون » .
(٩٦ : المؤمنون)

يقول المراغي :

« ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون » أي ادفع الأذى عنك بالخصلة التي هي أحسن بالاغضاء والصفح عن جهلهم والصبر على أذاهم وتكذيبهم بما أتيتهم به من عند ربك ونحن أعلم بما يصفوننا به وينحلونه إيانا من الاختلاق والأكاذيب وبما يقولون فيك من السوء وهجر القول ومجازوهم على ما يقولون فلا يحزنك ذلك واصبر صبراً جميلا ونحو الآية قوله « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال فى الآية « يقول الرجل لأخيه ماليس فيه فيقول له : إن كنت كاذباً فإنى أسأل الله أن يغفر لك وإن كنت صادقاً فإنى أسأل الله أن يغفر لى » . (المراغى جـ ١٨ ص ٥٣ ، ٥٤)

٢ — وقال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . (٣٤ : فصلت)

يقول المراغى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » أى ولا تتساوى الحسنة التى يرضى الله بها ويثيب عليها ، والسيئة التى يكرهها ويعاقب عليها .

وقد يكون للمعنى ولا تستوى دعوة الرسول إلى الدين الحق بالطرق المثلى والصبر على سفاهة الكفار ، وترك الانتقام منهم وما أظهروه من الغلظة والفظاظة فى قولهم : (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وقولهم : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) .

والخلاصة — إن فعلك أيها الرسول حسنة ، وإن فعلهم سيئة فإذا أتيت بهذه الحسنة استحققت التعظيم فى الدنيا والمثوبة فى الآخرة ، وهم بضد ذلك فلا ينبغى أن يكون إقدامهم على السيئة مانعا من الاشتغال بالحسنة .

ثم ذكر بعض الحسنات ووضحها بذكر بعض دروبها فقال :

(إدفع بالتى هى أحسن) أى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق التى هى أحسن الطرق ، فقابل إساءتهم بالإحسان إليهم ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر والاغضاء عن الهفوات واحتمال المكاره ، فإنك إن صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفههم بالغضب ولا أذاهم بمثله ، استحيوا من ذميم أخلاقهم وتركوا قبيح أفعالهم .

روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال فى الآية « يقول الرجل لأخيه ماليس فيه فيقول له : إن كنت كاذباً فإنى أسأل الله أن يغفر لك وإن كنت صادقاً فإنى أسأل الله أن يغفر لى » . (المراغى جـ ١٨ ص ٥٣ ، ٥٤)

٢ — وقال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . (٣٤ : فصلت)

يقول المراغى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » أى ولا تتساوى الحسنة التى يرضى الله بها ويثيب عليها ، والسيئة التى يكرهها ويعاقب عليها .

وقد يكون المعنى ولا تستوى دعوة الرسول إلى الدين الحق بالطرق المثلى والصبر على سفاهة الكفار ، وترك الانتقام منهم وما أظهروه من الغلظة والفظاظة فى قولهم : (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وقولهم : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) .

والخلاصة — إن فعلك أيها الرسول حسنة ، وإن فعلهم سيئة فإذا أتيت بهذه الحسنة استحققت التعظيم فى الدنيا والمثوبة فى الآخرة ، وهم بضد ذلك فلا ينبغى أن يكون إقدامهم على السيئة مانعا من الاشتغال بالحسنة .

ثم ذكر بعض الحسنات ووضحها بذكر بعض دروبها فقال :

(إدفع بالتى هى أحسن) أى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق التى هى أحسن الطرق ، فقابل إساءتهم بالإحسان إليهم ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر والاغضاء عن الهفوات واحتمال المكاره ، فإنك إن صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفههم بالغضب ولا أذاهم بمثله ، استحيوا من ذميم أخلاقهم وتركوا قبيح أفعالهم .

ثم بين نتائج الدفع بالحسنى فقال :

(فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) أى إنك إن فعلت ذلك انقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغض إلى المودة ، قال عمر : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه وقال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الاساءة ، فاذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم .

قال مقاتل : نزلت الآية فى أبى سفيان بن حرب كان معاديا للنبى ﷺ فصار له وليا فى الاسلام ، حميا بالمصاهرة . (المراغى ج٢٤ ص١٣١، ١٣٢ بتصرف)

ويقول القاسمى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » أى لكون الأولى من مقام العقل تجر صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة ، والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشيطان . « ادفع بالتى هى أحسن » أى ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتى هى أحسن منها ، وهى الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا ، أو بالأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات . وإنما عدل من مقتضى الظاهر وهو « ادفع بالحسنة » إلى الأبلغ لأن من دفع بالأحسن كان عليه الدفع بما دونه ، وهذا الكلام أبلغ فى الحد والحث على ما ذكر . لأنه يومىء إلى أنه مهم ينبغى الاعتناء به والسؤال عنه .

وقال القاشانى : أى إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة التى هى أحسن فلا تدفعها بالحسنة التى دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لا تندفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب . فاذا قابلتها بمثلها كنت منحطا

إلى مقام النفس ، متبعا للشيطان ، سالكا طريق النار ، ملقيا لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلا له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسببا لازدياد الشر ، معرضا عن الخير وإن دفعتها بالحسنة ، سكنت شرارته ، وأزلت عداوته ، وتثبت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان وأرضيت الرحمن وانخرطت فى سلك الملكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله (فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) أى صديق أو قريب (حميم) أى شديد الولاء . وأصل الحيم للماء الشديدة حرارته . كنى به عن الولى المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه . (القاسمى ج ١٤ ص ٥٢٠٧ - ٥٢٠٨)

الأدلة من السنة :

إن الإنسان المسكين النفس القوى الشخصية المتزن القوى هو الذى يتمكن فى الوقت المناسب من السيطرة على عواطفه والتحكم فى انفعالاته والامتلاك لمشاعره وأحاسيسه فلا ينفرط له ساعة الغضب عقد ولا يتبعثر له لحظة التوتر كيان . وحسبك بالذرى والقمم من قادة البشر وأنبيائهم نماذج رائدة فى امتلاك النفس وضبطها حيث كانوا لا يغضبون إلا لله . فإذا غضبوا لله قابلوا الإساءة بالإحسان وحسبك بخاتم الرسل رسول الله محمد ﷺ قدوة فى هذا وأسوة حسنة .

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رجلا قال للنبى ﷺ : أوصنى . قال : « لا تغضب » فردد مرارا ، قال : « لا تغضب »[1] رواه البخارى

(رياض الصالحين ص ٢٨٣)

---

(١) الغضب : فوران دم القلب لإرادة الانتقام من وساوس الشيطان . يتكلم بالباطل ويفعل المذموم وينوى الحقد والبغض .

إلى مقام النفس ، متبعا للشيطان ، سالكا طريق النار ، ملقيا لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلا له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسببا لازدياد الشر ، معرضا عن الخير وإن دفعتها بالحسنة ، سكنت شرارته ، وأزلت عداوته ، وتثبت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان وأرضيت الرحمن وانخرطت فى سالك الملكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله (فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) أى صديق أو قريب (حميم) أى شديد الولاء . وأصل الحميم للماء الشديدة حرارته. كنى به عن الولى المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه . (القاسمى ج ١٤ ص ٥٢٠٧ ـ ٥٢٠٨)

الأدلة من السنة :

إن الإنسان المسكين النفس القوى الشخصية المتزن القوى هو الذى يتمكن فى الوقت المناسب من السيطرة على عواطفه والتحكم فى انفعالاته والامتلاك لمشاعره وأحاسيسه فلا ينفرط له ساعة الغضب عقد ولا يتبعثر له لحظة التوتر كيان . وحسبك بالذرى والقمم من قادة البشر وأنبيائهم نماذج رائدة فى امتلاك النفس وضبطها حيث كانوا لا يغضبون إلا لله . فإذا غضبوا لله قابلوا الإساءة بالإحسان وحسبك بخاتم الرسل رسول الله محمد ﷺ قدوة فى هذا وأسوة حسنة .

١ ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا قال للنبى ﷺ : أوصنى . قال : « لا تغضب » فردد مرارا ، قال : « لا تغضب »[1] رواه البخارى

(رياض الصالحين ص ٢٨٣)

---

(١) الغضب : فوران دم القلب لإرادة الانتقام من وساوس الشيطان. يتكلم بالباطل ويفعل المذموم وينوى الحقد والبغض .

٢ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد[١] بالصرعة[٢] إنما الشديد[٣] الذى يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه . (المصدر السابق ص ٢٨٧)

٣ ـ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « ماخير رسول الله ﷺ بين أمرين[٤] قط إلا أخذ أيسرهما[٥] مالم يكن إثما .[٦] فإن كان إثما كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط إلاّ أن تنتهك حرمة الله[٧] فينتقم لله تعالى » متفق عليه . (المصدر السابق ص ٢٨٤)

٤ ـ وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ . يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه[٨] . وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى[٩] فإنهم لايعلمون » متفق عليه (المصدر السابق ص ٢٧٨)

---

(١) المحمود شدته شرعا .

(٢) يغلب الناس ويصرعهم بقوته .

(٣) المحمود شرعا .

(٤) دينى أو دنيوى .

(٥) إرشادا لأمته .

(٦) مالم يكن الأيسر معصية .

(٧) معاصيه .

(٨) أجروا دمه بالجراحات .

(٩) ماصنعوه معى من الإدماء والضرب . لوعرفوه لقدروه ﷺ .

العنصر الثانى

الاحسان يوثق صلة العبد بربه

ليس هناك من شىء يوثق صلة العبد بربه من أن يسلم لله وجهه ويخلص له قلبه ويخط طريقه فى الحياة على هديه مترجما دينه إلى واقع ومجسدا إياه فى أسلوب ومنهاج وسلوك يتعامل به مع المجتمع ويتفاعل به مع الأمة وهو بطبيعة الحال لن يباشر ذلك من فراغ وإنما يمارسه وبين يديه منهج وخط أصيل توفر على إبراز كيانه وإعلاء صرحه قادة الإنسانية وأقطابها فى كل جيل من أنبياء الله ورسله من لدن آدم عليه السلام وغدا بارزا على يد خليل الله إبراهيم صلوات الله عليه مرفوع اللواء كاملا تاما على يد النبى الخاتم محمد ﷺ . ومامن مسلم أحسن أخذه بهذا المنهاج وأحكم تطبيقه له إلا كانت علاقته أوثق ما تكون بربه وكان أجره أعظم ما يكون الأجر، وكان بإحسانه هذا ورضوان الله عليه أبعد عن كل ما يثير خوفه وحزنه .

١ ـ قال تعالى :

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا » (١٢٥ : النساء)

يقول ابن كثير :

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

أى أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيمانا واحتسابا .

العنصر الثانى

الاحسان يوثق صلة العبد بربه

ليس هناك من شىء يوثق صلة العبد بربه من أن يسلم لله وجهه ويخلص له قلبه ويخط طريقه فى الحياة على هديه مترجما دينه إلى واقع ومجسدا إياه فى أسلوب ومنهاج وسلوك يتعامل به مع المجتمع ويتفاعل به مع الأمة وهو بطبيعة الحال لن يباشر ذلك من فراغ وإنما يمارسه وبين يديه منهج وخط أصيل توفر على إبراز كيانه وإعلاء صرحه قادة الإنسانية وأقطابها فى كل جيل من أنبياء الله ورسله من لدن آدم عليه السلام وغدا بارزا على يد خليل الله إبراهيم صلوات الله عليه مرفوع اللواء كاملا تاما على يد النبي الخاتم محمد ﷺ . ومامن مسلم أحسن أخذه بهذا المنهاج وأحكم تطبيقه له إلا كانت علاقته أوثق ما تكون بربه وكان أجره أعظم ما يكون الأجر، وكان بإحسانه هذا ورضوان الله عليه أبعد عن كل ما يثير خوفه وحزنه .

١ ـ قال تعالى :

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا » (١٢٥ : النساء)

يقول ابن كثير :

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

أى أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيمانا واحتسابا .

«وهو محسن» أى اتبع فى عمله ما شرعه الله عز وجل وما أرسل به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما أن يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون متابعا للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة وباطنه بالإخلاص فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد . فمتى فقد الإخلاص كان منافقا وهم الذين يراءون الناس ومتى فقد المتابعة كان ضالا جاهلا ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم ولهذا قال تعالى « واتبع ملة ابراهيم حنيفا » وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة والحنيف هو المائل عن الشرك قصدا أى تاركا له عن بصيرة ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد ولا يرده عنه راد .

وقوله تعالى « واتخذ الله إبراهيم خليلا »

وهذا أرفع مقامات المحبة وما ذلك إلا لكثرة طاعته لربه كما وصفه فى قوله « وإبراهيم الذى وفى » قال كثير من علماء السلف أى قام بجميع ما أمر به وفى كل مقام من مقامات العبادة فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ولا كبير عن صغير .

(ابن كثير جـ ١ ص ٥٥٩ بتصرف)

ويقول القاسمى :

« ومن أحسن دينا مما أسلم وجهه لله » أى أخلص نفسه له تعالى فلم يتخذ ربا سواه « وهو محسن » أى آت بالحسنات تارك للسيئات أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسر النبى ﷺ الإحسان بقوله : أن « تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » « واتبع ملة إبراهيم حنيفا » الموافقة لدين الإسلام للمتفق على صحتها وقبولها مائلا عن الشرك .

قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناشرح الإيمان وبين فضله من وجهين أحدهما أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى . والثانى ـ أنه الدين الذى كان عليه ابراهيم عليه السلام . وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب فى دين الإسلام .

أما الوجه الأول فاعلم أن دين الاسلام مبنى على أمرين : الاعتقادوالعمل. أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله « أسلم وجهه لله » وذلك لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع ، والوجه أحسن أعضاء الانسان .

فالانسان إذا عرف بقلبه ربه وأقر بربوبيته وعبودية نفسه ، فقد أسلم وجهه لله ، وأما العمل فإليه الاشارة بقوله « وهو محسن » ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات ، فتأمل فى هذه اللفظة المختصرة واحتوائها على جميع المقاصيد والأغراض ، وأيضا فقوله « أسلم وجهه لله » يفيد الحصر ، معناه أنه أسلم نفسه لله وما أسلم لغير الله . وهذا تنبيه على أن كمال الايمان لا يحصل الاعند تفويض جميع الأمور إلى الخالق ، وإظهار التبرى من الحول والقوة ، وأيضا فيه تنبيه على فساد طريقة من إستعان بغير الله .

(القاسمى حـ٥ ص ١٠٧٦ ـ ١٥٧٤ بتصرف)

٢ — وقال تعالى :

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » .

(٢٢ لقمان)

قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناشرح الإيمان وبين فضله من وجهين أحدهما أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى . والثانى ـ أنه الدين الذى كان عليه ابراهيم عليه السلام . وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب فى دين الإسلام .

أما الوجه الأول فاعلم أن دين الاسلام مبنى على أمرين : الاعتقادوالعمل. أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله « أسلم وجهه لله » وذلك لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع ، والوجه أحسن أعضاء الانسان .

فالانسان إذا عرف بقلبه ربه وأقر بربوبيته وعبودية نفسه ، فقد أسلم وجهه لله ، وأما العمل فإليه الاشارة بقوله « وهو محسن » ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات ، فتأمل فى هذه اللفظة المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض ، وأيضا فقوله « أسلم وجهه لله » يفيد الحصر ، معناه أنه أسلم نفسه لله وما أسلم لغير الله . وهذا تنبيه على أن كمال الايمان لا يحصل الاعند تفويض جميع الأمور إلى الخالق ، وإظهار التبرى من الحول والقوة ، وأيضا فيه تنبيه على فساد طريقة من إستعان بغير الله .

(القاسمى حـ٥ ص ١٥٧٦ ـ ١٥٧٨ بتصرف)

٢ — وقال تعالى :

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » .

(٢٢ لقمان)

ويقول المراغى :

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى ومن يعبد الله وهو متذلل خاضع مع الاحسان فى العمل بفعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات ، فقد تعلق بأوثق الأسباب التى توصل إلى رضوان ربه ومحبته وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح .

ثم بين العلة فى أنه يلقى الجزاء الأوفى فقال : « وإلى الله عاقبة الأمور » أى إلى الله المصير لا إلى غيره ، فلا يكونن لأحد إذ ذاك أمر ولا نهى ، ولا عقاب ولا ثواب ، فيجازى المتوكل عليه أحسن الجزاء ويعاقب المسيء أنكل العذاب .

(المراغى جـ ٢١ ص ٩٠ ، ٩١)

ويقول القاسمى :

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن » أى فى أعماله « فقد إستمسك بالعروة الوثقى » أى تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب ؛ وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن بحال من أراد رقى شاهق ، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه « وإلى الله عاقبة الأمور » .

(القاسمى جـ ١٢ ص ٤٨٠٥)

٣ ـ وقال تعالى :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(١١٢ : البقرة)

يقول ابن كثير :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن » أى من أخلص العمل لله وحده لاشريك له كما قال تعالى « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » الآية . وقال أبو العالية والربيع « بلى من أسلم وجهه لله » يقول من أخلص لله « وجهه » يعنى دينه « وهو محسن » أى اتبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة .

(ابن كثير ج ١ ص ١٥٤ بتصرف)

ويقول القاسمى :

« بلى » إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة « من أسلم وجهه لله » من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره ، وإنما عبر عن النفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع ، أو المعنى : من أخلص توجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شىء غيره « وهو محسن » فى عمله موافق لهديه صلى الله عليه وسلم « فله أجره عند ربه » وهو عبارة عن دخول الجنة وتصويره بصورة الأجر للايذان بقوة ارتباطه بالعمل « ولا خوف عليهم » من لحوق مكروه « ولا هم يحزنون » من فوات مطلوب .

(القاسمى ج ٢ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ بتصرف)

يقول ابن كثير :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن » أى من أخلص العمل لله وحده لاشريك له كما قال تعالى « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » الآية . وقال أبو العالية والربيع « بلى من أسلم وجهه لله » يقول من أخلص لله « وجهه » يعنى دينه « وهو محسن » أى اتبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة .

(ابن كثير ج ١ ص ١٥٤ بتصرف)

ويقول القاسمى :

« بلى » إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة « من أسلم وجهه لله » من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره ، وإنما عبر عن النفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع ، أو المعنى : من أخلص توجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شىء غيره « وهو محسن » فى عمله موافق لهديه صلى الله عليه وسلم « فله أجره عند ربه » وهو عبارة عن دخول الجنة وتصويره بصورة الأجر للايذان بقوة ارتباطه بالعمل « ولا خوف عليهم » من لحوق مكروه « ولا هم يحزنون » من فوات مطلوب .

(القاسمى ج ٢ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ بتصرف)

الأدلة من السنة :

من خير ما يقرب العبد من ربه ويوثق صلته به أن يكون نصب عينيه مراقبته لله ومراقبة الله له فى كل ما يأتى وما يدع من الأقوال والأعمال عادية أو عبادية وهذا هو الإحسان بمعناه الدقيق وما استقام إنسان على هـذا السنن إلا كان أحسن الناس أعمالا وأبرهم بأمور دينه وشئون دنياه . الأمر الذى يستتبع رضوان الله ونعيمه وبره وبركته على المحسنين المؤمنين رزقاً غدقاً وفضلا مدراراً فى الدين والدنيا والآخرة .

١ — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : كان النبى . ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال : . . . . . . ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . » رواه البخارى .

(فتح البارى جـ ١ ص ١٢٨)

٢ — وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم — ألا أنبئكم بخيركم ؟ قالوا : نعم . قال خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالا » . رواه أحمد ورواته رواة الصحيح وابن حبان فى صحيحه .

(الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٥٤)

٣ — وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال : قال ربكم عز وجل : لو أن عبادى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار . ولما أسمعتهم صوت الرعد . وقال رسول الله ﷺ : إن حسن الظن بالله من حسن العبادة » رواه أحمد بإسناد حسن وغيره .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٩ ص ٢١)

العنصر الثالث

حب الله للمحسنين

ما من شيء يجعل المرء محبوبا مرغوبا مرضياً عليه أعظم من أن يكون إنسانا ملتزما بما يؤمن به مطبقا لما يطلب منه باراً به وفياً له مجيدا فى أدائه متقنا فى عمله محسنا فى كل صغيرة و كبيرة فيه وحب الله عز وجل للمحسنين جزاء دونه كل جزاء وفضل دونه كل فضل وحب المحسنين أن يأمرهم الله فيأتمروا وأن ينهاهم فينتهوا وأن يطلب منهم فيلبوا وأن يدعوهم فيستجيبوا فيؤتيهم الله على ذلك ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة لكن أن يحيطهم الله بحبه وأن يلفهم برضوانه وأن يشملهم بوده فهذا أفضل الفضل وأوفى الجزاء .

الأدلة من القرآن :

١ – قال تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » (١٩٥ : البقرة)

يقول القاسمى :

«وأحسنوا» أى تحروا فعل الإحسان : أى الاتيان بكل ما هو حسن ومن أجله الانفاق ، وقوله « إن الله يحب المحسنين » قال الراغب نبه باظهار المحبة للمحسنين على شرف منزلتهم وفضيلة أفعالهم .

(القاسمى جـ ٣ ص ٤٨٢)

٢ – وقال تعالى « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين». (آل عمران: ١٤٨)

العنصر الثالث

حب الله للمحسنين

ما من شىء يجعل المرء محبوبا مرغوبا مرضياً عليه أعظم من أن يكون إنسانا ملتزما بما يؤمن به مطبقا لما يطلب منه باراً به وفياً له مجيدا فى أدائه متقنا فى عمله محسنا فى كل صغيرة وكبيرة فيه وحب الله عز وجل للمحسنين جزاء دونه كل جزاء وفضل دونه كل فضل وحب المحسنين أن يأمرهم الله فيأتمروا وأن ينهاهم فينتهوا وأن يطلب منهم فيلبوا وأن يدعوهم فيستجيبوا فيؤتيهم الله على ذلك ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة لكن أن يحيطهم الله بحبه وأن يلفهم برضوانه وأن يشملهم بوده فهذا أفضل الفضل وأوفى الجزاء .

الأدلة من القرآن :

١ — قال تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » (١٩٥ : البقرة)

يقول القاسمى :

«وأحسنوا» أى تحروا فعل الإحسان : أى الاتيان بكل ما هو حسن ومن أجله الانفاق ، وقوله « إن الله يحب المحسنين » قال الراغب نبه باظهار المحبة للمحسنين على شرف منزلتهم وفضيلة أفعالهم .

(القاسمى جـ ٣ ص ٤٨٢)

٢ — وقال تعالى « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين» . (آل عمران: ١٤٨)

يقول المنار :

« والله يحب المحسنين »

لأنهم خلفاؤه فى الأرض يقيمون سنتــه ، ويظهرون بأنفسهم وأعمـالهم حكمته فيكون عملهم لله وبالله كما ورد فى صفة العبد الذى يحبه الله « فإذا أحببته كنت سمعـه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها» أى أن مشاعره وأعماله لا تكون مشغولة إلا بما يرضى الله ويتيم سنته ويظهر حكمه فى خلقه (المنار ج ٤ ص ١٧٣)

ويقول المراغى :

وقد جاء فى الآية الترتيب هكذا : التوفيق على الطاعة ، ثم الثواب عليها ثم المدح على ذلك ، إذ سماهم محسنين ، ليكون فى ذلك توجيه للعبد ليعلم أن كل ذلك بعنايته تعالى وفضله . (المراغى ج ٤ ص ٩٤)

٣ ـ وقال تعالى « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الـكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » (١٣ : المـائدة)

يقول المراغى :

« فاعف عنهم واصـفح إن الله يحب المحسنين » أى فاعف عما فرط من هـؤلاء القليل ، واصفح عمن أساء منهم وعاملهم بالاحسان الذى يحبه الله تعالى فأنت أحق الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهذا رأى أبى مسلم . وقال غيره : فاعف عن هـؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل ، واصفح لهم عن جرمهم ، فإنى أحب من أحسن العفو والصفح الى من أساء اليه ، إيثارا للاحسان والفضل على ما يقتضيه العدل . (المراغى ج ٦ ص ٧٦)

الأدلة من السنة

إن لله عباداً هم بعظيم إيمانهم وجليل احسانهم صفوته من خلقه وخاصته من عباده يوليهم من حبه ويعطيهم من فضله ويمنحهم من رعايته وعنايته مايبلغون به من الشرف مالا يطاوله شرف ومن المكانة مالا يبلغها غيرهم : بحيث ينشر الله من عطر حبه إياهم على الكون كله وأهل السماء وأهـــل الأرض فيألفونهم ويحبونهم ويصير منهما من الود مايباركون به عملهم ويســددون به خطاهم . وانسان من هذا الطراز -في معية الله وولايته- لن يزال في ظل الله ورحمته وحسن تأييده وجميد الدفاع عنه ما بقى على ما هو عليه من إيمان محسنا فيما بينه وبين ربه من علاقة حريصا على فرائضه ونوافله وأمره ونهيه وسائر عمله فلا يراه الله حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره .

١ ـ فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى قال: « من عادى لى وليا فقد آذنته[1] بالحرب وما يتقرب إلى عبدى بشيء أحب الى مما افترضته عليه وما يزال عبـدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى[2] لأعيذنه » رواه البخارى (رياض الصالحين ص ١٨١)

٢ ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى إذا أحب العبد نادى جبريل[3] : إن الله تعالى يحب فـــلانا

---

(١) أى أعلمته بأنى محارب له .

(٢) أراد له الخير والهداية والرحمة والإنعام عليه .

(٣) بالكلام النفسى الخاص به سبحانه وتعالى المنزه عن الصوت المسموع.

الأدلة من السنة

إن لله عباداً هم بعظيم إيمانهم وجليل احسانهم صفوته من خلقه وخاصته من عباده يوليهم من حبه ويعطيهم من فضله ويمنحهم من رعايته وعنايته مايبلغون به من الشرف مالا يطاوله شرف ومن المكانة مالا يبلغها غيرهم : بحيث ينشر الله من عطر حبه إياهم على الكون كله وأهل السماء وأهـل الأرض فيألفونهم ويحبونهم ويصير منهما من الود مايباركون به عملهم ويسـددون به خطاهم . وانسان من هذا الطراز ـ في معية الله وولايته ـ لن يزال في ظل الله ورحمته وحسن تأييده ومجيد الدفاع عنه ما بقي على ما هو عليه من إيمان محسنا فيما بينه وبين ربه من علاقة حريصا على فرائضه ونوافله وأمره ونهيه وسائر عمله فلا يراه الله حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره .

١ ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى قال : « من عادى لي وليا فقد آذنته[1] بالحرب وما يتقرب إلى عبدي بشيء أحب الى مما افترضته عليه وما يزال عبـدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني[2] لأعيذنه » رواه البخاري (رياض الصالحين ص ١٨١)

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى إذا أحب العبد نادى جبريل[3] : إن الله تعالى يحب فـلانا

---

(١) أي أعلمته بأني محارب له .

(٢) أراد له الخير والهداية والرحمة والإنعام عليه .

(٣) بالكلام النفسي الخاص به سبحانه وتعالى المنزه عن الصوت المسموع .

فأحببه فيحبه جبريل . فينادى فى أهـل السماء[1] إن الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض[2] ، متفق عليه .

(رياض الصالحين ص ١٨١).

العنصر الرابع

تأييد الله للمحسنين

من كان مع الله كان الله معـه ومن كان لله كان الله له ومن اعتز بالله عز ومن ومن استغنى به كان لديه الغنى الذى لا عوز بعـده والمجاهدون فى الله هم قـوم اتقوا الله حق تقاته ما استطاعوا الى ذلك سبيلا وقاوموا من أهواء النفس ورغائب الدنيا وعدويهم الخفى والمستعان بحيث رجحت عليهما كفتهم .

ولقد علم الله عز وجل مدى حاجة المحسنين وقد جاهدوا واتقوا وأحسنوا مدى حاجتهم إلى مدد يمدهم وقوة تؤيدهم ونصير يقف إلى جوارهم فكان الله معهم بحوله وطوله وقوته وحسن تأييده .

١ قال تعالى « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

(١٢٨ : النحل)

يقول القاسمى :

« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » تعليل لما قبله . أى فانه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم ، لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلؤهم ويظهرهم على اعدائهم .

---

(١) تشريفا له فى الملأ الأعلى لينال المنزلة المنيفة والحظ الأعظم .

(٢) الحب فى قلوب أهـل الدين والخير له والرضا به واستيكان ذكره فى حال غيبته .

قال أبو السعود: تكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى ، وايراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث ، كما أن ايراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم ، وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية مقدمة على التحلية . والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين ، وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لا قتداء الأمة ، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية بأبيه العباس .

اصبر نكن بك صابرين فانما	صبر الرعية عند صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده	والله خير منك للعباس

قال ابن عباس : ما عزانى أحد أحسن من تعزيته .

(القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٠ ، ٣٨٨١ بتصرف)

ويقول ابن كثير :

« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » أى معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله تعالى « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا » وكقوله لموسى وهارون « لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى » وكقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق وهما فى الغار « لا تحزن إن الله معنا» وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى: « وهو معكم أينما كنتم » ومعنى الذين اتقوا أى تركوا المحرمات « والذين هم محسنون » أى فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم . (ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ بتصرف)

قال أبو السعود: تكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى ، وايراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث ، كما أن ايراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم ، وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية مقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين ، وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لا قتداء الأمة ، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية بأبيه العباس .

اصبر نكن بك صابرين فانما	صبر الرعية عند صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده	والله خير منك للعباس

قال ابن عباس : ما عزانى أحد أحسن من تعزيته .

(القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٠ ، ٣٨٨١ بتصرف)

ويقول ابن كثير :

« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » أى معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله تعالى « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا » وكقوله لموسى وهارون « لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى » وكقول النبى صلى الله عليه وسلم للصديق وهما فى الغار « لا تحزن إن الله معنا» وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى: « وهو معكم أينما كنتم » ومعنى الذين اتقوا أى تركوا المحرمات « والذين هم محسنون » أى فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم . (ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ بتصرف)

ويقول المراغى :

« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » أى إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفا من عقابه، والذين يحسنون رعاية فرائضه، والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به وفى ترك ما نهاهم عنه .

وقصارى ذلك — إن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم، فلم يحزنوا لفوت مطلوب، ولم يفرحوا لنيل محبوب، والذين محسنون أعمالهم برعاية فرائضه وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكماله، وقد فسر النبي ﷺ الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . (المراغى جـ ١٤ ص ١٦٣ بتصرف)

٢ — وقال تعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »

(٦٩ : العنكبوت)

يقول المراغى :

« وإن الله لمع المحسنين » .

أى وإن الله ذا الرحمة لمع من أحسن من خلقه فجاهد أهل الشرك مصدقا رسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة على من جاهد من أعدائه، والمغفرة والثواب فى العقبى .

روى ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام « إنما الاحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وليس الاحسان أن تحسن إلى من أحسن » . (المراغى جـ٢١ ص ٢٤)

الأدلة من السنة :

إن المحسنين فى كفالة الله وتحت كنفه وحمايته وفى معية الله وتأييده ينتصر لهم ويسدد خطاهم ويدافع عنهم وينهضهم من كبوتهم ويقيلهم من شر العثار والبوار والهلكة .

١ — عن أبى هريرة أن رجلا كان يسب أبا بكر — رضى الله عنه — بحضرة النبى ﷺ وأصحابه . فصمت عنه أبوبكر .ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبوبكر .ثم آذاه الثالثة فانتصر منه أبوبكر . فقام رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : أوجدت على ؟ ، فقال : نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك . فلما انتصرت وقع الشيطان فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان » رواه أبوداود بسند صحيح . (التاج الجامع للاصول جـ ٥ ص٥٢)

٢ — وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كنفه . وأدخله جنته : رفق بالضعيف . وشفقة على الوالدين وإحسان إلى المملوك » رواه الترمذى بسند حسن . (المصدر السابق جـ ٥ ص ١٢)

٣ — وعن جعفر بن محمد مرسلا قال ﷺ : « تجاوزوا لذوى المروءة عن عثراتهم فوالذى نفسى بيده . إن أحدهم ليعثر وإن يده لفى يد الله تعالى » أخرجه السيوطى وصححه . (الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٢١

الأدلة من السنة :

إن المحسنين فى كفالة الله وتحت كنفه وحمايته وفى معية الله وتأييده ينتصر لهم ويسدد خطاهم ويدافع عنهم وينهضهم من كبوتهم ويقيلهم من شر العثار والبوار والهلكة .

١ — عن أبى هريرة أن رجلا كان يسب أبا بكر — رضى الله عنه — بحضرة النبى ﷺ وأصحابه . فصمت عنه أبوبكر . ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبوبكر . ثم آذاه الثالثة فانتصر منه أبوبكر . فقام رسول الله ﷺ ، فقال أبوبكر : أوجدت على ؟ ، فقال : نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك . فلما انتصرت وقع الشيطان فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان » رواه أبوداود بسند صحيح . (التاج الجامع للاصول جـ ٥ ص ٥٢)

٢ — وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كنفه . وأدخله جنته : رفق بالضعيف . وشفقة على الوالدين وإحسان إلى المملوك » رواه الترمذى بسند حسن . (المصدر السابق جـ ٥ ص ١٢)

٣ — وعن جعفر بن محمد مرسلا قال ﷺ : « تجاوزوا لذوى المروءة عن عثراتهم فوالذى نفسى بيده . إن أحدهم ليعثر وإن يده لفى يد الله تعالى » أخرجه السيوطى وصححه . (الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٢١)

العنصر الخامس

الاحسان يضاعف الأجر

إن الجزاء غالبا من جنس العمل وليس أعظم للمحسن كالإحسان إليه بعظيم الجزاء ومضاعفة الأجر وزيادة الفضل فى جنات وعيون عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله لهم فيها من رضوان الله عليهم هذا عدا الفضل الأعظم والجزاء الأوفى والنعيم الذى لانعيم بعده وهو أن يتجلى رب العزة بجلاله وعظمته على المحسنين فيزيدهم نعيما فوق نعيمهم وجزاء على جزائهم .

١ — قال تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »

يقول ابن كثير :

قوله تعالى (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) أى لا لمن أحسن العمل فى الدنيا إلا الاحسان إليه فى الآخرة. كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

وعن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) وقال (هل تدرون ما قال ربكم ؟) قالوا الله ورسوله أعلم قال (يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة) .

(ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٨ بتصرف)

٢ — وقال تعالى « ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (النجم : ٣١ ، ٣٢)

يقول ابن كثير :

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والارض وأنه الغنى عما سواه الحاكم فى خلقه بالعدل وخلق الخلق بالحق (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى يجازى كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أى لا يتعاطون المحرمات الكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال فى الآية الأخرى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما). (ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٥)

ويقول المراغى (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى فهو يجازى - بحسب علمه المحيط بكل شيء - المحسن بالاحسان ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويمتعه بنعيم لا يخطر على قلب بشر ، والمسيء بصنيع ما أساء ، وبما دنس به نفسه من ضروب الشرك والمعاصى وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام ، وقد أضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

ثم ذكر أوصاف المحسنين فقال :

(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) أى إن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظم شأنه من كبائر المعاصى كالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله بغير حق ، والزنا ، ولا تقع منه الإ صغائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على مافرط منهم . (المراغى جـ ٢٧ ص ٥٩)

يقول ابن كثير :

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والارض وأنه الغنى عما سواه الحاكم فى خلقه بالعدل وخلق الخلق بالحق (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى يجازى كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أى لا يتعاطون المحرمات الكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال فى الآية الأخرى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما). (ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٥)

ويقول المراغى (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى فهو مجازى ـ بحسب علمه المحيط بكل شيء ـ المحسن بالاحسان ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويمتعه بنعيم لا يخطر على قلب بشر ، والمسيء بصنيع ما أساء ، وبما دنس به نفسه من ضروب الشرك والمعاصى وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام ، وقد أضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

ثم ذكر أوصاف المحسنين فقال :

(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) أى إن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظم شأنه من كبائر المعاصى كالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله بغير حق ، والزنا ، ولا تقع منه إلا صغائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على مافرط منهم . (المراغى جـ ٢٧ ص ٥٩)

٣ — وقال تعالى :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » (١٧٢ : آل عمران)

يقول المراغى :

أى هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته ولبوا نداءه ، وأتوا بالعمل على أكمل وجوهه واتقوا عاقبة تقصيرهم ، على ما هم عليه من جراح وآلام ، أصابتهم يوم أحد ، لهم أجر عظيم على ما قاموا به من جليل الأعمال .
وفى قوله : منهم ، إشارة إلى أن من دعوا لبوا واستجابوا له ظاهراً وباطناً ، ولكن عرض لبعضهم موانع فى أنفسهم أو أهليهم فلم يخرجوا ، وخرج الباقون . روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد ، فبلغوا الروحاء (موضع بين مكة والمدينة) ندموا وهموا بالرجوع حتى يستأصلوا من بقى من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج فى إثر أبى سفيان وقال : لايخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد (موضع على ثمانية أميال من المدينة) وكان لأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا إلى مكة مسرعين
(المراغى ج ٤ ص ١٢٣ ، ١٢٤)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم من الجراح والألم الشديد فى غزوة أحد ولبوا نداء الرسول حينما طلبهم للقاء أبى سفيان فى غزوة حمراء الأسد للذين أحسنوا منهم العمل وأتقنوه واتقوا عاقبة تقصيرهم فى العمل وخافوا الله زيادة على ما هم عليه من الألم ، لهم أجر عظيم يتناسب مع عملهم وجهودهم .
(الواضح ج ٤ ص ٤٨)

٤ — وقال تعالى :

« إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » (الآية ١٥ ـ ١٦ الذاريات).

ويقول القاسمى :

قوله تبارك وتعالى (آخذين) حال من قوله (فى جنات وعيون) فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والغبطة . ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله (إنهم كانوا قبل ذلك) يعنى فى الدنيا (محسنين) أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم بظهور آثارها فى أفعالهم وأقوالهم . (القاسمى جـ ١٥ ص ٥٥٢٦)

ويقول المراغى :

(إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى إنهم كانوا فى دار الدنيا يفعلون صالح الأعمال خشية من ربهم وطلبا لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التى فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون . ونحو الآية قوله : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) . (المراغى جـ ٢٦ ص ١٧٨ ، ١٧٩)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

إن المتقين الموصوفين بالصفات الآتية فى جنات وبساتين يتمتعون بكل ما فيها ، ولهم فيها عيون فوارة بالماء الزلال تجرى خلال الجنة ، فلا يرون فيها عطشا ، كما أنهم لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، إنهم فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم من نعيم ، وقابلين لكل ما أعطاهم بقبول حسن ، وقد

٤ — وقال تعالى :

« إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » (الآية ١٥ ـ ١٦ الذاريات).

ويقول القاسمى :

قوله تبارك وتعالى (آخذين) حال من قوله (فى جنات وعيون) فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والغبطة . ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله (إنهم كانوا قبل ذلك) يعنى فى الدنيا (محسنين) أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم بظهور آثارها فى أفعالهم وأقوالهم . (القاسمى جـ ١٥ ص ٥٥٢٦)

ويقول المراغى :

(إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى إنهم كانوا فى دار الدنيا يفعلون صالح الأعمال خشية من ربهم وطلبا لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التى فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون . ونحو الآية قوله : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) . (المراغى جـ ٢٦ ص ١٧٨ ، ١٧٩)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

إن المتقين الموصوفين بالصفات الآتية فى جنات وبساتين يتمتعون بكل ما فيها ، ولهم فيها عيون فوارة بالماء الزلال تجرى خلال الجنة ، فلا يرون فيها عطشا ، كما أنهم لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، إنهم فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم من نعيم ، وقابلين لكل ما أعطاهم بقبول حسن ، وقد

كانوا فى الدنيا يتقبلون أوامر الله التى تأتيهم على ألسنة الرسل بصدور رحبة ، ونفوس مطمئنة ، وكأن سائلا سأل وقال : هل فعلوا ما يستحقون عليه هذا الجزاء ؟ فأجيب أنهم كانوا قبل ذلك فى الدنيا محسنين لأعمالهم آتين بها على ما ينبغى ، عابدين لله عبادة خالصة لوجهه . (الواضح جـ٢٧ ص ٦)

٥ — وقال تعالى :

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) (الآية رقم ١٠٠ سورة التوبة)

يقول المراغى :

الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى الهجرة والنصرة حال كونهم محسنين فى أفعالهم وأقوالهم ، (رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى هؤلاء جميعا رضى الله عنهم فى إيمانهم وإسلامهم ، فقبل طاعتهم وتجاوز عن زلاتهم ، وبهم أعز الإسلام ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب ، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية فأنقذهم من الشرك ، وهداهم من الضلال ، وأعزهم بعد الذل وأغناهم بعد الفقر .

(وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) هذا الوعد الكريم تقدم فى آيات سابقة ، ولا شك أن نعيم الجنة الخالد بين روحانى وبدنى فوز أيما فوز . (المراغى جـ ١١ صـ ١١ ، ١٢ بتصرف)

ويقول القاسمي :

« والذين اتبعوهم بإحسان» أى سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة (رضى الله عنهم) . لأن الهجرة أمر شاق على النفس،لمفارقة الأهل والعشيرة .والنصرة منقبة شريفة ، لأنها إعلاء كلمة الله و نصر رسوله وأصحابه .

والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم .

قال المهايمي : « ورضوا عنه » بما وفقهم إليه من الإيمان والإحسان وما آتاهم من الثواب والكرامة « وأعدلهم جنات تجرى تحتها الأنهار » وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهليهم وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم، ولغرسهم جنات القرب فى قلوبهم واجراهم أنهار المعارف فى قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان .

قال المهايمى :

وقرأ ابن كثير . « من تحتها الأنهار » كما هو فى سائر للواضع . خالدين فيها أبدا » لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله ، وتأسيس قواعده إلى يوم القيامة، والعمل بمقتضاه، واختيار الباقى على الفانى « ذلك الفوز العظيم » أى الذى لا فوز وراءه . (القاسمى ج ٨ ص ٣٢٤٢ ، ٣٢٤٣)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

وهذا الوصف للتابعين « اتبعوهم بإحسان» يتضمن الشهادة من الله سبحانه وتعالى للسابقين بكمال الإحسان ، وعلو الإيمان فهم المتبوعون ، وفى المثل العليا والإحسان هم المقلدون . هؤلاء السابقون من المهاجرين و الأنصار والتابعون

رضى الله عنهم وقبل طاعتهم وتجاوز عن سيئاتهم ، وأعز بهم الاسلام بكل ذلك بسبب أعمالهم ورضوا عنه لما وفقهم الى الخير ، وهداهم الى الحق وأفاض عليهم من النعم الدينية والدنيوية ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وذلك الفوز العظيم . (الواضح جـ ١١ ص ٧ ، ٨ بتصرف)

٦ — وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (الآية ٢٥ من سورة يونس)

يقول ابن كثير :

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالايمان والعمل الصالح الحسنى فى الدار الآخرة كقوله تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) وقوله (وزيادة) هى تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر الى وجهه الكريم فانه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بأعمالهم بل بفضله ورحمته .

عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال (اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد ياأهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار — قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب اليهم من النظر اليه ولا أقر لأعينهم) رواه الامام أحمد .

ويقول القاسمى :

« والذين اتبعوهم بإحسان» أى سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة (رضى الله عنهم) . لأن الهجرة أمر شاق على النفس،لمفارقة الأهل والعشيرة . والنصرة منقبة شريفة ، لأنها إعلاء كلمة الله و نصر رسوله وأصحابه .

والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم .

قال المهايمى : « ورضوا عنه » بما وفقهم إليه من الإيمان والإحسان وما آتاهم من الثواب والكرامة « وأعدلهم جنات تجرى تحتها الأنهار » وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهليهم وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم، ولغرسهم جنات القرب فى قلوبهم واجرائهم أنهار المعارف فى قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان .

قال المهايمى :

وقرأ ابن كثير . « من تحتها الأنهار » كما هو فى سائر المواضع . خالدين فيها أبدا » لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله ، وتأسيس قواعده إلى يوم القيامة، والعمل بمقتضاه ، واختيار الباقى على الفانى « ذلك الفوز العظيم » أى الذى لا فوز وراءه .　　　　　　(القاسمى جـ ٨ ص ٣٢٤٢ ، ٣٢٤٣)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

وهذا الوصف للتابعين « اتبعوهم بإحسان» يتضمن الشهادة من الله سبحانه وتعالى للسابقين بكمال الإحسان ، وعلو الإيمان فهم المتبعون ، وفى المثل العليا والإحسان هم المقلدون . هؤلاء السابقون من المهاجرين و الأنصار والتابعون

رضى الله عنهم وقبل طاعتهم وتجاوز عن سيئاتهم ، وأعز بهم الاسلام كل ذلك بسبب أعمالهم ورضوا عنه لما وفقهم الى الخير ، وهداهم الى الحق وأفاض عليهم من النعم الدينية والدنيوية ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وذلك الفوز العظيم . (الواضح ج ١١ ص ٧ ، ٨ بتصرف)

٦ - وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (الآية ٢٥ من سورة يونس)

يقول ابن كثير :

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالايمان والعمل الصالح الحسنى فى الدار الآخرة كقوله تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) وقوله (وزيادة) هى تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر الى وجهه الكريم فانه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بأعمالهم بل بفضله ورحمته .

عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال (اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار - قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب اليهم من النظر اليه ولا أقر لأعينهم) رواه الامام أحمد .

حدثنا أبى بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : (الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله عز وجل وقوله تعالى « ولا يرهق وجوههم قتر » أى قتام وسواد فى عرصات المحشر كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة « ولا ذلة » أى هوان وصغار أى لا يحصل لهم اهانة فى الباطن ولا فى الظاهر بل هم كما قال تعالى فى حقهم « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » أى نضرة فى وجوههم وسرورا فى قلوبهم . جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

(ابن كثير ج ٢ ص ٤١٤ ، ٤١٥ بتصرف)

يقول القاسمى :

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أى للذين أحسنوا النظر وعرفوا مكر الدنيا والشهوات فأعرضوا عنها وتوجهوا الى الله تعالى فعبدوه كأنهم يرونه — المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وزيادة على المثوبة ، وهى التفضل . كما قال تعالى « ويزيدهم من فضله »وأعظم أنواعه النظر الى وجهه تعالى الكريم ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين ورفعها ابن جرير الى النبى صلوات الله عليه .

« ولا يرهق وجوههم قتر » أى لا يغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات « ولا ذلة » أى أثر هوان وكسوف بال ، من أثر الالتفات الى ما دون الله تعالى . قال الناصر : وفى تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة فان فيه تنبيها على اكرام وجوههم بالنظر الى وجه الله تعالى فجدير بهم ألا يرهق وجوههم قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ، عكس المحرومين المحجوبين ، فان وجوههم مرهقة بقتر الطرد ، وذلة البعد .

حدثنا أبي بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : (الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله عز وجل وقوله تعالى « ولا يرهق وجوههم قتر » أى قتام وسواد فى عرصات المحشر كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة « ولا ذلة » أى هوان وصغار أى لا يحصل لهم اهانة فى الباطن ولا فى الظاهر بل هم كما قال تعالى فى حقهم « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » أى نضرة فى وجوههم وسرورا فى قلوبهم . جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

(ابن كثير ج ٢ ص ٤١٤ ، ٤١٥ بتصرف)

يقول القاسمى :

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أى للذين أحسنوا النظر وعرفوا مكر الدنيا والشهوات فأعرضوا عنها وتوجهوا الى الله تعالى فعبدوه كأنهم يرونه — المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وزيادة على المثوبة ، وهى التفضل . كما قال تعالى « ويزيدهم من فضله »وأعظم أنواعه النظر الى وجهه تعالى الكريم ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين ورفعها ابن جرير الى النبى صلوات الله عليه .

« ولا يرهق وجوههم قتر » أى لا يغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات « ولا ذلة » أى أثر هوان وكسوف بال ، من أثر الالتفات الى ما دون الله تعالى . قال الناصر : وفى تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة فان فيه تنبيها على اكرام وجوههم بالنظر الى وجه الله تعالى فجدير بهم ألا يرهق وجوههم قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ، عكس المحرومين المحجوبين ، فان وجوههم مرهقة بقتر الطرد ، وذلة البعد .

وقوله تعالى «أولئك» أى الذين أحسنوا « أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

(القاسمى جـ ٩ ص ٣٣٤١ ، ٣٣٤٢ بتصرف)

ويقول المراغى :

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أى للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا المثوبة الحسنى أى التى تزيد فى الحسنى على احسانهم وهى مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر ، وجاء هذا المعنى فى قوله « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » أى ولهم زيادة على هذه الحسنى فوق ما يستحقون على أعمالهم بعد مضاعفتها . وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة هى النظر الى وجه الله الكريم وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحى الذى لا يصل اليه الا المحسنون العارفون فى الآخرة .

« ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة » .

أى ولا يغشى وجوههم شىء مما يغشى الكفرة من الغبرة التى فيها سواد ولا أثر هوان ولا كسوف بال .

« أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

أى أولئك الذين هذه صفتهم هم أصحاب الجنة وسكانها وهم ساكنون فيها أبدا فهى لا تبيد فيخاف زوال نعيمها ولا هم بمخرجين منها فتنغص عليهم لذاتهم .

(المراغى جـ ١١ ص ٩٥)

الأدلة من السنة :

• حقـا ان الاحسان يضاعف الأجر ويزيد فى الفضـل ويوقف صاحبه على ذرى الكرم من الله رب العالمين ، عفوا ومغفرة وتسـامحا وتجاوزا ثم قربا من رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

١ ـ عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان العبد اذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين » . متفق عليه
(رياض الصالحين ص ٤٩٥)

٢ ـ وعن جابر . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « ان من أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » رواه الترمذى .
(صحيح الترمذى جـ ٨ ص ١٨٤)

٣ ـ وعن حذيفة رضى الله عنـه قال : « أتى الله بعبد من عباده آتـاه الله مالا . فقـال له : ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال : ولا يكتمون الله حديثا . قال يا رب آتيتنى مالك . فكنت أبايـع النـاس وكان من خلقى الجواز . فكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى » . فقـال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصارى رضى الله عنهما : هكذا سـمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . رواه مسلم (رياض الصالحين ص ٤٩٨)

الأدلة من السنة :

• حقـا ان الاحسان يضاعف الأجر ويزيد فى الفضـل ويوقف صاحبه على ذرى الكرم من الله رب العالمين ، عفوا ومغفرة وتسـامحا وتجاوزا ثم قربا من رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة •

١ ـ عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان العبد اذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين » • متفق عليه

(رياض الصالحين ص ٤٩٥)

٢ ـ وعن جابر • أن رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال : « ان من أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » رواه الترمذى •

(صحيح الترمذى جـ ٨ ص ١٨٤)

٣ ـ وعن حذيفة رضى الله عنـه قال : « أتى الله بعبد من عباده آتـاه الله مالا • فقـال له : ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال : ولا يكتمون الله حديثا • قال يا رب آتيتنى مالك • فكنت أبايـع النـاس وكان من خلقى الجواز • فكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى » • فقـال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصارى رضى الله عنهما : هكذا سـمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » • رواه مسلم (رياض الصالحين ص ٤٩٨)

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٦٦ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

١٦ ربيع الثانى سنة ١٣٩٦ هـ ١٦ ابريل سنة ١٩٧٦ م

الصدق وأثره فى حياة الأمة (أ)

مقـدمة :

تمهيد : فى التعريف بالصدق .

العنـاصر :

الأول : الله أصدق الصادقين .

الثانى : الصدق من صفات الأنبياء والمقربين .

الثالث : دعوة الاسلام الى الصدق .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فان الاسلام منهج متكامل رفيع ورائد فذ فى قيادة البشر وهدايتهم ومنحهم غاية السعادة فى أنفسهم ومجتمعهم ، ثم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم وذلك بفضل ما جاءهم به من قدسية الحق وجلال الوسيلة وكفاية الفطرة والوفاء بالغاية فى كل جانب من جوانب الحياة ومجال من مجالات المجتمع .

ومن خير صور العطاء التى أهداها الاسلام ومنحها للبشر ما جاءهم به من كريم الأخلاق وعظيم الفضائل وباهر السجايا والخلال مما يمكن أن يعتبر منهجا أصيلا وافيا بالغرض فى بابه الذى هو فيه من حيث استيعابه لمختلف أنماط السلوك البشرى وشموله لحياة الناس واستغراقه لكل أغوار النفس الانسانية وأعماقها وشتى الخواطر الواردة عليها أو المنبعثة فيها .

والصدق فى طليعة الأخلاق التى جاءنا بها الاسلام وحبانا بها بل هو باب عظيم من أعظم أبوابها وأصل أصيل من أصولها وخلة من أهم الخلال وأبرزها .

ولقد بلغ من خطورة الصدق وجلال شأنه أن اتصف به الحق تبارك وتعالى فليس فى الوجود كله من هو أصدق من الله وعدا ولا حديثا ولا قولا ولا أدل على ذلك من كتابه الذى أوحى به الى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم . اذ هو آية الآيات على صدق الله عز وجل فى كل كلمه ولفظه ومعانيه وموضوعاته وأساليبه ووسائله وأهدافه وغاياته وسائر مجالاته وشتى شئون الحياة التى جاء يطبها ويعالجها ويرتفع بها .

كان القرآن فى ذلك جميعا آية الآيات على صدق الله عز وجل من حيث كونه كلام الله وقانونه الثابت الذى برهنت على صدقه مجريات الأحداث ومسيرة التاريخ فى الأفراد والأمم والشعوب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . (٤٢ فصلت)

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . (٨٢ النساء)
وهذا ما بيناه فى العنصر الأول .

وليس هناك من شىء أنفع من سياسة الأمم وتربية البشر واصلاح الشعوب وتقويم الفطر من القيادة الصالحة التى يسير الناس على نهجها .

واذا كان هذا أمرا لازما لهؤلاء وهم يقودون البشر أو يصلحون الشعوب من زاوية أو عدة زوايا فانه يصير أمرا محتوما لاغنى عنه وضروريا لا انفكاك منه بالنسبة للأنبياء والمرسلين وهم الصفوة المختارة المجتباه الذين حملهم الله أمانة الدين وامامة الدنيا وريادة الناس واصلاحهم فى كل جوانب حياتهم الفطرية والنفسية والخلقية والسلوكية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الحالية والمرتقبة فى الدنيا والآخرة .

وليس هناك من خلة تسبق خلة الصدق ولا من فضيلة تبز فضيلة فيما يجب أن يتصف به الأنبياء والمرسلون . ومن دار فى فلكهم وواكب مسيرتهم فى اصلاح الحياة والاحياء اذ الصدق أبرز الفضائل وأساسها بل وألزمها للشخصية القيادية وألصقها بها وأشدها صقلا لها وأكثرها جاذبية وتألقا وذلك باب عظيم من أبواب القيادة ومدخل حيوى من مداخل الشخصية القيادية المتكاملة .

لقد اتصف بهذه الفضيلة الكبرى جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فغدت فى حياتهم صفتهم البارزة وسمتهم الأصيل وشامتهم التى لا تفارقهم فى أى شأن من الشئون الخاصة والعامة ثم غدت فى حياة أممهم سرا من أسرار الجاذبية نحوهم وعاملا فى طليعة عوامل الدعوة التى كان لها أكبر الأثر فى

نجاحها وجمع البشر على طريقها بحيث أصبح الصدق أكبر الأدلة على الثقة فيهم والتسليم لهم والايمان بهم الأمر الذى حرص القرآن على تسجيله فى آياته الخالدة ثناء ومدحا لاعلام رسل الله وأنبيائه ومن سار على دربهم من صفوة البشرية ومقربيها الى الله عز وجل •

وهذا ما ضمناه العنصر الثانى •

من أجل ذلك كله جاء الاسلام يهتف بالصدق ويأمر به ويدعو اليه كفضيلة كبرى من أوليات الفضائل التى لا تصلح حياة البشر ولا تستقر الا بها ولا ينعمون الا فى رحاب الأخذ بها والتطبيق لها •

والحق أن أى شعب من الشعوب لاتصلح له حياة ولا يستقر له وضع الا اذا أخذ حياته بالصدق والتزم به فغدا سديدا فى عمله مصيبا فى قوله سويا فى تفكيره مستقيما فى سلوكه صادقا مع ربه ومع نفسه ومع غيره من الأمم والشعوب ، وهذا من غير شك اذا انطبعت عليه أخلاق أمة وحرصت عليه ، واعتصمت به فانه يقودها الى مقام البر كلمة الحق الجامعة لأطراف الخير وفنونه • فى النفس والفرد والمجتمع فى الدين والدنيا • ثم انه يتدرج بها درجة أعلى بحيث تصبح خير أمم الله التى يبوؤها الله شرف الدنيا وكرامة الآخرة فتكون من المفلحين •

أجل ـ ان الصدق دليل الخير ومطية البر وأمارة الحب وتلك أمور ما شاعت فى أمة الا تماسكت لبناتها وتضافرت جهودها وتعاطفت قلوبها فهيأها هذا لحب الله ورسوله ثم لرضوان الله ونعيمه واذا وصل قبيل من الناس بالصدق الى هذا المجد فلا عليه ما فاته من الدنيا اذ لامجد وراءه ولا خير فوقه •

لكل ذلك دعا الاسلام الى الصدق فجاءت دعوته دعوة كريمة الى بناء النفس المؤمنة وتكوين المجتمع الفاضل الذى يمضى سعيدا فى حياته راشدا الى غايته •

وهذا ما ألمحنا اليه فى العنصر الثالث •

ما أحوج المسلمين أن يأخذوا أنفسهم بفضائل الاسلام وأن يعيشوا بها واقعهم ليسعدوا بها فى حاضرهم وفى مستقبلهم •

ان المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية يسعده ـ وهو يقدم للقارىء الكريم هذه النشرة (أ) فى موضوع (الصـدق وأثره فى حياة الأمة) ـ أن يكون على وعد معه ليتبعها بنشرة أخرى تحت هذا العنوان .

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الصـادقين وأن يجعل عملنا خيرا من قولنا وأن يأخذ بنواصينا الى الحق والخير وأن يسـخرنا لدينه ويستخدمنا لطاعته والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية
بوزارة الاوقاف

تمهيد فى التعريف بالصدق .

معنى الصدق :

الصدق : نقيض الكذب ، وصدقه الحديث : أنبأه بالصدق . ويقال صدقت القول : أى قلت لهم صدقا . وصدقنى فلان : أى قال لى الصدق . ورجل صدوق : أبلغ من الصادق . والمصدق : الذى يصدقك فى حديثك .

والصديق : الدائم التصديق : ويكون الذى يصدق قوله بالعمل وهو المصدق ، أو المبالغ فى الصدق .

والصديق أيضا : الكثير الصدق ، وهو من صدق فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله .

(الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٤٤٨ ، لسان العرب جـ ١٠ ص ١٩٣ ، ١٩٤ بتصرف)

والصدق : مطابقة الخبر للمخبر عنه وللضمير ، والكذب بخلافه .

(شرح رياض الصالحين للامام النووى . شرحه وحققه الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم جـ ١ ص ١٤٥)

والصادق : الاسم اللازم من الصدق . وهو من صدق فى أقواله . وقال ابراهيم الخواص : الصادق لاتراه الا فى فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه .

وأقل الصدق : استواء السر والعلانية ، وقال الجنيد : « حقيقة الصدق أن تصدق فى موطن لا ينجيك منه الا الكذب » .

وسئل الحارث المحاسبى عن علامة الصدق فقال : الصادق هو الذى لايبالى لو خرج كل قدر له فى قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه . ولايحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس على السىء من عمله ، فان كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصديقين .

(الرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى ج ٢ ص ٤٤٨ — ٤٥٢ بتصرف)

وقال العلامة ابن أبى شريف فى حواشى شرح العقائد : الصدق استعمله الصوفية : بمعنى استواء السر والعلانية والظاهر والباطن بألا تكذب أحوال العبد أعماله ولا أعماله أحواله ، وجعلوا الاخلاص لازما أعم فقالوا كل صادق مخلص وليس كل مخلص صادقا .

وسئل الجنيد أهما واحد أم بينهما فرق ؟ فقال : بينهما فرق ، الصدق أصل والاخلاص فرع ، والصدق اصل كل شىء والاخلاص لايكون الا بعد الدخول فى الأعمال ، والأعمال لاتكون مقبولة الا بهما .

(دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لمحمد بن علان جـ ١ ص ٢٥٠)

وقد قسم الامام الغزالى الصدق على الوجه الآتى :

الصدق الأول : صدق اللسان ، وذلك لايكون الا فى الأخبار أو فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه ، والخبر اما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم الا بالصدق . وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الأشياء على خلاف ما عليه فهو صادق .

الصدق الثانى : فى النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لايكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله تعالى ، فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا ، وذلك فى حديث « حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى : كذبت بل أردت يقال فلان عالم » فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ، ولكنه كذبه فى ارادته ونيته ، وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد فى القصد وكذلك قول الله تعالى : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » وقد قالوا : « انك لرسول الله » وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال ، اذ صاحبه

يظهر من نفسه أن يعتقد مايقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما فى قلبه فانه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجح أحد معانى الصدق الى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق لا بد أن يكون مخلصا .

الصدق الثالث : صدق العزم فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه : ان رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره أو ان لقيت عدوا فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وان قتلت . وان أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه . وهى عزيمة جازمة صادقة وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة فكان الصدق هاهنا عبارة عن القوة . كما يقال لفلان شهوة صادقة . ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهمالم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد بهذا المعنى ، والصادق والصديق : هو الذى تصادق عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولاتردد ، بل تسخر نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات .

الصدق الرابع : فى الوفاء بالعزم . فان النفس قد تسخر بالعزم فى الحال اذ لا مشقة فى الوعد والعزم المؤنة فيه خفيفة ، فاذا حقت الحقائق وحصل التمكين وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه .

الصدق الخامس : وهو أعلى الدرجات وأعزها . الصدق فى مقامات الدين كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فان هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها . واذا غلب الشىء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هى الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » الى قوله « أولئك هم الصادقون » وقال تعالى « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر « الى قوله « أولئك الذين صدقوا » .

(احياء علوم الدين . للامام أبى حامد الغزالى جـ ٤ ص ٣٨٨ ـ ٣٩١ بتصرف)

العنصر الأول

الله أصـــدق الصـــادقين

الأدلة من الكتاب :

ليس هناك من هو أصدق من الله تبارك وتعالى قولا ، ذلك لأن الصدق كمال من الكمالات التى تليق بذاته المقدسة ، فاذا قال الله فقوله الحق وكلمه الصدق ؛ سبحانه تنزه عن الزور والكذب والبهتان والباطل فى كل كلم وقول وفعل •.وكذلك فى كل ماشرع الحق تبارك وتعالى من أمره ونهيه مما يتعلق بالدين والدنيا والآخرة • وسما له علاقة بالحياة أو الأحياء فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم •

١ ــ قال الله تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم » • (سورة الأنعام : ١١٥).

يقول الامام الفخر الرازى فى تفسيره :

« اعلم أن هذه الآية تدل على أن كلمة الله تعالى موصوفة بصفات كثيرة » •

فالصفة الأولى • كونها تامة واليه الاشـارة بقوله : « تمت كلمة ربك » وفى تفسير هذا التمام وجوه •

الأول : أنهـا كافية وافيـة بكونها معجـزة دالة على صـدق محمد عليـه الصـلاة والسـلام •

والثانى : أنها كافية فى بيان مايحتاج المكلفون اليه الى قيام القيامة عملا وعلما •

والثالث : أن حكم الله تعالى هو الذى حصل فى الأزل ولايحدث بعد ذلك شيء فذلك الذى حصل فى الأزل هو التمام والزيادة عليه ممتنعة وهذا الوجه هو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة •

الصفة الثانية • من صفات كلمة الله : كونها صـدقا والدليل عليه أن الكذب نقص والنقص على الله محال • ولايجوز اثبات أن الكذب على الله محال بالدلائل السمعية لأن صحة الدلائل السمعية موقوفة على أن الكذب على الله محال • فلو

أثبتنا امتناع الكذب على الله بالدلائل السمعية لزم الدور وهو باطل . واعلم أن هذا الكلام كما يدل على أن الخلف فى وعد الله تعالى محال فهو أيضا يدل على أن الخلف فى وعيده محال بخلاف ما قاله الواحدى فى تفسير قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) .

ان الخلف فى وعيد الله جائز . وذلك لأن وعد الله ووعيده كلمة الله فلما دلت هذه الآية على أن كلمة الله يجب كونها موصوفة بالصدق علم أن الخلف كما أنه ممتنع فى الوعد فكذلك ممتنع فى الوعيد .

الصفة الثالثة . من صفات كلمات الله كونها عدلا ، وفيه وجهان :

الأول : ان كل ما حصل فى القرآن نوعان : الخبر والتكليف . أما الخبر فالمراد كل ما أخبر الله عن وجوده أو عن عدمه ويدخل فيه الخبر عن وجود ذات الله تعالى وعن حصول صفاته . أعنى كونه تعالى عالما قادرا سميعا بصيرا ويدخل فيه الاخبار عن صفات التقديس والتنزيه كقوله : « لم يلد ولم يولد » وكقوله : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ويدخل فيه الخبر عن أقسام أفعال الله وكيفية تدبيره لملكوت السموات والأرض وعالمى الأرواح والأجسام . ويدخل فيه كل أمر عن أحكام الله تعالى فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب ويدخل فيه الخبر عن أحوال المتقدمين والخبر عن الغيوب المستقبلة فكل هذه الأقسام داخلة تحت الخبر .

وأما التكليف فيدخل فيه كل أمر ونهى توجه منه سبحانه على عبده سواء كان ذلك العبد ملكا أو بشرا أو جنيا أو شيطانا وسواء كان ذلك فى شرعنا أو شرائع الأنبياء عليهم السلام المتقدمين . واذا عرف انحصار مباحث القرآن فى هذين القسمين فنقول : قال تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا » ان كان من باب الخبر « وعدلا » ان كان من باب التكليف . وهذا ضبط فى غاية الحسن .

القول الثانى . فى تفسير قوله « وعدلا » أن كل ما أخبر الله تعالى عنه من وعد ووعيد وثواب وعقاب فهو صدق . لأنه لابد أن يكون واقعا وهو بعد وقوعه عدل . لأن أفعاله منزهة عن أن تكون موصوفة بظلم .

الصفة الرابعة • من صفات كلمة الله قوله : « لامبدل لكلماته » وقد بينا أن المراد من قوله : « وتمت كلمة ربك » أنها تامة فى كونها معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم • ثم قال : « لامبدل لكلماته » والمعنى أن هؤلاء الكفار يلقون الشبهات فى كونها دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام الا أن تلك الشبهات لا تأثير لها فى هذه الدلائل التى لاتقبل التبديل البتة لأن تلك الدلائل ظاهرة باقية جلية قوية لا تزول بسبب ترهات الكفار وشبهات أولئك الجهال • (التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ١٣ ص ١٦٠ ــ ١٦٢ بتصرف).

ويقول القاسمى فى تفسيره :

« وتمت كلمة ربك » وقرىء « كلمات ربك » أى بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده « صدقا » فى الأخبار والمواعيد « وعدلا » فى الأقضية والأحكام •

وقال القاشانى : « أى تم قضاؤه تعالى فى الأزل بما قضى وقدر من اسلام من أسلم وكفر من كفر ومحبة من أحب وعداوة من عادى • قضاء مبرما وحكما صادقا مطابقا لما يقع عادلا بمناسبة كل قول وكل كمال وحال لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له » انتهى •

« لا مبدل لكلماته » أى لا أحد يبدل شيئا منها بما هوأصدق وأعدل أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعا ذائعا • كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن فيكون ضمانا لها منه تعالى بالحفظ كقوله تعالى « وانا له لحافظون » •

(محاسن التأويل • لمحمد جمال الدين القاسمى ج ٦ ص ٢٤٧٥ ، ٢٤٧٦).

ويقول المراغى فى تفسيره :

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا » المعنى وتمت كلمة ربك فيما وعدك به من نصرك وأوعد به المستهزئين بالقرآن من الخذلان والهلاك ، كما تمت فى الرسل وأعدائهم من قبلك ؛ كما قال « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون » •

وتمامها صدقا هو حصولها على الوجه الذى أخبر به ، وتمامها عدلا باعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون وللمؤمنين بما يستحقون أيضا وقد يزادون على ذلك فضلا من الله ورحمة .

« لامبدل لكلماته » أى ان كلمة الله فى نصرك وخذلان أعدائك قد تمت وأصبحت واقعة نافذة حتما لا مرد لها ، لأن كلمات الله لا مبدل لها ، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يزيلها بكلمات أخرى تخالفها وتمنع صدقها على من وردت فيهم كأن يجعل الوعد وعيدا أو الوعيد وعدا . أو يصرفهما عن الموعود بالثواب أو الموعد بالعقاب الى غيرهما أو يحول دون وقوعهما .

والخلاصة : انه لا مغير لما أخبر عنه من خبر أنه كائن فيبطل مجيئه وكونه على ما أخبر جل ثناؤه .

« وهو السميع العليم » أى انه تعالى سميع لتلك الأقوال الخادعة عنهم . عليم بما فى قلوبهم من المقاصد والنيات وبما يقترفون من الذنوب والسيئات .
(تفسير المراغى جـ ٨ ص ١٠ ، ١١)

٢ ـ وقال تعالى : « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . (سورة آل عمران : ٩٥)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

« قل صدق الله » أى قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه فى القرآن « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » أى اتبعوا ملة ابراهيم التى شرعها الله فى القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . فانه الحق الذى لا شك فيه ولا مرية ، وهى الطريقة التى لم يأت نبى بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم . (تفسير القرآن العظيم للامام أبى الفداء اسماعيل بن كثير جـ ١ ص ٣٨٢)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« قل صدق الله » فيما أنبأنى به من أن سائر الأطعمة كانت حلالا لبنى اسرائيل وأنها انما حرمت على اليهود جزاء أفعالهم القبيحة وبذا قامت عليكم الحجة وثبت أنى مبلغ عنه اذ ما كان فى استطاعتى لولا الوحى ان أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون عن أنبيائكم .

« فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » أى واذ قد استبان لكم أن ما يدعوكم اليه محمد صلى الله عليه وسلم هو من ملة ابراهيم فعليكم أن تتبعوه فى استباحة أكل لحوم الابل وألبانها وملته حنيفية سمحاء لا افراط فيها ولا تفريط .

« وما كان من المشركين » الذين يدعون مع الله الها آخر أو يعبدون سواه .
(تفسير المراغى جـ ٤ ص ٦)

٣ — ويقول الله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا »
(سورة النساء : ١٢٢)

يقول الطبرى فى تفسيره :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات » أى الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا له بالوحدانية ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة « وعملوا الصالحات » أى أدوا فرائض الله التى فرضها عليهم .

« سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى سوف ندخلهم يوم القيامة اذا صاروا الى الله جزاء بما عملوا فى الدنيا من الصالحات « جنات » يعنى بساتين « تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا » أى باقين فى هذه الجنات التى وصفها أبدا دائما .

وقوله « وعد الله حقا » يعنى عــدة من الله لهم . ذلك فى الدنيا « حقا » أى يقينا صادقا . لا كعدة الشيطان الكاذبة التى هى غرور من وعدها من أوليائه . ولكن عدة ممن لا يكذب ، ولا يكون منه الكذب ، ولا يخلف وعده .

ثم قال لهم جل ثناؤه « ومن أصدق من الله قيلا » أى ومن أصدق أيها الناس من الله قيلا . أى لا أحد أصــدق منه قيلا . فكيف تتركون العمل بما وعدكم على العمل به ربكم جنات تجرى من تحتهــا الأنهار خالدين فيهــا أبدا ، وتكفرون به وتخالفون أمره . وأنتم تعلمون أنه لا أحد أصدق منه قيلا . وتعملون بما يأمركم به الشيطان رجاء لادراك ما يعدكم من عداته الكاذبة ، وأمانيه الباطلة وقد علمتم أن عداته غرور لاصحة لها ولا حقيقة . وتتخذونه وليا من دون الله وتتركون أن تطيعوا الله فيما يأمركم به وينهاكم عنه فتكونوا له أولياء .

(تفسير الامام ابن جرير الطبرى جـ ٥ ص ١٨٤ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« وعد الله حقــا ومن أصدق من الله قيلا » أى ذلك الذى وعدكم الله به هو الوعد الحق . فهو القادر على أن يعطى ما وعد بفضله وجوده وواسع كرمه ورحمته وأما ما وعد الشيطان فهو غرور من القول وزورا ، اذ هو عاجز عن الوفاء فهو يدلى الى أوليائه بباطله فحقه أن لا يستجاب له أمر أو نهى ، ولا تتبع له نصيحة فوساوسه أباطيل وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا .

(تفسير المراغى جـ ٥ ص ١٦٢ ، ١٦٣ بتصرف)

٤ ــ ويقول الله تعالى : « الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه ومن أصدق من الله حديثا » . (سورة النساء : ٨٧)

يقول الطبرى فى تفسيره :

« الله لا اله الا هو ليجمعنكم » يعنى المعبود الذى لا تنبغى العبودية الا له هو الذى له عبادة كل شىء وطاعة كل طائع . وقوله : « ليجمعنكم الى يوم القيامة » أى ليبعثنكم من بعد مماتكم وليحشرنكم جميعا الى موقف الحساب الذى يجازى الناس فيه بأعمالهم ويقضى فيه بين أهل طاعته ومعصيته وأهل الايمان والكفر .

« لاريب فيه » أى لاشك فى حقيقة ما أقول لكم من ذلك وأخبركم من خبرى أى جامعكم الى يوم القيامة بعد مماتكم .

« ومن أصدق من الله حديثا » يعنى بذلك واعلموا حقيقة ما أخبركم من الخبر فانى جامعكم الى يوم القيامة للجزاء والعرض والحساب والثواب والعقاب . يقينا فلا تشكوا فى صحته ولا تمتروا فى خقيقته فان قولى الصــدق الذى لا كُذب فيه ووعدى الصدق الذي لا خلف له .

ومن أصدق من الله حديثا ، أى وأى ناطق أصــدق من الله حديثا . وذلك أن الكاذب انما يكذب ليجتلب بكذبه انى نفسه نفعا ، ويدفع به عنها ضرا .والله تعالى جل ذكره خالق الضر والنفع ، فغير جائز أن يكون منــه كذب ، لأنه لا يدعوه الى اجتلاب نفع الى نفســه أو دفع ضر عنها ســواه تعالى ذكره . فيجوز أن يكون له فى استحالة الكذب منه نظيرا . ومن أصدق من الله حديثا .
(تفسير الامام ابن جرير الطبرى جـ ٥ ص ١٢٠ ، ١٢١ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

الله لا اله الا هو فلا تقصروا فى عبادته والخضــوع لأمره ونهيه ، فان فى ذلك ســعادتكم واتقاء أرواحكم وعقولكم ، وتحريركم من رق العَبودية لأمثــالكم من البشر ، بل من دونهم من المعبودات التى ذل لها المشركون . وهو سبحانه سيجمعكم ويحشركم الى يوم القيامة ، وهو يوم لا ريب فيه ولا فيما يكون فيــه من الجزاء على الأعمال .

« ومن أصدق من الله حديثا » أى لا أحد أصدق منه عز وجل . اذ كلامه تعالى عن علم محيط بسائر الكائنات كما قال تعالى : « لا يضل ربى ولا ينسى » فلا يمكن أن يكون خبره غير صــادق بسبب النقص فى العلم أو الغرض أو الحاجة لأنه تعالى غنى عن العالمين . أما كلام غيره فهو محتمل للصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن سهو وجهل . (تفسير المراغى جـ ٥ ص ١١٢)

الأدلة من السنة :

ولما كان الصدق كمالا من كمالات الحق تبارك وتعالى وصفة من صفاته التى يجب على المسلمين أن يعوها ويؤمنوا بها فلقد حرصت السنة النبوية المطهرة على تبيانها والحديث عنها من زواياها المختلفة التى تبين صدق الله تعالى فى صفاته وأفعاله وأقواله وحديثه وسائر ماأنزل الله من الكتب والرسالات والشرائع ، ثم فى كل ما يصدر عنه سبحانه من أمر ونهى ووعد ووعيد .

١ — عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فان أصدق الحديث كتاب الله وان أصدق الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » رواه أحمد ومسلم . (الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد جـ ٢١ ص ٢٦٦)

٢ — وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « قال رسول الله يوم فتح مكة وهو على درج الكعبة الحمد الله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .. » . رواه أحمد . (المصدر السابق جـ ٢١ ص ١٦١)

٣ — وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قام الى الصلاة من جوف الليل يقول : « اللهم لك الحمد . أنت نور السموات والارض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيام السموات والارض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق .. » . رواه الشيخان ومالك . (المصدر السابق جـ ١ ص ٤٤)

٤ — وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه اياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى . وليس أول الخلق بأهون على من اعادته . وأما شتمه اياى فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفأ أحد » . رواه البخارى .

(صحيح أبى عبد الله البخارى بشرح الكرمانى جـ ١٨ ص ٢١٧)

العنصر الثانى

الصدق من صفات الأنبياء والمقربين

الأدلة من الكتاب :

الصـــدق أبرز الفضائل الكبرى التى ينبثق عنها كثير من خلال الخير وفضائل الأخلاق وتقود اليها ، وهو من أهم الفضائل فى تكوين النفس السوية وبنائها ثم هو من ألزم الخلال فى اعداد الشخصية القيادية وتأهيلها لتكون جديرة بما سيوضع بين يديها من أمانات القيادة والامامة •

ثم هو سر أصيل من أسرار الجاذبية التى تشد الأواصر بين القائد وتابعيه •
من أجل هذا كله كان الصدق فى طليعة الصفات التى تقضى الضرورة أن يتصف بها الأنبياء والمرسلون ومن حذا حذوهم أو تبعهم باحسان الى يوم الدين •

١ — قال الله تعالى : « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » •
(سورة مريم : ٤١).

يقول الطبرى فى تفسيره :

واذكر يامحمد فى كتاب الله خليل الرحمن فاقصص قصصـــه وقصص أبيه انه كان صديقا أى من أهل الصدق فى حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب •
(تفسير الطبرى ج ١٦ ص ٦٧ بتصرف)

ويقول الألوسى فى تفسيره :

« انه كان صديقا » أى ملازم الصـــدق فلم يكذب قط « نبيا » اســـتنبأه الله تعالى أى كان جامعا بين الوصفين • ولعل هذا الترتيب للمبالغـــة فى الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة • فان كل نبى صديق • وقيل الصديق من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله •

وفى الكشاف : الصديق من أبنية المبالغة والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله وكان الرجحان والغلبة فى هذا التصديق للكتب والرسل أى كان مصدقا بجميع الأنبياء وكتبهم وكان نبيا فى نفسه كقوله تعالى « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » أو كان بليغا فى الصدق لأن ملاك أمر النبوة الصدق ومصدق الله تعالى بآياته ومعجزاته حرى أن يكون كذلك

(روح المعانى للعلامة الألوسي جـ ٥ ص ١٧٩ ، ١٨٠ بتصرف)

ويقول الفخر الرازى فى تفسيره :

قال تعالى فى وصف ابراهيم عليه السلام : « انه كان صديقا نبيا » وفى الصدق قولان « أحدهما » أنه مبالغة فى كونه صادقا وهو الذى يكون عادته الصدق لأن هذا البناء ينبىء عن ذلك يقال رجل خمير وسكير للمولع بهذه الأفعال .

« والثانى » أنه الذى يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورا به . والأول أولى وذلك لأن المصدق بالشىء لا يوصف بكونه صديقا الا اذا كان صادقا فى ذلك التصديق فيعود الأمر الى الأول .

فان قيل : أليس قد قال تعالى : « واالذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء » قلنا : المؤمنون بالله ورسله صادقون فى ذلك التصديق واعلم أن النبى يجب أن يكون صادقا فى كل ما أخبر عنه لأن الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق والا لزم الكذب فى كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقا فى كل ما يقول . ولأن الرسل شهداء على الناس على ما قال الله تعالى : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » والشهيد انما يقبل قوله اذا لم يكن كاذبا .

فان قيل : فما قولكم فى ابراهيم عليه السلام فى قوله : « بل فعله كبيرهم » « وانى سقيم » قلنا : فى تأويل الآية الأولى عند كافة المحققين أن شيئا من ذلك ليس بكذب للوجوه الآتية :

احدها : أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريض يبلغ به غرضه والزامهم الحجة وتبكيتهم • وهذا كما لو قال لك صاحبك : وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة : فقلت له بل كتبته أنت • كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع استهزاء به لا نفيه عنك واثباته للأمى أو المخرمش لأن اثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به واثبات للقادر •

وثانيها : أن ابراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل اليه لأنه السبب فى استهانته بها وحطمه لها والفعل لما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه •

وثالثها : أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على هذا وأشد منه وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف •

وأيضا فى الآية الثانية نقول أن شيئا فيها ليس بكذب لوجوه منها :

الأول : أنه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار ، وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة •

وقال : « انى سقيم » فجعله عذرا فى تخلفه عن العيد الذى لهم ، وكان صادقا فيما قال ، لأن السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت ، وانما تخلف لأجل تكسير أصنامهم •

الثانى : أن قوله « انى سقيم » أى مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك ، قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « لعلك باخع نفسك » •

الثالث : أن المراد من قوله : « فنظر نظرة فى النجوم » أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فان الأشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال : انها منجمة أى متفرقة. ومنها نجوم الكتابة ، والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذر أحسن من قوله: « انى سقيم » والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيما ، كما يقول لمن رايته على أوقات السفر : انك مسافر ، واعلم أن ابراهيم عليه السلام لما قال : انى سقيم تولوا عنه معرضين ، فتركوه وعذروه فى أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده . اهـ .

وأما النبى فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس وأى رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده .

وقوله : « كان صديقا » قيل : انه صار وقيل : ان معناه وجد صديقا نبيا . أى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة .

(التفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٢٢٣ ، جـ ٢٢ ص ١٨٥ ، جـ ٢٦ ص ١٤٧ ، ١٤٨ بتصرف) .

٢ ــ وقال تعالى : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » . (سورة مريم ٥٤) .

يقول القرطبى فى تفسيره :

« واذكر فى الكتاب اسماعيل » أبو العرب ابن ابراهيم . وخصه الله تعالى بصدق الوعد وان كان موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له واكراما ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ، ولأنه المشهور المتواصف من خلاله .

وصدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضده وهو الخلف مذموم ، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين .

وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل • فوصفه بصدق الوعد • واختلف فى ذلك فقيل : انه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى • وقيل : وعد رجلا أن يلقاه فى موضع فجاء اسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان فى اليوم الآخر جاء ، فقال له : ما زلت ها هنا فى انتظارك منذ أمس • وقيل : انتظره ثلاثة أيام •

وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثه • عن عبد الله بن أبى الحسماء قال : « بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه فى مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئت فاذا هو فى مكانه ، فقال يا فتى لقد شققت على أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك » •
(خرجه الترمذى وأبو داود واللفظ له)

وقد قيل : ان اسماعيل لم يعد شيئا الا وفى به • وهذا قول صحيح ، وهو الذى يقتضيه ظاهر الآية •

والعرب تمتدح بالوفاء وتذم بالخلف والغدر •• ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر ، وعلى الخلف الذم ، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده ووفى بنذره ، وكفى بهذا مدحا وثناء وبما خالفه ذما •
(الجامع لأحكام القرآن • لأبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى ج ١١ ص ١١٤ — ١١٦ بتصرف) •
ويقول المراغى فى تفسيره :

« واذكر فى الكتاب اسماعيل » أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم اسماعيل علهم يهتدون بهديه ويحتذون حذوه ، ويتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل منها •

« انه كان صادق الوعد » فما وعد عدة الا وفى بها حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال : « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » فصدق فى ذلك ووفى بما قال وامتثل حتى جاءه الفداء •

وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل • فوصفه بصدق الوعد • واختلف فى ذلك فقيل : انه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى • وقيل : وعد رجلا أن يلقاه فى موضع فجاء اسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان فى اليوم الآخر جاء ، فقال له : ما زلت ها هنا فى انتظارك منذ أمس • وقيل : انتظره ثلاثة أيام •

وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثه • عن عبد الله بن أبى الحسماء قال : « بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه فى مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئت فاذا هو فى مكانه ، فقال يا فتى لقد شققت على أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك » •
(خرجه الترمذى وأبو داود واللفظ له)

وقد قيل : ان اسماعيل لم يعد شيئا الا وفى به • وهذا قول صحيح ، وهو الذى يقتضيه ظاهر الآية •

والعرب تمتدح بالوفاء وتذم بالخلف والغدر •• ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر ، وعلى الخلف الذم ، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده ووفى بنذره ، وكفى بهذا مدحا وثناء وبما خالفه ذما •
(الجامع لأحكام القرآن • لأبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى ج ١١ ص ١١٤ — ١١٦ بتصرف) •
ويقول المراغى فى تفسيره :

« واذكر فى الكتاب اسماعيل » أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم اسماعيل علهم يهتدون بهديه ويحتذون حذوة ، ويتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل سنها •

« انه كان صادق الوعد » فما وعد عدة الا وفى بها حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال : « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » فصدق فى ذلك ووفى بما قال وامتثل حتى جاءه الفداء •

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين وشدد فيها أيما تشديد فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » وقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان » . (تفسير المراغى جـ ١٦ ص ٦٢) .

٣ ــ وقال تعالى : « واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا » .
(سورة مريم : ٥٦)

يقول الطبرى فى تفسيره :

« واذكر يا محمد فى كتابنا هذا ادريس انه كان صديقا لا يقول الكذب نبيا نوحى اليه من أمرنا ما نشاء » .

(جامع البيان فى تفسير القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى جـ ١٦ ص ٧٢)

وقال العلامة أبو السعود فى تفسيره :

« انه كان صديقا » ملازما للصـدق فى جميع أحواله « نبيا » خبر آخر لكان مخصص للأول اذ ليس كل صديق نبيا » . (تفسير أبى السعود جـ ٣ ص ٢٨٥) .

٤ ــ وقال تعالى : « يوسف أيها الصديق أفتنا فى سـبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » .
(سورة يوسف : ٤٦)

يقول صاحب المنار :

« يوسف أيها الصديق » أى قال ــ الساقى الذى نجا ــ أرسلونى اليه فأرسلوه اليه ، فجاءه فاسـتفتاه فيمـا عجز عنه الملأ من تأويل رؤيا الملك مناديا له باسـمه وما ثبت عنه من لقبه (الصـديق) وهو الذى بلغ غاية الكمال بالصدق فى الأقوال والأفعال وتأويل الأحاديث وتعبير الاحلام . (تفسير المنار جـ ١٢ ص ٣١٨ بتصرف)

ويقول القاسمى فى تفسيره :

ووصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما ذاق أحواله وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول لكونه بصدد اغتنام معارفه فهو من براعة الاستهلال . (تفسير محاسن التأويل للقاسمى ج ٩ ص ٣٥٤٧) .

ويقول الفخر الرازى فى تفسيره :

« يوسف أيها الصديق » وصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذبا ، وقيل : لأنه صدق فى تعبير رؤياه ، وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالاجلال .
(التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ١٨ ص ١٤٩)

وقال القرطبى فى تفسيره :

« وسأله عن رؤيا الملك .. « لعلى أرجع الى الناس » أى الى الملك وأصحابه « لعلهم يعلمون » مكانك من الفضل والعلم فتخرج : أى من السجن » .
(تفسير القرطبى ج ٩ ص ٢٠٢)

٥ ــ وقال تعالى : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .
(سورة المائدة : ٧٥)

يقول الألوسى فى تفسيره :

« وأمه صديقة » أى وما أمه ــ يعنى مريم ــ أيضا الا كسائر النساء اللواتى يلازمن الصدق أو التصديق ويبالغن فى الاتصاف به ، والمراد بالصدق هنا صدق حالها مع الله تعالى ، وقيل صدقها فى براءتها مما رمتها به اليهود . والمراد بالتصديق تصديقها بما حكى الله تعالى عنها بقوله سبحانه « وصدقت بكلمات ربها وكتبه » وروى هذا عن الحسن واختاره الجبائى ، وقيل تصديقها بالأنبياء ، والصيغة كيفما كان للمبالغة . (روح المعانى للألوسى ج ٢ ص ٣٦١) .

ويقول القاسمى فى تفسيره :

« وأمه صـديقة » أى مبالغة فى الصدق ، والوصف بذلك مشـعر بالاغراق فى العبودية والقيام بمراسبمها .

قال العارف القاشانى قدس الله سره فى « لطائف الأعلام » .

الصـديق : الكثير الصـدق ، كما يقال : سـكيت وصريع اذا كثر منه ذلك والصديق من الناس : من كان كاملا فى تصديقه لما جاءت به رسل الله علمـا وعملا قولا وفعلا ، وليس يعلو على مقام الصـديقية الا مقام النبوة . قال الله تعـالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم ... الآية . فلم يجعـل تعـالى بين مرتبتى النبوة والصديقية مرتبة أخرى تتخللهما .

ثم بين قدس سره صدق الأقوال وصـدق الأفعال وصدق الأحوال (فصـدق الأقوال) هو موافقة الضمير للنطق ، قال الجنيد : حقيقة الصدق ، أن تصدق فى موطن لا ينجيك فيـه الا الكذب ، (وصـدق الأفعال) : هو الوفاء لله بالعمـل من غير مداهنة . قال المحاسبى : الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قدر له فى قلوب الخلق من أجل اصلاح قلبه ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله. ولا يكره أن يطلع الناس على السىء من حاله لأن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصديقين ، (وصدق الأحوال) اجتماع الهم على الحق بحيث لا يختلج فى القلب تفرقة عن الحق بوجه .
(محاسن التأويل للقاسمى جـ ٦ ص ٢١٠١ ـ ٢١٠٣ بتصرف)

الأدلة من السنة :

لقد كان ضروريا أن يكون الصدق طليعة الصفات الكبرى التى يجب أن يتصف بها الأنبياء والمرسلون ومن نهج نهجهم من المصلحين والمقربين .

ولقد كان على رأس من اتصف بها من هؤلاء الصفوة خاتمهم وقدوتهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث شهد بذلك أعداؤه وخصومه ومخالفوه ، وأصبح ذلك مسجلا عليهم لا سبيل الى جحوده أو انكاره ، والفضل ما شهدت به الأعداء ٠

كما شهد بذلك أولياؤه ومحبوه والمؤمنون به ، وحسبك بشهادة جبريل أمين الوحى خير دليل على ذلك ٠

١ — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انى لا أقول الا حقا » قال بعض أصحابه فانك تداعبنا يا رسول الله فقال : « انى لا أقول الا حقا » ٠ رواه أحمد ٠
(الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد ج ٢١ ص ٣٨)

٢ — وعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام ٠ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ٠ فعجبنا له يسأله ويصدقه ٠ قال فأخبرنى عن الايمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت ٠٠ » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى ٠
(الدين الخالص ٠ للشيخ محمود خطاب السبكى ج ١ ص ٩ ، ١٠)

٣ — وعن ابن عباس ٠ أن النبى صلى الله عليه وسلم ، خرج الى البطحاء فصعد الجبل فنادى ياصباحاه (١) فاجتمعت اليه قريش ، فقال : أرأيتم ان حدثتكم أن

---

(١) قال : فى النهاية هذه كلمة يقولها المستغيث ٠ وأصلها اذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ٠ فكأن القائل : ياصباحاه يقول : قد غشينا العدو ٠

ولقد كان على رأس من اتصف بها من هؤلاء الصفوة خاتمهم وقدوتهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث شهد بذلك أعداؤه وخصومه ومخالفوه ، وأصبح ذلك مسجلا عليهم لا سبيل الى جحوده أو انكاره ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

كما شهد بذلك أولياؤه ومحبوه والمؤمنون به ، وحسبك بشهادة جبريل أمين الوحى خير دليل على ذلك .

١ — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انى لا أقول الا حقا » قال بعض أصحابه فانك تداعبنا يا رسول الله فقال : « انى لا أقول الا حقا » . رواه أحمد .

(الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد ج ٢١ ص ٣٨)

٢ — وعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال فأخبرنى عن الايمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت .. » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى .

(الدين الخالص . للشيخ محمود خطاب السبكى ج ١ ص ٩ ، ١٠)

٣ — وعن ابن عباس . أن النبى صلى الله عليه وسلم ، خرج الى البطحاء فصعد الجبل فنادى ياصباحاه (١) فاجتمعت اليه قريش ، فقال : أرأيتم ان حدثتكم أن

---

(١) قال : فى النهاية هذه كلمة يقولها المستغيث . وأصلها اذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمون يوم الغارة يوم الصباح . فكأن القائل : ياصباحاه يقول : قد غشينا العدو .

العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب ، ألهذا جمعتنا تبالك ، فأنزل الله عز وجل : « تبت يدا أبى لهب .. الى آخرها » رواه البخارى ، وغيره .

(صحيح أبى عبد الله البخارى بشرح الكرمانى ج١٨ ص٢١٦) الفتح الربانى للامام أحمد جـ ١٨ ص ٣٤٢)

الآثار :

لقد كان الصدق آية الله البارزة فى شخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت سرا كبيرا من أسرار جاذبية القلوب اليه والنفوس من حوله . أحبه الصديق واحترمه العدو .

شهد له بذلك أعداؤه وخصـومه وأولياؤه ومحبوه على السواء . الأقارب ، والأجانب ، فتبوأ المكانة العالية والمنزلة الرفيعة .

١ ـ قالت السـيدة خديجة للنبى صلى الله عليه وسلم ، ياابن عم : انى رغبت فيك لقرابتك وسطتك (١) وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها . فكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(سيرة النبى لابن هشام جـ ١ ص ١٢٢ بتصرف) .

٢ ـ وعن ابن شهاب قال حدثنى عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أن السيدة خديجة رضى الله عنها قالت لرسـول الله صلى الله عليه وسلم (... أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . والله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعـدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق) .
(صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١) .

---

(١) يقال هم (أسـاطين الزمان) أى حكماؤه وأفراده . وعليـه فسـطتك : أى حكمتك .

٣ — وعن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى قيصر يدعوه للاسلام وبعث بكتابه مع دحية الكلبى وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر فقال حين قرأه التمسوا لى رجلا من قومه اسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس فأخبرنى أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام فى رجال من قريش قدموا تجارا وذلك فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش قال أبو سفيان فأتانى رسول قيصر فانطلق بى وبأصحابى فأدخلنا عليه فاذا هو جالس فى مجلس ملكه عليه التاج واذا حوله عظماء الروم فقال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسبا من هذا الرجل ، قلت أنا . قال وما قرابتك منه ، قلت ابن عمى قال ادنه ثم أمر بأصحابى فجعلوا خلف ظهرى ثم قال لترجمانه قل لأصحابه انى سائل عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه . قال أبوسفيان فوالله لولا الحياء يومئذ أن يؤثر أصحابى عنى الكذب لكذبته حين سألنى ولكنى استحيت أن يؤثروا عنى الكذب فصدقته عنه :

قال :فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ، قلت لا .

قال : فبم يأمركم ؟ قلت يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

قال : فقال لترجمانه .. سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا . فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد أباؤكم ، ويأمركم بالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وهذه صفة نبى قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم .

وان يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قومى هاتين ، والله لو أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

(الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ج ٢ ص ٧٢٢ — ٧٢٤ بتصرف)

٣ — وعن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى قيصر يدعوه للاسلام وبعث بكتابه مع دخية الكلبى وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر فقال حين قرأه التمسوا لى رجلا من قومه اسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس فأخبرنى أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام فى رجال من قريش قدموا تجارا وذلك فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش قال أبو سفيان فأتانى رسول قيصر فانطلق بى وبأصحابى فأدخلنا عليه فاذا هو جالس فى مجلس ملكه عليه التاج واذا حوله عظماء الروم فقال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسبا من هذا الرجل ، قلت أنا . قال وما قرابتك منه ، قلت ابن عمى قال ادنه ثم أمر بأصحابى فجعلوا خلف ظهرى ثم قال لترجمانه قل لأصحابه انى سائل عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه . قال أبوسفيان فوالله لولا الحياء يومئذ أن يؤثر أصحابى عنى الكذب لكذبته حين سألنى ولكنى استحيت أن يؤثروا عنى الكذب فصدقته عنه :

قال :فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ، قلت لا .

قال : فبم يأمركم ؟ قلت يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

قال : فقال لترجمانه .. سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا . فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد أباؤكم ، ويأمركم بالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وهذه صفة نبى قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم .

وان يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قومى هاتين ، والله لو أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

(الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ج ٢ ص ٧٢٢ — ٧٢٤ بتصرف)

٤ — وقال المغيرة فى خروجه الى المقوقس مع بنى مالك أن المقوقس قال له « فكيف صدقه فى حديثه ؟ قلنا ما يسمى الا الأمين من صدقه ، قال انظروا فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله !)

(المصدر السابق ج ٢ ص ٧١٨ ، ٧١٩ بتصرف)

العنصر الثالث

دعوة الاسلام الى الصدق

الأدلة من الكتاب :ـ

ان الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والمظهر للمخبر والشكل للجوهر . ولم يأت منهج ولا مذهب يدعو الى الصدق كما جاء الاسلام يدعو اليه بحيث يأخذ به المؤمنون أنفسهم يزاملونه ويتفيأون ظلاله ويتعايشون فيما بينهم على هداه بالكلمة السديدة والقولة الصادقة والفعل القويم والسمت المألوف والباطن الذى يوافقه ويتجانس معه فى كل صورة من صور الحياة وكل جانب من جوانبها .

١ — قال الله تعالى « يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .
(سورة الأحزاب ٧٠ ، ٧١)

يقول القاسمى فى تفسيره :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله »أى فى كل ما تأتون وما تذرون لا سيما فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله صلى الله عليه وسلم .

« وقولوا » أى فى كل شأن من الشئون « قولا سديدا » أى قويما صوابا .
قال القاشانى : السداد فى القول الذى هو الصدق والصواب هو مادة كل سعادة وأصل كل كمال لأنه من صفاء القلب وصفاؤه يستدعى جميع الكمالات وهو وان كان

٣ ــ وعن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى قيصر يدعوه للاسلام وبعث بكتابه مع دحية الكلبى وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر فقال حين قرأه التمسوا لى رجلا من قومه أسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس فأخبرنى أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام فى رجال من قريش قدموا تجارا وذلك فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش قال أبو سفيان فأتانى رسول قيصر فانطلق بى وبأصحابى فأدخلنا عليه فاذا هو جالس فى مجلس ملكه عليه التاج واذا حوله عظماء الروم فقال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسبا من هذا الرجل ، قلت أنا . قال وما قرابتك منه ، قلت ابن عمى قال ادنه ثم أمر بأصحابى فجعلوا خلف ظهرى ثم قال لترجمانه قل لأصحابه انى سائل عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه . قال أبوسفيان فوالله لولا الحياء يومئذ أن يؤثر أصحابى عنى الكذب لكذبته حين سألنى ولكنى استحييت أن يؤثروا عنى الكذب فصدقته عنه :

قال :فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ، قلت لا .

قال : فبم يأمركم ؟ قلت يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

قال : فقال لترجمانه .. سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا . فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد أباؤكم ، ويأمركم بالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وهذه صفة نبى قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم .

وان يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قومى هاتين ، والله لو أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

(الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ج ٢ ص ٧٢٢ ــ ٧٢٤ بتصرف)

٣ ــ وعن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى قيصر يدعوه للاسلام وبعث بكتابه مع دحية الكلبى وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر فقال حين قرأه التمسوا لى رجلا من قومه اسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس فأخبرنى أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام فى رجال من قريش قدموا تجارا وذلك فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش قال أبو سفيان فأتانى رسول قيصر فانطلق بى وبأصحابى فأدخلنا عليه فاذا هو جالس فى مجلس ملكه عليه التاج واذا حوله عظماء الروم فقال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسبا من هذا الرجل ، قلت أنا . قال وما قرابتك منه ، قلت ابن عمى قال ادنه ثم أمر بأصحابى فجعلوا خلف ظهرى ثم قال لترجمانه قل لأصحابه انى سائل عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه . قال أبوسفيان فوالله لولا الحياء يومئذ أن يؤثر أصحابى عنى الكذب لكذبته حين سألنى ولكنى استحيت أن يؤثروا عنى الكذب فصدقته عنه :

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ، قلت لا .

قال : فبم يأمركم ؟ قلت يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

قال : فقال لترجمانه .. سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا . فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد أباؤكم ، ويأمركم بالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وهذه صفة نبى قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم .

وان يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قومى هاتين ، والله لو أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

(الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ج ٢ ص ٧٢٢ ــ ٧٢٤ بتصرف)

٤ ـ وقال المغيرة فى خروجه الى المقوقس مع بنى مالك أن المقوقس قال له (فكيف صدقه فى حديثه ؟ قلنا ما يسمى الا الأمين من صدقه ، قال انظروا فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله !)

(المصدر السابق جـ ٢ ص ٧١٨ ، ٧١٩ بتصرف)

العنصر الثالث

دعوة الاسلام الى الصدق

الأدلة من الكتاب :ـ

ان الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والمظهر للمخبر والشكل للجوهر . ولم يأت منهج ولا مذهب يدعو الى الصدق كما جاء الاسلام يدعو اليه بحيث يأخذ به المؤمنون أنفسهم يزاملونه ويتفيأون ظلاله ويتعايشون فيما بينهم على هداه بالكلمة السديدة والقولة الصادقة والفعل القويم والسمت الألوف والباطن الذى يوافقه ويتجانس معه فى كل صورة من صور الحياة وكل جانب من جوانبها .

١ ـ قال الله تعالى « يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .
(سورة الأحزاب ٧٠ ، ٧١)

يقول القاسمى فى تفسيره :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله »أى فى كل ما تأتون وما تذرون لا سيما فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله صلى الله عليه وسلم .

« وقولوا » أى فى كل شأن من الشئون « قولا سديدا » أى قويما صوابا .
قال القاشانى : السداد فى القول الذى هو الصدق والصواب هو مادة كل سعادة وأصل كل كمال لأنه من صفاء القلب وصفاؤه يستدعى جميع الكمالات وهو وان كان

داخلا فى التقوى المأمور بها لأنه اجتناب من رذيلة الكذب مندرج تحت التزكية التى غبر عنها بالتقوى لكنه أفرد بالذكر للفضيلة ، كأنه جنس برأســه كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة .

« يصلح لكم أعمالكم » أى بامداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم لأنه لا يصلح عمل ما بدون الصدق أصلا وبه يصلح كل عمل .

« ويغفر لكم ذنوبكم » أى ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل فان الحسنات يذهبن السيئات .

« ومن يطع الله ورســوله » أى فى الأوامر والنواهى التى من جملتهــا هذه التشريعات .

« فقــد فاز فوزا عظيما » أى فى الدارين . وقال القاشانى أى فاز بالتحليــة والاتصاف بالصفات الالهية وهو الفوز العظيم .

(محاسن التأويل للقاسمى ج ١٣ ص ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣)

ويقول القرطبى فى تفسيره :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا ســديدا » أى قصدا وحقا . وقال ابن عباس أى صوابا ، وقال عكرمة وابن عباس أيضا القول السداد : لا اله الا الله . وقيل هو الذى يوافق ظاهرة باطنه . وقيل هو ما أريد به وجه الله دون غيره وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات فهو عام فى جميع ما ذكر وغير ذلك . ثم وعدجل وعز بأنه يجازى على القول السداد باصلاح الأعمال وغفران الذنوب ، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة .

« ومن يطع الله ورسوله » أى فيما أمر به ونهى عنه « فقد فاز فوزا عظيما » .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٤ ص ٢٥٣)

داخلا فى التقوى المأمور بها لأنه اجتناب من رذيلة الكذب مندرج تحت التزكية التى غبر عنها بالتقوى لكنه أفرد بالذكر للفضيلة ، كأنه جنس برأسه كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة .

« يصلح لكم أعمالكم » أى بامداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم لأنه لا يصلح عمل ما بدون الصدق أصلا وبه يصلح كل عمل .

« ويغفر لكم ذنوبكم » أى ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل فان الحسنات يذهبن السيئات .

« ومن يطع الله ورسوله » أى فى الأوامر والنواهى التى من جملتها هذه التشريعات .

« فقد فاز فوزا عظيما » أى فى الدارين . وقال القاشانى أى فاز بالتحلية والاتصاف بالصفات الالهية وهو الفوز العظيم .

(محاسن التأويل للقاسمى ج ١٣ ص ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣)

ويقول القرطبى فى تفسيره :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » أى قصدا وحقا . وقال ابن عباس أى صوابا ، وقال عكرمة وابن عباس أيضا القول السداد : لا اله الا الله . وقيل هو الذى يوافق ظاهرة باطنه . وقيل هو ما أريد به وجه الله دون غيره وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات فهو عام فى جميع ما ذكر وغير ذلك . ثم وعدجل وعز بأنه يجازى على القول السداد باصلاح الأعمال وغفران الذنوب ، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة .

« ومن يطع الله ورسوله » أى فيما أمر به ونهى عنه « فقد فاز فوزا عظيما » .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٤ ص ٢٥٣)

ويقول الفخر الرازى فى تفسيره : ـ

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا الخ »

أرشدهم الى ماينبغى أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال أما الأفعال فالخير . وأما الأقوال فالحق ـ لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ، ومن قال الصدق قال قولا سديدا ثم وعدهم على الأمرين بأمرين :

على الخيرات باصلاح الأعمال فان تقوى الله تصلح العمل . والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا فى الجنة .

وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب .

ثم قال تعالى : «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما» فطاعة الله هى طاعة الرسول . ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع . فانه بفعله الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول يدا .

وقوله : « فقد فاز فوزا عظيما » جعله عظيما من وجهين :

أحدهما : أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب .

والثانى : أنه وصل الى ثواب كبير ، وهو الثواب الدائم الأبدى .

(التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ٢٥ ص ٢٣٤ بتصرف)

٢ ـ وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

(١١٩ ـ التوبة)

يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه قد جاء فى الآية السابقة ذكر الثلاثة الذين خلفوا وأن الله قد تاب عليهم وعفا عنهم وأنزلهم منازل رضوانه ، وجعلهم معلما من معالم الثبات مع الحق والولاء له ، فأجرى لهم فى القرآن الكريم ذكرا ، وجعل لهم فى العالمين

قدرا . وذلك كله بسبب أنهم أقاموا أنفسهم على كلمة الصــدق فلم يكذبوا على رسول الله ، ولم يجيئوا اليه بأعذار ملفقة . بل جاءوا اليه يقولون قولة الحق على أنفسهم .فقالوا يارسول الله : انا لا عذر لنا فى تخلفنا عن الجهاد معك . فخذ لله ولك من أنفسنا وأموالنا ما تشاء ، فكانت ثمرة صدقهم هو الذى انتهى اليه أمرهم.

فالدعوة الى الصدق هنا والى التمسك به دعوة تجد بين يديها المثل الواقع للخير العظيم الذى يناله الصادقون بصــدقهم وان احتمل الصادقون فى سبيل كلمة الحق شيئا من الأذى والضر فى أول الأمر فان العاقبة دائما لهم وهى عاقبة طيبة مســعدة تهىء لصاحبها الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .

(التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ج ١١ ص ٩١٣)

ويقول القرطبى فى تفسيره : ـــ

« وكونوا مع الصادقين » هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصــة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين قال مطرف : سمعت مالك ابن أنس يقول : قلما كان رجل صــادقا لا يكذب الا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف فى المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال : فقيل هو خطاب لجميع المؤمنين أى : اتقوا مخالفة أمر الله « وكونوا مع الصادقين » أى مع الذين خرجوا مع النبى صلى الله عليه وســلم لا مع المنافقين أى كونوا على مذهب الصــديقين وسبيلهم ، وقيل هم الأنبياء أى كونوا معهم بالأعمال الصالحة فى الجنة .

ثم قال حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق فى الأقوال والاخلاص فى الأعمال والصفاء فى الأحوال فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل الى رضاالغفار.

(جامع أحكام القرآن للقرطبى ج ٨ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ بتصرف)

قدرا . وذلك كله بسبب أنهم أقاموا أنفسهم على كلمة الصــدق فلم يكذبوا على رسول الله ، ولم يجيئوا اليه بأعذار ملفقة . بل جاءوا اليه يقولون قولة الحق على أنفسهم .فقالوا يارسول الله : انا لا عذر لنا فى تخلفنا عن الجهاد معك . فخذ لله ولك من أنفسنا وأموالنا ما تشاء ، فكانت ثمرة صدقهم هو الذى انتهى اليه أمرهم.

فالدعوة الى الصدق هنا والى التمسك به دعوة تجد بين يديها المثل الواقع للخير العظيم الذى يناله الصادقون بصــدقهم وان احتمل الصادقون فى سبيل كلمة الحق شيئا من الأذى والضر فى أول الأمر فان العاقبة دائما لهم وهى عاقبة طيبة مســعدة تهىء لصاحبها الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .

(التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب جـ ١١ ص ٩١٣)

ويقول القرطبى فى تفسيره : ــ

« وكونوا مع الصادقين » هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصــة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين قال مطرف : سمعت مالك ابن أنس يقول : قلما كان رجل صــادقا لا يكذب الا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف فى المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال : فقيل هو خطاب لجميع المؤمنين أى : اتقوا مخالفة أمر الله « وكونوا مع الصادقين » أى مع الذين خرجوا مع النبى صلى الله عليه وســلم لا مع المنافقين أى كونوا على مذهب الصــديقين وسبيلهم ، وقيل هم الأنبياء أى كونوا معهم بالأعمال الصالحة فى الجنة .

ثم قال حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق فى الأقوال والاخلاص فى الأعمال والصفاء فى الأحوال فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل الى رضاالغفار .

(جامع أحكام القرآن للقرطبى جـ ٨ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ بتصرف)

ويقول القاسمى فى تفسيره :ـــ

فى الآية دلالة على التحريض على الصدق .

قال القاشـــانى فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنـــوا اتقوا الله »أى فى جميع الرذائل بالاجتناب عنها خاصة رذيلة الكذب وذلك معنى قوله (وكونوا مع الصادقين) فان الكذب أسوأ الرذائل وأقبحها لكونه ينافى المروءة وقد قيل (لا مروءة لكذوب). اذ المراد من الكلام الذى يتميز به الانسان عن سائر الحيوان اخبار الغير عما لا يعلم فاذا كان الخبر غير مطابق لم تحصل فائدة النطق وحصل منه اعتقاد غير مطابق وذلك من خواص الشيطنة فالكاذب شيطان ـــ وكما أن الكذب أقبح الرذائل فالصـــدق أحسن الفضائل وأصل كل حسنة ومادة كل خصلة محمودة وملاك كل خير وسعادة، به يحصـــل كل كمال . وأصله الصـــدق فى عهد الله تعالى الذى هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة أو نفسه كما قال « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فى عقد العزيمة ووعد الخليفة كما قال فى اسماعيل « انه كان صادق الوعد » واذا روعى فى المواطن كلهـــا حتى الخاطر والفكر والنيـــة والقول والعمل صـــدقت المنامات والواردات والأحوال والمقامات والمواهب والمشـــاهدات كأنه أصل شجرة الكمال وبذر ثمرة الأحوال .

(محاسن التأويل للقاسمى جـ ٨ ص ٣٢٩٤ ، ٣٢٩٥)

الأدلة من السنة : ـــ

حقا لقد جاءت دعوة الاسلام الى الصدق دعوة جادة ومثالية وايجابية معا .لأنها دعوة تمضى مع الفطرة فى خط طبيعى مرتب ومنتظم ومسلسل . ولقد فاضت السنة النبوية المطهرة بالحديث عن الصدق ، وأنه أم الفضائل يقود الى كل خير ويدعو الى كل بر ويســـوق الى كل معروف ويدفع الى كل فوز وفلاح ، ويسلك بأصحابه فى سلك الأخيار المقربين أصحاب الحب والحظوة .

وما اجتمع هذا كله فى انسان أو قبيل الا عاش راضيا هانئا مطمئن البال مستقر النفس . وحسبك بالصـــدق شرفا يجمع الخير من كل أطرافه ، من أحرزه فلا عليه ما فاته من الدنيا .

١ — عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة واياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار » • رواه ابن حبان فى صحيحه • (الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٧٠)

٢ — وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد أفلح من أخلص قلبه وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة وأذنه مستمعة وعينه ناظرة » رواه أحمد • (الجامع الصغير ج ٢ ص١٢٢)•

٣ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : «قلنا يا نبى الله من خير الناس ؟ قال ذو القلب المخموم ، واللسان الصادق • قال : قلنا يا نبى الله قد عرفنا اللسان الصادق فما القلب المخموم ؟ قال التقى النقى الذى لا اثم فيه ولا بغى ولا حسد •• » • رواه ابن ماجه باسناد صحيح والبيهقى وهذا لفظه •

(الترغيب والترهيب ج٤ ص ٣٦٩)

٤ — وعن عبد الرحمن بن الحارث أبى قراد السلمى رضى الله عنه قال :(كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فدعا بطهور فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه • فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما حملكم على ما فعلتم ؟ قلنا حب الله ورسوله • قال فان أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا اذا ائتمنتم واصدقوا اذا حدثتم وأحسنوا جوار من جاوركم) • رواه الطبرانى • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٦٨)

٥ — وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع اذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة فى طعمة » • رواه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى والبيهقى بأسانيد حسنة • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٦٨) •

١ ــ عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رســول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة واياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار » • رواه ابن حبان فى صحيحه • (الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٧٠)

٢ ــ وعن أبى ذر رضى الله عنــه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســلم « قد أفلح من أخلص قلبه وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة وأذنه مستمعة وعينه ناظرة » رواه أحمد • (الجامع الصغير ج ٢ ص١٢٢)•

٣ ــ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : «قلنا يا نبى الله من خير الناس ؟ قال ذو القلب المخموم ، واللسان الصادق • قال : قلنا يا نبى الله قدعرفنا اللســان الصــادق فما القلب المخموم ؟ قال التقى النقى الذى لا اثم فيه ولا بغى ولا حســد •• » • رواه ابن ماجه باسناد صحيح والبيهقى وهذا لفظه •

(الترغيب والترهيب ج٤ ص ٣٦٩)

٤ ــ وعن عبد الرحمن بن الحارث أبى قراد السـلمى رضى الله عنه قال :(كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فدعا بطهور فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فجسوناه • فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما حملكم على ما فعلتم ؟ قلنا حب الله ورســوله • قال فان أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا اذا ائتمنتم واصدقوا اذا حدثتم وأحسنوا جوار من جاوركم) • رواه الطبرانى • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٦٨)

٥ ــ وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع اذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة فى طعمــة » • رواه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى والبيهقى بأســانيد حســنة • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٦٨) •

٦ — وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : صلى بنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ثم قال : على مكانكم اثبتوا ، ثم أتى الرجال فقال : ان الله عز وجل يأمرنى أن آمركم أن تتقوا الله وأن تقولوا قولا سديدا ثم تخلل الى النســاء فقــال لهن ان الله عز وجــل يأمرنى أن أمركن أن تتــقوا الله وأن تقولوا قــولا سديدا .. (١) » .رواه أحمد (الفتح الربانى للامام أحمد ج ١٩ ص ٢١) .

٧ — وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : (أوصــانى خليلى صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير أوصانى : أن لا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مرا) . رواه ابن حبان فى صحيحه . (الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٣٢) .

---

(١) قال شارح الفتح الربانى : هكذا بالأصل « أن تتقوا الله وأن تقولوا » «الخ وجاء عند الطبرانى أنه قال فى النساء : « ان الله أمرنى أن آمركن أن تتقين الله وأن تقلن قولا سديدا » .وهذه الرواية مناسبة للنســاء .

الأدلة من الآثار : —

ولقد عرف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين بفضيلة الصـــدق واهتموا بهـــا ، ففاضت بالحفاوة بها آثارهم وأحاديثهم تبين قيمة هـــذه الفضيلة وأهميتهـــا وضرورة الأخذ بها والتخلق بخليقتها • ففيها النجاة وبها تكون ثقة الانسان بشخصه وثقة الناس فيه •

كما أن الصدق خير مطايا المرء الى فلاحه وفوزه برضوان الله ونعيمه يوم القيامة حين ينادى الحق تبارك وتعالى « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم »• (١١٩ • المائدة)

١ — عن عبـــد الله بن كعب بن مالك رضى الله عنه قال سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك • قال كعب بن مالك قلت يا رسول الله انما أنجانى الله بالصدق وان من توبتى ألا أحدث الا صدقا ما بقيت قال فوالله ما علمت أحدا أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا وانى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى قال فأنزل الله عز وجل : لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العســـرة — حتى بلغ — انه بهم رءوف رحيم • وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت — حتى بلغ — اتقوا الله وكونوا مع الصـــادقين » قال كعب • والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعـــد اذ هدانى الله

الأدلة من الآثار : ـــ

ولقد عرف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين بفضيلة الصـــدق واهتموا بهـــا ، ففاضت بالحفاوة بها آثارهم وأحاديثهم تبين قيمة هـــذه الفضيلة وأهميتهـــا وضرورة الأخذ بها والتخلق بخليقتها • ففيها النجاة وبها تكون ثقة الانسان بشخصه وثقة الناس فيه •

كما أن الصدق خير مطايا المرء الى فلاحه وفوزه برضوان الله ونعيمه يوم القيامة حين ينادى الحق تبارك وتعالى « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم »• (١١٩ • المائدة)

١ ـــ عن عبـــد الله بن كعب بن مالك رضى الله عنه قال سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك • قال كعب بن مالك قلت يا رسول الله انما أنجانى الله بالصدق وان من توبتى ألا أحدث الا صدقا ما بقيت قال فوالله ما علمت أحدا أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا وانى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى قال فأنزل الله عز وجل : لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العســـرة ـــ حتى بلغ ـــ انه بهم رءوف رحيم • وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ـــ حتى بلغ ـــ اتقوا الله وكونوا مع الصـــادقين » قال كعب • والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعـــد اذ هدانى الله

للاسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرســول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا » • رواه البخارى ومسلم واللفظ له •

(الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥)

٢ ــ وقال عمر رضى الله عنه « أحبكم الينا ما لم نركم أحسنكم اســما ، فاذا رأيناكم فأحبكم الينا أحسنكم خلقا ، فاذا اختبرناكم فأحبكم الينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة » •(احياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ ص ١٣٤)

٣ ــ وقال مالك بن دينار قرأت فى بعض الكتب مامن خطيب الا وتعرض خطبته على عمــله فان كان صادقا صدق وان كان كاذبا قرضت شــفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا • (المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٤) •

٤ ــ وقال مالك بن دينــار : الصــدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه » • (المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٤)

٥ ــقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح : الصــدق والحياء وحسن الخلق والشكر • (المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧٤)

٦ ــ وقال أبو عبد الله الرملى رأيت منصور الدينورى فى المنام فقلت له مافعل الله بك قال غفر لى ورحمنى وأعطانى مالم أؤمل فقلت له : أحسن ماتوجه به العبد الى الله ماذا ؟ قال الصدق وأقبح ماتوجه به الكذب» •(المصدر السابق جـ٤ ص٣٧٥)

٧ ــ وقال أبو سليمان (اجعل الصدق مطيتك والحق ســيفك والله تعالى غاية طلبتك) • (المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧٥) •

٨ ــ وقال محمد بن على الكتانى : وجدنا دين الله مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق والصــدق والعدل . فالحق على الجوارح . والعدل على القلوب . والصدق على القول . (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥)

٩ ــ وقال وهب بن منبه : وجدت فى حاشية التوراة لا دليل أنصح من الصدق. (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥)

١٠ ــ وقال أبو بكر الوراق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق » . (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥) .

١١ ــ وقيل لسهل ما أصل هذا الدين الذى نحن عليه قال الصدق والســخاء والشــجاعة . (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥).

١٢ وقيل ثلاثة لا تخطىء الصادق : الحلاوة والهيبة والملاحة .
(الرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى ج ٢ ص ٤٥١)

١٣ ــ وقيل : (عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فانه ينفعك ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فانه يضرك) .(المصدر السابق ج ٢ ص ٤٥٣)

٨ ـ وقال محمد بن على الكتانى : وجدنا دين الله مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق والصــدق والعدل • فالحق على الجوارح • والعدل على القلوب • والصدق على القول • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥)

٩ ـ وقال وهب بن منبه : وجدت فى حاشية التوراة لا دليل أنصح من الصدق• (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥)

١٠ ـ وقال أبو بكر الوراق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق » • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥) •

١١ ـ وقيل لسهل ما أصل هذا الدين الذى نحن عليه قال الصدق والســخاء والشــجاعة • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٥)

١٢ وقيل ثلاثة لا تخطىء الصادق : الحلاوة والهيبة والملاحة •
(الرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى ج ٢ ص ٤٥١)

١٣ ـ وقيل : (عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فانه ينفعك ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فانه يضرك) •(المصدر السابق ج ٢ ص ٤٥٣)

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٦٧ — نشرات التوعية الدينية — السنة الثامنة

غرة جمادى الأولى سنة ١٣٩٦ هـ — أول مايو سنة ١٩٧٦ م

الصدق وأثره فى حياة الأمة (ب)

مقدمة :

العناصر :

الأول : أثر الصدق فى قوة الايمان .

الثانى : أثر الصدق فى نهضة الأمة .

الثالث : جزاء الصادقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

وبعد ••

فان الصدق من أبرز الكمالات التى اتصف بها الحق تبارك وتعالى • ينطق بوجوده كل ما صدر عنه عز وجل •

وهو أيضا فى طليعة أمهات الفضائل العليا التى اتصف بها الأنبياء وطبعوا عليها وتخلقوا بها ، والتصقت بهم فلم تفارقهم حتى أصبحت آية الآيات على وجوب الثقة فيهم وضرورة الايمان بهم •

وكان طبيعيا من الاسلام ــ وقد جاء يحتفى بالفضائل التى تبنى على جوهرها النفوس وتنهض على دعائمها الأمم ــ أن يدعو الى الصدق كفضيلة كبرى من الفضائل الجامعة لأطراف الخير ومعالم البر •

الأمر الذى تناولناه بالحديث فى نشرتنا السابقة « أ » من موضوعنا الذى ما زلنا بصدده (الصدق وأثره فى حياة الأمة) •

ان الاسلام ليس دين الترف العقلى أو الترفيه الفكرى • ولكنه دين المنهج العملى المتكامل الذى يرمى الى بناء النفس المؤمنة ، ويعمل على اعداد الشخصية الواقعة ويهدف الى تكوين المجتمع الفاضل •

وليس هناك ما هو أدخل فى هذا المجال من عامل الأخلاق • وما يشيع فى الأمة من أنماطها وصورها ومظاهرها ، وبقدر ما تكون الأمة فى ذلك قريبة من الحق مستقيمة على نهجه بقدر ما تكون سوية جادة آمنة مطمئنة عزيزة السلطان منيعة الجانب • والا تآكلت من داخلها ونخر فيها سوس الفساد وعبثت فيها عوامل الضعف والضياع فهانت على نفسها وعلى الناس •

والأخلاق فى الاسلام صلة كبرى بالايمان أهم عوامل البنـاء الداخلى للنفوس والأفراد والجماعات والأمم ، وخلة الصدق على رأس الخلال التى تتصـدر منهج الأخلاق فى الاسـلام والتى تتصل اتصالا وثيقا بالايمان بالله عز وجل ورسـوله صلى الله عليه وسلم ، وبكل قيم الحق والخير والجمال •

حقا ان بين الصدق والايمان صلة قوية ونسبا وثيقا يقترنان ولا يفترقان بحيث لا ينفك أحدهما عن صاحبه أو هكذا يجب أن يكون • فلا يكون المرء مؤمنا حقـا الا اذا كان صادقا ، ولا يكون ثقة الا اذا ارتكزت فضيلة الصدق لديه على قاعدة الايمان وانبثقت عنـه ، كما أن بين كل منهما تفاعلا مستمرا وعطاء دائمـا ورحم موصولة • فالايمان يزيد فى الصدق ويزيد به ، والصدق يزيد فى الايمان ويزيد به ولا غنى لأحدهما عن قرينه •

على أن الصدق يعتبر من أهم المظاهر والأدلة على وجود الايمان وأصالته ان لم يكن أهمها جميعا • ومن ثم نلمس له فى حيـاة المؤمنين ثقلا ووزنا ونتيجة وفاعليـة تتوقف عليها مصائرهم وتتحدد على ضوئها أقدارهم من الايمان ومراكزهم فى الأمة، ثم مكانتهم من الله عز وجل •

أجل : ان الصدق خير مقود يؤم صاحبه الى أمثل خطوط الاستقامة وأقومها • الأمر الذى تستجيب لهتافه وتنضبط على هـداه كل طاقاته وقـدراته ، وجوارحه منطبعة بطابعه ماضية على سننه فى الشكل والجوهر •

ولا يزال هذا صنيع الصدق حتى يتحول المرء به الى مؤمن ايجابى ، باذل معطاء يعطى من نفسه وجهده • فاذا هو مركز نفع ومصدر اشعاع بار بنفسه وعشـيرته ومجتمعه وأمته •

وهذا ما بيناه فى العنصر الأول :

واذا كان الصدق هذه الصلة الوثيقة بالايمان أبرز عوامل البناء للنفوس والأفراد والأمم ، وله كل هذا الدلالة عليه والاقتران به • وله كل هـذا التـأثير فى ايجابية صاحبه وصقله وفاعليته فى قسله ومجتمعه ، فاننا من غير شك نستطيع أن نلمس عن

وللأخلاق فى الاسلام صلة كبرى بالايمان أهم عوامل البنـاء الداخلى للنفوس والأفراد والجماعات والأمم ، وخلة الصدق على رأس الخلال التى تتصـدر منهج الأخلاق فى الاسـلام والتى تتصل اتصالا وثيقا بالايمان بالله عز وجل ورسـوله صلى الله عليه وسلم ، وبكل قيم الحق والخير والجمال .

حقا ان بين الصدق والايمان صلة قوية ونسبا وثيقا يقترنان ولا يفترقان بحيث لا ينفك أحدهما عن صاحبه أو هكذا يجب أن يكون . فلا يكون المرء مؤمنا حقـا الا اذا كان صادقا ، ولا يكون ثقة الا اذا ارتكزت فضيلة الصدق لديه على قاعدة الايمان وانبثقت عنـه ، كما أن بين كل منهما تفاعلا مستمرا وعطاء دائمـا ورحما موصولة . فالايمان يزيد فى الصدق ويزيد به ، والصدق يزيد فى الايمان ويزيد به ولا غنى لأحدهما عن قرينه .

على أن الصدق يعتبر من أهم المظاهر والأدلة على وجود الايمان وأصالته ان لم يكن أهمها جميعا . ومن ثم نلمس له فى حيـاة المؤمنين ثقلا ووزنا ونتيجة وفاعليـة تتوقف عليها مصائرهم وتتحدد على ضوئها أقدارهم من الايمان ومراكزهم فى الأمة، ثم مكانتهم من الله عز وجل .

أجل : ان الصدق خير مقود يؤم صاحبه الى أمثل خطوط الاستقامة وأقومها . الأمر الذى تستجيب لهتافه وتنضبط على هـداه كل طاقاته وقـدراته ، وجوارحه منطبعة بطابعه ماضية على سننه فى الشكل والجوهر .

ولا يزال هذا صنيع الصدق حتى يتحول المرء به الى مؤمن ايجابى ، باذل معطاء يعطى من نفسه وجهده . فاذا هو مركز نفع ومصدر اشعاع بار بنفسه وعشـيرته ومجتمعه وأمته .

وهذا ما بيناه فى العنصر الأول :

واذا كان الصدق هذه الصلة الوثيقة بالايمان أبرز عوامل البناء للنفوس والأفراد والأمم ، وله كل هذا الدلالة عليه والاقتران به . وله كل هـذا التـأثير فى ايجابية صاحبه وصقله وفاعليته فى نسله ومجتمعه ، فاننا من غير شك نستطيع أن نلمس عن

كتب مدى صلته بنهضة الأمة واسهامه فيها . فان الصدق فضلا عما يحتوى فى رحابه ويجمع بين برديه ـ كفضيلة كبرى ـ من عوامل الالتزام وخلال الخير وخصال المعروف وخلائق البر وكلمة الحق الجامعة ، يترك فى وجدان الآخذين به انطباعات محددة يستشعرون بها راحتهم وهدوءهم ، ويضع على أخلاق الموالين له بصمات حيوية يجدون بها استواءهم وثباتهم ، ويشع على سلوك العاكفين عليه انعكاسات مشرقة . يلمسون بها فى حياتهم من معالم الاستقرار والطمأنينة ما يؤهلهم الى كل خير ويهيئهم الى كل فتح ، ويعدهم الى كل الفرج بعد الضيق ، والى اليسر بعد العسر ، والى كل أسباب النجاة بعد الشدة ، والى كل ما يخرجهم من كل غبراء مظلمة .

والصدق احد معالم الرجولة البارزة والنفوس الجادة ، وأهم سمات الشخصية القيادية ، وأعظم مقومات البطولة الحقة التى تصدع بالحق فى وجه الباطل وتصرخ بالعدل فى وجه الظلم وتسعى لاهثة فى فداء وعطاء وبذل ونكران لاذات . تسعى وراء الهدى تهتف به وتدعو اليه وتقدمه لأمتها زادا وريا وعملا بارا وحركة باعثة وأملا دائما وأمنية موصولة لا تقطعها شواغل الحياة ولا نوازل الموت .

وهذا ما ألمحنا اليه فى العنصر الثانى .

والصدق بهذه المثابة من النفس والايمان والأخلاق ، وبهذا التأثير الحيوى على الوجدان والمشاعر والسلوك ، وبهذه الملامح البارزة له فى تكوين الشخصية ، وما يقترن به حياة الأمة ونهضتها من عطاء وبذل ـ يعتبر فى طليعة الأمور التى تظل صاحبها بحسن نفعها وعظيم جدواها يوم القيامة اذ يحظى بجنة الله ونعيمه ورضوانه . حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وحيث يفوضه الله يومئذ فيما يشاء من ذلك دون قيد ولا حرج ، وحيث الرفقة الممتازة من صفوة الخلق ومجتبيهم ومن دار فى فلكهم وتبعهم باحسان الى يوم الدين ، من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . وهذا من غير شك غاية الغايات وأمنية الأمانى لكل انسان .

واذا كان للصدق فى الاسلام كل هذه الآثار والايجابيات والنتائج البعيدة المدى فى الدنيا والآخرة . فما أحوج الأمة أن تأخذ نفسها به وأن تحرص عليه فى كل قول وعمل وخلق وسلوك على مستوى الفرد والجماعة حتى يبوئها الله عز الدنيا وكرامة الآخرة . وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث .

والمكتب الفنى اذ يقدم الى القارىء الكريم هذه النشرة «ب» فى (الصدق وأثره فى حياة الأمة) يسره أن يختتم بها هذا الموضوع .

نسأل الله أن يهبنا صدق القول والاخلاص فى العمل ، وأن يجعل عملنا خيرا من قولنا وأن يأخذ بنواصينا الى الصدق وأن يسخرنا لدينه ويستخدمنا لطاعته .

والله الموفق ، والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية
بوزارة الاوقاف

واذا كان للصدق فى الاسلام كل هذه الآثار والايجابيات والنتائج البعيدة المدى فى الدنيا والآخرة . فما أحوج الأمة أن تأخذ نفسها به وأن تحرص عليه فى كل قول وعمل وخلق وسلوك على مستوى الفرد والجماعة حتى يبوئها الله عز الدنيا وكرامة الآخرة . وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث .

والمكتب الفنى اذ يقدم الى القارىء الكريم هذه النشرة «ب» فى (الصدق وأثره فى حياة الأمة) يسره أن يختتم بها هذا الموضوع .

نسأل الله أن يهبنا صدق القول والاخلاص فى العمل ، وأن يجعل عملنا خيرا من قولنا وأن يأخذ بنواصينا الى الصدق وأن يسخرنا لدينه ويستخدمنا لطاعته .

والله الموفق ، والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية
بوزارة الاوقاف

العنصر الأول

أثر الصـــدق فى قوة الايمان

الأدلة من الكتاب :

الصدق أحد مظاهر الايمان وأقوى الأدلة على وجوده فى قلب صاحبه وأنصـــع البراهين على حيويته وابراز عطائه وبلوغ غايته والوفاء بمتطلباته وفرائضه ومنحه الروح والراحة والجهـــد والطاقة ، وما من مســـلم يرتفع الى مســـتوى الصـــدق ومعطياته ــ سيما فى قضايا الأمة ، وكل ما يتعلق بالحق وشرفه وواجباته ومصيره ــ الا كان ذلك خيرا له وأوجب ثناء وأعظم مثوبة وأجزل أجرا .

١ ــ قال تعـــالى : « انما المؤمنون الذين آمنـــوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » (الحجرات : ١٥)

يقول الطبرى فى تفسيره لهذه الآية :

« انما المؤمنون » الذين صدقوا الله ورسوله « ثم لم يرتابوا » أى لم يشكوا فىوحدانية الله ولا فى نبوة نبيه صلىالله عليه وسلم، وألزموا أنفسهم طاعة الله وطاعة رسوله والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك منهم فى وجوب ذلك عليهم.

« وجاهدوا بأموالهم وأنفســـهم فى ســـبيل الله » أى جاهدوا المشركين بانفاق أموالهم وبذل مهجهم فى جهادهم على ما أمرهم الله به ، وذلك سبيله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

« أولئك هم الصادقون » أى هؤلاء الذين يفعلون ذلك هم الصادقون فى قولهم انا مؤمنون ، لا من دخل فى الملة خوف السيف ليحقن دمه وماله .

(تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٩١ بتصرف)

ويقول عبد الكريم الخطيب ·

المؤمنون هم الذين آمنوا بالله ورسوله ، فنزل هذا الايمان فى قلوبهم منزلة اليقين لا يزحزحه عنه أى عارض من عوارض الحياة ، ولا يغير وجهه فى قلوبهم ما يلقاهم على طريق الحياة من بأساء وضراء ثقة منهم بالله وركونا اليه ورضاء بقضائه وصبرا لحكمه ·

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » هذا هو الايمان فى صميمه ·

أما الايمان الذى يهتز كيانه فى قلب الانسان لأى عارض ويتضاءل شخصه عند أى بلاء فهو ايمان غير خالص · بل هو مشوب بآفات كثيرة من الشك وسوء الفهم، فاذا وضع على محك التجربة والامتحان ظهر ما فيه من ضعف فلم يحتمل صدمة التجربة ولم يصمد أمام تيار الامتحان ·

وقوله تعالى : « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » وهذا هو مجال الامتحان لايمان المؤمنين · فمن آمن بالله ورسوله ووقع منه هذا الايمان موقع القبول واليقين لم ينكل عن دعوة الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه ، بل يقدم ماله ونفسه قربانا لله فى رضا وغبطة · وفى الآية الكريمة اشارة الى أن الجهاد بالمال والنفس هو الميدان الذى يمتحن به ايمان المؤمنين ، والذى به تظهر حقيقة ما فى قلوبهم من ايمان ، فالمؤمن قد يصلى ويصوم ويحج ويزكى ، ولكنه حين يمتحن فى ماله أو نفسه بالجهاد فى سبيل الله يضن بماله ويحرص على سلامة نفسه ، وعندئذ يعلم حقيقة ايمانه وأنه لم يستوف حقيقة الايمان بعد ، والله سبحانه وتعالى يقول : «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» ويقول سبحانه: « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون · ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ·

ويقول عبد الكريم الخطيب :

المؤمنون هم الذين آمنوا بالله ورسوله ، فنزل هذا الايمان فى قلوبهم منزلة اليقين لا يزحزحه عنه أى عارض من عوارض الحياة ، ولا يغير وجهه فى قلوبهم ما يلقاهم على طريق الحياة من بأساء وضراء ثقة منهم بالله وركونا اليه ورضاء بقضائه وصبرا لحكمه .

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » هذا هو الايمان فى صميمه .

أما الايمان الذى يهتز كيانه فى قلب الانسان لأى عارض ويتضاءل شخصه عند أى بلاء فهو ايمان غير خالص . بل هو مشوب بآفات كثيرة من الشك وسوء الفهم، فاذا وضع على محك التجربة والامتحان ظهر ما فيه من ضعف فلم يحتمل صدمة التجربة ولم يصمد أمام تيار الامتحان .

وقوله تعالى : « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » وهذا هو مجال الامتحان لايمان المؤمنين . فمن آمن بالله ورسوله ووقع منه هذا الايمان موقع القبول واليقين لم ينكل عن دعوة الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه ، بل يقدم ماله ونفسه قربانا لله فى رضا وغبطة . وفى الآية الكريمة اشارة الى أن الجهاد بالمال والنفس هو الميدان الذى يمتحن به ايمان المؤمنين ، والذى به تظهر حقيقة ما فى قلوبهم من ايمان ، فالمؤمن قد يصلى ويصوم ويحج ويزكى ، ولكنه حين يمتحن فى ماله أو نفسه بالجهاد فى سبيل الله يضن بماله ويحرص على سلامة نفسه ، وعندئذ يعلم حقيقة ايمانه وأنه لم يستوف حقيقة الايمان بعد ، والله سبحانه وتعالى يقول : «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» ويقول سبحانه: « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

وقوله تعالى : « أولئكهم الصادقون » هو الوصف الذى يستحقه الذين آمنوا بالله ورسـوله ولم يرتابوا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسـهم وهو أنهم مؤمنون حقا قد صدق فعلهم قولهم .

(التفسير القرآنى للقرآن للاستاذ عبد الكريم الخطيب ج ٢٦ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨)

٢ ـ وقال الله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصـدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما » .

(الأحزاب : ٢٣ ، ٢٤)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

لما ذكر الله عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار وصف المؤمنين بأنهم اسـتمروا على العهد والميثاق . و « صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه » قال بعضهم أجله وقال البخارى عهده وهو يرجع الى الأول .

« ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » أى وما غيروا عهـد الله ولا نقضـوه ولا بدلوه . روى الامام أحمد عن ثابت قال : قال أنس : (عمى أنس بن النضر رضى الله عنه سميت به : لم يشهد مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فشـق عليه فقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه لئن أرانى الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله عز وجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فاستقبل سـعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال له أنس رضى الله عنه : يا أبا عمرو وأين ؟ واها لريح الجنة انى أجده دون احد قال وقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه . قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته عمة الربيع ابنه النضر فما عرفت أخى الا ببنانه ، قال فنزلت هذه الآية (من المؤمنين رجال صـدقوا ما عاهدوا

الخ وما بدلوا تبديلا) • قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وقال ابن حاتم عن أبى طلحة رضى الله عنه ، قال : لما أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ثم قرأ هذه الآية « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » الآية كلها • فقام اليه رجل من المسلمين • فقال يا رسول الله من هؤلاء فأقبلت وعلى ثوبان أخضران خضرميان فقال : أيها السائل هذا منهم : ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » يعنى عهده « ومنهم من ينتظر » قال : يوما فيه القتال فيصدق فى اللقاء • وقال الحسن « فمنهم من قضى نحبه » يعنى موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك • ومنهم من لم يبدل تبديلا • وكذا قال قتادة وابن زيد • وقوله تعالى (وما بدلوا تبديلا) أى وماغيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر • بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه لفعل المنافقين الذين قالوا (ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا • ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) وقوله تعالى (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما) • أى انما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع أنه تعالى يعلم الشىء قبل كونه ولكن لايعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم كما قال تعالى (ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فهذا علم بالشىء بعد كونه وان كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده وكذا قال الله تعالى :

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وماكان الله ليطلعكم على الغيب) ولهذا قال تعالى ها هنا (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أى بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه •

«ويعذب المنافقين» وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه • ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ان شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وان شاء تاب عليهم • بأن أرشدهم الى النزوع عن النفاق الى الايمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان •

الخ وما بدلوا تبديلا) • قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وقال ابن حاتم عن أبى طلحة رضى الله عنه ، قال : لما أن رجع رسـول الله صلى الله عليه وسلم من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ثم قرأ هذه الآية « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » الآية كلها • فقام اليه رجل من المسلمين • فقال يا رسول الله من هؤلاء فأقبلت وعلى ثوبان أخضران خضرميان فقال : أيها السائل هذا منهم : ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » يعنى عهده « ومنهم من ينتظر » قال : يوما فيه القتال فيصدق فى اللقاء • وقال الحسن « فمنهم من قضى نحبه » يعنى موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك • ومنهم من لم يبدل تبديلا • وكذا قال قتادة وابن زيد • وقوله تعالى (وما بدلوا تبديلا) أى وماغيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر • بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضـوه لفعل المنافقين الذين قالوا (ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا • ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) وقوله تعالى (ليجزى الله الصـادقين بصـدقهم ويعذب المنـافقين ان شاء أو يتـوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما) • أى انمـا يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر هذا بالفعل وأمر هـذا بالفعل مع أنه تعالى يعلم الشىء قبل كونه ولكن لايعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم كما قال تعالى (ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فهـذا علم بالشىء بعد كونه وان كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده وكذا قال الله تعالى :

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وماكان الله ليطلعكم على الغيب) ولهذا قال تعالى ها هنا (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أى بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه •

« ويعذب المنافقين » وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه • ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ان شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وان شاء تاب عليهم • بأن أرشدهم الى النزوع عن النفاق الى الايمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان •

ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : (ان الله كان غفورا رحيما) .(تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

وصف الله سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء واحتملوا البأساء والضراء فقال (من المؤمنين رجال صدقوا .. الآيات) أى ومن المؤمنين بالله المصدقين برسوله رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر فى اللأواء وحين البأساء فاستشهد بعض يوم بدر ، وبعض يوم أحد ، وبعض فى غير هذه المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه . كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بعهده وما غيروه وما بدلوه .

وروى صاحب الكشاف أن رجالا من الصحابة نذروا أنهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان، وطلحة بن عبد الله ، وسعيد بن زيد ، وحمزة ، ومصعب بن عمير وجمع غيرهم .

ثم بين العلة فى هذا الابتلاء والتمحيص فقال : « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم »أى انه سبحانه يظهر أمر كل منهما جليا واضحا . (تفسير المراغى ج ٢١ ص ١٤٧ ، ١٤٨ بتصرف) .

ويقول عبد الكريم الخطيب :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » الآيات .

أى من المؤمنين الذين سلموا من النفاق . رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه اذ ليس كل المؤمنين على درجة واحدة فى ايمانهم . بل هم درجات فى الايمان كما أنهم درجات عند الله . وحرف الجر (من) هنا للتبعيض . أى من بعض المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وفى قوله تعالى : « رجال » اشارة الى أنهم أناس قد كملت رجولتهم وسلمت لهم انسانيتهم فكانوا رجالا حقا . لم ينتقص من انسانيتهم شيء . فالكفر والشرك والنفاق وضعف الايمان ، كلها أمراض خبيثة تغتال انسانية الانسان وتفقده معنى الرجولة فيه . فالرجل كل الرجل هو من تحرر عقله من الضلال وصفت روحه من الكدر وسلم قلبه من الزيغ . ثم لا عليه بعد هذا ألا يمسك بيده شيئا من جمال الصورة أو وفرة المال أو قوة السلطان .

وفى تنكير « رجال » فى التفخيم والتعظيم ، كما يقول الله تعالى : « يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » وكما يقول سبحانه : « لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » .

وقوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » النحب : النذر المحكوم بوجوبه يقال : قضى فلان نحبه : أي وفى بنذره . والمراد به انقضاء الأجل . أى من هؤلاء الرجال من مات وهو على ايمانه الوثيق بالله ، وفى موقف الجهاد فى سبيل الله قد وفى بما نذره لله وعاهد الله عليه . وقوله تعالى : « ومنهم من ينتظر » أى من ينتظر قضاء الله فيه موتا أو استشهادا فى ميدان القتال فهو على ترقب وانتظار لليوم الذى تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده .

وقوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » النحب : النذر المحكوم بوجوبه يقال : فى ميدان القتال فهو على ترقب وانتظار لليوم الذى تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده .

وفى قوله تعالى : « ينتظر » اشارة الى أن المؤمن الصادق الايمان ينتظر لقاء ربه وهو فى شوق الى هذا اللقاء يعد له اللحظات . ويستطيل أيام الحياة الدنيا فى طريقه الى ربه شأن من ينتظر أمرا محبوبا هو على موعد معه .

وقوله تعالى : « وما بدلوا تبديلا » اشارة الى أن ايمانهم بالله ، ويقينهم بلقائه، لم يزايل مكانه من قلوبهم لحظة ولم ينحرف عن موضعه أى انحراف ، فهم على حال

وفى قوله تعالى : « رجال » اشارة الى أنهم أناس قد كملت رجولتهم وسلمت لهم انسانيتهم فكانوا رجالا حقا • لم ينتقص من انسانيتهم شىء • فالكفر والشرك والنفاق وضعف الايمان ، كلها أمراض خبيثة تغتال انسانية الانسان وتفقده معنى الرجولة فيه • فالرجل كل الرجل هو من تحرر عقله من الضلال وصفت روحه من الكدر وسلم قلبه من الزيغ • ثم لا عليه بعد هذا ألا يمسك بيده شيئا من جمال الصورة أو وفرة المال أو قوة السلطان •

وفى تنكير « رجال » فى التفخيم والتعظيم ، كما يقول الله تعالى : « يسبح له فيها بالغدو والآصال • رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » وكما يقول سبحانه : « لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » •

وقوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » النحب : النذر المحكوم بوجوبه يقال : قضى فلان نحبه : أى وفى بنذره • والمراد به انقضاء الأجل • أى من هؤلاء الرجال من مات وهو على ايمانه الوثيق بالله ، وفى موقف الجهاد فى سبيل الله قد وفى بما نذره لله وعاهد الله عليه • وقوله تعالى : « ومنهم من ينتظر » أى من ينتظر قضاء الله فيه موتا أو استشهادا فى ميدان القتال فهو على ترقب وانتظار لليوم الذى تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده •

وقوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » النحب : النذر المحكوم بوجوبه يقال : فى ميدان القتال فهو على ترقب وانتظار لليوم الذى تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده •

وفى قوله تعالى : « ينتظر » اشارة الى أن المؤمن الصادق الايمان ينتظر لقاء ربه وهو فى شوق الى هذا اللقاء يعد له اللحظات • ويستطيل أيام الحياة الدنيا فى طريقه الى ربه شأن من ينتظر أمرا محبوبا هو على موعد معه •

وقوله تعالى : « وما بدلوا تبديلا » اشارة الى أن ايمانهم بالله ، ويقينهم بلقائه، لم يزايل مكانه من قلوبهم لحظة ولم ينحرف عن موضعه أى انحراف ، فهم على حال

واحدة من أمر ربهم ومن الثقة بما وعدهم الله على يد رســوله ، على حين أن كثيرا ممن كان معهم ممن أسلموا ولم يدخل الايمان فى قلوبهم قد بدلوا مواقفهم وكثرت تحولاتهم بين الايمان والكفر . (التفسير القرآنى ج ٢١ ص ٦٨٠ ، ٦٨١) .

٣ ــ وقال تعالى « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » (الحديد : ١٩)

يقول الامام ابن كثير فى تفسيره :

لا شك أن الصديق أعلى مقاما من الشهيد ، كما رواه الامام مالك عن أبى سعيد الخدرى أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب بتفاضل ما بينهم » قال يارســول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال (بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) وقال آخرون بل المراد من قوله تعالى « أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم » أنه أخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . وعن عمرو بن ميمون فى قوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصــديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) قال يجيئون يوم القيامة معا كالأصبعين .

وقوله تعالى : «والشهداء عند ربهم» أى فى جنات النعيم كما جاء فى الصحيحين « ان أرواح الشــهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة ، فقال ماذا تريدون فقالوا نحب أن تردنا الى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة فقال انى قد قضيت أنهم اليها لا يرجعون » .

وقوله تعالى : « لهم أجرهم ونورهم » أى لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال، كما قال الامام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الايمان لقى العدو فصدق الله فقتل فذاك الذى ينظر الناس اليه هكذا ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقلنسوة عمر ٠والثانى مؤمن لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح (٢) جاءه سهم غرب (٣) فقتله فذاك فى الدرجة الثانية — والثالث رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الثالثة ٠والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه اسرافا كثيرا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الرابعة) ٠

وقوله تعالى : « والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » ثم لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم ٠
(تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ص ٣١١ ، ٣١٢ بتصرف)

ويقول القاسمى فى تفسيره لهذه الآية « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون : الخ » رأيت لابن القيم فى (طريق الهجرتين) بسطا فى بحث الصديقية قال رحمه الله فى مراتب المكلفين فى الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة : ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة الخلق الى الله على طريقهم ومنهاجهم وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقين ، ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء فقال تعالى: « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

---

(١) ما يلبس فى الرأس ٠ (٢) نوع من الأشجار ذى الشوك ٠
(٣) هو الذى لا يدرى راميه ولا من أين جاء ٠

والشـــهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون . وهم الراسخون فى العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته . منهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

وقال تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » قيل ان الوقف على قوله « هم الصديقون » ثم يبتدىء « والشهداء عند ربهم » فيكون الكلام جملتين أخبر فى احداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون . والايمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة الى الله تعالى بالتعليم والصبر عليه . وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ، ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين هنا . وفى سورة النساء وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء فى كلام النبى فى قوله « اثبت أحد (١) فانما عليك نبى وصديق وشهيد » ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصـــديق ، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتا له رضى الله عنه .

وقيل ان الكلام جملة واحدة ، وأخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهى قوله « لتكونوا شهداء على الناس » وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة . ويكون الشهداء وصفا لجملة « المؤمنين الصادقين » . (محاسن التأويل للقاسمى ج ١٦ ص ٥٦٨٧ ، ٥٦٨٨) .

---

(١) المراد : جبل أحد .

ويقول المراغي فى تفسيره :

«والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون» أى والذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله وآمنوا بما جاءهم به من عنـد ربهم أولئك فى حكم الله بمنزلة الصديقين «والشهداء عند ربهم لهم آجرهم ونورهم» أى والذين استشهدوا فى سبيل الله لهم أجر جزيل ونور عظيم ، يسـعى بين أيديهم وهم يتفاوتون فى ذلك بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال • (تفسير المراغى ج ٢٧ ص ١٧٥) •

ويقول صـاحب التفسير القرآنى للقرآن فى قوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسـله أولئك هم الصديقون » •• الآية •

فالايمان بالله ورسوله ايمانا خالصا من كل شائبة ، هو الذى يزكى كل عمـل يعمله المؤمن • قل هذا العمل أو كثر • وهو الذى يرفع العبد عنـد ربه الى درجة الصديقين والشهداء •

والصديق : هو كثير الصدق • أى من كان مصدقا لكل ما نزل من آيات الله وبكل ما سمـع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرتاب فى شيء ولا يتوقف عنـد شيء ، سواء عقله أو لم يعقله ، وسـواء وافق هواه أو خالفه • فهـذا هو الايمان فى صميمه انه ولاء وطاعة ، واسلام واستسلام • ومن هنا كان (أبو بكر) رضى الله عنه (الصديق) الأول ، و (الصديق) الأكبر ، ولأنه بعد أن آمن بالله ورسـوله جعـل عقـله وراء كل ما يعرض له من أمر الله ورسـوله • وفى حادث صـلح الحديبية شاهد بهـذا •

فقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد سار بالمسلمين عام الحديبية على أن يدخل هو والمسلمون المسـجد الحرام ، وذلك لرؤيا رآها النبى الكريم وأعـلم المسلمين بها ، فلما وقفت قريش فى وجه الرسـول وأصحابه ، وهم على مشـارف مكة وانتهى الأمر بينه وبين قريش الى أن يعـود النبى بأصـحابه هـذا العـام ، وألا يدخلوا على قريش مكة فى عامهم هذا • على أن يعودوا حاجين فى العام القادم

بعد أن تخلى قريش مكة لهم . وانه لما انتهى الأمر الى هـذا الموقف اضطرب المسلمون ، وكثرت تساؤلاتهم عن هـذا الوعد الذى وعـدهم النبى اياه من دخول المسجد الحرام . كان أبو بكر رضى الله عنه هو الذى لم يقع فى قلبه شىء من هـذا الذى وقع فى نفوس المسلمين حتى انه جاءه عمر متسائلا . قال له تلك القولة القاطعة الحازمة « الزم غرزك » أى قف عند حدك ولا تراجع فى أمر فعله النبى صـلى الله عليه وسلم . وهذا ما جاء به قوله تعالى بعـد ذلك فى القرآن المـدنى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

فمن آمن مثل هذا الايمان أو قريبا منه فهو من الصديقين ، وصحابة رسول الله أبو بـكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وأبو عبيدة وعبـد الرحمن بن عوف وكثير من وجوه الصحابة ، هم الصديقين وان اختلفت منازلهم فى مقام الصديقية .

والشهداء : جمع شهيد وشاهد . وهم الذين آمنوا بالله ورسله ، فهم صديقون وهم شهداء عند ربهم ، وتلك صفة أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه التى يشير اليها سبحانه وتعالى بقوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسـطا لتكونوا شـهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . كما يصح أن يكون معنى الشهداء . هم الذين شـهدوا بصدق الرسـول وأسـلموا له حين دعاهم الى الله وتلا عليهم آيات الله . (التفسير القرآنى للقرآن : لعبد الكريم الخطيب جـ ٢٧ ص ٧٧٠ ، ٧٧١)

٤ ــ وقال تعالى : « طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » . (محمد : ٢١) .

قال القرطبى فى تفسيره :

« طاعة وقول معروف » أى طاعة وقول معروف أمثـل وأحسن وهـو مذهب سيبويه والخليل ، وقيل : ان التقدير : أمرنا طاعة وقول معروف ، قال ابن عباس : ان قولهم « طاعة » اخبار من الله عز وجـل عن المنـافقين والمعنى : لهم طاعة وقول قبل وجوب الفرائض عليهم ، فاذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها .

وقوله تعالى : « فاذا عزم الأمر » أى جد القتال ، أو وجب أو فرض القتال كرهوه .

« فلو صدقوا الله » أى فى الايمان والجهاد . « لكان خيرا لهم » من المعصية والمخالفة . (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٦ ص ٢٤٤) .

ويقول صاحب التفسير القرآنى للقرآن :

« فاذا عزم الأمر » أى اذا جاء وقت الابتلاء وهو الجهاد الذى أمر الله به المؤمنين أصبح هذا الأمر عزيمة لا يجوز للمؤمن أن يترخص فيها أو ينكل .

وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » أى فاذا جاء أوان الجهاد انكشفت على محكه حقيقة الايمان وظهر الصادقون والكاذبون . فلو أن هؤلاء المؤمنين صدقوا الله فيما أعطوه من اقرار الايمان به وجاهدوا فى سبيله ، لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم .

فالفاء فى قوله تعالى : « فلو صدقوا الله » هى للتفريع والتعقيب على كلام محذوف هو جواب « اذا » فى قوله تعالى : « فاذا عزم الأمر » أى فاذا عزم الأمر انكشف أحوال المؤمنين وأقوالهم وظهر الصادق والكاذب . فلو صدق هؤلاء المتخلفون أو الذين تحدثهم أنفسهم بالتخلف لو صدقوا الله وجاهدوا لكان خير لهم. (التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ج ٢٦ ص ٣٥٦)

٥ — قال الله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » . (الحشر : ٨)

يقول المراغى فى تفسيره لهذه الآية :

أراد بهؤلاء الأربعة السالفين ، فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة الى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلبا لمرضاة ربهم ونيلا لثوابه ونصره لله ورسوله واعلاء لشأن دينه .

وقوله تعالى : « فاذا عزم الأمر » أى جد القتال ، أو وجب أو فرض القتال كرهوه .

« فلو صدقوا الله » أى فى الايمان والجهاد . « لكان خيرا لهم » من المعصية والمخالفة . (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٦ ص ٢٤٤) .

ويقول صاحب التفسير القرآنى للقرآن :

« فاذا عزم الأمر » أى اذا جاء وقت الابتلاء وهو الجهاد الذى أمر الله به المؤمنين أصبح هذا الأمرعزيمة لا يجوز للمؤمن أن يترخص فيها أو ينكل .

وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » أى فاذا جاء أوان الجهاد انكشفت على محكه حقيقة الايمان وظهر الصادقون والكاذبون . فلو أن هؤلاء المؤمنين صدقوا الله فيما أعطوه من اقرار الايمان به وجاهدوا فى سبيله ، لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم .

فالفاء فى قوله تعالى : « فلو صدقوا الله » هى للتفريع والتعقيب على كلام محذوف هو جواب « اذا » فى قوله تعالى : « فاذا عزم الأمر » أى فاذا عزم الأمر انكشف أحوال المؤمنين وأقوالهم وظهر الصادق والكاذب . فلو صدق هؤلاء المتخلفون أو الذين تحدثهم أنفسهم بالتخلف لو صدقواالله وجاهدوا لكان خير لهم.
(التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ج ٢٦ ص ٣٥٦)

٥ — قال الله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » .
(الحشر : ٨)

يقول المراغى فى تفسيره لهذه الآية :

أراد بهؤلاء الأربعة السالفين ، فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة الى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلبا لمرضاة ربهم ونيلا لثوابه ونصره لله ورسوله واعلاءلشأن دينه .

«أولئك هم الصــادقون » أى هؤلاء هم الصــادقون فى ايمانهم اذ قد فعلوا ما يدل على الاخلاص فيه ، والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم . فهم قد أخرجوا من ديارهم ، وهى العزيزة على النفوس المحببة الى القلوب .

بلادى وان جارت على عزيزة   وأهلى وان ضنوا على كرام

وتركوا الأموال . والمال شقيق الروح وكثيرا ما يقتل المرء فى سبيل الذود عنه وانتزاعه من أيدى غاصبيه ، وما فعلوا ذلك الا لاعلاء منار الدين ورفعة شأنه وذيوع ذكره .فحق لهم من ربهم النعيم المقيم وجزيل الثواب بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال وعظيم الخلال .

روى أن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم بــه صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ منهم الحفيرة فى الشتاء ماله دثار غيرها .

وعن سعيد قال : قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : « بشروا صعاليك المهاجرين بالنور التــام يوم القيامة يدخلون الجنة قبــل الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة » . أخرجه أبو داود . (تفسير المراغى ج ٢٨ ص ٤٢ ، ٤٣) .

ويقول العلامة الألوسى فى تفسيره :

« أولئك » الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة .

« هم الصــادقون » أى الكاملون فى الصــدق فى دعواهم الايمان حيث فعلوا ما يدل أقوى دلالة عليه مع اخراجهم من أوطانهم وأموالهم لأجله لا غيرهم ، ممن آمن فى مكة ولم يخرج من داره وماله ولم يثبت منه نحو ما ثبت منهم لنحو لين منه مع المشركين . (روح المعانى للألوسى ج ٩ ص ٣٦) .

الأدلة من السنة :

ان بين الجنان واللسان وشيجة حيوية ، وان بين الشكل والجوهر رحما موصولة، وان بين ظاهر الانسان وباطنه تفاعلا مستمرا يأخذ كل منهما من قرينه ويعطيه . والمظهر عموما واللسان خاصة عنوان على ما فى القلب ، والقلب وعاء الايمان ، واللسان أمير الجوارح ، فاذا استقام اللسان استقام القلب ونضج الايمان وانضبطت الجوارح . والا انعكس الأمر فى كل ذلك .

١ ـ عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) . رواه أحمد وابن أبى الدنيا فى الصمت كلاهما من رواية على بن سعدة الباهلى عن قتادة عنه . (الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥٢٧) .

٢ ـ وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور، والفجور يهدى الى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) . رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه واللفظ له . (المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧٠) .

٣ ـ وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (اذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول : اتق الله فينا فانما نحن بك فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا) . رواه الترمذى . ومعنى تكفر اللسان أى تذل وتخضع . (رياض الصالحين ص ٥٥١) .

العنصر الثانى

أثر الصدق فى نهضة الأمة

الأدلة من الكتاب :

ليس هناك كالصدق فضيلة جامعة يتألق فى ظلالها البر بمدلوله الشامل الواسع المحيط بالعقيدة والعمل والدين والحياة والأخلاق والسلوك والمجتمع . وكل ما يتصل بنهضة الأمة ، وتكوينها ومقوماتها واعدادها لكل واجبات الخلافة وتبعاتها

الأدلة من السنة :

ان بين الجنان واللسان وشيجة حيوية ، وان بين الشكل والجوهر رحما موصولة، وان بين ظاهر الانسان وباطنه تفاعلا مستمرا يأخذ كل منهما من قرينه ويعطيه . والمظهر عموما واللسان خاصة عنوان على ما فى القلب ، والقلب وعاء الايمان ، واللسان أمير الجوارح ، فاذا استقام اللسان استقام القلب ونضج الايمان وانضبطت الجوارح . والا انعكس الأمر فى كل ذلك .

١ — عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) . رواه أحمد وابن أبى الدنيا فى الصمت كلاهما من رواية على بن سعدة الباهلى عن قتادة عنه . (الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥٢٧) .

٢ — وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور ، والفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) . رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه واللفظ له . (المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧٠) .

٣ — وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (اذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول : اتق الله فينا فانما نحن بك فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا) . رواه الترمذى . ومعنى تكفر اللسان أى تذل وتخضع . (رياض الصالحين ص ٥٥١) .

العنصر الثانى
أثر الصدق فى نهضة الأمة

الأدلة من الكتاب :

ليس هناك كالصدق فضيلة جامعة يتألق فى ظلالها البر بمدلوله الشامل الواسع المحيط بالعقيدة والعمل والدين والحياة والأخلاق والسلوك والمجتمع . وكل ما يتصل بنهضة الأمة ، وتكوينها ومقوماتها واعدادها لكل واجبات الخلافة وتبعاتها

ولقد كان من خير ما تعلمه الرسـول القدوة صلوات الله عليه من ربه هتاف يدعو به الى الله تعالى أن يجعل باعثه ومقصده الصدق فى كل شـأن من شـئونه ويختم به كل عمل من أعماله ، فانه خيرما ينزهها عن الزيف والزور والكذب والبهتان،

١ ـ قال تعـالى : « وقل رب أدخلنى مدخل صـدق وأخرجنى مخرج صدق وأجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » • (الاسراء ، ٨٠) •

يقول الامام الفخر الرازى فى تفسيره :

« وقل رب أدخلنى مدخل صدق •• الآية » •

أدخلنى فى كل ما تدخلنى فيه مع الصدق فى عبوديتك والاسـتغراق بمعرفتك وأخرجنى عن كل ما تخرجنى عنه مع الصدق فى العبودية والمعرفة والمحبة • والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلا فى كل دخول وخروج• وحركة وسكون ، ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصـدق مدحهما ، كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسـنا واخراجا حسنا لا يرى فيهما ما يكره •

(التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ٢١ ص ٢٣)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« وقل رب أدخلنى مدخل صـدق وأخرجنى مخرج صـدق » أى وقل داعيا : رب أدخلنى فى كل مقام نريد ادخالى فى الدنيا والآخرة مدخلا صادقا • أى يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صـادق فى قولك وفعلك وأخرجنى من كل ما تخرجنى منه مخرج صدق أى يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق •

ثم سأل الله القوة بالحجة والتسلط على الأعداء فقال « واجعـل لى من لدنك سلطانا نصيرا » • أى واجعـل لى تسـلطا بالحجة والملك فأقنع المستمعين للدعوة بالحجة ويكون للاسلام الغلبة بالاستيلاء على أهل الكفر •

(تفسير المراغى ج ١٥ ص ٨٥ بتصرف)

ويقول القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق •• الآية » قيل المعنى أمتنى اماتة صـــدق وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق • وقيل ادخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق ، وأخرجنى بالصدق • أى لا تجعلنى ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه • فان ذا الوجهين لا يكون وجيهـــا عنـــدك • وقيل الآية عامة فى كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، وينتظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة ، فهى دعاء ومعناه : رب أصلح لى وردى وصدرى فى كل الأمور •

وقوله « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » قال الشـــعبى وعكرمة أى حجة ثابتة • وذهب الحسن الى أنه العز والنصر واظهار دينه على الدين كله • قال فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له •
(جامع أحكام القرآن للقرطبى جـ ١٠ ص ٣١٢ ، ٣١٣ بتصرف)

٢ ــ وقال الله تعـــالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمســاكين وابن الســبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصـــلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » • (البقرة : ١٧٧) •

يقول المراغى فى تفسيره :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » أى ليس توجيه الوجه الى المشرق والمغرب لذاته نوعا من أنواع البر ، فهو فى نفسه ليس عملا صالحا •

« ولكن البر من آمن باللهواليوم الآخر والملائكةوالكتاب والنبيين » أىولكن البر : هو الايمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتصاف البار بها وقيامه بعملها •

ويقول القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق •• الآية » قيل المعنى أمتنى اماتة صدق وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق • وقيل ادخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق ، وأخرجنى بالصدق • أى لا تجعلنى ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه • فان ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك • وقيل الآية عامة فى كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، وينتظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة ، فهى دعاء ومعناه : رب أصلح لى وردى وصدرى فى كل الأمور •

وقوله « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » قال الشعبى وعكرمة أى حجة ثابتة • وذهب الحسن الى أنه العز والنصر واظهار دينه على الدين كله • قال فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له •
(جامع أحكام القرآن للقرطبى جـ ١٠ ص ٣١٢ ، ٣١٣ بتصرف)

٢ ــ وقال الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » • (البقرة : ١٧٧) •

يقول المراغى فى تفسيره :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » أى ليس توجيه الوجه الى المشرق والمغرب لذاته نوعا من أنواع البر ، فهو فى نفسه ليس عملا صالحا •

« ولكن البر من آمن باللهواليوم الآخر والملائكةوالكتاب والنبيين » أىولكن البر : هو الايمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتصاف البار بها وقيامه بعملها •

فالايمـان بالله أساس البر ، ولن يكون كذلك الا اذا كان متمكنا من النفس مصحوبا بالاذعان والخضوع واطمئنان القلب بحيث لا تبطره نعمة ولا تؤيسه نقمة. كمـا قال تعـالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

والايمان به يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية ودعوى الوساطة عند الله ، ودعوى التشريع والقول على الله بلا اذنه . فلا يرضى مؤمن أن يكون عبـدا ذليلا لأحد من البشر ، وانما يخضـع لله وشرعه .

والايمان باليوم الآخر يعلم الانسان أن له حياة أخرى فى عالم غيبى غير هـذا العالم ، فلا يقصر سعيه وعمله على ما يصـلح الجسد ، ولا يجعل أكبر همه لذات الدنيا وشهواتها فحسب .

والايمان بالملائكة أصـل للايمان بالوحى والنبوة واليوم الآخر . فمن أنكرها أنكر كل ذلك ، لأن ملك الوحى هو الذى يفيض العـلم باذن الله على النبى بأمور الدين ، كما قال تعالى : « تنز الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » وقال : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » .

والايمان بالنبيين يستدعى الاهتداء بهديهم ، والتخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم، أوامر ونواه . اذ من أيقن أن هذا الشيء حسن نافع توجهت نفسه لعمله،ومن اعتقد أنه ضار ابتعد عنه ونفرت نفسه منه .

والايمان بالنبيين يستدعى الاهتداء بهديهم ، والتخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم،
وقدران الجهل على قلوب كثير من الناس فظنوا أن صياحهم بالأدعية والصـلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل ما فى كتاب دلائل الخيرات والمدائح الشـعرية مع الجهـل بأخلاقه الشريفة وسـيرته الكاملة والتأسى به اذا دعوا الى ذلك أو نهوا عن البدع فى دينه ،والزيادة فى شريعته ،فيها غناء لهم أيما غناء وقد ضلوا ضلالا بعيدا.

فقــد جاء فى الصحيحين : « أن جماعة من أمته صلى الله عليه وســلم يردون الحوض يوم القيامة فيذادون عنــه (يطردون دونه) فيقول أمتى : فيقــال : انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك • فيقول سحقا لمن بدل بعدى » •

« وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » • أى واعطى المال مع حبه له الأصناف الآتية من ذوى الحاجة رحمة بهم وشفقة عليهم • وهم :

١ ــ ذوو القربى المحتاجون وهــم أحق النــاس بالبر اذ المركوز فى الفطرة أن الانسان يألم لفاقة ذوى رحمه وعدمهم أشــد مما يألم لغيرهم • فهو يرى أن هوانه بهوانهم وعزه بعزهم • فمن قطع رحمه وامتنع عن مساعدتهم وهم بائســون ، وهو فى نعمــة من الله وفضل ، فقــد بعد عن الدين والفطرة • وجاء فى الحديث الصحيح « صدقتك على المســكين صــدقة • وعلى ذى رحمك اثنتان » أى لأنها صــدقة وصــلة رحم •

٢ ــ اليتامى لأن صــغار الفقراء الذين لا والد لهم ولا كاســب فى حاجــة الى معونة ذوى اليسار من المسلمين كيلا تسوء حالهم ، وتفسد تربيتهم ، فيكونوا ضررا على أنفسهم وعلى الناس •

٣ ــ المساكين : الذين أقعدهم العجز عن طلب ما يكفيهم فيجب على المسلمين أن يساعدوهم ويقدموا لهم المعونة ، اذ هم أعضاء من جســد الأمة • ومن مصــلحة أفرادها التعــاون والتــآزر حفظا لكيانهــا ، وابقاء على بنيانهــا من التداعى الى الهــدم والزوال •

٤ ــ ابن السبيل : وقد أمر الشارع بمواساته واعانته فى ســفره ترغيب منــه فى السياحة والضرب فى الأرض •

٥ ــ السائلون : الذين اضطروا الى تكفف الناس لشدة عوزهم •

٦ ــ فى تحرير الرقاب وعتقها • ويشمل ذلك ابتياع الأرقاء وعتقهم ومســاعدة الأسرى على الافتداء واعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق يشترى نفسه من مولاه بثمن يجعله نجوما (أقساطا) •

فقــد جاء فى الصحيحين : « أن جماعة من أمته صلى الله عليه وســلم يردون الحوض يوم القيامة فيذادون عنــه (يطردون دونه) فيقول أمتى : فيقــال : انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك • فيقول سحقا لمن بدل بعدى » •

« وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » • أى واعطى المال مع حبه له الأصناف الآتية من ذوى الحاجة رحمة بهم وشفقة عليهم • وهم :

١ ــ ذوو القربى المحتاجون وهــم أحق النــاس بالبر اذ المركوز فى الفطرة أن الانسان يألم لفاقة ذوى رحمه وعدمهم أشــد مما يألم لغيرهم • فهو يرى أن هوانه بهوانهم وعزه بعزهم • فمن قطع رحمه وامتنع عن مساعدتهم وهم بائســون ، وهو فى نعمــة من الله وفضل ، فقــد بعد عن الدين والفطرة • وجاء فى الحديث الصحيح « صدقتك على المســكين صــدقة • وعلى ذى رحمك اثنتان » أى لأنها صــدقة وصــلة رحم •

٢ ــ اليتامى لأن صــغار الفقراء الذين لا والد لهم ولا كاســب فى حاجــة الى معونة ذوى اليسار من المسلمين كيلا تسوء حالهم ، وتفسد تربيتهم ، فيكونوا ضررا على أنفسهم وعلى الناس •

٣ ــ المساكين : الذين أقعدهم العجز عن طلب ما يكفيهم فيجب على المسلمين أن يساعدوهم ويقدموا لهم المعونة ، اذ هم أعضاء من جســد الأمة • ومن مصــلحة أفرادها التعــاون والتــآزر حفظا لكيانهــا ، وابقاء على بنيانهــا من التداعى الى الهــدم والزوال •

٤ ــ ابن السبيل : وقد أمر الشارع بمواساته واعانته فى ســفره ترغيب منــه فى السياحة والضرب فى الأرض •

٥ ــ السائلون : الذين اضطروا الى تكفف الناس لشدة عوزهم •

٦ ــ فى تحرير الرقاب وعتقها • ويشمل ذلك ابتياع الأرقاء وعتقهم ومســاعدة الأسرى على الافتداء واعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق يشترى نفسه من مولاه بثمن يجعله نجوما (أقساطا) •

وفى جعل هذا نوعا من البذل واجبا على المسلمين ، دليل على رغبة الشارع فى فك الرقاب واعتباره أن الانسان خلق ليكون حرا الا فى أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون الرقيق أسيرا .

والبذل لهذه الأصناف لا يتقيد بزمن معين ، ولا بامتلاك نصاب محدود من المال، ولا بتقدير المال المبذول بمقدار معين كالزكاة الواجبة ، بل وهو موكل الى أريحية المعطى وحال المعطى .

وقد أغفل الناس أداء هذه الحقوق التى حث عليها الكتاب الكريم ، مع ما فيها من التكافل العام بين المسلمين ، ولو أدوها لكانوا فى معايشهم من خير الأمم ولدخل كثير من الناس فى الاسلام ، لما يرون فيه من جميل العناية بالفقراء وأن لهم حقوقا فى أموال الأغنياء ، فتتوثق الصلة بين الطوائف المختلفة من المسلمين .

« وأقام الصلاة » أى أداها على أقوم وجه . ولا يتحقق ذلك بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فحسب . بل انما يكون بوجود سر الصلاة وروحها . ومن آثاره تحلى المصلى بالأخلاق الفاضلة وتباعده عن الرذائل ، فلا يفعل فاحشة ولا منكرا . كما قال تعالى مبينا فوائدها : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ولا يكون هلوعا جزوعا اذا مسه الضر ، ولا بخيلا منوعا اذا ناله الخير . كما قال عز اسمه : « ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا.الا المصلين.» كما لا يخشى فى الحق لوم اللائمين ، ولا يبالى فى سبيل الله ما يلقى من الشدائد ، ولا بما ينفق من فضله ابتغاء مرضاته .

(وآتى الزكاة)أى أعطى الزكاة المفروضة . وقلما تجىء الصلاة فى القرآن الكريم الا وهى مقترنة بالزكاة ، ذاك أن الصلاة تهذب الروح والمال قرين الروح . فبذله ركن عظيم من أعمال البر . ومن ثم أجمع الصحابة على محاربة مانعى الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن مانعها يهدم ركنا من أركان الاسلام وينقض أساس الايمان .

وقد بينت السنة العملية والقولية قدر المأخوذ وحددته بمقدار ١/٤٠ من رأس المال ، وسبيل الأخذ وسائر أحكام الزكاة .

وبعد أن ذكر البر فى الأعمال ذكر البر فى الأخلاق فقال :

« والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » أى والذين يوفون بعهودهم اذا عاهدوا عليها . وهذا شامل لما يعاهد عليه الناس بعضهم بعضا ، ولما يعاهد عليه المؤمنون ربهم من السمع والطاعة لكل ما جاء به فى دينه ، ولا يجب الوفاء به اذا كان فى معصية .

ومثل العهود : العقود . فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة .

وفى الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده ، كما أن الغدر والاخلاف فيها هادم للنظام مفسد للعمران . فما من أمة فقدت الوفاء بالعهد (وهو ركن الأمانة وقوام الصدق) الا حل بها العقاب الالهى ، فانتزعت الثقة من بين أفرادها حتى بين الأهل والعيال ، فيعيشون متخاذلين وكأنهم وحوش مفترسة ينتظر كل واحد وثبة الآخر اذا أمكن يده أن تصل اليه . ومن ثم يضطر أفرادها الى الاستيثاق فى عقودهم بكل ما يقدرون عليه ، ويحترس كل منهم من غدر الآخر . فلا يكون هناك تعاون ولا تناصر ، بل تباغض وتحاسد ، ولا سيما بين الأقارب ، ولو شمل الناس الوفاء لسلموا من هذا البلاء .

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » أى والصابرين لدى الفقر والشدة ، وعند الضر من مرض وفقد أهل وولد ومال ، وفى ميادين القتال ولدى الضرب والطعان ومنازلة الأقران .

وخص هذه المواطن الثلاثة مع أن الصبر محمود فى جميع الأحوال ، لأن من صبر فيها كان فى غيرها أصبر . فالفقر اذا اشتدت وطأته ضاق به الصدر ، وكاد يفضى الى الكفر . والضر اذا برح بالبدن أضعف الأخلاق والهمم ، وفى الحرب التعرض للهلاك

وقد بينت السنة العملية والقولية قدر المأخوذ وحددته بمقدار ١/٤٠ من رأس المال ، وسبيل الأخذ وسائر أحكام الزكاة .

وبعد أن ذكر البر فى الأعمال ذكر البر فى الأخلاق فقال :

« والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » أى والذين يوفون بعهودهم اذا عاهدوا عليها . وهذا شامل لما يعاهد عليه الناس بعضهم بعضا ، ولما يعاهد عليه المؤمنون ربهم من السمع والطاعة لكل ما جاء به فى دينه ، ولا يجب الوفاء به اذا كان فى معصية .

ومثل العهود : العقود . فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة .

وفى الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده ،كما أن الغدر والاخلاف فيها هادم للنظام مفسد للعمران . فما من أمة فقدت الوفاء بالعهد (وهو ركن الأمانة وقوام الصدق) الا حل بها العقاب الالهى ، فانتزعت الثقة من بين أفرادها حتى بين الأهل والعيال ، فيعيشون متخاذلين وكأنهم وحوش مفترسة ينتظر كل واحد وثبة الآخر اذا أمكن يده أن تصل اليه . ومن ثم يضطر أفرادها الى الاستيثاق فى عقودهم بكل ما يقدرون عليه ، ويحترس كل منهم من غدر الآخر . فلا يكون هناك تعاون ولا تناصر ، بل تباغض وتحاسد ، ولا سيما بين الأقارب ، ولو شمل الناس الوفاء لسلموا من هذا البلاء .

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » أى والصابرين لدى الفقر والشدة ، وعند الضر من مرض وفقد أهل وولد ومال ، وفى ميادين القتال ولدى الضرب والطعان ومنازلة الأقران .

وخص هذه المواطن الثلاثة مع أن الصبر محمود فى جميع الأحوال ، لأن من صبر فيها كان فى غيرها أصبر . فالفقر اذا اشتدت وطأته ضاق به الصدر ، وكاد يفضى الى الكفر . والضر اذا برح بالبدن أضعف الأخلاق والهمم ، وفى الحرب التعرض للهلاك

بخوض غمرات المنية والظفر مقرون بالصبر ، وبالصبر يحفظ الحق الذى يناضل صاحبه دونه ، وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر .

وباتباع هذه الأوامر كانت الأمة الاسلامية أعظم أمة حربية فى العالم .وما يزال استبداد الحكام يفسد من بأسها ، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة يضعف من قوتها .

« أولئك الذين صدقوا » فى دعواهم الايمان دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم .

« وأولئك هم المتقون » أى وأولئك هم الذين جعلوا بينهم وبين سخط الله وقاية بالبعد عن المعاصى التى توجب خذلان الله فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

وقال بعض العلماء : (من عمل بهذه الآية فقد كمل ايمانه ونال أقصى مراتب ايقانه) . (تفسير المراغى ج ٢ ص ٥٤ ــ ٥٩ بتصرف) .

وقال القاسمى فى تفسيره :

« أولئك الذين صدقوا » فى ايمانهم . لأنهم حققوا الايمان القلبى بالأقوال والأفعال . فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأحوال . وفيه اشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق فى دعواه الايمان » . (محاسن التأويل للقاسمى ج ٣ ص ٣٩٤) .

الأدلة من السنة :

ان الصدق دليل الخير ، والهادى اليه فى كل آفاق البر ومجالات الحق وميادين الدعوة اليه ، والفداء فيه . والصديقون هم أبرز العلامات فى كل أفق من آفاق الحياة يضعون عليه بصمانهم ويخلفون فيه خير ما عرفته الدنيا من آثار وثمار .

الأمر الذى يبلغ بهم وبالحياة والأحياء درجة الطمأنينة والثقة واليقين ، ثم الفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة .

١ — عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة . وما يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وغيرهما .
(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى : جـ ١٩ ص ٩٣)

٢ — وعن أبى ليلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل يس الذى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . وحزقيل مؤمن آل فرعون الذى قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . وعلى بن أبى طالب وهو أفضلهم) . رواه أبو نعيم فى المعرفة ، وابن عساكر ، وحسنه السيوطى .

(الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨١)

٣ — وروى ابن قانع عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الصدق ينجى) . أخرجه السيوطى .
(المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٣)

٤ — وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : (حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : دع ما يريبك الى ما لا يريبك . فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة) .
رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح (الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٦٨)

٥ — وعن أبى خالد حكيم بن حزام — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا . فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما . وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما) . متفق عليه (رياض الصالحين ص ٤٦) .

الآثار :

ان الصدق من أفضل ما يؤتاه انسان فى الحياة . به يكتسب اعتدال الذات ، وثقة الناس ، وعز الدنيا وسعادة الآخرة . وهو خير ما يمنح الحياة توازنها والعلائق اتزانها وثباتها وقوتها .

١ ــ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالصــدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة • وما يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وغيرهما •
(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى : ج ١٩ ص ٩٣)

٢ ــ وعن أبى ليلى قال : قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : (الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل يس الذى قال يا قوم اتبعوا المرسلين • وحزقيل مؤمن آل فرعون الذى قال : أتقتلون رجــلا أن يقول ربى الله • وعلى بن أبى طالب وهو أفضلهم) • رواه أبو نعيم فى المعرفة ، وابن عساكر ، وحسنه السيوطى •

(الجامع الصغير ج ٢ ص ٨١)

٣ ــ وروى ابن قانع عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الصدق ينجى) • أخرجه السيوطى •
(المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣)

٤ ــ وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : (حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : دع ما يريبك الى ما لا يريبك • فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة)• رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح (الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٦٨)

٥ ــ وعن أبى خالد حكيم بن حزام ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا • فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما • وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما) • متفق عليه (رياض الصالحين ص ٤٦) •

الآثــار :

ان الصدق من أفضل ما يؤتاه انسان فى الحياة • به يكتسب اعتدال الذات ، وثقة الناس ، وعز الدنيا وســعادة الآخرة • وهو خير ما يمنح الحيــاة توازنها والعلائق اتزانها وثباتها وقوتها •

١ ـ قال بعض الحكماء : (عليك بالصدق ، فما السيف القاطع فى كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق ، والصدق عز وان كان فيه ما تكره) .

وقال بعض الحكماء : (الصدق عز والكذب خضوع) .
(المحاسن والمساوىء لابراهيم بن محمد البيهقى جـ ٢ ص ٦٣)

٢ ـ وقيل : (الصدق ميزان الله الذى يدور عليه العدل ، والكذب مكيال الشيطان الذى يدور عليه الجور) . (المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٣) .

٣ ـ وقيل : (دخل هشام بن عروة على المنصور فقال له : يا أبا المنذر ، أتذكر حين دخلت عليك أنا وأخى مع أبى الخلائف وأنت تشرب سويقا بقصبة يراع ، فلما خرجنا من عندك قال أبى : استوصوا بالشيخ خيرا واعرفوا حقه فلا يزال فى قومكم بقية ما بقى .قال : ما أثبت (١) ذلك يا أمير المؤمنين . فلامه بعض أهله وقالوا يذكرك أمير المؤمنين ما يمت اليك وتقول له لا أذكره . فقال : لم أذكره ولم يعودنى الله فى الصدق الا خيرا) . (المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٤) .

٤ ـ وقال بعض الشعراء :

عود لسانك قول الصدق تحظ به ... ان اللسان لما عودت معتاد

موكل بتقاضى ما سننت له ... فى الخير والشرفا نظر كيف ترتاد

(أدب الدنيا والدين لأبى الحسن البصرى ص ٢٦٢)

٥ ـ وقال بعض الحكماء : (الخرس خير من الكذب ، وصدق اللسان أول السعادة) و (الصدق منجيك وان خفته ، والكذب مرديك وان أمنته (.
(المرجع السابق ص ٢٦٠ ، ٢٦٣)

---

(١) ما أثبت ذلك : أى ما أعرف ذلك حق المعرفة .

٦ ـ وقال بعض البلغاء : (الصادق مصون جليل، والكاذب مهان ذليل) .. وليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق أقوى معين ، والصدق أفضل قرين).
(المرجع السابق ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢)

٧ ـ وقال بعض الأدباء : (لا سيف كالحق ، ولا عون كالصدق) .
(المرجع السابق ص ٢٦٠)

٨ ـ وقيل : (من قل صدقه قل صديقه) . (المرجع السابق ص ٢٦٠) .

العنصر الثالث

جزاء الصـــادقين

الأدلة من الكتاب :

الصدق أحد روافد الخير الكبرى في حياة الناس ، وفي دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم. وخير رفيق يقف مع الانسان ســاعة الروع ؛ ويوم الفزع الأكبر ، حيث يجد الجزاء عليه مبررا مباركا من نعيم الله وثوابه وجنته ورضوانه . والخلود في مقعد صـــدق عند مليك مقتدر ، وحيث يحظى من ذلك كله بكل ما يشتهى وما يحب .

هذا فضلا عما يعطاه الصادقون من رفيع المنازل والدرجات ، وما ينعمون به من شرف الرفقة المثلى بالأنبياء والشهداء والصالحين .

١ ـ قال الله تعالى : «قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم »
(سورة المائدة : ١١٩)

٦ ـ وقال بعض البلغاء : (الصادق مصون جليل، والكاذب مهان ذليل) .. وليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق أقوى معين ، والصدق أفضل قرين).
(المرجع السابق ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢)

٧ ـ وقال بعض الأدباء : (لا سيف كالحق ، ولا عون كالصدق) .
(المرجع السابق ص ٢٦٠)

٨ ـ وقيل : (من قل صدقه قل صديقه) . (المرجع السابق ص ٢٦٠) .

العنصر الثالث

جزاء الصـــادقين

الأدلة من الكتاب :

الصدق أحد روافد الخير الكبرى في حياة الناس ، وفي دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم. وخير رفيق يقف مع الانسان ســاعة الروع ؛ ويوم الفزع الأكبر ، حيث يجد الجزاء عليه مبررا مباركا من نعيم الله وثوابه وجنته ورضوانه . والخلود في مقعد صــدق عند مليك مقتدر ، وحيث يحظى من ذلك كله بكل ما يشتهى وما يحب .

هذا فضلا عما يعطاه الصادقون من رفيع المنازل والدرجات ، وما ينعمون به من شرف الرفقة المثلى بالأنبياء والشهداء والصالحين .

١ ـ قال الله تعالى : «قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم »
(سورة المائدة : ١١٩)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : «قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» أى صدقهم فى الدنيا . ويحتمل أن يكون صـــدقهم فى العمل لله ، ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله ، وانما ينفعهم الصدق فى ذلك اليوم وان كان نافعا فى كل الأيام لوقوع الجزاء فيه .

وقيل المراد : صدقهم فى الآخرة . وذلك فى الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ وفيما شهدوا به على أنفســهم من أعمالهم ، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة فيغفر لهم باقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم والله أعلم .

وقوله تعالى : « لهم جنات تجرى من تحتها » أى من تحت غرفها وأشجارها ، ثم بين الله تعالى ثوابهم ، وأنه راض عنهم رضا لا ينضب بعده أبدا « ورضوا عنه » أى عن الجزاء الذى أثابهم به .

« ذلك الفوز » أى الظفر « العظيم » أى الذى عظم خيره وكثر وارتفعت منزلة صاحبه وشرف . (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ٦ ص ٣٧٩ ــ ٣٨١ بتصرف)

ويقول الامام الفخر الرازى فى تفسيره :

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » أجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة . والمعنى : أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم فى القيامة . والدليل على أن المراد ما ذكرنا : أن صدق الكفار فى القيامة لا ينفعهم . ألا ترى أن أبليس قال : « ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» فلم ينفعه هذا الصدق وهذا الكلام تصديق من الله تعالى لعيسى فى قوله : « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به » .

ثم قال تعالى « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهــا أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » .

اعلم أنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين فى الدنيا ينفعهم فى القيامة شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب • وحقيقة الثواب : أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم•

فقوله : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار »اشارة الى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم •

وقوله : « خالدين فيها أبدا » وأينما ذكر عقاب الفساق من أهل الايمان ذكر لفظ الخلود • ولم يذكر معه التأبيد •

وأما قوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » فهو اشارة الى التعظيم ، هذا ظاهر قول المتكلمين •

وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى فتحت قوله « رضى الله عنهم ورضوا عنه » أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها • جعلنا الله من أهلها• (التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ١٢ ص ١٣٧ — ١٣٩)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » أى قال الله تعالى : ان هذا اليوم هو اليوم الذى ينفع فيه الصادقين صدقهم فى ايمانهم ، وفى شهاداتهم ، وفى سائر أقوالهم وأحوالهم •

ثم بين هذا النفع فقال : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » أى للصادقين جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الآخرة ثوابا من عند الله • ورضى الله عنهم ورضوا عنه • وهذا غاية السعادة الأبدية اذ لا مطلب لهم أعلى منه حتى تمتد أعناقهم اليه ، وتتطلع نفوسهم لبلوغه ، كما قال تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » •

اعلم أنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين فى الدنيا ينفعهم فى القيامة شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب . وحقيقة الثواب : أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم.

فقوله : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » اشارة الى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم .

وقوله : « خالدين فيها أبدا » وأينما ذكر عقاب الفساق من أهل الايمان ذكر لفظ الخلود . ولم يذكر معه التأبيد .

وأما قوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » فهو اشارة الى التعظيم ، هذا ظاهر قول المتكلمين .

وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى فتحت قوله « رضى الله عنهم ورضوا عنه » أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها . جعلنا الله من أهلها. (التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ١٢ ص ١٣٧ — ١٣٩)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » أى قال الله تعالى : ان هذا اليوم هو اليوم الذى ينفع فيه الصادقين صدقهم فى ايمانهم ، وفى شهاداتهم ، وفى سائر أقوالهم وأحوالهم .

ثم بين هذا النفع فقال : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » أى للصادقين جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الآخرة ثوابا من عند الله . ورضى الله عنهم ورضوا عنه . وهذا غاية السعادة الأبدية اذ لا مطلب لهم أعلى منه حتى تمتد أعناقهم اليه ، وتتطلع نفوسهم لبلوغه ، كما قال تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

وقـوله : « ذلك الفوز العظيم » أى ذلك الذى ذكر من النعيمين الجسمانى والروحانى ،اللذين يحصلون عليهما بعد النجاة من أهوال يوم القيامة هو الفوز البالغ الغاية . لأن الفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضـده أو مما يحول دونه كما قال تعالى : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .

(تفسير المراغى جـ ٧ ص ٦٦)

ويقول صاحب التفسير القرآنى للقرآن :

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهـار خالدين فيها..الخ الآية » ففى هذا اليوم العظيم يجد الصادقون الذين أخلصوا دينهم لله ولم يحرفوا ولم يبدلوا فى دين الله يجـدون عاقبة هذا الصـدق مغفرة ورحمة ورضوانا فى جنـات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لا يتحولون عنها ، ولا ينتقلون الا من نعيم الى نعيم فيها .

« رضى الله عنهم » بما كان منهم من صدق فى القول والعمل « ورضوا عنه » بما أحسن اليهم من جزاء ، وأفاض عليهم من نعيم .«ذلك الفوز العظيم» الذى تعدل اللحظة منه عمر الدنيا كلها ،وما لقى المنعمون فيها من نعيم ، وما ذاق السعداء فيها من طعوم السعادة . فكل هذا لا يعد شيئا الى نظرة رضى من الله الى من رضى الله عنهم. جعلنا الله منهم وأدخلنا فى زمرتهم وأرضانا بما أرضاهم ، بما تبلغه بنا سوابغ رحمته، وتؤهلنا له امداد مننه وأفضاله .

وفى قوله تعالى : « ورضوا عنه » لفتة كريمة من رب كريم الى عباده المكرمين ، حيث يرضى عنهم ،ويرضون عنه ،حتى لكأنه رضى منه متبادل بين الخالق والمخلوقين، والمعبود والعابدين ، فسبحانه من رب كريم بر رحيم ، شاهت وجوه من يتجهون الى وجـه غير وجهه ، وخسىء وخسر من يلوذون بجنـاب غير جنابه ، ويطوفون بحمى غير حماه . (التفسير القرآنى للقرآن جـ ٧ ص ٨٥ ، ٨٦) .

٢ — وقال الله تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون • لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين • ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » • (الزمر : ٣٣ — ٣٥) •

يقول ابن كثير فى تفسيره :

عن ابن عباس رضى الله عنهما : « والـذى جـاء بالصـدق » قال : من جاء بلا اله الا الله « وصدق به » يعنى رسـول الله صلى الله عليه وسلم • وقرأ الربيع ابن أنس « والذين جاءوا بالصدق » يعنى الأنبياء « وصدقوا به » يعنى الأتباع •
وعن مجاهد « والذى جاء بالصدق وصدق به » قال أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما أعطيتمونا،فعملنا فيه بما أمرتمونا•وهذاالقول، عن مجاهد يشمل كل المؤمنين • فان المؤمنين يقولون الحق ويعملون به والرسـول صلى الله عليه وسـلم أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير ، فانه جاء بالصـدق وصـدق المرسلين ، وآمن بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله •

« أولئك هم المتقون » قال ابن عباس رضى الله عنهما : اتقوا الشرك •

« لهم ما يشاءون عنـد ربهم » يعنى فى الجنة مهما طلبوا وجدوا « ذلك جزاء المحسنين • ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » كما قال عز وجـل فى الآية الأخرى « أولئـك الذين تتقبـل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون» •
.(تفسير القرآن العظيم للامام ابن كثير ج ٤ ص ٥٣ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

ذكر الله الصادقين المصدقين ومدحهم على ما فعلوا فقال « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » أى والذى جاء بالصدق وهو الرسـول صلى الله عليه وسـلم وصدق به وهم أتباعه الذين نهجوا نهجه وساروا على طريقه ، هم الذين

٢ — وقال الله تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون • لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين • ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » • (الزمر : ٣٣ — ٣٥) •

يقول ابن كثير فى تفسيره :

عن ابن عباس رضى الله عنهما : « والــذى جــاء بالصــدق » قال : من جاء بلا اله الا الله « وصدق به » يعنى رســول الله صلى الله عليه وسلم • وقرأ الربيع ابن أنس « والذين جاءوا بالصدق » يعنى الأنبياء « وصدقوا به » يعنى الأتباع •
وعن مجاهد « والذى جاء بالصدق وصدق به » قال أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما أعطيتمونا،فعملنا فيه بما أمرتمونا•وهذاالقول، عن مجاهد يشمل كل المؤمنين • فان المؤمنين يقولون الحق ويعملون به والرســول صلى الله عليه وســلم أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير ، فانه جاء بالصــدق وصــدق المرسلين ، وآمن بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله •

« أولئك هم المتقون » قال ابن عباس رضى الله عنهما : اتقوا الشرك •

« لهم ما يشاءون عنــد ربهم » يعنى فى الجنة مهما طلبوا وجدوا « ذلك جزاء المحسنين • ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » كما قال عز وجــل فى الآية الأخرى « أولئــك الذين تتقبــل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون» • (تفسير القرآن العظيم للامام ابن كثير ج ٤ ص ٥٣ بتصرف) .

ويقول المراغى فى تفسيره :

ذكر الله الصادقين المصدقين ومدحهم على ما فعلوا فقال « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » أى والذى جاء بالصدق وهو الرســول صلى الله عليه وســلم وصدق به وهم أتباعه الذين نهجوا نهجه وساروا على طريقه ، هم الذين

اتقوا الله ، فوحدوه وبرئوا من الأوثان والأصنام ، وأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه ، رجاء ثوابه وخوف عقابه . ثم ذكر ما وعدهم به من ثواب عظيم ونعيم مقيم فقال : « لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » أى لهم من الكرامة عند ربهم ماتشتهيه أنفسهم ، وتقر به أعينهم ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وذلك جزاء من أحسن عملا ، فأخلص لربه فى السر والنجوى ، وراقبه فى أقواله وأفعاله ، وعلم أنه محاسب على النقير والقطمير والجليل والحقير .

ثم بين سبحانه ما هو الغاية لهم عند ربهم فقال « ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا » وذلك أعظم ما يرجونه من دفع الضر عنهم . والنفس اذا علمت زوال المكروه عنها كان لها فى ذلك سرور ولذة ، تعدل السرور واللذة بجلب المنافع لها .

« ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » أى ويثيبهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بمساويها . وقدم تكفير السيئات على اعطاء الثواب ، لأن دفع المضار أهم من جلب المسار . وفى ذكر تكفير الأسوأ اشارة الى استعظامهم للمعصية مطلقا لشدة خوفهم من الله ، والى أن الحسن الذى يعملونه هو الأحسن عند الله لحسن اخلاصهم فيه . (تفسير المراغى ج ٢٤ ص ٤ ، ٥ بتصرف) .

٣ — وقال تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » . (النساء : ٦٩ ، ٧٠) .

يقول الطبرى فى تفسيره :

«ومن يطع الله والرسول .. الآية»: يعنى بذلك جل ثناؤه : ومن يطع الله والرسل بالتسليم لأمرهما ، واخلاص الرضا بحكمهما ، والانتهاء الى أمرهما ، والانزجار عمانهوا عنه من معصية الله ، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته فى الدنيا من أنبيائه ، وفى الآخرة اذا دخل الجنة ، واختلف فى معنى الصديقين . فقال بعضهم : الصديقون أتباع الأنبياء الذين صدقوهم ، واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم .

وأما قوله جل ثناؤه « وحسن أولئــك رفيقا » فانه يعنى وحسن هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم رفقاء فى الجنة .

وقوله « ذلك الفضل من الله » أى كون من أطاع الله والرسول مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وفضل الله : عطاء الله اياهم. وفضله عليهم لا باستجابتهم لذلك لسابقة سبقت لهم .

فان قال قائل : أو ليس بالطاعة وصلوا الى ما وصلوا اليه من فضله .

قيل له : انهم لم يطيعوه فى الدنيــا الا بفضـــله الذى تفضل به عليهم فهــداهم به لطاعته ، فكل ذلك فضل منه تعالى ذكره .

« وكفى بالله عليما » أى وحسب العباد بالله الذى خلقهم عليما بطاعة المطيــع فيهم ، ومعصية العاصى. فانه لا يخفى عليه شىء من ذلك. ولكنه يحصيه عليهم ويحفظه حتى يجازى جميعهم فيجزى المحسن منهم بالاحسان ، والمسيىء منهم بالاساءة ، ويعفو عمن شاء من أهل التوحيد . (تفسير الطبرى ج ٥ ص ١٠٣ ، ١٠٤ بتصرف) .

ويقول صاحب المنار :

« الصديقين » جمع صديق : وهو من غلب عليه الصدق وعرف به كالسـكير لمن غلب عليه السكر .

قال الراغب : الصديق : من كثر منه الصدق ، وقيل بل يقال لمن لا يكذب قط . وقيل لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق . وقيل بل لمن صــدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه لقوله تعـــالى « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صــديقا نبيا » وقال فى المسيح « وأمه صديقة » .

قال الاستاذ الامام : الصديقون : هم الذين زكت فطرتهم ، واعتدلت أمزجتهم. وصــفت سرائرهم ، حتى انهم يميزون بين الحق والبــاطل والخــير والشر بمجرد عرضــهم له . فهم يصدقون بالحق على أكمل وجه ، ويبالغون فى صــدق الايمان والعمل ، كما نقل عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه بمجرد ما بلغته دعوة النبى صلى الله عليه وسلم عرف أنها الحق وقبلها وصدق بها ، فصــدق النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله وعمله أكمل الصدق ، ويليه فى ذلك جميع السابقين الأولين ، فانهم

وأما قوله جل ثناؤه « وحسن أولئــك رفيقا » فانه يعنى وحسن هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم رفقاء فى الجنة •

وقوله « ذلك الفضل من الله » أى كون من أطاع الله والرسول مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين • وفضل الله : عطاء الله اياهم• وفضله عليهم لا باستجابتهم لذلك لسابقة سبقت لهم •

فان قال قائل : أو ليس بالطاعة وصلوا الى ما وصلوا اليه من فضله •

قيل له : انهم لم يطيعوه فى الدنيــا الا بفضــله الذى تفضل به عليهم فهــداهم به لطاعته ، فكل ذلك فضل منه تعالى ذكره •

« وكفى بالله عليما » أى وحسب العباد بالله الذى خلقهم عليما بطاعة المطيــع فيهم ، ومعصية العاصى•فانه لا يخفى عليه شىء من ذلك•ولكنه يحصيه عليهمويحفظه حتى يجازى جميعهم فيجزىالمحسن منهم بالاحسان ، والمسيىءمنهم بالاساءة ، ويعفو عمن شاء من أهل التوحيد • (تفسير الطبرى ج ٥ ص ١٠٣ ، ١٠٤ بتصرف) •

ويقول صاحب المنار :

« الصديقين » جمع صديق : وهو من غلب عليه الصدق وعرف به كالسـكير لمن غلب عليه السكر •

قال الراغب : الصديق : من كثر منه الصدق ، وقيل بل يقال لمن لا يكذب قط • وقيل لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق • وقيل بل لمن صــدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله لقوله تعــالى « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صــديقا نبيا » وقال فى المسيح « وأمه صديقة » •

قال الاستاذ الامام : الصديقون : هم الذين زكت فطرتهم ، واعتدلت أمزجتهم• وصــفت سرائرهم ، حتى انهم يميزون بين الحق والبــاطل والخــير والشر بمجرد عـرضــهم له • فهم يصدقون بالحق على أكمل وجه ، ويبالغون فى صــدق الايمان والعمل ، كما نقل عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه بمجرد ما بلغته دعوة النبى صلى الله عليه وسلم عرف أنها الحق وقبلها وصدق بها ، فصــدق النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله وعمله أكمل الصدق ، ويليه فى ذلك جميع السابقين الأولين ، فانهم

انقادوا الى الاسلام بسهولة قبل أن تظهر الآيات وثمرات الايمان تمام الظهور ، كعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون وعدد آخر من السابقين ، ودرجة هؤلاء قريبة من مرتبة النبوة فان الأنبياء صديقون وزيادة .

ولا غرو فالصدق فى القول والعمل أس الفضائل ، كما أن الكذب والنفاق أس الرذائل .

وهؤلاء الأصناف الأربعة « النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » هم صفوة الله من عباده ، وقد كانوا موجودين فى كل أمة . ومن أطاع الله والرسول من من هذه الأمة كان منهم وحشر يوم القيامة معهم ، لأنه وقد ختم الله النبوة والرسالة به لا بد أن يرتقى فى الأتباع الى درجة أحد الأصناف الثلاثة الصديقين والشهداء والصالحين « وحسن أولئك رفيقا » .

أى ان مرافقة أولئك الأصناف هى فى الدرجة التى يرغب العامل فيها لحسنها . وفى الكشاف ان فى هذه الجملة معنى التعجب كأنه قيل : ما أحسن أولئك رفيقا !. والرفيق كالصديق والخليط الصاحب . والأصحاب يرتفق بعضهم ببعض واستعملت العرب الرفيق والرسول والبريد مفردا استعمال الجمع أو الجنس ، ولهذا حسن الافراد هنا . وقيل تقدير الكلام وحسن كل فريق من أولئك رفيقا . وهل يرافق كل فريق فريقه اذ كان مشاكله وضريبه ؟ أم يتصل كل منهم بمن فوقه ولو بعض الاتصال الذى يكون فى حال دون حال . الظاهر الثانى وهو ما يشير اليه التعبير بالفضل فى الآية التالية « ذلك الفضل من الله » فى هذه العبارة وجهان : أحدهما : أن المعنى ذلك الذى ذكر من جزاء من يطيع الله ورسوله هو الفضل الكامل الذى لا يعلوه فضل ، فان الصعود الى احدى تلك المراتب فى الدنيا ، وما يتبعه من مرافقة أهلها وأهل من فوقها فى الآخرة هو منتهى السعادة . فيه يتفاضل الناس فيفضل بعضهم بعضا ، وهو من الله تفضل به على عباده .

وثانيهما : أن المعنى ذلك الفضل الذى ذكر من جزاء المطيعين هو من الله تعالى. ويرى بعض الناس أن التعبير بلفظ الفضل ينافى أن يكون ذلك جزاء ويقتضى أن يكون زيادة على الجزاء . سمه جزاء أو لا تسمه هو من فضل الله تعالى على كل حال .

«وكفى بالله عليما» وكيف لا تقع الكفاية بعلمه بالأعمال ، وبدرجة الاخلاص فيها ، وبما يستحق العامل من الجزاء ، ارادته تعالى للجزاء والوفاق لجزاء الفضل ولزيادة الفضل،ذلك كله تابع لعلمه المحيط،فهو يعطى بارادته ومشيئته ويشاء بحسب علمه . فالتذكير بالعلم الالهى فى آخر السياق يشعرنا بأن شيئا من أعمالنا ونياتنا لا يعزب عن علمه ، ليحذر المنافقون المراءون لعلهم يتذكرون فيتوبون ، وليطمئن المؤمنون الصادقون لعلهم ينشطون ويزدادون .(تفسير المنار جـ ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٨)

الأدلة من السنة :

أن الصدق داعم البر وباعثه ، والرائد الى الجنة ونعيمها ، والمهيىء لفضل الله ورضوانه ، والمؤهل للرفقة العظمى لدى الله يوم القيامة .

من أجل ذلك رغب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحض عليه ، وفاضت بذلك سنته صلى الله عليه وسلم فى كل مجال من مجالات القول والعمل .

١ — عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة . واياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار) رواه ابن حبان فى صحيحه .
(الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٧٠)

٢ — وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : أصدقوا اذا حدثتم ، وأوفوا اذا وعدتم ، وأدوا اذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم) . رواه أحمد وابن أبى الدنيا وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد . (المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

٣ — وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء) . رواه الترمذى وقال حديث حسن . (المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥٥) .

«وكفى بالله عليما» وكيف لا تقع الكفاية بعلمه بالأعمال ، وبدرجة الاخلاص فيها ، وبما يستحق العامل من الجزاء ، ارادته تعالى للجزاء والوفاق لجزاء الفضل ولزيادة الفضل،ذلك كله تابع لعلمه المحيط،فهو يعطى بارادته ومشيئته ويشاء بحسب علمه . فالتذكير بالعلم الالهى فى آخر السباق يشعرنا بأن شيئا من أعمالنا ونياتنا لا يعزب عن علمه ، ليحذر المنافقون المراءون لعلهم يتذكرون فيتوبون ، وليطمئن المؤمنون الصادقون لعلهم ينشطون ويزدادون .(تفسير المنار ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٨)

الأدلة من السنة :

أن الصدق داعم البر وباعثه ، والرائد الى الجنة ونعيمها ، والمهيىء لفضل الله ورضوانه ، والمؤهل للرفقة العظمى لدى الله يوم القيامة .

من أجل ذلك رغب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحض عليه ، وفاضت بذلك سنته صلى الله عليه وسلم فى كل مجال من مجالات القول والعمل .

١ — عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة . واياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار) رواه ابن حبان فى صحيحه .
(الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٧٠)

٢ — وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : أصدقوا اذا حدثتم ، وأوفوا اذا وعدتم ، وأدوا اذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم) . رواه أحمد وابن أبى الدنيا وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد . (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

٣ — وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء) . رواه الترمذى وقال حديث حسن . (المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٥) .

٥ ــ وعن اسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيــه عن جــده رضى الله عنهما ، أنه خرج مع رســول الله صلى الله عليه وسلم الى المصلى ، فرأى الناس يتبايعون فقال : (يا معشر التجار فاستجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفعوا أعناقهم وابصارهم اليه فقــال : ان التجار يبعثون يــوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصــدق) • رواه الترمذى وقال حــديث حسن صحيح وابن ماجه وابن حبــان فى صحيحه والنسائى وقال صحيح الاسناد • (المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧) •

الآثــار :

الصــدق من أفضل ما يلتزمه الانسان ويوفق اليــه • به يمنح نور البصــيرة وطمأنينة النفس وثقة الناس •

واذا صح الصدق فى قلب امرىء وصل الى مرفأ الأمن وشاطىء السلامة والنجاة •

١ ــ قال محمد بن ســعيد المروزى : « اذا طلبت الله بالصــدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شىء من عجائب الدنيا والآخرة » •

(احياء علوم الدين للغزالى ج ٤ ص ٣٨٧)

٢ ــ وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام : يا داود « من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته » • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٨٧) •

٣ــ وقال بعضهم : « أجمع الفقهاء والعلمــاء على ثلاث خصال أنها اذا صحت ففيها النجاة ــ ولا يتم بعضها الا ببعض ــ الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى فى الأعمال ، وطيب المطعم » • (المصدر السابق ج ٤ ص ٣٨٧) •

٤ ــ وحكى عن أبى عمرو الزجاجى أنه قال : «ماتت أمى فورثت منها دار فبعتها بخمسين دينارا وخرجت الى الحج • فلما بلغت «بابل» استقبلنى واحد من «القناقنة[1]» وقال ما معك ؟ فقلت فى نفسى : الصدق خير • ثم قلت : خمسون دينارا • فقــال : ناولنيها • فناولته الصرة فعدها فاذا هى خمسون دينارا • فقال : خذها • فلقد أخذنى صدقك • ثم نزل عن الدابة وقال : اركبها • فقلت لا أريد !! فقال : لا بد وألح على فركبتها • فقال : وأنا على أثرك ، فلما كان العــام المستقبل لحق بى ولازمنى حتى مات » • (الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥١) •

---

(١) القناقنة : جمع قنقن ، وهو الدليل الهادى والبصير بالماء فى حفر القنى •





وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



نشرات التوعية الدينية

العدد ١٦٨ السنة الثامنة

١٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٦ هـ ١٦ من مايــو سنة ١٩٧٦ م

الكذب وأثره فى تقويض صرح الأمة (١)

مقدمــة :

التعريف بالكذب :

العنــاصر :

أقبح الرذائل الكذب على الله ورسوله .

الكذب ديدن أهل الكفر والنفاق .

تنفير الإسلام من الكذب .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد . . .

فلقد استهدف الإسلام منذ اللحظة الأولى صلاح البشر وفلاحهم وسعادتهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، وفى كل علائقهم ومعاملاتهم وأنماط حياتهم .

والسعادة دائما لا تنبع إلا من داخل النفس ولا تشع إلا منها . وبقدر ما تكون عليه من استواء أو انحراف يكون رضاها أو سخطها وسعادتها أو شقوتها .

ولكى يتيح الله للإنسان أن يشعر السعادة ، وأن يأخذ سبيله نحو الرضا أنزل رسالة الإسلام التى توفر على تبليغها إلى الناس فى كل جيل أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم أجمعين ، حتى غدت مكتملة حين بلغ بها الرسول الخاتم محمد - ﷺ - فجاءت منهجا متكاملا فى تزكية النفس وصقل الوجدان ، وتقويم الخلق وتهذيب السلوك ، ثم تطهير المجتمع وبث الفضيلة والثقة والطمأنينة فى كل ربوعه وحناياه . وبحيث بدا هذا الكمال المنهجى فى كل ما يقود البشر إلى خيرى الدنيا والآخرة وكل ما يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

ولقد كان للبيئة والوراثة والعادات والتقاليد أثرها البارز فى لى عنق الفطرة ، وتكدير صفوها ، وتلوين وجهها ، بحيث نتج عن ذلك كثير من الرذائل

والانحرافات والمساوىء التى كانت وخيمة العواقب على إنسانية الإنسان وصبغته وما طبع عليه من حق وخير وبر .

الأمر الذى جاء الإسلام يرصده ويسجل ظواهره وبواعثه وأطواره ونتائجه ، ثم تشخيصه وتوصيف الدواء لعلاجه وطبه والوقاية منه .

ولقد كانت رذيلة الكذب من أخطر ما لوث البشرية ، وكدر صفوها ، ودنس طهرها، وجر عليها مستطير الشر فى فطرتها وعقيدتها وحياتها،وأخذ ذلك معها صورا متنوعة ومظاهر مختلفة ، وكان أبشعها وأخبثها على الإطلاق وأشدها فتكا بها ، وإفساداً لفطرتها،وبعداً بها عن الحق والمنطق الكذب على الله عز وجل بالافتراء عليه ، ومحاولة التقحم على حكمه ووحيه، والافتيات على شأنه وأمره، ومالا تمكن معرفته بحال إلا منه ، سيما فى أمور الحلال والحرام والحق والباطل وغيره مما لا سبيل لنا إليه،ولا قدرة لعقولنا عليه . وليس لبشر كائناً من كان معرفته إلا بتوقيف من الله .

ومن غير شك أن الكذب على هذا النحو عدوان صارخ على حق الله ، وظلم للنفس ليس بعده ظلم .

وأمر كهذا يصل بأصحابه إلى هذا المدى من سوء الأدب مع الله تعالى لا بد وأن يؤدى إلى سوء المنقلب وخطير النتائج وبئس المصير .

ومظهر الكذب الذى على هذا فى بشاعته وسوء مغبته هو الكذب على رسول الله ﷺ . والرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ يدعو إلى إسلام الوجه لله ، وتسليم القلب له ، وإذعان الوجدان لجلال الحق الذى جاء به ، ونقاء الدين الذى يبلغه . وليس هناك من هو أقبح ولا من هو أشد ظلما لنفسه

والانحرافات والمساوىء التى كانت وخيمة العواقب على إنسانية الإنسان وصبغته وما طبع عليه من حق وخير وبر .

الأمر الذى جاء الإسلام يرصده ويسجل ظواهره وبواعثه وأطواره ونتائجه ، ثم تشخيصه وتوصيف الدواء لعلاجه وطبه والوقاية منه .

ولقد كانت رذيلة الكذب من أخطر ما لوث البشرية ، وكدر صفوها ، ودنس طهرها، وجر عليها مستطير الشر فى فطرتها وعقيدتها وحياتها، وأخذ ذلك معها صورا متنوعة ومظاهر مختلفة ، وكان أبشعها وأخبثها على الإطلاق وأشدها فتكا بها ، وإفساداً لفطرتها، وبعداً بها عن الحق والمنطق الكذب على الله عز وجل بالافتراء عليه ، ومحاولة التقحم على حكمه ووحيه، والافتيات على شأنه وأمره، ومالا تمكن معرفته بحال إلا منه ، سيما فى أمور الحلال والحرام والحق والباطل وغيره مما لا سبيل لنا إليه، ولا قدرة لعقولنا عليه . وليس لبشر كائناً من كان معرفته إلا بتوقيف من الله .

ومن غير شك أن الكذب على هذا النحو عدوان صارخ على حق الله ، وظلم للنفس ليس بعده ظلم .

وأمر كهذا يصل بأصحابه إلى هذا المدى من سوء الأدب مع الله تعالى لا بد وأن يؤدى إلى سوء المنقلب وخطير النتائج وبئس المصير .

ومظهر الكذب الذى على هذا فى بشاعته وسوء مغبته هو الكذب على رسول الله ﷺ . والرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ يدعو إلى إسلام الوجه لله ، وتسليم القلب له ، وإذعان الوجدان لجلال الحق الذى جاء به ، ونقاء الدين الذى يبلغه . وليس هناك من هو أقبح ولا من هو أشد ظلما لنفسه

وعدوانا على الحق ممن يستبيح لنفسه أن يكذب الرسل أو يفترى عليهم أو ينسب إليهم ما تنزهوا عنه .

وقد قامت الأدلة واستفاضت البراهين على صدقهم فى دعواهم النبوة والرسالة ، وأن رسالتهم هى الحق الذى لا يلحقه باطل وهى الصدق الذى لا يشوبه ريب .

وهذا ما بيناه فى العنصر الأول .

إن الكذب من أمهات الرذائل وأجمعها لها ، بل ومن أخسها وأدناها وأشدها هبوطا بالإنسان وسقوطا بهمته ، ثم هى من أكثر الدنايا لصوقا بالفئات الدنيا من الناس، الذين لا وزن لهم ولا قيمة ولا شرف ولا ضمير، والذين لا صلة لهم من قريب أو بعيد بالحق ولا بالإيمان ولا بأى مقوم من مقومات النفس .

ومن ثم نجد الكذب ديدنا لأهل الكفر والجحود ، ومعتنقى الطاغوت والباطل ، ومحترفى النفاق والخداع . هؤلاء الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يحاولون بذلك أن يخدعوا الله والحق والمؤمنين به ، هم فى الحقية والواقع لا يخدعون إلا أنفسهم ، ولا يراوغون إلا ذواتهم ، ولا يضللون إلا قلوبهم ، ولا يكدرون إلا صفوهم . ولن يبوء بإثم ذلك غيرهم .

وهذا ما بيناه فى العنصر الثانى .

من أجل ذلك جاء الإسلام ينفر من الكذب، ويبغض فيه، ويحذر منه، وينعى على الكاذبين صنيعهم وسلوكهم، ويبين أنهم بأسلوبهم وخداعهم ونفاقهم أبعد الناس عن رضوان الله ورحمته ومغفرته ، وهم فى الوقت ذاته أهل لغضبه عليهم ولعنته لهم .

وإذن فالمسلم الحق هو الذى يتحاشى الكذب ويتحاماه ،ويحذره وينأى عن قليله وكثيره فى دقيق أموره وجليلها ، فى كل أقواله ومعاملاته وسائر أخذه وعطائه . فإن الكذب إنما يهدى صاحبه إلى الفجور ويورده موارد الهلكة .

ولذا لا يمكن أن يشيع الكذب ويغدو فى الناس أمرا مألوفا معروفا غير مستنكر إلا فى مجتمع عفن ملوث فقد قوة الإيمان ومشاهر الطهر ومدركات النقاء ، واختلت قيمه واضطربت فى الحياة مفاهيمه ،واعتلت أخلاقه ومعاييره ،ولا ينتشر أمر كهذا فى أمة إلا جردها من كل شرف ونزع منها كل فضيلة . ثم ورثها لازم العار ودائم الذل ، وألبس أبناءها لباس الخزى والهون بما كانوا يكذبون .

أجل : إن الكذب من أقبح الرذائل التى لا تصدر إلا من وضيع ولا تؤدى إلا إلى حصاد القيم وهلاك الأفراد وخراب الذمم .

ما أحرانا أن نعى خطرها وأن نحذر شرها وأن نقى أنفسنا وأمتنا عواقبها ومصيرها .

وهذا ما ألمحنا إليه فى العنصر الثالث .

إن المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية ليسره وهو يقدم هذه النشرة (أ) فى موضوع (الكذب وأثره فى تقويض صرح الأمة) أن تكون معلما يضىء الطريق ،ويأخذ بأيدى المسلمين إلى معرفة ما ينفعهم ، فيقبلون عليه وما يضرهم فينفرون منه وينأون عنه . وإنه ليسعده أن يلحقها بنشرة أخرى تحت هذا العنوان .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا صدق القول والعمل ، وأن يوفقنا إلى عمل الخير ، وأن يأخذ بنواصينا إلى ما يحبه ويرضاه ، إنه سميع مجيب .

والله الموفق ، والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

وإذن فالمسلم الحق هو الذى يتحاشى الكذب ويتحاماه ، ويحذره وينأى عن قليله وكثيره فى دقيق أموره وجليلها ، فى كل أقواله ومعاملاته وسائر أخذه وعطائه . فإن الكذب إنما يهدى صاحبه إلى الفجور ويورده موارد الهلكة .

ولذا لا يمكن أن يشيع الكذب ويغدو فى الناس أمرا مألوفا معروفا غير مستنكر إلا فى مجتمع عفن ملوث فقد قوة الإيمان ومشاهر الطهر ومدركات النقاء ، واختلت قيمه واضطربت فى الحياة مفاهيمه ، واعتلت أخلاقه ومعاييره ، ولا ينتشر أمر كهذا فى أمة إلا جردها من كل شرف ونزع منها كل فضيلة . ثم ورثها لازم العار ودائم الذل ، وألبس أبناءها لباس الخزى والهون بما كانوا يكذبون .

أجل : إن الكذب من أقبح الرذائل التى لا تصدر إلا من وضيع ولا تؤدى إلا إلى حصاد القيم وهلاك الأفراد وخراب الذمم .

ما أحرانا أن نعى خطرها وأن نحذر شرها وأن نقى أنفسنا وأمتنا عواقبها ومصيرها .

وهذا ما ألمحنا إليه فى العنصر الثالث .

إن المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية ليسره وهو يقدم هذه النشرة (١) فى موضوع (الكذب وأثره فى تقويض صرح الأمة) أن تكون معلما يضىء الطريق ، ويأخذ بأيدى المسلمين إلى معرفة ما ينفعهم ، فيقبلون عليه وما يضرهم فينفرون منه وينأون عنه . وإنه ليسعده أن يلحقها بنشرة أخرى تحت هذا العنوان .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا صدق القول والعمل ، وأن يوفقنا إلى عمل الخير ، وأن يأخذ بنواصينا إلى ما يحبه ويرضاه ، إنه سميع مجيب .

والله الموفق ، والحمد لله رب العالمين ؟

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

التعريف بالكذب

كذب كذبا (بكسر الكاف وسكون الذال) وكذبا (بفتح الكاف وسكون الذال) وكذابا (بكسر الكاف وفتح الذال) وكذابا (بكسر الكاف أو فتحها وفتح الذال مشددة) ضد الصدق ومعناه أخبر عن الشيء بخلاف ما هو مع العلم به ، والتكذيب : الإنكار والجحود .

وكذبت العين . خانها حسها ، يقال : « كذبت عينك » أى أرتك ما لا حقيقة له .

كذب الرأى : توهم الأمر بخلاف ما هو به ، وكذب السير : أى لم يجد فيه وكذبته نفسه : منته بغير الحق ، والكذاب (بفتح الكاف والذال مشددة) والكذوبة (بفتح الكاف وضم الذال) الكثير الكذب .

(لسان العرب جـ ١ ص ٧٠٤ ـ ٧٠٨ ، المنجد :ص ٧١٨) بتصرف

وقال الإمام النووى : « اعلم أن الكذب وإن كان أصله محرما فيجوز فى بعض الأحوال بشروط مؤداها أن الكلام وسيلة إلى المقاصد . فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه . وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب فيه . ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحا كان الكذب مباحاً ، وإن كان واجبا كان الكذب واجبا .

فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وأخفى ماله وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه . وكذا لو كان عنده وديعة وأراد ظالم أخذها وجب الكذب بإخفائها .

والأحوط فى هذا كله أن يورى. ومعنى التورية : أن يقصد بعبارته مقصودا صحيحا ليس هو كاذبا بالنسبة إليه وإن كان كاذبا فى ظاهر اللفظ . وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب ، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام فى هذا الحال .

واستدل العلماء بجواز الكذب فى هذا الحال بحديث أم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ أنها سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقول خيراً » متفق عليه .

زاد مسلم فى رواية « قالت أم كلثوم ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس إلا ثلاث تعنى الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » . (رياض الصالحين :ص ٥٦٥ و ٥٦٦ بتصرف)

وقال الإمام الغزالى :

وهذا ـ ما جاء فى رواية مسلم ـ لأن أسرار الحرب لو وقف عليها العدو اجترأ . وأسرار الزوج لو وقفت عليها المرأة نشأ منها فساد أعظم من فساد الكذب. وكذلك المتخاصمان تدوم بينهما المعصية والعداوة . فإذا أمكن الإصلاح بكذب فذلك أولى . فهذا ما ورد فيه الخبر .

وفى معناه إنكار الإنسان لسر غيره . بل إنكاره لمعصية نفسه عن غيره . فإن المجاهرة بالفسق وإظهاره حرام ، وإنكاره جناية نفسه على غيره ليطيب قلبه. وكذلك إنكاره مع زوجته أن تكون ضرتها أحب إليه . وكل ذلك يرجع إلى دفع المضرات .

ولا يباح — الكذب — لجلب زيادة مال وجاه . وفيه يكون كذب أكثر الناس ثم إذا اضطر إلى الكذب فليعدل إلى المعاريض ما أمكن . حتى لا تعتاد نفسه الكذب .

كان إبراهيم بن أدهم إذا طلب في الدار قال لخادمته : قولي له : اطلبه في المسجد .

وكان الشعبي يخط دائرة ويقول لخادمته : ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا .

وتباح المعاريض لغرض خفيف لقوله ﷺ : لا يدخل الجنة عجوز . ونحملك على ولد البعير .. وفي عيني زوجك بياض .. لأن هذه الكلمات أوهمت خلاف ما أراده . فيباح مثل ذلك مع النساء والصبيان لتطييب قلوبهم بالمزاح .

وكذلك من يمتنع عن أكل الطعام فلا ينبغي أن يكذب ويقول : لا أشتهي إذا كان يشتهي ، بل يعدل إلى المعاريض . قال النبي ﷺ لامرأة قالت ذلك : « لا تجمعي كذبا وجوعا » .

(كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي ص ١١١ و ١١٢)

ومثال التعريض — أيضا — ما روى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال ما رفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله .

(إحياء علوم الدين للغزالي جـ ٣ ص ١٣٦ و ١٣٧)

العنصر الأول

أقبح الرذائل الكذب على الله ورسوله

الأدلة من الكتاب :

ليس هناك ما هو أقبح في بابه خاصة وفي الرذائل عامة من الكذب على الله عز وجل ، وعلى رسوله ﷺ ، والافتراء على الحق والافتيات عليه ، وظلم الحقيقة

والنفس والمجتمع ، وافتراء الزور والبهتان والباطل والعدوان به على حقوق الله تعالى وما يختص به .

وأمر كهذا فضلا عن كونه أدخل من غيره فى مجال الظلم والعدوان يعتبر إجراما لا يصيب بعواقبه من عدم الفوز والفلاح إلا مقترفيه من الكذبة والمفترين ، الأمر الذى نهى الله تعالى عنه وحذر منه . سيما فيما يتصل بأمور الحلال والحرام التى لا يختص ببيانها إلا الله رب العالمين ورسوله الكريم .

١ — قال الله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

(سورة النحل : الآيتين رقم ١١٦ و ١١٧)

يقول المراغى فى تفسيره :

« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام » أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بالرأى والهوى ؛ فلا تقولوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . ولا تحللوا الميتة والدم ولحم الخنزير .. ألخ .

وخلاصة ذلك : لاتحللوا ولاتحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له دون استناد إلى دليل ، وكأن ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخص عالم بحقيقته ، ومحيط بكنهه يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح .

« لتفتروا على الله الكذب » أى لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذبا من غير أن يكون ذلك منه ، فالله لم يحرم من ذلك ما تحرمون ولا أحل كثيرا مما تحللون .

وإجمال ذلك : لا تسموا مالم يأتكم حله ولا حرمته عن الله ورسوله حلالا وحراما فتكونوا كاذبين عليه ، لأن مدار الحل والحرمة عليه ليس إلا حكمه تعالى.

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا . وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم . ولله در القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : « عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا ، فيقول الله عز وجل : كذبت. أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحل كذا . فيقول الله له : كذبت » .

ثم أوعد للمفترين وهددهم أشد التهديد فقال :

« إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون » أى إن الذين يتخرصون الكذب على الله فى أمورهم صغيرها وكبيرها ، لايفوزون بخير فى المطالب التى لأجلها كذبوا على ربهم. إذ هم متى عرفوا بالكذب مجهم الناس وانصرفوا عنهم وعاشوا أذلة بينهم ممقوتين . ويكونون مضرب الأمثال فى الهوان والصغار إلى مايصيبهم من الخزى والوبال يوم القيامة .

ثم بين أن مايحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئا مذكورا إذا قيس بالمضار التى تنجم منه فقال :

« متاع قليل ولهم عذاب أليم » أى إن المنافع التى قد تحصل لهم على ذلك فى الدنيا لا يعتد بها فى نظر العقلاء إذا وزن بينها وبين المضار التى فى الآخرة،

فما متاع الدنيا إلا ظل زائل . ثم يفنى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم بما اجترحوا من السيئات ، ودنسوا به أنفسهم من أوضار الإثم والفجور والكذب على بارئهم الذى خلقهم وصورهم فأحسن صورهم .

ونحو الآية قوله : « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » .

(تفسير المراغى جـ ١٤ ص ١٥٤، ١٥٥)

وقال القاسمى فى تفسيره :

لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم : « مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا» من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله ، كما يقال : لا تقل للنبيذ إنه حرام . أى فى شأنه وحقه . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان لاحكم مصمم عليه . ومعنى « تصف » تذكر .

وقوله : «لتفتروا» بدل من التعليل الأول . أى لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب . أى لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة ، وليس بتكرار مع قوله : « لتفتروا على الله الكذب » لأن هذا لإثبات الكذب مطلقا ، وذلك لإثبات الكذب على الله ، فهو إشارة إلى أنهم لتمرنهم على الكذب ، اجترؤوا على الكذب على الله ، فنسبوا ماحللوه وحرموه إليه .

والكذب فى قوله تعالى «ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب» مفعول تقولوا ، وفى قوله : « لتفتروا على الله الكذب » مفعول تصف . وعليه ففى وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب لجعله عين الكذب ،

فما متاع الدنيا إلا ظل زائل . ثم يفنى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم بما اجترحوا من السيئات ، ودنسوا به أنفسهم من أوضار الإثم والفجور والكذب على بارئهم الذى خلقهم وصورهم فأحسن صورهم .

ونحو الآية قوله : « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » .

(تفسير المراغى جـ ١٤ ص ١٥٤، ١٥٥)

وقال القاسمى فى تفسيره :

لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم : « مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله ، كما يقال : لا تقل للنبيذ إنه حرام . أى فى شأنه وحقه . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان لاحكم مصمم عليه . ومعنى « تصف » تذكر .

وقوله : « لتفتروا » بدل من التعليل الأول . أى لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب . أى لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة ، وليس بتكرار مع قوله : « لتفتروا على الله الكذب » لأن هذا لإثبات الكذب مطلقا ، وذلك لإثبات الكذب على الله ، فهو إشارة إلى أنهم لتمرنهم على الكذب ، اجترؤوا على الكذب على الله ، فنسبوا ماحللوه وحرموه إليه .

والكذب فى قوله تعالى « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب » مفعول تقولوا ، وفى قوله : « لتفتروا على الله الكذب » مفعول تصف . وعليه ففى وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب لجعله عين الكذب ،

ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها .و « تصف » بمعنى توضح . فهى بمنزلة الحد والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب . فالتعريف فى الكذب للجنس ، كأن ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته .

(محاسن التأويل للقاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٧١،٣٨٧٢ بتصرف)

وقال القرطبى فى تفسيره :

أسند الدارمى أبو محمد فى مسنده : أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون .

وقال ابن وهب قال مالك :لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا :هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولون : إياكم كذا وكذا. ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارىء تعالى يخبر بذلك عنه ، وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إنى أكره « كذا » . وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١٠ ص ١٩٦)

٢ — وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون » .

(سورة الأنعام ـ آية رقم ٢١)

قال صاحب المنار فى تفسيره :

« لا أحـــد أظلم ممن افترى على الله كـذبا ؛ كزعم من زعم أن له ولدا أو شريكا، أو أن غيره يدعى معه أو من دونه ، ويتخذ ولياً له يقرب الناس إليه زلفى ويشفع لهم عنده ، أو زاد فى دينه ماليس منه ، أو كـذب بآياته المـنزلة كالقرآن المجيد ، أو آياته الـكونية الدالة على وحـدانيته أو التى يؤيد بها رسله . وإذا كان كل من هذا التكذيب وذلك الـكذب والافتراء يعد وحـده غاية فى الظلم ، فـكيف يكـون حال من جمع بينهما ، فـكذب على الله أو كذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة .

ثم بين عاقبة الظالمين فقال : « إنه لا يفلح الظالمون » هذا استئناف بيانى وقع موقع جواب السؤال . أى الحـال والشأن إن الظالمين عامة لايفوزون فى عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عـذاب الله تعالى، ولا بنعيم الجنة مهما يكن نوع ظلمهم. فـكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لاأحدأظلم منه لافترائه على الله تعالى، أو لتكـذيبه بآياته ، أو عاقبة من جمع بين الأمرين فـكان أظلم الظالمين.

والآية نزلت فى الـكافرين . فلهذا يغفل الناس عن صدقها على من كذب على الله تعالى وهو يسمى نفسه أو يسميه الناس مؤمنا أو مسلما . كأن يقول بقول أولئك المشركين، فيتخذ غير الله وليا ، ويدعوه ليشفع عنده أو يزيد فى دين الله برأيه فيقول هذا واجب، وهذا حلال ، وهذا حرام فيما لم ينزل الله به وحيا ولا كان مما بلغه رسول الله ﷺ من دينه .

(تفسير المنار جـ ٧ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤)

وقال الطبرى فى تفسيره :

« ومن أشد اعتداء وأخطأ فعلا وأخطل قولا ممن افترى على الله كذبا . يعنى ممن اختلق على الله قيل باطل ، واخترق من نفسه عليه كذبا، فزعم أن له شريكا من خلقه، وإلها يعبد من دونه ، كما قال المشركون من عبدة الأوثان . أو ادعى له ولداً أو صاحبة كما قالت النصارى . « أو كذب بآياته» أى أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التى أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم كذبت بها اليهود .

« إنه لا يفلح الظالمون » أى إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاء فى الجنان ، والمفترون عليه الكذب والجاحدون بنبوة أنبيائه .

(جامع البيان فى تفسير القرآن لمحمد بن جرير الطبرى جـ٧ ص ١٠٥)

وقال القاسمى فى تفسيره :

تنبيه : كون الموصول — ومن أظلم ممن — كناية عن المشركين هو الظاهر ، لأن السورة مكية والخطاب مع مشركى أهلها . وجعله البيضاوى لهم ولأهل الكتاب وقوفا مع عموم اللفظ .

والمهايمى لأهل الكتاب خاصة . ربطا للآية بما قبلها ، والظاهر الأول : لما قلنا وعبارة المهايمى : « الذين خسروا أنفسهم » بتفويت ما أوتوا من الكتاب وما أمروا به . فهم لا يؤمنون وكيف لا يخسرون ، وهم ظالمون وكل ظالم خاسر ؟ وإنما قلنا : إنهم ظالمون، لأنهم يحرفون كتاب الله لفظا أو معنى. فيفترون على الله الكذب ويكذبون بآيات الله من كتابهم ، ومعجزات محمد ﷺ وكتابه . وقد يسترون بعض مافى كتابهم وهو أيضا تكذيب . فعلوا جميع ذلك لأنه لا يتأتى لهم ترك الإيمان بمحمد ﷺ بدون أحد هذه الأمور .

وقال فى قوله تعالى : « ومن أظلم » الآية : لأنهم بالتحريف يدعون إلهية أنفسهم ، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل ، وينسبون إيجادها إلى غير الله مع افتقارها إلى القدرة الكاملة .

وإنما قلنا : كل ظالم خاسر ، لأن كل ظالم لايفلح كما قال تعالى : « إنه لايفلح الظالمون » أى : لايفلحون فى الدنيا بانقطاع الحجة عنهم وظهور المسلمين عليهم .

وفيه إشارة إلى أن مدعى الرسالة لو كان كاذبا مفتريا على الله فلا يكون مفلحا . فلا يكون سببا لصلاح العالم ولا محلا لظهور المعجزات .

(محاسن التأويل للقاسمى ج٦ ص ٢٢٧١)

٣ — وقال تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون » . (يونس آية رقم ١٧)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

لاأحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما « ممن افترى على الله كذبا » وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ، ولم يكن كذلك . فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا . ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء . فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس . فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ونصف الليل فى حندس الظلماء . فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من

وقال فى قوله تعالى : « ومن أظلم » الآية : لأنهم بالتحريف يدعون إلهية أنفسهم ، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل ، وينسبون إيجادها إلى غير الله مع افتقارها إلى القدرة الكاملة .

وإنما قلنا : كل ظالم خاسر ، لأن كل ظالم لايفلح كما قال تعالى : « إنه لايفلح الظالمون » أى : لايفلحون فى الدنيا بانقطاع الحجة عنهم وظهور المسلمين عليهم .

وفيه إشارة إلى أن مدعى الرسالة لو كان كاذبا مفتريا على الله فلا يكون مفلحا . فلا يكون سببا لصلاح العالم ولا محلا لظهور المعجزات .

(محاسن التأويل للقاسمى جـ٦ ص ٢٢٧١)

٣ ـ وقال تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون » . (يونس آية رقم ١٧)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

لاأحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما « ممن افترى على الله كذبا » وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ، ولم يكن كذلك . فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا . ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء . فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس . فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ونصف الليل فى حندس الظلماء . فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من

له بصيرة على صدق محمد ﷺ ، وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي .

قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس[١] فكنت فيمن انجفل . فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله — فيما قال له — من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » ، قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » ، قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » ، قال : فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال ، وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللهم » نعم . ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام . ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين . ويحلف له رسول الله ﷺ . فقال له : صدقت . والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص ، فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه صلوات الله عليه وسلامه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه .

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة وأفعاله غير الحسنة ، بل القبيحة . وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة .

---

(١) انجفل الناس : يعني قومه اليهود ، وأما العرب وهم الأنصار . فكانوا في أشد الغبطة والسرور .

وكم من فرق بين قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » إلى آخرها . وبين قول مسيلمة ـ قبحه الله ولعنه ـ « ياضفدع بنت ضفدعين نقى كما تنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين » .

وقوله : ـ قبحه الله ـ « لقد أنعم الله على الحبلى إذ أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى » .

وقوله ـ خلده الله فى نار جهنم ـ وقد فعل : « الفيل وما أدراك ما الفيل له خرطوم طويل » وقوله ـ أبعده الله عن رحمته ـ «والعاجنات عجنا.والخابزات خبزا . واللاقمات لقما . إهالة وسمنا . إن قريشا قوم يعتدون » .

إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التى يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء . ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم الحديقة حتفه ، ومزق شمله ، ولعنه صحبه وأهله ، وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا فى دين الله راغبين فسألهم الصديق خليفة الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ورضى عنه أن يقرأوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة ـ لعنة الله ـ فسألوه أن يعفيهم من ذلك . فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس ، فيعرفوا فضل ماهم عليه من الهدى والعلم . فقرأوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه . فلما فرغوا قال لهم الصديق ـ رضى الله عنه ـ : ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل[1] .

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقا له فى الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعد . فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم ؟

(١) أى لم يجىء من الاصل الذى جاء منه القرآن .

يعنى رسول الله ﷺ فى هذه المدة ؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال وماهى ؟ فقال : « والعصر إن الإنسان لفى خسر » إلى آخر السورة . ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل على مثله . فقال : وماهو؟ فقال : ياوبر . ياوبر . إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر . كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب . فإذا كان هذا من مشرك فى حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه . وحال مسيلمة – لعنه الله – وكذبه فكيف بأولى البصائر والنهى وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى .

ولهذا قال الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » .

وقال فى هذه الآية الكريمة : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون » .

وكذلك من كذب بالحق الذى جاءت به الرسل وقامت عليه الحجج لا أحد أظلم منه .

كما جاء فى الحديث : « أعتى الناس على الله رجل قتل نبيا أوقتله نبى » .
(تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير ج ٢ص ٤١٠ ، ٤١١)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته » أى إن شر أنواع الظلم والإجرام فى البشر شيئان :

١ — افتراء الكذب على الله ، وذلك بما اقترحتموه على الإتيان بقرآن غيره .

٢ — التكذيب بآيات الله بما اجترحتموه من السيئات .

وقد نعيت عليكم الثانى منهما ، فكيف أرضى لنفسى الأول وهو شر منه وإن أهم أغراض رسالتى الإصلاح ولأجله أحتمل المشاق وأقبل فى سبيله كل إرهاق . فلا فائدة لى فى هذا الإجرام .

« إنه لا يفلح المجرمون » أى إنه لا يفوز الذين اجترموا الكفر فى الدنيا إذا لقوا ربهم ولا ينالون الفلاح . (تفسير المراغى جـ١١ ص٨٠)

٤ — « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين » (سورة الصف : آية رقم ٧)

يقول صاحب التفسير القرآنى للقرآن :

« الاستفهام مراد به النفى . أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب . إنه أظلم الظالمين ، لأنه يفترى على الله فى حال يدعى فيها إلى الإسلام وتقوم بين يديه أمارات الحق وشواهد الهدى ، فيفترى الكذب أى يختلقه اختلاقا ، ثم يرمى بهذا الكذب المفترى فى وجه الحق بلا حياء .

قوله تعالى « والله لا يهدى القوم الظالمين » هو تعقيب على هذه الجريمة التى يقترفها هؤلاء المجرمون الذين يبهتون الحق ويكابرون فى إنكاره .

إنهم أظلم الظالمين ، لأنهم ضلوا عن الحق الذى كان من شأنهم أن يهتدوا إليه بعقولهم ، ثم إنهم حين دعوا إلى هذا الحق لم يقبلوه ، ثم إنهم إذ لم يقبلوا هذا الحق الذى دعوا إليه ، رجموه بالزور والبهتان ، فهم ظالمون ظالمون .

« والله لا يهدى القوم الظالمين » الذين تأبى طباعهم أن تستجيب للهدى وتسكن إليه .

والقوم الظالمون : هم « اليهود » الذين رفضوا دعوة المسيح ، والذين لم يقفوا عند حد الرفض . بل بهتوه وكذبوه .: وأنه كما دعا المسيح آباء هؤلاء اليهود إلى الإسلام الذى هو دين الله فكذبوه وأنكروا عليه دعوته كذلك فعل أبناؤهم . هؤلاء الذين دعاهم محمد — عليه الصلاة والسلام — إلى الإسلام ، فافتروا الكذب ، وأنكروا أنه رسول الله وكما ضل الآباء كذلك ضل الأبناء » .

(التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب ج ٨ ص ٩٣٤)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ومن أشد ظلما وعدوانا ممن اختلق على الله الكذب وجعل له أندادا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص » .

وتلخيص المعنى — أى الناس أشد ظلما ممن يدعى إلى الإسلام والخضوع . فلا يجيب الداعى . بل يفترى على الله الكذب بتكذيب رسوله ، وتسمية آياته سحرا ، والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، لأنه قد أهدر عقله وركب هواه وألقى الأدلة وراءه ظهريا .

ثم بين سبب ظلمهم وفساد عقائدهم فقال : « والله لا يهدى القوم الظالمين » أى والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم ؛ لأنهم دسوها باجتراح السيئات ، وارتكاب الموبقات . فختم على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلا تفهم الأدلة المنصوبة فى الكون ولا تهتدى بهدى العقل . بل تسير فى عماية ، وتمشى فى ظلام دامس لا تلوى على شىء » . (تفسير المراغى ج ٢٨ ص ٨٧)

٥ — وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين » (سورة العنكبوت آية رقم ٦٨)

قال العلامة الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :

لما بين الله أمور الدين ، ولم يؤمن به كثير من الناس ، بين أنهم أظلم من يكون. لأن الظلم على ما بين وضع الشىء فى غير موضعه . فإذا وضع واحد شيئا فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالما . فإذا وضعه فى موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم . لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول ، لأن كل مالا يمكن لا يحصل . وليس كل مالا يحصل لا يمكن .

فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا . فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك ، لكان ظالما يستحق من الملك العقاب الأليم . فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك .

وأيضا من كذب صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظالما . فمن يكذب صادقا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله .

فإذاً ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ، ويكذب فى تصديق نبيه ، والنبى فى رسالة ربه ، والقرآن المنزل من الله إلى الرسول . والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالإلهية . ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة .

والآية تحتمل وجها آخر . وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر . قال لنبيه ليقول للناس : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » أى إنى جئت بالرسالة وقلت إنها من الله ، وهذا كلام الله ، وأنتم كذبتمونى . فالحال دائر بين أمرين : إما أنا مفتر متنبىء إن كان هذا من عند غير

٥ — وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين » (سورة العنكبوت آية رقم ٦٨)

قال العلامة الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :

لما بين الله أمور الدين ، ولم يؤمن به كثير من الناس ؛ بين أنهم أظلم من يكون. لأن الظلم على ما بين وضع الشيء فى غير موضعه . فإذا وضع واحد شيئا فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالما . فإذا وضعه فى موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم . لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول ، لأن كل ما لا يمكن لا يحصل . وليس كل ما لا يحصل لا يمكن .

فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا . فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك ، لكان ظالما يستحق من الملك العقاب الأليم . فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك .

وأيضا من كذب صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظالما . فمن يكذب صادقا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله .

فإذاً ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ، ويكذب فى تصديق نبيه ، والنبى فى رسالة ربه ، والقرآن المنزل من الله إلى الرسول . والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالإلهية . ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة .

والآية تحتمل وجها آخر . وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر . قال لنبيه ليقول للناس : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » أى إنى جئت بالرسالة وقلت إنها من الله ، وهذا كلام الله ، وأنتم كذبتمونى . فالحال دائر بين أمرين : إما أنا مفتر متنبئ إن كان هذا من عند غير

الله . وإما أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده . لكنى معترف بالعذاب الأليم الدائم ثم عارف به فلا أقدم على الافتراء . لأن جهنم مثوى للكافرين» . والمتنبىء كافر . وأنتم كذبتمونى فجهنم مثواكم ؛ إذ هى مثوى للكافرين . وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى: « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

(التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى جـ ٢٥ ص ٩٣ و ٩٤ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه » أى ومن أظلم ممن كذبوا على الله بأن زعموا أن له شريكا ، وأنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا إن الله أمرنا بها . والله لايأمرنا بالفحشاء ، وكذبوا بالكتاب حين مجيئه دون أن يتأملوا فيه أو يتوقفوا . بل سارعوا إلى التكذيب أول ماسمعوه .

وفى هذا من تسفيه آرائهم وتقبيح طرائقهم ما لا يخفى .

ثم بين سوء مغبة أعمالهم بطريق الاستفهام التقريرى وهو أبلغ فى إثبات المطلوب فقال : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ » أى ألا يستوجب هؤلاء الكافرون من أهل مكة الثواء فى جهنم . فقد افتروا على الله الكذب ، فكذبوا بالكتاب لما جاءهم بلا تريث ولا تلبث ؟ .

والخلاصة : إن مثوى هؤلاء وأشباههم جهنم وبئس المصير .

(تفسير المراغى جـ ٢٠ ص ٢٣)

٦ — وقال تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين » . (سورة الزمر آية رقم ٣٢)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

« يقول الله عز وجل مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله ولدا وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولدا . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . ومع هذا كذبوا الحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ولهذا قال الله عز وجل : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه » أى لا أحد أظلم من هذا . لأنه جمع بين طرفى الباطل . كذب على الله ، وكذب على رسول الله ﷺ قالوا الباطل وردوا الحق . ولهذا قال جلت عظمته متوعدا لهم : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » وهم الجاحدون المكذبون . (تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ٤ ص ٥٣)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه » أى لا أحد يبلغ ظلمه من افترى على الله الكذب فجعل معه آلهة أخرى ، أو ادعى أن الملائكة بنات الله ، وهو أيضا كذب بالحق الذى جاء به رسوله من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ، ونهيهم عن محرماته ، وإخبارهم بالبعث والنشور .

وفى قوله : « إذ جاءه » بيان لأنهم كذبوا به من غير وقفة ولا إعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون .

وبعد أن ذكر حالهم أردفه وعيدهم فقال : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » أى أليس فى النار مأوى ومسكن لمن كفروا بالله ، وأبوا تصديق رسوله ، وامتنعوا عن اتباعه فيما يدعو إليه من التوحيد والشرائع التى أنزلها عليه .

وخلاصة هذا — ألا يكفيهم ذلك جزاء على أعمالهم .

(تفسير المراغى ج ٢٤ ص ٤ .)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

« يقول الله عز وجل مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله ولدا وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولدا . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . ومع هذا كذبوا الحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ولهذا قال الله عز وجل : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه » أى لا أحد أظلم من هذا . لأنه جمع بين طرفى الباطل . كذب على الله ، وكذب على رسول الله ﷺ قالوا الباطل وردوا الحق . ولهذا قال جلت عظمته متوعدا لهم : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » وهم الجاحدون المكذبون . (تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ٤ ص ٥٣)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه » أى لا أحد يبلغ ظلمه من افترى على الله الكذب فجعل معه آلهة أخرى ، أو ادعى أن الملائكة بنات الله ، وهو أيضا كذب بالحق الذى جاء به رسوله من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ، ونهيهم عن محرماته ، وإخبارهم بالبعث والنشور .

وفى قوله : « إذ جاءه » بيان لأنهم كذبوا به من غير وقفة ولا إعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون .

وبعد أن ذكر حالهم أردفه وعيدهم فقال : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » أى أليس فى النار مأوى ومسكن لمن كفروا بالله ، وأبوا تصديق رسوله ، وامتنعوا عن اتباعه فيما يدعو إليه من التوحيد والشرائع التى أنزلها عليه .

وخلاصة هذا — ألا يكفيهم ذلك جزاء على أعمالهم .

(تفسير المراغى ج ٢٤ ص ٤ .)

الأدلة من السنة :

نعم إن أخبث أنواع الكذب وأرذلها على الإطلاق هو الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ـ ﷺ ـ إذ أنه يمس بخطورته الإسلام كله عقيدة وشريعة ، وليس الكذب فيما يتصل بذلك ككذب فيما سواه .

ولذا فإن عاقبة ذلك وخيمة ، ينوء صاحبها بها من أول وهلة ، حيث يحتجز بكذبه على الله ورسوله مقعده من النار ، ومن ثم فلم يكن هناك من خلق أبغض إلى رسول الله من الكذب . الأمر الذى ينبغى أن ينأى عنه كل مسلم ، وأن لا يقربه .

١ ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك . وشتمنى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى . فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد » رواه البخارى .

(صحيح أبى عبد الله البخارى بشرح الكرمانى ج ١٨ ص ٢١٧)

٢ ـ وعن سمرة[1] ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » رواه مسلم .

(رياض الصالحين ص ٥٦٦)

٣ ـ وعن المغيرة قال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد . فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » رواه مسلم وغيره .

(الترغيب والترهيب ج ١ ص ١١١)

---

(١) ابن جندب .

٤ - وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب . ما اطلع على أحد من ذاك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث[1] توبة» رواه أحمد والبزار واللفظ له وابن حبان فى صحيحه.

(المصدر السابق ج ٣ ص ٥٩٧)

الآثار :

إن استمراء النفس للكذب وتماديها فى الزور مما يصعب فطامه . وإن منازل الناس لدى بعضهم ودرجاتهم عند الله لا تكون إلا بانضباط القول ، وكف الألسن عن المراء ، والكذب ، وصون القلوب عن إضمار السوء . إذ بذلك يعيش المرء بين الناس وجيها لا يصدر منه إلا كل خير ومعروف .

١ - قال موسى عليه السلام : «يارب : أى عبادك خير لك عملا . قال : من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه» .

(إحياء علوم الدين للغزالى ج ٣ ص ١٢٣)

٢ - وقال بعض الحكماء : كل ذنب يرجى تركه بتوبة إلا الكذب . فكم رأينا شارب خمر أقلع ، واصاً نزع ، ولم نر كذابا رجع .

(فيض القدير للمناوى ج ٥ ص ٦٣)

العنصر الثانى

الكذب ديدن أهل الكفر والنفاق

الأدلة من القرآن :

إن الكفر والنفاق بؤرتا كل منكر ، وباعثا كل شر ، وحمأتا كل رذيلة . والكذب أخبث ما يصف به الكفرة والمنافقون ويلازمهم ؛ بل هو أبرز علاماتهم

---

(١) أى لا يزال فى نفسه نفور منه حتى يتوب .

٤ - وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب . ما اطلع على أحد من ذلك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث[١] توبة » رواه أحمد والبزار واللفظ له وابن حبان فى صحيحه.

(المصدر السابق ج ٣ ص ٥٩٧)

الآثار :

إن استمراء النفس للكذب وتماديها فى الزور مما يصعب فطامه . وإن منازل الناس لدى بعضهم ودرجاتهم عند الله لا تكون إلا بانضباط القول ، وكف الألسن عن المراء ، والكذب ، وصون القلوب عن إضمار السوء . إذ بذلك يعيش المرء بين الناس وجيها لا يصدر منه إلا كل خير ومعروف .

١ - قال موسى عليه السلام : « يارب : أى عبادك خير لك عملا . قال : من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه » .

(إحياء علوم الدين للغزالى ج ٣ ص ١٢٣)

٢ - وقال بعض الحكماء : كل ذنب يرجى تركه بتوبة إلا الكذب . فكم رأينا شارب خمر أقلع ، ولصاً نزع ، ولم نر كذابا رجع .

(فيض القدير للمناوى ج ٥ ص ٦٣)

العنصر الثانى

الكذب ديدن أهل الكفر والنفاق

الأدلة من القرآن :

إن الكفر والنفاق بؤرتا كل منكر ، وباعثا كل شر ، وحمأتا كل رذيلة . والكذب أخبث ما يتصف به الكفرة والمنافقون ويلازمهم ؛ بل هو أبرز علاماتهم

---

(١) أى لا يزال فى نفسه نفور منه حتى يتوب .

وأم سماتهم وديدنهم الذى لاينفك عنهم ، بحيث لا يفتريه ولايختلقه عادة إلا هم. يضللون به الناس ويخادعون به الحق ويزينون به الباطل ، وهم فى الحقيقة لاينالون بهذا من الحق شيئا . فالله يعلم دخائلهم وبواطنهم ولن يرتد نصال فراهم إلا إليهم، ولن يقع فى شباكهم إلا أنفسهم . الأمر الذى يزيدهم خبالا على خبالهم ،ومرضا على مرضهم ، ثم لايكون مصيرهم إلا بعدا عن مغفرة الله وطردا من رحمته .

١ — قال الله تعالى : « إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون »

(سورة النحل آية رقم ١٠٥)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

« إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله شرار الخلق « الذين لايؤمنون بآيات الله » من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس .

والرسول محمد — ﷺ — كان أصدق الناس ، وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا.معروفا بالصدق فى قومه.لايشك فى ذلك أحد منهم بحيث لايدعى بينهم إلا بالأمين محمد . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . قال :لا. فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل » .

(تفسير القرآن العظيم . لابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٧)

ويقول المراغي في تفسيره :

« إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى إنما يتخرص الكذب، ويتقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وآياته التي نصبها في الكون، وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته؛ لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابا ولا يخشون على الكذب عقابا. وهذه صفاتكم أيها المشركون لا صفات النبي ﷺ والمؤمنين. ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكما صريحا فقال :

« وأولئك هم الكاذبون» أى وأولئك الذين كفروا من رجال قريش القائلين لك أيها الرسول : « إنما أنت مفتر» هم الكاذبون لا أنت .

وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض ليكون ميسم خزى وعار لهم. (تفسير المراغي ج ١٤ ص ١٤٤ و ١٤٥)

وقال العلامة الفخر الرازي في تفسيره الكبير :

« في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش. والدليل عليه أن كلمة « إنما » للحصر والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى ، وإلا من كان كافرا. وهذا تهديد في النهاية .

وظاهر الآية : أن الكاذب المفترى الذى لا يؤمن بآيات الله . والأمر كذلك لأنه لا معنى للكفر إلا إنكار الألوهية ونبوة الأنبياء . وهذا الإنكار مشتمل على الكذب والافتراء .

وروى أن النبي ﷺ . قيل له هل يكذب المؤمن ؟ قال : « لا » ثم قرأ هذه الآية . (التفسير الكبير الإمام الفخر الرازي ج ١٦ ص ١١٩ و ١٢٠ بتصرف)

ويقول المراغي في تفسيره :

« إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي إنما يتخرص الكذب، ويتقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وآياته التي نصبها في الكون، وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته؛ لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابا ولا يخشون على الكذب عقابا. وهذه صفاتكم أيها المشركون لا صفات النبي ﷺ والمؤمنين. ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكما صريحا فقال :

« وأولئك هم الكاذبون » أي وأولئك الذين كفروا من رجال قريش القائلين لك أيها الرسول : « إنما أنت مفتر » هم الكاذبون لا أنت .

وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض ليكون ميسم خزى وعار لهم.
(تفسير المراغي ج ١٤ ص ١٤٤ و ١٤٥)

وقال العلامة الفخر الرازي في تفسيره الكبير :

« في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش. والدليل عليه أن كلمة « إنما » للحصر والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى ، وإلا من كان كافرا. وهذا تهديد في النهاية .

وظاهر الآية : أن الكاذب المفترى الذى لا يؤمن بآيات الله . والأمر كذلك لأنه لا معنى للكفر إلا إنكار الألوهية ونبوة الأنبياء . وهذا الإنكار مشتمل على الكذب والافتراء .

وروى أن النبي ﷺ . قيل له هل يكذب المؤمن ؟ قال : « لا » ثم قرأ هذه الآية . (التفسير الكبير الإمام الفخر الرازي ج ١٦ ص ١١٩ و ١٢٠ بتصرف)

٢ — وقال تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »
(سورة البقرة الآيات ٨ ـ ١٠)

يقول القرطبى فى تفسيره :

« ومن الناس » قال السدى : هم المنافقون أهـ ، وألحقهم بالكافرين قبلهم لنفى الإيمان عنهم بقوله الحق « وما هم بمؤمنين » .

قال علماء اللغة : وإنما سمى المنافق منافقا ، لإظهاره غير ما يضمر ، تشبيها باليربوع . له جحر يقال له النافقاء ، وآخر يقال له القاصعاء ، وذلك أنه يخرق الارض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الارض أرق التراب فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج . فظاهر جحره تراب وباطنه حفر . وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر .

« يخادعون الله » أى يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك . لعملهم عمل المخادع . وكذلك إذا خادعوا المؤمن فقد خادعوا الله .

ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ، ليحقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا . قاله جماعة من المتأولين .

وقوله تعالى : « وما يخدعون إلا أنفسهم » نفى وإيجاب . أى ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم . لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن . وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه . ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله . إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع .

قوله تعالى : « وما يشعرون » أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا . وإنما ذلك فى الدنيا، وفى الأخرة يقال لهم « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » .

قوله تعالى : « فى قلوبهم مرض » والمرض : عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا ،وإما جحدا وتكذيبا . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر .

قوله تعالى: « فزادهم الله مرضا» قيل : هو دعاء عليهم ويكون معنى الكلام: زادهم الله شكا ونفاقا جزاء على كفرهم، وضعفا عن الانتصار وعجزاً عن القدرة . وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شر خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم . أى فزادهم الله مرضا . إلى مرضهم . كما قال فى آية أخرى « فزادهم رجسا إلى رجسهم ».

قوله تعالى : « بما كانوا يكذبون » أى بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين . (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١ ص ١٩٢ ـ ١٩٧ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ومن الناس من يقول .. » هم أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا فى عصر التنزيل ، كعبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه وأكثرهم من اليهود ولهم نظراء فى كل عصر ومصر .

قوله تعالى : « وما يشعرون » أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا . وإنما ذلك فى الدنيا، وفى الأخرة يقال لهم « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » .

قوله تعالى : « فى قلوبهم مرض » والمرض : عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا، وإما جحدا وتكذيبا . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر .

قوله تعالى: « فزادهم الله مرضا» قيل : هو دعاء عليهم ويكون معنى الكلام: زادهم الله شكا ونفاقا جزاء على كفرهم، وضعفا عن الانتصار وعجزاً عن القدرة . وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شر خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم . أى فزادهم الله مرضا . إلى مرضهم . كما قال فى آية أخرى « فزادهم رجسا إلى رجسهم ».

قوله تعالى : « بما كانوا يكذبون » أى بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١ ص ١٩٢ ـ ١٩٧ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ومن الناس من يقول .. » هم أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا فى عصر التنزيل، كعبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه وأكثرهم من اليهود ولهم نظراء فى كل عصر ومصر .

واليوم الآخر : هو من وقت الحشر إلى مالا يتناهى . أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة،وأهل النار النار . وخصوا بالذكر الإيمان بهما إشارة إلى أنهم أحاطوا بجانبي الإيمان أوله وآخره . وهم لم يكونوا كذلك .

« وما هم بمؤمنين » أي وما هم بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين الذين يشعرون بعظيم سلطان الله، ويعلمون أنه مطلع على سرهم ونجواهم . إذ هم كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات، ظنا منهم أن ذلك يرضي ربهم، ثم هم بعد ذلك منغمسون في الشرور والمآثم من كذب وغش وخيانة وطمع إلى نحو ذلك مما حكاه الكتاب الكريم عنهم ونقله الرواة أجمعون.

« يخادعون الله والذين آمنوا » الخدع : أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه . لتحول بينه وبين ما يريد . وأصله من قولهم : خدع الضب إذا توارى في جحره . وضب خادع إذا أوهم حارسه الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر .

والخدع هنا : من جانب المنافقين لله والمؤمنين . والتعبير بصيغة المخادعة للدلالة على المبالغة في حصول الفعل وهو الخدع . أو الدلالة على حصوله مرة بعد أخرى . كما يقال مارست الشيء وزاولته ، إذ هم كانوا مداومين على الخدع . إذ أعمالهم الظاهرة لا تصدقها بواطنهم . وهذا لا يكون إلا من مخادع لا من تائب خاشع .

وخداعهم للمؤمنين بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر ،للإطلاع على أسرارهم وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود ،ودفع الأذى عن أنفسهم .

« وما يخدعون إلا أنفسهم » إذ ضرر عملهم لاحق بهم،فهم يغرون أنفسهم بالأكاذيب ، ويلقونها في مهاوي الهلاك والردى .

« وما يشعرون » يقال شعر به يشعر شعورا . علم به وفطن . والفطنة إنما تتعلق بخفايا الأمور . فالشعور لا يكون إلا فى إدراك ما دق وخفى من شيء حسى أو عقلى.

وقد نفى الشعور عنهم فى مخادعتهم لله ، لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم على أقوالهم، ولم يراقبوه فى أفعالهم ، ولم يفكروا فيما يرضيه . بل جروا فى ريائهم على ما ألفوا وتعودوا ، فهم يعملون عمل المخادعين وما يشعرون . فإذا عرض لهم زاجر من الدين يحول بينهم وبين ما يشتهون ، وجدوا من المعاذير ما يسهل أمره . إما بأمل فى المغفرة أو تحريف فى أوامر الكتاب . لما رسخ فى نفوسهم من عقائد الزيغ التى يسمونها إيمانا . وهم فى الحقيقة مخدوعون وعن الصراط السوى ناكبون .

وللشاهد أن الإنسان إذا هم بعمل وناجى نفسه وجد كأن فى قلبه خصمين مختصمين ، أحدهما : يميل به إلى اللذة ويسير به فى طريق الضلال والغواية ، وثانيهما : يأمره بالسير فى الطريق القويم وينهاه عن اتباع النفس والهوى . ولقد جاء فى كلامهم عن المتردد « فلان يشاور نفسيه » .

ولا يترجح عنده جانب الشر إلا إذا خدع نفسه، وصرفها عن الحق، وزين لها اتباع الباطل . وإنما يكون ذلك بعد مشاورة ومذاكرة تجول فى الخاطر، وتهجس فى النفس . وربما لا يلتفت إليها الإنسان ولا يشعر بما يجول بين جنبيه.

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم » من ألم (بكسر اللام) يألم فهو أليم بمعنى مؤلم (بفتح اللام) إذ يصل ألمه إلى القلوب. وصف به العذاب نفسه ، لبيان أن الألم بلغ الغاية حتى سرى من المعذب إلى العذاب .

« وما يشعرون » يقال شعر به يشعر شعورا . علم به وفطن . والفطنة إنما تتعلق بخفايا الأمور . فالشعور لا يكون إلا فى إدراك ما دق وخفى من شيء حسى أو عقلى.

وقد نفى الشعور عنهم فى مخادعتهم لله ، لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم على أقوالهم، ولم يراقبوه فى أفعالهم ، ولم يفكروا فيما يرضيه . بل جروا فى ريائهم على ما ألفوا وتعودوا ، فهم يعملون عمل المخادعين وما يشعرون . فإذا عرض لهم زاجر من الدين يحول بينهم وبين ما يشتهون ، وجدوا من المعاذير ما يسهل أمره. إما بأمل فى المغفرة أو تحريف فى أوامر الكتاب . لما رسخ فى نفوسهم من عقائد الزيغ التى يسمونها إيمانا . وهم فى الحقيقة مخدوعون وعن الصراط السوى ناكبون .

وللشاهد أن الإنسان إذا هم بعمل وناجى نفسه وجد كأن فى قلبه خصمين مختصمين ، أحدهما : يميل به إلى اللذة ويسير به فى طريق الضلال والغواية ، وثانيهما : يأمره بالسير فى الطريق القويم وينهاه عن اتباع النفس والهوى . ولقد جاء فى كلامهم عن المتردد « فلان يشاور نفسيه » .

ولا يترجح عنده جانب الشر إلا إذا خدع نفسه، وصرفها عن الحق، وزين لها اتباع الباطل . وإنما يكون ذلك بعد مشاورة ومذاكرة تجول فى الخاطر، وتهجس فى النفس . وربما لا يلتفت إليها الإنسان ولا يشعر بما يجول بين جنبيه.

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم » من ألم (بكسر اللام) يألم فهو أليم بمعنى مؤلم (بفتح اللام) إذ يصل ألمه إلى القلوب. وصف به العذاب نفسه ، لبيان أن الألم بلغ الغاية حتى سرى من المعذب إلى العذاب .

« بما كانوا يكذبون » أى بسبب كذبهم فى دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر، فهم لم يصدقوا بأعمالهم مايزعمونه من حالهم .

وقد جعل العذاب جزاء الكذب دون سائر موجباته الأخرى، كالكفر وغيره من أعمال السوء . للتحذير منه ، وبيان فظاعته ، وعظم جرمه، والإشعار بأن الكفر من محتوياته ، وإليه ينتهى فى حدوده وغاياته ، ومن ثم حذر منه القرآن أتم التحذير . فما فشا فى أمة إلا كثرت فيها الجرائم وشاعت فيها الرذائل . فهو مصدر كل رذيلة ، ومنشأ كل كبيرة . وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « إياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان » . (تفسير المراغى ج ١ ص ٤٩-٥٢ بتصرف)

٣ ـ وقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون » . (سورة المنافقون الآيتين ١-٢)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبى ﷺ . فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك . بل على الضد من ذلك . ولهذا قال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » أى إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون .

ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال : « والله يعلم إنك لرسوله » ثم قال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » أى فيما أخبروا به وإن كان مطابقا للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه . ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله » أى اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ، والحلفان الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون . فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون . فربما اقتدى بهم فيما يفعلون ، وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم كانوا فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس .

ولهذا قال تعالى : « فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون » ولهذا – أيضا – كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها « اتخذوا أيمانهم جنة » أى تصديقهم الظاهر « جنة » أى تقية يتقون به القتل .

(تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ٤ ص ٣٦٨)

ويقول المراغى فى تفسيره .

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » أى إذا حضر مجالسك المنافقون كعبد الله بن أبى وصحبه قالوا : نشهد شهادة لا نشك فى صدقها ، إنك رسول من عند الله حقا ، أوحى إليك وحيه ، وأنزل عليك كتابه رحمة منه بعباده .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها تحقيقا لرسالته . فقال :

« والله يعلم إنك لرسوله » أى والله يعلم إنك لرسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، لتنقذهم من الضلال إلى الهدى .

ثم بين كذبهم فى مقالهم الذى حدثوا به فقال :

« والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فيما أخبروا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما يقولون ، ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم فى هذه الشهادة .

وقوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله » أى اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ، والحلفان الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون . فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون . فربما اقتدى بهم فيما يفعلون ، وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم كانوا فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس .

ولهذا قال تعالى : « فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون » ولهذا – أيضا – كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها « اتخذوا إيمانهم جنة » أى تصديقهم الظاهر « جنة » أى تقية يتقون به القتل .

(تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ٤ ص ٣٦٨)

ويقول المراغى فى تفسيره .

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » أى إذا حضر مجالسك المنافقون كعبد الله بن أبى وصحبه قالوا : نشهد شهادة لا نشك فى صدقها ، إنك رسول من عند الله حقا ، أوحى إليك وحيه ، وأنزل عليك كتابه رحمة منه بعباده .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها تحقيقا لرسالته . فقال :

« والله يعلم إنك لرسوله » أى والله يعلم إنك لرسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، لتنقذهم من الضلال إلى الهدى .

ثم بين كذبهم فى مقالهم الذى حدثوا به فقال :

« والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فيما أخبروا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما يقولون ، ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم فى هذه الشهادة .

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين محرجة فقال :

«اتخذوا أيمانهم جنة» أى جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية وستراً لحقن دمائهم، وحفظ أموالهم . فيحلفون بالله إنهم لمنكم ، ويقولون : نشهد إنك لرسول الله. حتى لاتجرى عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيمة .

قال قتادة : كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لدمائهم وأموالهم .

وفى هذا تعداد لقبائح أفعالهم . وأن من عادتهم أن يستجنُّوا بالأيمان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة .

ثم حكى عنهم جريمة أخرى . وهى إضلال الناس وصدهم عن الإسلام فقال :

«فصدوا عن سبيل الله » أى فمنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وعن الإنفاق كما حكى عنهم سبحانه بعد . وقصارى ذلك أنهم أجرموا جرمين :

(١) أعدوا الأيمان الكاذبة وهيئوها لوقت الحاجة ، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة .

(٢) أنهم يمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام ، وينفرونهم منه متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ثم بين قبح مغبة مايعملون ، ووبال مايصنعون فقال :

« إنهم ساء ما كانوا يعملون » أى قبح فعلهم إذ آثروا الكفر على الإيمان، وأظهروا خلاف ما أضمروا ، وسيلقون نكالا ووبالا فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فسيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد ، ويظهر نفاقهم للمؤمنين

بنحو قوله : «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله » . وأما في الآخرة فحسبهم جهنم وبئس المهاد .

(تفسير المراغي جـ ٢٨ ص ١٠٦ ، ١٠٨)

٤ ـ وقال تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب »

(سورة التوبة الآيات ٧٥ ـ ٧٨)

يقول الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره :

« يقول تعالى ذكره : ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك يا محمد صفتهم : من عاهد الله . أي أعطى الله عهدا . لئن آتانا من فضله . أي لئن أعطانا الله من فضله ورزقنا مالا ووسع علينا من عنده ، لنصدقن : أي لنخرجن الصدقة من ذلك المال الذي رزقنا ربنا ، ولنكونن من الصالحين : أي ولنعملن فيها بعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم ، وإنفاقه في سبيل الله .

فرزقهم الله وآتاهم من فضله . فلما آتاهم الله من فضله بخلوا بفضل الله الذي آتاهم . فلم يصدقوا منه ، ولم يصلوا منه قرابة ، ولم ينفقوا منه في حق الله ، وتولوا وأدبروا عن عهدهم الذي عاهدوه الله ، وهم معرضون عنه .

فأعقبهم الله نفاقا في قلوبهم ببخلهم بحق الله الذي فرضه عليهم فيما آتاهم من فضله إلى يوم يلقونه . بما أخلفوا الله ما وعدوه من الصدقة والنفقة في سبيله

بنحو قوله : «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله » . وأما فى الآخرة فحسبهم جهنم وبئس المهاد .

(تفسير المراغى ج ٢٨ ص ١٠٦ ، ١٠٨)

٤ ـ وقال تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب »

(سورة التوبة الآيات ٧٥ ـ ٧٨)

يقول الإمام ابن جرير الطبرى فى تفسيره :

« يقول تعالى ذكره : ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك يا محمد صفتهم : من عاهد الله . أى أعطى الله عهدا . لئن آتانا من فضله . أى لئن أعطانا الله من فضله ورزقنا مالا ووسع علينا من عنده ، لنصدقن : أى لنخرجن الصدقة من ذلك المال الذى رزقنا ربنا ، ولنكونن من الصالحين : أى ولنعملن فيها بعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم ، وإنفاقه فى سبيل الله .

فرزقهم الله وآتاهم من فضله . فلما آتاهم الله من فضله بخلوا بفضل الله الذى آتاهم . فلم يصدقوا منه ، ولم يصلوا منه قرابة ، ولم ينفقوا منه فى حق الله ، وتولوا وأدبروا عن عهدهم الذى عاهدوه الله ، وهم معرضون عنه .

فأعقبهم الله نفاقا فى قلوبهم ببخلهم بحق الله الذى فرضه عليهم فيما آتاهم من فضله إلى يوم يلقونه . بما أخلفوا الله ما وعدوه من الصدقة والنفقة فى سبيله

وبما كانوا يكذبون فى قيلهم ، وحرمهم التوبة منه ، لأنه جل ثناؤه اشترط فى نفاقهم أنه أعقبهم إلى يوم يلقونه ، وذلك يوم مماتهم وخروجهم من الدنيا .

واختلف أهل التأويل فى المعنى بهذه الآية . فقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا من الأنصار أتى على مجلس من الأنصار فقال: لئن آتاه الله مالا ليؤدين إلى كل ذى حق حقه . فآتاه الله مالا فصنع فيه ما تسمعون . وقال مجاهد : خرج رجلان على ملأ قعود فقالا : والله لئن رزقنا الله لنصدقن . فلما رزقهم بخلوا به فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم بما أخلفوا الله ما وعدوه حين قالوا لنصدقن فلم يفعلوا . وعن سعيد بن ثابت قال : قوله : « ومنهم من عاهد الله ... الآية . قال : إنما هو شىء نووه فى أنفسهم ولم يتكلموا به . ألم تسمع إلى قوله : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » .

يقول تعالى ذكره : ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان بهما جهرا . أن الله يعلم سرهم الذى يسرونه فى أنفسهم من الكفر به وبرسوله ، ونجواهم إذا تناجوا بينهم بالطعن فى الإسلام وأهله . وذكرهم بغير ماينبغى أن يذكروا فيحذروا من الله عقوبته أن يحلها بهم، وسطوته أن يوقعها بهم على كفرهم بالله وبرسوله، وعيبهم للإسلام وأهله؛ فينزعوا عن ذلك ويتوبوا منه . وأن الله علام ماغاب عن أسماع خلقه، وأبصارهم وحواسهم مما أكنته نفوسهم فلم يظهر على جوارحهم الظاهرة فينهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب، ويزجرهم عن إضمار غير مايبدونه وإظهار خلاف ما يعتقدونه .

(جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ج ١٠ ص ١٣٠ ــ ١٣٤ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » أى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به ، والإنفاق فى سبيل الله : كإعداد العدة للجهاد ، وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شئونها .

« فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون » أى فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا ، بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشىء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة ، وإصلاح حالهم وحال أمتهم ، كما عاهدوا الله عليه . ولم يكن ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة . بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ، ومنعهم عن التصدق بحيث إذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دعوا لا يستجيبون .

« فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه » قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك . أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعهد العهد الموثق بأوكد الأيمان نفاقا فى قلوبهم متمكنا منها ، وملازما لها إلى يوم الحساب فى الآخرة ، لأنه لا رجاء معه فى التوبة .

ثم ذكر سببين هما من أخص أوصاف المنافقين : إخلاف الوعد ، والكذب فقال :

« بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » أى إن سنة الله فى البشر

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » أى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به ، والإنفاق فى سبيل الله : كإعداد العدة للجهاد ، وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شئونها .

« فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون » أى فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا ، بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشىء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة ، وإصلاح حالهم وحال أمتهم ، كما عاهدوا الله عليه . ولم يكن ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة . بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ، ومنعهم عن التصدق بحيث إذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دعوا لا يستجيبون .

« فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه » قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك . أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان نفاقا فى قلوبهم متمكنا منها ، وملازما لها إلى يوم الحساب فى الآخرة ، لأنه لا رجاء معه فى التوبة .

ثم ذكر سببين هما من أخص أوصاف المنافقين : إخلاف الوعد ، والكذب فقال :

« بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » أى إن سنة الله فى البشر

قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق فى القلب ويقويه . كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوة ورسوخا فى النفس . وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر منها .

فهؤلاء لما كان قد رسخ فى نفسهم خلف الوعد، واستمرار الكذب بمكن ذلك النفاق فى قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره .

« ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول ؛ أن الله يعلم السر الكامن فى أعماق نفوسهم الذى يخصون به من يثقون به ممن هو مشارك لهم فى النفاق ، وأن الله يعلم الغيوب كلها لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه .

(تفسير المراغى ج ١٠ ص ١٦٨ ــ ١٧٠ بتصرف)

ويقول القاسمى فى تفسيره لقوله تعالى :

« ومنهم من عاهد الله » إلى قوله : « يكذبون »

تنبيه : (قال السيوطى فى الأكليل): فيها أن إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق . فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان . وفيها للمعاقبة على الذنب بما هو أشد منه . لقوله : (فأعقبهم نفاقا) . واستدل بها قوم على أن من حلف إن فعل كذا فلله على كذا ، أنه يلزمه .

وقال الرازى : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد ، يورث

النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه، وإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به .

(محاسن التأويل . لمحمد جمال الدين القاسمى جـ٨ ص ٣٢٠٩ بتصرف)

الأدلة من السنة :

إن الكذب ديدن أهل الكفر والنفاق، ورذيلة من أمهات الرذائل لديهم. والكاذبون هم أخطر الناس على أنفسهم، وعلى ذويهم . وخاصة إذا كانت لديهم القدرة على التضليل والتمويه والخداع، وكانت لديهم الرغبة فى تزييف الحقائق، ولى أعناقها، وتشويه وجهها .

ولذا فإن رسول الله ﷺ كان أخوف مايخافه على أمته أن تصاب بمنافق مضلل، زلق اللسان مؤثر البيان. لاضمير له ولا إيمان ولا شرف، ولا يحترم الحق ولا يقف عنده . الأمر الذى لا يمكن أن يتصف به مسلم ، أو أن يتورط فيه مؤمن كامل الإيمان .

١ ـ عن أبى هريرة . رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر » رواه البخارى ومسلم . وزاد فى رواية له :

« وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

(الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٥٩٣)

٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا » ومن كان فيه خصلة منهن كانت

النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه، وإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به .

(محاسن التأويل . لمحمد جمال الدين القاسمى جـ٨ ص ٣٢٠٩ بتصرف)

الأدلة من السنة :

إن الكذب ديدن أهل الكفر والنفاق، ورذيلة من أمهات الرذائل لديهم. والكاذبون هم أخطر الناس على أنفسهم، وعلى ذويهم . وخاصة إذا كانت لديهم القدرة على التضليل والتمويه والخداع، وكانت لديهم الرغبة فى تزييف الحقائق، ولى أعناقها، وتشويه وجهها .

ولذا فإن رسول الله ﷺ كان أخوف مايخافه على أمته أن تصاب بمنافق مضلل، زلق اللسان مؤثر البيان. لاضمير له ولا إيمان ولا شرف، ولا يحترم الحق ولا يقف عنده . الأمر الذى لا يمكن أن يتصف به مسلم ، أو أن يتورط فيه مؤمن كامل الإيمان .

١ ـ عن أبى هريرة . رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر » رواه البخارى ومسلم . وزاد فى رواية له :

« وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

(الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٥٩٣)

٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا » ومن كان فيه خصلة منهن كانت

فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى.

(المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٩٣ ، ٥٩٤)

٣ ـ وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى منافق[1] عليم اللسان » رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ورواته محتج بهم فى الصحيح.

(المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٧ ، ١٢٨)

٤ ـ وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : « يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب » رواه البزار وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى جـ ١ ص ٩٢)

٥ ـ وعن صفوان بن سليم قال : قيل يارسول الله ، أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم. قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا » رواه مالك هكذا مرسلا .

(الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥٩٥)

الآثار :

الكذب محور النفاق الذى يدور عليه أمره ، وركيزته التى يقوم عليها كيانه ، وأصله الذى لا يكون إلا به . من زاوله فقد جانب الإيمان ، وأصبح من

---

(١) أى مذبذب ومراء وخداع وكذاب . استعمل العلم فى النفاق وكسب الحرام .

النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه، وإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به .

(محاسن التأويل . لمحمد جمال الدين القاسمى جـ٨ ص ٢٢٠٩ بتصرف)

الأدلة من السنة :

إن الكذب ديدن أهل الكفر والنفاق، ورذيلة من أمهات الرذائل لديهم. والكاذبون هم أخطر الناس على أنفسهم، وعلى ذويهم . وخاصة إذا كانت لديهم القدرة على التضليل والتمويه والخداع، وكانت لديهم الرغبة فى تزييف الحقائق، ولى أعناقها، وتشويه وجهها .

ولذا فإن رسول الله ﷺ كان أخوف مايخافه على أمته أن تصاب بمنافق مضال، زلق اللسان، مؤثر البيان. لاضمير له ولا إيمان ولا شرف، ولا يحترم الحق ولا يقف عنده . الأمر الذى لايمكن أن يتصف به مسلم ، أو أن يتورط فيه مؤمن كامل الإيمان .

١ ـ عن أبى هريرة . رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر » رواه البخارى ومسلم . وزاد فى رواية له :

« وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

(الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥٩٣)

٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا » ومن كان فيه خصلة منهن كانت

فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى.

(المصدر السابق جـ٣ ص ٥٩٣، ٥٩٤)

٣ ـ وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى منافق[1] عليم اللسان » رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ورواته محتج بهم فى الصحيح .

(المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٧ ، ١٢٨)

٤ ـ وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : « يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب » رواه البزار وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى جـ ١ ص ٩٢)

٥ ـ وعن صفوان بن سليم قال : قيل يارسول الله ، أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم. قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا » رواه مالك هكذا مرسلا .

(الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥٩٥)

الآثار :

الكذب محور النفاق الذى يدور عليه أمره ، وركيزته التى يقوم عليها كيانه ، وأصله الذى لايكون إلا به . من زاوله فقد جانب الإيمان ، وأصبح من

---

(١) أى مذبذب ومراء وخداع وكذاب . استعمل العلم فى النفاق وكسب الحرام .

للمهانة على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، ومن اجتنبه فقد وقى نفسه شر العثار والبوار والهلكة ، وضمن لها ثبات الأمر ، وصلاح الحال ، ثم الفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة .

١ ـ قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : « كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب » أخرجه ابن أبى الدنيا .

(إتحاف السادة المتقين شرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدى ج ٧ ص ٥١١)

٢ ـ وقال على بن أبى طالب : « جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان . الصادق على شرف منجاة وكرامة ، والكاذب على شفا مهواة ومهانة » .

(نهج البلاغة ج ١ ص ٧٩)

٣ ـ وعن ميمون بن أبى شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت ، فعزمت على تركه ، فنوديت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

(إحياء علوم الدين للغزالى ج ٣ ص ١٣٤)

٤ ـ وقيل : أمران لا ينفكان من كذب ، كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار .

(المحاسن والمساوىء لإبراهيم بن محمد البيهقى ج٢ ص ٧١)

٥ ـ وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى .

(إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٣٤)

للمهانة على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، ومن اجتنبه فقد وقى نفسه شر العثار والبوار والهلكة ، وضمن لها ثبات الأمر ، وصلاح الحال ، ثم الفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة .

١ ـ قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : « كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب » أخرجه ابن أبى الدنيا .

(إتحاف السادة المتقين شرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدي جـ ٧ ص ٥١١)

٢ ـ وقال على بن أبى طالب : « جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان . الصادق على شرف منجاة وكرامة ، والكاذب على شفا مهواة ومهانة » .

(نهج البلاغة جـ ١ ص ٧٩)

٣ ـ وعن ميمون بن أبى شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت ، فعزمت على تركه ، فنوديت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

(إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ ص ١٣٤)

٤ ـ وقيل : أمران لا ينفكان من كذب ، كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار .

(المحاسن والمساوىء لإبراهيم بن محمد البيهقى جـ ٢ ص ٧١)

٥ ـ وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى .

(إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٣٤)

العنصر الثالث

تنفير الإسلام من الكذب

الأدلة من الكتاب :ـ

لقد نفر الإسلام من الكذب، وبغض فيه، وحذرنا من مزاولته والهبوط إلى هويته، أو التردي في حمأته . أو التهاون مع الكاذبين أو مطاولتهم أو الميل إليهم .

فقد حكم عليهم الحق تبارك وتعالى باللعن والغضب، وطردهم من رحمته ورضوانه . فلا ينالون من كذبهم إلا فتنة على فتنة، وخبالا على خبال جزاء بما كانوا يكذبون .

١ — قال تعالى : « قتل الخراصون • الذين هم فى غمرة ساهون »
(سورة الذاريات آيتى ١٠ و ١١)

يقول القرطبي فى تفسيره :ـ

قوله تعالى: « قتل الخراصون » فى التفسير : لعن الكذابون . وقال ابن عباس : أى قتل المرتابون، يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث . ومعنى « قتل » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدى المؤمنين . وقال الفراء : معنى « قتل »: لعن . قال « والخراصون » الكذابون الذين يتخرصون بما لا يعلمون، فيقولون : إن محمدا مجنون كذاب ساحر شاعر . وهذا دعاء عليهم لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال ابن الأنبارى: علمنا الدعاء عليهم. أى قولوا :« قتل الخراصون » وهو جمع خارص . والخرص: الكذب. والخراص الكذاب .

للهانة على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، ومن اجتنبه فقد وقى نفسه شر العثار والبوار والهلكة ، وضمن لها ثبات الأمر، وصلاح الحال، ثم الفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة .

١ ـ قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : « كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب » أخرجه ابن أبى الدنيا .
(إتحاف السادة المتقين شرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدى ج ٧ ص ٥١١)

٢ ـ وقال على بن أبى طالب : « جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان . الصادق على شرف منجاة وكرامة ، والكاذب على شفا مهواة ومهانة » .
(نهج البلاغة ج ١ ص ٧٩)

٣ ـ وعن ميمون بن أبى شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب و كنت قد كذبت ، فعزمت على تركه ، فنوديت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ».

(إحياء علوم الدين للغزالى ج ٣ ص ١٣٤)

٤ ـ وقيل : أمران لاينفكان من كذب ، كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار .

(المحاسن والمساوىء لإبراهيم بن محمد البيهقى ج٢ ص ٧١)

٥ ـ وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى .
(إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٣٤)

للهانة على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، ومن اجتنبه فقد وقى نفسه شر العثار والبوار والهلكة ، وضمن لها ثبات الأمر، وصلاح الحال، ثم الفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة .

١ ــ قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : « كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب » أخرجه ابن أبى الدنيا .

(إتحاف السادة المتقين شرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدى ج ٧ ص ٥١١)

٢ ــ وقال على بن أبى طالب : « جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان . الصادق على شرف منجاة وكرامة ، والكاذب على شفا مهواة ومهانة » .

(نهج البلاغة ج ١ ص ٧٩)

٣ ــ وعن ميمون بن أبى شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب و كنت قد كذبت ، فعزمت على تركه ، فنوديت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ».

(إحياء علوم الدين للغزالى ج ٣ ص ١٣٤)

٤ ــ وقيل : أمران لا ينفكان من كذب ، كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار .

(المحاسن والمساوىء لإبراهيم بن محمد البيهقى ج٢ ص ٧١)

٥ ــ وقال عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى .

(إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٣٤)

العنصر الثالث

تنفير الإسلام من الكذب

الأدلة من الكتاب :ـ

لقد نفر الإسلام من الكذب، وبغض فيه، وحذرنا من مزاولته والهبوط إلى هويته، أو التردي في حمأته . أو التهاون مع الكاذبين أو مطاولتهم أو الميل إليهم .

فقد حكم عليهم الحق تبارك وتعالى باللعن والغضب، وطردهم من رحمته ورضوانه . فلا ينالون من كذبهم إلا فتنة على فتنة، وخبالا على خبال جزاء بما كانوا يكذبون .

١ — قال تعالى : « قتل الخراصون • الذين هم فى غمرة ساهون »
(سورة الذاريات آيتى ١٠ و ١١)

يقول القرطبي فى تفسيره :ـ

قوله تعالى: « قتل الخراصون » فى التفسير : لعن الكذابون . وقال ابن عباس : أى قتل المرتابون، يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث . ومعنى « قتل » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدى المؤمنين . وقال الفراء : معنى « قتل »: لعن . قال « والخراصون » الكذابون الذين يتخرصون بما لا يعلمون، فيقولون : إن محمدا مجنون كذاب ساحر شاعر. وهذا دعاء عليهم لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال ابن الأنبارى: علمنا الدعاء عليهم. أى قولوا :« قتل الخراصون » وهو جمع خارص . والخرص: الكذب. والخراص الكذاب .

وقوله تعالى . « الذين هم فى غمرة ساهون » الغمرة ما ستر الشيء وغطاه، ومنه نهر غمر. أى يغمر من دخله «ساهون» أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة.
(الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصارى
القرطبي ج ١٧ ص ٣٣ و ٣٤ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :ـ

« قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون » أى قتل الكذابون من أصحاب القول المختلف الذين هم فى جهل عميق وغفلة عظيمة عما أمروا به .

وهذا دعاء عليهم يراد به فى عرف التخاطب لعنهم إذ من لعنه الله فهو بمنزلة الهالك المقتول . وقد جاء فى القاموس : قتل الإنسان ما أكفره أى لعن ، وقاتلهم الله أى لعنهم . (تفسير المراغى ج ٢٦ ص ١٧٦)

٢ - وقال تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . (سورة آل عمران آية رقم ٦١)

يقول المراغى فى تفسيره :ـ

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم » أى فمن جادلك فى شأن عيسى عليه السلام من بعد أن قصصت عليك من خبره وجلية أمره ما قصصت .
« فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » أى فقل لهم : أقبلوا وليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه للمباهلة والدعاء .

وقوله تعالى . « الذين هم فى غمرة ساهون » الغمرة ما ستر الشيء وغطاه، ومنه نهر غمر. أى يغمر من دخله «ساهون» أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة.
(الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصارى
القرطبي ج ١٧ ص ٣٣ و ٣٤ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :ـ

« قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون » أى قتل الكذابون من أصحاب القول المختلف الذين هم فى جهل عميق وغفلة عظيمة عما أمروا به .

وهذا دعاء عليهم يراد به فى عرف التخاطب لعنهم إذ من لعنه الله فهو بمنزلة الهالك المقتول . وقد جاء فى القاموس : قتل الإنسان ما أكفره أى لعن، وقاتلهم الله أى لعنهم . (تفسير المراغى ج ٢٦ ص ١٧٦)

٢ - وقال تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . (سورة آل عمران آية رقم ٦١)

يقول المراغى فى تفسيره :ـ

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم » أى فمن جادلك فى شأن عيسى عليه السلام من بعد أن قصصت عليك من خبره وجلية أمره ما قصصت . « فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » أى فقل لهم : أقبلوا وليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه للمباهلة والدعاء .

وفى تقديم هؤلاء على النفس فى المباهلة — مع أن الرجل يخاطر بنفسه لهم — إيذان بكمال أمنه ﷺ، وتمام ثقته بأمره وقوة يقينه، بأنه لن يصيبهم فى ذلك مكروه. وهذه الآية تسمى آية المباهلة.

وقد ورد من طرق عدة أن النبى ﷺ دعا نصارى نجران للمباهلة فأبوا. أخرج البخارى ومسلم: أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ فأراد أن يلاعنهما. فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدا ولا عقبنا من بعدنا أبدا. فقالا له: نعطيك ما سألت. فابعث معنا رجلا أمينا. فقال: قم يا أبا عبيدة. فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة.

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس: « أن ثمانية من نصارى نجران قدموا على رسول ﷺ منهم العاقب والسيد فأنزل الله « قل تعالوا ... » الآية فقالوا: أخرنا ثلاثة أيام. فذهبوا إلى قريظة والنضير وبنى قينقاع من اليهود فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه. وقالوا هو النبى الذى نجده فى التوراة. فصالحوه على ألف حلة فى صفر، وألف فى رجب ودراهم ».

وروى أن النبى ﷺ اختار للمباهلة عليا وفاطمة وولديهما عليهم الرضوان، وخرج بهم وقال: إن أنا دعوت فأمّنوا أنتم.

وأخرج ابن عساكر عن جعفر عن أبيه: أنه لما نزلت هذه الآية جاء بأبى بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، ولاشك أن الذى يفهم من الآية: أن النبى ﷺ أمر أن يدعو المحاجين والمجادلين فى شأن عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع، رجالا ونساء وأطفالا، ويجمع هو المؤمنين رجالا، ونساء، وأطفالا، ويبتهلوا إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى.

وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدل على امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب، من نصارى نجران وسواهم على امترائهم فى حجاجهم، وكونهم على غير بينة فيما يعتقدون.

(تفسير للراغى جـ٣ ص ١٧٤ و ١٧٥)

ويقول القاسمى فى تفسيره :

« ثم نبتهل » أى نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد فى دعاء اللعنة. « فنجعل لعنة الله » أى إبعاده وطرده « على الكاذبين » منا ومنكم ليهلكهم الله وينجى الصادقين. فلا يبقى العناد الباقى عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية.

(محاسن التأويل لمحمد جمال القاسمى جـ ٤ ص ٨٥٧)

الأدلة من السنة :

ليس هناك من شىء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب. لذا فاضت سنته ـ صلوات الله عليه ـ بالتحذير منه فى كل حال من الأحوال، سيما فيما يمس علائق الناس ومعاملاتهم من البيع والشراء، والأخذ والعطاء، وكل ما يتصل بشئونهم فى الأسواق من صفقات وعقود وغيرها، وكذلك ما يتعلق بأمور الأمة التى تحتاج إلى ضبط النفس وتثبتها وصدقها وعدم الخداع أو التضليل فيها. وهذه أمور يذهل عنها الناس فى آخر الزمان حين تخف حرارة الإيمان فى القلوب. ويومئذ يشيع الكذب، ويفشو الخداع، ويختفى الصدق ويتبرع الناس بالزور والبهتان من غير ضرورة أو طلب، فيحلفون ولا يستحلفون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويكذبون ولا يصدقون، ويعاهدون ولا يوفون، وهذا من غير شك شر منحدر. ينحدر فيه الناس ويسقطون فى هاويته حيث لا يهديهم الكذب إلا إلى كل منكر وفجور، ثم لا يهديهم بعد إلا إلى النار وبئس القرار.

وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدل على امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب، من نصارى نجران وسواهم على افترائهم فى حجاجهم ، وكونهم على غير بينة فيما يعتقدون .

(تفسير للراغى جـ٣ ص ١٧٤ و ١٧٥)

ويقول القاسمى فى تفسيره :

« ثم نبتهل » أى نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد فى دعاء اللعنة. « فنجعل لعنة الله » أى إبعاده وطرده « على الكاذبين » منا ومنكم ليهلكم الله وينجى الصادقين . فلا يبقى العناد الباقى عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية .

(محاسن التأويل لمحمد جمال القاسمى جـ ٤ ص ٨٥٧)

الأدلة من السنة :

ليس هناك من شىء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب . لذا فاضت سنته ـ صلوات الله عليه ـ بالتحذير منه فى كل حال من الأحوال ، سيما فيما يمس علائق الناس ومعاملاتهم من البيع والشراء، والأخذ والعطاء، وكل ما يتصل بشئونهم فى الأسواق من صفقات وعقود وغيرها، وكذلك ما يتعلق بأمور الأمة التى تحتاج إلى ضبط النفس وتثبتها وصدقها وعدم الخداع أو التضليل فيها . وهذه أمور يذهل عنها الناس فى آخر الزمان حين تخف حرارة الإيمان فى القلوب. ويومئذ يشيع الكذب، ويفشو الخداع ،ويختفى الصدق ويتبرع الناس بالزور والبهتان من غير ضرورة أو طلب ، فيحلفون ولا يستحلفون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، ويكذبون ولا يصدقون ، ويعاهدون ولا يوفون ، وهذا من غير شك شر منحدر. ينحدر فيه الناس ويسقطون فى هاويته حيث لا يهديهم الكذب إلا إلى كل منكر وفجور ، ثم لا يهديهم بعد إلا إلى النار وبئس القرار .

١ — فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والكذب. فإن الكذب يهدى إلى الفجور[1]. والفجور يهدى إلى النار. ومايزال العبد يكذب[2] ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا[3] » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى وصححه واللفظ له .

(الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٥٩١)

٢ — وعن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يخرج إلينا تجارا . وكان يقول : يا معشر التجار إياكم والكذب » رواه الطبرانى فى الكبير لابأس به إن شاء الله . (المصدر السابق جـ٣ ص ٥٩٠)

٣ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم (المصدر السابق ص ٥٦٦)

٤ — وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلا من نتن ما جاء به » رواه الترمذى وابن أبى الدنيا. وقال الترمذى حديث حسن (الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٥٩٧)

٥ — وعن أسماء بنت يزيد قالت : « أتى النبى ﷺ بطعام فعرض علينا. فقلنا لا نشتهيه . فقال لا تجمعن جوعا وكذبا » رواه ابن ماجه وإسناده حسن .

(سنن ابن ماجه جـ٢ ص ٣١٠)

---

(١) الفجور : الفسوق والمعاصى .

(٢) يكرر منه ذلك ويستمر على طغيانه وافترائه .

(٣) يحكم له بذلك . ويظهره للمخلوقين من الملإ الأعلى، ويلقى ذلك فى قلوب أهل الأرض، وألسنتهم، فيستحق بذلك صفة الكذابين وعقابهم، ويزدرى ويحتقر ولا يوثق بأقواله، وتضيع درجة احترام قوله وتبور تجارته، وتكسد صنعته .

٦ — وعن عبد الرحمن بن شبل رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن التجار هم الفجار ، قالوا يارسول الله : أليس قد أحل الله البيع ؟ قال : بلى ، ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون » رواه أحمد بإسناد جيد ، والحاكم واللفظ له . وقال : صحيح الإسناد .

(الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٨٧)

٧ — وعن ابن عمر عن عمر — رضى الله عنهما — قال : خطب عمر يوما فقال : قام فينا رسول الله ﷺ كقيامى هذا فيكم . فقال : أحسنوا إلى أصحابى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ، ويشهد ولم يستشهد » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى . (إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ ص ١٣٣)

٨ — وعن بكرة بن نفيع بن الحارث — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر[1] ثلاثا . قلنا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » متفق عليه . (رياض الصالحين ص ١٦١)

٩ — وعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال النبى ﷺ : « أفرى الكذب أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا[2] » رواه البخارى .

(المصدر السابق ص ٥٦١)

---

(١) الكبائر : جمع كبيرة . ما ورد فيه وعيد شديد من الكتاب والسنة .

(٢) أى يقول : رأيت فيما لم يره .

٦ — وعن عبد الرحمن بن شبل رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن التجار هم الفجار ، قالوا يارسول الله : أليس قد أحل الله البيع ؟ قال : بلى ، ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون » رواه أحمد بإسناد جيد ، والحاكم واللفظ له . وقال : صحيح الإسناد .

(الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٨٧)

٧ — وعن ابن عمر عن عمر — رضي الله عنهما — قال : خطب عمر يوما فقال : قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي هذا فيكم . فقال : أحسنوا إلى أصحابي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ، ويشهد ولم يستشهد » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى . (إحياء علوم الدين للغزالي جـ ٣ ص ١٣٣)

٨ — وعن بكرة بن نفيع بن الحارث — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر[1] ثلاثا . قلنا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » متفق عليه . (رياض الصالحين ص ١٦١)

٩ — وعن ابن عمر — رضي الله عنهما — قال : قال النبي ﷺ : « أفرى الكذب أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا[2] » رواه البخاري .

(المصدر السابق ص ٥٦١)

---

(١) الكبائر : جمع كبيرة . ما ورد فيه وعيد شديد من الكتاب والسنة .

(٢) أي يقول : رأيت فيما لم يره .

الآثـار :

إن الـكذب مزلقة الفتنة ، ومدرجة الفجور، وسبيل إلى الهلكة والبوار ، وطريق إلى اسوداد القلب ، وطمسه بالمعاصى والآثام .

إنه علة العلل وداء الأدواء، وبؤرة الشر، وداعيته، والباعث عليه. حسبه ممحقة للمروءة، ممحاة للشرف، مورثا للعار، مصبا للذل ؛ الأمر الذى كان يربأ عنه ويتحاشى السقوط فى حمأته أهل الإيمان الحراص على ما شرفهم الله به من قيمه ومثله مهما كلفهم ذلك . ولذا فاضت آثارهم بالـكثير من التواصى على تحاشى الـكذب والبعد عنه .

١ — قال لقمان لابنه : يابنى إياك والـكذب فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . (إحياء علوم الدين للغزالى جـ٣ ص ١٣٣)

٢ — وعن عمر قال : « لا خير فيما دون الصدق من الحديث . من يكذب يفجر ومن يفجر يهلك . . . » (ابن أبى الدنيا فى الصمت)

(كنز العمال لعلاء الدين على المتقى جـ ٣ ص ٤٤١)

٣ — وقال على — رضى الله عنه — : « أعظم الخطايا اللسان الـكذوب ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة » . (إحياء علوم الدين جـ٣ ص ١٣٤)

٤ — وعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود قال : « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الـكذب ، فتنكت فى قلبه نكتة حتى يسود قلبه ، فيكتب عند الله من الكاذبين » ذكره مالك فى الموطأ .

(الترغيب والترهيب جـ٣ص٥٩٢)

٥ — وقال جعفر بن محمد : « لازاد أفضل من التقوى ، ولاشيء أحسن من الصمت ، ولا عدو أضر من الجهل ، ولاداء أدوى من الكذب ».
(حلية الأولياء وطبقات الأصفياء جـ ٣ ص ١٩٦)

٦ — وقيل لخالد بن صبيح : « أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال : نعم . »
(إحياء علوم الدين جـ٣ ص ١٣٤)

٧ — وقيل إنه وجد فى كتب الهند ليس لكذوب مروءة . وقال قتيبة ابن مسلم لبنيه : لاتطلبوا الحوائج من كذوب ؛ فإنه يقربها وإن كانت بعيدة ، ويبعدها وإن كانت قريبة .
(المحاسن والمساوىء جـ٢ ص ٧٠)

٨ — وقال بعض الحكماء : « لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لقد كان حقيقا بذلك . فكيف وفيه المأثم والعار » .
(المحاسن والمساوىء جـ٢ ص ٦٣ ، ٦٤)

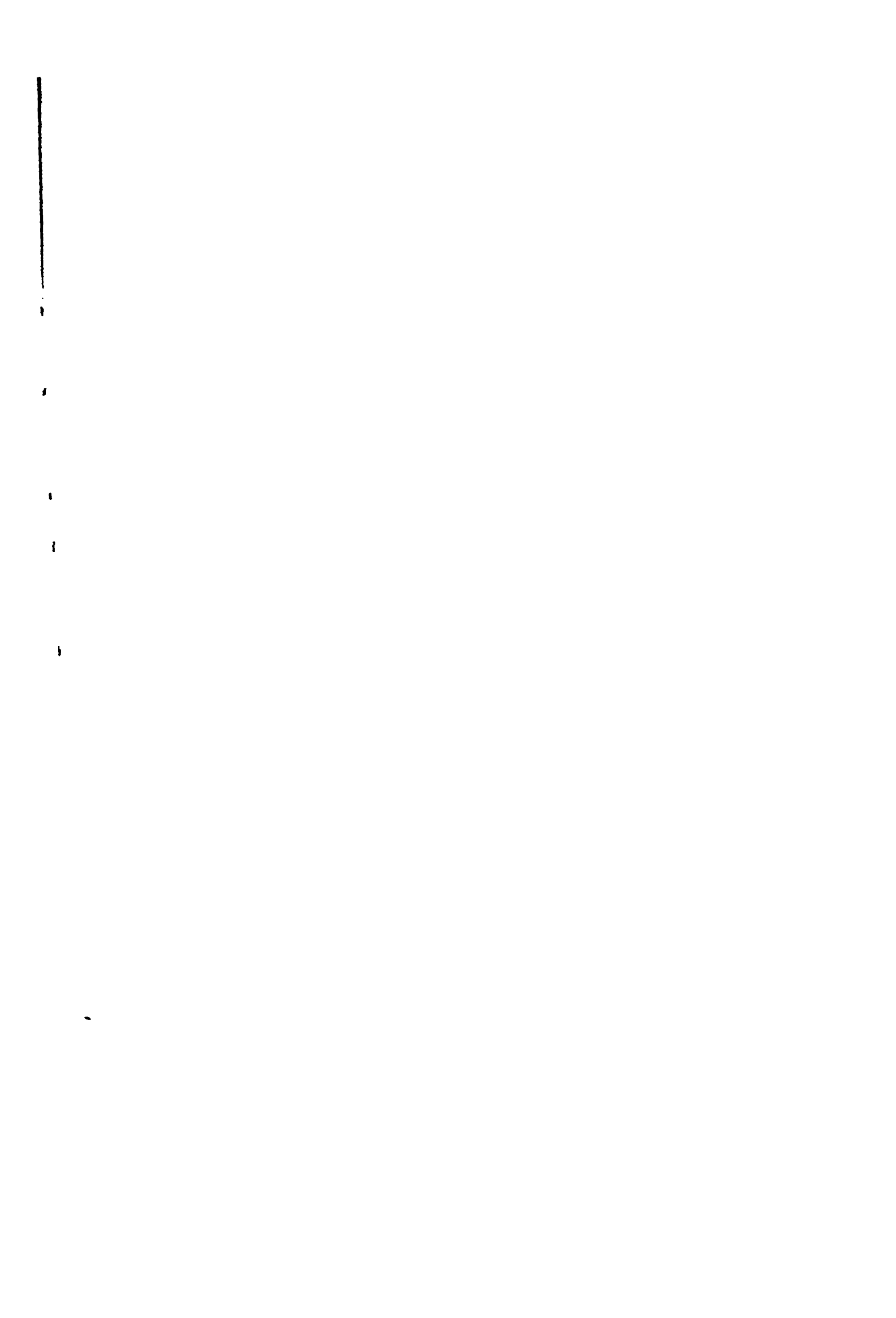
٩ — وقال الراغب : « الكذب عار لازم وذل دائم » .
(فيض القدير جـ ٥ ص ٦٣)

١٠ — ويقول الأستاذ أبو الحسن على الندوى :

« كان ضمير الحر عزيزا محترما . كدينه وعرضه . لايساوم عليه، ولايباع بأى ثمن. وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة أو خيانة يخلص بها نفسه من الموت . وقد روى لنا التاريخ الهندى طرائف فى هذا الباب . لابد أن تكون أمثلتها متوافرة فى التاريخ فى جميع البلاد الإسلامية . منها : أن الشيخ رضى الله البدلاونى اتهم بالاشتراك فى الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧م، وحوكم

أمام حاكم إنجليزي كان من تلاميذه. فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه. ولكن الشيخ أبى وقال: قد اشتركت في الخروج على الإنجليز فكيف أجحد؟ فاضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام. ولما قدم للشنق بكى وقال له: حتى في هذه اللحظة لو قلت مرة: إن القضية مكذوبة علي وإني بريء لاجتهدت في تخليصك. فغضب الأستاذ وقال: أتريد أن تحبط عملي بالكذب على نفسي؟! لقد خسرت إذاً وضل عملي. بل قد اشتركت في الثورة فانظر ما بدا لكم وشنق الرجل ..».

(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن على الحسني الندوي ص ٢٣٥)



وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٦٩ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٩٦ هـ ٣٠ من مايو سنة ١٩٧٦ م

الكذب وأثره فى تقويض صرح الأمة (ب)

مقدمـــة :

العنـاصر :

الأول : أثر الكذب فى القضاء على المجتمع .

الثانى : موقفنا من الكذابين .

الثالث : جزاء الكاذبين .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد .

فإن الإسلام ـ وهو بصدد صقل الإنسان وتكوين ذاته وبناء شخصيته يرمى إلى تطهير باطنه وظاهره وتقويم خلقه وتسوية سلوكه وضبطه على ميزان الحق والفطرة فى جوهره وشكله وموضوعه .

والأخلاق والسلوك بعد العقيدة من أبرز الأمور التى عنى بها الإسلام فى هذا السبيل وجعلها غايته وأولاها اهتمامه التشريعى .

وحتى يجد الإنسان ذاته فعلا فقد استهدف الإسلام إزاحة المعوقات من طريقه وتحطيم السلبيات فى حياته ووأد كل عوامل الهدم وبواعث التخاذل والانحلال والضعف لتحل محلها أسباب التماسك والبناء والقوة التى تتألق بها شخصية الإنسان ويزكو بها مجتمعه ويتقدم بها جنسه ليتقلد مفاتيح الخلافة والسيادة والريادة لهذه الحياة .

ولما كان الكذب من أخس الخلال التى تهدر الشخصية وتذيب كيانها وكان من أخبث ماتصاب به الأمة وتبتلى به الجماعة سيما إذا كان كذبا على الله ورسوله يستهدف الحق لينال منه أوالمؤمنين ليشككهم ويخادعهم الأمر الذى لا يتصف به إلا أهل الكفر والنفاق ، فإن الإسلام قد رهب منه وحذر من مقارفته والهوى إلى حمأته .

وهذا ماضمناه نشرتنا (١) التى أصدرناها فى هذا الموضوع .

والإسلام وهو يحرم الكذب وينفر منه وينهى عنه لا يصنع ذلك إلا لما يرى له من أثر سيء بعيد المدى على حياة الإنسان في مسيره ومصيره ونتائج خطيرة على حياة الأمة في حاضرها ومستقبلها .

أجل : إن الكذب وما يدور في فلكه وما يبعث إليه وما ينبثق عنه من غش وتدليس ، وتضليل وخداع ، ثم هو بما ينتج عنه من تآكل الشخصية وإهدار الذات وفقدان الطمأنينة وانعدام الثقة - يعتبر جرثومة خطيرة وميكروبا فتاكا ، وداء عضالا يعصف بفضائل البشر وأقدارهم وقيمهم . ثم إن الكذب باعتباره رذيلة من أمهات الرذائل التي تقلق البشر وتؤرق وجودهم وتنغص حياتهم ، يعتبر حائلا يحول بين رحمة الله تعالى ورضاه على خلقه ، ومن أسرع الذرائع إلى إحلال غضب الله عليهم ونقمته بهم .

والتاريخ الثبت الصحيح خير شاهد على ذلك فكم أخذ أقوام بكذبهم وخداعهم ونفاقهم في الحق وتكذيبهم للأنبياء والرسل فأمسك الله عنهم خيره وبره ، لعل هذا ينبه فيهم مراكز الوعي والإدراك والإنصاف . فلما لم يرعووا وظلوا سادرين أنزل بهم نقمته وأحل بهم بأسه وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

« فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (العنكبوت ٤٠) .

وإنه لجدير بالأمم والأفراد والشعوب أن تدرك بما لا يدع مجالا للشك ولا موضعا للتهاون أن الكذب مزلقة الفتنة ومدرجة الإثم ومجلبة المهلكة

والإسلام وهو يحرم الكذب وينفر منه وينهى عنه لا يصنع ذلك إلا لما يرى له من أثر سيء بعيد المدى على حياة الإنسان فى مسيره ومصيره ونتائج خطيرة على حياة الأمة فى حاضرها ومستقبلها .

أجل : إن الكذب وما يدور فى فلكه وما يبعث إليه وما ينبثق عنه من غش وتدليس ، وتضليل وخداع ، ثم هو بما ينتج عنه من تآكل الشخصية وإهدار الذات وفقدان الطمأنينة وانعدام الثقة ـ يعتبر جرثومة خطيرة وميكروبا فتاكا ، وداء عضالا يعصف بفضائل البشر وأقدارهم وقيمهم . ثم إن الكذب باعتباره رذيلة من أمهات الرذائل التى تقلق البشر وتؤرق وجودهم وتنغص حياتهم ، يعتبر حائلا يحول بين رحمة الله تعالى ورضاه على خلقه ، ومن أسرع الذرائع إلى إحلال غضب الله عليهم ونقمته بهم .

والتاريخ الثبت الصحيح خير شاهد على ذلك فكم أخذ أقوام بكذبهم وخداعهم ونفاقهم فى الحق وتكذيبهم للأنبياء والرسل فأمسك الله عنهم خيره وبره ، لعل هذا ينبه فيهم مراكز الوعى والإدراك والإنصاف . فلما لم يرعووا وظلوا سادرين أنزل بهم نقمته وأحل بهم بأسه وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

« فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (العنكبوت ٤٠) .

وإنه لجدير بالأمم والأفراد والشعوب أن تدرك بما لا يدع مجالا للشك ولا موضعا للتهاون أن الكذب مزلقة الفتنة ومدرجة الإثم ومجلبة المهلكة

وممحقة البركة ومذهبة لكل حق وخير وفضيلة . الأمر الذى يدفع إلى غضب الله وسريع عذابه فى الدنيا والآخرة .

وهذا مابيناه فى العنصر الأول .

والإسلام وهو فى مجال الترهيب من الرذائل عامة والكذب خاصة يندبنا نحن المؤمنين أن يكون لنا من الكذب والكذابين موقف محدد بعيد كل البعد عن كل مايتصل بالسلبية نحوهم أو الاستماع إليهم أو مجاراتهم أو الميل لهم أو التشجيع لهم على ممارسة جريمتهم . يتسم هذا الموقف كل الاتسام بالإيجابية والصلابة ، وضرورة أخذ أقوالهم وأخبارهم بالحذر والتحفظ ، والتحرى منها بتبيانها والتثبت من حقيقتها . فإذا ثبت كذبهم وخداعهم فلا بد وأن يحاطوا بما يشعرهم برذيلتهم من الكذب والخداع . وأنها أمر غير مرغوب فيه يقابل من المجتمع بكل الفتور والإعراض والعبوس والتجهم . ويقابلون بسببه بكل صور العزلة لهم والتضييق عليهم والامتعاض منهم . ثم لا يقف الامر معهم عند هذا الحد ، وإنما يتدرج بتدرج إصرارهم على المعصية وعدم نزوعهم عنها وتوبتهم منها حتى يصل إلى حد حصارهم وقطيعتهم بكل ما يخطر على البال من صور الحصار والمقاطعة وبالحجم الذى يشعرون فيه أنهم برذيلتهم ومايتولد عنها من مآثم ومخاطر أصبحوا فى هذا المجتمع الإيجابى نكتة سلب وهدم وتعويق ، وفى هذا المجتمع الطهور النقى الكريم نقطة هوان ودنس ، ومعلم إثم ورجس ، وفى هذا المجتمع المتلاحم المتماسك المتجانس عامل شر .

هذا الأسلوب العملى والجاد النابع من توجيهات الإيمان ووعى الجماهير

للمؤمنة ، وإيجابيتها هو العلاج الأمثل لكل من يحاول أن يلوث شرف المجتمع وينال من كيانه وبنائه وقيمه بالافتراء والبهتان والـكذب .

وما من أمة أخذت به إلا وأدت الفتنة فى مهدها ، وقبرت الشر فى الوقت المناسب ، وعالجت المنحرف قبل اندلاع شرره ، واستشراء خطره ، ووقت مجتمعها وأجيالها من ويلاته وعواقبه .

وما نكبت أمة إلا من سلبيتها وإهمالها وعدم مبالاتها واستهانتها بالرذائل التى لا تلبث حتى تتفشى وتتمدد وتتفرع لتشيع فى المجتمع فتجرعه السم الزعاف ثم توردة موارد القلق والفزع وانعدام الطمأنينة وفقدان الثقة ، ثم الضعف والتخلف والتقهقر والضياع .

وهذا ما ألمحنا إليه فى العنصر الثانى .

ومن ثم فإن الجزاء على رذيلة الـكذب والتردى فى حمأتها وما تجره على المجتمع من ويلات ومخاطر تحل بالـكاذبين ومن يقف معهم من المجتمع موقف السلبية والتمييع .

أما الجزاء على هذه الرذيلة فى الآخرة فيبدأ من لحظة انتهاء الأجل وانتزاع الروح تبكيتاً وتوبيخا وبشارة بالخزى وإحساسا بالعذاب والألم، ثم تشهيراً وفضيحة على رؤوس الأشهاد ولعنة منهم تحل على الـكاذبين. ثم يزج بهم إلى النار وبئس القرار جزاء وفاقا على ما اقترفوه من كذب وما افتروه من بهتان وما أشاعوه فى حياة البشر وفى كل أفق من آفاقهم من زور وباطل وتضليل وخداع .

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث .

ألا ما أشد حاجة الأمم والشعوب عامة والأمة الإسلامية خاصة أن تتحلى

للمؤمنة ، وإيجابيتها هو العلاج الأمثل لكل من يحاول أن يلوث شرف المجتمع وينال من كيانه وبنائه وقيمه بالافتراء والبهتان والكذب .

وما من أمة أخذت به إلا وأدت الفتنة فى مهدها ، وقبرت الشر فى الوقت المناسب ، وعالجت المنحرف قبل اندلاع شرره ، واستشراء خطره ، ووقت مجتمعها وأجيالها من ويلاته وعواقبه .

وما نكبت أمة إلا من سلبيتها وإهمالها وعدم مبالاتها واستهانتها بالرذائل التى لا تلبث حتى تتفشى وتتمدد وتتفرع لتشيع فى المجتمع فتجرعه السم الزعاف ثم توردة موارد القلق والفزع وانعدام الطمأنينة وفقدان الثقة ، ثم الضعف والتخلف والتقهقر والضياع .

وهذا ما ألحنا إليه فى العنصر الثانى .

ومن ثم فإن الجزاء على رذيلة الكذب والتردى فى حمأتها وما تجره على المجتمع من ويلات ومخاطر تحل بالكاذبين ومن يقف معهم من المجتمع موقف السلبية والتميع .

أما الجزاء على هذه الرذيلة فى الآخرة فيبدأ من لحظة انتهاء الأجل وانتزاع الروح تبكيتاً وتوبيخا وبشارة بالخزى وإحساسا بالعذاب والألم، ثم تشهيراً وفضيحة على رؤوس الأشهاد ولعنة منهم تحل على الكاذبين. ثم يزج بهم إلى النار وبئس القرار جزاء وفاقا على ما اقترفوه من كذب وما افتروه من بهتان وما أشاعوه فى حياة البشر وفى كل أفق من آفاقهم من زور وباطل وتضليل وخداع .

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث .

ألا ما أشد حاجة الأمم والشعوب عامة والأمة الإسلامية خاصة أن تتحلى

بالصدق وأن تتجافى الكذب وتتحاشاه وتربأ بأنفسها عنه وتقف موقف العارف بشروره المدرك لخطره فى تقويض الأمم وإهدار النفوس وضعف العزائم.

إن المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية يسره وقد وفى للقارىء الكريم بوعده معه بإصداره هذه النشرة (ب) فى موضوع : (الكذب وأثره فى تقويض صرح الأمة) ليرجو من الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن ينفع به وأن يثيب عليه وأن يهيئنا للخير ويهيىء الخير لنا وأن يضبط قلوبنا وجوارحنا وألسنتنا على دينه إنه سميع مجيب .

والله الموفق والحمد لله رب العالمين ؟

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

العنصر الأول

أثر الكذب فى القضاء على المجتمع

الأدلة من الكتاب :

ليس هناك من شيء أقبح فى حياة الأمم من شيوع الرذائل عامة والكذب خاصة . وليس هناك ما هو أضر على حاضرها ومستقبلها وتماسك بنائها من أن يغدو الكذب آفتها الفاشية التى تتشعب بخطرها فى كل زاوية من زواياها فتمحق خيرها وتحبط فضائلها وتعزلها عن أنعم الله ورضوانه وتنزل عليها بأسه وسريع نقمته فإذا بيوتهم خاوية بما كسبوا وديارهم أطلالا بما كانوا يكذبون.

١ — قال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما يكسبون » .
(سورة الأعراف آية رقم ٩٦)

يقول القرطبي فى تفسيره :

قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى » يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها من قريت الماء إذا جمعته « آمنوا » أى صدقوا ، « واتقوا » أى الشرك ، « لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » يعنى المطر والنبات .

وهذا فى أقوام على الخصوص جرى ذكرهم . إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه : «استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدرارا » وعن هود : « ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً » فوعدهم المطر والخصب على التخصيص.

يدل عليه قوله : « ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » أى كذبوا الرسل . والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا .

(الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصارى القرطبي جـ ٧ ص ٢٥٣)

العنصر الأول

أثر الكذب في القضاء على المجتمع

الأدلة من الكتاب :

ليس هناك من شيء أقبح في حياة الأمم من شيوع الرذائل عامة والكذب خاصة . وليس هناك ما هو أضر على حاضرها ومستقبلها وتماسك بنائها من أن يغدو الكذب آفتها الفاشية التي تتشعب بخطرها في كل زاوية من زواياها فتمحق خيرها وتحبط فضائلها وتعزلها عن أنعم الله ورضوانه وتنزل عليها بأسه وسريع نقمته فإذا بيوتهم خاوية بما كسبوا وديارهم أطلالا بما كانوا يكذبون.

١ — قال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما يكسبون » .

(سورة الأعراف آية رقم ٩٦)

يقول القرطبي في تفسيره :

قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى » يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها من قريت الماء إذا جمعته « آمنوا » أي صدقوا ، « واتقوا » أي الشرك ، « لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » يعني المطر والنبات .

وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم . إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه : «استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدرارا » وعن هود : « ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً » فوعدهم المطر والخصب على التخصيص. يدل عليه قوله : « ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » أي كذبوا الرسل . والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا .

(الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ٧ ص ٢٥٣)

وقال الفخر الرازى فى تفسيره :

« ولو أن أهل القرى آمنوا » أى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، « واتقوا » ما نهى الله عنه وحرمه « لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » بركات السماء بالمطر وبركات الأرض بالنبات والثمار وكثرة المواشى والأنعام وحصول الأمن والسلامة ، وذلك لأن السماء تجرى مجرى الأب والأرض تجرى مجرى الأم . ومنهما يحصل جميع المنافع والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره .

وقوله : « ولكن كذبوا » يعنى الرسل ، « فأخذناهم » بالجدوبة والقحط ، « بما كانوا يكسبون » من الكفر والمعصية .

(التفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ١٤ ص ١٨٥)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » أى ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تفسد نظم المجتمع البشرى . وذلك الأخذ بالشدة أثر لازم لكسبهم المعاصى بحسب السنن التى وضعها المولى فى الكون ويكون فيه العبرة لأمثالهم إن كانوا يعقلون هذه النواميس العامة التى لا تبديل فيها ولا تغيير .

(تفسير المراغى جـ ٩ ص ١٥)

٢ ـ وقال تعالى : « كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » . (سورة الشمس : الآيات ١١ ـ ١٥)

يقول القرطبي في تفسيره :

قوله تعالى: « كذبت ثمود بطغواها » أي بطغيانها وهو خروجها عن الحد في العصيان « إذ انبعث » أي نهض « أشقاها » لعقر الناقة . واسمه قدار بن سالف .

« فقال لهم رسول الله » يعني صالحا « ناقة الله » أي احذروا ناقة الله .
أي عقرها وقيل : ذروا ناقة الله . كما قال : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » ، « وسقياها » أي ذروها وشربها فإنهم لما اقترحوا الناقة وأخرجها لهم من الصخرة جعل لهم شرب يوم من بئرهم ولها شرب يوم مكان ذلك . فشق ذلك عليهم .

« فكذبوه » أي كذبوا صالحا عليه السلام في قوله لهم « إنكم تعذبون إن عقرتموها » ، « فعقروها » أي عقرها الأشقى وأضيف إلى الكل لأنهم رضوا بفعله .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم .

« فدمدم عليهم ربهم بذنبهم » أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعقر .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : دمدم عليهم : دمر عليهم ربهم بذنبهم ، أي بجرمهم .

وقال الفراء : دمدم أي أرجف ، وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب وترديده ، والدمدمة : إهلاك باستئصال . قاله المؤرج . وقيل أهلكهم فجعلهم تحت التراب .
« فسواها » أي سوى عليهم الأرض .

وعلى الأول « فسواها » أي فسوى الدمدمة والإهلاك عليهم ، وذلك أن الصيحة أهلكتهم فأتت على صغيرهم وكبيرهم .

يقول القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى: « كذبت ثمود بطغواها » أى بطغيانها وهو خروجها عن الحد فى العصيان « إذ انبعث » أى نهض « أشقاها » لعقر الناقة . واسمه قدار بن سالف .

« فقال لهم رسول الله » يعنى صالحا « ناقة الله » أى احذروا ناقة الله . أى عقرها وقيل : ذروا ناقة الله . كما قال : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » ، « وسقياها » أى ذروها وشربها فإنهم لما اقترحوا الناقة وأخرجها لهم من الصخرة جعل لهم شرب يوم من بئرهم ولها شرب يوم مكان ذلك . فشق ذلك عليهم .

« فكذبوه » أى كذبوا صالحا عليه السلام فى قوله لهم « إنكم تعذبون إن عقرتموها » ، « فعقروها » أى عقرها الأشقى وأضيف إلى الكل لأنهم رضوا بفعله .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم .

« فدمدم عليهم ربهم بذنبهم » أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذى هو الكفر والتكذيب والعقر .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : دمدم عليهم : دمر عليهم ربهم بذنبهم ، أى بجرمهم .

وقال الفراء : دمدم أى أرجف ، وحقيقة الدمدمة : تضعيف العذاب وترديده ، والدمدمة : إهلاك باستئصال . قاله المؤرج . وقيل أهلكهم فجعلهم تحت التراب .

« فسواها » أى سوى عليهم الأرض .

وعلى الأول « فسواها » أى فسوى الدمدمة والإهلاك عليهم ، وذلك أن الصيحة أهلكتهم فأتت على صغيرهم وكبيرهم .

وقال ابن الأنباري: دمدم أي غضب. والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل.

وقيل: « فسواها » أي فسوى الأمة في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وضيعهم وشريفهم، ذكرهم وأنثاهم.

« ولا يخاف عقباها » أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد. قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد.

(الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي ج ٢٠ ص ٧٨، ٧٩ بتصرف)

ويقول المراغي في تفسيره:

« كذبت ثمود بطغواها » أي كذبت ثمود نبيها صالحا بسبب طغيانها وبغيها، ثم بين أمارة ذلك التكذيب فقال:

« إذ انبعث أشقاها » أي كان انطلاق الأشقى لعقر الناقة والقوم راضون عنه علامة ظاهرة على تكذيبهم لنبيهم الذي جعلها دليل نبوته، وبرهانا على صدق رسالته، وأوعدهم إذا هم تعرضوا لها، وسكوت قومه على ما يفعل دليل رضاهم عن فعله، فكانوا مكذبين مثله.

ثم ذكر ما توعدهم به الرسول على فعلهم فقال:

« فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسقياها » أي فقال لهم صالح: احذروا ناقة الله التي جعلها آية نبوتي، واحذروا شربها الذي اختصت به في يومها، فلا تؤذوها ولا تتعدوا عليها في شربها ولا في يوم شربها.

وكان صالح عليه السلام قد اتفق معهم على أن للناقة شرب يوم ولهم ولمواشيهم شرب يوم. فكانوا يجدون في أنفسهم حرجا لذلك ويتضررون منه فهموا بقتلها فحذرهم أن يفعلوا ذلك وخوفهم عذاب الله وعقابه الذي ينزله بهم إن هم أقدموا على هذا الفعل، لكنهم كذبوه ولم يستمعوا لنصحه كما أشار إلى ذلك بقوله:

« فكذبوه فعقروها » أى إنهم لم يتورعوا عن تكذيبه ولم يحجموا عن عقر الناقة ولم يبالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب .

و إنهم لما رضوا بهذا الفعل نسب إليهم جميعا وكأنهم صنعوه معه .

ثم بين عاقبة عملهم وذكر ما يستحقونه من الجزاء فقال :

« فدمدم عليهم ربهم بذنبهم » أى فأطبق عليهم العذاب وأهلكهم هلاك استئصال ولم يبق منهم ديارا ولا نافخ نار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

« فسواها » أى فسوى القبيلة فى العقوبة ولم يفلت منها أحد . بل أخذ بها كبيرهم وصغيرهم . ذكرهم وأنثاهم :« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » .

وقد يكون المعنى : جعل الأرض فوقهم مستوية كأن لم تغن ودمر مساكنها على ساكنيها .

« ولا يخاف عقباها » أى إن الله أهلكهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم لأنه لم يظلمهم فيخيفه الحق ، وليس هو بالضعيف حتى يناله منهم مكروه . تعالى عن ذلك علواً كبيرا .

والمراد أنه بالغ فى عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية ، فإن من يخاف العاقبة لا يبالغ فى الفعل أما الذى لا يخاف العاقبة ولا تبعة العمل فإنه يبالغ فيه ليصل إلى ما يريد .

وقد علمت أن القصص مسوق لتسلية رسوله بأنه سينزل بالمكذبين به مثل ما أنزل بثمود . ولقد صدق الله وعده ، فأهلك من أهلك من أهل مكة فى وقعة بدر بأيدى المؤمنين ، ثم لم يزل يحل بهم الخزى والعذاب بالقتل تارة وبالإبعاد أخرى حتى لم يبق فى جزيرة العرب مكذب ، ولو سارت الدعوة إلى الإسلام سيرتها فى عهد الصحابة لما بقى فى الأرض مكذب ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(تفسير المراغى ج ٣٠ ص ١٧٠ ـ ١٧٢)

« فكذبوه فعقروها » أى إنهم لم يتورعوا عن تكذيبه ولم يحجموا عن عقر الناقة ولم يبالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب .

و إنهم لما رضوا بهذا الفعل نسب إليهم جميعا وكأنهم صنعوه معه .

ثم بين عاقبة عملهم وذكر ما يستحقونه من الجزاء فقال :

« فدمدم عليهم ربهم بذنبهم » أى فأطبق عليهم العذاب وأهلكهم هلاك استئصال ولم يبق منهم ديارا ولا نافخ نار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

« فسواها » أى فسوى القبيلة فى العقوبة ولم يفلت منها أحد . بل أخذ بها كبيرهم وصغيرهم . ذكرهم وأنثاهم : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » .

وقد يكون المعنى : جعل الأرض فوقهم مستوية كأن لم تغن ودمر مساكنها على ساكنيها .

« ولا يخاف عقباها » أى إن الله أهلكهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم لأنه لم يظلمهم فيخيفه الحق ، وليس هو بالضعيف حتى يناله منهم مكروه . تعالى عن ذلك علواً كبيرا .

والمراد أنه بالغ فى عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية ، فإن من يخاف العاقبة لا يبالغ فى الفعل أما الذى لا يخاف العاقبة ولا تبعة العمل فإنه يبالغ فيه ليصل إلى ما يريد .

وقد علمت أن القصص مسوق لتسلية رسوله بأنه سينزل بالمكذبين به مثل ما أنزل بثمود . ولقد صدق الله وعده ، فأهلك من أهلك من أهل مكة فى وقعة بدر بأيدى المؤمنين ، ثم لم يزل يحل بهم الخزى والعذاب بالقتل تارة وبالإبعاد أخرى حتى لم يبق فى جزيرة العرب مكذب ، ولو سارت الدعوة إلى الإسلام سيرتها فى عهد الصحابة لما بقى فى الأرض مكذب ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(تفسير المراغى ج ٣٠ ص ١٧٠ — ١٧٢)

٣ — وقال تعالى : « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » .

(سورة الأعراف آيتى ٩٢ ، ٩٣)

يقول المراغى فى تفسيره :

« الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » جاءت هذه الجملة بيانا من الله لما انتهى إليه أمرهم وكيف كانت عاقبة عملهم .

أى الذين كذبوا شعيبا وأنذروه بالإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فحرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها بحال .

وكانوا هم الخاسرين لما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة دون الذين اتبعوه فإنهم كانوا هم الفائزين المفلحين .

وفى الآية إيماء إلى أن الحريص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق تكون عاقبته الحرمان الأبدى منه . كما أن الحريص على الربح بأكل أموال الناس بالباطل ينتهى بالحرمان منه ومن غيره .

« فتولى عنهم وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم » أى فأدبر شعيب عنهم وخرج من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله وقال حزناً عليهم : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى وأديت إليكم مابعثنى به إليكم .

« فكيف آسى على قوم كافرين » أى فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم بعد أن أعذرت إليهم وبذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم فاختاروا مافيه هلاكهم : وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار. (تفسير المراغى جـ٩ صـ١٠ بتصرف)

ويقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره :

قال تعالى : « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها » وفيه بحثان :

البحث الأول : فى قوله : « كأن لم يغنوا فيها » قولان :

أحدهما : يقال : غنى القوم فى دارهم إذا طال مقامهم فيها . ويقال : هى المنازل التى كان بها أهلوها واحدها مغنى . قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة   فى ظل ملك ثابت الأوتاد

أراد : أقاموا فيها .

وعلى هذا الوجه كان قوله : « كأن لم يغنوا فيها» كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها. ثانيهما : قال الزجاج :« كأن لم يغنوا فيها» كأن لم يعيشوا فيها مستغنين يقال : غنى الرجل يغنى إذا استغنى . وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر .

وإذا عرفت هذا فنقول على التفسيرين : شبه الله حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط فى تلك الديار . قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بل نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالى والجدود العواثر

« فكيف آسى على قوم كافرين » أى فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم بعد أن أعذرت إليهم وبذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم فاختاروا مافيه هلاكهم : وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار. (تفسير المراغى جـ٩ صـ١٠ بتصرف)

ويقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره :

قال تعالى : « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها » وفيه بحثان :

البحث الأول : فى قوله : « كأن لم يغنوا فيها » قولان :

أحدها : يقال : غنى القوم فى دارهم إذا طال مقامهم فيها . ويقال : هى المنازل التى كان بها أهلوها واحدها مغنى . قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة   فى ظل ملك ثابت الأوتاد

أراد : أقاموا فيها .

وعلى هذا الوجه كان قوله : « كأن لم يغنوا فيها» كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها. ثانيهما : قال الزجاج : « كأن لم يغنوا فيها» كأن لم يعيشوا فيها مستغنين يقال : غنى الرجل يغنى إذا استغنى. وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر .

وإذا عرفت هذا فنقول على التفسيرين : شبه الله حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط فى تلك الديار . قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بل نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالى والجدود العواثر

البحث الثانى : قوله تعالى : « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها » الذين : يدل على أن ذلك العذاب كان مختصا بأولئك المكذبين وذلك يدل على أشياء .

أحدها : أن ذلك العذاب إنما حدث بتخليق فاعل مختار وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة . وإلا لحصل فى أتباع شعيب كما حصل فى حق الكفار.

والثانى : يدل على أن ذلك الفاعل المختار عالم بجميع الجزئيات حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصى .

وثالثها : يدل على المعجز العظيم فى حق شعيب . لأن العذاب النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين فى بلدة واحدة كان ذلك من أعظم المعجزات .

ثم قال تعالى : « الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » وإنما كرر قوله : « الذين كذبوا شعيبا » لتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم . والعرب تكرر مثل هذا فى التفخيم والتعظيم . فيقول الرجل لغيره : أخوك الذى ظلمنا أخوك الذى أخذ أموالنا أخوك الذى هتك أعراضنا، وأيضا . أن القوم لما قالوا : « لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون » بين تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون .

ثم قال تعالى : « فتولى عنهم » قال الكلبي : خرج من بين أظهرهم ، ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم .

ثم قال : « فكيف آسى على قوم كافرين » الأسى شدة الحزن . وفى الآية قولان :

القول الأول : أنه اشتد حزنه على قومه ؛ لأنهم كانوا كثيرين ، وكان يتوقع منهم الاستجابة للإيمان . فلما نزل بهم ذلك الهلاك العظيم ، حصل فى قلبه من جهة الوصلة والقرابة والمجاورة وطول الألفة ثم عزى نفسه وقال : « فكيف آسى على قوم كافرين » لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر .

القول الثانى : أن المراد لقد أعذرت إليكم فى الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم ، فلم تسمعوا قولى ولم تقبلوا نصيحتى « فكيف آسى عليكم » يعنى أنهم ليسوا مستحقين بأن يأس الإنسان عليهم .

(التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ج١٤ ص ١٨١ ـ ١٨٣ بتصرف)

٤ ـ وقال تعالى : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » (سورة آل عمران . الآيتين ١١و١٢)

يقول المراغى فى تفسيره :

ضرب الله مثلا لهؤلاء الكافرين الذين استغنوا بما أوتوا فى الدنيا عن الحق فعارضوه وناصبوا أهله العداء حتى ظفروا بهم . مثل آل فرعون ومن قبله ممن كذبوا الرسل ، فقد أهلكهم الله ونصر موسى على آل فرعون ، ونصر الرسل ومن آمن معهم على أممهم لصلاحهم وإصلاحهم ؛ فالله لا يحابى ولا يظلم وهو شديد العقاب .

ثم قال : « فكيف آسى على قوم كافرين » الأسى شدة الحزن . وفى الآية قولان :

القول الأول : أنه اشتد حزنه على قومه ؛ لأنهم كانوا كثيرين ، وكان يتوقع منهم الاستجابة للإيمان . فلما نزل بهم ذلك الهلاك العظيم ، حصل فى قلبه من جهة الوصلة والقرابة والمجاورة وطول الألفة ثم عزى نفسه وقال : « فكيف آسى على قوم كافرين » لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر .

القول الثانى : أن المراد لقد أعذرت إليكم فى الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم ، فلم تسمعوا قولى ولم تقبلوا نصيحتى « فكيف آسى عليكم » يعنى أنهم ليسوا مستحقين بأن يأسى الإنسان عليهم .

(التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى جـ١٤ ص ١٨١ ـ ١٨٣ بتصرف)

٤ ـ وقال تعالى : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » (سورة آل عمران . الآيتين ١١ و١٢)

يقول المراغى فى تفسيره :

ضرب الله مثلا لهؤلاء الكافرين الذين استغنوا بما أوتوا فى الدنيا عن الحق فعارضوه وناصبوا أهله العداء حتى ظفروا بهم . مثل آل فرعون ومن قبله ممن كذبوا الرسل ، فقد أهلكهم الله ونصر موسى على آل فرعون ، ونصر الرسل ومن آمن معهم على أممهم لصلاحهم وإصلاحهم ؛ فالله لا يحابى ولا يظلم وهو شديد العقاب .

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » أى إن صنيع هؤلاء فى تكذيبهم بمحمد ﷺ ، وكفرهم بشريعته كدأب آل فرعون مع موسى عليه السلام . ودأب من قبلهم من الأمم ، كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ، فأهلكهم ونصر الرسل ومن آمن معهم ، ولم يجدوا من بأس الله محيصا ولا مهربا . إذ عقابه أثر طبيعى لاجتراح الذنوب وارتكاب للموبقات .

ثم تهددهم وتوعدهم بالعقاب فى الدنيا قبل الآخرة فقال :

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » المراد بالكافرين اليهود . لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلب رسول الله ﷺ للمشركين يوم بدر قالوا : والله إنه النبى الأمى الذى بشرنا به موسى وفى التوراة نعته وهموا باتباعه : فقال بعضهم لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شكوا . وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الاشرف فى ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت .

أى قل لأولئك اليهود إنكم ستغلبون فى الدنيا وسينفذ فيكم وعيدى وتساقون فى الآخرة إلى جهنم سوقا وبئس المهاد ما مهدتموه لأنفسكم .

وقد صدق الله وعده فقتل المسلمون بنى قريظة الخائنين ، وأجلوا بنى النضير المنافقين ، وفتحوا خيبر وضربوا الجزية على من عداهم .

(تفسير المراغى ج ٣ ص ١٠٤ و ١٠٥ بتصرف)

ويقول صاحب المنار فى تفسيره :

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم » بأن أهلكهم ونصر موسى على آل فرعون ومن قبله من الرسل على أممهم المكذبين . ذلك بأنهم كانوا بكفرهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فما أخذوا إلا بذنوبهم ، ومانصر الله الرسل ومن آمن معهم إلا بصلاحهم وإصلاحهم .

« والله شديد العقاب » على مستحقه إذ مضت سنته بأن يكون العقاب أثرا عنه فليعتبر المخذلون إن كانوا يعقلون .

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد أى قل يامحمد لهؤلاء المغرورين بحولهم وقوتهم المعتزين بأموالهم وأولادهم إنكم ستغلبون فى الدنيا وتعذبون فى الآخرة .

وقيل : إن الخطاب لليهود وقد غلبهم المسلمون فقتلوا بنى قريظة الخائنين وأجلوا بنى النضير والمنافقين وفتحوا خيبر .

وقيل : هو للمشركين وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر ، وأتم الله بغلبهم يوم الفتح ، ولم تغن عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم ، وسينفذ وعيده بهم فى الآخرة فيحشرون إلى جهنم ، وبئس المهاد ما مهدوا لأنفسهم ، أو بئس المهاد جهنم . وهى جملة محكية بالقول ، أى ويقال لهم بئس المهاد .

(تفسير المنار تأليف السيد محمد رشيد رضا ج ٣ ص ٢٣٢ـ٢٣٤ بتصرف)

٦ ـ وقال تعالى : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » (سورة الأنعام الآية رقم ١٤٧)

ويقول صاحب المنار فى تفسيره :

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم » بأن أهلكهم ونصر موسى على آل فرعون ومن قبله من الرسل على أممهم المكذبين . ذلك بأنهم كانوا بكفرهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فما أخذوا إلا بذنوبهم ، ومانصر الله الرسل ومن آمن معهم إلا بصلاحهم وإصلاحهم .

« والله شديد العقاب » على مستحقه إذ مضت سنته بأن يكون العقاب أثرا عنه فليعتبر المخذلون إن كانوا يعقلون .

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد أى قل يامحمد لهؤلاء المغرورين بحولهم وقوتهم المعتزين بأموالهم وأولادهم إنكم ستغلبون فى الدنيا وتعذبون فى الآخرة .

وقيل : إن الخطاب لليهود وقد غلبهم المسلمون فقتلوا بنى قريظة الخائنين وأجلوا بنى النضير والمنافقين وفتحوا خيبر .

وقيل : هو للمشركين وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر ، وأتم الله بغلبهم يوم الفتح ، ولم تغن عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم ، وسينفذ وعيده بهم فى الآخرة فيحشرون إلى جهنم ، وبئس المهاد ما مهدوا لأنفسهم ، أو بئس المهاد جهنم . وهى جملة محكية بالقول ، أى ويقال لهم بئس المهاد .

(تفسير المنار تأليف السيد محمد رشيد رضا ج ٣ ص ٣٣٢ــ٣٣٤ بتصرف)

٦ ــ وقال تعالى : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » (سورة الأنعام الآية رقم ١٤٧)

يقول المراغى فى تفسيره :

هذا الخطاب . إما لليهود وهو المروى عن مجاهد والسدى، وإما لمشركى مكة

فعلى الأول يكون المعنى ـ فإن كذبك اليهود وثقل عليهم أن يكون بعض شرعهم عقابا لهم على ما كان من بغيهم على الناس وظلمهم لهم ولأنفسهم. واحتجوا على إنكار كونه عقوبة يكون الشرع رحمة من الله ، فأجبهم بما يدحض هذه الشبهة بأن رحمة الله واسعة حقا ، ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه ويمنع عقابه عن القوم المجرمين . فإصابة الناس بالمحن والشدائد عقابا لهم على جرائم ارتكبوها وقد تكون رحمة بهم ، وقد تكون عبرة وعظة لغيرهم لينتهوا عن مثلها . وهذا العقاب من سنن الله المطردة فى الأمم وإن لم يطرد فى الأفراد .

وعلى الثانى يكون المعنى : فإن كذبك المشركون فيما فصلناه من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم : ربكم ذو رحمة واسعة ولا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا به فإنه إمهال لكم لا إهمال لمجازاتكم .

وفى هذا تهديد لهم ووعيد إذا هم أصروا على كفرهم وافترائهم على الله بتحريم ما حرموا على أنفسهم كما أن فيه إطماعا لهم فى رحمته الواسعة إذا رجعوا عن إجرامهم وآمنوا بما جاء به الرسول . فيسعدون فى الدنيا بحل الطيبات ، وفى الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنات .

(تفسير المراغى جـ ٨ ص ٦٠)

الأدلة من السنة :

إن جرثومة الكذب من أخبث ما يفتك بالإنسان وأمته ومن أبشع ما يحصد البركة ويمحق الخير ويسرع بالفناء والزوال . وما حل الكذب على قوم إلا بدل حياتهم شراً بعد خير، وسوءاً بعد حسن، وقحطا بعد رخاء، ونقمة بعد نعمة . فإذا هم بين لحظة وأخرى عبرة ومثل يحكى للاجيال أن الكذب مرتعه وخيم .

١ — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . فقال . فأى المال أحب إليك ؟ قال الإبل — أو قال البقر — شك الراوى ، فأعطى ناقة عشراء فقال بارك الله لك فيها ، فأتى الأقرع فقال أى شىء أحب اليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس. فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال البقر فأعطى بقرة حاملا . قال : بارك الله لك فيها ، فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب اليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر الناس . فمسحه فرد الله اليه بصره . قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال الغنم فأعطى شاة والدا .

فأنتج هذان وولد هذا . فكان لهذا واد من الابل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته [1] فقال له: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بى الحبال فى سفرى : فلا بلاغ [2] لى اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك

(١) من رداءة ورذالة ملبس . (٢) لا وصول لى لما أريده .

الأدلة من السنة :

إن جرثومة الكذب من أخبث ما يفتك بالإنسان وأمته ومن أبشم ما يحصد البركة ويمحق الخير ويسرع بالفناء والزوال . وما حل الكذب على قوم إلا بدل حياتهم شراً بعد خير، وسوءاً بعد حسن، وقحطا بعد رخاء، ونقمة بعد نعمة . فإذا هم بين لحظة وأخرى عبرة ومثل يحكى للاجيال أن الكذب مرتعه وخيم .

١ — عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . فقال . فأى المال أحب إليك ؟ قال الإبل ـ أو قال البقر ـ شك الراوى ، فأعطى ناقة عشراء فقال بارك الله لك فيها ، فأتى الأقرع فقال أى شىء أحب اليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس. فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال البقر فأعطى بقرة حاملا . قال : بارك الله لك فيها ، فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب اليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر الناس . فمسحه فرد الله اليه بصره . قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال الغنم فأعطى شاة والدا .

فأنتج هذان وولد هذا . فكان لهذا واد من الابل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته [١] فقال له : رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بى الحبال فى سفرى : فلا بلاغ [٢] لى اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك

(١) من رداءة ورذالة ملبس .   (٢) لا وصول لى لما أريده .

بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به فى سفرى . فقال، الحقوق كثيرة . فقال له : كأنى أعرفك . ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر [١] . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد هذا . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته [٢] . فقال له : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذى رد عليك بصرك وأعطاك المال شاة أتبلغ بها فى سفرى ؟ فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت . فوالله لا أجهدك [٣] اليوم بشىء أخذته لله عز وجل . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك » متفق عليه . وفى رواية البخارى « لا أحمدك » بالحاء المهملة والميم . ومعناه : لا أحمدك بترك شىء تحتاج إليه ، كما قالوا : ليس على طول الحياة ندم . أى على فوات طولها . (رياض الصالحين ص ٤٩-٥١)

٢ — وعن أبى خالد حكيم بن حزام — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا . فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما [٤] وكذبا محقت بركة بيعهما » متفق عليه .

(المصدر السابق ص ٤٦)

---

(١) كبيرا عن كبير فى العز والشرف .

(٢) آدمى أعمى .

(٣) لا أشق عليك فى رد شىء تأخذه أو تطلبه من مالى .

(٤) أخفيا ما فى السلعة من عيوب

الآثار :

إن شرف الإنسان وفضائله وما يسهم به فى سعادة الأمة وتقدمها هو رصيده من الحق والخير . وليس هناك من شيء هو أسرع بالفساد إلى هذا الرصيد من رذيلة الكذب التى تقصف بقيم الأمة وفضائلها وأقدار بنيها وكثيرا ما يكون لسان الانسان أداة فوزه وتمام نجاته إن هو ملكه وضبطه وصانه من اللغو والافتراء والكذب وكثيرا ما يكون هذا اللسان سبيلا إلى قبره وحتفه إن هو أهمله وترك له زمامه فى الكذب والتضليل والخداع .

١ — قال أكثم بن صيفى التميمى فى وصيته لبنيه : كفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه . (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب جـ ١ ص ٣١٠) .

٢ — وقيل فى منثور الحكم : الكذاب لص ؛ لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك .

وقال بعض البلغاء : الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه ، لأنه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة .

وقال الجاحظ : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه .

(أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردى جـ ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٧ بتصرف) .

٣ — وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته الجامعة بعد أن بويع بالخلافة : « الصدق أمانة والكذب خيانة » (زعماء الإسلام : د. حسن ابراهيم ص ١٥) .

٤ — وعن عمر بن الخطاب قال : « ما النار فى يبس العرفج بأسرع من الكذب فى فساد مروءة أحدكم . فاتقوا الكذب واتركوه فى جد وهزل » .

الدينورى (كنز العمال جـ ٣ ص ٥٠٣)

الآثار :

إن شرف الإنسان وفضائله وما يسهم به فى سعادة الأمة وتقدمها هو رصيده من الحق والخير . وليس هناك من شىء هو أسرع بالفساد إلى هذا الرصيد من رذيلة الكذب التى تقصف بقيم الأمة وفضائلها وأقدار بنيها وكثيرا ما يكون لسان الانسان أداة فوزه وتامل نجاته إن هو ملكه وضبطه وصانه من اللغو والافتراء والكذب وكثيرا ما يكون هذا اللسان سبيلا إلى قبره وحتفه إن هو أهمله وترك له زمامه فى الكذب والتضليل والخداع .

١ — قال أكثم بن صيفى التميمى فى وصيته لبنيه : كفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه .(بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ج١ ص ٣١٠).

٢ — وقيل فى منثور الحكم : الكذاب لص ؛ لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك .

وقال بعض البلغاء : الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه ، لأنه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة .

وقال الجاحظ : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه .

(أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردى ج ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٧ بتصرف).

٣ — وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته الجامعة بعد أن بويع بالخلافة: «الصدق أمانة والكذب خيانة» (زعماء الإسلام: د-حسن ابراهيم ص١٥).

٤ — وعن عمر بن الخطاب قال : « ما النار فى يبس العرفج بأسرع من الكذب فى فساد مروءة أحدكم . فاتقوا الكذب واتركوه فى جد وهزل » .

الدينورى (كنز العمال ج٣ ص٥٠٣)

العنصر الثانى

موقفنا من الكذابين

الأدلة من الكتاب :

إن الإسلام وهو يقود الناس إلى الحق والخير ويبغضهم فى الشر والباطل يخط لهم إلى ذلك طريقا عمليا . وفى مجال الكذب والترهيب منه يدعونا إلى أن يكون موقفنا من الكذابين موقفا إيجابيا ، وذلك بالإعراض عنهم وعدم الميل لهم أو مجاراتهم أو الاستماع إليهم ، وضرورة التثبت من أقوالهم إلى غير ذلك مما يكون باعثا على عزل الكذب وأصحابه وحصارهم والتضييق عليهم ودفعهم إلى الشعور بفداحة جرمهم وضرورة الإقلاع عنه والنزوع منه .

١ـ قال الله تعالى : « فلا تطع للمكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين » (سورة القلم . الآيات ٨ ـ ١٠)

يقول المراغى فى تفسيره :

« فلا تطع للمكذبين » أى دم على ما أنت عليه من عدم طاعة للمكذبين عامة وتشدد فى ذلك . وفى هذا إيماء إلى النهى عن مداراتهم ومداهنتهم استجلابا لقلوبهم وجذبا لهم إلى اتباعه .

«ودوا لو تدهن فيدهنون» أى ود المشركون لو تلين لهم فى دينك بالركون إلى آلهتهم فيدينون لك فى عبادة الملك .

روى أن رؤساء مكة دعوه إلى دين آبائه فنهاه عن طاعتهم .

وخلاصة ذلك ـ ودوا لو تترك بعض ما أنت عليه مما يرضونه مصانعة لهم فيفعلون مثل ذلك ويتركون بعض مالا ترضى . فتلين لهم ويلينون لك . وترك بعض الدين كله كفر بواح .

والمراد من هذا النهى . التهييج والتشدد فى المخالفة والتصميم على معاداتهم ونحو الآية قوله : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأ ذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا »

ثم خص من هؤلاء المكذبين أصنافا هانت عليهم نفوسهم فأفسدوا فطرتها تشهيرا بهم فقال :

(١) « ولا تطع كل حلاف أى ولاتطع المكثار من الحلف بالحق وبالباطل. والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على الله ضعفه ومهانته أمام الحق . وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله .

والكذب أس كل شر ، ومصدر كل معصية ،وكفى مزجرة لمن اعتاد الحلف. أن جعله المولى فاتحة المثالب وأس المعايب .

(٢) « مهين » أى محتقر الرأى والتفكير .

(تفسير المراغى جـ ٢٩ ص ٣٠ ، ٣١)

ويقول ابن كثير فى تفسيره :

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم « فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » قال ابن عباس : لو ترخص لهم فيرخصون . وقال مجاهد : « ودوا لو تدهن » تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق.

ثم قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على أسماء الله تعالى واستعمالها

والمراد من هذا النهى . التهييج والتشدد فى المخالفة والتصميم على معاداتهم ونحو الآية قوله : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأ ذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا »

ثم خص من هؤلاء المكذبين أصنافا هانت عليهم نفوسهم فأفسدوا فطرتها تشهيرا بهم فقال :

(١) « ولا تطع كل حلاف أى ولا تطع المكثار من الحلف بالحق وبالباطل. والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على الله ضعفه ومهانته أمام الحق . وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله .

والكذب أس كل شر ، ومصدر كل معصية ، وكفى مزجرة لمن اعتاد الحلف. أن جعله المولى فاتحة المثالب وأس المعايب .

(٢) « مهين » أى محتقر الرأى والتفكير .

(تفسير المراغى جـ ٢٩ ص ٣٠ ، ٣١)

ويقول ابن كثير فى تفسيره :

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم « فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » قال ابن عباس : لو ترخص لهم فيرخصون . وقال مجاهد : « ودوا لو تدهن » تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق.

ثم قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على أسماء الله تعالى واستعمالها

فى كل وقت فى غير محلها . قال ابن عباس : المهين : الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب ، قال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف .

(تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٣)

٢ ـ وقال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »

(سورة الحجرات . آية رقم ٩)

يقول الآلوسى فى تفسيره :

أخرج أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن أبى ضرار الخزاعى قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعانى إلى الإسلام . فدخلت فيه وأقررت به : ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت يارسول الله أرجع إلى قومى ، فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته وترسل إلىّ يارسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه . احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، . فدعا[1] سروات قومه ، فقال لهم : رسول الله ﷺ كان وقت لى وقتا يرسل إلىّ رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة ، وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة . فانطلقوا بنا نأتى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط وهو أخو عثمان ـ رضى الله عنه ـ لأمه إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما أن سار الوليد إلى أن

---

(١) أشراف قومه

بلغ بعض الطريق فرق . فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبله الحارث وقد فصل عن المدينة قالوا : هـذا الحارث،فلما غشيهم ، قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال : لا والذى بعث محمدا بالحق مارأيته بتة ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال منعت الزكاة وأردت قتل رسولى .قال : لا والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا رآنى ولا أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خشية أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله ﷺ فنزل : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ إلى قوله سبحانه «حكيم».

والخطاب فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » شامل للنبى ﷺ وللمؤمنين من أمته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم .

والفاسق : الخارج عن حجر الشرع من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره .قال الراغب والفسق أعم من الكفر ويقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما اذا كانت كثيرة . والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشىء من أحكام الشرع أو المروءة .

والتبيين : طلب البيان والتعرف وقريب منه التثبت كما فى قراءة ابن مسعود وحمزة والكسائى : فتثبتوا . وهو طلب الثبات والتأنى حتى يتضح الحال .

وقوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا » تنبيه على أنه إذا كان الخبر شيئا عظيما أو له قدر خفقه أن يتوقف فيه ، وإن علم أو غلب صحته على الظن حتى.

بلغ بعض الطريق فرق . فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبله الحارث وقد فصل عن المدينة قالوا : هذا الحارث، فلما غشيهم ، قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال : لا والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته بتة ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال منعت الزكاة وأردت قتل رسولى . قال : لا والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا رآنى ولا أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خشية أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله ﷺ فنزل : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ إلى قوله سبحانه « حكيم ».

والخطاب فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » شامل للنبى ﷺ وللمؤمنين من أمته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم .

والفاسق : الخارج عن حجر الشرع من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره . قال الراغب والفسق أعم من الكفر ويقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما اذا كانت كثيرة . والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشىء من أحكام الشرع أو المروءة .

والتبيين : طلب البيان والتعرف وقريب منه التثبت كما فى قراءة ابن مسعود وحمزة والكسائى : فتثبتوا . وهو طلب الثبات والتأنى حتى يتضح الحال .

وقوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا » تنبيه على أنه إذا كان الخبر شيئا عظيما أو له قدر خقه أن يتوقف فيه ، وإن علم أو غلب صحته على الظن حتى.

يعاد النظر فيه ويتبين فضل تبين . ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد ان يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة . قيل : إن جاءكم بحرف الشك .

وفي النداء بيا أيها الذين آمنوا دلالة على أن الإيمان إذا اقتضى التثبت في نبإ الفاسق فأولى أن يقتضي عدم الفسق . وفي إخراج الفاسق عن الخطاب مايدل على تشديد الأمر عليه من باب لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، والمؤمن لا يكذب .

« أن تصيبوا » تعليل للأمر بالتبين . أي فتبينوا كراهة أن تصيبوا أو لئلا تصيبوا « قوما » أي قوم كانوا « بجهالة » ملتبسين بجهالة لحالهم و آله جاهلين حالهم « فتصبحوا » فتصيروا بعد ظهور براءتهم عما رموا به « على ما فعلتم » في حقهم « نادمين » مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع ؛ فإن الندم : الغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه .

(روح المعاني للآلوسي جـ ٨ ص ١٨٠ ـ ١٨٢ بتصرف)

وقال عبد الكريم الخطيب :

« الآية عامة مطلقة . تحذر المسلمين من الأنباء الكاذبة التي يرجف بها المرجفون ، ليشيعوا في المسلمين قالة السوء وليوغروا بها صدورهم على أهل الايمان والسلامة فيهم ، وأن هذا من شأنه لو وقع موقع القبول والتسليم من المؤمنين من غير تبصر أو تمحيص لأفسد عليهم أمرهم وانتزع الثقة والطمأنينة من بينهم .

فما أكثر ما كان يلقى به المنافقون واليهود في محيط المسلمين من أكاذيب وأراجيف وشائعات . الأمر الذي يقضي على المسلمين بأن يمحصوا هذه الأخبار والا يأخذوها مأخذ القبول والتسليم دون نظر فاحص لها .

وفى قوله تعالى : « فاسق » إشارة إلى أن المقولة إنما ينظر فيها إلى صاحبها الذى وردت منه ، فإن كان من أهل الإيمان والثقة استمع لقوله وأخذ به ، وإن كان ممن يتهم استمع اليه ووضع قوله موضع التمحيص . فلا يحكم على قوله بالرد ابتداء ، فقد يكون فى قوله صدق ، أو شىء من الصدق ينتفع به المسلمون .

وقوله تعالى . « أن تصيبوا قوما بجهالة » هو بيان : للعلة التى من أجلها كان الأمر بالتبين والتثبت لما يجىء للمسلمين من أنباء يحملها قوم لم يعرفوا فى المسلمين بالصدق ووثاقة الإيمان .

وقوله تعالى : « بجهالة » إلفات للمسلمين إلى ألا يقيموا أمرا من أمورهم على جهل وعلى عدم رؤية واضحة لهذا الامر ، فذلك من شأنه إن أصاب مرة أن يخطىء مرات كثيرة .

وقوله تعالى : « فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » أى أن الأخذ بالنبأ الوارد من فاسق قبل التثبت منه يعود على المسلمين بالحسرة والندم ، لأنهم وضعوا الامر فى غير موضعه ، ورتبوا على هذا القول الكاذب أمورا لا يمكن إصلاحها بعد أن وقع عليها ما وقع .

(التفسير القرآنى للقرآن تأليف عبد الكريم الخطيب جـ ٢٦ ص ٤٤٠ و ٤٤١)

وقال القاسمى فى تفسيره :

جاء فى (الإكليل) فى الآية رد خبر الفاسق ، واشتراط العدالة فى المخبر راويا كان أو شاهدا أو مفتيا . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الامر وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال .

وفى قوله تعالى : « فاسق » إشارة إلى أن المقولة إنما ينظر فيها إلى صاحبها الذى وردت منه ، فإن كان من أهل الإيمان والثقة استمع لقوله وأخذ به ، وإن كان ممن يتهم استمع اليه ووضع قوله موضع التمحيص . فلا يحكم على قوله بالرد ابتداء ، فقد يكون فى قوله صدق ، أو شىء من الصدق ينتفع به المسلمون .

وقوله تعالى . « أن تصيبوا قوما بجهالة » هو بيان : للعلة التى من أجلها كان الأمر بالتبين والتثبت لما يجىء للمسلمين من أنباء يحملها قوم لم يعرفوا فى المسلمين بالصدق ووثاقة الإيمان .

وقوله تعالى : « بجهالة » إلفات للمسلمين إلى ألا يقيموا أمرا من أمورهم على جهل وعلى عدم رؤية واضحة لهذا الامر ، فذلك من شأنه إن أصاب مرة أن يخطىء مرات كثيرة .

وقوله تعالى : « فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » أى أن الأخذ بالنبأ الوارد من فاسق قبل التثبت منه يعود على المسلمين بالحسرة والندم ، لأنهم وضعوا الامر فى غير موضعه ، ورتبوا على هذا القول الكاذب أمورا لا يمكن إصلاحها بعد أن وقع عليها ما وقع .

(التفسير القرآنى للقرآن تأليف عبد الكريم الخطيب جـ ٢٦ ص ٤٤٠ و ٤٤١)

وقال القاسمى فى تفسيره :

جاء فى (الإكليل) فى الآية رد خبر الفاسق ، واشتراط العدالة فى المخبر راويا كان أو شاهدا أو مفتيا . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الامر وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال .

وفى قوله تعالى : « فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » فائدتان .

إحداهما : تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه أنه تعالى لما قال : « أن تصيبوا قوما بجهالة » قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ولا يجوز للعاقل أن يقول هب أنى أصبت قوما . فماذا على ، بل عليكم الهم الدائم والحزن المقيم ومثل هذا الشىء واجب الاحتراز منه .

والثانية : مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لايلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها . أفاده الرازى .

(محاسن التأويل للقاسمى ج ١٥ ص ٥٤٤٩)

٣ — وقال الله تعالى : « والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما »
(سورة الفرقان : آية رقم ٧٢)

يقول الامام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :

المسألة الاولى : فى الآية ـ الزور . يحتمل إقامة الشهادة الباطلة . ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى : « فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » ويحتمل حضور كل موضع يجرى فيه ما لا ينبغى ، ويدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق ، لأن من خالط أهل الشر ونظر إلى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم فى تلك المعصية ، لأن الحضور والنظر دليل الرضا به ، بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لأن الذى حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما . المراد مجالس الزور التى يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله . وقال محمد بن الحنفية : الزور : الغناء واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ، ولكن استعماله فى الكذب أكثر .

وفى قوله تعالى : « فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » فائدتان .

إحداها : تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه أنه تعالى لما قال : « أن تصيبوا قوما بجهالة » قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ولا يجوز للعاقل أن يقول هب أنى أصبت قوما . فماذا على ، بل عليكم الهم الدائم والحزن المقيم ومثل هذا الشىء واجب الاحتراز منه .

والثانية : مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها . أفاده الرازى .

(محاسن التأويل للقاسمى ج ١٥ ص ٥٤٤٩)

٣ — وقال الله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما »
(سورة الفرقان : آية رقم ٧٢)

يقول الامام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :

المسألة الاولى : — فى الآية — الزور . يحتمل إقامة الشهادة الباطلة . ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى : « فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » ويحتمل حضور كل موضع يجرى فيه ما لا ينبغى ، ويدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق ، لأن من خالط أهل الشر ونظر إلى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم فى تلك المعصية ، لأن الحضور والنظر دليل الرضا به ، بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لأن الذى حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما . المراد مجالس الزور التى يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله . وقال محمد بن الحنفية : الزور : الغناء واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ، ولكن استعماله فى الكذب أكثر .

المسألة الثانية : الأصح أن اللغو : هو كل ما يجب أن يلغى ويترك . ومنهم من فسروا اللغو بكل ما ليس بطاعة وهو ضعيف لأن المباحات لا تدلغوا فقوله « وإذا مروا باللغو » أى بأهل اللغو .

المسألة الثالثة : لا شبهة فى أن قوله « مروا كراما » معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو وإكرامهم لها لا يكون إلا بالاعراض والانكار وبترك المعاونة والمساعدة . ويدخل فيه الشرك واللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما لا ينبغى وأصل الكلمة من قولهم : ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند الحلب تكرما . كأنها لا تبالى بما يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب. وقال الليث : يقال تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه . ونظير هذه الآية قوله « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » وعن الحسن لم تسفههم المعاصى. وقيل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا. وقيل: إذا ذكر النكاح كنوا عنه.

(التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ج ٢٤ ص ١١٣ و ١١٤)

وقال القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : «والذين لا يشهدون الزور » أى لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه . والزور كل باطل زور وزخرف وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد. وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس . وقال عكرمة : لعب كان فى الجاهلية يسمى بالزور . وقال ابن جريج : الكذب ، وقال ابن العربى : أما القول بأنه الكذب فصحيح ، لأن كل ذلك يرجع إلى الكذب .

وقوله تعالى : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » اللغو هو كل سقط من قول أو فعل فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه ويدخل فيه سفه المشركين

وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر . وقال مجاهد : إذا أوذوا صفحوا؛ وروى عنه إذا ذكر النكاح كنوا عنه . وقال الحسن : المعاصى كلها وهذا جامع « وكراما » معناه معرضين منكرين لا يرضونه ولا يمالئون عليه ولا يجالسون أهله . أى مروا مر الكرام الذين لا يدخلون فى الباطل؛ يقال: تكرم فلان عما يشينه : أى تنزه وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لقد أصبح ابن أم عبد كريما » وقيل :من المرور باللغو كريما .أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١٣ ص٧٩ـ٨١ بتصرف)

وقال القاسمى فى تفسيره :

« والذين لا يشهدون الزور » أى لا يحضرون الباطل . وقال الزمخشرى : يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين، فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه، لأن مشاهدة الباطل شركة فيه. ولذلك قيل فى النظارة إلى كل مالم تسوغه الشريعة (هم شركاء فاعليه فى الإثم) لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة ، لأن الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر إليه ، ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور . انتهى : وهى الكذب متعمدا على غيره .
« وإذا مروا باللغو مروا كراما » أى اتفق مرورهم بأهل اللغو وهو كل ماينبغى أن يلغى ويطرح. مروا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن الخوض، ومعهم. ويدخل فى ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به ، وذلك لأن « كراما » جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه . (محاسن التأويل للقاسمى جـ١٢ ص٥٩٨، بتصرف)

٤ — وقال تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون »
(سورة المؤمنون آية رقم ٣)

يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :
وفى اللغو أقوال :

أحدها : أنه يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو كان مباحا ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة .

وثانيها : أنه عبارة عن كل ما كان حراما فقط وهذا التفسير أخص من الاول .

وثالثها : أنه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة وهذا أخص من الثانى .

ورابعها : أنه المباح الذى لا حاجة إليه ، واحتج هذا القائل بقوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » فكيف يحمل ذلك على المعاصى التى لا بد فيها من المؤاخذة .

واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمى لغوا بما أنه يلغى ، وكل ما يقتضى الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو ، فوجب أن يكون كل لغو حراما .

ثم اللغو قد يكون كفرا لقوله تعالى «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» وقد يكون كذبا لقوله : « لا تسمع فيها لاغية » وقوله : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما » .

٤ — وقال تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون »
(سورة المؤمنون آية رقم ٣)

يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :
وفى اللغو أقوال :

أحدها : أنه يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو كان مباحا ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة .

وثانيها : أنه عبارة عن كل ما كان حراما فقط وهذا التفسير أخص من الاول .

وثالثها : أنه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة وهذا أخص من الثانى .

ورابعها : أنه المباح الذى لا حاجة إليه ، واحتج هذا القائل بقوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » فكيف يحمل ذلك على المعاصى التى لا بد فيها من المؤاخذة .

واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمى لغوا بما أنه يلغى ، وكل ما يقتضى الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو ، فوجب أن يكون كل لغو حراما .

ثم اللغو قد يكون كفرا لقوله تعالى «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » وقد يكون كذبا لقوله : « لا تسمع فيها لاغية » وقوله : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما » .

ثم إنه سبحانه مدحهم بأنهم يعرضون عن هـذا اللغو والإعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه وعلى هـذا الوجه قال تعالى: « وإذا مروا باللغو مروا كراما » .

(التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٧٩)

وقال المراغى فى تفسيره :

« والذين هم عن اللغو معرضون» أى والذين يعرضون عن كل ما لا يعنيهم وعن كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والهزل والسب إذ لهؤلاء من الجد ما يشغلهم فهم فى صلاتهم معرضون عن كل شىء إلا عن خالقهم وفى خارجها معرضون عن كل ما لا فائدة فيه فهم متجهون للجد وصالح العمل ثم قد استفادوا من خشوع الصلاة دوما انتفعوا منه بعدها وتخلقوا بأخلاق النبيين والصديقين.

(تفسير المراغى جـ ١٨ص٥)

الأدلة من السنة :

المؤمن حقا هو الكيس الفطن العاقل الذى يبلور الأمور ويعمق جوهرها ولا يخبط فيها خبط عشواء . فما كان منها حقا وصدقا تبعه ولاذ به . وما كان منها باطلا اجتنبه وعف عنه، وما عمى عنه منها وكل أمره إلى الله وحده ولم يقطع فيه برأى .

١ — عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبى ﷺ أن عيسى عليه السلام قال: إنما الأمور ثلاثة . أمر تبين لك رشده فاتبعه . وأمر تبين لك غيه

فاجتنبه . وأمر اختلف فيه فرده إلى عالم » رواه الطبرانى بإسناد لا بأس به .

(الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٣٣)

الآثار :

الكذب أسلوب خبيث من أخبث الأساليب التى تشوش على أهل الحق . ويكاد إن لم يوضع له حد ويقف منه المجتمع موقفا حازما لعزله واجتثاثه يكاد أن يشوه صورتهم . الأمر الذى يفزع للمفترى عليهم وحينئذ تصيب الكاذبين دعوتهم التى لا يردها الله تعالى .

١ — قال جابر بن سمرة « شكا أهل الكوفة سعدا إلى عمر فعزله واستعمل عليهم عمارا . فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلى . فأرسل إليه فقال : يا أبا إسحاق . إن هؤلاء يزعمون أنك تصلى لا تحسن تصلى ؟ قال أبو إسحاق : أما أنا والله فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها[1] : أصلى صلاة العشاء فأركد فى الأوليين[2] . وأخف فى الأخريين قال : ذاك الظن بك يا أبا اسحاق . فأرسل معه رجلا أو رجالا إلى الكوفة . فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجدا إلا سأل عنه . ويثنون معروفا حتى دخل مسجدا لبنى عبس . فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة فقال : أما إذ ناشدتنا الله فإن سعدا كان لا يسير بالسرية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية . قال سعد : أما والله لأدعون بثلاث : اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا قام رياء وسمعة فأطل عمره وأطل فقره وعرضه للفتن . وكان بعد يقول : شيخ مفتون

---

(١) ما أخرم : أى ما أنقص .

(٢) فأركد فى الأوليين : أى أطول فيهما القراءة .

أصابتني دعوة سعد . قال عبدالملك : فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجوارى فى الطريق يغمزهن » رواه البخارى .

(فقه السنة لفضيلة الشيخ سيد سابق ج ١ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩)

٢ — وروى أن مروان أرسل إلى سعيد بن زيد ناسا يكلمونه فى شأن أروى بنت أويس . وكانت شكته إلى مروان فى أرض . فقال سعيد : ترونى ظلمتها لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ظلم من الأرض شيئا طوقه من سبع أرضين » فترك سعيد لها ما ادعت . وقال اللهم إن كانت كاذبة فلا تمتها حتى تعمى بصرها وتجعل قبرها فى بئر . قالوا : فوالله ما ماتت حتى ذهب بصرها وجعلت تمشى فى دارها فوقعت فى بئرها » .

(شرح صحيح البخارى الكرمانى ج ١١ ص ٢٣ ، ٢٤)

العنصر الثالث

جزاء الكاذبين

الأدلة من الكتاب :

أهل الكذب ومقترفوا الفرى هم أهل الفضيحة والهوان ، السواد يعلو وجوههم واللعنة تحل عليهم جزاء ما كذبوا على الله ورسوله ، وافتروا على خلقه .

إن هذا العذاب يبدأ معهم من لحظة الموت ويظل معهم حتى يقذف بهم يوم القيامة فى النار وبئس المصير .

١ ـ قال الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »
(سورة هود آية رقم ١٨)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا فأضافوا كلامه إلى غيره وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

« أولئك يعرضون على ربهم » أى يحاسبهم على أعمالهم .

« ويقول الأشهاد » يعنى الملائكة الحفظة عن مجاهد وغيره . وقال سفيان : سألت الأعمش عن الأشهاد فقال : الملائكة . وقال الضحاك : هم الأنبياء والمرسلون بدليل قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على

العنصر الثالث

جزاء الكاذبين

الأدلة من الكتاب :

أهل الكذب ومقترفوا الفرى هم أهل الفضيحة والهوان ، السواد يعلو وجوههم واللعنة تحل عليهم جزاء ما كذبوا على الله ورسوله ، وافتروا على خلقه .

إن هذا العذاب يبدأ معهم من لحظة الموت ويظل معهم حتى يقذف بهم يوم القيامة فى النار وبئس المصير .

١ ـ قال الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »
(سورة هود آية رقم ١٨)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا فأضافوا كلامه إلى غيره وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

« أولئك يعرضون على ربهم » أى يحاسبهم على أعمالهم .

« ويقول الأشهاد » يعنى الملائكة الحفظة عن مجاهد وغيره . وقال سفيان : سألت الأعمش عن الأشهاد فقال : الملائكة . وقال الضحاك : هم الأنبياء والمرسلون بدليل قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على

هؤلاء شهيدا » وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « . . وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله » « ألا لعنة الله على الظالمين » أى بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها »

(تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ١٨ بتصرف)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » أى لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن افترى على الله كذبا فى أقواله وأفعاله أو أحكامه أو صفاته أو فى اتخاذ الشفعاء والأولياء له بدون إذنه . أو فى زعم أنه اتخذ له ولدا من الملائكة، كالعرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله . أو فى تكذيب ما جاء به رسله من دينه لصد الناس عن سلوك سبيله .

« أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » أى ويوم القيامة تعرض أعمال هؤلاء وأقوالهم على ربهم لمحاسبتهم، ويقول الذين يقومون بالشهادة عليهم من الملائكة والأنبياء وصالحى المؤمنين : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم بالافتراء عليه ويفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة الدالة على خروجهم من محيط الرحمة .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » وفى حديث إبن عمر فى الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله .

ﷺ يقول « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد . «هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين » . (تفسير المراغى ج١٢ ص ٢٠ ، ٢١)

٢ ـ وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون »
(سورة الانعام آية رقم ٩٣)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قال تعالى . « ومن أظلم » أى لا أحد أظلم « ممن افترى » أى اختلق « على الله كذبا أو قال أوحى إلى » فزعم أنه نبى « ولم يوح إليه شيء » ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن. فيقول : وقع فى خاطرى كذا أو أخبرنى قلبى بكذا . فيحكمون بما يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات . ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء العامة . وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك

ﷺ يقول « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد . «هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين » . (تفسير المراغى ج١٢ ص ٢٠ ، ٢١)

٢ ـ وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون »

(سورة الانعام آية رقم ٩٣)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قال تعالى . « ومن أظلم » أى لا أحد أظلم « ممن افترى » أى اختلق « على الله كذبا أو قال أوحى إلى » فزعم أنه نبى « ولم يوح إليه شيء » ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن . فيقول : وقع فى خاطرى كذا أو أخبرنى قلبى بكذا . فيحكمون بما يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات . ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء العامة . وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك

ﷺ يقول « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد . «هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين » .   (تفسير المراغى جـ١٢ ص ٢٠ ، ٢١)

٢ ـ وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون »
(سورة الانعام آية رقم ٩٣)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قال تعالى . « ومن أظلم » أى لا أحد أظلم « ممن افترى » أى اختلق « على الله كذبا أو قال أوحى إلى » فزعم أنه نبى « ولم يوح إليه شيء » ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن . فيقول : وقع فى خاطرى كذا أو أخبرنى قلبى بكذا . فيحكمون بما يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات . ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء العامة . وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك

ﷺ يقول « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد . «هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين » . (تفسير المراغى ج١٢ ص ٢٠ ، ٢١)

٢ ـ وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون »

(سورة الانعام آية رقم ٩٣)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قال تعالى . « ومن أظلم » أى لا أحد أظلم « ممن افترى » أى اختلق « على الله كذبا أو قال أوحى إلى » فزعم أنه نبى « ولم يوح إليه شيء » ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن . فيقول : وقع فى خاطرى كذا أو أخبرنى قلبى بكذا . فيحكمون بما يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات . ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء العامة . وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك

وإن أفتاك المفتون . ويستدلون على هذا بالخضر وإنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم . وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ .

قوله تعالى : « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » أى : ومن أظلم ممن قال سأنزل . والمراد عبد الله بن أبى سرح الذى كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بالمشركين . قال محمد بن إسحاق : قال حدثنى شرحبيل قال : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » ارتد عن الإسلام . فلما دخل رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله وقتل عبد الله بن خطل ومقيس بن صُبابة ولو وجدوا تحت أستار الكعبة . ففر عبد الله ابن أبى سرح إلى عثمان رضى الله عنه وكان أخاه من الرضاعة أرضعت أمه عثمان فغيبه عثمان حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد ما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له، فصمت رسول الله ﷺ طويلا ثم قال : « نعم » . فلما انصرف عثمان قال رسول الله ﷺ « ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلىّ يارسول الله فقال : « إن النبي لاينبغى أن تكون له خائنة الأعين » قال أبو عمر : وأسلم عبد الله بن سعد بن أبى سرح أيام الفتح فحسن إسلامه ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت » أي شدائده وسكراته ، والغمرة : الشدة وغمرات الموت : شدائده .

«والملائكة باسطوا» قيل بالعذاب ومطارق الحديد عن الحسن والضحاك. وقيل : لقبض أرواحهم . وفى التنزيل : «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم» فجمعت هذه الآية القولين. يقال: بسط إليه يده بالمكروه

«أخرجوا أنفسكم» أى خلصوها من العذاب إن أمكنكم . وهو توبيخ . وقيل : أخرجوها كرها . لأن روح المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه وروح الكافر تنتزع انتزاعا شديدا . ويقال : أيتها النفس الخبيثة: أخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهوانه . كذا جاء فى حـــــديث أبى هريرة وغيره . وقيل:هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه:لأذيقنك العذاب ولأخرجن نفسك .وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها ملك الموت وأعوانه .

والجواب محذوف لعظم الأمر . أى ولو رأيت الظالمين فى هذه الحال لرأيت عذابا عظيما .

«وتستكبرون» أى تتعظمون وتأنفون عن قبول آياته .

(الجامع لأحكام القرآن . للقرطبى ج٧ ص ٣٩ ـ ٤٢ بتصرف)

وقال القاسمى فى تفسيره :

«ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا» أى اختلق إفكا فجعل له شركاء أو ولدا أو أحكاما فى الحل والحرمة كعمرو بن لحى وأشباهه ممن جعل قوله قول الله «أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء» ممن ادعى النبوة كذبا . وهذا يزيد على الافتراء فى دعوى النبوة .

قال البقاعى : هذا تهديد على سبيل الإجمال . كعادة القرآن الجليل يدخل فيه كل من اتصف بشىء من ذلك ، كمسيلمة والأسود العنسى وغيرهما . ثم قال:

«والملائكة باسطوا» قيل بالعذاب ومطارق الحديد عن الحسن والضحاك. وقيل: لقبض أرواحهم. وفى التنزيل: «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم» فجمعت هذه الآية القولين. يقال: بسط إليه يده بالمكروه

«أخرجوا أنفسكم» أى خلصوها من العذاب إن أمكنكم. وهو توبيخ. وقيل: أخرجوها كرها. لأن روح المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه وروح الكافر تنتزع انتزاعا شديدا. ويقال: أيتها النفس الخبيثة أخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهوانه. كذا جاء فى حـــديث أبى هريرة وغيره. وقيل: هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه: لأذيقنك العذاب ولأخرجن نفسك. وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها ملك الموت وأعوانه.

والجواب محذوف لعظم الأمر. أى ولو رأيت الظالمين فى هذه الحال لرأيت عذابا عظيما.

«وتستكبرون» أى تتعظمون وتأنفون عن قبول آياته.

(الجامع لأحكام القرآن . للقرطبى جـ٧ ص ٣٩ ـ ٤٢ بتصرف)

وقال القاسمى فى تفسيره:

«ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا» أى اختلق إفكا فجعل له شركاء أو ولدا أو أحكاما فى الحل والحرمة كعمرو بن لحى وأشباهه ممن جعل قوله قول الله «أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء» ممن ادعى النبوة كذبا. وهذا يزيد على الافتراء فى دعوى النبوة.

قال البقاعى: هذا تهديد على سبيل الإجمال. كعادة القرآن الجليل يدخل فيه كل من اتصف بشىء من ذلك، كمسيلمة والأسود العنسى وغيرهما. ثم قال:

رأيت فى كتاب (غاية المقصود فى الرد على النصارى واليهود) لابن يحيي المغربى الذى كان من علمائهم فى حدود سنة ٥٦٠ ثم هداه الله للإسلام فبين فضائحهم: إن الربانيين منهم زعموا أن الله يوحى إلى جميعهم فى كل يوم مرات. ثم قال: إن الربانيين أكثرهم عددا يزعمون أن الله يخاطبهم فى كل مسألة بالصواب. وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم فى الأمم. انتهى.

« ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » أى: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى مما يفتريه من القول، كالنضر بن الحارث. وهذا كقوله تعالى: « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » الآية.

ـ قال المهايمى: أى ومن أنكر إعجاز القرآن حتى قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، مع أنه عرف إعجازه فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله. فكأنه ادعى الإلهية لنفسه. ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة. فيعلم ما للظالمين فيها المبين بقوله تعالى: « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت » أى شدائده وسكراته وكرباته، « والملائكة باسطوا أيديهم » أى بالضرب والعذاب، كقوله تعالى: « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ».

« أخرجوا أنفسكم » أى: قائلين لهم: أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم. تغليظا وتوبيخا وتعنيفا عليهم. وقد جنح بعضهم إلى أن ما ذكر من مجاز التمثيل. أى: فشبه فعل الملائكة فى قبض أرواحهم، بفعل الغريم الذى يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف فى استيفاء حقه من غير إمهال. وفى (الكشف) أنه كناية عن ذلك. ولا بسط ولا قول حقيقة، قال الناصر فى

(الأنتصاف) : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الامور حقيقةعلى الصور المحكية. وإذا أمكن البقاء على الحقيقة فـلا معدل عنها انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم . فتتفرق روحه فى جسده وتعصى وتأبى الخروج . فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : اخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية « ولو ترى إذ يتوفى » المتقدمة . فإنها صريحة ومراعاة النظائر القرآنية أعظم ما يفيد فى باب التأويل .

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية حال الكافر عند القبض وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعواناً من الملائكة . أخرجه بن أبى حاتم .

« اليوم » أى : وقت الإماتة ، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى مالا نهاية له. تجزون عذاب الهون » أى الهوان الشديد ، « بما كنتم تقولون على الله غير الحق » كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة .وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به. ـ قال المهايمى ـ « وكنتم عن آياته تستكبرون » حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ما أنزل الله .

(محاسن التأويل للقاسمى ج ٦ ص ٢٤١٥ ـ ٢٤١٧)

٣ — وقال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى المتكبرين » (سورة الزمر آية رقم ٦٠)

(الأنتصاف) : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الامور حقيقة على الصور المحكية . وإذا أمكن البقاء على الحقيقة فلا معدل عنها انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم . فتتفرق روحه فى جسده وتعصى وتأبى الخروج . فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : اخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية « ولو ترى إذ يتوفى » المتقدمة . فإنها صريحة ومراعاة النظائر القرآنية أعظم ما يفيد فى باب التأويل .

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية حال الكافر عند القبض وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعواناً من الملائكة . أخرجه بن أبى حاتم .

« اليوم » أى : وقت الإماتة ، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى مالا نهاية له . تجزون عذاب الهون » أى الهوان الشديد ، « بما كنتم تقولون على الله غير الحق » كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة . وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به . — قال المهايمى — « وكنتم عن آياته تستكبرون » حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ما أنزل الله .

(محاسن التأويل للقاسمى ج ٦ ص ٢٤١٥ — ٢٤١٧)

٣ — وقال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى المتكبرين » (سورة الزمر آية رقم ٦٠)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

« يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه . تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة قال الله تعـــالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله » أى فى دعواهم له شريكا وولدا « وجوههم مسودة » أى بكذبهم وافترائهم .

وقوله تعالى : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟ » أى أليست جهنم كافية لهم سجنا وموئلا . لهم فيها الخزى والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق . قال ابن أبى حاتم .. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس يعلوهم كل طينة الخبال »

(تفسير القرآن العظيم الإمام الحافظ ابن كثير جـ ٤ ص ٦٠ و ٦١)

ويقول المراغى فى تفسيره :

« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » أى وترى أيها الرسول يوم القيامة وجوه الذين كذبوا على الله ـ فزعموا أن له ولدا وأن له شريكا يعبدوا آلهة من دونه ـ مجللة بالسواد لما أحاط بها من الكآبة والحزن الذى علاها ، والغم الذى لحقها .

ثم علل هذا وأكده بقوله : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » أى أليست النار كافية لهم سجنا وموئلا . ولهم فيها الخزى والهوان بسبب تكبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

وقد بين الرسول ﷺ معنى الكبر فقال : « هو سفه الحق وغمص (احتقار) الناس » . وفى حديث عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ : « يحشر

المتكبرون يوم القيامة كالذر .يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم ».
(تفسير المراغى ج ٢٤ ص ٢٦)

٤ — وقال تعالى : « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » .
(سورة النحل آية رقم ٦٢)

يقول القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : « ويجعلون لله ما يكرهون » أى من البنات . « وتصف ألسنتهم الكذب » أى وتقول ألسنتهم الكذب « أن لهم الحسنى » قال مجاهد: هو قولهم : أن لهم البنين ولله البنات . وقيل « الحسنى » : الجزاء الحسن قاله الزجاج . « لا » رد لقولهم وتم الكلام أى ليس كما تزعمون .

« جرم أن لهم النار » أى : حقا أن لهم النار « وأنهم مفرطون » متركون منسيون فى النار . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضا : مبعدون ، وقال قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . وقرأ أبو جعفر القارئ « مفرطون » بكسر الراء وتشديدها : أى مضيعون أمر الله فهو من التفريط فى الواجب . (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٠ ص ١٢٠ و ١٢١ بتصرف)

وقال القاسمى فى تفسيره :

« ويجعلون لله » أى ينسبون إليه « ما يكرهون » أى من البنات ومن الشركاء وهم يأنفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى مالهم ، وهو تكرير لما سبق ، تثنية للتقريع و توطئة لقوله تعالى :

« وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى » أى يجعلون لله ذلك مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله : « ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى » يعنى جمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى المحال . بأن يجازوا على ذلك حسنا .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة لما جددت مكتوبا « تعملون السيئات وتجزون الحسنات . أجل كما يجتنى من الشوك العنب »

« وأن لهم » إلخ . بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى « وتصف ألسنتهم الكذب » من بليغ الكلام وبديعه . كقولهم : « عينها تصف السحر » أى ساحرة .

ثم رد كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه : « لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » أى معجلون إليها ومقدمون . أو متركون منسيون فى النار كقوله تعالى : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ».

(محاسن التأويل للقاسمى ج ١٠ ص ٣٨٢١ ـ ٣٨٢٢ بتصرف)

الأدلة من السنة :

الكذب يذهب ببهاء وجوه أصحابه ووقار نفوسهم وهيبتهم ، ويحرم الإنسان من رحمة الله ونعيمه ورضوانه ليتبوأ مقعده من عذاب الله وأليم عقابه وعدل جزائه . وذلك جزاء وفاقا على ما أشاعه الكاذب فى حياة الناس من بهتان وزور وما أقترفه فى حقهم من كذب وتضليل .

١ — عن أبى بريدة الأسلمى ـ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إن الكذب يسود الوجه[١] . والنميمة[٢] عذاب القبر » . رواه أبو يعلى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه .

(الترغيب والترهيب ج٣ ص ٥٩٦)

٢ — وعن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبى ﷺ : « رأيت الليلة رجلين أتيانى قالا لى : الذى رأيته يشق شدقه[٣] فكذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق[٤] . فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة » . رواه البخارى هكذا مختصرا فى الأدب من صحيحه .

(المصدر السابق ج٣ ص ٥٩٢)

٣ — وعن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « من[٥] تحلم كاذبا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين . ولن يعقد بينهما » رواه الترمذى وابن ماجه ورمز له السيوطى بالصحة .

(الجامع الصغير ج٢ ص ٢٨٨)

---

(١) يجعله أسود مثل ظلام الليل الحالك يوم القيامة .

(٢) النميمة : هى السعى بالإفساد بين الناس .

(٣) يقطع . والشق نصف الشيء وانفراج فيه . وانشق : انفرج فيه فرجة .

(٤) تعم السموات والأرضين . والمعنى أن الله ينتقم من الكاذب بتقطيع شدقيه وتمزيق أعضاء الكلام فيه تعذيبا من جراء نطق الكذب .

(٥) تكلف الحلم : الرؤيا .

١ — عن أبي بريدة الأسلمي ـ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إن الكذب يسود الوجه[١]. والنميمة[٢] عذاب القبر » . رواه أبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه .

(الترغيب والترهيب ج٣ ص٥٩٦)

٢ — وعن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ﷺ : « رأيت الليلة رجلين أتياني قالا لي : الذي رأيته يشق شدقه[٣] فكذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق[٤]. فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة ». رواه البخاري هكذا مختصرا في الأدب من صحيحه .

(المصدر السابق ج٣ ص ٥٩٢)

٣ — وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « من[٥] تحلم كاذبا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين . ولن يعقد بينهما » رواه الترمذي وابن ماجه ورمز له السيوطي بالصحة .

(الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٨٨)

---

(١) يجعله أسود مثل ظلام الليل الحالك يوم القيامة .

(٢) النميمة : هي السعي بالإفساد بين الناس .

(٣) يقطع . والشق نصف الشيء وانفراج فيه . وانشق : انفرج فيه فرجة .

(٤) تعم السموات والأرضين . والمعنى أن الله ينتقم من الكاذب بتقطيع شدقيه وتمزيق أعضاء الكلام فيه تعذيبا من جراء نطق الكذب .

(٥) تكلف الحلم : الرؤيا .

٤ – وفى رواية لأحمد عن على قال : قال رسـول الله ﷺ : « من كذب فى حلمه متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه السيوطى ورمز له بالحسن.
(للمصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥)

٥ – وعن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « من كذب على نبيـه أو على عينيه أو على والديه لم يرح رائحة الجنة » رواه الطبرانى فى الكـبير. وإسناده حسن . (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ج١ ص ١٤٨)

٦ – وعن بهز بن حـكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « ويل [1] للذى يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب . ويل له ويل له » رواه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى والبيهقى .
(الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٥٩٨)

٧ – وعـن عياض بن حمـار المجاشعى أن رسـول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : « ... وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لازبر له [2] الذين هم فيـكم تبعـا لا يبتغون أهـلا ولا مالا [3] والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل أو الكذب . والشنظير [4] الفحاش » رواه مسلم .
(صحيح مسلم ج ٨ ص ١٥٩)

---

(١) ويل : واد فى جهنم يعذب فيه الكذاب الماجن المتهاون فى كلامه

(٢) لا زبر له : لا عقل له

(٣) لا يبغون أهلا ولا مالا – : أى لا يسـعون فى تحصيل منفعة دينية ولا نفسية ولا دنيوية.

(٤) الشنظير : سيء الخلق الفحاش ، والشنظرة : الشتم :

٨ — وعن سلمان رضى الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ : « ثلاثة لايدخلون الجنة . الزانى والإمام الكذاب والعائل[١] المزهو[٢] » رواه البزار بإسناد جيد .

(الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٦٠٠ و ٦٠١)

الآثار :

أهل الكذب هم أهل العذاب والنقمة سيما إذا كان كذبا على الحق والله ورسوله . ينزل الله بأسه بهم فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

١ — قال الشعبى : « ما أدرى أيهما أبعد غورا فى النار أو البخيل » .

(إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٣٦)

٢ — وقال القسطلانى : « إن كل نبى من الأنبياء قبل نبينا إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق . وقد أخر الله تعالى عذاب من كذب نبينا إلى الموت أو الى القيامة » .

(المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلانى ج ٢ ص ٥٩)

---

(١) العائل : الفقير .

(٢) المزهو . المعجب بنفسه المتكبر .

٨ — وعن سلمان رضى الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ : « ثلاثة لايدخلون الجنة . الزانى والإمام الكذاب والعائل[1] المزهو[2] » رواه البزار بإسناد جيد .

(الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٦٠٠ و ٦٠١)

الآثار :

أهل الكذب هم أهل العذاب والنقمة سيما إذا كان كذبا على الحق والله ورسوله . ينزل الله بأسه بهم فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

١ — قال الشعبى : « ما أدرى أيهما أبعد غورا فى النار أو البخيل » .

(إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٣٦)

٢ — وقال القسطلانى : « إن كل نبى من الأنبياء قبل نبينا إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق . وقد أخر الله تعالى عذاب من كذب نبينا إلى الموت أو الى القيامة » .

(المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلانى ج ٢ ص ٥٩)

---

(١) العائل : الفقير .

(٢) المزهو . المعجب بنفسه المتكبر .

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٧٠ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

غرة رمضان سنة ١٣٩٦ هـ ٢٦ أغسطس سنة ١٩٧٦ م

الأيمان وموقف الاسلام منها (١)

(أ) المقــدمة :

(ب) تمهيد ـ التعريف باليمين وحكمه

العناصر

العنصر الأول : ما أقسم الله تعالى به

العنصر الثانى : النهى عن كثرة الحلف

العنصر الثالث : النهى عن اتخاذ الأيمان حائلا دون فعل الخير

العنصر الرابع · أيمان منهى عنها

(أ) المقدمة

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، ســيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد ...

فان الاسلام دين له فى كل شأن من شئون الحياة تنظيم دقيق يستهدف به صقل الانسان وبنــاء كيانه وتكوين ضميره واعداده على نمط معين ومســتوى خاص يحول دون شخصيته أن تذوب ، ودون ذاته أن تتبــدد ، وأن يكون له فى الحيــاة خط واضح ومحدد يستقيم بالاسلام ويتسق معه لا يضل ولا يحيد ولا تخرجه عنه منفعة ولا تزحزحه عنــه مضرة ، موقن بأن ما عنــد الله خير وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه . وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وثقة الانسان بذاته واعتداده بشخصه . ووضوح أسلوبه فى حياته وعدم الحيدة عنه . ودوام استمراره فى موكب الحق والخير . وحرصــه على دينه فى كل شئونه وجميع أحواله ــ كل هذا من أهم الأمور التى اهتم بها الاســلام وأولاها عنايته . ووضع لها من الأساليب ورسم لها من الوسائل . مايكفلها ويتعهدها ويرتفع بها . كما أحاطها بالكثير من توجيهاته التى ترغب المرء فيها ، وتنفره من التفريط فيهاأو اهمالها أو الخروج عليها وعدم الاكتراث بها .

والأيمان فى حياة الناس لها صلة كبيرة بشخصية الانسان ونوعية أســلوبه ، وانطباعات الناس عنه . لذا ينظر اليها الاسلام نظرة خاصة . ولكن الأيمان بالنسبة لله تعالى لها وضع خاص . فلله جل جلاله أن يقسم بذاته وربوبيته وعظمته وجلاله على ما يشاء من ايمان الناس وأرزاقهم ومسئوليتهم وجزائهم .

كما أن لهتعالى أنيقسم بما يشاء من خلقه مما له صلةبالعلموالمعرفة أو بالشمس والقمر والنجوم والكواكب وأفلاكها ومداراتها مما له صلة بحركة الكون ودورانه وتغيراته وليله ونهاره وأعوامه وسنيه ، أو بالبلاد والأماكن والخلق والنشأة مما له صلة بأطوار البشر وعصورهم . لله تعالى أن يقسم بهذاوغيره مما يشاء من خلقه على ما يشاء من أمور عباده مما يتصل بنعمة الاسلام ورسولية الرســول صلى الله عليه وسلم ، وقدسية القرآن وكونه كتابا مكنونا لا يمسه الا المطهرون ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من لدن حكيم حميد ، أو مما يتعلق بطبيعــة الخلق وتقويم فطرتهم ومسئوليتهم عن أعمالهم .

كل هذا وغيره له تعالى أن يقسم به تعظيما لشأنه وتعظيما للمقسم عليه وتوكيدا له حتى يقر فى نفوس الناس جلاله وضرورة عرفانه والقيام بحقــه على النحو الذى ندبنا الله تبارك وتعالى اليه •

وهذا ما ألمحنا اليه فى العنصر الأول •

ان الاســلام يحرص الحرص كله على حياة الناس أن تستقر وتستقيم ، وعلى ذواتهم وشــخصياتهم أن تتكامــل وتتزن ، وعلى ثقتهم بأنفســهم أن يجــدوها ولا يفتقدوها • وعلى الثقة فيما بينهم يتبادلونها وتشيع فيهم ، ثم على علاقتهم بالله جل جلاله ايمانا به ويقينا فيه واجلالا له وخشية منه ، وأن تظل هذه المعانى فى حياة البشر فى خط بيانى متصاعد لا يهبطون عنه ولا ينزلون •

والحق أن هذه غايات تمس واقع الناس ووجودهم ولا يستغنى عنها انســان يقدر ذاته ويحترم وجوده ويعرف دوره •

ولذا نرى الاسلام يشجب بشدة كل ما ينال منها أو يعوق دون الوصول اليها • وكأننا بالاسلام يقف على أبواب النفس الانسانية ومداخلها حارسا أمينا يشرف عليها من عليائه اشراف العارف بأسرارها العليم بمقاصــدها • الحفيظ عليها المحب لها • الحريص على كفكفة الشر عنها وتجنيبها كل مزالق السقوط ، وعلى انقاذها من كل براثن الضعف والهوان • لذا نجده يحيط النفس بعديد من المنهيات والمحاذير ويضع أمامها من التحفظات التى تقيها الكثير من الزلل والعثار •

منها كثرة الأيمان من غير مبرر ، وسرعة الحلف من غير ضرورة • وهنا يستلزم بطبيعة الحال وجوب ترويض النفس وسياستها وأخذها بالحلم والتبصر ، وتعويدها الأناة والتروى ، والحد من الانفعال والغضب ، والحرص على الثقــة بالنفس وعلى ثقة الناس فيها وفى سائر تصرفاتها من قول وعمل وعطاء وأخذ •

وكلها من غير شــك أمور تعين على عدم اليمين أو الحد منه على الأقل • ويجب أن تتحلى بها النفس قبل أن تقدم على اليمين حتى اذا صدرت لا تصدر الا عن تفكير فيها وعزيمة عليها دون ما تورط فى عواقبها ووقوع فى اثمها والحنث فيها •

وليس من الايمان ولا من الكمال ولا من المروءة أن يحلف المرء على كل صغيرة وكبيرة ، وأن يجعل الله عرضة ليمينه فى كل تافه وجليل • والا سـقط فى ذاته ومن عيون الناس ، وكان أشـد من ذلك سقوطه فىميزان الله تعالى حيث دلبكثرة حلفه وتكرار أيمانه على ضعف صلته بربه وقلة تعظيمه له وخشيته منه وشدة حرصه على ارضاء الناس على حساب دينه وربه •

الأمر الذى تناولناه فى العنصر الثانى •

ان الاسلام يجب أن يجد المسلم دائما فى موكب الخير وفى ركابه وطليعة الآخذين به المسارعين فيه المتنافسين عليه • لايحول دون ذلك حائل ، ولايمنع من مباشرته مانع •وأيما حجر يقف عثرة فى سبيل الخير فعلى المؤمن تنحيته أو اجتيازه وتخطيه حتى لا يثبط الهمة أو يعوق المسيرة •

ومن الناس من يتسرع فيحلف على ترك البر وعدم الخير وتحريم المباح • وهذا أمر فى غاية الخطورة على مجالات الخير ومواقع البر ومتاع النفس • سواء فى ذلك الحالف الذى يحرم نفسه من ثواب البذل والعطاء وتفريج الشـدائد ودفع الكرب والمتاع الطيب والحلال المباح • والمحلوف عليه الذى يتطلع بشـوق النفس الى من يستنقذه من أزمته أو يعاونه فى ضيقه أو يخفف عنه من حرجه •

ومن ثم نجد الاسلام يفرض على المسلم الايتمادى فىالمضى على هذا اليمين ،وأن يحنث فيه ويكفر عنه • ليتسنى له بعد ذلك أن يتابع مسيرته مع الخير عطاء وانفاقا وبذلا واصلاحا لحال المجتمع ورأبا لصدعه وسدا لثغراته ولحاجاته •

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث •

لقد تفرد الله بالعظمة والجلال والعزة • وهذه حقيقة يجب أن تستقر فى نفوس الناس وأن يعوها جيدا وألا يخرجوا عليها أو يحيدوا عنها وخاصة المؤمنون بهتبارك وتعالى فلا يبدر منهم من البوادر ما يخالفها أو ينال من جلالها واكبارها • ولما كان الحلف مظنة التعظيم للمقسـم به أو هو كذلك فعلا • وكان المفروض فى المؤمن ألا يكون فى قلبه منيستحقالعظمة التى يقسم بها الا الله تبارك وتعالى•فان الاسلام قد حرم على المسلم أن يقسم بما سواه مما يعتبر منعادات الجاهلية البالية وتقاليدها السقيمة ومآثرها التى لا صلة لها بالحق من قريب أو بعيد والتى يخشى من تداولها

على لسان المسلم والقسم بها — على دينه وعقيدته وصلته بربه كالحلف بالأمانة والكعبة والآباء والأجداد .

على أن البعض من خفيفي الايمان يتمادى به غيه ، ويشرد به هواه فيحلف بغير ملة الاسلام أو بالخروج منها أو بالتحول الى غيرها من يهودية أو نصرانية أو وثنية وهذا أخطر ما يصيب الانسان فى دينه ويقضى عليه حيث يتردد أمره بين الخروج على الاسلام أو اعتلال شأنه فى قلبه .

ومنهم من يستغل القسم فى رواج سلعته وبيع بضاعته والدعاية لتجارته . والحق أن هذا انسان واهم قليل الثقة فى نفسه وفى ربه . ولن يجنى من وراء هذا التهافت الذى اتخذ اليمين له مطية الا الخسار والمحق والبوار .

ومنهم من تدلى به أمره وهواه الى ابتداع أيمان لم يعرفها الاسلام . حيث استحدث الناس فى العصور الأخيرة يمين الطلاق واعتبروه قسما واستعملوه محل اليمين بالله تعالى بل ربما غالى بعضهم فآثروا القسم به على القسم بالله عز وجل .

ولا شك أن هذا بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

ان هذه الصور من الأيمان صور يحرمها الاسلام وينهى عنها وينفر منها . والمؤمن الحق هو الذى يضع الأمور فى نصابها ، ويعطى كل شىء حجمه اللائق به دون ما تهوين أو تهويل .

وهذا ما بيناه فى العنصر الرابع .

أجل . ان الاسلام دين يدعونا أن نعرف لله حقه الواجب وجلاله الأسمى وكماله الأسنى وأن يكون القدسية الحق وجلال الخير ومعالم البر مقامه المناسب فى حياتنا لا يحول بيننا وبينه حائل ولا يلوى أعناقنا عنه ما يلوى أعناق الجهلة وأدعياء الايمان .

ان المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية وهو بصدد الحديث عن (الأيمان وموقف الاسلام منها) ليسره أن يقدم فى هذا الموضوع هذه النشرة (أ) على أن يلحقها بنشرة أخرى تحت هذا العنوان . استكمالا للبحث .

نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا وأن يضبط على هديه جوارحنا وقلوبنا وأن يهدينا جميعا الى سواء السبيل . والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية
بوزارة الاوقاف

(ب) تمهيـد

تعريف اليمين وحكمه :

يطلق اليمين فى اللغة على اليد اليمنى ، وعلى القوة ، وعلى القسم ، فهو مشترك من هذه الثلاثة ، ثم اسـتعمل فى الحلف • لأنهم كانوا فى الجاهلية اذا تحالفوا أخذ كل واحد يد صاحبه اليمنى ، أو لأن الحالف يتقوى بقسمه كما أن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى •

ومعناه شرعا : تحقيق المحلوف عليه أو تأكيده بذكر اسم الله تعالى أو صفة من صفاته على وجه مخصوص •

حكمـه :

يختلف حكم الحلف باختلاف الأحوال : فتـارة يكون واجبا اذا توقف عليـه واجب ، كما اذا توقف عليه انقاذ انسان برىء مصون الدم من الهلاك • وقد يكون حراما كما اذا حلف على ارتكاب محرم أو حلف بما لا يباح الحلف به • وقد يكون غير ذلك • (الفقه على المذاهب الأربعة ص ٧٢)

ما تنعقد به اليمين :

تنعقد اليمين بالله أو بصفة من صفاته تعالى : وهى أقسام :

القسم الأول :

الحلف باسم الله تعالى الذى لا يشاركه فيه غيره وهو الله والرحمن ولا نزاع فى انعقاد اليمين به بكل حال اذ لا ينصرف بالنية الى غيره •

قال تعالى : « فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سـميا » أى هل تعلم أحدا تسـمى الله غيره • وقال تعـالى « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى » فجعل اسمه الرحمن قرينا لاسمه تعالى •

القسم الثانى:

الحلف باسم الله تعـالى الذى يسمى به غيره على سبيل المجاز وعنـد الاطلاق ينصرف الى الله تعالى • كالرحيم والعليم والحليم والحكيم والخالق والرازق والحق والرب فان قصد به الله تعالى انعقدت اليمين وان قصد به غيره فلا تنعقد •

القسم الثالث :

ما يستعمل فى أسماء الله تعالى مع مشاركة غيره له فيه أى فى الاسم كالموجود والحى والناطق ولا تنعقد به اليمين قصد الله أو لم يقصد . لأن اليمين انما تنعقد بحرمة الاسم ، وانما يكون ذلك فى الخاص دون المشترك .

القسم الرابع :

صفات الله تعالى :

فان كانت الصفة المحلوف بها صفة لذاته . كقوله : وعظمة الله وجلال الله وقدرة الله وعزة الله وكبرياء الله ، ومشيئة الله . انعقدت اليمين . ولو قال : وحق الله انعقدت اليمين عند الشافعى ومالك وأحمد رحمهم الله . وذهب أبو حنيفة الى أنها لا تنعقد لأن حقوق الله تعالى هى الطاعات وهى مخلوقة فلا يكون الحلف بها يمينا ولو قال « والقرآن » انعقدت اليمين عند الشافعى رحمه الله خلافا لأبى حنيفة . (صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٠٦)

وكان قسم النبى صلى الله عليه وسلم بألفاظ منها :

وايم الله . ومعنى وايم الله : والله لأفعلن كذا أووحق الله كما صرح به البغوى فى التهذيب وعلى هذا فهى يمين . وأما لفظ يمين الله فنقل عن ابن عباس أنه اسم من أسماء الله تعالى . وقيل معناه : أحلف بالله وهى يمين عند المالكية والحنفية . وعند الشافعية ان نوى اليمين انعقدت والا فلا .(التاج الجامع للأصول جـ ٣ ص ٧٥)

وجاء فى فتح البارى . تحت عنوان « كيف كانت يمين النبى صلى الله عليه وسلم » وجملة ما ذكر فى هذا الباب أربعة ألفاظ . « أحدها » . والذى نفسى بيده وكذا : نفس محمد بيده « ثانيها » لا ومقلب القلوب « ثالثها » « والله » « رابعها » « ورب الكعبة » .

ولابن ماجة من وجه آخر « كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يحلف بها أشهد عند الله . والذى نفسى بيده » . ودل على أن النهى عن الحلف بغير الله تعالى لا يراد به اختصاص لفظ الجلالة بذلك ، بل يتناول كل اسم وصفة تختص به سبحانه ، وقد جزم ابن حزم وهو ظاهر كلام المالكية والحنفية بأن جميع الأسماء

القسم الثالث :

ما يستعمل فى أسماء الله تعالى مع مشاركة غيره له فيه أى فى الاسم كالموجود والحى والناطق ولا تنعقد به اليمين قصد الله أو لم يقصد . لأن اليمين انما تنعقد بحرمة الاسم ، وانما يكون ذلك فى الخاص دون المشترك .

القسم الرابع :

صفات الله تعالى :

فان كانت الصفة المحلوف بها صفة لذاته . كقوله : وعظمة الله وجلال الله وقدرة الله وعزة الله وكبرياء الله ، ومشيئة الله . انعقدت اليمين . ولو قال : وحق الله انعقدت اليمين عند الشافعى ومالك وأحمد رحمهم الله . وذهب أبو حنيفة الى أنها لا تنعقد لأن حقوق الله تعالى هى الطاعات وهى مخلوقة فلا يكون الحلف بها يمينا ولو قال « والقرآن » انعقدت اليمين عند الشافعى رحمه الله خلافا لأبى حنيفة . (صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٠٦)

وكان قسم النبى صلى الله عليه وسلم بألفاظ منها :

وايم الله . ومعنى وايم الله : والله لأفعلن كذا أووحق الله كما صرح به البغوى فى التهذيب وعلى هذا فهى يمين . وأما لفظ يمين الله فنقل عن ابن عباس أنه اسم من أسماء الله تعالى . وقيل معناه : أحلف بالله وهى يمين عند المالكية والحنفية . وعند الشافعية ان نوى اليمين انعقدت والا فلا .(التاج الجامع للأصول جـ ٣ ص ٧٥)

وجاء فى فتح البارى . تحت عنوان « كيف كانت يمين النبى صلى الله عليه وسلم » وجملة ما ذكر فى هذا الباب أربعة ألفاظ . « أحدها » . والذى نفسى بيده وكذا : نفس محمد بيده « ثانيها » لا ومقلب القلوب « ثالثها » « والله » « رابعها » « ورب الكعبة » .

ولابن ماجة من وجه آخر « كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يحلف بها أشهد عند الله . والذى نفسى بيده » . ودل على أن النهى عن الحلف بغير الله تعالى لا يراد به اختصاص لفظ الجلالة بذلك ، بل يتناول كل اسم وصفة تختص به سبحانه ، وقد جزم ابن حزم وهو ظاهر كلام المالكية والحنفية بأن جميع الأسماء

الواردة فى القرآن والسنة الصحيحة وكذا الصفات صريح فى اليمين تنعقد به وتجب لمخالفته الكفارة • (فتح البارى ج ١٤ ص ٣٢٧ بتصرف) •

صيغة الحلف :

وصيغة الحلف قسمان : صريح وكناية •

فالصريح : يكون مع الاتيان بلفظ الحلف كقوله « أحلف » بالله لأفعلن كذا • وأقسم بالله لأفعلن كذا ومع الاتيان بحرف من حروف القسم وهى • الواو كقوله والله • والباء • كقوله بالله لأفعلن كذا • والتاء كقوله : تالله لأفعلن كذا •وقد ورد القسم فى القرآن الكريم بالواو كما فى قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وبالتاء كما فى قوله تعالى (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) وقوله (قالوا تا لله تفتؤ تذكر يوسف) فاذا أتى انسان باليمين بصيغة من هذه الصيغ انعقدت يمينه نوى اليمين أولم ينو • والكناية:كقوله لعمر الله وايم الله وأشهد بالله • وأعزم بالله •

فاذا أتى بصيغة من هذه الصيغ ونوى اليمين انعقدت والا فلا •

اليمين الشرعية التى يحلف بها الحكام :

واليمين الشرعية التى يحلف بها الحكام • فان كان الحالف مسلما يقول : أحلف بالله الذى لااله الا هو عالم الغيب والشهادة الذى أنزل القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم •

وان كان يهوديا يقول أحلف بالله الذى أنزل التوراة على موسى ونجاه من الغرق ، وان كان نصرانيا يقول أحلف بالله الذى أنزل الانجيل على عيسى بن مريم• (صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٠٦ بتصرف واختصار)

العنصر الأول

بما أقســـم الله تعـــالى به

(أ) القســـم بذاته تعـــالى :

الأدلة من الكتـــاب :

لله جل جلاله من العظمة والجلال والكمال ما ينفرد به فى ذاته وأفعاله وصفاته مما لا ينازعه فيه أحد، ولما كان القسم عادة لا يكون الا بعظيم ، وكان لله تعالى أن يقسم كيف يشاء وبما يشاء على ما يشاء . فله أن يقسم بذاته وعظمته وربوبيته ، كما أن له جل شأنه أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته من الأدوات السامية والوسائل الشريفة ، ومواطن النبوةومهابط الوحى وأطوار الكون ودورات الفلك ـــ لله تعالى أن يحلف بهذا كله على ما يشاء من أمور الخلق وشـــئون الرزق وخصائص الوحى وكمال الايمان وصور المسئولية ونوعية الجزاء .

١ ـــ قال تعـــالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شـــجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . (النساء : ٦٥) .

قال المراغى فى تفسيره :

أقسم سبحانه بربوبيته لرسوله بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم اليك . هم ومن ماثلهم من المنافقين لا يؤمنون ايمانا حقا . وهو ايمان الاذعان والانقياد الا اذا كملت لهم ثلاث خصال :

١ ـــ أن يحكموا الرسول فى القضايا التى يختصمون فيها ويشتجرون ولا يتبين لهم وجه الحق فيها .

٢ ـــ ألا يجدوا حرجا وضـــيقا فيما يحكم به . أى أن تذعن نفوسهم لقضائه وحكمه فيما شجر بينهم بلا امتعاض من قبوله والعمل به ، اذ المؤمن الكامل ينشرح صدره لحكم الرسول صـــلى الله عليـــه وســـلم لأول وهلة ، لأنه الحق وأن الخير والسعادة فى الاذعان له .

٣ ــ الانقياد والتسليم لذلك الحكم . فكثيرا ما يعرف الشــخص أن الحكم حق لكنه يتمرد عن قبوله عنادا أو يتردد فى ذلك . (تفسير المراغى جـ ٥ ص ٨١) .

٢ ــ قال تعالى : « فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .
(الذاريات : ٢٣)

يقول ابن كثير فى تفسيره :

يقسم سبحانه وتعالى بنفسه الكريمة . أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه فلا تشــكوا فيــه كما لا تشــكوا فى نطقكم حين تنطقون . وكان معاذ رضى الله عنه اذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: ان هذا لحق كما أنك ها هنا قال مســدد عن ابن أبى عــدى عن عوف عن الحسن البصرى قال بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٥) .

٣ ــ وقال تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » .
(الحجر : ٩٢ ، ٩٣)

قال فى فتح البيان فى مقاصد القرآن :

أقسم الله ســبحانه بنفسه الكريمة وربوبيته العظيمة « لنسألنهم » أى هؤلاء الكفرة « أجمعين » يوم القيامة سؤال توبيخ .

« عماكانوا يعملون » فى الدنيا من الأعمال التى يحاسبون عليها ويسألون عنها. وقيل ان المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد .
(فتح البيــان فى مقاصد القرآن جـ ٥ ص ٢٠٩)

(ب) القسم بمخلوقاته تعالى :

١ ــ قال تعالى : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .
(القلم : ١ ، ٢)

قال صاحب التفسير الواضح :

أقسم الحق تبارك وتعالى بقوله « ن والقلم وما يسطرون » أما القسم بالقلم وأثره فهو للاشارة الى عظم النعمة بهما . وأنهما من أجل النعم على الانسان بعد المنطق والبيان اذ على قدر انتشارهما فى أمة يكون مقدار نبوغها وتقدمها بين الأمم . وأقسم الله تعالى بالقلم وما يسطرون به . ما أنت يا محمد بنعمة ربك وفضله بمجنون كما يصفك هؤلاء المشركون .
(التفسير الواضح للشيخ حجازى ج ٢٩ ص ١٣ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره :

أقسم ربنا بالقلم وما يسطر به من الكتب أن محمدا الذى أنعم عليه بنعمة النبوة ليس بالمجنون كما تدعون وكيف يكون مجنونا والكتب والأقلام أعدت لكتابة ما ينزل عليه من الوحى .

وقد أقسم سبحانه بالقلم والكتب فتحا لباب التعليم بهما . ولا يقسم ربنا الا بالأمور العظام . فاذا أقسم بالشمس والقمر والليل والفجر فانما ذلك لعظمة الخلق وجمال الصنع . واذا أقسم بالقلم والكتب فانما ذاك ليعم العلم والعرفان .
(تفسير المراغى ج ٢٩ ص ٢٧)

٢ — وقال تعالى : « والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور والسقف المرفوع . والبحر المسجور . ان عذاب ربك لواقع . ما له من دافع » . (الطور : ١ — ٨) .

وفى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم .

أقسم الله تعالى بجبل طور سيناء الذى كلم عليه موسى وبكتاب منزل من عندالله مكتوب فى صحف ميسرة للقراءة ، وبالبيت المعمور بالطائفين والقائمين والركع السجود وبالسماء المرفوعة بغير عمد وبالبحر المملوء .

وقد بدأت السورة بالقسم بخمسة من أعظم المخلوقات تنبيها على عظمها وعظيم قدرة الله وحكمته فيها أقسم بها على وقوع العذاب بالمكذبين ونزوله بهم يوم البعث والجزاء . (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ج ٦ ص ٧٧) .

وقال الشيخ محمود حجازى فى تفسيره :

أقسم الحق تبارك وتعالى بالطور وهو الجبل مطلقا أو الجبل الذى ناجى عليه موسى ربه .والكتاب المسطور أى المكتوب على وجه النظام والترتيب فى جلد منشور ومبسوط ليقرأه الكل . وأقسم تعالى بالبيت المعمور وهو بيت الله الحرام الذى يعمر بالحجاج كل عام ، وأقسم تعالى بالسقف المرفوع وهو السماء التى رفعت بلا عمد ترونها ، وأقسم بالبحر المملوء نارا من تحته .أقسم تعالى بهذا كله على أن عذاب ربك واقع حتما على من يستحقه من الكفرة والفجرة . ليس له من دافع يدفعه ولا قوة تمنعه . (تفسير الواضح للشيخ محمود حجازى جـ ٢٧ ص ١٦ بتصرف) .

٣ ــ وقال تعالى : « والشمس وضحاها .والقمر اذا تلاها . والنهار اذا جلاها . والليل اذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . (الشمس : ١ ــ ١٠) .

قال الشيخ محمد محمود حجازى فى تفسيره :

أقسم الحق تبارك وتعالى بالشمس على أنها كوكب سيار متحرك مع ضخامتها وكبر حجمها وقوة ضوئها . وبضحاها أى ضوئها وحرها وهما مصدر الحياة ، ومبعث الحركة ومنبع نور الكون فى النهار والليل .وأقسم بالقمر اذا تلاها فى ارتباط مصالح الناس به وتبيين المواقيت واضاءة الكون . ومن هنا كان حساب السنين والقمر يتلو الشمس لأنه يستمد نوره منها .

وأقسم بالنهار اذا جلاها . أى أظهر الشمس وأتم نورها . والنهار من الشمس وأقسم تعالى بالسماء وعوالمها وقد بناها الله وأحكم رباطها وقوى جاذبيتها فلا ترى فيها خللا ولا عوجا لأنها صنعة الحكيم القادر . وأقسم تعالى بالأرض وما طحاها . أى بسطها فى نظر العين ووسعها ليعيش عليها الخلق .

وأقسم بالنفس والذى سواها وأحكم أمرها ومنحها القوى والغرائز التى تستكمل بها الحياة . فترتب على ذلك أن خلق لها عقلا يميز بين الخير والشر وذلك من تمام التسوية . وأقدرها على فعل المعصية التى تهلكها والخير الذى ينجيها ويقيها من السوء .

قــد أفلح من زكاها ونماها وأعلاها . وقــدخاب وخسر من دساها حتى جعلها فى عداد نفوس الحيوانات . فان الانسان يرتفع عن الحيوان بتحكيم العقل والسمو بالنفس من مزالق الشهوات .أما اذا انحط الى المعاصى وحكم الشهوة فى نفسه كان هو والحيوان سواء ويصدق عليه أنه دس نفسه وأنقص مرتبتها وجعلها فى عــداد نفوس الحيوانات التى تنقاد لشهوتها لا لعقلها .

(التفسير الواضح محمد محمود حجازى ج ٣٠ ص ٥٣)

٤ ــ وقال تعالى : « والضحى . والليل اذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى » .

(الضحى : ١ ــ ٣)

قال الطبرى فى تفسيره :

« أقسم ربنا جل ثناؤه بالضحى وهو النهار كله . وقوله : والليل اذا سجى . قال بعضهم : معناه.والليل اذا أقبل ظلامه . والصواب عندى قول من قال معناه: والليل اذا سكن بأهله وثبت بظلامه . كما يقال بحر ساج . أى ســاكن ، وقوله : ما ودعك ربك وما قلى . وهذا جواب القســم ، ومعناها ما تركك يا محمد ربك وما أبغضك » . (جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ج ٣٠ ص ١٤٧) .

وجاء فى المنتخب من التفسير :

« افتتحت السورة بقســمين عن وقتى النشاط والسكون على أن الله ما ترك رسوله ولا كرهه ، وما يعد له فى الآخرة من منازل الرفعة خير مما يكرمه به فى الأولى.

أقسم الله بالضحى وهو وقت ارتفاع الشمس والنشاط فى العمل وبالليــل اذا سكن وامتد ظلامه ما تركك ربك يا محمد وما كرهك » .

(المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٩١٤)

٥ ــ وقال تعالى :

« فلا أقسم بمواقع النجوم .وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم».

(الواقعة : ٧٥ ــ ٧٧)

يقول المراغى فى تفسيره :

« فلا أقسم بمواقع النجوم » أى أقسم بمساقط النجوم ومغاربها . وانما خص القسم بهـذه الحال لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم . ومن ثم استدل ابراهيم عليه السلام بالأفول على وجود الله جلت قدرته .

وقد أقسم سبحانه بكثير من مخلوقاته العظيمة دلالة على عظم مبدعها . فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار ويوم القيامة والتين والزيتون ، كما أقسم بالأمكنة فأقسم بطور سينين ومكة المكرمة .

ويرى أبو مسلم الأصفهانى وجماعة من المفسرين : أن «لا» ليست مزيدة والكلام على ظاهره المتبادر منه . والمعنى : لا أقسم بهذه : اذ الأمر أوضح من أن يحتاج الى قسم ما . فضلا عن هذا القسم العظيم .

« وانه لقسم لو تعلمون عظيم » أى وان هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك .

وفى هذا تفخيم للمقسم به . لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة . ومن مقتضيات رحمته ألا يترك عباده سدى .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال :

« انه لقرآن كريم » أى ان هذا القرآن جم المنافع كثير الفوائد . فقـد اشتمل على ما فيه صلاح البشر فى دنياهم وآخرتهم .

قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد . والقرآن كريم يحمد ، لمـا فيه من الهدى والبينات والعلم والحكمة ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم يستمد منه ويحتج به والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، فكل عالم يطلب أصل علمه منه . (تفسير المراغى جـ ٢٧ ص ١٥٠ ، ١٥١)

وقال الشيخ محمد محمود حجازى فى تفسيره الواضح :

لله أن يقسـم بما يشـاء من خلقه ، فهو تعظيم له بالدليـل ، ولفت لأنظار المخلوقين حتى يروا ما فى هذه الأشياء المقسم بها من عظمة تدل على القدرة الكاملة لله سبحانه وتعالى ، وأما نحن فليس لنا أن نقسم بغير الله وصفاته القديمة .

والمعنى : فلأنا أقسم بمواقع النجوم • أى مساقطها عند الغروب • وان هـذا لقسم عظيم لو تعلمونه لعظمتموه•انهلقرآن كريم •أماالقسم بالنجوم عند غروبها وذهاب أثرها فلأنها والحالة هذه تكون أكثر دلالة على وجود خالقها والمؤثر فيها • وأن هذا النجم الذى بزغ بعد غروب الشمس لا يصح أن يعبد بل يجب أن يكون دليلا على وجود الله ولهذا قال الله : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » •
(التفسير الواضح ج ٢٧ ص ٦٣)

٦ — وقال تعالى : « لا أقسم بهـذا البلد • وأنت حل بهـذا البلد • ووالد وما ولد • لقد خلقنا الانسان فى كبد » • (البلد : ١ — ٤) •

يقول الفخر الرازى فى تفسيره :

« لا أقسم بهذا البلد •• » أجمع المفسرون على أن ذلك البلد هى مكة • واعلم أن فضل مكة معروف • فان الله تعالى جعلها حرما آمنا • فقال فى المسجدالذى فيها « ومن دخله كان آمنا » وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب ، فقـال : « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » وشرف مقام ابراهيم بقوله : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال : « ولله على النـاس حج البيت » وقال فى البيت : « واذ جعلنا البيت مثابة للنـاس وأمنا » وقال « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت » وحرم فيه الصيد وجعل البيت المعمور بازائه ، ودحيت الأرض من تحته • فهذه الفضائل وأكثر منها لما اجتمعت فى مـكة لا جرم أقسـم الله تعـالى بهـا •

فأما قوله : « وأنت حل بهذا البلد » فالمراد منه أمور :

أحدها : وأنت مقيم بهذا البلد نازل فيه حال به • كأنه تعالى عظم مكة من جهة أنه عليه الصلاة والسلام مقيم بها •

وثانيها : الحل بمعنى الحلال • أى أن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات • ثم انهم مع ذلك ومع اكرام الله تعالى اياك بالنبوة يستحلون ايذاءك ولو تمكنوا منك لقتلوك • فأنت حـل لهـم فى اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك •

عن شرجبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيدا أو يعضدوا بها شجرة • ويستحلون اخراجك وقتلك ، وفيه تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب له من حالهم فى عدوانهم له •

وثالثها . قال قتادة : « وأنت حل » أى لست بآثم وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت • وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له • وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء وفعل ما شاء ، فقتل عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وحرم دار أبى سفيان ثم قال : « ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام الى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لى الا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها الا لمنشد • فقال ابن عباس : الا الأذخر يا رسول الله فانه لبيوتنا • فقال : الا الأذخر » •

فان قيل : هذه السورة مكية • وقوله «وأنت حل» اخبار عن الحال • والواقعة التى ذكرتم انما حدثت فى آخر مدة هجرته الى المدينة • فكيف الجمع بين الأمرين ؟ قلنا : قد يكون اللفظ للحال والمعنى مستقبلا كقوله تعالى : « انك ميت » وكما اذا قلت لمن تعده الاكرام والحباء : أنت مكرم محبو • وهذا من الله أحسن لأن المستقبل عنده كالحاضر بسبب أنه لا يمنعه عن وعده مانع •

ورابعها : « وأنت حل بهذا البلد » أى وأنت غير مرتكب فى هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه تعظيما منك لهذا البيت • لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر بالله وتكذيب الرسل •

وخامسها : أنه تعالى لما أقسم بهذا البلد دل ذلك على غاية فضل هذا البلد ثم قال : « وأنت حل بهذا البلد » أى وأنت من حل هذه البلدة المعظمة المكرمة • وأهل هذا البلد يعرفون أصلك ونسبك وطهارتك وبراءتك طول عمرك عن الأفعال القبيحة • وهذا هو المراد بقوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » وقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وقوله « فقد لبثت فيكم عمرا من قبله » فيكون الغرض شرح منصب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه من هذا البلد•

أما قوله « ووالد وما ولد » فاعلم أنه معطوف على قوله : « لا أقسم بهـذا البلد » وقوله « وأنت حل بهـذا البـلد » معترض بين المعطوف والمعطوف عليـه وللمفسرين فيه وجوه :

أحدها : الوالد آدم وما ولد ذريته . أقسم بهم اذ هم من أعجب خلق الله على وجه الأرض ، لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم ، وفيهم الأنبياء والدعاة الى الله تعـالى والأنصـار لدينه ، وكل ما فى الأرض مخلوق لهم : وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الأسماء كلها .

وقد قال الله تعـالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » فيكون القسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم لما ذكرنا من ظهور العجائب فى هذه البنية والتركيب .

وقيل : هو قسم بآدم والصالحين من أولاده بناء على أن الظالمين كأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم لا يعقلون لما قال « ان هم الا كالأنعام بل هم أضـل سـبيلا » « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

وثانيها : يعنى كل والد ومولود . وهـذا مناسب لأن حرمة الخلق كلهم داخل فى هذا الكلام .

وأما قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى كبد » ففيه مسائل :

الأولى : فى الكبد . قال الكشاف . ان الكبد أصـله من قولك : كبد الرجل كبدا اذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى استعمل فى كل تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة ، وأصله : كبده اذا أصاب كبده ، وقال آخرون : الكبد : شـدة الأمر ، ومنه تكبد اللبن اذا غلظ واشـتد . ومنه الكبد لأنه دم يغلظ ويشـتد . والفرق بين القولين أن الأول جعل اسـم الكبد موضوعا للكبد . ثم اشتقت منـه الشدة . وفى الثانى جعل اللفظ موضوعا للشدة والغلظ ثم اشتق منه اسم العضو .

وعلى هذا الوجه يحتمل أن يكون المراد شدائد الدنيا فقط ، وأن يكون المراد شـدائد التكاليف فقط ، وأن يكون المراد شدائد الآخرة فقط ، وأن يكون المراد كل ذلك .

أما قوله « ووالد وما ولد » فاعلم أنه معطوف على قوله : « لا أقسم بهذا البلد » وقوله « وأنت حل بهذا البلد » معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وللمفسرين فيه وجوه :

أحدها : الوالد آدم وما ولد ذريته . أقسم بهم اذ هم من أعجب خلق الله على وجه الأرض ، لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم ، وفيهم الأنبياء والدعاة الى الله تعالى والأنصار لدينه ، وكل ما فى الأرض مخلوق لهم : وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الأسماء كلها .

وقد قال الله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » فيكون القسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم لما ذكرنا من ظهور العجائب فى هذه البنية والتركيب .

وقيل : هو قسم بآدم والصالحين من أولاده بناء على أن الظالمين كأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم لا يعقلون لما قال « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

وثانيها : يعنى كل والد ومولود . وهذا مناسب لأن حرمة الخلق كلهم داخل فى هذا الكلام .

وأما قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى كبد » ففيه مسائل :

الأولى : فى الكبد . قال الكشاف . ان الكبد أصله من قولك : كبد الرجل كبدا اذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى استعمل فى كل تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة ، وأصله : كبده اذا أصاب كبده ، وقال آخرون : الكبد : شدة الأمر ، ومنه تكبد اللبن اذا غلظ واشتد . ومنه الكبد لأنه دم يغلظ ويشتد . والفرق بين القولين أن الأول جعل اسم الكبد موضوعا للكبد . ثم اشتقت منه الشدة . وفى الثانى جعل اللفظ موضوعا للشدة والغلظ ثم اشتق منه اسم العضو .

وعلى هذا الوجه يحتمل أن يكون المراد شدائد الدنيا فقط ، وأن يكون المراد شدائد التكاليف فقط ، وأن يكون المراد شدائد الآخرة فقط ، وأن يكون المراد كل ذلك .

أما الأول : فقوله « لقد خلقنا الانسان فى كبد » أى خلقناه أطوارا كلها شدة ومشقة تارة فى بطن الأم ، ثم زمن الارضاع ، ثم اذا بلغ ففى الكد فى تحصيل المعاش ، ثم بعد ذلك الموت .

وأما الثانى : وهو الكبد فى الدين ، فقال الحسن : يكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء ويكابد المحن فى أداء العبادات .

وأما الثالث : وهو الآخرة . فالموت ومساءلة الملك وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على الله الى أن يستقر به القرار اما فى الجنة واما فى النار .

وأما الرابع : وهو أن يكون اللفظ محمولا على الكل . فهو الحق .

المسألة الثانية : قوله : « فى كبد » يدل على أن الكبد قد أحاط به احاطة الظرف بالمظروف . وفيه اشارة الى أنه ليس فى الدنيا الا الكد والمحنة .

المسألة الثالثة : منهم من قال : المراد بالانسان انسان معين موصوف بالقوة يكنى أبا الأشد . والأكثرون على أنه عام يدخل كل أحد .
(التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ٣١ ص ١٨٠ — ١٨٣ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره :

« لا أقسم بهذا البلد » مثل هذا التعبير قسم مؤكد فى كلام العرب . وقد أقسم ربنا بمكة التى شرفها فجعلها حرما آمنا ، وجعل فيها البيت الحرام مثابة للناس يرجعون اليه ويعاودون زيارته كلما دعاهم اليه الشوق ، وجعل فيه الكعبة قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجه اليها فى الصلوات التى تكرر كل يوم فقال « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

« وأنت حل بهذا البلد » أى وأنت مقيم بهذا البلد حال فيه ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب شرف مكة وعظمتها كونه صلى الله عليه وسلم . مقيما فيه ولا شك أن الأمكنة تشرف بشرف ساكنيها والنازلين بها .

وأتى بهذه الجملة ليفيد أن مكة جليلة القدر فى كل حال حتى فى الحال التى لم يراع أهلها فى معاملتك تلك الحرمة التى خصها الله بها .

وفى هـذا ايقاظ وتنبيـه لهـم من غفلتهم ، وتقريع على حط منزلة بلـدهم « ووالد وما ولد » أى وكل والد وكل مولود من الانسان وغيره •

وفى القسم بهذا لفت لأنظارنا الى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود وهو طور التوالد ، والى ما فيه من بالغ الحكمة واتقان الصنع ، والى ما يعانيه كل من الوالد والمولود فى ابداء النشىء وتبليغ الناشىء وابلاغه حده من النمو المقدر له•

انظر الى البذرة فى أطوار نموها • كم تعانى من اختـلاف الأجواء ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر الى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان وتستعد لأن تلد بذرة أو بذورا أخرى تعمل عملها وتزين الوجود بجمال منظرها •

وأمر الانسان والحيوان فى ذلك أعجب وأعظم ، والتعب والعناء الذى يلاقيـه كل منهما فى سبيل حفظ نوعه واستبقاء جمال الكون بوجوده أشد وأكبر •

ثم ذكر المحلوف عليه فقال :

« لقد خلقنا الانسان فى كبد » أى انه تعالى جعل حياة الانسان سلسلة متصلة الجهاد مبتدئة بالمشقة ، منتهية بها • فهو لا يزال يقاسى من ضروبها ما يقاسى منذ نشأته فى بطن أمه الى أن يصير رجلا ، وكلما كبر ازدادت أتعابه وآلامه • فهو يحتاج الى تحصيل أرزاقه وتربية أولاده والى مقارعة الخطوب والنوازل ، ومصابرة النفس على الطاعة والخضـوع للواحد المعبود ، ثم بعد هـذا كله يمرض ويموت ويلاقى فى قبره وفى آخرته من المشاق والمتاعب مالا يقدر عليه الا بتيسير الله سبحانه •

والسر فى التنبيه الى أن الانسـان قد خلق فى عناء الرغبة فى تسـلية رسـوله صلى الله عليه وسلم ، وحضه على عمل الخير والمثابرة عليه ، وألا يعبأ بما يلاقيه من الشدائد والمشاق ، وأن ذلك لا يخلو منه انسان •

الى ما فيه من تنبيه المغرورين الذين يشـعرون بالقوة فى أنفسهم ويظنون أنهم بها يستطيعون مصارعة الأقران وكأنه يقول لهم : لا تتمادوا فى غروركم ولا تستمروا على صلفكم وكبريائكم ، فان الانسان لا يخلوا من العناء فى تصريف شئونه وشئون ذويه ، ومهمـا عظمت منزلته ، وقويت شـكيمته فهو لا يسـتطيع الخلاص من مشـاق الحيـاة •

وقد جمع سبحانه بين البلد المعظم والوالد والولد ، ليشير الى أن مكة على ما بها من عمل أهلها ستلد مولودا عظيما يكون اكليلا لمجد النوع الانسانى وشرفه ، وهو دين الاسلام الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن العناء الذى يلاقيه انما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده ، والمولود فى بلوغ الغاية فى سبيل نموه الى ما فيه الوعد باتمام نوره ولو كره الكافرون .

(تفسير المراغى ج ٣٠ ص ١٥٦ ، ٥٧)

٧ — وقال تعالى : « والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » . (التين : ١ — ٤) .

يقول الامام الفخر الرازى فى تفسيره :

اعلم أن الاشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الأمور الشريفة فكيف يليق أن يقسم الله تعالى بهما ؟ فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان :

الأول : أن المراد من التين والزيتون : هذان الشيئان المشهوران . قال ابن عباس هو تينكم وزيتونكم هذا ، ثم ذكروا من خواص التين والزيتون أشياء :

أما التين فقالوا : انه غذاء وفاكهة ودواء . أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث فى المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الرشح ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما فى المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال وهو خير الفواكه وأحمدها ... وأما كونه دواء ، فلأنه يتداوى به فى اخراج فضول البدن .

واعلم أن لشجرة التين بعد ما ذكرنا خواص : أحدها — أن ظاهرها كباطنها .. طيبة الظاهر والباطن ، وثانيها — أنها شجرة تبذل قبل الوعد ، فتخرج الثمرة قبل أن تعد بالورد أو قبل أن تلبس نفسها بورد أو بورق ، فهى تهتم بغيرها قبل اهتمامها بنفسها .. كالمصطفى عليه السلام كان يبدأ بغيره فان فضل صرفه الى نفسه وكالذين أثنى الله عليهم فى قوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، وثالثها — أن شجرة التين . تعيد البذر وربما سقط ثم يعود مرة أخرى فى تلك السنة ، ورابعها — أن آدم عليه السلام لما عصى وفارقته ثيابه تستر بورق التين .

وأما الزيتون فشجرته هى الشجرة المباركة فاكهة من وجه ، وادام من وجه ، ودواء من وجه ، وهى فى أغلب البـلاد لا تحتاج الى تربية النـاس ، ثم لا تقتصر منفعتها على غـذاء بدنك . بل هى غـذاء السراج أيضا وتولدها فى الجبـال التى لا يوجد فيها شيء من الدهنية البتة .

ثم قال المفسرون : التين والزيتون اسم لهذين المأكولين وفيهما هـذه المنـافع الجليلة فوجب اجراء اللفظ على الظواهر . والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لمافيهما من المصالح والمنافع .

الثـانى : أنه ليس المراد هاتين الثمرتين . قال ابن عبـاس : همـا جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طورتينا وطورزيتا لأنهما منبتا التين والزيتون . فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء ، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السـلام ، والزيتون فى الشام مبعث أكثر أنبيـاء بنى اسرائيل ، والطور مبعث موسى عليـه السلام ، والبلد الأمين ، مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . فيكون المراد من القسم فى الحقيقة تعظيم الأنبياء واعلاء درجاتهم .

أما قوله تعالى : « وطور سينين » فالمراد « من الطور » الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه . واختلفوا فى سينين والأولى عند النحو بين أن يكون سـينين وسـينا اسـمين للمكان الذى حصل فيه الجبل أضيفا الى ذلك المكان . وأما المفسرون ، فقال مجاهد : « سينين » المبارك ، وقال مقاتل ، كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا ، والأولى أن يكون سينين اسـما للمكان الذى به الجبل ، وسمى ذلك سينين أو سينا لحسنه أو لكونه مباركا .

أما قوله تعالى : « وهـذا البلد الأمين » فالمراد مكة . والأمين . الآمن ، قال صاحب الكشاف : من أمن الرجل أمانة فهو أمين ، وأمانته : أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه . ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنـه لأنه مأمون الغوائل ، كما وصف بالأمن فى قوله : « حرما آمنا » يعنى ذا أمن . وذكروا فى كونه أمينا ، أن مكة تحفظ لك جميع الأشياء ، فمباح الدم عنـد الالتجاء اليها آمن من السباع والصيود ، تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء اليها .

وأما الزيتون فشجرته هى الشجرة المباركة فاكهة من وجه ، وادام من وجه ، ودواء من وجه ، وهى فى أغلب البـلاد لا تحتاج الى تربية النـاس ، ثم لا تقتصر منفعتها على غـذاء بدنك . بل هى غـذاء السراج أيضا وتولدها فى الجبـال التى لا يوجد فيها شيء من الدهنية البتة .

ثم قال المفسرون : التين والزيتون اسم لهذين المأكولين وفيهما هـذه المنـافع الجليلة فوجب اجراء اللفظ على الظواهر . والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لمافيهما من المصالح والمنافع .

الثـانى : أنه ليس المراد هاتين الثمرتين . قال ابن عبـاس : همـا جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طورتينا وطورزيتا لأنهما منبتا التين والزيتون . فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء ، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السـلام ، والزيتون فى الشام مبعث أكثر أنبيـاء بنى اسرائيل ، والطور مبعث موسى عليـه السلام ، والبلد الأمين ، مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . فيكون المراد منالقسم فى الحقيقة تعظيم الأنبياء واعلاء درجاتهم .

أما قوله تعالى : « وطور سينين » فالمراد « من الطور »الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه .واختلفوا فىسينين والأولى عند النحو بين أن يكون سـينين وسـينا اسـمين للمكان الذى حصل فيه الجبل أضيفا الى ذلك المكان . وأما المفسرون ، فقال مجاهد : « سينين » المبارك ، وقال مقاتل ، كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا ، والأولى أن يكون سينين اسـما للمكان الذى به الجبل ، وسمى ذلك سينين أو سينا لحسنه أو لكونه مباركا .

أما قوله تعالى : « وهـذا البلد الأمين » فالمراد مكة . والأمين . الآمن ، قال صاحب الكشاف : من أمن الرجل أمانة فهو أمين ، وأمانته : أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه . ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنـه لأنه مأمون الغوائل ، كما وصف بالأمن فى قوله : « حرما آمنا » يعنى ذا أمن . وذكروا فى كونه أمينا ، أن مكة تحفظ لك جميع الأشياء ، فمباح الدم عنـد الالتجاء اليها آمن من السباع والصيود ، تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء اليها .

ثم قال تعالى : « لقدخلقنا الانسان فى أحسن تقويم » المراد من الانسان هذه الماهية • والتقويم تصيير الشىء على ما ينبغى أن يكون فى التأليف والتعديل • وذكروا فى شرح ذلك الحسن : أنه تعالى خلق كل ذى روح مكبا على وجهه الا الانسان فانه تعالى خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده•وقال الأصم : فىأكمل عقلوفهم وأدب وعلموبيان •• وعن يحيى بن أكثم القاضى : أنه فسر التقويم بحسن الصورة • وكان بعض الصالحين يقول : الهنا أعطيتنا فى الأولى أحسن الأشكال فأعطنا فى الآخرة أحسن الفعال • وهو العفو عن الذنوب والتجاوز عن العيوب •
(التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ج ٣٢ ص ٨ ــ ١١ بتصرف)

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن :

برجح القرطبى أنهما التين والزيتون على الحقيقة ، وقال « لا يعدل عن الحقيقة الى المجاز الا بدليل » •

وطور سيناء ينبت فيه التين والزيتون ويطيب ثمره • فالعلاقة بينهما علاقة نسبة الى المكان • ويقوى هذه النسبة أن القرآن الكريم أشار فى موضع آخر الى منبت شجرة الزيتون • وأن طور سيناء هو أطيب منبت لها اذ يقول سبحانه : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » •

وقيل : ان التين والزيتون فاكهتان ولكن لم يقسم بهما هنا لفوائدهما • بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التى لها آثارها الباقية ، وذلك أن الله تعالى يذكرنا بأربعة فصول منكتاب الانسان الطويل من أول نشأته الى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم •

فالتين اشارة الى عهد الانسان الأول ، فان آدم ــ كما تقول التوراة ــ كان يستظل فى الجنة بشجر التين • وعند مابدت له ولزوجه سوءاتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين ، فهذا أول فصل من فصول حياة الانسان •

والزيتون • اشارة الى الفصل الثانى ، وهو عهد نوح • وذلك أنه بعد أن فسد البشر ،وأهلك الله من أهلك بالطوفان ،ونجى نوحا ومن معه فىالسفينة ،واستقرت السفينة على اليابسة • نظر نوحــ كما تقول التوراة ــ الى ما حوله فرأى الحياة

لا تزال تغطى وجـه الأرض فأرسـل حمامـة تأتى له بدليل على انحسـار المياه عن وجه الأرض ، فجاءت اليه وفى فمها وريقات من شجر الزيتون ، فعرف أن الحياة بدأت تظهر على وجه الأرض من جديد ،

أما طور سينين ، فهو اشارة الى الفصل الثالث من حياة الانسان ، وهو ظهور الشريعة الموسوية ، وقد كانت تلك الشريعة دعوة لكثير من أنبياء الله ورسله الى عهد المسيح عليه السلام الذى كان خاتمة هذه الشريعة ،

وأما البلد الأمين ــ وهو مكة ــ فقد كان مطلع الرسـالة الخاتمة لما شرع الله للناس وبها يختم الفصل الأخير من حياة الانسان على هذه الأرض ،

وهذه أقوال متقاربة يمكن أن يؤخذ بأى منها أو بها جميعا ،

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم .. » هو جواب القسـم ، وهو المقسم عليه لتوكيده وتقريره بالقسم ، وفى هذا التوكيد اشارة الى كثير ممن تشهد عليهم أفعالهم بأنهم ينكرون خلقهم القويم هذا ، ولا يعرفون قـدره فينزلون الى مرتبة الحيوان ويسلمون قياد وجودهم الى شـهواتهم البهيمية غير ملتفتين الى ما أودع الخالق فيهم من عقل حمل أمانة أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، فضيع الانسان هذه الأمانة ولاكها فى فمه كما تلوك البهيمة العشب ،
(التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب ج ٣٠ ص ١٦١٤ ــ ١٦١٦ بتصرف)

الأدلة من السنة :

الأحاديث النبوية والقدسية على السـواء تزخر بالأيمان للذات العلية ، تلك الأيمان التى أقسم الله فيها بذاته وعظمته وجلاله وعزته وكبريائه وسلطانه ، تأكيدا لحق أو ازهاقا لباطل ، كعقاب المجرمين والعفو عن الأوابين ،

ومن ثم كان حلف الله العظيم بذاته السامية وصفاته القاهرة التى ترهب المجرمين وتأخذ منهم بالألباب .. كما كان حلف ربنا الأعلى بذاته المقدسة وصـفاته الرحيمة التى تبعث فى النفوس الأمل والرجاء فى عفوه ورحمته ، ووعيد الله نافذ ووعـده لا يتخلف وقسمه ماض لا مرد له ،

لا تزال تغطى وجــه الأرض فأرســل حمامــة تأتى له بدليل على انحســار المياه عن وجه الأرض . فجاءت اليه وفى فمها وريقات من شجر الزيتون . فعرف أن الحياة بدأت تظهر على وجه الأرض من جديد .

أما طور سينين . فهو اشارة الى الفصل الثالث من حياة الانسان . وهو ظهور الشريعة الموسوية . وقد كانت تلك الشريعة دعوة لكثير من أنبياء الله ورسله الى عهد المسيح عليه السلام الذى كان خاتمة هذه الشريعة .

وأما البلد الأمين ــ وهو مكة ــ فقد كان مطلع الرســالة الخاتمة لما شرع الله للناس وبها يختم الفصل الأخير من حياة الانسان على هذه الأرض .

وهذه أقوال متقاربة يمكن أن يؤخذ بأى منها أو بها جميعا .

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم .. » هو جواب القســم ، وهو المقسم عليه لتوكيده وتقريره بالقسم . وفى هذا التوكيد اشارة الى كثير ممن تشهد عليهم أفعالهم بأنهم ينكرون خلقهم القويم هذا . ولا يعرفون قــدره فينزلون الى مرتبة الحيوان ويسلمون قياد وجودهم الى شــهواتهم البهيمية غير ملتفتين الى ما أودع الخالق فيهم من عقل حمل أمانة أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، فضيع الانسان هذه الأمانة ولاكها فى فمه كما تلوك البهيمة العشب .
(التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب ج ٣٠ ص ١٦١٤ ــ ١٦١٦ بتصرف)

الأدلة من السنة :

الأحاديث النبوية والقدسية على الســواء تزخر بالأيمان للذات العلية . تلك الأيمان التى أقسم الله فيها بذاته وعظمته وجلاله وعزته وكبريائه وسلطانه ، تأكيدا لحق أو ازهاقا لباطل . كعقاب المجرمين والعفو عن الأوابين .

ومن ثم كان حلف الله العظيم بذاته السامية وصفاته القاهرة التى ترهب المجرمين وتأخذ منهم بالألباب .. كما كان حلف ربنا الأعلى بذاته المقدسة وصــفاته الرحيمة التى تبعث فى النفوس الأمل والرجاء فى عفوه ورحمته . ووعيد الله نافذ ووعــده لا يتخلف وقسمه ماض لا مرد له .

١ — عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال ابليس : وعزتك لا أبرح أغوى (بضم الألف وسكون الغين) (أى أضل) عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال : « وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد .

(الترغيب والترهيب : جـ ٣ ص ١٢٧ ، ١٢٨)

٢ — وفى حديث الشفاعة عن معبد بن هلال رضى الله عنه عن أنس .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..« ثم أخر له ساجدا فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع . فأقول : يارب ائذن لى فيمن قال: لا اله الا الله . قال : ليس ذلك لك أو ليس ذلك اليك . ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبريائى (أى سلطانى وقهرى) لأخرجن من قال لا اله الا الله » أى مع تتمتها وهى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(رواه مسلم التاج الجامع للأصول جـ ٥ ص ٤١١)

٣ — وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم :الصائم حتى يفطر والامام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » . رواه الترمذى بسند حسن .

(المصدر السابق جـ ٥ ص ١٢٢)

٤ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :«يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين وألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل : أبى يغترون أم على يجترئون فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانا». رواه الترمذى بسند حسن . (المصدر السابق جـ ٥ ص ٢١٥)

العنصر الثانى
النهى عن كثرة الحلف

الأدلة من القرآن :

المؤمن الحق هو الرجل الكيس الحصيف الذكى الأريب الذى يحترم ذاته ويقدر شخصه ويثق فى نفسه ويحرص بكل الوسائل الشريفة على ثقة الناس به .

وضعاف الايمان والواهمون من الناس هم الذين يخرجون على هذه الأصول ويلجؤون فى اثبات ذواتهم الى وسائل مختلفة لا تعطى الا نتائج عكسية ولا تزيد شخوصهم الا ضعفا على ضعف ووهنا على وهن • من هذه الوسائل كثرة القسم وسرعة الحلف من غير ما سبب أو ضرورة • وجعل الله تعالى عرضة لهم يحلفون به فى كل صغير وكبير • الأمر الذى يوحى بتكراره الى امتهان اليمين وفقدان الخشية والتعظيم لله جل جلاله •

من أجل هذا نهانا الاسلام عن كثرة الحلف ونفرنا من المكثرين منه ونبهنا الى ضرورة نبذهم وعدم الميل اليهم أو الركون لهم •

١ ـ قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » (القلم : ١٠) •

قال القرطبى فى تفسيره :

قال ابن عباس : نزلت فى أبى جهل بن هشام •

والحلاف الكثير الحلف • والمهين ضعيف القلب • وعن مجاهد وابن عباس : المهين الكذاب والكذاب مهين • وقيل المكثار فى الشر • قاله الحسن وقتادة • وقيل معناه الحقير عندالله • وقال الرمانى • المهين : الوضيع لاكثاره من القبيح •
(تفسير القرطبى ج ٨ ص ٢٣١)

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » •

وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته انما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على أسماء الله تعالى واستعمالها فى كل وقت فى غير محلها •

قال الحسن :

كل حلاف : مكابر مهين ضعيف • (تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٣) •

وقال الزمخشرى فى تفسيره « ولا تطع كل حلاف » •

حلاف : كثير الحلف فى الحق والباطل • وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف • مهين من المهانة وهى القلة والحقارة : يريد القلة فى الرأى والتمييز أو أراد الكذب لأنه حقير عندالناس • (تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٢) •

وقال المراغى فى قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » .

أى ولا تطع المكثار من الحلف بالحق وبالباطل . والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على الله يتقى ضعفه ومهانته أمام الخلق . وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله . والكذب أس كل شر ومصدر كل معصية — وكفى مزجرة لمن اعتاد الحلف أن جعله المولى فاتحة المثالب وأس المعايب .

« مهين » أى محتقر الرأى والتفكير . (المراغى ج ٢٩ ص ٣١) .

وقال صاحب تفسير فتح البيان فى مقاصد القرآن :

فى قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف » أى كثير الحلف بالباطل وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف « مهين » فعيل من المهانة وهى القلة فى الرأى والتمييز . وقال مجاهد : هو الكذاب . وقال قتادة : المكثار فى الشر وكذا قال الحسن . وقيل : هو الفاجر العاجز . وقيل : هو الحقير عند الله . وقيل : هو الذليل . وقيل : هو الوضيع . (تفسير فتح البيان فى مقاصد القرآن ج ١٠ ص ٢٥ ، ٢٦).

٢ — وقال تعالى :

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم الآية » (البقرة : ٢٢٣) .

قال فى تفسير المنار :

معنى العرضة : ما يعرض للشىء . أو ينصب ليعرض له الشىء كالهدف للسهام . يقال فلان عرضة للناس اذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه .

والمعنى على هذا الوجه . لا تكثروا الحلف بالله تعالى . فالذى يجعل الله عرضة لأيمانه هو كالحلاف فى قوله تعالى . « ولا تطع كل حلاف مهين » فكثير الحلف حليف المهانة وقرينها .

وقد ذكر تعالى فى هذه الآيات صفات أخرى ذميمة نهى عن أهلها وبدأها بالحلاف . فقال تعالى بعد ما تقدم (هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم) .

فالحلاف يعد فى مقــدمة هؤلاء الأشرار . ومن أكثر الحلف قلت مهابته وكثر حنثه واتهم بالكذب . ولا يكون الحلاف الا كذابا . فهو على اهانته لاسم الله تعالى يفوته ما يريد من قبول قوله وتصديقه . فالآية الكريمة ترشــدنا الى ترك الحلف بالله تعالى الا عند الحاجة الى ذلك . وكانت العرب تتمدح بقلة الحلف وحفظ الأيمان قال الشاعر :

قليل الألا يا حافظ ليمينه

وان سبقت منه الألية برت

الألايا : جمع اليه وهى اليمين . أ . هـ (تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦)

وقال القرطبى :

بعد ذكر أقوال فى معنى الآية :

وقيل : المعنى لاتكثروا من اليمين بالله فانه أهيب للقلوب . ولهذا قال تعالى (واحفظوا أيمانكم) وذم من أكثر اليمين . فقال تعالى(ولاتطع كل حلاف مهين) وعلى هذا فقوله : أن تبروا معناه : أقلوا الأيمان لما فيه (فى قلة الأيمان) من البر والتقوى . فان الاكثار يكون معه الحنث وقلة الرعاية لحق الله تعالى . وهــذا تأويل حسن .

وعن مالك بن أنس . بلغنى . أنه الحلف بالله فى كل شىء « يعنى قوله تعالى: ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم » وقيل المعنى لا تجعلوا اليمين مبتذلة فى كل حق وباطل . (تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٩٧)

الأدلة من السنة :

ضــعاف النفوس ومعدوموا الثقة هــم الذين يلتوون فى حياتهم ويتلونون فى معاملاتهم ويعطون أنفسهم ماليس لهم ويسبغون على مكانتهم غير ما تســتحق ، وهم يشــعرون بهذا طوعا أو كرها . ولذا يلجأون الى كثرة الحلف انبعاثا من هذا الضعف والشعور به كحيل أقل ما توصف به أنها هروبية ونتائجها عكسية وفى غير صالحهم . الأمر الذى يجردهم من الشرف ، ويسلخهم من الكرامة ، ويصفهم خزايا ممقوتين بين يدى الله تعالى يوم القيامة وأبعــد ما يكونون عن رحمته ورضــوانه ومغفرته .

عن سلمان رضى الله عنه قال : قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة :

أشيمط (١) زان • وعائل (٢) مستكبر • ورجل جعل الله بضــاعته لا يشترى الا بيمينه • ولا يبيع الا بيمينه » • رواه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة الا أنه قال فى الصغير والأوسط • « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » •فذكره ورجاله رجال الصحيح • (مجمع الزوائد جـ ٤ ص ٧٨)

الآثار :

ان أشرف الناس وعليتهم هم الذين يقدرون أنفسهم ويحرصون على الوضوح والثقة فى أنفسهم ومع الناس • هؤلاء بطبيعتهم أبعد الناس عن الحلف لأنهم فى غنى عنه وفى غير حاجة اليه ، لما لديهم من ذاتية أصيلة تربأبهم عن الهبوط الى المستوى الذى يضطرهم الى كثرة الحلف واللجوء الى اليمين ، ولأنهم يدركون بعمق نظرتهم أن نتائج ذلك لا تجدى ولا تفيد • هذا فضلا عما يجره ذلك على صاحبه من قلة خشيته لله وارضاء الناس على حساب دينه وربه •

قال الشافعى رحمه الله :

ما حلفت بالله صادقا ولا كاذبا •

قال الامام محمد عبده :

من مذام كثرة الحلف • أن يقلل ثقة الانسان بنفسه وثقة الناس به • فهو يشعر بأنه لا يصدق فيحلف • ولهذا وصفه الله بالمهين • وكثيرا ما يعرض نفسه للخطأ اذا حلف على المستقبل ثم انه لا يكون الا قليل الخشية لله والتعظيم له تعالى • لا يهمه الا أن يرضى الناس ، ويكون موثوقا به عندهم •فتعريض أســم الله تعالى للحلف بدون ضرورة ولا حاجة ينشأ عن نقدان هيبة الله تعالى وجلاله من النفس •

فان الناس يتعلمون كثرة الحلف من أمهاتهم ومن الولدان الذين يتربون معهم وهم صغار فيتعودون عدم احترام اسم الله تعالى • (تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٦٦)

---

(١) الأشيمط : هو الذى كثر الشعر الأبيض فى رأسه •

(٢) العائل : هو الفقير •

العنصر الثالث

النهى عن اتخاذ الايمان حائلا دون فعل الخير

الأدلة من القرآن :

المؤمن الحق ، هو الذى يوقن أن قيمته لا تكون الا مع الحق يعيش به ويحيا فى فلكه ،وأن فاعليته كمؤمن لاتكون الا بايجابيته فى مجتمعه وعطائه له واسهامه فى نهضته وتلبية داعيه وبقائه انسانا فطريا يعيش فى حدود المباح ونطاق الحلال دون ما حرج أو مشـقة ،، وحرصا من الاسـلام على أن يظل المؤمن كذلك يتبادل مع مجتمعه تبعات نهضته ومسئوليات حاجاته وواجبات ايمانه ، فانه يدعو الى ازاحة كل ما يعوق هذه المسيرة أو يثبط نحوها الهمة ، ومن هذا نهيه عن اتخاذ اليمين حائلا دون فعل البر وممارسة الخير واشاعة المعروف واصلاح المجتمع وسد حاجاته حتى يظل المؤمنون على ما آتاهم الله من فضل يسعون الناس به ولا ينكلون عنه يبتغون بذلك رحمة الله ومغفرته ورضوانه ،

١ ـ قال تعالى :

(ولا تجعلوا الله عرضـة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) ، سورة البقرة آية: ٢٢٤

قال صاحب تفسير المنار :

العرضة بالضم كالغرفة ، تكون بمعنى المانع المعترض دون الشيء، أى لاتجعلوا الله(أى الحلف به) مانعا بينكم وبين عمل الخير ،بأن تحلفوا به على تركه فتتركوه (أى فعل الخير) تعظيما لاسمه تعالى ويؤيد هذا المعنى ما رواه ابن جرير فى سبب نزول الآية ،

وهو حلف أبى بكر رضى الله عنه على ترك الانفاق على مسطح ، وفيه نزل قوله تعالى : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى) الآية:ويؤيده أيضا أحاديث فى الصحيحين وغيرهما : منها قوله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » وفى حديث عائشة عن ابن ماجه وابن جرير قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه » ،

وفى هذا المعنى أحاديث أخرى • ذلك أن الانسان يسرع الى لسانه الحلف • أنه لا يفعل كذا • وقد يكون خيرا • وليفعلن كذا وقد يكون شرا •والله تعالى لايرضى أن يكون اسمه حجابا دون الخير أوذريعة الى الشر فنهى عنذلك •وأمر نبيهصلى الله عليه وسلم بوجوب تحرى الخير والأحسن •

وان حلف على غيره فليكفر عن يمينه بما هو منصوص فى سورة المائدة •

(تفسير المنار ج ٢ ص ٣٦٥)

٢ ــ وقال تعالى :

(ولايأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سـبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) سورة النور آية ٢٢

قال القرطبى فى تفسيره :

المشهور أن هذه الآية : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ومسطح أبن أثاثة وكان أبوبكر رضى الله عنه ينفقعليه لمسـكنته وقرابته ، فلما وقع أمر الأفك وقال فيه مسطح ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه فنزلت الآية تتناول الأمة الى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته •

وروى فى الصـحيح • أن الله تبارك وتعالى لما أنزل (ان الذين جاءوا بالا فك عصبة منكم) قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره :والله لاأنفقعليه شيأ أبدا بعد الذى قال فى عائشة فأنزل الله تعالى : «ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة» الى قوله «ألاتحبون أن يغفر الله لكم» فقال أبو بكر رضى الله عنه:والله انى لأحب أن يغفر الله لى فرجع الى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال لاأنزعها منه أبدا ثم قال :

« من حلف على شىء لا يفعله فرأى فعله أولى منه أتاه وكفر عن يمينه » أو كفر عن يمينه وأتاه •

(تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ بتصرف)

وقال ابن كثير : (ولا يأتل) من الألية وهى الحلف : أى لا يحلف : « أولوا الفضل منكم » أى الطول والصدقة والاحسان ، والسعة .. أى الجدة والغنى ، « أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله » أى لا تحلفوا الا تصلوا قرابتكم المساكين والمهاجرين .وهذا فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ولهذا قال تعالى «وليعفوا وليصفحوا» أى عما تقدم منهم من الاساءة والأذى وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، ثم شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبه مسطح وكان مسكينا لا مال له وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وكان الصديق معروفا بالمعروف فقال تعالى :«ألا تحبون أن يغفر الله لكم»فان الجزاء من جنس العمل.

فكما تغفر ذنب من أذنب اليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح الله عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله انا نحب أن تغفر لنا ياربنا ، ثم رجع الى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها أبدا منه فى مقابلة ما كان قال .

(ابن كثير ج ٣ ص ٢٧٥)

٣ ـ وقال تعالى :

(يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم) سورة التحريم الأيتين (١ ، ٢)

قال المراغى :

روى البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل ،وكان اذا انصرف من العصر دخل على نسائه ،وكان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل النبى صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له : انى أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير « وهو صمغ حلو له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز » فقال : لابل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا .

وقال ابن كثير : (ولا يأتل) من الألية وهى الحلف : أى لا يحلف : « أولوا الفضل منكم » أى الطول والصدقة والاحسان . والسعة .. أى الجدة والغنى . « أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله » أى لا تحلفوا الا تصلوا قرابتكم المساكين والمهاجرين .وهذا فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ولهذا قال تعالى «وليعفوا وليصفحوا» أى عما تقدم منهم من الاساءة والأذى وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم . ثم شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبه مسطح وكان مسكينا لا مال له وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وكان الصديق معروفا بالمعروف فقال تعالى :«ألا تحبون أن يغفر الله لكم»فان الجزاء من جنس العمل.

فكما تغفر ذنب من أذنب اليك يغفر الله لك . وكما تصفح يصفح الله عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى والله انا نحب أن تغفر لنا ياربنا . ثم رجع الى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها أبدا منه فى مقابلة ما كان قال .

(ابن كثير ج ٣ ص ٢٧٥)

٣ ــ وقال تعالى :

(يأأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم) سورة التحريم الأيتين (١ ، ٢)

قال المراغى :

روى البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل ،وكان اذا انصرف من العصر دخل على نسائه ،وكان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا . فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل النبى صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له : انى أجد منك ريح مغافير . أكلت مغافير « وهو صمغ حلو له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز » فقال : لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم . ويقال ان التى دخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وحرم على نفسه العسل أمامها هى حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع أن النبى صلى الله عليه وسلم أستكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرها به من الحديث الذى يسرها ويسر عائشة . أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتى من بعدى فاسر لها بأمرين .

١ ـ تحريم العسل الذى كان يبغيه عند زينب .

٢ ـ أمر الخلافة لأبويهما من بعده .

« يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك » أى يا أيها النبى لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله الله لك.تلتمس بذلك رضا أزواجك. وهذا عتاب من الله تعالى على فعله ذلك ، لأنه لم يكن عن باعث مرضى ، بل كان طلبا لمرضاة الأزواج .

وفى هذا تنبيه الى أن ما صدر منه لم يكن مما ينبغى لمقامه الشريف أن يفعله . وفى ندائه صلى الله عليه وسلم بياأيها النبى فى مفتتح العتاب باحسن تلطف وتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام على نحو ما جاء فى قوله « عفا الله عنك لم أذنت لهم» « والله غفور رحيم » أى والله غفور لذنوب التائبين من عباده وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك . رحيم بهم أن يعاقبهم على ما تابوا منه من الذنوب .

وانما عاتبه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه تعظيما لقدره الشريف ، واجلالا لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه ، بما يشق عليه جريا على ما ألف من لطف الله به . وايماء الى أن ترك الأولى بالنسبة الى مقامه السامى يعد كالذنب وان لم يكن فى نفسه كذلك .

«قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم» أى شرع لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها فعليك أن تكفر عن يمينك .

وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كفر عن يمينه فأعتق رقبة .

(والله مولاكم) أى والله متولى أموركم ينصركم على أعدائكم ، ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنياكم وآخرتكم ، ومنير لكم طرق الهداية الى ما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم

(وهو العليم الحكيم) أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم . الحكيم فى تدبير أموركم ، فلا يأمركم ولا ينهاكم الا وفق ما تقتضيه المصلحة .

(تفسير المراغى جـ ٢٨ ص ١٥٦ — ١٥٧)

وجاء فى تفسير القاسمى :

قال المهايمى : ناداه ليقبل اليه بالكلية ، ويدبر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن ،وعبر عنه بالمبهم اشعارا منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لا يعلم كنهه .

وأتى بلفظ النبى اشعارا بأنه الذى نبىء بأسرار التحليل والتحريم الالهى .

والمراد بتحريمه ما أحل له امتناعه منه،حظره اياه على نفسه وهذا المقدار مباح ليس فى ارتكابه جناح . وانما قيل له :

« لم تحرم ما أحل الله لك » رفقا به ، وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه صلى الله عليه وسلم أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ومن أجله خلقوا . ليظهر الله كمال نبوته بظهور تقصانهم عنه كما أفاده الناصر .

(تفسير القاسمى جـ ١٦ ص ٥٨٥٢)

وجاء فى التفسير القرآنى للقرآن :

وقوله تعالى :

« ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » ليس عتابا كما يبدو . وانما هو دعوة من الله سبحانه وتعالى فى لطف ورفق الى النبى صلوات الله وسلامه عليه ألا يحرم ما أحل الله له ، وألا يشق على نفسه بالأخذ باليمين الذى حلف بها ، وقد جعله الله سبحانه وتعالى فى سعة من أمره بالتحلة من هذه اليمين وذلك بالكفارة عنها .

وقوله تعالى « تبتغى مرضاة أزواجك » أى لم تحرم ما أحل الله لك مبتغيا بهذا التحريم مرضاة أزواجك .

قوله تعالى (والله غفور) وهو دعوة للنبى الكريم الى أن يتحلل من يمينه التى حلفها . فالله سبحانه يغفر له هذه اليمين بالكفارة عنها ، وهو سبحانه رحيم ،وان أولى الناس برحمة الله هو رسول الله ، فليرحم الرسول الكريم تفسه ولا يشق عليها بهذا التحريم لما أحل الله له فى سبيل مرضاة أزواجه اذ كانت مرضاتهن عدوانا على حق النبى فى التمتع بما أحل الله له .

(وهو العليم الحكيم) أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم . الحكيم فى تدبير أموركم ، فلا يأمركم ولا ينهاكم الا وفق ما تقتضيه المصلحة .

(تفسير المراغى جـ ٢٨ ص ١٥٦ — ١٥٧)

وجاء فى تفسير القاسمى :

قال المهايمى : ناداه ليقبل اليه بالكلية ، ويدبر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن ،وعبر عنه بالمبهم اشعارا منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لا يعلم كنهه .

وأتى بلفظ النبى اشعارا بأنه الذى نبىء بأسرار التحليل والتحريم الالهى .

والمراد بتحريمه ما أحل له امتناعه منه،حظره اياه على نفسه وهذا المقدار مباح ليس فى ارتكابه جناح . وانما قيل له :

« لم تحرم ما أحل الله لك » رفقا به ، وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه صلى الله عليه وسلم أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه،ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشرالذين هم أتباعه،ومن أجله خلقوا . ليظهر الله كمال نبوته بظهور نقصانهم عنه كما أفاده الناصر .

(تفسير القاسمى جـ ١٦ ص ٥٨٥٢)

وجاء فى التفسير القرآنى للقرآن :

وقوله تعالى :

« ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » ليس عتابا كما يبدو . وانما هو دعوة من الله سبحانه وتعالى فى لطف ورفق الى النبى صلوات الله وسلامه عليه ألا يحرم ما أحل الله له ، وألا يشق على نفسه بالأخذ باليمين الذى حلف بها ، وقد جعله الله سبحانه وتعالى فى سعة من أمره بالتحلة من هذه اليمين وذلك بالكفارة عنها .

وقوله تعالى « تبتغى مرضاة أزواجك » أى لم تحرم ما أحل الله لك مبتغيا بهذا التحريم مرضاة أزواجك .

قوله تعالى (والله غفور) وهو دعوة للنبى الكريم الى أن يتحلل من يمينه التى حلفها . فالله سبحانه يغفر له هذه اليمين بالكفارة عنها ، وهو سبحانه رحيم ،وان أولى الناس برحمة الله هو رسول الله ، فليرحم الرسول الكريم نفسه ولا يشق عليها بهذا التحريم لما أحل الله له فى سبيل مرضاة أزواجه اذ كانت مرضاتهن عدوانا على حق النبى فى التمتع بما أحل الله له .

وقوله تعالى :

« قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم . والله مولاكم وهو العليم الحكيم » هو بيان لبعض آثار مغفرة الله ورحمته . وهو ما فرضه سبحانه وقضى به من التحلل من الأيمان بالكفارة عنها . اذا كان التحلل من اليمين خيرا من امضائها .

وفى هذا يقول الرسول الكريم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه ، ثم ليفعل الذى هو خير » .

وقوله تعالى (والله مولاكم) اشارة الى لطف الله سبحانه ورعايته لمواليه . فالخلق كلهم عبيد الله ، والله سبحانه سيدهم ومولاهم .

وقوله تعالى (وهو العليم الحكيم) أى أن الله سبحانه — وهو مولاكم — هو العليم بكم وبمن هو أولى عنده بالفضل والاحسان — (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وهو سبحانه الحكيم فى تقديره وتدبيره ، وفى وضع كل مخلوق بموضعه المناسب له .(التفسير القرآنى للقرآن . للأستاذ عبد الكريم الخطيب ج١٤ص١٠٢٤ —١٠٢٥ بتصرف).

الأدلة من السنة :

اذا كان الخطأ عيبا وذنبا فان الذى هو أقبح وأشنع هو المضى مع هذا الخطأ ومد الحبل له . ولقد علمنا الاسلام أن الرجوع الى الحق فضيلة ، وأن معاودة الحق خير من التمادى فى الباطل . والمسلم بيقين هو الذى يكون سريع الفيىء ، سريعا الى الاستجابة لداعية الحق والخير متى لاحت أعلامه ، ولمعت حجته وهتف داعيه. ولا بأس فى سبيل ذلك من تحطيم العوائق وازاحة الحوائل حتى يتسنى له العودة ولو أدي هذا الى الحنث فى اليمين والتحلل من القسم فان لهذا الاثم كفارة تجبره وبديل يكفره .

١ — عن زهدم قال كنا عند أبى موسى فأتى بدجاجة وعنده رجل من بنى تيم الله أحمر كأنه من الموالى ، فدعاه للطعام . فقال : انى رأيته يأكل شيئا فقذرته فحلفت لا آكل فقال : هلم فلأحدثكم عن ذاك : انى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من الأشعريين نستحمله (١) فقال : والله لا أحملكم وما عندى ما أحملكم .

---

(١) تستحمله : يعنى تطلب منه ما يحملنا من الدواب .

وأتى رســول الله صلى الله عليه وسلم بنهب ابل فســأل عنا فقال : أين النفر الأشعريون ؟ فأمر لنا بخمس ذود غر الذرا . فلما انطلقنا قلنا ما صنعنا ؟ لا يبارك لنا ، فرجعنا اليه فقلنا : انا سألناك أن تحملنا فحلفت ألا تحملنا أفنسيت ؟ قال لست أناحملتكم ولكن الله حملكم،واني والله ان شاء الله لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وتحللتها .

أخرجه البخارى (نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٤٨)

٢ ـ وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبى صلى الله عليــه وســلم ، يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة ، فانك ان أوتيتها عن مسألة أكلت اليها، وان أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها ، واذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وائت الذى هو خير .

أخرجه البخارى (اللؤلؤ والمرجان ج ٢ ص ١٩٨)

قال فى نيــل الأوطار : « فائت الذى هو خير » فيه دليل على أن الحنث فى اليمين أفضل من التمادى اذا كان فى الحنث مصــلحة . ويختلف باختلاف حكم المحلوف عليه .

فان حلف على فعل واجب أو ترك حرام فيمينه طاعة ، والتمادى فيها واجب ، والحنث معصية ، وعكسه بالعكس .

وان حلف على فعل نفل فيمينه طاعة والتمادى فيها مستحب والحنث مكروه .

وان حلف على ترك منــدوب فبعكس الذى قبله ، وان حلف على فعل مباح ، فان كان يتجاذبه رجحان الفعل والترك ، كما لو حلف لايأكل طيبا ولا يلبس ناعما . ففيه عند الشافعية خلاف . وقال ابن الصباغ وصوبه المتأخرون ، ان ذلك يختلف باختلاف الأحوال .

وان كان مستوى الطرفين فالأصح أن التمادى أولى ، لأنه قال فليأت الذى هو خير . قوله : فكفر عن يمينك ثم ائت الذى هو خير : فيه دليل على أن الكفارة يجب تقديمها على الحنث .

وأتى رســول الله صلى الله عليه وسلم بنهب ابل فســأل عنا فقال : أين النفر الأشعريون ؟ فأمر لنا بخمس ذود غر الذرا . فلما انطلقنا قلنا ما صنعنا ؟ لا يبارك لنا ، فرجعنا اليه فقلنا : انا سألناك أن تحملنا فحلفت ألا تحملنا أفنسيت ؟ قال لست أناحملتكم ولكن الله حملكم،وانى والله ان شاء الله لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وتحللتها .

أخرجه البخارى (نيل الأوطار جـ ٨ ص ٢٤٨)

٢ ــ وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبى صلى الله عليــه وســلم ، يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة ، فانك ان أوتيتها عن مسألة أكلت اليها، وان أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها ، واذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وائت الذى هو خير .

أخرجه البخارى (اللؤلؤ والمرجان جـ ٢ ص ١٩٨)

قال فى نيــل الأوطار : « فائت الذى هو خير » فيه دليل على أن الحنث فى اليمين أفضل من التمادى اذا كان فى الحنث مصــلحة . ويختلف باختلاف حكم المحلوف عليه .

فان حلف على فعل واجب أو ترك حرام فيمينه طاعة ، والتمادى فيها واجب ، والحنث معصية ، وعكسه بالعكس .

وان حلف على فعل نفل فيمينه طاعة والتمادى فيها مستحب والحنث مكروه .

وان حلف على ترك منــدوب فبعكس الذى قبله ، وان حلف على فعل مباح ، فان كان يتجاذبه رجحان الفعل والترك ، كما لو حلف لا يأكل طيبا ولا يلبس ناعما . ففيه عند الشافعية خلاف . وقال ابن الصباغ وصوبه المتأخرون ، ان ذلك يختلف باختلاف الأحوال .

وان كان مستوى الطرفين فالأصح أن التمادى أولى ، لأنه قال فليأت الذى هو خير . قوله : فكفر عن يمينك ثم ائت الذى هو خير : فيه دليل على أن الكفارة يجب تقديمها على الحنث .

قال ابن المنذر :

رأى ربيعة والأوزاعى وما لك والليث وسائر فقهاء الأمصار غير أهل الرأى ، أن الكفارة تجزى قبل الحنث ، الا أن الشافعى استثنى الصيام ، فقال لا يجزىء الا بعد الحنث • وقال أصحاب الرأى لا تجزىء الكفارة قبل الحنث •

وقال القاضى عياض اتفقوا على أن الكفارة لا تجب الا بالحنث ، وانه يجوز تأخيرها بعد الحنث •

وذكر عياض وجماعة : أن عدة من قال بجواز تقديم الكفارة أربعة عشر صحابيا، وتبعهم فقهاء الأمصار الا أبا حنيفة •

وقال المازرى :

للكفارة ثلاث حالات : أحدها : قبل الحلف فلا تجزىء اتفاقا • ثانيها : الكفارة بعد الحلف والحنث فتجزىء اتفاقا • ثالثها : بعد الحلف وقبل الحنث ففيها الخلاف • والأحاديث المذكورة فى الباب تدل على وجوب الكفارة مع اتيان الذى هو خير •   أ • هـ (بنيل الأوطار جـ ٨ ص ٢٤٨)

العنصر الرابع

أيمان منهى عنها

الأدلة من السنة :

لا ينبغى أن يكون فى جنان المسلم ووجدانه من يستحق التعظيم والقداسة سوى الحق تبارك وتعالى ، ويحرم على الانسان أن يبدر منه من البوادر ما يشعر بمخالفة ذلك • ولما كان القسم مظهرا من مظاهر التعظيم للمقسم به ، فانه يحرم على الانسان اذا اضطرته الظروف وألحت عليه أن يقسم بغير الله مما يوهم تعظيمه كالأمانة والكعبة والحلف بالآباء والأجداد ، فان ذلك شديد الخطر على عقيدة الحالف وايمانه ، من حيث كونه يرفع الأشياء فوق درجتها ، ويعطيها غير ما تستحق ، ويحيطها بالقسم بهالة تشعر بالعظمة التى لا تكون الا لله ولا يشاركه فيها أحد •

وأخطر من ذلك وأدخل فى باب الخروج على الاسلام أن يحلف الانسان بملة أخرى مما يصرح بتعظيمه لها على ملة الاسلام • أو أن يتفوه الحالف صراحة بالبراءة من الاسلام • وهذا والعياذ بالله يتردد حاله بين الكفر وهزال الايمان فى قلبه وانعدام جدواه فى حياته •

ومن الناس من يستغل اليمين فى رواج سلعته وتصريف بضاعته سيما من التجار الذين لا شرف لهم ولا صدق فيهم ولا أمانة عندهم ، ليرغب فيها عملاءه ويزيد من دخله ومكسبه من طريق غيرمشروع • وما درى الفرد أن من حرص على شىء حرام عوقب بنقيض قصده فتنفق سلعته وتبور تجارته وتنعدم ثقة الناس فيه ، وكلما زاد السبب من كثرة الحلف زادت نتيجته بورا ومحقا •

على أن من منكرات البدع ومضلاتها ما استحدثه الناس فى استعمال ألفاظ الطلاق فى غير ماشرعت له ، واتخاذها أيمانا ، وايثارها فى بعض الأحيان على اليمين بالله تعالى ، مما يوهم بأنها تمنح من الثقة أكبر مما يمنحه القسم بالله • وهذا خطر عظيم يجب على الناس أن ينفروا منه ويقلعوا عنه •

(أ) الحلف بالأمانة والكعبة :

١ ـ عن بريدة رضى الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من حلف بالأمانة فليس منا» • حديث صحيح • رواه أبو داود باسناد صحيح •

٢ ـ وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلا يقول : لا : والكعبة : فقال ابن عمر • لا تحلف بغير الله فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك (١) : رواه الترمذى •

(رياض الصالحين ص ٦١٨)

قال فى دليل الفالحين :

فى سبب النهى عن الحلف بالأمانة نقلا عن الخطابى سببه أن اليمين لا تنعقد الا بالله تعالى أو بصفاته وليست منها الأمانة •وانما هى (الأمانة) أمر من أمر الله

---

(١) قال الترمذى ليس المراد ظاهر الحديث وانما هو محمول على التغليظ من ترك ذلك والتنفير عنه •

تعالى وتبرض من فروضه فنهوا عن الحلف بها لما يوهمه الحلف بها من مساواتها لأسماء الله وصفاته . (دليل الفالحين جـ ٨ ص ١٩٩)

(ب) الحلف بالآباء :

١ — وعن ابن عمر رضى الله عنهمـا أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وهو يحلف بأبيه فناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ألا ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفافليحلف بالله والا فليصمت) أخرجه البخارى . (اللؤلؤ والمرجان جـ ٢ ص ١٩٦) .

٢ — وعن قتيلة بنت صيفى : أن يهوديا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انكم تنددون وانكم تشركون ، تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم اذا أرادوا أن يحلفوا أن يقول : ورب الكعبة. ويقول أحدهم : ما شاء الله ثم شئت . رواه أحمد والنسائى .

قال فى نيل الأوطار .

قوله تنددون : أى تجعلون لله أندادا . وتشركون : أى تجعلون لله شركاء. وفيه النهى عن الحلف بالكعبة ، والنهى عن قول الرجل ما شاء الله وشئت. ثم أمرهم صلى الله عليه وسلم ; أن يأتوا من الحلف بما لا تنديد فيه ولا شرك فيقولون : ورب الكعبة ، ويقولون : ما شاء الله ثم شئت .

(نيل الأوطار جـ ٨ ص ٢٣٦)

٣ — وعن عبد الله بن عمر رضى اللهعنهما قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم قال عمر ، فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم نهى عنها ، ذاكرا ولا آثرا . رواه مسلم .

جاء فى شرح النووى على مسلم : قال العلمـــاء : الحكمة فى النهى عن الحلف بغير الله تعالى ، أن الحلف يقتضى تعظيم المحلوف به ، وحقيقة العظمة مختصـــة بالله تعالى ، فلا يضاهى به غيره . وقد جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : لأن أحلف بالله مائة مرة فآثم : أى أحنث خير من أن أحلف بغيره فأبر فان قيـــل : الحديث مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم :أفلح وأبيه ان صدق فجوابه:أن هذه كلمة تجرى على اللسان لا يقصد بها اليمين ، فان قيـــل فقـــد أقسم الله تعالى بمخلوقاته ، كقوله تعالى : والصافات . والذاريات الخ . فالجواب : أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وتنبيها على شرفها وقدرته . ومعنى (ما حلفت بهـــا ذاكرا ولا آثرا) معنى ذاكرا . قائلا لهـــا من قبل نفسى ، ولا آثرا . أى حالفـــا عن غيرى .

وفى هذا الحديث اباحة الحلف بالله تعالى وصفاته كلها وهذا مجمع عليه ، وفيه النهى عن الحلف بغير أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته .

(شرح النووى على مسلم جـ ١١ ص ١٠٥ ، ١٠٦)

(حـ) الخروج عن الاسلام :

١ ــ عن ثابت بن الضحاك رضى الله تعالى عنه . عن النبى صلى الله عليـــه وسلم قال : « من حلف بغير ملة الاسلام فهو كما قال ، ومن قتل نفســـه بشيىء عذب به فى نار جهنم . ولعن المؤمن كقتله ، ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله » . رواه البخارى وغيره .

٢ ــ وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يحلف : لا والكعبة ــ فقال : ســـمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حلف بغير الله فقد أشرك . (رواه أبو داود والترمذى وأحمد) . (التاج الجامع للأصول جـ ٣ ص ٧٨)

روى ابن مهدى بسنده عن سعيد بن المسيب أنه جاءه رجل فقال : انى حلفت بيمين . فقال : وما : هى ؟ قال قلت . الله لا اله الا هو ؟ قال لا . قال فقلت : على نذر ؟ قال لا . قال فقلت . كفرت بالله ؟ قال نعم . قال فقل . آمنت بالله فانهـــا كفارة لما قلت .

جاء فى شرح النووى على مسلم : قال العلمــاء : الحكمة فى النهى عن الحلف بغير الله تعالى ، أن الحلف يقتضى تعظيم المحلوف به ، وحقيقة العظمة مختصــة بالله تعالى ، فلا يضاهى به غيره • وقد جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : لأن أحلف بالله مائة مرة فآثم : أى أحنث خير من أن أحلف بغيره فأبر فان قيــل : الحديث مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم :أفلح وأبيه ان صدق فجوابه:أن هذه كلمة تجرى على اللسان لا يقصد بها اليمين ، فان قيــل فقــد أقسم الله تعالى بمخلوقاته ، كقوله تعالى : والصافات • والذاريات الخ • فالجواب : أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وتنبيها على شرفها وقدرته • ومعنى (ما حلفت بهــا ذاكرا ولا آثرا) معنى ذاكرا • قائلا لهــا من قبل نفسى ، ولا آثرا • أى حالفــا عن غيرى •

وفى هذا الحديث اباحة الحلف بالله تعالى وصفاته كلها وهذا مجمع عليه ، وفيه النهى عن الحلف بغير أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته •

(شرح النووى على مسلم جـ ١١ ص ١٠٥ ، ١٠٦)

(حـ) الخروج عن الاسلام :

١ ــ عن ثابت بن الضحاك رضى الله تعالى عنه • عن النبى صلى الله عليــه وسلم قال : « من حلف بغير ملة الاسلام فهو كما قال ، ومن قتل نفســه بشيىء عذب به فى نار جهنم • ولعن المؤمن كقتله ، ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله » • رواه البخارى وغيره •

٢ ــ وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يحلف : لا والكعبة ــ فقال : ســمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حلف بغير الله فقد أشرك • (رواه أبو داود والترمذى وأحمد) • (التاج الجامع للأصول جـ ٣ ص ٧٨)

روى ابن مهدى بسنده عن سعيد بن المسيب أنه جاءه رجل فقال : انى حلفت بيمين • فقال : وما : هى ؟ قال قلت • الله لا اله الا هو ؟ قال لا• قال فقلت : على نذر ؟ قال لا • قال فقلت • كفرت بالله ؟ قال نعم • قال فقل • آمنت بالله فانهــا كفارة لما قلت •

فهذه الرواية تدل على أن اليمين عنده • من بين هذه الصيغ الثلاثة هى الحلف بالله تعالى • وذلك لأن السائل حين أبى أن يخبره بصيغة اليمين التى أقسم بها ، كان أول ما تبادر الى ذهن الامام أنه حلف بالله تعالى ، الأمر الذى يدل على أن ذلك هو اليمين عنده ، فلما أجابه السائل بالنفى قال : فقلت على نذر ؟ والنذر عند الامام اذا خرج مخرج اليمين لا يأخذ حكم اليمين كما سيأتى فى موضعه •

أما الصيغة الثالثة فواضح من الرواية أنها ليست بيمين ، ولا تأخذ حكمه •

وقد أجمع العلماء على أن الحلف بالله تعالى ، أو بأى اسم من أسمائه التى لا يسمى بها غيره ، كالرحمن ، أو مالك يوم الدين ، ونحوها ، أو بأى صفة من الصفات التى لا يتصف بها غيره ، كعزة الله تعالى • وعظمته وجلاله ، أجمعوا على أن كل ذلك يعتبر يمينا من حنث فيه وجبت عليه الكفارة •

وقد اختلفوا فيما اذا قال : هو كافر بالله ان فعل كذا ، أو هو يهودى أو نصرانى ، أو برىء من الاسلام ، أو نحو ذلك • هل يعتبر هذا يمينا تجب فيه الكفارة عند الحنث أم لا ؟ •

وقد سبق أن مذهب الامام هو عدم اعتبارها يمينا ، ولا تأخذ حكمها عند الحنث• وروى ذلك عن المسور بن مخرمة ، والليث ، وأبى ثور ، وأبى عبيد ، واليه ذهب مالك ، والشافعى ، وأحمد فى رواية ، والحجة لهم •

قوله عليه السلام : من حلف فقال • انى برىء من الاسلام • فان كان كاذبا فهو كما قال ، وان كان صادقا فلن يرجع الى الاسلام سالما •

رواه البخارى مختصرا ، والنسائى وأبو داود واللفظ له •

وجه الدلالة : أن الرسول عليه السلام لم يجعل على قائل هذا القول كفارة عند الحنث ، وانما جعل عقوبته فى دينه ، وليس فى ماله •

وأيضا فان ايجاب الكفارة انما يكون من قبل الشارع ، ولم يرد عنه •

أن مثل هذا القول يعتبر يمينا يجب تكفيرها عند الحنث بها • وخالف ذلك جماعة من الفقهاء فذهبوا الى أن فى ذلك كفارة عند الحنث • روى ذلك عن زيد بن ثابت ، وعطاء ، وطاوس ، والحسن ، والشعبى ، والثورى ، والأوزاعى ، واسحاق ، واليه ذهب أبو حنيفة وهو رواية عن أحمد • واحتج ابن قدامة لهذا المذهب بما روى عن زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الرجل يقول : هو يهودى أو نصرانى ، أو مجوسى أو برىء من الاسلام يحلف بها فيحنث فى هذه الأشياء فقال · عليه كفارة يمين •

وقد أخرج البيهقى هذا الحديث وقال لا أصل له (فقه الامام سعيد بن المسيب ج ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٢)

(د) الحلف على البيع :

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب » (متفق عليه) •

٢ — وعن قتادة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اياكم وكثرة الحلف فى البيع فانه ينفق ثم يمحق » • (رواه مسلم) •

قال فى دليل الفالحين : فى المصباح المنير : محقه محقا • نقصه وأذهب منه البركة• والبركة : الزيادة والنماء •

« واياكم وكثرة الحلف فى البيع » لترويج السلعة ولايثار الرغبة : فانه ينفق • أى يكون سببا لنفاق البيع وأخذه بالزيادة لأجل الحلف والحاصل : أن ذا التجارة عليه ترك الحلف • فان ما يحلف عليه ان كان صادقا فيه ، ففيه جعل اسم الله تعالى آلة لنفاق متاعه وأخذه عرض الدنيا به ، وان كان كاذبا فقد ضم لذلك الكذب ، وكل مماذكر يقتضى محق البركة وزوالها • أ هـ (دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ج ٨ ص ٢٠٨)

وأيضا فان ايجاب الكفارة انما يكون من قبل الشارع ، ولم يرد عنه •

أن مثل هذا القول يعتبر يمينا يجب تكفيرها عند الحنث بها • وخالف ذلك جماعة من الفقهاء فذهبوا الى أن فى ذلك كفارة عند الحنث • روى ذلك عن زيد بن ثابت ، وعطاء ، وطاوس ، والحسن ، والشعبى ، والثورى ، والأوزاعى ، واسحاق ، واليه ذهب أبو حنيفة وهو رواية عن أحمد • واحتج ابن قدامة لهذا المذهب بما روى عن زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الرجل يقول : هو يهودى أو نصرانى ، أو مجوسى أو برىء من الاسلام يحلف بها فيحنث فى هذه الأشياء فقال · عليه كفارة يمين •

وقد أخرج البيهقى هذا الحديث وقال لا أصل له (فقه الامام سعيد بن المسيب ج ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٢)

(د) الحلف على البيع :

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب » (متفق عليه) •

٢ — وعن قتادة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اياكم وكثرة الحلف فى البيع فانه ينفق ثم يمحق » • (رواه مسلم) •

قال فى دليل الفالحين : فىالمصباح المنير : محقه محقا • نقصه وأذهب منه البركة• والبركة : الزيادة والنماء •

« واياكم وكثرة الحلف فى البيع » لترويج السلعة ولايثار الرغبة : فانه ينفق • أى يكون سببا لنفاق البيع وأخذه بالزيادة لأجل الحلف والحاصل : أن ذا التجارة عليه ترك الحلف • فان ما يحلف عليه ان كان صادقا فيه ، ففيه جعل اسم الله تعالى آلة لنفاق متاعه وأخذه عرض الدنيا به ، وان كان كاذبا فقد ضم لذلك الكذب ، وكل مماذكر يقتضى محق البركة وزوالها • أ هـ (دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ج ٨ ص ٢٠٨)

(هـ) الحلف بالطلاق :

لم يشرع الطلاق فى الاسلام يمينا يقسم به المسلم كما يقسم بالله وصفاته ، وانما شرع الطلاق فى الاسلام علاجا لمشكلة بين الزوجين قد أزمنت واستعصت على كل الحلول ، وأصبحت حياة الزوجين معها (مع المشكلة) جحيما لا يطاق .

وقد ذكر كثير من العلماء : أن الناس لم يكونوا يحلفون بالطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا على عهد خلفائه الراشدين . لأن الحلف بالطلاق ليس يمينا مشروعة ، وليس من الأدب فى شىء .

ولأنه قد تأدب الناس اذ ذاك ، وتخلقوا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشوفوا الى التآسى به .

لذلك لم يدون عنهم شىء فى الحلف بالطلاق على أنه يمين ، وانما كان الرجل يحلف به اذا أراد الطلاق فعلا .

قال الامام ابن تيمية : لم ينقل شىء عن الصحابة فى الحلف بالطلاق فيما بلغنا بعد كثرة البحث ، وتتبع كتب الأقدمين والمتأخرين . ومن المرجح جدا أن يكون قد حدث الحلف بالطلاق فى عهد الحجاج بن يوسف ، لأنه كان لا يرضى بمبايعة أحد للأمويين الا اذا حلف بالطلاق .

وقد قال مؤلف كتاب (نظام الطلاق فى الاسلام) الملوك والأمراء لم يكتفوا فى أمر البيعة باليمين بالله تعالى . فصاروا يأخذون العهود على الرعية بأيمان هى فى زعمهم مغلظة ، كالنذر بالحج سيرا على الأقدام ، وطلاق كل امرأة فى العصمة، اذاحنث الحالف فيما أقسم عليه ، ونحو ذلك وزادوا غلوا فصاروا يحلفون الرعية أيضا بطلاق كل امرأة يتزوجها الحالف فى المستقبل .

رسالة مشكلة الحلف بالطلاق للشيخ حسين سيد أحمد المفتى مفتى جمهورية السودان صفحة ١٤ ، ١٥ بتصرف واختصار .

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



نشرات التوعية الدينية

العدد ١٧١ السنة الثامنة

غرة شوال سنة ١٣٩٦ هـ ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٧٦ م

الأيمان وموقف الاسلام منها (ب)

١ ـ مقدمة :

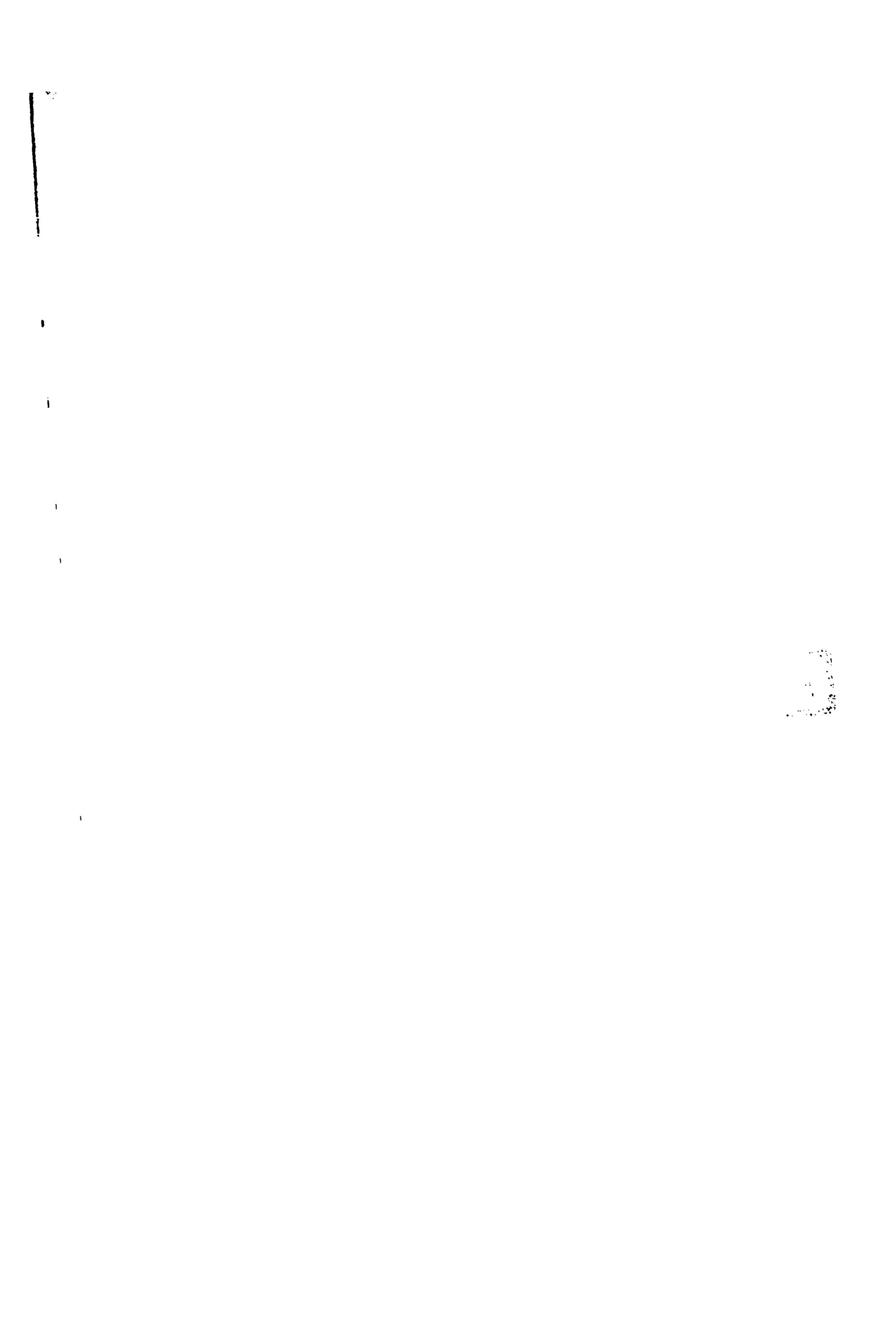
العنـــاصر :

٢ ـ العنصر الأول : يمين اللغو

٣ ـ العنصر الثانى : اليمين الغموس

٤ ـ العنصر الثالث : اليمين المنعقدة

٥ ـ العنصر الرابع : كفارة اليمين



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد . . .

إن الاسلام فى قيادته للبشر دين لا يرقى إليه ولا يطاوله مذهب آخر فى واقعيته ومنهجيته ، ومرونته وسماحته ، واتساقه مع فطرة الناس وارتقائه بها .

ثم هو فى الوقت ذاته وهو بصدد تحديد حجم المسئولية ونوعية الجزاء يربط ذلك بقصد الانسان ، ووجود عزيمته ، وانعقاد نيته ، وهذا ما نجده جلياً وبيناً فى موضوع الأيمان ، حيث أعفانا الله عز وجل من مسئوليتنا عن كل ما يصدر منها مما لم يتصل بالعزيمة والقصد والنية . ولم يعبأ بما أتى منها على ألسنتنا وشفاهنا مبتوتا عن القلب مما يجرى مجرى الألفاظ العادية والكلمات التى شاعت على الأفواه بحكم الألف والعادة مما لم يقصد به قسم ولا يمين ، وإنما جاء عفواً ولغواً .

وإعفاء الحق تبارك وتعالى عن ذلك ، وعدم مؤاخذتنا به ، يعتبر من رحمة الله بخلقه ، ولطفه بعباده ، وتخفيفه عنهم ، وحلمه بهم . الأمر الذى يمثل سمت الاسلام وطبيعته فى كل تعاليمه وشرائعه . فلا يشرع للناس إلا بالقدر الذى يطيقون ، ولا يؤاخذهم إلا بمقدار مسئوليتهم عن أعمالهم مما عقدوا عليه العزم وكان لهم فيه إرادة واختيار وكسب . وهذا ما ألمحنا اليه فى العنصر الأول .

والناس تجاه المحارم وإزاء الحقوق والواجبات أوزاع متفرقة وشيع مختلفة . فمنهم شديد الورع قوى الدين يجد من حرارة الايمان فى قلبه وحساسيته فى وجدانه ما يحبسه على الحق ويمنعه عن الظلم ويكفه عن الحرام ، ويدفعه إلى احترام الحقوق

وأداء الواجبات ، وإكبار محارم الله ومحارم الناس ، وهذا الصنف من الخلق من أحب عباد الله إلى الله وأقربهم اليه وأرضاهم له .

ومنهم ضعيف الإيمان ، بليد الحس ، يحلفون بأغلظ الأيمان وأشدها ، ويستحلون بالقسم بها كذبا حقوق الناس ويستبيحون بها بهتانا وظلما محارمهم وممتلكاتهم .

وأولئك من أشد الخلق ضعفا وأكثرهم جرما ، وأبشعهم عاقبة من حيث يغمس أحدهم نفسه مختارا ومصرا فى عديد من الجرائم المتداخلة وكثير من الكبائر المتشابكة التى تتصل أوثق اتصال بحقوق الله وحقوق نفسه ومجتمعه ، ثم هو بالتالى يغمس نفسه بعدوانه الأثيم ويمينه الفاجرة فى غضب الله ، وعاجل نقمته فى الدنيا ، ومريع عقابه وأليم عذابه يوم القيامة ، محروما من رحمة الله ونظرته ، بعيدا عن مغفرته ورضوانه . وهذا ما عرضناه فى العنصر الثانى .

إن مسئولية البشر مرتبطة بنواياهم ، وثيقة بقصدهم ، وما عقدوا عليه عزائمهم ، وكسبته قلوبهم . واليمين المنعقدة هى تلك التى لها صلة بالارادة والاختيار بعيدة كل البعد عن عفو الكلام ، ولغو الحديث ، وما ألفه الناس ، واعتادوا على نطقه من غير قصد ولا روية . ومن ثم فنحن مسئولون عنها بالوفاء بها أو ضرورة التكفير عن الحنث فيها . وبناء على هذه المسئولية المنوطة بالعقد والقصد ، فنحن مؤاخذون بها محاسبون عليها إن وفاء وبرا أو مخالفة وحنثا ثم أداء للكفارة لها أو النكول عنها والتهاون فيها . فمن وفى بيمينه أو فى الله له بعهده . وهذا ما أجملناه فى العنصر الثالث .

وإذا كان عيبا أن يخطىء الانسان فهذه فطرته . وليس عن ذلك معصوما . ولكن الواجب عليه آنئذ أن يدرك خطأه ومداه ، وأن يحاول ما استطاع أن يتحلل منه على الوجه الواجب، والصور المشروعة وأن يكون من بعد حاد الانتباه يقظ الوجدان دقيق المشاعر .

ومن فضل الله على خلقه وأنعمه عليهم ورحمته بهم — وقد خلقهم وعلم فطرتهم ونوازعهم — أن يقبل توبتهم، وأن يغفر زلتهم، وأن يقيلهم من عثارهم ، وأن يمنحهم من عديد الفرص ما يتيح لهم ، بل ما يدفعهم إلى الإقبال عليه والأوبة إليه . ومن حكمة الإسلام فى تشريعه أن جعل للتحلل من بعض المآثم والذنوب صورا محددة ، وعلى أنماط خاصة وسمت معين لا تقتصر فى مداها على نفع المذنب وحده وعودته إلى ربه . وإنما تمتد فى مداها حتى تغطى بنفعها قبيلا من الأمة هم أحوج ما يكونون إليه . وكأن العودة إلى الله فى مثل هذه الخطايا ينبغى أن يقام عليها الدليل ماديا وملموسا ، يبرهن على صدق التوبة ، وتمام الأوبة . ثم كأن العودة إلى الله بعد وجود مخالفة فى حقه أو حق المجتمع لا تتم إلا بتأكيد الصلة بالله والمجتمع ، بعد تخلخل عراها مما يبرهن على أن الإسلام فى كل شئونه ليس رهبانية أو انعزالا ، وليس أساطير أو طلاسم . وإنما هو دين الحياة والمجتمع ، يسمى بهما فى واقعية وألفة ورشاد .

وكفارة اليمين صورة تعكس انطباعات عالية ومشرقة لهذه المعانى حيث تمس بعملها المزدوج الطهور نفس مخرجها ومن خرجت لهم ، وحيث تشيع بيرها جواً فيه من الجبر بقدر ما كان فيه من الخلل . وفيه من التحرير النفسى بقدر ما فيه من السلام الاجتماعى ، وفيه من البذل والعطاء بقدر ما يمكن من

سد العوز وستر العارى وإشباع الجائع والإسهام فى رفع حاجة المجتمع وتفريج كرباته . وهذا ما بيناه فى العنصر الرابع .

أجل إن الإسلام دين نزل لينهض بواقع النفس إلى مستوى الحق ونقاء الفطرة ، واستواء القصد ، لتعكف على كل ما فى الحياة من قيم الحق والخير والفضيلة ، وتكف عن كل مأثم ورذيلة ومعصية . دين ينبو بالمؤمنين عن كل لغو وظلم ومنكر ، ليربطهم بربهم وأنفسهم ومجتمعهم أوفق ما يكون الرباط وأطهر ما تكون الصلة .

إن المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية وهو يقدم هذه النشرة (ب) فى موضوع (الأيمان وموقف الإسلام منها) ليسره أن يختم بها هذا الموضوع .
نسأل الله جلت قدرته أن يكفنا عن الخطايا ، وأن يحفظنا من الزلل ، وأن يقينا شر العثار والبوار والهلكة ، وأن يتجاوز عنا ويغفر لنا وأن يأخذ بنواصينا إلى خير ما يحب ويرضى .

والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية
بوزارة الأوقاف

سد العوز وستر العارى وإشباع الجائع والإسهام فى رفع حاجة المجتمع وتفريج كرباته . وهذا ما بيناه فى العنصر الرابع .

أجل إن الإسلام دين نزل لينهض بواقع النفس إلى مستوى الحق ونقاء الفطرة ، واستواء القصد ، لتعكف على كل ما فى الحياة من قيم الحق والخير والفضيلة ، وتكف عن كل مأثم ورذيلة ومعصية . دين ينبو بالمؤمنين عن كل لغو وظلم ومنكر ، ليربطهم بربهم وأنفسهم ومجتمعهم أوثق ما يكون الرباط وأطهر ما تكون الصلة .

إن المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية وهو يقدم هذه النشرة (ب) فى موضوع (الأيمان وموقف الإسلام منها) ليسره أن يختم بها هذا الموضوع . نسأل الله جلت قدرته أن يكفنا عن الخطايا ، وأن يحفظنا من الزلل ، وأن يقينا شر العثار والبوار والهلكة ، وأن يتجاوز عنا ويغفر لنا وأن يأخذ بنواصينا إلى خير ما يحب ويرضى .

والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية

بوزارة الأوقاف

العنصر الأول

يمين اللغو

الأدلة من القرآن :

الإسلام دين اليسر والسماحة ، يستهدف فى تشريعه تربية الناس وتقويمهم والارتفاع بهم فى حدود طاقتهم وما يستطيعون ، بعيدا عن الحرج والمشقة ومالاطاقة لهم به ولا احتمال . وعلى هذا النحو مضى التشريع الإسلامى فى كل ماشرع فى شئون الحياة وأمور الناس .

ومن ثم فلا يحاسب الله البشر أو يسائلهم ولا ينيبهم أو يعاقبهم إلا على ما يدور فى فلك ذلك . ثما لا ارادة لهم فيه ولانية ولا اختيار . قد أعفى الله البشر منه ، ورفع عنهم المؤاخذة عليه . ومن قبيل ذلك ما جرى على اللسان بحكم الإلف والعادة ، عفوا دون قصد ولا نية من ألفاظ القسم وكلمات اليمين .

قال الله تعالى « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » (البقره ـ ٢٢٥)

قال المراغى فى تفسيره : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أى لا يؤاخذكم بما يقع منكم من الأيمان فى حشو الكلام دون أن تقصدوا به عقداليمين . فلايفرض عليكم فيه كفارة ولا يعاقبكم به « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » أى ولكن يؤاخذكم بالكفارة أو العقوبة بما نوت قلوبكم وقصد تم من اليمين ، حتى لاتجعلوا اسمه الكريم عرضة للابتذال أو مانعا من صالح الأعمال .

العنصر الأول

يمين اللغو

الأدلة من القرآن :

الإسلام دين اليسر والسماحة ، يستهدف فى تشريعه تربية الناس وتقويمهم والارتفاع بهم فى حدود طاقتهم وما يستطيعون ، بعيدا عن الحرج والمشقة ومالاطاقة لهم به ولا احتمال . وعلى هذا النحو مضى التشريع الإسلامى فى كل ماشرع فى شئون الحياة وأمور الناس .

ومن ثم فلا يحاسب الله البشر أو يسائلهم ولا ينيبهم أو يعاقبهم إلا على ما يدور فى فلك ذلك . فما لا ارادة لهم فيه ولا نية ولا اختيار . قد أعفى الله البشر منه ، ورفع عنهم المؤاخذة عليه . ومن قبيل ذلك ما جرى على اللسان بحكم الإلف والعادة ، عفوا دون قصد ولا نية من ألفاظ القسم وكلمات اليمين .

قال الله تعالى « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » (البقره — ٢٢٥)

قال المراغى فى تفسيره : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أى لا يؤاخذكم بما يقع منكم من الأيمان فى حشو الكلام دون أن تقصدوا به عقداليمين . فلايفرض عليكم فيه كفارة ولا يعاقبكم به « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » أى ولكن يؤاخذكم بالكفارة أو العقوبة بما نوت قلوبكم وقصد تم من اليمين ، حتى لاتجعلوا اسمه الكريم عرضة للابتذال أو مانعا من صالح الأعمال .

« والله غفور حليم » فيغفر لعباده ما ألموا به من الذنوب ، ولا يتعجلهم بالعقوبة ولا يكلفهم ما يشق عليهم مما لم تقصده قلوبهم ولا يدخل تحت سلطان الاختيار . (تفسير المراغى ج ٢ ص ١٦١)

وقال القاسمى فى تفسيره :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » : أى يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية — إذا لم تقصدوا هتك حرمته — وهى التى لا يقصدها الحالف بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا قصد إليها . كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » وهو المعنى بقوله عز وجل : « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » أى تعمدته قلوبكم ؛ فاجتمع فيه مع اللفظ النية يعنى ربط القلب به لفوات تعظيم أمره ولهتك حرمته بنقض اليمين المقصودة . روى عن عائشة أنها قالت : أنزلت هذه الآية فى قول الرجل : لا والله ، وبلى والله . أخرجه البخارى ومالك وابو داود وهذا لفظ البخارى .

وقد نقل ابن المنذر نحو هذا عن ابن عمر ، وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين ولفظ رواية ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إنما اللغو فى المزاحة والهزل ، وهو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله . فذاك لا كفارة فيه . إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله .

ويروى فى تفسير لغو اليمين : هو أن يحلف على الشىء يظنه ، ثم يظهر خلافه . ويروى أن يحلف وهو غضبان . ويروى غير ذلك كما ساقها ابن كثير مسندة .

وقد ظهر للفقير أن لا تنافى بين هذه الروايات ، لأن كل ما لا عقد للقلب معه من الأيمان فهو لغو بأى صورة كانت وحالة وقعت . فكل ما روى فى تفسير الآية فهو مما يشمله اللغو والله أعلم .

والمراد من المؤاخذة : إيجاب الكفارة كما بيّن ذلك فى آية المائدة .

« ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته ...الآية » «والله غفور »
يعنى لعباده فيما لغوا من أيمانهم فلم يؤاخذهم به « حليم » يعنى فى ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة تربصا بالتوبة . والجملة تذييل للحكمين السابقين ، فائدته الامتنان على المؤمنين وشمول مغفرته وإحسانه لهم .

(تفسير القاسمى ج ٢ ص ٥٧٧ ، ٥٧٨)

وقال القرطبي فى تفسيره : اختلف العلماء فى اليمين التى هى لغو فقال ابن عباس : هو قول الرجل فى درج «وسط» كلامه واستعجاله فى المحاورة : لا والله وبلى والله دون قصد لليمين .

قال المروزى :

لغو اليمين التى اتفق العلماء على أنها لغو هو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله فى حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريدها .

وروى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أن عروة حدثه أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت . أيمان اللغو ما كانت فى المراء والهزل والمزاحة والحديث الذى لا ينعقد عليه القلب .

وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : نزل قول الله تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » فى قول الرجل . لا والله وبلى والله . وقيل : اللغو ما يحلف به على الظن فيكون بخلافه . قاله مالك حكاه ابن القاسم عنه ، وقال به جماعة من السلف . قال أبو هريرة : إذا حلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه إياه فإذا ليس هو فهو اللغو ؛ وليس فيه كفارة . ونحوه عن ابن عباس

وروى أن قوما تراجعوا القول عنده رسول الله ﷺ وهم يرمون بحضرته فحلف أحدهم . لقد أصبتُ وأخطأتَ يافلان . فإذا الأمر بخلاف ذلك . فقال الرجل : حنث يارسول الله . فقال النبي ﷺ : «أيمان الرماة لغو لا حنث فيها ولا كفارة » وفى الموطأ قال مالك : أحسن ما سمعت فى هذا : أن اللغو حلف الإنسان على الشىء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه . والذى يحلف على الشىء ويعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا ، أو يعتذر لمخلوق ، أو يقتطع به مالا ، فهذا أعظم من أن يكون فيه كفارة .

وإنما الكفارة على من حلف ألا يفعل الشىء المباح له فعله ثم يفعله أو يحلف على أن يفعله ثم لا يفعله .

وروى عن ابن عباس (إن صح عنه) قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان وقاله طاوس . وروى ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لا يمين فى غضب » أخرجه مسلم .

وقال سعيد بن جبير : اليمين اللغو هو تحريم الحلال كأن يقول :

مالى على حرام إن فعلت كذا . والحلال على حرام . قاله مكحول الدمشقى ومالك أيضا ، إلا فى الزوجة فإنه يلزمه فيها بالتحريم .

وقيل اللغو هو يمين المعصية . قاله سعيد بن المسيب وعروة وعبدالله إبنا الزبير .

كالذى يقسم ليشرب الخمر ، أو ليقطعن الرحم ؛ فبره ترك ذلك الفعل ولا كفارة عليه :

وقال زيد بن أسلم : لغو اليمين دعاء الرجل على نفسه ، مثل أن يقول أعمى الله بصره ، أذهب الله ماله إن فعل كذا. وعن مجاهد: اليمين اللغو هما الرجلان يتبايعان فيقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا . ويقول الآخر : والله لا أشترى بكذا .

وعن النخعى: اليمين اللغو هو الرجل يحلف ألا يفعل الشىء ثم ينسى فيفعله . وحكى ابن عبد البر أن اليمين اللغو هى يمين المكره . وقال ابن العربى : أما اليمين مع النسيان فلا شك فى إلغائها ، لأنها جاءت على خلاف قصده فهى لغو محض.

قال ابن العربى : وأما من قال إنه يمين المعصية فباطل لأن الحالف على ترك المعصية تنعقد يمينه عبادة ، والحالف على فعل المعصية تنعقد يمينه معصية . ويقال له : لا تفعل وكفر . فإن أقدم على الفعل أثم فى إقدامه وبر فى قسمه . وأما من قال إنه دعاء الإنسان على نفسه إن لم يكن كذا فينزل به كذا فهو قول لغو فى طريق الكفارة ولكنه منعقد فى القصد مكروه وربما يؤاخذ به ، لأن النبى ﷺ قال : لا يدعون أحدكم على نفسه فربما صادف ساعة لا يسأل الله أحد فيها شيئا إلا أعطاه إياه . وأما من قال إنه يمين الغضب ، فإنه يرده حلف النبى ﷺ غاضبا ألا يحمل الأشعريين وحملهم وكفر عن يمينه . وأما من قال : إن اليمين اللغو : هى اليمين المكفرة فلا متعلق له يحكى. وضعفه ابن عطية أيضا وقال قد رفع الله المؤاخذة بالإطلاق فى اللغو . فحقيقتها لا إثم فيه ولا كفارة . والمؤاخذة فى الأيمان هى بعقوبة الآخرة فى اليمين الغموس المصبورة[1] وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة وبعقوبة الدنيا فى إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة لأن المؤاخذة قد وقعت فيها . وتخصيص المؤاخذة بأنها فى الآخرة فقط تحكم .

(تفسير القرطبى ج ٣ ص ٩٩ ـ ١٠١ بتصرف)

(١) المصبورة : الكاذبة التى تلزم صاحبها .

وقال فى تفسير المنار :

اللغو أن يقع الكلام حشوا غير مقصود به معناه من هذه الألفاظ التى تسبق إلى اللسان عادة ، ولا يقصد بها عقد اليمين لغو من القول لا تعد أيمانا حقيقيه . فلا يؤاخذكم الله بها . بفرض الكفارة عليها ولا بالعقاب .

(المنار جـ٢ ص ٣٦٧)

الآثار :

شاعت فى الناس قديما وحديثا ألفاظ اليمين وكلمات القسم يلقيها البعض ويتفوهون بها عفوا دون نية لها ولا عزم عليها . ولو أخذ الناس بها لكان فى هذا من الحرج والمشقة ما لا يطيقون . فكان من فضل الله تعالى أن رفع عنهم هذا الحرج وأعفاهم من تلك المشقة .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : أنزلت هذه الآية « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » فى قول الرجل : لا والله وبلى والله . (أخرجه البخارى)

قال الشوكانى فى نيل الاوطار : قال الراغب الاصفهانى : اللغو فى الاصل ما لا يعتد به من الكلام . والمراد به فى الأيمان ما يورد عن غير روية فيجرى مجرى اللغو وهو صوت العصافير .

قال فى الفتح : ونقل ابن المنذر وغيره عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما من الصحابة ، وعن القاسم وعطاء والشعبى وطاوس والحسن نحو ما دل عليه حديث عائشة عن أبى قلابة : لا والله ، وبلى والله لغة من لغات العرب لا يراد بها اليمين ، وهى من صلة الكلام .

والحاصل أن القرآن الكريم قد دل على عدم المؤاخذة فى يمين اللغو وذلك يعم الإثم والكفارة فلا يجب أيهما والمتوجه الرجوع فى معرفة اللغو إلى اللغة العربية.

وأهل عصره ﷺ أعرف الناس بمعانى كتاب الله تعالى لأنهم مع كونهم من أهل اللغة : قد كانوا من أهل الشرع ، ومن المشاهدين للرسول ﷺ ، والحاضرين فى أيام النزول ، فإذا صح عن أحدهم تفسير فى هذا الصدد . لم يعارضه ما يرجح عليه أو يساويه ، ووجب الرجوع إليه .

(نيل الاوطار جـ ٨ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥)

وقال ابن حزم :

واللغو اليمين لا كفارة فيه ولا إثم وهو وجهان :

أحدهما : ما حلف عليه المرء وهو لا يشك أنه كما حلف عليه ثم تبين له أنه بخلاف ذلك ، وهو قول أبى حنيفة ومالك .

والثانى : ماجرى به لسان المرء فى خلال كلامه بغير نية ، فيقول فى أثناء كلامه : لا والله وبلى والله وأى والله وهو قول الشافعى .

وصح من طريق معمر عن الزهرى عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : ربما قال ابن عمر لبعض بنيه : لقد حفظت عليك فى هذا المجلس أحد عشر يمينا ولا يأمره بكفارة .

وعن عائشة : هو كلام الرجل فى بيته كلا والله : وبلى والله .

وقد صح أن عمر حلف بحضرة النبى ﷺ : أن ابن صياد هو الدجال فلم يأمره عليه السلام بكفارة (المحلى لا بن حزم جـ ٨ ص ٣٤ ، ٣٥ باختصار)

العنصر الثانى

اليمين الغموس

الأدلة من القرآن :

من الناس من يؤثر أولاه على آخرته ، ويشترى دنياه بدينه ، نهما فى معاملاته ، مكبا على مطامعه ، لا يتورع عن مأثم ، ولا يحترم حقا ، ولا يقدس واجبا . يستبيح ممتلكات الناس ، ويعتدى عليها ولا يستحى أن يحلف بأغلظ الأيمان كذبا ليستحلها ظلما وعدوانا ، الأمر الذى لا يلجأ إليه إلا امرؤ لا خلاق له ، بعيد كل البعد عن رحمة الله ورضوانه ، قريب كل القرب من عقابه وعذابه ، جزاء وفاقا على ما اقترف من ظلم ، وما أصر عليه من زور وكذب .

قال تعالى :

« إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » (سورة آل عمران آية ٧٧)

قال القرطبى فى تفسيره : روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدمته إلى النبى ﷺ . فقال لى رسول الله ﷺ : هل لك بينة ؟ قلت لا . فقال لليهودى إحلف . قلت إذا يحلف فيذهب بمالى . فأنزل الله تعالى « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ... الخ » .

وروى الأئمة أيضا عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة . فقال رجل وإن كان شيئا يسيرا يارسول الله . قال : وإن كان قضيبا من أراك » .

وقد روى الأئمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر . ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بينكم على نحو ما أسمع منكم . فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة » . اه

(تفسير القرطبي ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٠)

وقال القاسمي في تفسيره :

« إن الذين يشترون » أى يستبدلون « بعهد الله » أى بما أخذهم عليه فى كتابه : أو بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم . « وأيمانهم » أى التى عقدوها بالتزام متابعة الحق على ألسنة الرسل . « ثمنا قليلا » من الدنيا الزائلة الحقيرة التى لا نسبة لجميعها إلى أدنى ما فوتوه « أولئك لا خلاق لهم » أى لا نصيب ثواب لهم فى الآخرة « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة » وذلك لحجبهم عن مقامات قربه كما قال تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) « ولا يزكيهم » أى ولا يثنى عليهم كما يثنى على أوليائه . أولا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة . « لهم عذاب أليم » أى بالنار .

واعلم أن فى هذه الآية مسائل :

الأولى : قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن من نقض عهد الله لغرض دنيوى ، أو حلف كاذبا فإنه قد ارتكب كبيرة .

وقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه غضبان : قال عبد الله . ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقا من كتاب الله عز وجل « إن الذين

يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ... الآية» وفى رواية قال : «من حلف على يمين صبر[1] ليقتطع بها مال امرئ مسلم : لقى الله وهو عليه غضبان » وروى البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى أن رجلا أقام سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » . . إلى آخر الآية .

(تفسير القاسمى ج ٤ ص ٨٧٠ — ٨٧١)

وقال فى تفسير المنار :

الأيمان جمع يمين وهو فى الأصل اسم لليد التى تقابل الشمال ثم سمى الحلف والقسم يمينا لأن الحالف فى العهد كان يضع يمينه فى يمين من يعاهده عند الحلف لتأكيد العهد وتوثيقه حتى إن اللفظ يطلق على العهد نفسه . وقد أضاف العهد هنا إلى الله ، لأنه تعالى عهد إلى الناس فى كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، كما عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ويتقوه فى جميع الأمور فعهد الله يشمل كل ذلك .

ولما كان الناكث للعهد لا ينكث إلا لمنفعة يجعلها بدلا منه عبر عن ذلك بالشراء الذى هو معاوضة ومبادلة ، وسمى العوض ثمنا قليلا مع العلم بأن بعض الناس لا ينكثون العهد فى الأمور الكبيرة إلا إذا أخذ عليه أجرا كبيرا ، وثمنا كبيرا ، لأجل أن يبين للناس أن كل ما يؤخذ بدلا من عهد الله فهو قليل لاسيما إذا أكد باليمين . لأن العهود إذا خزيت[2] اختل أمر الدين ، إذ الوفاء آية الدين البينة بل محوره الذى عليه مداره .

---

(١) يمين صبر أى كاذبة تلزم صاحبها .

(٢) خزيت استهين بها ولم تحترم .

وفسدت مصالح الدنيا إذ تبطل ثقة الناس بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات ، وسلك النظام ، وأساس العمران .

لأجل هذا كان الوعيد على نكث العهد أشد ما أطلق به الكتاب وأغلظه. وأى عقاب أشد من عقاب من لا خلاق له فى الآخرة ، أى لا نصيب له من النعيم فيها ، ولا يكلمه الله كلام إعتاب ، ولا ينظر إليه . نظر عطف ورحمة ولا يزكيه بالثناء على عمل له صالح ، أو لا يطهره من ذنوبه بالعفو والمغفرة وله عذاب أليم .

لم يكتف تعالى بحرمان ناقضى العهد بالثمن من النعيم ، وبما أعد لهم من العذاب الأليم ، حتى بين مع ذلك أنهم يكونون فى دركة من الغضب الإلهى لا ترجى لهم فيها رحمة . ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة . فقدم النظر والكلام كناية عن عدم الاعتداد ، ومنتهى الغضب الذى لا رجاء معه ولا أمل .

إن الزنا وشرب الخمر والميسر والربا وعقوق الوالدين من الكبائر ، ولكن الله تعالى لم يتوعد مرتكبى هذه الموبقات بمثل ما توعد به ناكثى العهود وخائنى الأمانات ، لأن مفاسد النكث والخيانة أعظم من جميع المفاسد التى حرمت لأجلها تلك الجرائم ، فما بال كثير من الناس يدعون التدين ، ويتسمون بسمة الإسلام وهم لا يبالون بالعهد ، ولا يحفظون الأيمان ، ويرون ذلك صغيراً من حيث يكبرون أمر المعاصى التى لم يتعودوها لأنهم لم يتعودوها .

الإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة والنكث فى نفس . وقد عد تعالى أخص وصف لزعماء الكفر يبيح قتالهم كونهم لا وفاء لهم بالعهود . إذ قال تعالى : (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) .

وقال الرسول ﷺ : « آية المنافق ثلاث » . وفى رواية لمسلم : وإن صام وصلى

وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا إئتمن خان . »
رواه الشيخان وغيرهما ، وفى رواية لهما : « وإذا عاهد غدر » . وروى أحمد
والبزار والطبرانى فى الأوسط عن أنس رضى الله عنه قال : « ماخطبنا رسول الله
ﷺ إلا وقال : لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له »

(المنار جـ ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٤)

الأدلة من السنة :

من الذنوب ماعظم جرمه ، واشتد خطره ، واستشرى ضرره وفساده
فى حياة الفرد والجماعة . وهذا فى عرف الإسلام يسمى كبيرة .

ومن هذه الكبائر اليمين الفاجرة التى يقتطع بها صاحبها حق الغير دون مبرر .
هذه اليمين الكاذبة من شأنها أن تغضب الحق تبارك وتعالى على الحالف ، وأن
تغمسة فى نار جهنم التى وجبت له .

١ — عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من حلف
على مال امرىء مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه غضبان» . قال : ثم قرأ علينا
رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل : « إن الذين يشترون بعهد
الله وأيمانهم ثمنا قليلا . . إلى آخر الآية » متفق عليه .

(دليل الفالحين جـ ٨ ص ٢٠٠)

٢ — وعن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه : أن رسول الله
ﷺ قال : «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم

عليه الجنة[1]، فقال رجل : وإن كان شيئا يسيراً يارسول الله ؟ قال : وإن كان قضيبا من أراك» رواه مسلم .

٣ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » رواه البخارى .

٤ — وفى رواية له : أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ما الكبائر ؟ قال : « الإشراك بالله . قال . ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس . قلت وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع بها مال امرىء مسلم « يعنى بيمين هو فيها كاذب » (رياض الصالحين ص ٦٢٠)

الآثار :

ليس هناك فى حياة الناس ماهو أبشع من الظلم ، وليس أشنع من اليمين الكاذبة وسيلة لتبرير هذا الظلم ، وتسويغاً للعدوان على حقوق الناس وأموالهم يقتطعونها بغير حق ، ويعتدون على حرماتهم وأعراضهم دون مبرر . هذه اليمين الكاذبة فضلا عن أنها تغمس صاحبها فى النار يوم القيامة ، فإنها تعجل له أيضاً بالعقوبة فى الدنيا بحيث يصبح بين الناس أمثولة لهم ، وعظة وعبرة تنذر أمثاله بأن الظلم مرتعه وخيم .

---

(١) أى إذا كان مستحلا لها .

عليه الجنة[1]، فقال رجل : وإن كان شيئا يسيراً يارسول الله ؟ قال : وإن كان قضيبا من أراك» رواه مسلم .

٣ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » رواه البخارى .

٤ — وفى رواية له : أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ما الكبائر ؟ قال : « الإشراك بالله . قال . ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس . قلت وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع بها مال امرىء مسلم « يعنى بيمين هو فيها كاذب » (رياض الصالحين ص ٦٢٠)

الآثار :

ليس هناك فى حياة الناس ماهو أبشع من الظلم ، وليس أشنع من اليمين الكاذبة وسيلة لتبرير هذا الظلم ، وتسويغاً للعدوان على حقوق الناس وأموالهم يقتطعونها بغير حق ، ويعتدون على حرماتهم وأعراضهم دون مبرر . هذه اليمين الكاذبة فضلا عن أنها تغمس صاحبها فى النار يوم القيامة ، فإنها تعجل له أيضاً بالعقوبة فى الدنيا بحيث يصبح بين الناس أمثولة لهم ، وعظة وعبرة تنذر أمثاله بأن الظلم مرتعه وخيم .

---

(١) أى إذا كان مستحلا لها .

يروى أن جعفر بن محمد الصادق ادعى عليه مدع شيئا عند القاضى فأحلفه جعفر بالله لم يزد على ذلك . فهلك ذلك الحالف لوقته .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أحلفو الظالم إذا أردتم يمينا بأنه برىء من حول الله وقوته فإنه إذا حلف بها كاذبا عوجل .

(صبح الأعشى للقلقشندى جـ١٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠)

اختلف العلماء فى اليمين الغموس هل تشرع فيها الكفارة أم لا .

ومذهب الإمام سعيد بن المسيب أن الكفارة لا تشرع فيها . نقل ذلك عنه ابن قدامة . وقال الشاشى القفال : حكى عن سعيد بن المسيب أنه قال : هى من الكبائر لا يكفرها (أى اليمين الغموس) إلا التوبة . وبذلك قال جمهور العلماء .

وروى عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأوزاعى والثورى والليث وأبى عبيد وأبى ثور وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد فى أظهر الروايتين عنه . وحجتهم كما هو واضح من الأثر السابق المروى عن الإمام ، أن اليمين الغموس من الكبائر ، فلا تشرع فيها الكفارة لأنها لا ترفع إثمها . والدليل على كونها من الكبائر : قوله عليه السلام : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » .

ويعضده ماروى عنه أنه قال : « كنا نعد من الذنب الذى لا كفارة له اليمين الغموس » : الحديث رواه البيهقى .

ويعضده أيضا ماروى عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ليس لها كفارة يمين صبر يقتطع بها مالا بغير حق » رواه ابن الجوزى على ماذكر ابن حجر .

يروى أن جعفر بن محمد الصادق ادعى عليه مدع شيئا عند القاضي فأحلفه جعفر بالله لم يزد على ذلك . فهلك ذلك الحالف لوقته .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أحلفوا الظالم إذا أردتم يمينا بأنه برىء من حول الله وقوته فإنه إذا حلف بها كاذبا عوجل .

(صبح الأعشى للقلقشندى ج١٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠)

اختلف العلماء فى اليمين الغموس هل تشرع فيها الكفارة أم لا .

ومذهب الإمام سعيد بن المسيب أن الكفارة لا تشرع فيها . نقل ذلك عنه ابن قدامة . وقال الشاشى القفال : حكى عن سعيد بن المسيب أنه قال : هى من الكبائر لا يكفرها (أى اليمين الغموس) إلا التوبة . وبذلك قال جمهور العلماء .

وروى عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأوزاعى والثورى والليث وأبى عبيد وأبى ثور وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد فى أظهر الروايتين عنه . وحجتهم كما هو واضح من الأثر السابق المروى عن الإمام ، أن اليمين الغموس من الكبائر ، فلا تشرع فيها الكفارة لأنها لا ترفع إثمها . والدليل على كونها من الكبائر : قوله عليه السلام : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » .

ويعضده ماروى عنه أنه قال : « كنا نعد من الذنب الذى لا كفارة له اليمين الغموس» : الحديث رواه البيهقى .

ويعضده أيضا ماروى عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «ليس لها كفارة يمين صبر يقتطع بها مالا بغير حق» رواه ابن الجوزى على ماذكر ابن حجر .

وذكر أن السند ظاهره الصحة لكنه معلول لأن فيه عنعنة بَقيَّه . يعنى أن فى إسناده بقية بن الوليد وهو وإن كان ثقة إلا أنه مدلس وقد عنعن . وخالف ذلك جماعة من الفقهاء . فذهبوا إلى وجوب الكفارة فيها . روى ذلك عن عطاء والزهرى والحكم وعثمان البتى وإليه ذهب الشافعى وهو رواية عن أحمد .

وحجتهم :

١ — قوله تعالى : (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) . قالوا : فهو يعم الحلف على شىء مضى ، أو يأتى فى المستقبل ، وتعلق الإثم به لا يمنع من وجوب الكفارة به ؛ كالظهار ، فإنه منكر من القول وزور ، ومع ذلك تجب فيه الكفارة .

٢ — وماروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليأت الذى هو خير ، وليكفر عن يمينه » رواه مسلم ، وعند البخارى نحوه عن عبد الرحمن بن سمرة .

وجه الدلالة :

أن صاحب اليمين الغموس قد حلف حانثا ، والرسول عليه السلام قد شرع الكفارة لمن تعمد الحنث بيمينه ، فكذلك تشرع لمن حلف حانثا ، بجامع أن كلا منهما متعمد للحنث .

وأجيب : بأن الشارع إنما شرع الكفارة فى يمين منعقدة يمكن حلها بالبر بها ، فإن لم يبر بها كفر عن يمينه . واليمين الغموس غير منعقدة ، لأن

البر بها لا يتأتى أصلا ، إذ كيف يتأتى البر ممن حلف أنه قد فعل ولم يفعل أو لم يفعل وقد فعل ؟ .

وأيضا : فإن قياس الحنث المتعمد فى اليمين الغموس على تعمد الحنث فى اليمين الوارد فى الحديث ، قياس مع الفارق ، لأن الحنث الوارد فى الحديث طاعة مأمور بها ، والحنث فى اليمين الغموس معصية منهى عنها ، فكيف يقاس هذا على ذلك ؟ . (فقه الإمام سعيد بن المسيب ج ٢ ص ٢٧٢)

العنصر الثالث :

اليمين المنعقدة

الأدلة من الكتاب :

مسئولية الانسان عن أعماله وثيقة الصلة باختيارة وإرادته ونيته ، وما عقد عليه عزمه وتصميمه ، وما يصدر عن الإنسان من ألفاظ القسم واليمين لا يؤاخذ عليها المرء إلا بالقدر الذى يرتبط بعزيمته وقصده ، حينئذ يسأل عن مدى البر بها أو التكفير لها إن حنث فيها .

قال الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان . . » (سورة المائدة الآية ٨٩)

يقول الألوسى فى تفسيره :

« اللغو فى اليمين » : الساقط الذى لا يتعلق به حكم . « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » أى بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها بالقصد والنية . والمعنى : ولكن يؤاخذكم بنكث ما عقدتم ، أو ولكن يؤاخذكم بما عقدتموها إذا حنثتم ، وحذف ذلك للعلم به . والمراد بالمؤاخذة : المؤاخذة فى الدنيا : وهى الإثم والكفارة . (روح المعانى للألوسى ج ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ بتصرف)

البر بها لا يتأتى أصلا ، إذ كيف يتأتى البر ممن حلف أنه قد فعل ولم يفعل أو لم يفعل وقد فعل ؟ .

وأيضا : فإن قياس الحنث المتعمد فى اليمين الغموس على تعمد الحنث فى اليمين الوارد فى الحديث ، قياس مع الفارق ، لأن الحنث الوارد فى الحديث طاعة مأمور بها ، والحنث فى اليمين الغموس معصية منهى عنها ، فكيف يقاس هذا على ذلك ؟ . (فقه الإمام سعيد بن المسيب ج ٢ ص ٢٧٢)

العنصر الثالث :

اليمين المنعقدة

الأدلة من الكتاب :

مسئولية الانسان عن أعماله وثيقة الصلة باختيارة وإرادته ونيته ، وما عقد عليه عزمه وتصميمه ، وما يصدر عن الإنسان من ألفاظ القسم واليمين لا يؤاخذ عليها المرء إلا بالقدر الذى يرتبط بعزيمته وقصده ، حينئذ يسأل عن مدى البر بها أو التكفير لها إن حنث فيها .

قال الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان . . » (سورة المائدة الآية ٨٩)

يقول الألوسى فى تفسيره :

« اللغو فى اليمين » : الساقط الذى لا يتعلق به حكم . « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » أى بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها بالقصد والنية . والمعنى : ولكن يؤاخذكم بنكث ما عقدتم ، أو ولكن يؤاخذكم بما عقدتموها إذا حنثتم ، وحذف ذلك للعلم به . والمراد بالمؤاخذة : المؤاخذة فى الدنيا : وهى الإثم والكفارة . (روح المعانى للألوسى ج ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ بتصرف)

وقال السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار :

قوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » أى بما صممتم عليه وقصدتموه . فالمؤاخذة فى الأيمان إنما تكون فى المؤكد الموثق منها بالقصد الصحيح والنية . . وكثيرا ما سمعت العوام فى بلدنا يقولون فى الحلف : « والله بكسر الهاء وعقد اليمين » للإعلام بأنها يمين متعمدة مقصودة ، وليست لغوا يجرى اللسان بمقتضى العادة عليها وهم لا يحركون به الهاء . بل ينطقون بها ساكنة . فهذه هى اليمين التى يأثم من يحنث بها ويحتاج إلى الكفارة .

(تفسير المنار جـ ٧ ص ٣٤ ـ ٣٦ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أى لا يؤاخذكم الله بالأيمان التى تحلفونها بلا قصد . فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة فى الدنيا ولا عقوبة فى الآخرة . « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » أى ولكن يؤاخذكم بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه .

وها هنا مسائل تتعلق بالأيمان يجمل بك أن تعرفها تكملة لدينك :

١ ـ لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته . قال ﷺ : « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر .

والمحرم أن يحلف بغير الله حلفا يلتزم به ما حلف عليه والبر به فعلا أو تركا ، لأن الشارع جعل هذا خاصا بالحلف بالله وأسمائه وصفاته . أما ما يجىء لتأكيد

وقال السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار :

قوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » أى بما صممتم عليه وقصدتموه . فالمؤاخذة فى الأيمان إنما تكون فى المؤكد الموثق منها بالقصد الصحيح والنية . . وكثيرا ما سمعت العوام فى بلدنا يقولون فى الحلف : « والله بكسر الهاء وعقد اليمين » للإعلام بأنها يمين متعمدة مقصودة ، وليست لغوا يجرى اللسان بمقتضى العادة عليها وهم لا يحركون به الهاء . بل ينطقون بها ساكنة . فهذه هى اليمين التى يأثم من يحنث بها ويحتاج إلى الكفارة .

(تفسير المنار جـ ٧ ص ٣٤ ـ ٣٦ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أى لا يؤاخذكم الله بالأيمان التى تحلفونها بلا قصد . فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة فى الدنيا ولا عقوبة فى الآخرة . « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » أى ولكن يؤاخذكم بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه .

وها هنا مسائل تتعلق بالأيمان يجمل بك أن تعرفها تكملة لدينك :

١ ـ لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته . قال ﷺ : « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر .

والمحرم أن يحلف بغير الله حلفا يلتزم به ما حلف عليه والبر به فعلا أو تركا ، لأن الشارع جعل هذا خاصا بالحلف بالله وأسمائه وصفاته . أما ما يجىء لتأكيد

الكلام ويجرى على ألسنة الناس دون قصد لليمين فلا يدخل فى باب النهى نحو قوله ﷺ للأعرابى : « أفلح وأبيه إن صدق »

ويدخل فى النهى الحلف بالنبى والكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيما يليق به .

(تفسير المراغى ج ٧ ص ١٥ – ١٧ بتصرف)

ويقول القرطبى فى تفسيره :

« لا تنعقد اليمين بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته . وقال أحمد بن حنبل : إذا حلف بالنبى ﷺ انعقدت يمينه ؛ لأنه حلف بما لا يتم الإيمان إلا به ، فتلزمه الكفارة كما لو حلف بالله . وهذا يرده ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله ﷺ : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » . وهذا حصر فى عدم الحلف بكل شىء سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته كما ذكرنا . ومما يحقق ذلك ما رواه أبو داود والنسائى وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » . ثم ينتقض عليه بمن قال : وآدم وإبراهيم فإنه لا كفارة عليه . وقد حلف بما لا يتم الإيمان إلا به .

واختلفوا فى الحلف بالقرآن ، فقال ابن مسعود : عليه بكل آية يمين . وبه قال الحسن البصرى وابن المبارك . وقال أبو عبيد : يكون يمينا واحدة . وقال أبو حنيفة : لا كفارة عليه . وقال أحمد : ما أعلم شيئا يدفعه . وكان قتادة يحلف بالمصحف . وقال أحمد وإسحاق لا نكره ذلك .

ومن حلف بما يضاف إلى الله تعالى مما ليس بصفة كقوله : وخلق الله ورزقه وبيته ، لا شيء عليه لأنها أيمان غير جائزة ، وحلف بغير الله تعالى .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٦ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢ بتصرف)

ثم يتابع المراغي المسائل التي تتعلق بالأيمان فيقول في المسألة الثانية :

والحلف باعتبار المحلوف عليه أقسام :

(ا) حلف على فعل واجب أو ترك حرام . وهذا تأكيد لما كلف الله به فيحرم الحنث ويكون الأثم مضاعفا .

(ب) حلف على ترك واجب أو فعل محرم . ويجب في هذا الحنث لأن اليمين يمين معصية ، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما ، أو منع ذي حق حقه الواجب له ، والحلف على ترك المباح كالطيب من الطعام ، فإن ذلك تشريعا بتحريم ما أحل الله ، كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات .

(جـ) حلف على فعل مندوب أو ترك مكروه . وهذا طاعة يندب له الوفاء به ويكره الحنث . ومن ذلك الحلف ترك طعام معين كالطعام الذي في هذه الصحفة مثلا ، كما فعل عبد الله بن رواحة في تحريمه الطعام على نفسه ثم أكل منه لأجل الضيف .

وذكر المسألة الثالثة فقال : الأيمان ثلاثة أقسام :

(ا) ما ليس من أيمان المسلمين كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وتربتهم . وهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها . بل هي منهي عنها نهي تحريم لما تقدم من الأحاديث .

(ب) يمين بالله تعالى : كقوله : والله لأفعلن . وهذه يمين منعقدة فيها الكفارة عند الحنث .

(ﺟ) أيمان فى معنى الحلف بالله يريد بها الحالف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق كقوله : إن فعلت كذا فعلى صيام شهر ، أو الحج الى بيت الله الحرام ، أو الحلال على حرام لا أفعل كذا ، أو الطلاق يلزمنى لا أفعل كذا ، أو إن فعلته فنسائى طوالق أو عبيدى أحرار ، أو كل ما أملكه صدقة أو نحو ذلك .

والصحيح الموافق للأقوال الثابتة عن الصحابة ـ وعليه يدل الكتاب والسنة ـ أنه يجزئه كفارة يمين فى جميع ذلك . كما قال تعالى : « ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » وقال : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه »

والمسألة الرابعة :

« الايمان مبنيه على العرف والنية لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع فمن حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لا يحنث وإن سماه الله لحما طريا ، إلا إن نواه أو كان يدخل فى عموم اللحم فى عرف قومه ، كما أن من يحلف غيره يمينا على شىء فالعبرة بنية المحلف لا الحالف ، فقد روى مسلم وابن ماجه : « اليمين على نية المستحلف .

واليمين الغموس التى يهضم بها الحق أو يقصد بها الخيانة والغش ، لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لابد من التوبة وأداء الحق والاستقامة . قال تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم » .

(تفسير المراغى ﺟ ٧ ص ١٧ ـ ١٩ بتصرف)

وقال القرطبي في تفسيره :

« الأيمان في الشريعة على أربعة أقسام : قسمان فيهما الكفارة ، وقسمان لا كفارة فيهما . خرج الدارقطني في سننه . عن علقمة عن عبد الله قال : الأيمان أربعة : يمينان يكفران ، ويمينان لا يكفران فاليمينان اللذان يكفران : فالرجل الذي يحلف : والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل . والرجل يقول : والله لأفعلن كذا وكذا فلا يفعل واليمينان اللذان لا يكفران : فالرجل يحلف ما فعلت كذا وكذا وقد فعل ، والرجل يحلف لقد فعلت كذا وكذا ولم يفعله . وقد ذكر هذه الأقسام المروزى عن سفيان الثورى . ثم قال المروزى : « أما اليمينان الأولان فلا اختلاف فيهما بين العلماء على ما قال سفيان . وأما اليمينان الأخريان فقد اختلف أهل العلم فيهما ، فإن كان الحالف حلف على أنه لم يفعل كذا وكذا ، أو أنه قد فعل كذا وكذا عند نفسه صادقا يرى أنه على ما حلف عليه فلا إثم عليه ، ولا كفارة عليه في قول مالك وسفيان الثورى وأصحاب الرأى ، وكذلك قال أحمد وأبو عبيد ، وقال الشافعي : لا إثم عليه وعليه الكفارة . قال المروزى : وليس قول الشافعي في هذا بالقوى . قال : وإن كان الحالف على أنه لم يفعل كذا وكذا وقد فعل متعمداً للكذب فهو آثم ولا كفارة عليه في قول عامة العلماء . مالك وسفيان الثورى وأصحاب الرأى وأحمد بن حنبل وأبى ثور وأبى عبيد . وكان الشافعي يقول : يكفر . قال : وقد روى عن بعض التابعين مثل قول الشافعي . قال المروزى : أميل إلى قول مالك وأحمد .

ويقول القرطبي :

إذا قال : أقسمت عليك لتفعلن ، فإن أراد سؤاله فلا كفارة فيه وليست بيمين ، وإن أراد اليمين فإنها تكون يمينا عند مالك إذا أراد أقسمت عليك

بالله، وإن لم يرد بالله لم تكن يمينا تكفر – وقال أبو حنيفة والأوزاعى والحسن والنخعى : هى يمين .

وقال الشافعى : لا تكون يمينا حتى يذكر اسم الله تعالى . هذه رواية للمزنى عنه . وروى عنه الربيع مثل قول مالك .

وإذا انعقدت اليمين حلتها الكفارة أو الاستثناء ، وقال ابن الماجشون : الاستثناء بدل عن الكفارة وليست حلا لليمين . قال ابن القاسم : هى حل اليمين . وقال ابن العربى : وهو مذهب فقهاء الأمصار وهو الصحيح ، وشرطه أن يكون متصلا منطوقا به لفظا ؛ لما رواه النسائى وأبو داوود عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « من حلف فاستثنى فإن شاء مضى وإن شاء ترك عن غير حنث » فإن نواه من غير نطق أو قطعه من غير عذر لم ينفعه ، وقال محمد بن المواز : يكون الاستثناء مقترنا باليمين اعتقادا ولو بآخر حرف . قال : فإن فرغ منها واستثنى لم ينفعه ذلك ؛ لأن اليمين فرغت عارية من الاستثناء فورودها بعده لا يؤثر كالتراخى. وهذا يرده الحديث « من حلف فاستثنى .. » والفاء للتعقيب، وعليه جمهور أهل العلم . وأيضا فإن ذلك يؤدى إلى أن لاتنحل يمين ابتدىء عقدها وذلك باطل .

وقال ابن خويز منداد : واختلف أصحابنا متى استثنى فى نفسه تخصيص ما حلف عليه . فقال بعض أصحابنا : يصح استثناؤه وقطلم المحلوف له ، وقال بعضهم : لا يصح حتى يسمع المحلوف له ، وقال بعضهم يصح إذا حرك به لسانه وشفتيه وإن لم يسمع المحلوف له، قال ابن خويزمنداد : وإنما قلنا يصح استثناؤه فى نفسه ، فلأن الأعمال تعتبر بالنيات . وإنما قلنا لا يصح ذلك حتى يحرك به لسانه وشفتيه ، فإن من لم يحرك به لسانه وشفتيه لم يكن متكلما والاستثناء من

الكلام يقع بالكلام دون غيره وإنما قلنا لا يصح بحال ، فلأن ذلك حق للمحلوف له ، وإنما يقع على حسب ما يستوفيه له الحاكم ، فلما لم تكن اليمين على اختيار الحالف ، بل كانت مستوفاة منه ، وجب ألا يكون له فيها حكم .

والاستثناء إنما يرفع اليمين بالله تعالى ، إذ هي رخصة من الله تعالى ولا خلاف في هذا . واختلفوا في الاستثناء في اليمين بغير الله . فقال الشافعي وأبو حنيفة : الاستثناء يقع في كل يمين كالطلاق والعتاق وغير ذلك كاليمين بالله تعالى . قال أبو عمر : ما أجمعوا عليه فهو الحق ، وإنما ورد التوقيف بالاستثناء في اليمين بالله عز وجل : لا في غير ذلك .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٦ ص ٢٦٥ — ٢٧٥ بتصرف)

الأدلة من السنة :

يمين الإنسان للبنية على القصد والنيه وعقد العزم بصير الإنسان مؤاخذاً بها بمجرد تلفظها ما لم يلحقها بما يستثنيها كألفاظ المشيئة . فمن فعل ذلك فقد استثنى من يمينه ، فهو بالخيار إن شاء أمضى وإن شاء رجع دون تضييق أو حرج .

١ — عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من حلف على يمين فقال إن شاء الله فقد استثنى » رواه أصحاب السنن بسند حسن .

(التاج جـ ٣ ص ٨٢)

٢ — وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال أيوب لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « من حلف فاستثنى فهو بالخيار إن شاء أن يمضي على يمينه وإن شاء أن يرجع غير حنث أو قال غير حرج » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه الترمذي. (الفتح الرباني مع شرحه بلوغ الأماني جـ ١٤ ص ١٧١)

٣ — وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « أهدت إليها امرأة تمرا فى طبق فأكلت بعضا وبقى بعض فقالت أقسمت عليك إلا أكلت بقيته . فقال رسول الله ﷺ : أبريها فإن الإثم على المحنث » . رواه أحمد ورجاله الصحيح .
(المصدر السابق جـ ١٤ ص ١٧٦)

العنصر الرابع
كفارة اليمين

الأدلة من الكتاب :

يمين الإنسان بمثابة العهد الذى قطعه على نفسه وألزمها بمقتضاه فعل شىء معين ، فوجب الوفاء بها والبر فيها . فمن حنث فى يمينه لسبب من الأسباب ، فقد ارتكب إثما لا يعفيه منه ولا يكفره عنه إلا أن يقوم بما وجب عليه آنئذ من كفارة تقوم بتطهير نفسه وتزكية ذاته ، وجبر خلله ، ونفع مجتمعه ، وتفريج ضيقه ، وقضاء حاجاته .

١ قال الله تعالى « .. فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم . واحفظوا أيمانكم . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » (سورة المائدة الآية رقم ٨٩)

قال القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » ذكر الله سبحانه فى الكفارة الخلال الثلاث فخير فيها وعقب عند عدمها بالصيام .

وبدأ بالطعام لأنه كان الأفضل فى بلاد الحجاز لغلبة الحاجة إليه وعدم شبعهم ، ولا خلاف فى أن كفارة اليمين على التخيير . قال ابن العربى : والذى عندى أنها تكون بحسب الحال . فإن علمت محتاجا فالطعام أفضل ، لأنك إذا أعتقت لم تدفع حاجتهم وزدت محتاجا حادى عشر إليهم ، وكذلك الكسوة تليه . ولما علم الله الحاجة بدأ بالمقدم للهم .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٦ ص ٢٧٥ و ٢٧٦)

وأفاد الرازى أن العتق وإن كان أفضل من الإطعام ، إلا أن الله تعالى قدم الإطعام عليه لوجوه :

أحدها : التنبيه من أول الأمر على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا الترتيب وإلا لبدئ بالأغلظ .

ثانيها : كون الطعام أسهل لأنه أعم وجودا والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى يراعى التخفيف والتسهيل فى التكاليف

ثالثها : كون الإطعام أفضل ؛ لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام ولا يكون هناك من يعطيه الطعام فيقع فى الضر ؛ أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته .

(تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل ج ٦ ص ٢١٤١)

ويقول القرطبي فى قوله تعالى : « إطعام عشرة مساكين »

لابد عندنا وعند الشافعى من تمليك المساكين ما يخرج لهم ، ودفعه إليهم حتى يتملكوه ويتصرفوا فيه ، لقوله تعالى : « وهو يُطعِم ولا يُطعَم » وفى الحديث « أطعم رسول الله ﷺ الجد السدس » ولأنه أحد نوعى الكفارة فلم يجز فيها إلا التمليك ، أصله الكسوة .

وقال أبو حنيفة : لو غداء وعشاء جاز وهو اختيار ابن الماجشون من علمائنا . قال ابن الماجشون : إن التمكين من الطعام إطعام . قال الله تعالى : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا» فبأى وجه أطعمه دخل فى الآية .

وقوله تعالى . «من أوسط ما تطعمون أهليكم» الوسط بمعنى الأعلى والخيار وهو هنا منزلة بين منزلتين ونصفا بين طرفين ، ومنه الحديث : «خير الأمور أوسطها» وخرج ابن ماجة . . عن ابن عباس قال : كان الرجل يقوت أهله قوتا فيه سعة وكان الرجل يقوت أهله قوتا فيه شدة . فنزلت : «من أوسط ما تطعمون أهليكم» وهذا يدل على أن الوسط ما كان بين شيئين .

وذكر القرطبى هنا مسائل :

الأولى : الإطعام عند مالك مد لكل واحد من المساكين العشرة إن كان بمدينة النبى ﷺ . وبه قال الشافعى وأهل المدينة . قال سليمان بن يسار : أدركت الناس وهم إذا أعطوا فى كفارة اليمين أعطوا مداً من حنطة بالمد الأصغر ، ورأوا ذلك يجزئا عنهم ، وهو قول ابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعطاء بن أبى رباح . واختلف إذا كان بغيرها . فقال ابن القاسم : يجزئه المد بكل مكان ، وقال ابن المواز : أفتى ابن وهب بمصر بمد ونصف ، وأشهب بمد وثلث ، قال : وإن مدا وثلثا لوسط من عيش الأمصار فى الغداء والعشاء ، وقال أبو حنيفة : يخرج من البر نصف صاع ، ومن التمر والشعير صاعا . على حديث عبد الله ابن ثعلبة ابن صعير عن أبيه قال : قام رسول الله ﷺ خطيبا ، فأمر بصدقة الفطر صاع من تمر ، أو صاع من شعير عن كل رأس ، أو صاع بر بين اثنين . وبه أخذ سفيان وابن المبارك . وروى عن على وعمر وابن عمر وعائشة — رضى الله عنهم —

وبه قال سعيد بن المسيب . وهو قول عامة فقهاء العراق . لما رواه ابن عباس قال : « كفّر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس بذلك . فمن لم يجد فنصف صاع من بر » « من أوسط ما تطعمون أهليكم » خرجه ابن ماجه في سننه .

الثانية : لا يجوز أن يطعم غنيا ولا ذا رحم تلزمه نفقته ، وإن كان ممن لا تلزمه نفقته فقد قال مالك : لا يعجبنى أن يطعمه ، ولكن إن فعل وكان فقيرا أجزأه ، فإن أطعم غنيا جاهلا بغناه ففي « المدونة » وغير كتاب لا يجزىء ، وفى الأسدية : أنه يجزىء .

الثالثة : ويخرج الرجل مما يأكل . قال ابن العربي : وقد زلت هنا جماعة من العلماء فقالوا : إنه إذا كان يأكل الشعير ويأكل الناس البر فليخرج مما يأكل الناس . وهذا سهو بين ، فإن المكفر إذا لم يستطع فى خاصة نفسه إلا الشعير لم يكلف أن يعطى لغيره سواه . وقد قال ﷺ : « صاعا من طعام صاعا من شعير » ففصل ذكرهما ليخرج كل أحد فرضه مما يأكل ، وهذا مما لا خفاء فيه .

الرابعة : قال مالك : إن غدى عشرة مساكين وعشاهم أجزأه ، وقال الشافعي : لا يجوز أن يطعمهم جملة واحدة ، لأنهم يختلفون فى الأكل ، ولكن يعطى كل مسكين مداً . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا يجزىء إطعام العشرة وجبة واحدة . يعنى غداء دون عشاء أو عشاء دون غداء حتى يغديهم ويعشيهم . قال أبو عمر : وهو قول أئمة الفتوى بالأمصار

الخامسة : قال ابن حبيب : ولا يجزىء الخبز قفارا — أى غير مأدوم —

بل يعطى معه إدامه زيتا أو كشكا أو كامَخا[1] أو ما تيسر . قال ابن العربى : هذه زيادة ما أراها واجبة أما أنه يستحب له أن يطعم مع الخبز السكر — نعم — واللحم . وأما تعيين الإدام للطعام فلا سبيل إليه لأن اللفظ لا يتضمنه .

قلت : نزول الآية فى الوسط يقتضى الخبز والزيت أو الخل . وما كان فى معناه من الجبن والكشك كما قال ابن حبيب والله أعلم . قال رسول الله ﷺ « نعم الإدام الخل » وقال الحسن البصرى : إن أطعمهم خبزا ولحما أو خبزاً وزيتا مرة واحدة فى اليوم حتى يشبعوا أجزأه . وهو قول ابن سيرين وجابر ابن زيد ومكحول ، وروى ذلك عن أنس بن مالك .

السادسة : لا يجوز عندنا دفع الكفارة إلى مسكين واحد وبه قال الشافعى ، وأصحاب أبى حنيفة يمنعون صرف الجميع إلى واحد دفعة واحدة ، ويختلفون فيما إذا صرف الجميع فى يوم واحد بدفعات مختلفة . فمنهم من أجاز ذلك وأنه إذا تعدد الفعل حسن أن يقال فى الفعل الثانى لا يمنع من الذى دفعت إليه أولا . فإن اسم المسكين يتناوله ، وقال آخرون : يجوز دفع ذلك إليه فى أيام . وإن تعدد الأيام يقوم مقام أعداد المساكين ، وقال أبو حنيفة : يجزئه ذلك ، لأن المقصود من الآية : التعريف بقدر ما يطعم ، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه . ودليلنا نص الله تعالى على العشرة فلا يجوز العدول عنهم ، وأيضاً فإن فيه إحياء جماعة من المسلمين وكفايتهم يوما واحداً فيتفرغون فيه لعبادة الله تبارك وتعالى ولدعائه ، فيغفر للمكفر بسبب ذلك . والله أعلم .

---

(١) نوع من الأدم أى الطعام — معرب .

وقوله تعالى : « أو كسوتهم » الكسوة فى حق الرجال : الثوب الواحد الساتر لجميع الجسد ، فأما فى حق النساء فأقل ما يجزئهن فيه الصلاة ، وهو الدرع والخمار وهكذا حكم الصغار .

قال ابن القاسم فى « العتبية » : تكسى الصغيرة كسوة كبيرة ، والصغير كسوة كبير قياسا على الطعام ، وقال الشافعى وأبو حنيفة والثورى والأوزاعى : أقل ما يقع عليه الإسم وذلك ثوب واحد ، وفى رواية أبى الفرج عن مالك ، وبه قال إبراهيم النخعى ومغيرة : مايستر جميع البدن بناء على أن الصلاة لاتجزىء فى أقل من ذلك ، وروى عن سلمان رضى الله عنه أنه قال : نعم الثوب التبان[1] أسنده الطبرى ، وقال الحكم بن عتيبة تجزىء عمامة يلف بها رأسه . وهو قول الثورى . قال ابن العربى : وما كان أحرصنى على أن يقال : إنه لا يجزىء إلا كسوة تستر عن أذى الحر والبرد ، كما أن عليه طعاما يشبعه من الجوع فأقول به وأما القول بمئزر واحد فلا أدريه . والله يفتح لى ولكم فى المعونة بعونه .

قلت قد راعى قوم معهود الزى والكسوة المتعارفة ، فقال بعضهم : لا يجزى الثوب الواحد إلا إذا كان جامعا مما قد يتزيى به كالكساء والملحفة ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : الكسوة فى كفارة اليمين لكل مسكين ثوب وإزار أو رداء أو قميص أو قباء أو كساء ، وروى عن أبى موسى الأشعرى أنه أمر أن يكسى عنه ثوبين ثوبين[2] ، وبه قال الحسن وابن سيرين ، وهذا معنى ما اختاره ابن العربى والله أعلم .

---

(١) التبان : بضم التاء وتشديدها وفتح الباء وتشديدها . سراويل صغيرة مقدار شبر . تستر العورة المغلظة .

(٢) أى ثوبان لكل مسكين .

وهنا ذكر القرطبي مسألتين :

الأولى : لا تجزىء القيمة عن الطعام والكسوة وبه قال الشافعي . وقال أبوحنيفة : : تجزىء ، وهو يقول : تجزىء القيمة في الزكاة فكيف في الكفارة! قال ابن العربي : وعمدته أن الغرض سد الخلة ورفع الحاجة، فالقيمة تجزىء فيه . قلنا : إن نظرتم إلى سد الخلة فأين العبادة ؟ وأين نص القرآن على الأعيان الثلاثة والانتقال بالبيان من نوع إلى نوع ؟

الثانية : إذا دفع الكسوة إلى ذمي أو إلى عبد لم يجزه . وقال أبو حنيفة : يجزئه ، لأنه مسكين يتناوله لفظ المسكنة ، ويشتمل عليه عموم الآية :

قلنا : هذا يخصه بأن يقول جزء من المال يجب إخراجه للمساكين فلا يجوز دفعه للكافر . أصله الزكاة . وقد اتفقنا على أنه لا يجوز دفعه للمرتد. فكل دليل خص به المرتد فهو دليلنا في الذمي . والعبد ليس بمسكين لاستغنائه بنفقة سيده فلا تدفع إليه كالذمي .

وقوله تعالى : « أو تحرير رقبة » التحرير : الإخراج من الرق . ويستعمل في الأسر والمشقات وتعب الدنيا ونحوها ومنه قول أم مريم : « إني نذرت لك مافي بطني محررا » أي من شغوب[1] الدنيا ونحوها ، وخص الرقبة من الإنسان إذ هو العضو الذي يكون فيه الغل والتوثق غالباً من الحيوان . فهو موضع الملك فأضيف التحرير إليها .

---

(١) الفتن والخصومات .

وذكر القرطبي هنا مسائل :

الأولى : لا يجوز عندنا إلا إعتاق رقبة مؤمنة كاملة ليس فيها شرك لغيره ولا عتاقة بعضها . ولا عتق إلى أجل . ولا كتابة ولا تدبير . ولا تكون أم ولد ولا من يعتق عليه إذا ملكه . ولا يكون بها من الهرم والزمانة مايضر بها فى الاكتساب سليمة غير معيبة خلافا لداود فى تجويزه إعتاق المعيبة ، وقال أبو حنيفة : يجوز عتق الكافرة . لأن مطلق اللفظ يقتضيها . ودليلنا أنها قربة واجبة فلا يكون الكافر محلا لها كالزكاة . وأيضاً فكل مطلق فى القرآن من هذا فهو راجع إلى المقيد فى عتق الرقبة فى القتل الخطأ .

وإنما قلنا : لا يكون فيها شرك لقوله تعالى : « فتحرير رقبة » مؤمنة وبعض الرقبة ليس برقبة ، وقلنا لا يكون فيها عقد عتق . لأن التحرير يقتضى ابتداء عتق دون تنجيز عتق مقدم ، وقلنا : سليمة . لقوله تعالى « فتحرير رقبة » والإطلاق يقتضى تحرير رقبة كاملة . والعمياء ناقصة . وفى الصحيح عن النبي ﷺ . « مامن مسلم يعتق امرءاً مسلما إلا كان فكاكه من النار . كل عضو منه بعضو منها . حتى الفرج بالفرج » وهذا نص . وقد روى فى الأعور قولان فى المذهب . وكذلك فى الأصم والخصى .

الثانية : من أخرج مالا ليعتق رقبة فى كفارة فتلف كانت الكفارة باقية عليه . بخلاف مخرج المال فى الزكاة ليدفعه إلى الفقراء . أو ليشترى به رقبة فتلف لم يكن عليه غيره لامتثال الأمر .

الثالثة : الكفارة من مال الميت .

اختلفوا فى الكفارة إذا مات الحالف فقال الشافعى وأبو ثور : كفارات

وذكر القرطبي هنا مسائل :

الأولى : لا يجوز عندنا إلا إعتاق رقبة مؤمنة كاملة ليس فيها شرك لغيره ولا عتاقة بعضها . ولا عتق إلى أجل . ولا كتابة ولا تدبير . ولا تكون أم ولد ولا من يعتق عليه إذا ملكه . ولا يكون بها من الهرم والزمانة مايضر بها فى الاكتساب سليمة غير معيبة خلافا لداود فى تجويزه إعتاق المعيبة ، وقال أبو حنيفة : يجوز عتق الكافرة . لأن مطلق اللفظ يقتضيها . ودليلنا أنها قربة واجبة فلا يكون الكافر محلا لها كالزكاة . وأيضاً فكل مطلق فى القرآن من هذا فهو راجع إلى المقيد فى عتق الرقبة فى القتل الخطأ .

وإنما قلنا : لا يكون فيها شرك لقوله تعالى : « فتحرير رقبة » مؤمنة وبعض الرقبة ليس برقبة ، وقلنا لا يكون فيها عقد عتق . لأن التحرير يقتضى ابتداء عتق دون تنجيز عتق مقدم ، وقلنا : سليمة . لقوله تعالى « فتحرير رقبة » والإطلاق يقتضى تحرير رقبة كاملة . والعمياء ناقصة . وفى الصحيح عن النبى ﷺ . « مامن مسلم يعتق امرءاً مسلما إلا كان فكاكه من النار . كل عضو منه بعضو منها . حتى الفرج بالفرج » وهذا نص . وقد روى فى الأعور قولان فى المذهب . وكذلك فى الأصم والخصى .

الثانية : من أخرج مالا ليعتق رقبة فى كفارة فتلف كانت الكفارة باقية عليه . بخلاف مخرج المال فى الزكاة ليدفعه إلى الفقراء . أو ليشترى به رقبة فتلف لم يكن عليه غيره لامتثال الأمر .

الثالثة : الكفارة من مال الميت .

اختلفوا فى الكفارة إذا مات الحالف فقال الشافعى وأبو ثور : كفارات

الأيمان تخرج من رأس مال الميت ، وقال أبو حنيفة : تكون فى الثلث . وكذلك قال مالك إن أوصى بها .

الرابعة : من حلف وهو موسر فلم يكفر حتى أعسر أو حنث وهو معسر فلم يكفر حتى أيسر . أو حنث وهو عبد فلم يكفر حتى عتق . فالمراد فى ذلك كله بوقت التكفير لا وقت الحنث .

وقوله تعالى : « فمن لم يجد » معناه . لم يجد فى ملكه أحد هذه الثلاثة . من الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة بإجماع . فإذا عدم هذه الثلاثة صام . والعدم يكون بوجهين · إما بمغيب المال عنه . أو عدمه . فالأول : أن يكون فى بلد غير بلده . فإن وجد من يسلفه لم يجزه الصوم . وإن لم يجد من يسلفه فقد اختلف فيه . فقيل : ينتظر إلى بلده . قال ابن العربى : وذلك لا يلزمه . بل يكفر بالصيام لأن الوجوب قد تقرر فى الذمة . والشرط من العدم قد تحقق فلا وجه لتأخير الأمر . فليكفر مكانه لعجزه عن الأنواع الثلاثة . لقوله تعالى : « فمن لم يجد » وقيل : من لم يكن له فضل عن رأس ماله الذى يعيش به فهو الذى لم يجد ، وقيل : هو من لم يكن له إلا قوت يومه وليلته . وليس عنده فضل يطعمه . وبه قال الشافعى واختاره الطبرى . وهو مذهب مالك وأصحابه ، وروى عن ابن القاسم : أن من تفضل عنه نفقة يومه فإنه لا يصوم . قال ابن القاسم فى كتاب ابن مزين : إن كان للحانث فضل عن قوت يومه أطعم إلا أن يخاف الجوع ، أو يكون فى بلد لا يعطف عليه فيه ، وقال أبو حنيفة : إذا لم يكن عنده نصاب فهو غير واجد ، وقال أحمد وإسحاق : إذا كان عنده قوت يوم وليلة أطعم ما فضل عنه ، وقال أبو عبيد : إذا كان عنده قوت يومه وليلته وعياله وكسوة تكون لكفايتهم . ثم يكون بعد ذلك مالكا لقدر

الأيمان تخرج من رأس مال الميت ، وقال أبو حنيفة : تكون فى الثلث . وكذلك قال مالك إن أوصى بها .

الرابعة : من حلف وهو موسر فلم يكفر حتى أعسر أو حنث وهو معسر فلم يكفر حتى أيسر . أو حنث وهو عبد فلم يكفر حتى عتق . فالمراد فى ذلك كله بوقت التكفير لا وقت الحنث .

وقوله تعالى : « فمن لم يجد » معناه . لم يجد فى ملكه أحد هذه الثلاثة . من الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة بإجماع . فإذا عدم هذه الثلاثة صام . والعدم يكون بوجهين · إما بمغيب المال عنه . أو عدمه . فالأول : أن يكون فى بلد غير بلده . فإن وجد من يسلفه لم يجزه الصوم . وإن لم يجد من يسلفه فقد اختلف فيه . فقيل : ينتظر إلى بلده . قال ابن العربى : وذلك لا يلزمه . بل يكفر بالصيام لأن الوجوب قد تقرر فى الذمة . والشرط من العدم قد تحقق فلا وجه لتأخير الأمر . فليكفر مكانه لعجزه عن الأنواع الثلاثة . لقوله تعالى : « فمن لم يجد » وقيل : من لم يكن له فضل عن رأس ماله الذى يعيش به فهو الذى لم يجد ، وقيل : هو من لم يكن له إلا قوت يومه وليلته . وليس عنده فضل يطعمه . وبه قال الشافعى واختاره الطبرى . وهو مذهب مالك وأصحابه ، وروى عن ابن القاسم : أن من تفضل عنه نفقة يومه فإنه لا يصوم . قال ابن القاسم فى كتاب ابن مزين : إن كان للحانث فضل عن قوت يومه أطعم إلا أن يخاف الجوع ، أو يكون فى بلد لا يعطف عليه فيه ، وقال أبو حنيفة : إذا لم يكن عنده نصاب فهو غير واجد ، وقال أحمد وإسحاق : إذا كان عنده قوت يوم وليلة أطعم ما فضل عنه ، وقال أبو عبيد : إذا كان عنده قوت يومه وليلته وعياله وكسوة تكون لكفايتهم . ثم يكون بعد ذلك مالكا لقدر

الـكفارة فهو عندنا واجد ، قال ابن المنذر : قول أبو عبيد حسن .

وقوله تعالى : « فصيام ثلاثة أيام » قرأها ابن مسعود « متتابعات» فيقيد بها المطلق . وبه قال أبو حنيفة والثورى . وهو أحد قولى الشافعى واختاره المزنى قياسا على الصوم فى كفارة الظهار . واعتبارا بقراءة عبدالله ، وقال مالك والشافعى فى قوله الآخر يجزئه التفريق ؛ لأن التتابع صفة لا تجب إلا بنص أو قياس على منصوص وقد عدما .

ومن أفطر فى يوم من أيام الصيام ناسياً . فقال مالك : عليه القضاء ،وقال الشافعى : لا قضاء عليه والصحيح ماقال الشافعى . وبه قال الجمهور : إن من أكل أو شرب ناسيا فلا قضاء عليه و إن صومه تام . لحديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه ولا قضاء عليه » وفى رواية : « وليتم صومه فإن الله أطعمه وسقاه » أخرجه الدارقطنى ، وقال : إسناد صحيح وكلهم ثقات .وقال ابن المنذر : لا شىء عليه . لقول النبى ﷺ لمن أكل أو شرب ناسيا : « يتم صومه » وإذا قال : « يتم صومه » فأتمه . فهو صوم تام كامل .

تقديم الـكفارة على اليمين :

اختلف العلماء فى تقديم الـكفارة على الحنث هل تجزىء أم لا؟ـ بعد إجماعهم على أن الحنث قبل الـكفارة مباح حسن وهو عندهم أولى — على ثلاثة أقوال:

أحدها : يجزئ مطلقا . وهو مذهب أربعة عشر من الصحابة وجمهور الفقهاء وهو مشهور مذهب مالك . ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجزىء بوجه وهى رواية أشهب عن مالك . وهو القول الثانى .

وجه الجواز : مارواه أبو موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « وإنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير » خرجه أبو داود ، ومن جهة المعنى : أن اليمين سبب الكفارة . لقوله تعالى : «ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم» فأضاف الكفارة إلى اليمين . والمعانى تضاف إلى أسبابها . وأيضا فإن الكفارة بدل عن البر فيجوز تقديمها قبل الحنث .

ووجه المنع . ما رواه مسلم . عن عدى بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير » — أى الذى هو أكثر خيرا — زاد النسائى : « وليكفر عن يمينه » ومن جهة المعنى : أن الكفارة . إنما هى لرفع الإثم . ومالم يحنث لم يكن هناك ما يرفع فلا معنى لفعلها ، وكان معنى قوله تعالى : « إذا حلفتم » أى إذا حلفتم وحنثتم ، وأيضا فإن كل عبادة فعلت قبل وجوبها لم تصح اعتبارا بالصلوات وسائر العبادات .

القول الثالث : هو قول الشافعى : تجزىء بالإطعام والعتق والكسوة . ولا تجزىء بالصوم . لأن عمل البدن لا يقدم قبل وقته . ويجزىء فى غير ذلك تقديم الكفارة . اهـ

وقوله تعالى : « ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » أى تغطية أيمانكم . وكفرت الشىء غطيته وسترته . ولا خلاف أن هذه الكفارة فى اليمين بالله تعالى .

واختلفوا فى كفارة غير اليمين بالله عز وجل . فقال مالك : من حلف بصدقة ماله أخرج ثلثه . وقال الشافعى : عليه كفارة يمين . وبه قال إسحاق وأبو ثور . وروى عن عمر وعائشة رضى الله عنهما . وقال الشعبى وعطاء وطاوس:

لا شيء عليه . وأما اليمين بالمشى إلى مكة فعليه أن يفى به عند مالك وأبى حنيفة ، وتجزئه كفارة يمين عند الشافعى وأحمد بن حنبل وأبى ثور ، وقال ابن المسيب والقاسم بن محمد : لا شيء عليه ، قال ابن عبد البر : أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها يوجبون فى اليمين بالمشى إلى مكة كفارة مثل كفارة اليمين بالله عز وجل. وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين وجمهور فقهاء المسلمين . وقد أفتى به ابن القاسم ابنه عبد الصمد ، وذكر له أنه قول الليث بن سعد . والمشهور عن ابن القاسم أنه لا كفارة عنده فى المشى إلى مكة إلا بالمشى لمن قدر عليه . وهو قول مالك .

وأما الحالف بالعتق فعليه عتق من حلف عليه بعتقه فى قول مالك والشافعى وغيرها . وروى عن ابن عمر وابن عباس وعائشة أنه يكفر كفارة يمين. ولا يلزمه العتق — وقال عطاء : يتصدق بشيء ، قال المهدوى : وأجمع من يعتمد على قوله من العلماء على أن الطلاق لازم لمن حلف به وحنث .

وقوله تعالى : « واحفظوا أيمانكم » أى بالبدار إلى ما لزمكم من الكفارة إذا حنثتم . وقيل : أى بترك الحلف . فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكليفات .

وقوله تعالى : « لعلكم تشكرون » .. « لعل » فيه تأويلات .

الأول : أن « لعل » على بابها من الترجي والتوقع . والترجي والتوقع إنما هو فى حيز البشر . فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تشكروا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان .

الثانى : أن العرب استعملت « لعل » مجردة من الشك بمعنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتشكروا . .وهذا القول عن قطرب والطبرى .

لا شيء عليه . وأما اليمين بالمشي إلى مكة فعليه أن يفي به عند مالك وأبي حنيفة ، وتجزئه كفارة يمين عند الشافعي وأحمد بن حنبل وأبي ثور ، وقال ابن المسيب والقاسم بن محمد : لا شيء عليه ، قال ابن عبد البر : أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها يوجبون في اليمين بالمشي إلى مكة كفارة مثل كفارة اليمين بالله عز وجل . وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين وجمهور فقهاء المسلمين . وقد أفتى به ابن القاسم ابنه عبد الصمد ، وذكر له أنه قول الليث بن سعد . والمشهور عن ابن القاسم أنه لا كفارة عنده في المشي إلى مكة إلا بالمشي لمن قدر عليه . وهو قول مالك .

وأما الحالف بالعتق فعليه عتق من حلف عليه بعتقه في قول مالك والشافعي وغيرهما . وروى عن ابن عمر وابن عباس وعائشة أنه يكفر كفارة يمين . ولا يلزمه العتق — وقال عطاء : يتصدق بشيء ، قال المهدوي : وأجمع من يعتمد على قوله من العلماء على أن الطلاق لازم لمن حلف به وحنث .

وقوله تعالى : « واحفظوا أيمانكم » أي بالبدار إلى ما لزمكم من الكفارة إذا حنثتم . وقيل : أي بترك الحلف . فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكليفات .

وقوله تعالى : « لعلكم تشكرون » .. « لعل » فيه تأويلات .

الأول : أن « لعل » على بابها من الترجي والتوقع . والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر . فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تشكروا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان .

الثاني : أن العرب استعملت « لعل » مجردة من الشك بمعنى لام كي . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتشكروا . .وهذا القول من قطرب والطبري .

الثالث : أن تكون « لعل » بمنى التعرض للشيء . كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا أو لأن تذكروا أو لأن تشكروا .

وأما الشكر . فهو فى اللغة:الظهور . من قوله : دابة شكور . إذا ظهر عليها من السمن فوق ماتعطى من العلف. وحقيقته : الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه. قال الجوهرى : الشكر على المحسن بما أولاكه من المعروف . . وللعلماء عبارات فى معنى الشكر .

فقد قال سهل بن عبد الله : الشكر ، الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية فى السر والعلانية ، وقال غيره : الشكر : هو الاعتراف فى تقصير الشكر للمنعم ، وقال الجنيد : الشكر ألا يعصى الله بنعمه ، وقال الشبلى : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات . ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات . ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذوالنون المصرى أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٦ ص ٢٧٥ — ٢٨٥ ، و ج ٢ ص ٣٢٢ و ٣٢٣ ، و ج ١ ص ٢٢٧ و ٢٩٧ و ٢٩٨ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره ملخصا لما تقدم :

قوله تعالى : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة » أى فالذى يكفر عقد اليمين إذا نقض ، أو إذا أريد نقضه بالحنث به هو إحدى هذه المبرات الثلاث على سبيل التخيير :

(١) إطعام عشرة مساكين ، وجبة واحدة لكل منهم من الطعام الغالب الذى يأكله أهلوكم فى بيوتكم . لا من أردئه الذى يتقشفون به تارة . ولا من

الثالث : أن تكون « لعل » بمعنى التعرض للشيء . كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا أو لأن تذكروا أو لأن تشكروا .

وأما الشكر . فهو فى اللغة:الظهور . من قوله : دابة شكور . إذا ظهر عليها من السمن فوق ماتعطى من العلف. وحقيقته : الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه. قال الجوهرى : الشكر على المحسن بما أولاكه من المعروف . . وللعلماء عبارات فى معنى الشكر .

فقد قال سهل بن عبد الله : الشكر ، الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية فى السر والعلانية ، وقال غيره : الشكر : هو الاعتراف فى تقصير الشكر للمنعم ، وقال الجنيد : الشكر ألا يعصى الله بنعمه ، وقال الشبلى : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات . ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات . ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذوالنون المصرى أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٦ ص ٢٧٥ — ٢٨٥ ، و جـ ٢ ص٣٢٢ و ٣٢٣ ، و جـ ١ ص ٢٢٧ و ٢٩٧ و ٢٩٨ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره ملخصا لما تقدم :

قوله تعالي : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة » أى فالذى يكفر عقد اليمين إذا نقض ، أو إذا أريد نقضه بالحنث به هو إحدى هذه المبرات الثلاث على سبيل التخيير :

(١) إطعام عشرة مساكين ، وجبة واحدة لكل منهم من الطعام الغالب الذى يأكله أهلوكم فى بيوتكم . لا من أردئه الذى يتقشفون به تارة . ولا من

أعلاه الذى يتوسعون به تارة أخرى ، كطعام العيد ونحوه مما تكرم به الأضياف. فمن كان أكثر طعام أهله خبز البر وأكثر إدامه اللحم بالخضر أو بدونها فلا يجزىء مادون ذلك مما يأكلونه ، إذا قرفت أنفسهم من كثرة أكل الدسم ليعود إليها نشاطها . والأعلى يجزىء على كل حال لأنه من الوسط وزيادة . والثريد بالمرق وقليل من اللحم . أو الخبز مع الملوخية أو الرز أو العدس من أوسط الطعام فى مصر وكثير من الأقطار الشرقية الآن ، وكان التمر أوسط طعام أهل المدينة فى العصر الأول . وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام .

(٢) كسوة عشرة مساكين : وهى تختلف باختلاف البلاد والأزمنة كالطعام فيجزىء فى مصر القميص الطويل الذى يسمى (بالجلابية) مع السراويل أو بدونه ، وهذا يساوى الإزار والرداء أو العباءة فى العصر الأول ، ولا يجزىء ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة ، ولا ما يلبس فى الرجلين من الأحذية والجوارب ولا نحو منديل أو منشفة .

(٣) تحرير رقبة أى إعتاق رقيق : وغلب استعمال الرقبة فى المملوك والأسير . وقد يعبر أحيانا عن ذلك بفك الرقبة كقوله تعالى : « فك رقبة » ولا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة فيجزىء عتق الكافرة عند أبى حنيفة . واشترط الشافعى ومالك وأحمد إيمانها .

« فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » أى فمن لم يستطع واحدا من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات . فإن عجز عن ذلك لمرض . صام عند القدرة . فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته .

أعلاه الذى يتوسعون به تارة أخرى ، كطعام العيد ونحوه مما تكرم به الأضياف. فمن كان أكثر طعام أهله خبز البر وأكثر إدامه اللحم بالخضر أو بدونها فلا يجزىء مادون ذلك مما يأكلونه ، إذا قرفت أنفسهم من كثرة أكل الدسم ليعود إليها نشاطها . والأعلى مجزىء على كل حال لأنه من الوسط وزيادة . والثريد بالمرق وقليل من اللحم . أو الخبز مع الملوخية أو الرز أو العدس من أوسط الطعام فى مصر وكثير من الأقطار الشرقية الآن ، وكان التمر أوسط طعام أهل المدينة فى العصر الأول . وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام .

(٢) كسوة عشرة مساكين : وهى تختلف باختلاف البلاد والأزمنة كالطعام فيجزىء فى مصر القميص الطويل الذى يسمى (بالجلابية) مع السراويل أو بدونه ، وهذا يساوى الإزار والرداء أو العباءة فى العصر الأول ، ولا يجزىء ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة ، ولا ما يلبس فى الرجلين من الأحذية والجوارب ولا نحو منديل أو منشفة .

(٣) تحرير رقبة أى إعتاق رقيق : وغلب استعمال الرقبة فى المملوك والأسير . وقد يعبر أحيانا عن ذلك بفك الرقبة كقوله تعالى : « فك رقبة » ولا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة فيجزىء عتق الكافرة عند أبى حنفية . واشترط الشافعى ومالك وأحمد إيمانها .

« فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » أى فمن لم يستطع واحدا من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات . فإن عجز عن ذلك لمرض . صام عند القدرة . فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته .

والاستطاعة أن يجد ذلك القدر فاضلا عن قوته وقوت عياله يومه وليلته ».
وعن كسوته بقدر ما يطعم أو يكسو : وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت آية الكفارة قال حذيفة يارسول الله نحن بالخيار ، فقال . ﷺ : « أنت بالخيار إن شئت أعتقت وأن شئت كسوت وأن شئت أطعمت . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات » .

« ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » بالله أو بأحد أسمائه وحنثتم . أو أردتم الحنث باليمين .

« واحفظوا أيمانكم » فلا تبذلوها فى أتفه الأمور وأحقرها . ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلا عن الأيمان الكاذبة . قال تعالى : «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » وإذا حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه . ولا تحنثوا فيه إلا لضرورة تعرض . أو لمصلحة تجعل الحنث راجحا .

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » أى وعلى هذا النحو الشافى الوافى يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه . ليعدكم ويؤهلكم بذلك إلى شكر نعمه على الوجه الذى يحبه ويرضاه ويكون سببا فى المزيد من فضله وإحسانه . (تفسير المراغى ج ٧ ص ١٥ ـ ١٧)

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٧٢ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

غرة ذى القعدة سنة ١٣٩٦ هـ ٢٤ من اكتوبر سنة ١٩٧٦ م

النذور وموقف الاسلام منها

العنـــاصر

المقــدمة :

العنصر الأول : النذر عبادة .

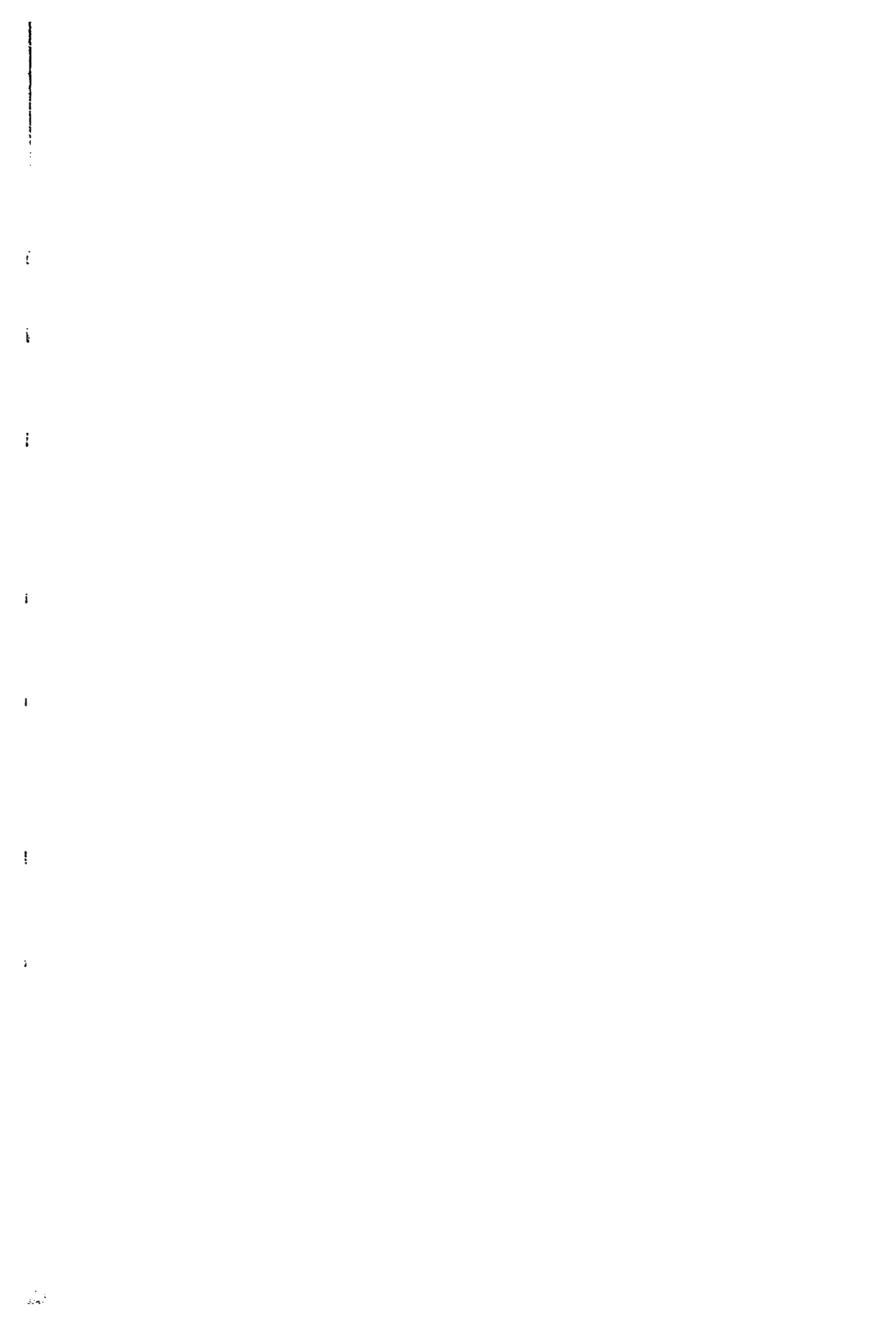
العنصر الثانى : النذر لا يكون الا لله .

العنصر الثالث : لا نذر فى معصية الله .

العنصر الرابع : أحكام تتعلق بالنذر .

العنصر الخامس :الوفاء بالنذر .

العنصر السادس : كفارة النذر .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين •

وبعـــد •••

فان أول ما يجب على المسلم هو أن يعرف ربه ، ويخصـــه بالعبادة ، ويفرده بالقداسة والجلال ، ويسلم له وجهه وقلبه ، وينزل نفسه على حكم الله وشرائع دينه القويم ، فيحرم ما حرم الله ورسوله ، ويحل ما أحل الله ورسوله ، ولا يجعل للعاطفة والهوى سبيلا الى التحكم فى شرع الله ودينه الحق المبين •

وقد شرع الله للناس ما فيه الخيروالسعادة لهم ، وما يؤكدبينهم أسباب الاخاء والمودة والرحمة ، ويجعلهم هداة مفلحين •

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية اذ قدم نشرتين فى (الأيمان وموقف الاســلام منها) فانه يسره أن يضـع بين يدى القارىء هذه النشرة تحت عنوان (النذور وموقف الاسلام منها) لتكون منارا على طريق الايمان ، ومرفأ للمتقين• ليعيش المؤمنون فى نور الحق وجلاله وهديه ، ويتقوا الله حق تقاته • مع تجنبهم ما قد يشوب عقيدتهم من تصرفات تخالف شرع الله •

ان الناس منذ بدء الخليقــة يقدســون الله ويدعونه عنـد الفزع والكرب ويخضعون له رغبا ورهبا ، ويسلمون له بالخلق والأمر ، ويعترفون له بالربوبية والتدبير • ويستحثهم داعى الفطرة أن يهتفوا باسمه ، ويسعوا فى مرضاته • وأن يقدموا له القرابين ، ويبذلوا ما فى وسعهم • اعترافا بفضله وشكرا لنعمه •

وهم على مبلغ علمهم من الله ، وتفاوت أفهامهم نحوه • لا يفتأون عن تأكيد مشاعرهم نحو الذات العلية بنذر الخيرات ، وفعل القربات ــ والاسلام قد أقر الناس على ما أسلفوا من خير ونذروا من بر ، وعمل على تأصيل النوايا الطيبة ، وتنمية بذرة الايمان فى نفوسهم ، وارواء شجرة المعروف فى قلوبهم •

وهذا ما ألمحنا اليه فى العنصر الأول •

واذا كان الصالحون من الناس قد حرصوا على التعبد لله بالنذر منذ أمدبعيد، يرجون به رحمة الله ، ويخشون عذابه ، فان مما ينبغى أن يعيه المسلم ، أن النذر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعـــد ...

فان أول ما يجب على المسلم هو أن يعرف ربه ، ويخصـــه بالعبادة ، ويفرده بالقداسة والجلال ، ويسلم له وجهه وقلبه ، وينزل نفسه على حكم الله وشرائع دينه القويم ، فيحرم ما حرم الله ورسوله ، ويحل ما أحل الله ورسوله ، ولا يجعل للعاطفة والهوى سبيلا الى التحكم فى شرع الله ودينه الحق المبين .

وقد شرع الله للناس ما فيه الخيروالسعادة لهم ، وما يؤكدبينهم أسباب الاخاء والمودة والرحمة ، ويجعلهم هداة مفلحين .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية اذ قدم نشرتين فى (الأيمان وموقف الاســلام منها) فانه يسره أن يضــع بين يدى القارىء هذه النشرة تحت عنوان (النذور وموقف الاسلام منها) لتكون منارا على طريق الايمان ، ومرفأ للمتقين . ليعيش المؤمنون فى نور الحق وجلاله وهديه ، ويتقوا الله حق تقاته . مع تجنبهم ما قد يشوب عقيدتهم من تصرفات تخالف شرع الله .

ان الناس منذ بدء الخليقــة يقدســـون الله ويدعونه عنــد الفزع والكرب ويخضعون له رغبا ورهبا ، ويسلمون له بالخلق والأمر ، ويعترفون له بالربوبية والتدبير . ويستحثهم داعى الفطرة أن يهتفوا باسمه ، ويسعوا فى مرضاته . وأن يقدموا له القرابين ، ويبذلوا ما فى وسعهم . اعترافا بفضله وشكرا لنعمه .

وهم على مبلغ علمهم من الله ، وتفاوت أفهامهم نحوه . لا يفتأون عن تأكيد مشاعرهم نحو الذات العلية بنذر الخيرات ، وفعل القربات ــ والاسلام قد أقر الناس على ما أسلفوا من خير ونذروا من بر ، وعمل على تأصيل النوايا الطيبة ، وتنمية بذرة الايمان فى نفوسهم ، وارواء شجرة المعروف فى قلوبهم .

وهذا ما ألمحنا اليه فى العنصر الأول .

واذا كان الصالحون منالناس قد حرصوا على التعبد لله بالنذر منذ أمدبعيد، يرجون به رحمة الله ، ويخشون عذابه ، فان مما ينبغى أن يعيه المسلم ، أن النذر

لا يكون الا لله طاعة له ، واذعانا لمقامه الأسنى ، وقدســه الأعلى ، مما افترضه الله وتعبد به خلقه ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغير ذلك من صور البر والطاعة ، وأن يجمل ذلك بانبعاثها من قلب سليم من الوســاوس • بعيد عن كل صور الشرك والجبت والطاغوت ، وكل مظاهر السمعة والرياء والفخر • فذلك أحسن عملا وأقوم قيلا وأهدى ســبيلا •

وهذا ما أشرنا اليه فى العنصر الثانى •

بيد أن المؤمن وهو حريص على طاعة الله، ومدفوع بفطرته الى عبادته والتحبب اليه • قد يخطىء القصــد ، وينحرف عن الجادة ، ويشذ عن الصواب ، فيجعل النذر وسيلة الى قطيعة من أمر الله به أن يوصل ، والى التنكر لمن عرفهم وودهم• بل قد يتجاوز ذلك الى حد الاعتداء على نفســه وايقاع الضرر بشخصه ، وقد يوغل فى هذا الاتجاه الذى يخاله محمودا ، فيتقرب الى غير الله • يجثو أمامهم ، ويرجو منهم نوال الأرزاق ، ويستمطرهم الرحمات •

ولما كان لهذا الفهم أخطاره الجسيمة : ومثالبه العظيمة • رأينا الاسلام وهو يشرع لأبنائه الحلال ، ويحرم عليهم الحرام ، ينأى بهم عن الانحراف ، ويبعد بهم عن الخطأ ، ويؤكد لهم أن النذر فى معصية الله لا ينعقد ولا يجوز فيه الوفاء•لذا يجب على الناذر أن يلزم أمر ربه ، ويثوب الى رشــده ، ويعتصم بالحق ، ويأتى الذى هو خير وطاعة ، ويدع الذى هو شر ومعصية ، وأن يفزع الى نواياه الطيبة، وعزائمه الخيرة فينميها ويزكيها • ويسمو بها الى مدارج العلا ومعارج الفلاح •

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث •

والنذر مع كونه طاعة لله تشرح الصدور وتنور القلوب وتزكى الأعمال وترفع بصاحبها عن الاثم والفســوق والعصيان • فاننا نلمس فيه روح الشريعة الغراء وأساسا هاما من أسسها التى تقوم عليها وهو التيســير ورفع الحرج • فلا طاعة الا فى حدود المســتطاع •

واذا فمايحاوله بعض التائبين من تبييض صحائفهم وتزكية أعمالهم وتنقيتها من الأرجاس والأدران • قد يحدو بهم ذلك الى الزهد فيما حوته أيديهم والانخلاع

عنه تقربا الى الله وتطلعا الى ثوابه ، فان الاسلام قد شكر لهم هذا الحرص على فعل الخير وقنع منهم بالقليل مما يبذلون وأبقى لهم الكثير مما يملكون ، وجعل فى هذا القليل خيرا كثيرا اذا ما خلصت النية وصحت العزيمة « ان رحمة الله قريب من المحسنين » . (٥٦ الأعراف) .

ومن رحمة الله أنه لم يكلف عباده الا بما يستطيعون وعذرهم فى ترك ما يرهقهم ويصعب عليهم « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » . (٦ : المائدة) .

وبذلك التشريع الرحيم الخالى من الحرج والضيق وفق الاسلام بين تلبية نداء الفطرة الذى شرح الله به صدور عباده من الرغبة فى البر باخوانهم وبين تلبية حاجة أنفسهم وأهليهم وذويهم .

وهذا ما بيناه فى العنصر الرابع .

ولا ريب أن الحرص على الخير والفضيلة والثبات على المبدأ وامضاء العقود والوفاء بالعهود والالتزامات رمز لقوة ايمان المؤمن ونباهة شأنه وتأصل الفضائل والمكارم فى نفسه ودليل على مدى فاعلية الايمان الذى يبض الله به قلبه وملأ صحائفه بالعمل الصالح المجيد .

وتلك كانت سمة المؤمنين البارزة فيهم وشامتهم التى امتازوا بها وعاشوا بفضلها متماسكين مترابطين . يعرف الناس فيهم الصدق فى القول والاخلاص فى العمل والوفاء بالنذر والبر بذمتهم . سواء كان ذلك مع الله فى كل ما يقرب اليه زلفى ويصل بالانسان الى رضوان الله وعفوه ورحمته أو كان ذلك مع الناس برا بهم وعونا لهم وتخفيفا لأعباء الحياة عنهم .

وقد بلغ بهم هذا الوفاء فيما بينهم وبين الله أو فيما بينهم وبين الناس أن أحدهم اذا قضى نحبه وعاجلته منيته قبل الوفاء بنذره فان عقبه وذويه كانوا ينوبون عنه ويسدون مسده ويبذلون ما فى وسعهم فى الوفاء عنه واطلاق روحه من اسارها كى تصل الى مستقرها من النعيم الأبدى الذى لا يزول ولا يبيد .

وهذا ما تكلمنا عليه فى العنصر الخامس .

ان رحمة الله واسعة تسع المؤمنين جميعا ؛ على اختلاف مداركم ومنازلهم ، وتنأى بهم عن العنت والمشقة ، وتخرجهم من الضيق الى الفرج ، ومن المعصية

الى الطاعة ، وتمهد لهم حياة الطهر والنقاء والايمان الصحيح . وذلك بما فرض الله عليهم من كفارات . وبما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنن البر ومكارم الأخلاق ، التى تنتشل المسلم من دركات الاثم والذنوب وتوجهه الى حياة الطاعة والفلاح والسعادة .

ومن أثر هذه الرحمة التى نلمسها فى تشريع الله ودينه القويم أن من نذر نذرا مطلقا ثم قام بعمل كفارة يمين فقد عذره الله وأوفى بذمته وقبل منه صنيعه . وتلك صورة من صور الرحمة فى الاسلام تتجلى فيها بساطته وسلامته من التعقيد . فلا كهنوتية فيه ولا وساطة ولا قربان لأحد غير الله « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . (البقرة : ١٣٨) .

وهذا ما اتجهنا اليه فى العنصر السادس .

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية اذ يقدم هذه النشرة . يرجو أن يكون قد قدم للقارىء الكريم صورة واضحة لما يقوم به البعض من نذور يبتغون بها القرب من الله ونيل رحمته ورضوانه ، ويأمل أن ينفع الله بها المسلمين وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم ، والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية
بوزارة الاوقاف

العنصر الأول

النذر عبـــادة قـــديمة

الأدلة من الكتاب :

منذ أمد بعيد ضارب فى القدم،والناس مجبولون على النذر لله ، وجعله سبيلا لحفزهم على فعل الخير والكلم الطيب والمنطق المتزن المتسم بالحكمة والوقار ، واتخاذ النذر أيضا حجابا لهم عن فضول الكلام وسـقط القول ، وكان الواحد منهم اذا تطلع الى مزيد من التقوى نذر من نفســه أو من ذريته ما يتقرب به الى الله ، ووقف حياته فى سبيله وابتغاء مرضاته • وبذلك نزل الوحى من عنـد الله يســجل لهم جميل ما فعلوا ، ويجعله فى العمل المتقبل ، وذلك فى معرض الثناء عليهم وذكرهم بالحسنى على مدى الأزمان وتعاقب الأجيال •

قال تعالى (اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم) • سورة آل عمران آية ٣٥

قال القرطبى :

وكانت النذور من سيرة العرب تكثر منهاء والنذر : هو ماأوجبه المكلف على نفســه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه • تقول نذر الرجل كذا اذا التزم فعله ، ويقال ان امرأة عمران لما حملت قالت لئن نجانى الله ووضعت مافى بطنى لجعلته محررا ، ومعنى ذلك : أى لعبادتك •وقيل : ان سبب قول امرأة عمرانهذا أنهــا كانت كبيرة لا تلد ؛ وكانوا أهل بيت من الله بسكان ، وأنهــا كانت تحت شجرة يوما ، فبصرت بطائر يزق فرخا (يطعمــه بفمه) فتحركت نفســها لذلك ودعت ربها أن يهب لهــا ولدا ، ونذرت ان ولدت أن تجعل ولدها محررا ، أى خالصا لله تعالى خادما لبيت المقدس حبيسا عليــه مفرغا لعبادة الله تعالى ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم وكان على أولادهم أن يطيعوهم • قوله تعالى (محررا) مأخوذ من الحرية التى هى ضد العبودية • روى خصيف عن عكرمة ومجاهد أن المحرر : الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا •

(تفسير القرطبي ج ٤ ص ٦٥ ــ ٦٧ بتصرف واختصار)

وقال الجصاص :

روى عن الشعبى أنه قال (محررا) مخلصا للعبادة . وقال مجاهد : خادما للبيعة وقال محمد بن جعفر بن الزبير : عتيقا من أمر الدنيا لطاعة الله تعالى . والتحرير ينصرف على وجهين أحـدهما : العتق من الحرية ، والآخر تحرير الكتاب وهو اخلاؤه من الفساد والاضطراب . وقولها (انى نذرت لك ما فى بطنى محررا) اذا أرادت مخلصا للعبادة أنها تنشئه على ذلك وتشغله بها دون غيرها . واذا أرادت بهأنها تجعله خادما للبيعة أو عتيقا لطاعة الله تعالى فان معانى جميع ذلك متقاربة. كان نذرا من قبلها نذرته الله تعالى بقولها نذرت ، ثم قالت (فتقبل منى انك أنت السميع العليم) والنذر فى مثل ذلك صحيح فى شريعتنا أيضا بأن ينذر الانسان أن ينشىء ابنه الصغير على عبادة الله وطاعته ، وأنه لا يشغله بغيرهما وأن يعلمه القرآن والفقه وعلوم الدين . وجميـع ذلك نذور صحيحة لأن فى ذلك قربة الى الله تعالى . وقولها (نذرت لك ما فى بطنى محررا) يدل على أنه يقتضى الايجاب وأن من نذر لله تعالى قربة يلزمه الوفاء بها ، ويدل على أن النذر يتعلق بالمستقبل، لأنه معلوم أن قولها (نذرت لكما فى بطنى محررا) أرادت به بعد الولادةوبلوغ الوقت الذى يجوز فى مثله أن يخلص لعبادة الله تعالى ؛ ويدل أيضا على جواز النذر بالمجهول لأنها نذرته وهى لا تدرى ذكر هو أم أنثى . ويدل على أن للأم نوعا من الولاية على الولد فى تأديبه وتعليمه وامساكه وتربيته ، لولا أنها تملك ذلك لما نذرته فى ولدها . ويدل أيضا على أن للأم تسمية ولدها وتكون تسمية صحيحة وان لم يسمه الأب لأنها قالت (وانى سميتها مريم) ، وأثبت الله تعالى لولدها هذا الاسم . وقوله تعالى (فتقبلها ربها بقبول حسن) المراد به والله أعلم رضيها للعبادة فى النذر الذى نذرته بالاخلاص . ولم يقبل قبلها أنثى فى هــذا الشــأن . (أحكام القرآن الجصاص جـ ٢ ص ١٢ بتصرف) .

وقال الخطيب فى تفسيره :

(اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا) فانها ما كادت تتحقق من أن جنينا يتحرك فى أحشائها حتىأقبلت على الله بكيانها كله وايمانها كله ، جاعلة هذا الذى وهبهـا الله اياه خادما لله ، محررا من كل رباط يربطــه بالحياة ، ليكون كله فى خدمة بيت الله . وجاءها المخاض وولد المولود . فاذا هو

أنثى . ونظرت فى وجه مولودتها فحزنت أن جاءت على غير ما كانت تنتظر . انها كانت ترجو أن يكون وليدها ذكرا فهو الذى ترى فيه الوفاء بنذرها حيث هو الذى يصلح للخدمة فى بيت الله ومع هذا فقد نذرت مافى بطنها محررا لخدمة الله . وقد جاء ما فى بطنها أنثى.فهى والأمر كذلك لا تملك غير هذه التى أعطاها الله . فلتقدمها لله وفاء بما نذرت . وقوله تعالى (والله أعلم بما وضعت) رد على هذا الشعور الحزين الآسف الذى كان يعتمل فى نفسها ، وعزاء لها من أن تتحسر أو تحزن أو تعتذر لله فالله سبحانه أعلم بما وضعت ، وهو الذى قدر هذا وأراد الوليدة لأمر عظيم ستكشف عنه الأيام بعد قليل ، وهذا ما أشار اليه سبحانه بقوله (وليس الذكر كالأنثى) أى أن الذكر الذى كانت تتمناه امرأة عمران وترجوه لا يتحقق به هذا الأمر العظيم الذى جعل الله اظهاره على يد هذه الأنثى التى ستلد مولود البشرية البكر (عيسى عليه السلام) . فهل لو ولدت امرأة عمران ذكرا ، أكان لهذا الذكر أن يلد عيسى على الأسلوب الذى ولد به ؟ ولهذا جاء أسلوب التشبيه على وجه عجيب (وليس الذكر كالأنثى) وهذا ما جعل المفسرين يتأولون مختلف التأويلات له . مع أن الأمر لا يحتاج الى أكثر من نظرة حتى تنحل عقدة هذا التشبيه . فاذا هو فى أعلى درجات البيان والوضوح . انه ليس قائما على مطلق المفاضلة بين الذكر والأنثى ولكنه قائم على مفاضلة بين الذكر الذى كانت ترجوه امرأة عمران والأنثى التى وضعتها ، فاذا كان ذلك كذلك فهل لأحد قول فى أن هذا الذكر ليس كهذه الأنثى ؟ محال : ليس الذكر كالأنثى لتحقيق هذا الأمر العظيم الذى أراده الله. واختص به هذه الأنثى ،وهى أن تلد مولودا من غير أب ، هو المسيح عليه السلام .

(التفسير القرآنى ج ٣ ص ٥٤٦ باختصار)

وقال تعالى :

(... فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا).(مريم : ٢٦)

قال القرطبى فى تفسيره : (فقولى انى نذرت للرحمن صوما) أى صمتا قاله ابن عباس وأنس بن مالك . والذى تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت . لأن الصوم امساك والصمت امساك عن الكلام . وقيل هو الصوم المعروف . وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم الا بالاشارة ،

وعلى هذا تخرج قراءة أنس:«وصمتا»: بواو ، وأن الصمت كان عندهم فى الصوم ملتزما بالنذر ، كما أن من نذر منا المشى الى البيت « الكعبة » اقتضى ذلك الاحرام بالحجأو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه‌السلام أو ابنها على الخلاف المتقدم . بأن تمسك عن مخاطبة البشر ، وتحيل على ابنها فى ذلك ليرتفع عنها خجلها . وتتبين الآية فيقوم عذرها . وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التى فى الآية وهو قول الجمهور.وقالت فرقة معنى (قولى) بالاشارة لا بالكلام .

(وفيه أن السكوت عن السفيه واجب .ومن أذل الناس سفيه لم يجدمسافها).

ومن التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين . فيحتمل أن يقال انه قربة فيلزم بالنذر ، ويحتمل أن يقال ذلك لا يجوز فى شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام فى الشمس ونحوه،وعلى هذا كان نذر الصمتفى تلكالشريعة لا فى شريعتنا وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك « يعنى نذر الصمت » بالنطق بالكلام وهذا هو الصحيح لحديث أبى اسرائيل ، كما جاء فى البخارى عن ابن عباس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب اذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا : أبو اسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم . فقال النبى صلى اللهعليه وسلم : «مره فليتكلم وليستظل،وليقعد وليتم صومه». ومن سنتنا نحن فى الصيام الامساك عنالكلام القبيح.قال عليه الصلاة والسلام: « اذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فان امرؤقاتله أو شاتمه . فليقل انى صائم».وقالعليه الصلاة والسلام : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » . (تفسير القرطبى ج ١١ ص ٩٧ ، ٩٨ بتصرف)

وقال المراغى فى تفسيره :

(فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا) أى فان رأيت أحدا من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته فأشيرى اليهم انى أوجبت على نفسى لله صمتا ألا أكلم اليوم أحدا فان كلامى يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لا يقبل كلامه الدفع والرد وانى أنزه نفسى عن مجادلة السفهاء ، وليس الصمت عن الكلام من

شريعة الاسلام . فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال: ان الاسلام قد هـدم هذا فتكلمى . وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ، ثم جلسا . فقال القوم ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال انه نذر صوما لا يكلم اليوم انسيا . فقال له ابن مسعود : بئس ما قلت . انما كانت تلك المرأة قالت ذلك عذرا لها اذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج الا زنا فتكلم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فانه خير .
(تفسير المراغى جـ ١٦ ص ٤٥ ، ٤٦ بتصرف)

الأدلة من السنة :

الناس قديما وحديثا ولا سيما العقلاء والمنصفون منهم مجبولون على توجيه طاقاتهم فى الخير ، وفعل ما يمليه الواجب عليهم نحو خالقهم بديع السموات والأرض ، وقد دفعهم الحرص على المضى فى هذا السبيل دون انتكاس أو تردد أن نذروا فعل الخيرات التى ترضى الله وتبعدهم عن مساخطه . وكان هذا ديدن بعضهم فى الجاهلية ثم لما شرح الله صدورهم للاسلام راجعوا أعمالهم على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وسألوه عما يأتون منها ويذرون فأقرهم على ما أسلفوا من خير لأن الاسلام يشايع رغبات الخير ودواعى الفطرة .

١ــ عن عمر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله انى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام ، قال : « فأوف بنذرك » متفق عليه . وزاد البخارى فى رواية : فاعتكف ليلة . (سبل السلام للصنعانى جـ ٤ ص ١١٥)

قال الشوكانى : فى حديث عمر رضى الله عنه دليل على أنه يجب الوفاء بالنذر من الكافر متى أسلم . وقد ذهب الى هذا بعض أصحاب الشافعى ، وعند الجمهور : لا ينعقد نذر الكافر ، وحديث عمر حجة عليهم ، وقد أجابوا عنه بأن النبى صلى الله عليه وسلم لما عرف بأن عمر قد تبرع بفعل ذلك أذن له به . لأن الاعتكاف طاعة . ولا يخفى ما فى هذا الجواب من المخالفة للصواب ، وأجاب بعضهم بأنه صلى الله عليه وسلم أمره بالوفاء استحبابا لا وجوبا . ويرد بأن هذا الجواب لا يصلح لمن ادعى عدم الانعقاد . انتهى .
(تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ ٥ ص ١٤٢)

وقال ابن حزم : ومن نذر فى حال كفره طاعة لله عز وجل ثم أسلم لزمه الوفاء به لقوله تعالى : « فلا اقتحم العقبة • وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة • ثم كان من الذين آمنوا•••» فحض الله تعالى على فعل الخير وأوجبه لفاعله ، ثم على الايمان وعلى فعل الخير فيه أيضـا •

ولقول حكيم بن حزام : أى رسـول الله أرأيت آمورا كنت أتحنث بهـا فى الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم •«أسلمت على ما أسلفت من خير» رواه مسلم فى صحيحه (المحلى لابن حزم جـ ٨ ص ٢٥ بتصرف)•

العنصر الثـــانى

النـــذر لا يـكون الا لله

لقد شجع الاسلام أبناءه على السلوك المحمود والأعمال المرضية ، وتقبل منهم النذور والقربات التى تعود بنفعها على الروابط الانسانية والأواصر الاجتماعية ، والتى تصـلهم بالله العلى العظيم ، طالما أنه ابتغى بهـا وجه الله ، وخلصت من المقاصـد الدنيئة والأغراض الدنيوية • ولا ريب أن الله يستحق كل حمد وثناء وبر وكل عبادة وطاعة ، وأن من اتجه اليـه وسلك سـبيله ووجه نذره الى الله وحده ، فقد عـدل مع نفسـه ومع الله وسلك شرعة الحق والانصاف ، أما من أشرك فى نذره وابتغى به رياء الناس وثناءهم فقـد تعدى على حق ربه وحسبه أنه آثم فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق •

قال تعالى : (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار) • البقره : ٢٧٠

قال المراغى فى تفسيره :

قوله تعالى « وما أنفقتم من نفقه » فى خير أو شر ، صادرة عن اخلاص أو عن رياء اتبعت بمن أو أذى أو لم تتبـع بذلك سرا كانت أو علانية « أو نذرتم من نذر » فى طاعة أو فى معصية فهو قسمان :

١ ــ نذر قربة وبر وهو ما قصد به التزام الطاعة قربة لله تعالى كأن ينذر بذل مقــدار معين من المال ، أو صــلاة نافلة كقوله ان شفى الله مريضى فلله على أن أتصدق بكذا .

٢ ــ نذر لجاج وغضب . وهو ما يقصد به حث النفس على شيء أو منعها عنه كقوله : ان كلمت فلانا فعلى كذا .

واتفق الأئمة على وجوب الوفاء بالأول . وهو مخير فى الثانى بين الوفاء بما التزمه أو كفارة يمين . وكل هــذا ان كان النذر فى طاعة لأنه لا يتقرب الى الله الا بالطاعة . فان نذر فعل معصية حرم عليه فعله . فقد أخرج النسائى عن عمران ابن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النذر نذران فما كان من نذر فى طاعــة الله تعالى فذلك لله تعالى وفيــه الوفاء . وما كان من نذر فى معصية لله تعالى فذلك للشيطان ولا وفاء فيه . ويكفر ما كفر اليمين » ومن نذر مباحا فعله ، لأن فسخ العزائم من ضعف الارادة ومن ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم من نذرت أن تضرب بالدف وتغنى يوم قدومه بالوفاء .

« فان الله يعلمه » ويجازى عليه ان خيرا فخير وان شرا فشر وهــذا ترغيب وترهيب ووعد ووعيد : « وما للظالمين من أنصار » أى وما للذين ظلموا أنفسهم ولم يزكوها من رذيلة البخل أو من رذيلة المن والأذى وظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم وظلموا الأمة بترك الانفاق فى مصالحها العامة ، من أنصار لهم ينصرونهم يوم الجزاء فيدفعون عنهم بجاههم أو بمالهم وهذا كقوله « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » وفى هذا عبرة أيما عبرة لأولئك الباخلين بمالهم من المسلمين على المصالح العامة التى فيها خير للأمة ، وفيها سعادتها وعزها . فالمال هو قطب الرحى وعليه تدور مصــالح الأمم فى هذا العصر عصر المال . ومن ثم تدهورت الأمم الاســلامية وصارت فى أخريات الأمم مدنية ورقيا وحضــارة وتقدما . وفشــا الجهل بين أفرادها وأصبحت فى فقر مدقع وقد كان فى مكنتهم أن ينتشلوها من وهدتها . ويرفعوها من الحضيض الذى وصلت اليه ببذل شيء من المال الذى يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير العميم والفضل الكبير ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . (تفسير المراغى جـ ٣ ص ٤٣ ، ٤٤)

وقال القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى « وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار » كانت النذور من سيرة العرب تكثر منها فذكر الله تعالى النوعين : مايفعله المرء متبرعا ،وما يفعله بعد التزامه لنفسه .وفى الآية معنى الوعد والوعيد. أى من كان خالص النية فهو مثاب . ومن أنفق رياء أو لمعنى آخر مما يكسبه المن والأذى ونحو ذلك فهو ظالم يذهب فعله باطلا ولا يجد له ناصرا فيه . ومعنى « يعلمه »يحصيه . قاله مجاهد ، ووحد الضمير وقد ذكر شيئين : فقال النحاس التقدير « وما أنفقتم من نفقة » فان الله يعلمها « أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه » ثم حذف ويجوز أن يكون التقدير وما أنفقتم فان الله يعلمه وتعود الهاء على « ما » .

والنذر حقيقة العبارة عنه أن تقول : هو ما أوجبه المكلف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه . (تفسير القرطبى ج ٣ ص ٣٣١ ، ٣٣٢)

الأدلة من السنة :

لقد وقف الاسلام بأبنائه عند نذر الطاعة لله وحده ، وحاطه بما ينفى عنه كل شوائب الابتداع والضلال وأعلمهم أن الانسان مهما ألبس نذره ثوب الطاعة وأفرغ عليه هاله من القداسة فلا اعتداد به اذا كان بعيدا عن طاعة الله ورجاء قربه وثوابه . وأى طاعة لمن قام فى الشمس يصلى نفسه بلفحاتها والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب ، أليس هذا نوعا من رهبنة الأمم السابقة التى ابتدعوها وعذبوا بها أنفسهم ، وذاقوا وبالها ونكالها ، والاسلام يربأ بأبنائه عن هذا المسلك الطائش وها هو ذا نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم لا يترك أمثال هذا المسلك أو غيره من الأعمال الطائشة والطاعات المزيفة دون نكير أو هدى رشيد، وهاهو ذا يوجه أتباعه بأن النذر المحمود هو ما كان طاعة لله خاليا من الشرك ووساوس الشيطان .

١ ــ عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » رواه البخارى .
(فتح البارى بشرح البخارى ج ١٤ ص ٣٩٨)

٢ — وعن على رضى الله عنه قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انى قد نذرت أن أنحر ناقتى وكيت وكيت (١) قال : « أما ناقتك فانحرها وأما كيت وكيت فمن الشيطان (٢) » . رواه أحمد . وقال الهيثمى : فيه جابر الجعفى وهو ضعيف . وقد وثقه شعبة والثورى . (الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٤ ص ١٨٢) .

٣ — وعن عمرو بن شعيب عن ابنة كردم عن أبيها أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انى نذرت أن أنحر ثلاثة من ابلى ، فقال : « ان كان على جمع (٣) من جمع الجاهلية أو على عيد من أعياد الجاهلية أو على وثن فلا . وان كان على غير ذلك فاقض نذرك . قال : يا رسول الله ان على أم هذه الجارية مشيا (٤) أفأمشى ، (وفى رواية أفتمشى) عنها ؟ ، قال : نعم » رواه أحمد وابن ماجه وأبى داود ورجاله ثقات . (المصدر السابق جـ ١٤ ص ١٨٢) .

---

(١) وهو كناية عن الأمر نحو كذا وكذا .

(٢) الظاهر أن الرجل خلط فى نذره . فنذر طاعة وهى ذبح الناقة لله عزوجل ، ونذر معصية أو شيئا لا ينبغى ذكره . فعبر عنه بكيت وكيت : ولذلك نسبه للشيطان .

(٣) الجمع هنا اسم لجماعة الناس ، والمعنى : ان كان المراد بنحر الابل توزيعها على الناس الذين كانوا يجتمعون فى الجاهلية أيام فراغهم للهو واللعب أو أيام أعيادهم أو تقربا بالصنم فلا وفاء لذلك . لأنهم ما كانوا يجتمعون الا على الميسر وشرب الخمر ونحوه ، وان كان على غيره مما لم يحرمه الاسلام فاقض نذرك .

(٤) لم يذكر المشى الى أين . ولعله الى قربة من القرب التى أقرها الاسلام كالمشى الى البيت الحرام أو الى مسجد قباء ونحو ذلك .

٤ — وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى أعرابى قائما فى الشمس وهو يخطب . فقال : ما شأنك ؟ فقال : انى نذرت يا رسول الله أن لا أزال فى الشمس حتى تفرغ (١) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس هذا نذرا . (٢) انما النذر ما ابتغى به وجه الله (٣) عز وجل » رواه أحمد والبيهقى والطبرانى وسنده جيد .
(المصدر السابق ج١٤ ص ١٩١)

الآثار :

اذا كان الاسلام قد حرم النذر على الأموات لخلوه عن الطاعة والاخلاص لله وانحراف النوايا والمقاصد فيه عن سواء السبيل، فانه لا يرى غضاضة فى النذر على الأحياء برا بالصالحين وعونا لهم فى الحياة ، وذلك كى يعيش المجتمع كله مترابطا متراحما لا أثرة فيه ولا آنانية .

يقول فضيلة الشيخ سيد سابق :

ومن نذر لشيخ معين فان كان حيا وقصد الناذر الصدقة عليه لفقره وحاجته أثناء حياته كان ذلك النذر صحيحا . وهذا من باب الاحسان الذى حبب فيه الاسلام .

ولو كان ميتا وقصد الناذر الاستغاثة به وطلب قضاء الحاجات منه فان هذا نذر معصية لا يجوز الوفاء به . (فقه السنة ج ١٢ ص ٤٤ ، ٤٥)

---

(١) حتى تفرغ : أى تفرغ من خطبتك .

(٢) ليس هذا نذرا : أى ليس فعلك هذا محبوبا عند الشارع حتى تجعله نذرا . بل هو أقرب الى المعصية منه الى الطاعة . لأن فيه ايذاء للنفس فى شدة الحر .

(٣) يعنى أن النذر الذى يلزم شرعا ما كان بفعل شىء يتقرب به الى الله عز وجل .

العنصر الثالث
لا نذر فى معصـــية

الأدلة من السنة :

الاسلام دين المنطق السديد ، والعمل الرشيد ، دين أوجب على أبنائه طاعة الله ، والاستقامة على الدين ، وحرم عليهم العصيان ، واتباع سبل الشيطان .ومن ثم حظر عليهم كل أساليب الحمق والطيش والعناد ، ورغبهم فى تسوية خلافاتهم بالمعروف ابقاء على وشائج القربى وأخوة المؤمنين ، ووصولا الى ذلك دعاهم الى أن يقصروا نذرهم على طاعة الله ويخلصوه من المعصية ، والتدابر والقطيعة ، فمن نذر اخترام أحد أعضائه أو بتره ، أو تعذيب نفسه بالقيام فى الشمس ، والامساك عن الكلام ، فلا نذر عليه اذ لا نذر فى معصية الله .فليحرر الانسان نذره من أكدار المعصية وليعد على نذره يفعل ما فيه من طاعة وبر ، ويمسك عما فيه من معصية وقطيعة ويتكلم فيما يرضى الله ويعطى نفسه حظا من الرحمة والاعتدال .

١ ــ عن ابن عباس قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب اذا هو برجـل قائم فى الشـمس ؛ فسـأل عنـه ، فقالوا : هذا أبو اسرائيــل . نذر أن يقوم ولا يقعـد ، ولا يسـتظل ولا يتكلم ويصـوم . قال : مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه». رواه أبو داود .وأخرجه البخارى وابن ماجه. (عون المعبود شرح سنن أبى داود ج ٩ ص ١١٣ ، ١١٤).

يقول العلامة أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادى :

أبو اسرائيل هذا رجل من بنى عامر بن لؤى من بطون قريش .

وقال القاضى : وفى الحديث دليل على أن كل شىء يتأذى به الانسان مما لم يرد بمشروعيته كتاب ولا سـنة ، كالمشى حافيـا والجلوس فى الشمس ليس من طاعة الله تعالى . فلا ينعقد النذر به ، فانه صلى الله عليه وسلم أمر أبا اسرائيل فى هـــذا الحديث باتمـــام الصــوم دون غيره وهو محمول على أنه علم أنه لا يشـق عليـه .

وقال القرطبى فى قصـة أبى اسرائيـل : هذا أعظم حجة للجمهور فى عـدم وجوب الكفارة على من نذر معصية أو ما لا طاقة فيه .

وقال مالك : لم أسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بكفارة .

قال الخطابى : قد تضمن نذره نوعين الطاعة والمعصية .فأمره النبى صلى الله عليه وسلم بالوفاء بما كان منها من طاعة وهو الصوم ، وأن يترك ما ليس بطاعة من القيام فى الشمس ، وترك الاستظلال بالظل ، وذلك أن فى هذه الأمور مشاق تتعب البدن وتؤذيه . وليس فى شىء منها قربة الى الله تعالى ، وقد وضع عن هذه الأمة الأغلال التى كانت على من قبلهم . وتنقلب النذر فيه معصية . فلا يلزم الوفاء ولا تجب الكفارة فيه .

وقال العينى : وانما أمره باتمام الصوم لأن الصوم بخلاف أخواته ، وفيه دليل على أن السكوت عن المباح أو عن ذكر الله ليس بطاعة ، وكذلك الجلوس فى الشمس ، وفى معناه : كل ما يتاذى به الانسان مما لا طاعة فيه ولا قربة بنص كتاب او سنة كالجفاء . وانما الطاعة ما امر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم .اهـ.

وفيه دليل أيضا على ابطال ما أحدثته الجهلة المتصوفة من الأشغال الشديدة المحدثة ، والأعمال الشاقة المنكرة ، ويزعمون أنها طريقة تزكية نفوسهم . وهذا جهل منهم عن أحكام الشريعة فان النبى صلى الله عليه وسلم ما ترك لنا شيئا الا بينه . فمن اين وجدوها ؟ ومن اين اخذوها ؟!.

(عون المعبود شرح سنن ابى داود . للعظيم آبادى جـ ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ بتصرف)

٢ ــ وعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أن أخوين كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال ان عدت سألتنى القسمة فكل مالى فى رتاج الكعبة. فقال له عمر رضى الله عنه : ان الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يمين عليك ، ولا نذر فى معصية الرب ، ولا فى قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك . رواه أبو داود بسند صالح والنسائى.
(التاج الجامع للاصول : جـ ٣ ص ٨٧ ، ٨٨)

والرتاج بالكسر : الباب ، والمراد : فى مصلحتها . فأخوان من الأنصار كان بينهما عقار ونخيل ، فطلب أحدهما من أخيه القسمة فغضب وقال : ان كلمتنى فى هذا ثانيا فانى أرصد مالى كله للكعبة . فرد عليه عمر بأن الكعبة غنية عنه ، وأمره بالكفارة وتكليم أخيه وقال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يمين عليك » أى لا ينبغى تنفيذ هذا اليمين لأن الخروج من ملكه غير مستطاع وقطع اخيه معصية .

(التاج الجامع للأصول مع شرحه غاية المأمول جـ ٣ ص ٨٧ ، ٨٨)

ويقول العظيم آبادى :

قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا نذر فى معصية الرب » أى لا وفاء فى هذا النذر . « ولا فى قطيعة الرحم » وهو تخصيص بعد تعميم .

(عون المعبود شرح سنن أبى داود جـ ٩ ص ١٦٣ ، ١٦٤)

٣ — وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : ما قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا الا امرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة . قال ، وقال : « ألا وان من المثلةأن ينذر الرجل أن يخرم أنفه . ألا وان من المثلة أن ينذر الرجل أن يحج ماشيا فليهد هديا وليركب » رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبى .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٤ ص ١٨٨)

يقول الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا :

المثلة بضم الميم وسكون المثلثة : كخرم انف الرجل او قطعه او قطع اذن او يد أو رجل ، بل كل ما يشوه الانسان أو يلحق به ضررا يقال له مثلة : ولذلك نهى الشارع عن فعله . (المصدر السابق جـ ١٤ ص ١٨٨)

النذر للأموات :

يقول صاحب سبل السلام :

« وأما النذور المعروفة فى هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات فلا كلام فى تحريمها . لأن الناذر يعتقد فى صاحب القبر أنه ينفع ويضر ويجلب الخير ويدفع الشر ويعافى الأليم ويشفى السقيم .وهذا هو الذى كان يفعله عباد الأوثان بعينه .فيحرم كما يحرم النذر على الوثن . ويحرم قبضه لأنه تقرير على الشرك . ويجب النهى عنه وابانة أنه من أعظم المحرمات . وأنه الذى كان يفعله عباد الأصنام ، لكن طال الأمد حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا . وصارت تعقد اللواءات لقباض النذور على الأموات . ويجعل للقادمين الى محل الميت الضيافات . وينحر فى بابه من الأنعام . وهذا بعينه الذى كان عليه عباد الأصنام فانا لله وانا اليه راجعون . (سبل السلام للكحلانى الصنعانى جـ ٤ ص ١١١)

ويقول الشيخ سيد سابق :

وفى كتب الأحناف : أن النذر الذى يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها الى ضرائح الأولياء الكرام تقربا ، كأن

يقول : ياسـيدى فلان ان رد غائبى او عوفى مريضى او قضيت حاجتى فلك مـن النقد أو الطعام أو الشـمع أو الزيت كذا . فهو بالاجماع باطل وحرام لوجوه منهـا :

١ ـ أنه نذر لمخلوق . والنذر لمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة . وهى لا تكون الا لله .

٢ ـ أن المنذور له ميت والميت لا يملك .

٣ ـ أنه ان ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله تعالى فاعتقاده ذلك كفر والعياذ بالله . اللهم الا ان قال : يا ألله انى نذرت لك ان شفيت مريضى أو رددت غائبى أو قضيت حاجتى أن أطعم الفقراء الذين بباب الولى الفلانى أو أشـترى حصر المسجد أو زيتا لوقوده أو دراهم لمن يقوم بشـعائره الى غير ذلك مما فيه نفع للفقراء والنذر لله عز وجـل . وذكر الولى انما هو محـل لصرف النـذر لمستحقيه القاطنين برباطه أو مسجده ، فيجوز بهذا الاعتبار .

ولا يجوز أن يصرف ذلك لغنى ولا لشريف ولا لذى منصب أو ذى نسـب أو علم ما لم يكن فقيرا ، ولم يثبت فى الشرع جواز الصرف للأغنياء .
(فقه السنة للشيخ سيد سابق جـ ١٢ ص ٤٠ ـ ٤٢)

٤ ـ وعن هياج بن عمران البرجمى أن غلاما لأبيـه أبق فجعـل لله تبارك وتعالى عليـه ان قـدر عليه أن يقطع يده . قال فقـدر عليه . قال : فبعثنى الى عمران بن حصين رضى الله عنه ، قال : فقال : « اقرىء اباك السـلام واخبره أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يحث فى خطبته على الصـدقة وينهى عن المثلة . فليكفر عن يمينه ويتجاوز عن غلامه .. » . رواه أحمد وأبو داود وسنده جيد . (الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٤ ص ١٨٦)
ومعنى « فليكفر عن يمينه » أى نذره وانما عبر عنه باليمين لاستوائهما فى الكفارة وهذا القول وما بعده مدرج من قول الصحابى على ما يظهر .
(المصدر السابق جـ ١٤ ص ١٨٦ بتصرف)

الآثار :

لقد تواترت الآثار عن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ومن تبعهم باحسان بكراهة المعصية ، والغضاضة من السـوء ، والتقول من أى فكر أو عمل أخرق ،

ومن ثم التزموا بما حرمه الاسـلام من النذر على الأموات والأضرحة ، وجعلوا النذر لله وحده ، اذ هو الجدير وحده بالقربات ، وهو الذى ينفع ويكشف الضر ، وغيره مهما سـمت منزلته وعلا شأنه لا يملك لنفسـه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ، فحقيق بالناذر أن يهرع الى الله بنذر الطاعـة والقربات وما يشـيع بين الناس أقوم عريانا وأن أصوم يوما • فقال له ابن عباس : «البس ثيابك وصم يوما وصل بالأثر السيىء على نفسه وذوى قرباه •

١ ــ عن ابن عباس أن رجلا أتاه فقال : انى نذرت ان نجا أبى من الأسر أن أقوم عريانا وأن أصوم يوما • فقال له ابن عباس : إلبس ثيابك وصم يوما وصل قائما وقاعدا » •

٢ ــ وعن أبى الزبير أنه سمع جابرا يقول : لا وفاء لنذر فى معصية الله تعالى•

٣ ــ وعن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رجلا نذر أن لا يأكل مع بنى أخيه يتامى • فقال له عمر : اذهب فكل معهم •

٤ ــ وعن قيس بن أبى حازم أن أبا بكر الصـديق رضى الله تعالى عنه أمر امرأة نذرت أن تحج ساكتة بأن تتكلم •

٥ ــ وعن مسروق والشعبى : لا وفاء فى نذر معصية ولا كفارة •

(المحلى لابن حزم جـ ٨ ص ٥)

قال على : ومن تعمـد النذور ليلزمها من بعده • فهى غير لا زمة لا له ولمن بعـده • لأن النذر اللازم الوفاء به هو نذر الطاعة ، وهو الآن معصـية لا نذر طاعة لأنه لم يقصد به وجه الله تعالى وانما قصد ادخال المشـقة على مسلم فهو نذر معصية • (المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨) •

العنصر الرابع

أحكام تتعلق بالنذر

(أ) اذا نذر الانسان ماله لا يجب عليه الا ثلثه :

الأدلة من السنة :

ان الاسلام دين الله الذى ارتضاه لخلقه ، وبعث به أنبياءه ، وهو يتسم فى كل تشريعاته بالرحمة والرفق بالناس ، والاكتفاء منهم بالقدر الذى لا يعنتهم ولا يورطهم ، ويجعل عاقبة أمرهم حسرة وأسفا • والمسلم أواب منيب فاذا مسه طائف

من الشيطان أو أصابه بعض نزغاته سرعان ما يرجع الى الله ، وقد ينخلع عن ماله كله نذرا لله وصدقة له . والاسلام وان حمد للمسلم هذه النوايا الطيبة والشعور الانسانى الذى يمس الحياة بيد حانية، ويعين على تحمل شظف العيش ، ويخفف بعض ما فيها من آلام ، فانه يرضى منهم بالثلث فقط فيما نذروا توفيقا بين رغبة التائب فى فعل الخير ، وبين متطلبات نفسه ومن يعول .

١ ـ عن كعب بن مالك أنه قال : « يا رسول الله ان من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة الى الله ورسوله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قال : قلت : انى أمسك سهمى الذى بخيبر» متفق عليه.
(نيل الأوطار للشوكانى ج ٨ ص ٢٢٩)

٢ ـ وعن الحسين بن السائب بن أبى لبابة أخبر أن أبا لبابة بن عبد المنذر لما تاب الله عليه قال يا رسول الله : ان من توبتى أن أهجر دار قومى وأساكنك . وانى أنخلع من مالى صدقة لله ولرسوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«يجزى عنك الثلث » . رواه أحمد ومالك فى الموطأ وأبو داود ، وسنده جيد .
(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى ج ٩ ص ١٨٣ ، ١٨٤)

يقول محمد بن علان الصديقى : يقول كعب بن مالك : أى « ان من » شكر «توبتى» أو من شكر الله على توبتى أى التوفيق لها وقبولها.أو من علامة صدق توبتى ، ان انخلع : اى اخرج « من مالى » اى من جميعه ـ أو اعرى من مالى كما يعرى الانسان اذا خلع ثوبه (١) ـ أى أتصدق متقربا بها « الى الله تعالى والى رسوله » أعاد الجار للاهتمام وتنبيها على أن التقرب اليه صلى الله عليه وسلم مطلوب على سبيل الاستقلال. قال تعالى :«من يطع الرسول فقد أطاع الله».

وقال القرطبى : أى « ان » على ذلك فهى صيغة نذر والتزام خرجت مخرج الشكر وابتغاء الثواب وأقره عليه النبى صلى الله عليه وسلم فكان ذلك جائزا ، ولم يدخل فى عموم النذر المنهى عنه . وعلى مقتضى هذا اللفظ فقد وجب عليه اخراج كل ماله . لكن لما كان ذلك يؤدى الى أن يبقى فقيرا محتاجا ، وربما أفضى

(١) أفاد هذا المعنى الشيخ أحمد عبد الرحمن فى تعليقه على مسند أحمد فى (الفتح الربانى ج ١٤ ص١٩٢) .

به الى سؤال الناس والى الدخول فى مفاسد أمره بامساك البعض . قال : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك بعض مالك » أى دفعا لضرر التصدق بكله « فهو خير لك » . (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج ٢ ص ١٤٨ ، ١٤٩ بتصرف) .

وقال الشيخ احمد عبد الرحمن البنا :

ويستفاد من حديثى الباب (١): أن من نذر الصدقة بماله كله يجزىء التصدق بثلث ماله . وحديثا الباب وان لم يكن فيهما تصريح بالنذر فانهما يطابقان الترجمة من حيث أن كعب بن مالك جعل من توبته انخلاعه من ماله صدقة الى الله ورسوله . وفى الانخلاع معنى الالتزام . والنذر معناه فى الشرع التزام المكلف شيئا لم يكن عليه منجزا أو معلقا .

وقد اختلف العلماء فيمن نذر أن يتصدق بجميع ماله ، فقالت الحنفية : يتصدق بجميع أمواله الزكوية استحبابا . ولهم قول آخر أنه يتصدق بجميع ما يملكه ، وبه قالت الشافعية ، وقالت المالكية : يتصدق بثلث جميع أمواله الزكوية وغيرها ، وعن الامام أحمد روايتان : احداهما : يتصدق بجميع أمواله . والأخرى : يرجع فى ذلك الى مايراه من مال . والله أعلم .
(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى ج ١٤ ص ١٩٢ ، ١٩٣)

(ب) لا نذر على الانسان فيما لا يملك :

من نذر فيما لا يملك فقد تجاوز حده ، وتعدى حقه ، وتصرف فى مال غيره بغير حق . اذ لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها ، ولا يحل مال امرىء مسلم الابطيب نفس منه . ومثل هذا النذر لا قيمة له ، ولا شىء على الناذر فى هذا النذر . اذ أن فاقد الشىء لا يعطيه . وقد ثبت فى السنة المطهرة ما يفيد الحقيقة التى لا ارتياب فيها .

١ — عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : «ليس على الرجل نذر فيما لا يملك» متفق عليه .(نيل الأوطار للشوكانى ج ٨ ص٢٥١)

---

(١) حديثى الباب هما حديث كعب بن مالك ، وحديث أبى لبابة ابن عبد المنذر .

٢ـ وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: كانت العضباء لرجل من بنى عقيل، وكانت من سوابق الحاج فأسر الرجل وأخذت العضباء معه . الحديث (وفيه) وحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لرحله أى اختارها لنفسه وأعدها لرحيله ـ قال : ثم ان المشركين أغاروا على سرح المدينة فذهبوا بها وكانت العضباء فيه ، قال : وأسروا امرأة من المسلمين (١) ، قال : فكانوا اذا نزلوا أراحوا ابلهم بأفنيتهم ـ أمام بيوتهم ـ قال : فقامت المرأة ذات ليلة بعد ما نوموا (بتشديد الواو مبالغة فى ناموا) فجعلت كلما أتت على بعير رغا (٢) . حتى أتت على العضباء .فأتت على ناقة ذلول(٣)مجرسة(٤). فركبتها ثم وجهتها قبل المدينة ، قال : ونذرت ان الله أنجاها عليها لتنحرنها ، قال : فلما قدمت المدينة عرفت الناقة . فقيل : ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بنذرها . أو أتته فأخبرته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئسما جزتها ، أو بئسما جزيتها (٥) . ان الله أنجاها عليها لتنحرنها ، قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا وفاء لنذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى ج ١٤ ص ١٨٤ ، ١٨٥)

قال المباركفورى : لا يصح النذر ولا ينعقد فى شىء لا يملكه حين النذر حتى لو ملكه بعده لم يلزمه الوفاء به ولا الكفارة عليه .

(تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٥ ص ١٢٤)

وقال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا :

ظاهره ـ أى حديث عمران ـ يدل على أن من نذر معصية كشرب الخمر

---

(١) هى امرأة أبى ذر رضى الله عنه .

(٢) رغا : أى صوت .

(٣) ذلول : أى سهلة الانقياد .

(٤) مجرسة : بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الراء مفتوحة . أى مجربة مدربة فى الركوب والسير .

(٥) أى بئس نذرها الذى نذرته ، وهو ان الله تبارك وتعالى أنجاها الخ .

ونحو ذلك فنذره باطل لا ينعقـد ولا يلزمه كفـارة يمين ولا غيرها . وفى ذلك خلاف بين الأئمة (١) .

وقوله : « ولا فيمـا لا يملك ابن آدم » قال العلمـاء : هو محمـول على ما اذا أضـاف النـذر الى معين لا يملكـه ، كقوله : ان شـفى اللـه مريضى فلله على أعتق عبـد فلان ، أو أتصـدق بثوبه أو بداره أو نحو ذلك . فأما اذا التزم فى الذمة شـيئا لا يملكه فيصـح نذره . مثاله : قال : ان شـفى الله مريضى فلله على عتق رقبة . وهو فى ذلك الحال لا يملك رقبة ولا قيمتها فيصح نذره . وان شفى الله المريض ثبت العتق فى ذمته ، قاله النووى .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى ج ١٤ ص ١٨٥)

(ج) لا نذر على الانسان فيما لا يطيقه :

النذر شأنه شأن العبادات الأخرى التى نعبد الله بها وتتقرب بها اليه وينبنى على اليسر ورفع المشقة . ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فمن نذر الحج الى بيت الله الحرام ماشيا ، فقد شدد على نفسه وأخذها بما ليس فى وسـعها من المشى المتوالى ليالى وأياما . والاسلام لا يعتبر مثل هذا نذرا ، ولا يطالب الانسان الا بما وسعته طاقته ، اذ لا طاعة الا فيما يستطاع ، والله بنا رءوف رحيم ، يعلم أن الانسان خلق ضعيفا فأعفاه فيما لا تتحمله بنيته ، وها هو ذا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم الى العالمين قد سـلب اسـم النذر فيما يعجز الانسـان عنه ، وأوجبه فيما يطيق ، كى يعبد العابد ربه فيما نذر عن رغبة وشوق ، عبادة خالية من الارهاق والكراهية والضجر والملل والسآمة .

١ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أدرك شيخا يمشى بين ابنيه متوكئا عليهما ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما شـأن هذا

---

(١) أفاد النووى على شرح صحيح مسلم . أن مالكا والشافعى وأبو حنيفة وداود وجمهور العلماء على أن النذر فى معصية باطل لا ينعقـد ولا تلزمه كفارة يمين ولا غيرها . وأن أحمـد قال بوجوب اليمين . ودليل الجمهور قوى وهو حديث « لا وفاء لنذر فى معصية » ودليل أحمد ضعيف وهو حديث « وكفارته كفارة يمين » .

الشيخ ؟ فقال ابناه : يا رسول الله كان عليه نذر . فقال : اركب أيها الشيخ فان الله عز وجل غنى عنك وعن نذرك » .رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

قال النووى : هذا محمول على العاجز عن المشى فله الركوب وعليه دم .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى ج ١٤ ص ١٨٨ ، ١٨٩)

٢ ــ وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك رجلين وهما مقترنان يمشيان الى البيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بال القران ؟ . قالا : يا رسول الله نذرنا أن نمشى الى البيت مقترنين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس هذا نذرا فقطع قرانهما » .

« قال سريج ــ احد رواة هذا الحديث ــ فى حديثه : انما النذر ما ابتغى به وجه الله عز وجل » رواه أحمد واسناده حسن .

ومعنى قوله : « وهما مقترنان » أى ربط أحدهما نفسه بالآخر . كما يدل على ذلك حديث ابن عباس عند البخارى والامام أحمد « أن النبى صلى الله عليه وسلم مر وهو يطوف بالكعبة بانسان قد ربط يده بانسان آخر بسير أو بخيط أو بشىء غير ذلك فقطعه النبى صلى الله عليه وسلم بيده ثم قال : قده بيده » .

والسير : ما يقد من الجلد وهو الشراك ــ والقد : الشق طولا ، وغير السير والخيط نحو المنديل الذى يربط به والوتر أو غيرهما ، وقده من القياد أو القود وهو الجر والسحب .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى ج١٤ ص١٨٨ ،١٩٠ ،ج١٢ ص٦٥ بتصرف)

٣ ــ وعن عقبة بن عامر قال : نذرت أختى أن تمشى الى بيت الله حافية فأمرتنى أن أستفتى لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتمش ولتركب » متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

يقول الامام محمد بن اسماعيل الكحلانى : « دل الحديث على أن من نذر أن يمشى الى بيت الله لا يلزمه الوفاء . وله أن يركب لغير عجز . واليه ذهب الشافعى ، وذهبت الهادوية الى أنه لا يجوز الركوب مع القدرة على المشى . فاذا عجز جاز له الركوب . ولزمه دم مستدلين برواية أبى داود لحديث عقبة بأنه قال فيه : « ان أختى نذرت أن تحج ماشية وأنها لا تطيق ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل لغنى عن مشى أختك فلتركب ولتهد

بدنة »، وذكره الهيثمى من رواية أحمد ورجاله رجال الصحيح بلفظ :« أن أخته نذرت أن تمشى الى البيت قال : مر أختك أن تركب ولتهد بدنة» .. قال الهادوية: فتفيد رواية الصحيحين بأن المراد ولتمش ان استطاعت وتركب فى الوقت الذى لا تطيق المشى فيه أو يشق عليها .

وقال البخارى : لا يصح فى حديث عقبة بن عامر الأمر بالاهداء . فان صح فكأنه أمر ندب . وفى وجهه خفاء .

(سبل السلام لمحمد بن اسماعيل جـ ٤ ص ١١٣ ، ومجمع الزوائد للهيثمى جـ ٤ ص ١٨٨ : ١٨٩ بتصرف) .

وقال الامام الحافظ بن رشد :

اتفق العلماء على لزوم النذر بالمشى الى بيت الله .أعنى اذا نذر المشى راجلا، واختلفوا اذا عجز فى بعض الطريق . فقال قوم : لا شىء عليه ، وقال قوم عليه . واختلفوا فيماذا عليه على ثلاثة أقوال : فذهب أهل المدينة الى أن عليه أن يمشى مرة أخرى من حيث عجز وان شاء ركب وأجزأه وعليه دم . وهذا مروى عن على ، وقال أهل مكة عليه هدى دون اعادة مشى ، وقال مالك : عليه الأمران جميعا . يعنى أنه يرجع فيمشى من حيث وجب وعليه هدى . والهدى عنده بدنة أو بقرة أو شاة ان لم يجد بقرة أو بدنة .

وسبب اختلافهم منازعة الأصول لهذه المسألة ومخالفة الأثر لها . وذلك أن من شبه العاجز اذا مشى مرة ثانية بالمتمتع والقارن من أجل أن القارن فعل ماكان عليه فى سفرين فى سفر واحد . وهذا فعل ماكان عليه فى سفر واحد فى سفرين . قال : يجب عليه هدى القارن أو المتمتع ، ومن شبهه بسائر الأفعال التى تنوب عنها فى الحج اراقة الدم . قال : فيه دم . ومن أخذ بالآثار الواردة فى هذا الباب. قال : اذا عجز فلا شىء عليه . قال ابو عمر والسنن الواردة الثابتة فى هذا الباب دليل على طرح المشقة . وهو كما قال . وأحدها حديث عقبة بن عامر الجهنى قال : نذرت أختى أن تمشى الى بيت الله عز وجل فأمرتنى أن أستفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت لها النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : لتمش ولتركب . أخرجه مسلم . وحديث أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم رأى رجلا يهادى بين ابنيه فسأل عنه ، فقالوا نذر أن يمشى . فقال عليه الصلاة والسلام : ان الله لغنى عن تعذيب هذا نفسه وأمره أن يركب . وهذا أيضا ثابت . (بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد جـ ١ ص ٤١١ ، ٤١٢)

وقال ابن حزم :

ومن نذر مالا يطيق أبدا لم يلزمه . لقول الله تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها» وكذا من نذر نذرا فى وقت محدود فجاء ذلك الوقت وهو لا يطيقه . فانه غير لازم له لا حينئذ ولا بعد ذلك .(المحلى لابن حزم جـ ٨ ص ٢٥)

العنصر الخامس

الوفاء بالنذر

ان السمة البارزة لمجتمع المؤمنين والصفة المميزة للصالحين ، هى البر بالوعود والوفاء بالنذور وامضاء العقود مع الله مهما شق ذلك عليهم ، وكلفهم عناء العيش وركوب الأخطار : وترك الديار . وقد نزلت فى شأنهم الآيات تنوه بشأنهم وتمدحهم وتصف الأبرار منهم بأنهم الذين لا يقفون عند أداء ما افترضه الله عليهم ؛ أو سنة رسوله الكريم . بل قد يتجاوزون ذلك الى مزيد من القربات التى تسمو بهم وتخلد ذكرهم فى العالمين .

قال تعالى « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » .

(سورة الانسان الآية ٧)

قال القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى «يوفون بالنذر» أى لا يخلفون اذا نذروا . وقال معمر عن قتادة بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات . وقال مجاهد وعكرمة : يوفون اذا نذروا فى حق الله جل ثناؤه . وقال الفراء والجرجانى وفى الكلام اضمار . أى كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا . والعرب قد تزيد مرة «كان» وتحذف أخرى . والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شىء يفعله ، وان شئت قلت فى حده : النذر : هو ايجاب المكلف على نفسه من الطاعات مالو لم يوجبه لم يلزمه . وقال الكلبى « يوفون بالنذر » أى يتممون العهود . والمعنى واحد ، وقد قال الله تعالى «ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم» أى أعمال نسكهم التى ألزموها أنفسهم باحرامهم بالحج وهذا يقوى قول قتادة .

وأن النذر يندرج فيه ما التزمه المرء بايمانه من امتثال أمر الله . قاله القشيرى وروى أشهب عن مالك أنه قال « يوفون بالنذر » وهو نذر العتق والصيام والصلاة . وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك « يوفون بالنذر » قال النذر هو اليمين .

قوله تعالى « ويخافون » أى يحذرون « يوما » أى يوم القيامة « كان شره مستطيرا » أى عاليا داهيا فاشيا وهو فى اللغة ممتدا . والعرب تقول : استطار الصدع فى القارورة والزجاجة ، واستطال اذا امتد . ويقال استطار الحريق اذا انتشر ، واستطار الفجر اذا انتشر الضوء . وكان قتادة يقول : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال مقاتل : كان شره فاشيا فى السماوات فانشقت . وتناثرت الكواكب . وفزعت الملائكة وفى الأرض نسفت الجبال وغارت المياه . (تفسير القرطبى ج ١٩ ص ١٢٧ ، ١٢٨)

وقال ابن كثير فى تفسيره :

قوله تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) أى يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . قال الامام مالك عن طلحة بن عبد الملك الأيلى عن القاسم ابن مالك عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » رواه البخارى من حديث مالك . ويتركوا المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذى شره مستطير . أى منتشر عام على الناس الا من رحم الله . قال ابن عباس : فاشيا . وقال قتادة استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . قال ابن جرير ومنه قولهم : استطار الصدع فى الزجاجة ، واستطال يعنى ممتدا فاشيا . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٤٥٤)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن :

قوله تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) .

النذر : ما ألزم الانسان به نفسه من طاعات وقربات ومنه قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام : « انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا » (مريم ٢٦) والوفاء بالنذر : هو امضاء لعقد عقده الانسان مع ربه بما يتقرب به

اليه ، فهو عقد ملزم لا ينبغي الفكاك منه . والله سبحانه وتعالى يقول « يأيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » (١ : المائدة) وهذا النذر هو من صفات الابرار حيث لا يقفون عند اداء ما فرض الله سبحانه وتعالى عليهم من فرائض ، وما أوجب عليهم من واجبات ولا ما سن لهم الرسول الكريم من سنن . بل يتجاوزون ذلك الى طلب المزيد من القربات الله فى كل ما يرون لله سبحانه فيه رضا ولو شق ذلك عليهم وحرمهم لذة النوم ، والشبع ، والرى . ولم تعطف هذه الايه على ما قبلها لانها جواب عن سؤال هو تعقيب على ما ذكر فى الايات السابقة . مما وعد الله سبحانه وتعالى به الأبرار من عظيم المثوبة وكريم الجزاء ، فكان مما يسأل عنه فى هذا المقام هو وبم استحق هؤلاء المكرمون هذا التكريم ، وماذا كان شأنهم فى الحياة الدنيا ؟ فكان الجواب « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » (الانسان : ٧) وجيء بالجواب فى صورة المستقبل (يوفون) مع أن السؤال عن حال من وقع منهم الوفاء كان فعلا فى الماضى قد وقع منهم واستحقوا الجزاء الحسن عليه .

وذلك للاشارة الى أن هذا الفعل ليس مقصورا على جماعة بأعيانهم فى زمن معين ، بل هو فعل ممتد الزمن على مدى الحياة الانسانية فى هذه الدنيا . فهو فعل متجدد الأزمان والأعيان . وكان الجواب هو هكذا ، هذا الجزاء لمن يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا .

وقوله تعالى « ويخافون يوما كان شره مستطيرا » صفة أخرى من صفات هؤلاء الأبرار وهى أنهم يخافون لقاء الله يوم القيامة وما يغشى الناس فى هذا اليوم من أهوال وشدائد . فهو يوم شره عظيم مستطير ، فمن لم يعمل حسابه ، ويتزود له بالأعمال الصالحة احتواه هذا الشر واشتمل عليه. انه امتحان قاس لا يجوز بحره المتلاطم الا من أعد نفسه له .

(التفسير القرآنى للقرآن للاستاذ عبد الكريم الخطيب ج ٢٩ ص ١٣٦١ ، ١٣٦٢)

قال تعالى (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) الحج : ٢٩

قال القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى (وليوفوا نذورهم) أمروا بوفاء النذر مطلقا الا ما كان معصية لقوله عليه السلام « لا وفاء لنذر فى معصية الله » . وقوله : « من نذر ان يطيع الله

فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » . (تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٥٠)

وقال الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن :

قوله تعالى (وليوفوا نذورهم) اى ليؤدوا لله ما كانوا قد نذروه تقربا اليه من ذبائح وصدقات وغيرها ، وان خير وقت للوفاء بهذه النذور هو فى هذا الوقت وفى هذا الموطن . بل ان هـذا يكاد يكون امرا لازما هنا ، حيث سـبق آخر عمـل من اعمال الحج وهو الطواف بالبيت العتيق . طواف الوداع كما يقول سبحانه بعـد ذلك « وليطوفوا بالبيت العتيق » فبالوفاء بالنذور وبالطواف بالبيت تختم أعمال الحج وكما كان أول أعمال الحج هو لقاء البيت العتيق والطواف به طواف تسـليم ، يكون آخر عمـل من أعمال الحج هو الطـواف بالبيت طواف وداع واستئذان وشكر ، لما لقى فى رحاب هذا البيت من ألطاف الله وأفضاله وما تلقى من آلائه ونعمائه .

(التفسير القرآنى للقرآن للاستاذ عبد الكريم الخطيب ج١٧ ، ١٠٢٦).

قال ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم :

قوله تعالى : « وليوفوا نذورهم » قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى نحر ما نذر من أمر البدن . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد « وليوفوا نذورهم » نذر الحج والهـدى ، وما نذر الانســان من شىء يكـون فى الحج ، وقال ابراهيم ابن ميسرة عن مجاهد « وليوفوا نذورهم » قال الذبائح . وقال ليث بن ابى سـليم عن مجاهـد « وليوفوا نذورهم » كل نذر الى أجل . وقال عكرمة « وليوفوا نذورهم » قال : حجهم وكذا روى الامام أحمد حدثنا سفيان فى قوله « وليوفوا نذورهم » قال : نذور الحج فكل من دخل الحج فعليه من العمـل فيه الطواف بالبيت والسعى بين الصـفا والمروة والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمى الجمار على ما أمروا به . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٢١٧ ، ٢١٨ بتصرف).

(أ) الوفاء بالنذر من الحى :

الأدلة من السـنة :

كانت الرغبة الصـادقة فى فعل الخير وعمل البر تدفع بعض المؤمنين الأبرار الى نذر الصدقات ، وبذل القربات ، والتطوع لله بأنواع العبادات التى تقرب اليه

زلفى ، طمعا فى عفوه ، وابتغاء مرضاته ، ونيل ثوابه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نورهم ومرجعهم الذى يستهدونه فيما يفعلون أو يذرون ، والرسول صلى الله عليه وسلم بدوره لم يكن يبخل عليهم بالنصيحة الهادية التى تزن قرباتهم ونذورهم بميزان الدين ، فكان يقرهم على ما يراه منها ، طاعة لله وبرا ، وحيث لا شرك فيه ولا وثنية ، فليقل أو يكثر المرء من النذور ، ويوف فالوفاء مطلوب ، وقد أوصى به النبى صلى الله عليه وسلم طالبى الخير والكمال .

١ ــ عن ثابت بن الضحاك قال : نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر ابلا ببوانة[1] (بضم الموحدة وفتحها) فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : هل كان فيها وثن يعبد ؟ قال : لا ، قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ فقال : لا ، فقال : « أوف بنذرك . فانه لا وفاء لنذر فى معصية الله تعالى ، ولا فى قطيعة رحم ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود والطبرانى واللفظ له ، وهو صحيح الاسناد .وله شاهد من حديث كردم بفتح الكاف وسكون الراء وفتح الدال المهملة عند أحمد .

(سبل السلام للصنعانى جـ ٤ ص ١١٤)

وهذا دليل على أن من نذر أن يتصدق ويأتى بقربة فى محل بعينه أنه يتعين عليه الوفاء بنذره ، مالم يكن فى ذلك المحل شيء من أعمال الجاهلية ، والى هذا ذهب جماعة من أئمة الهادوية . وقال الخطابى : انه مذهب الشافعى . وأجازه غيره لغير أهل ذلك المكان .اهـ. ولكنه يعارضه حديث « تشد الرحال » فيكون قرينة على أن الأمر هنا للندب كذا قيل .

(سبل السلام مع شرحه بلوغ المرام جـ ٤ ص ١١٤)

٢ ــ وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : « أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم . فقالت : يارسول الله انى نذرت أن أضرب على رأسك بالدف . قال :أوفى بنذرك ،قالت: انى نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا ــ مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية ــ قال : لصنم ؟ قالت : لا ، قال : لوثن ؟ قالت لا ، قال : أوفى بنذرك » رواه أبو داود والترمذى بسند صحيح .

(التاج جـ ٣ ص ٨٥ ، عون المعبود جـ ٩ ص ١٣٨ ، ١٣٩)

(١) موضع بالشام . وقيل : أسفل مكة دون يلملم .

ولفظ الترمذي : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه ، فلما عاد جاءت جارية سوداء . فقالت : يارسول الله انى كنت نذرت ان ردك الله صالحا أن أضرب بين يديك بالدف . قال أوف بنذرك » .

وفى رواية لابن حبـان : « ان كنت نذرت فافعلي . والا فلا ، قالت : بلى نذرت . فقعد رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقامت ، فضربت بالدف فدخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل عمر ، فألقت الدف وجلسـت عليه . فقال صلى الله عليه وسلم : انى لأحسب الشـيطان يفرق منك يا عمر » قال الزيلعى وهذا حديث صحيح .

(التاج الجامع للأصول مع شرحه غاية المأمول جـ ٣ ص ٨٥ ، وعون المعبود شرح سنن ابى داود جـ ٩ ص ١٣٩)

قال الشيخ منصور على ناصف :

ففيه أن النذر فى المباح ينعقد وعليه بعضهم . ولحديث : «لانذر فى معصية» فنفاه عنها فقط وبقى فى غيرها ، وقال آخرون : لا ينعقـد فى المباح لحديث أبى اسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ويصـوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

وقوله صلى الله عليه وسـلم للمرأة التى نذرت ألصنم ؟ قالت : لا . قال : لوثن . قالت : لا . قال : أوف بنذرك . أى فلما علم صلى الله عليه وسلم أن النحر ليس لصنم فى هذا المكان أمرها بالنحر فيه . فمن نذر نذرا كهدية أوصدقة لمكان من الأمكنة فانه يجب عليـه الوفاء به فى ذلك المكان ولا يصرفه لغيره ، وعليـه الشافعى وجماعة .

وقال غيرهم : يجوز له نقله لحصول مراده ببذله للعباد ، وهذا اذا لم يقبضه أهل الجهة المنذور لها ، والا حرم أخذه منهم لأنهم ملكوه بالقبض لما سـبق فى البيوع « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه » . والمراد بقبضـه : دخوله فى حماهم كدار أو صناديق خاصة بهم .

(التاج الجامع للأصول مع شرحه غاية المأمول جـ ٣ ص ٨٥ بتصرف)

٣ — وعن زياد بن جبير قال : رأيت رجلاً جاء الى ابن عمر فسأله أنه نذر أن يصوم كل يوم أربعاء : فأتى ذلك على يوم أضحى أو نحر . فقال ابن عمر : أمر الله بوفاء النذر ونهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صـوم يوم النحر » رواه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم .

(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٤ ص ١٩٤)

قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا : هذا الجواب يشعر بالتوقف عن الجزم فى المسألة . قال العلماء : توقف ابن عمر عن الجزم بجوابه لتعارض الأدلة عنده وهذا من تورعه ، ويحتمل أنه يشير للسائل بأن الاحتياط لك القضـاء ، فيصوم يوما آخر مكان يوم النذر جمعا بين أمر الله بالوفاء بالنذر وبين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك صوم يومى العيدين .

قال النووي رحمه الله : أجمع العلماء على تحريم صوم هذين اليومين (يعنى عيد الفطر وعيد الأضحى) بكل حال سواء صامهما عن نذر أو تطوع أو كفارة أو غير ذلك ، أو نذر صومهما متعمدا لعينهما . قال الشـافعى والجمهور : لا ينعقد نذره ولا يلزمه قضاؤهما ، وقال أبو حنيفة : ينعقد ويلزمه قضاؤهما . قال : فان صامهما أجزأه وخالف الناس كلهم . أهـ (المصدر السابق جـ ١٤ ص ١٩٤)

٤ ــ وعن عمران بن حصين أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : « خيركم قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران : لا أدرى ذكر ثنتين أو ثلاثة بعد قرنه « ثم يجىء قوم ينذرون ولا يفون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، ويظهر فيهم السمن » رواه البخارى .

قال ابن بطال ما ملخصـه : سوى بين من يخون أمانته ومن لا يفى بنذره . والخيانة مذمومة ، فيكون ترك الوفاء بالنذر مذموما .

(فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر جـ ١٤ ص ٣٩١ ، ٣٩٢)

(ب) الوفاء بالنذر عن الميت :

الأدلة من السنة :

ان وفاء المؤمنين بالنذر قد بلغ من السمو والرفعة وقوة الالتزام به فى الحياة أن صار عاملا على تأكيد الروابط بينهم ، ونوعا من الاعتراف بالجميل والشكر على المعروف لأهله ، وذلك بأن الواحد منهم لم يكن يوفى بالنذر عن نفسه فحسب ، وانما كان يتطوع بالوفاء بالنذر عن والديه ، واخوته ، وأخواته ، وسائر أقربائه ، اذا عاجلتهم المنية واخترمهم الأجل المحتوم قبل الوفاء بنذرهم ، وبهذا الشعور الجميل والعمل الطيب من ذويهم تطلق أرواح الموتى من محبسها ، وتطير فرحة مسرورة الى مسـتقرها من الفردوس الأعلى . وفى ذلك فليوف البارون وليرحم الراحمون من سبقوهم باحسان .

١ ــ عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن سـعد بن عبادة الأنصـارى

استفتى النبى صلى الله عليه وسلم فى نذر كان على أمه ، فتوفيت قبل أن تقضيه، فأفتاه : « أن يقضيه عنها » فكانت سنة بعد . رواه البخارى .

٢ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : ان أختى نذرت أن تحج وأنها ماتت . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ » قال : نعم . قال : « فاقض الله فهو أحق بالقضاء » رواه البخارى .

(فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر جـ ١٤ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥)

٣ ـ وعنه أن امرأة ركبت البحر فنذرت ان نجاها الله أن تصوم شهرا فنجاها الله فلم تصم حتى ماتت . فجاءت بنتها أو أختها الى النبى صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تصوم عنها . رواه أبو داود والنسائى بسند صالح .

(التاج الجامع للأصول للشيخ منصور على ناصف جـ ٣ ص ٨٦)

قال عياض : والذى يظهر أن نذر أم سعد كان فى المال أو مبهما . وقال ابن حجر : بل ظاهر الحديث أنه كان معينا عند سعد .

وقد ذهب الجمهور : الى أن من مات وعليه نذر مالى أنه يجب قضاؤه من رأس ماله وان لم يوص ، الا ان وقع النذر فى مرض الموت فيكون من الثلث . وشرط المالكية والحنفية أن يوصى بذلك مطلقا . واستدال الجمهور بقصة أم سعد هذه ، فان لم يخلف تركة أو لم يوص عند المالكية والحنفية فقضاء النذر حينئذ يكون مستحبا وعليه يحمل قول الطيبى . وعند الجمهور الحديث محمول على التبرع .

وقول الزهرى : « فكانت سنة بعد » استدل بهذه الزيادة ابن حزم للظاهرية ومن وافقهم فى أن الوارث يلزمه قضاء النذر عن مورثه فى جميع الحالات .

قال أبو محمد « ابن حزم » : فان كان نذر صلاة صلاها عنه وليه أو صوما كذلك أو حجا كذلك أو عمره كذلك أو اعتكافا كذلك أو ذكرا كذلك . وكل بر كذلك . فان أبى الولى استؤجر من رأس ماله من يؤدى دين الله تعالى قبله ، وهو قول أبى سليمان وأصحابنا .(فتح البارى بشرح البخارى جـ ١٤ ص ٣٩٦ ، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى جـ ٥ ص ١٥١ ، المحلى لابن حزم جـ ٨ ص ٢٨ بتصرف) .

وقال الحنفيون : لا يصام عن الميت مطلقا ـ رمضان أو كفارات أو نذر ـ ويطعم عنه وليه ان أوصى به عن كل يوم لزمه نصف صاع من بر أودقيقه أوسويقه،

أو صاعا من تمر أو شعير أو زبيب أو قيمة ذلك .

وقال مالك والشافعي فى الجديد : يطعم عنه وليه مدا من طعام عن كل يوم . لقول ابن عباس : لا يصلى أحد عن أحد ، ولا يصوم أحد عن أحد ، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة . أخرجه النسائى فى الكبرى بسند صحيح . وقالت عائشة رضى الله عنها : « لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم » أخرجه عبد الرزاق والبيهقى .

هذا ويلزم أن يكون الاطعام من ثلث ما تركه من عليه الفدية ان كان له وارث والا فمن الكل ان أوصى . والوصية لازمة ان كان له مال . وان لم يوص لايلزم الاطعام عند الحنفيين ومالك . وان تبرع به الولى أو غيره صح وله الثواب عند الشافعى وأحمد . وقال الحنفيون ومالك : لا يسقط الواجب عن الميت لعدم نيته وفعل الغير لا يقوم مقام فعله بلا اذنه . والزكاة والصلاة كالصوم . وكل صلاة فى الفدية كصوم يوم على الصحيح عند الحنفيين .

وقال المحدثون والليث بن سعد والزهرى والشافعى فى القديم : يجوز الصوم عن الميت مطلقا لا فرق بين قضاء رمضان والنذر والكفارات . لعموم حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » . أخرجه أحمد والشيخان والبيهقى وأبو داود وقال : هذا فى النذر ، وهو قول أحمد بن حنبل .

المعنى : أن من مات من المكلفين وعليه قضاء صيام لازم من فرض رمضان أو نذر أو كفارة صام عنه وليه . والمراد به كل قريب ولو غير عاصب على الصحيح .

وقال بريدة رضى الله عنه : بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أتته امرأة فقالت : انى تصدقت على أمى بجارية وانها ماتت . فقال : وجب أجرك وردها عليك الميراث » قالت : يا رسول الله انه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال : « صومى عنها » . قالت : انها لم تحج قط . أفأحج عنها ؟ قال : « حجى عنها » أخرجه أحمد ومسلم والترمذى وقال حسن صحيح .

وقال أحمد واسحاق : من مات وعليه صيام صام عنه وليه ما عليه من نذر ويطعم عنه كل يوم من رمضان مدا . لقول ابن عباس « جاءت امرأة الى النبى صلى الله عليه وسلم . قالت : يا رسول الله ان أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها ؟ قال : «أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدى ذلك عنها؟ قالت نعم . قال : فصومى عن أمك » أخرجه الشيخان وهذا لفظ مسلم .

والفرق بين النذر وغيره أن النيابة تدخل العبادة بحسب خفتها والنذر أخف حكما لكونه لم يجب بأصل الشرع وانما أوجبه الناذر على نفسه •

وأجاب الجمهور عن هذه الأحاديث :

(أ) بأنها مصروفة عن الظاهر • للاجماع على أن من مات وعليه صلاة لايصلى عنه مع أنها دين عليه فكذا الصوم • لأن كلا منهما عبادة بدنية •

(ب) وبأنها معارضة بما تقدم من الأحاديث الدالة على منع الصيام عن الغير ولذا أفتى ابن عباس وعائشة رضى الله عنهما — فيما تقدم — بخلاف ماروياه فدل ذلك على أن العمل خلاف مارويا • لأن فتوى الراوى على خلاف مرويه بمنزلة روايته للناسخ • ويبعد عن مقام الصحابى أن يرجع عما رواه ويفتى بضده الا لاطلاعه على ناسخ نسخ ما رواه •

ويؤيد النسخ قول مالك فى الموطأ : انه بلغه أن عبد الله بن عمر كان يسأل : هل يصوم أحد عن أحد • أو يصلى أحد عن أحد ؟ فيقول : لا يصوم أحد عن أحد ولا يصلى أحد عن أحد •

والظاهر ما ذهب اليه أحمد : من أنه لا يصام عمن مات وعليه صوم رمضان ويصام عمن مات وعليه نذر • وبه يجمع بين الأحاديث •

قال ابن قدامة بعد كلام : اذا ثبت هذا فان الصوم ليس بواجب على الولى لأن النبى صلى الله عليه وسلم شبهه بالدين • ولا يجب على الولى قضاء دين الميت وانما يتعلق بتركته ان كانت له تركة ، فان لم يكن له تركة فلا شىء على وارثه • لكن يستحب أن يقضى عنه لتفريغ ذمته وفك رهانه ، كذلك ههنا • ولا يختص ذلك بالولى ، بل كل من صام عنه قضى ذلك عنه وأجزأ لأنه تبرع فأشبه قضاء الدين عنه •

(الدين الخالص للشيخ محمود محمد خطاب السبكى ج ٨ ص ٤٠٧ ، ٤٠٩)

وقال فضيلة الشيخ سيد سابق :

من مات وعليه حجة الاسلام ، أو حجة كان قد نذرها وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه من ماله ، كما أن عليه قضاء ديونه •

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : ان أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت • أفأحج عنها ؟ قال « نعم •• حجى عنها • أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله • فالله أحق بالوفاء » رواه البخارى •

وفى الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت ، سواء أوصى أو لم يوص . لأن الدين يجب قضاؤه مطلقا . وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة أو زكاة أو نذر .

والى هذا ذهب ابن عباس وزيد بن ثابت وأبو هريرة والشافعى ، ويجب اخراج الأجرة من رأس المال عندهم .

وظاهر أنه يقدم على دين الآدمى اذا كانت التركة لا تتسع للحج والدين ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « فالله أحق بالوفاء » .

وقال مالك : انما يحج عنه اذا أوصى ، أما اذا لم يوص فلا يحج عنه ، لأن الحج عبادة غلب فيه جانب البدنية ، فلا يقبل النيابة ، واذا أوصى حج من الثلث .
(فقه السنة جـ ٥ ص ٤٠ ، ٤١)

العنصر السادس
كفارة النذر

الأدلة من السنة :

الاسلام دين الله القويم ، وصراطه المستقيم . قد فتح لأتباعه باب الأمل والرجاء ، وأخذ بأيديهم كلما عثروا ، وتكفل لهم بما يحفظ عليهم ايمانهم وتقواهم . وذلك بما شرع لهم من توبة تجب ما قبلها ، وتحط عنهم ثقلهم الذى ينوؤون به ، وتعود الى أعمالهم فتصلحها وتزكيها وترفعها طيبة الى الله ، فتقوى صلتهم به وهو معبودهم الأعلى ، وبذلك جاءت السنة المطهرة تنصح الناذر بالخروج من نذره المطلق أو الذى لا يستطيعه بكفارة يمين . وبذلك يخرجون من طاعة الى طاعة ، ومن بر الى بر ، وانما يتقبل الله من المتقين .

١ ــ عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفارة النذر كفارة يمين » رواه أحمد ومسلم . (نيل الأوطار للشوكانى جـ ٨ ص ٢٥٢)

النذر يمين لحديث عقبة لما نذرت أخته أن تحج ماشية لتكفر عن يمينها فسمى النذر يمينا ، ومن حيث النظر ، هو عقدة لله تعالى بالتزام شىء ، والحالف عقد يمينه بالله ملتزما بشىء ، فأشبه أحدهما الآخر ، بل النذر آكد من اليمين ..
ويستفاد من الحديث أن ما يصح كفارة لليمين يصح كفارة للنذر .
(الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى جـ ١٤ ص ١٨٨ ، فتح البارى بشرح البخارى جـ ١٤ ص ٣٩٨ بتصرف)

وقال ابن رشـد :

« اختلفوا فى الواجب فى النذر المطلق الذى ليس يعين فيه الناذر شيئا سوى أن يقول لله على نذر ، فقال كثير من العلماء : فى ذلك كفارة يمين لا غير . وقال قوم : بل فيه كفارة الظهـار . وقال قوم : أقل ما ينطلق عليه الاسـم من القرب صيام يوم أو صلاة ركعتين ، وانما صار الجمهور لوجوب كفارة اليمين فيه للثابت من حديث عقبـة بن عامر أنه عليه السـلام قال : « كفارة النذر كفـارة يمين » خرجه مسلم ، وأما من قال صيام يوم أو صـلاة ركعتين ، فانما ذهب مذهب من يرى المجزى أقل ما ينطلق عليه الاسم وصلاة ركعتين أو صيام يوم أقل ما ينطلق عليه اسم النذر ، وأما من قال فيه كفارة الظهار فخارج عن القياس والسـماع .

(بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ج ١ ص ٤١١)

٢ ــ وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفارة النذر اذا لم يسـم كفارة يمين » رواه الترمذى وقال حـديث حسن صـحيح غريب . (تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٥ ص ١٢٥ ، ١٢٦)

قال المباركفورى : فيه دليـل على أن كفارة اليمين انمـا تجب فيما كان من النذور غير مسمى . قال النووى : اختلف العلماء فى المراد بهذا الحـديث ، يعنى حديث عقبـة بن عامر الذى أخرجه مسـلم بلفظ « كفارة النذر كفارة اليمين » فحمله جمهور أصحابنا على نذر اللجاج فهو مخير فيه بين الوفاء بالنذرأو الكفارة، وحمله مالك وكثيرون أو الأكثرون على النذر المطلق كقوله : على نذر . وحمله جماعة من فقهاء الحديث على جميع أنواع النذر ، وقالوا : هو مخير فى جميـع أنواع المنذورات بين الوفاء بما التزم وبين كفارة اليمين . انتهى .

قال الشوكاني : والظاهر اختصـاص الحديث يعنى حديث مسـلم المذكور بالنذر الذى لم يسم ، لأن حمل المطلق على المقيد واجب . وأما النذور المسماة ان كانت طاعة فان كانت غير مقدورة ففيها كفارة يمين . وان كانت مقدورة وجب الوفاء بها سواء كانت متعلقة بالبدن أو بالمال . وان كانت معصية لم يجز الوفاء بها ولا تنعقـد ولا يلزم فيهـا الكفارة . وان كانت مباحة مقدورة فالظاهر الانعقاد ولزوم الكفـارة لوقوع الأمر بهـا فى الأحاديث فى قصـة النـاذرة بالمشى الى بيت الله الحرام . وان كانت غير مقدورة ففيها الكفارة لعموم : ومن نذر نذرا لم يطقه . هذا خلاصة ما يستفاد من الأحاديث الصحيحة . انتهى .

وفى الباب عن ابن عباس موقوفا على الراجح : « من نذر نذرا ولم يسمة فكفارته كفارة يمين . ومن نذر نذرا لم يطقه فكفارته كفارة يمين » .
(تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ ٥ ص ١٢٥ ، ١٢٦)

وقال الشوكانى :
اتفق العلماء على تحريم النذر فى المعصية . واختلفوا هل تجب فيه الكفارة أم لا ؟ فقال الجمهور : لا تجب فيه الكفارة . وعن أحمد والثورى واسحاق وبعض الشافعية والحنفية نعم .اهـ (نيل الأوطار للشوكانى جـ ٨ ص ٢٥٤ بتصرف)

وقال ابن رشد : اختلف العلماء فيمن نذر معصية . فقال مالك والشافعى وجمهور العلماء ليس يلزمه فى ذلك شىء . وقال ابو حنيفه وسفيان الكوفيون : بل هو لازم . واللازم عندهم فيه هو كفارة يمين لا فعل المعصية .

وسبب اختلافهم تعارض ظواهر الآثار فى هذا الباب . وذلك أنه روى فى هذا الباب حديثان : احدهما : حديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نذر ان يطيع الله فليطعه ومن نذر ان يعصى الله فلا يعصه » فظاهر هذا أنه لا يلزم النذر بالعصيان . والحديث الثانى : حديث عمران بن حصين وحديث أبى هريرة الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « لا نذر فى معصية الله وكفارته كفارة يمين » وهذا نص فى معنى اللزوم . فمن جمع بينهما فى هذا قال : الحديث الأول تضمن الاعلام بأن المعصية لا تلزم . وهذا الثانى تضمن لزوم الكفارة فمن رجح ظاهر حديث عائشة اذ لم يصح عنده حديث عمران وأبى هريرة قال : ليس يلزم فى المعصية شىء . ومن ذهب مذهب الجمع بين الحديثين أوجب فى ذلك كفارة يمين .

قال أبو عمر بن عبد البر: ضعف أهل الحديث حديث عمران وأبى هريرة قالوا: لأن حديث أبى هريرة يدور على لسان بن أرقم وهو متروك الحديث ، وحديث عمران بن الحصين يدوى على زهير بن محمد عن أبيه ، وأبوه مجهول لم يرو عنه غير ابنه وزهير أيضا عنده مناكير . ولكنه خرجه مسلم من طريق عقبة بن عامر .
(بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد جـ ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٠)

والذى نراه ما ذهب اليه الجمهور وهو : أنه لا تجب الكفارة فى نذر المعصية . والله أعلم .

وزارة الأوقاف
الادارة العامة للدعوة
المكتب الفنى



العدد ١٧٣ نشرات التوعية الدينية السنة الثامنة

غرة ذى الحجة سنة ١٣٩٦ هـ ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٧٦ م

« التوكل وأثره فى حياة الأمة »

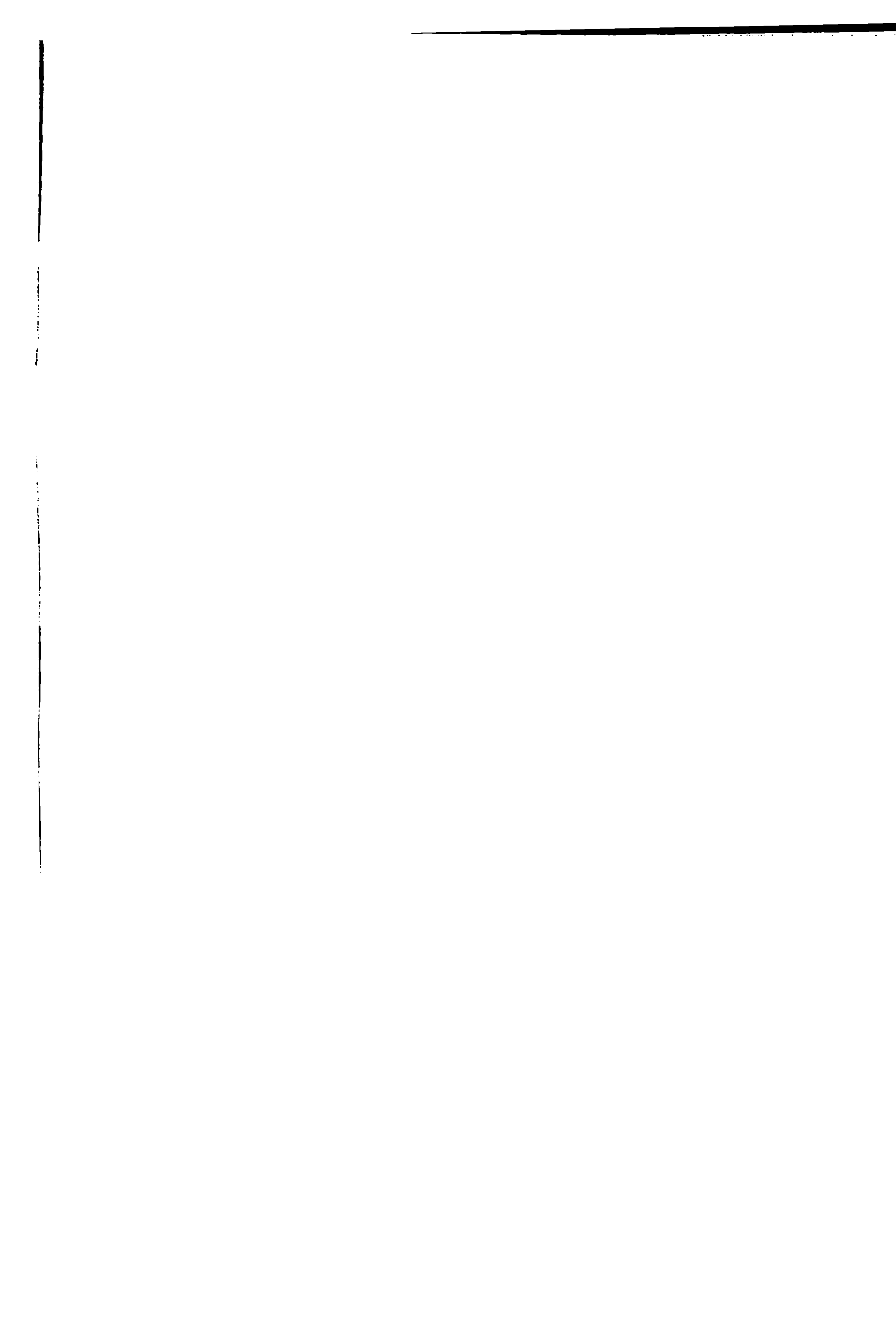
المقــدمة :

التعريف بالتــوكل .

العنصر الأول : التوكل على الله خلق الصفوة والقادة .

العنصر الثانى : التوكل على الله من صفات المؤمنين .

العنصر الثالث : دعوة الاسلام الى التوكل .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فان أبرز ما يرتفع بقيمة الانسان ، هو ايمانه بربه ومعرفته به . ولا يصل المرء الى كمال الايمان الا اذا أيقن أن الله وحده هو مصدر العطاء والمنح لهذا الوجود ، وأن الأسباب والمسببات ، والمقدمات والنتائج جميعا فى قبضته ، وأن السموات والأرض وما بينهما وما وراءهما جميعا مطويات بيمينه .

ولا يتكامل هذا الايمان فى جنان صاحبه الا اذا علم علم اليقين أن الله وحده هو كل شىء ، المتفرد على سائر خلقه بالحياة الأزلية ، والبقاء والوجود . وأن ماعداه ليس سوى أعراض تستمد قيمتها وحيويتها وكيانها من اشعاع جلاله ، وشمول قيوميته . « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . (طه : ٥٠)

والانسان لا بد له من ادراك هذه الحقيقة ، والايمان بها ، والعمل بمقتضاها، بحيث تنعكس بكل اشراقاتها عليه فى كل ما يأتى وما يذر . يعتمد على ربه ، ويستمد منه العون ، ويستعين به ويتوكل عليه ، ويؤمن تماما أنه بدون الله لا حول له ولا قوة ، بل ولن يكون له كيان ولا وجود ، وأن المسببات وأسبابها ، والمقدمات ونتائجها من خلقه وطوع أمره ورهن اشارته ، وليس على المرء الا أن يباشر الأسباب ، وان يتعامل مع الوسائل ، تاركا غاياتها واهدافها الى صاحب القوى والقدر ، موقنا بكفاية الله له وكفالته اياه « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » . (الطلاق : ٣)

وأحوج المؤمنين الى معانى التوكل على الله . هم هؤلاء الذين يتصدرون امامة البشر ، ويتقلدون قيادة الناس من حيث كونهم الصفوة الممتازة ، ومن حيث كونهم القادة والقدوة الذين لهم بسلوكهم مع أممهم وشعوبهم أكبر العوامل التربوية فى التأثير والتأثر ، وأعرف الناس بربهم وأكملهم به ايمانا ، وأصفاهم نفوسا ، وأزكاهم معادن . هم الذين علق الله على وجودهم صلاح البشرية ،وربط برسالاتهم ومناهجهم كل ما يرجى للناس من فلاح وفوز .

وهؤلاء هم جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم الى نبينا محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، حتى غدا التوكل سمتهم المميزة ، وغدت كلمته شعارهم ودرعهم المنيعة التى بها يتدرعون •

وهذا ما بيناه فى العنصر الأول •

أجل • للقـدوة الصـالحة تأثيرها الحى • وللمثل الكاملة وقعهـا الفعال • والمجتمع السـوى هو الذى يرنو الى مواقع القدوة الطيبة ويتمثلها ويحاكيهـا ويعكف عليها وينتفع بها •

والايمان الحق يطبع أصحابه بطابع الصلة القوية بالله ، ويمنحهم طاقات من الثقة فيه لا مثيل لها ، ويصب فى وجداناتهم من دفقات اليقين مايعلو فوق الريب• ومن بواعث التوكل ما يسمو فوق الشـكوك • ويلقى عليهم ظلالا معينة تصبح لهم بين الأمم شارتهم الخاصةوسمتهم الأصيل •

ان التوكل أحد شعب الايمان وموجباته ،وأحد خصائصه ومنحه ومعطياته • به تتجدد الثقة بين الخلق والخالق، وتتوثق الصلة بين أهل الأرض وخالقالوجود• ثم هو مقام عظيم من مقامات الكمال التى تشحذ الهمم وتقوى العزائم •

ان التوكل بهـذه المثابة من خير صفات الايمان التى يتصف بها المؤمنون • حيث بها يستعلى المؤمن على كل هون ، ويتأبى على كل ضيم ، ويقف قلعة شماء فى وجه الأهواء ، وصخرة عاتية لا يلين مع الهوى ، ولا يتأثر بأى اغواء أو غواية، ولا يرى على نفسه سلطانا غير سلطان الله • عليه يتوكل واليه ينيب •

وهذا ما ألقينا عليه الضوء فى العنصر الثانى •

ان الاسلام ــ وهو رسالة الله العامة الخاتمة ــ يهيىء المسلمين ليكونوا قادة الأمم ، ويعـدهم ليكونوا أئمة الشـعوب وهـداتها ويبنيهم ليكونوا رءوس البشرية وقلبها النابض • يأخذون بيدها الى الأمن والطمأنينة والثقـة وعوامل الحب والخير ومبادىء الحق والسـلام •

من أجل ذلك جاء الاسـلام يدعو الى التوكل الحق ، ويرغب فيه ، ويحض عليه ، حتى تكون الأمة كلها شعبا وقادة على مستوى ما نيط بها من واجب وما تعلق بهـا من أمانة التوجيـه وامامة الدنيا •

جاء الاسلام يهتف بالتوكل • يأمر به القادة فى شخص الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم مذكرا اياه بمنهج الحق وخلوده وبقائه وضرورة التعلق بعزة الله التى لا يشوبها ذل ، وسلطانه ووجوده الذى لا يعتريه زوال •

فما وكل القادة على هذا النحو أمورهم وشئون أممهم فى كل قضايا الصراع بين الحق والباطل الا ثبت اللهأقـدامهم وأعلى ذكرهم وأعزهم بعزه ورحمهم برحمته •

نعم جاء الاسلام يحض على التوكل يأمر به الأمة بكافة شـعوبها من حيث كونه برهان ايمانهـا ، وآية اسـلامها ، ومناط عرفانهـا بربهـا وتوحيـدها لخالقها الذى تلوذ به وتلجأ اليه وتعتصم به وتتوكل عليه • « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » • (آل عمران : ١٠١)

وهذا ما بيناه فى العنصر الثالث •

والحق أن الاسـلام وهو يدعونا الى التوكل أن نتحلى به ونمضى عليـه • لا يدعونا الا الى كل ما ينهض بنا ، ويعلى شأننا قادة وشعوبا ويربطنا بأسـباب الثقة والعزة والسعادة فى شتى نواحى الحياة •

والمكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية يسره وهو يقدم هذه النشرة (أ) فى موضـوع (التوكل وأثره فى حياة الأمـة) أن يكون على أمل اللقاء بالقارىء الكريم فى نشرة أخرى تحت هذا العنوان •

نسـأل الله حسن الثقة به ، وجميل التوكل عليه ، وأن يهدينا الى سـواء السبيل والله الموفق ، والحمد لله رب العالمين •

المكتب الفنى لنشر الدعوة الاسلامية
بوزارة الأوقاف

التعريف بالتوكل على الله

التوكل على الله تعالى هو : اعتماد الانسان عليه — سبحانه — وتفويض الأمور كلها اليه تعالى بقلبه اعتمادا على أنه الكفيل بأمور عباده ، والقادر على كل شيء مع السعى فى الأسباب التى أمر الله بها عباده وجرت بها العادة كاللبس لدفع الحر والبرد ، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش ، والنكاح لمن أراد الولد ، والحرث والقاء البذر لمن أراد الزرع ، والغرس لمن أراد الشجر والثمر ، والصناعة والتجارة ونحو ذلك من طرق الكسب المعلومة • (التاج جـ ٥ ص٢١٧)

وقال الامام النووى :

اختلفت عبارات العلماء من السلف والخلف فى حقيقة التوكل ، فحكى الامام أبو جعفر الطبرى وغيره عن طائفة من السلف ، أنهم قالوا لا يستحق اسم التوكل الا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى ، من سبع أو عدو ، حتى يترك السعى فى طلب الرزق ، ثقة بضمان الله تعالى له • واحتجوا بما جاء فى ذلك من الآثار ، وقالت طائفة : حده الثقة بالله تعالى ، والايقان بأن قضاءه نافذ ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو ، كما فعله الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين •

قال القاضى عياض : وهذا المذهب هو اختيار الطبرى وعامة الفقهاء •

والأول مذهب بعض المتصوفة وأصحاب علم القلوب والاشارات •

وذهب المحققون منهم الى نحو مذهب الجمهور ، ولكن لا يصح عندهم اسم التوكل مع الالتفات والطمأنينة الى الأسباب ، بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته والثقة بأنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا ، والكل من الله تعالى وحده ، هذا كلام القاضى عياض • قال الامام الأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمه الله تعالى : اعلم أن التوكل محله القلب ، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافى التوكل بالقلب بعد ماتحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى فان تعسر شيء فبتقديره وان تيسر فبتيسيره •

وقال سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : التوكل هو الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد • وقال أبو عثمان الجبرى : التوكل : الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه ، وقيل التوكل : أن يستوى الاكثار والتقلل • والله أعلم •

(النووى على شرح مسلم جـ ٣ ص ٩١ ، ٩٢)

العنصر الأول

التوكل على الله خلق الصــفوة والقادة

صفوة البشرية وقادتها ، هم الأنبياء والمرسلون • صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين • وهؤلاء رباهم الله بحكمتــه ، وصنعهم على عينه ، وأعدهم ليحملوا وحى الله ورســالته الى العالمين • وهم بهذا أئمة البشرية ونجومها الهادية الذين بلغوا من كمال الايمان بالله وتمام الثقة به وجميل التوكل عليه مالم يبلغه غيرهم من البشر •

لقد كان التوكل على الله هو ســمت الأنبياء والمرســلين وخليقتهم التى لم تفارقهم ، وملاذهم الذى اليه يلجأون •

الأدلة من القرآن :

١ ــ قال تعالى : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » • (الأحزاب : ٣)

يقول المراغى :

أمر الله رســوله صلى الله عليه وسلم بتفويض أموره اليه وحــده فقال : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » أى وفوض أمورك اليه وحــده ، واعتمد عليه فى شئونك وكفى به حافظا يوكل اليه جميع الشئون فلا تلتفت فى شىء من أمرك الى غيره •

والخلاصــة ــ حسبك الله ، فانه ان أراد لك نفعا لم يدفعه عنك أحد • وان أراد ضرا لم يمنعه منك أحد • (المراغى ج ٢١ ص ١٢٥ بتصرف)

ويقول ابن كثير :

«وتوكل على الله» أى فى جميع أمورك وأحوالك • «وكفى بالله وكيلا» أى وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب اليه • (ابن كثير ج ٣ ص ٤٦٥)

٢ ــ وقال تعالى : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » • (الأحزاب : ٤٨)

يقول المراغى :

« فوض أمورك الى الله ، وثق به ، فانه كافيك جميع من دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وهو حســبك فى جميع أمورك وكالئك وراعيك » •

(المراغى ج ٢٢ ص ٢٠)

ويقول صاحب تفسير القرآن الكريم :

« وتوكل على الله فانه كفيل أن يكفيك شرهم وكفى به حافظا مفوضا اليه أمرك » . (تفسير القرآن الكريم : محمود محمد حمزة وآخرين جـ ٢٢ ص ١٩)

٣ — وقال تعالى :

« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه أنيب » . (الشورى : ١٠)

يقول المراغى :

« ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه أنيب » أى ذلكم الموصوف بهذه الصفات من الاحياء والاماتة والحكم بين المختلفين هو ربى وحده لا آلهتكم التى تدعون من دون الله ، عليه توكلت فى دفع كيد الأعداء وفى جميع شـئونى ، واليه أرجع فى كل المهمات ، واليه أتوب من الذنوب . وفى هذا تعريض لهم بأن ماهم عليـه من اتخاذ غير الله وليا لا يجـديهم نفعا ، ولا يدفع عنهم ضرا ، فالأجـدر بهم أن يقلعوا عنه ، اذ من شأن العاقل ألا يفعل الا ما يفيده فى دين أو دنيا .

(المراغى جـ ٢٥ ص ٢١ بتصرف)

ويقول صاحب تفسير القرآن الكريم :

« ذلكم الله ربى وربكم ، وخالقى وخالقكم ، فوضت اليه أمورى ، واعتمدت عليه ليهدينى واليه أرجع فى كل المعضلات ، وأفوض اليه كل المشـكلات لا الى أحد سـواه » . (تفسير القرآن الكريم لحمزة وآخرين جـ ٢٥ ص ١٥)

٤ — وقال تعالى :

« كذلك أرسـلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » .

(الرعـد : ٣٠)

يقول القرطبى :

« قل » لهم يا محمـد الذى أنكرتم . « هو ربى لا اله الا هو » ولا معبود سواه وهو واحد بذاته ، وان اختلفت أسماء صفاته . « عليه توكلت » واعتمدت ووثقت . « واليه متاب » أى مرجعى غدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضا بقضائه ، وتسليما لأمره وقيل سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم

يدعو ويقول : « يا ألله يا رحمن » فقال كان محمـد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعوالهين فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » .
(القرطبى ج ٩ ص ٣١٨ بتصرف)

ويقول ابن كثير :

اى هذا الذى تكفرون به انا مؤمـن به معترف بقوله ، بالربوبيـة والألوهيـة ، هو ربى لا اله الا هو « عليـه توكلت » أى فى جميع أمورى « واليه متاب » أى اليه آرجع وأنيب ، فانه لا يستحق ذلك أحد سواه . (ابن كثير ج ٢ ص ٥١٥)

ويقول المراغى :

« عليه توكلت » أى عليه لا على غيره توكلت فى جميع أمورى ، ولا سـيما فى نصرتى عليكم « واليه متاب » أى واليه وحده توبتى .(المراغى ج ١٣ ص ١٠٤)

ويقول صاحب تفسير القرآن الكريم :

« فقل لهـم ان قالوا لك وما الرحمن ؟ هو ربى وخالقى ومتولى أمرى ،ولا مستحق للعبادة سـواه عليه توكلت فى نصرتى عليكم ، واليه مرجعى ومرجعكم ، فيثيبنى على مصـابرتكم ومجاهدتكم ، ويذيقكم العذاب الأليم على عصيانكم وتمردكم » . (تفسير القرآن الكريم : لحمزة وآخرين ج ١٣ ص ٦٨)

٥ ـ وقال تعالى :

«قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصـلاح ما اسـتطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » . (هود : ٨٨)

يقول ابن كثير :

« وما توفيقى » أى فى اصـابة الحق فيما أريده « الا بالله عليـه توكلت » فى جميع أمورى « واليه أنيب » أى أرجع . قاله مجاهد .
(ابن كثير ج ٢ ص ٤٥٦)

ويقول القرطبى :

« وما توفيقى » : أى رشدى ، والتوفيق الرشد « الا بالله عليه توكلت » أى اعتمـدت « واليه أنيب » أى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوائب ، وقيل اليه أرجع فى الآخرة وقيل : ان الانابة الدعاء . ومعناه واليه أدعو .
(القرطبى ج ٩ ص ٩٠)

ويقول المراغي :

« وما توفيقي الا بالله » التوفيق الفوز والفلاح في كل عمل صالح وسعى حسن ، وحصول ذلك يتوقف على كسب العامل وطلبه من الطريق الموصل اليه ، وتيسير الأسباب التي يسهل معها الحصول عليه ، وذلك انما يكون من الله وحده، أي وما توفيقي لاصابة الحق والصواب في كل ما آتي وما أذر الا بهداية الله ومعونته • « عليه توكلت واليه أنيب » أي عليه توكلت في أداء ماكلفني من تبليغكم ما أرسلت به لا على حولي وقوتي ،واليه أرجع في كل ما أهمني في الدنيا وهو الذي يجازيني على أعمالي في الآخرة • والخلاصة : انه لا يرجو منهم أجرا ولا يخشى منهم ضيرا • (المراغي جـ ١٢ ص ٧٤)

٦ ـ وقال تعالى : « واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركائكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون » • (يونس : ٧١)

يقول القرطبي :

« فعلى الله توكلت » أي اعتمدت • وهذا جواب الشرط • ولم يزل عليه السلام متوكلا على الله في كل حال • ولكن بين أنه متوكل في هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم ، أي ان لم تنصروني فاني أتوكل على من ينصرني » • (القرطبي جـ ٨ ص ٣٦٢)

ويقول صاحب تفسير المنار :

« فعلى الله توكلت » دون غيره من المؤمنين الذين تستضعفونهم • أي ان كان كبر عليكم ذلك وأردتم التفصي منه بالايقاع بي ، فانني قد وكلت أمري الى الله الذي أرسلني ، واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتي •

(المنار جـ ١١ ص ٤٥٩ ، ٤٦٠)

ويقول القاسمي :

« واتل عليهم نبأ نوح » أي خبره الذي له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بعزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا مافيه من صحة توكله على الله ، ونظره الى قومه بعين عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تمتعوا به من النعيم باغراقهم بالطوفان فلعلهم يكفون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ويستيقنوا صحة نبوتك •

« فعلى الله توكلت » أي اعتمدت في دفع ماقصدتموني به •

(القاسمي جـ ٩ ص ٣٣٨٠ ، ٣٣٨١ بتصرف)

الأدلة من السنة :

لقد كان الانبياء والمرسلون — وهم قمة البشرية وصفوتها — طليعة المتوكلين على الله ، المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم له ، اللاجئين اليه وحده فى كل شئونهم. وكانوا يحرصون على استصحاب هذا التوكل دائما ، بحيث لايفارقهم لحظة من ليل أو نهار . يستمدون بهذا التوكل على الله عونه ، ويستمطرون منه توفيقه وتأييده وكفايته ، وحفظه من وساوس الشيطان ونزعات الهوى ومواطن الغى .

١ — عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم لك أسلمت (١) ، وبك آمنت (٢) ، وعليك توكلت ، واليك أنبت (٣)، وبك خاصمت (٤)، اللهم أعوذ بعزتك (٥)، لا اله الا أنت أن تضلنى ، أنت الحى(٦) الذى لا تموت ، والجن والانس يموتون » .

(متفق عليه وهذا لفظ مسلم واختصره البخارى)

٢ — وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا « ان الناس (٧) قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » . رواه البخارى .

وفى رواية له عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان آخر قول ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى فى النار « حسبى الله ونعم الوكيل » .

(رياض الصالحين ص ٥٥)

٣ — وعن أم المؤمنين أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية المخزومية رضى الله عنها . أن النبى صلى الله عليه وسلم . كان اذا خرج من بيته قال : « بسم الله توكلت على الله : اللهم انى (٨) أعوذ بك أن أضل (٩) أو أضل (١٠) ،أو أزل (١١)

---

(١) استسلمت لحكمك . (٢) صدقت . (٣) رجعت الى الخير . (٤) بالنصرة والبرهان قصمت أعداء الدين . (٥) أعوذ بعزتك والتجىء بقوتك وقدرتك وسلطانك.
(٦) القائم بتدبير الخلق . (٧) نعيم بن مسعود الأشجعى .(٨) اتحصن واستعين.
(٩) اغيب عن معالى الأمور بارتكاب نقائصها . (١٠) يضلنى غيرى . (١١) انزل عن الطريقة المستقيمة الى هوة ضدها ،لغلبة الهوى او الاعراض عن اسباب تقوى الله .

أو أزل (١) ، أو أظلم (٢) ، أو أظلم (٣) ،أو أجهل (٤) ، أو يجهل على (٥) » • حديث صحيح رواه أبو داود والترمذى وغيرهما بأسانيد صحيحة قال الترمذى : حديث حسن صحيح وهذا لفظ أبى داود • (رياض الصالحين ص ٥٨)

العنصر الثانى

التوكل على الله من صفات المؤمنين

الأدلة من القرآن :

من كمال الايمان أن يتوكل المؤمن على ربه ، ويلوذ به ، ويلجأ اليه ، بحيث يستمد من هذا التوكل عدته وعتاده وعزيمته وزاده• يواجه به الشدائد ،ويصارع به الصعاب ، ويمنحه من الطاقة المتجددة مايستعلى بها على وساوس الشـيطان ، ونوازع النفس وسلطان الهوى •

والمؤمنون دائما هم أحرص الناس علىالتزام ذلك والتحلى به ، •

الأدلة من القرآن :

١ ــ قالتعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » • (الأنفال : ٢)

يقول صاحب تفسير المنار :

قوله تعالى«وعلى ربهم يتوكلون»أى يتوكلون على ربهم وحده لايتوكلون على غيره ، ولا يفوضون أمورهم الى سواه عز وجل ، كما أفاده تركيب الجملة ــ وعن ابن عباس قال : لا يرجون غيره ، والتوكل أعلى مقامات التوحيد ، فان من كان موقنا بأن ربه هو المدبر لأموره وأمور العالم كلها ، لا يمكن أن يكل شـيئا منهـا الى غيره •

---

(١) يستولى على من يزلنى عن المقام العلى الى السفساف الدنى .(٢) اظلم غيرى.

(٣) من أحـد من العباد . (٤) اجهل الحق الواجب على . (٥) احمل على شىء ليس من خلقه صلى الله عليه وسلم .

ولما كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن للانسان كسبا اختياريا — كلفه الله العمل به ، وأن يؤمن بأنه يجازى على عمله ان خيرا فخير وان شرا فشر — وجب على الانسان أن يسعى فى تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سنن الله تعالى فى نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات ، معتقدا أن الأسباب لم تكن أسبابا الا بتسخير الله تعالى . وان ما يناله باستعمالها فهو من فضل ربه الذى سخرها وجعلها أسبابا وعلمه ذلك . وأما ما لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده ، واليه يتوجه ، واياه يدعو فيما يطلبه منه ، وأما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى فى الخلق وتسمية ذلك توكلا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التى أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول .

(المنار ج ٩ ص ٥٤٧ بتصرف)

ويقول ابن كثير : « وعلى ربهم يتوكلون » .

أى لا يرجون سواه ، ولا يقصدون الا اياه ، ولا يلوذون الا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج الا منه ، ولا يرغبون الا اليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ولهذا قال سعيد بن جبير : « التوكل على الله جماع الايمان » .

(ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٦)

٢ — وقال تعالى : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » . (النحل : ٤٢)

يقول القرطبى :

هم الذين صبروا على دينهم « وعلى ربهم يتوكلون » فى كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من اذا نابه أمر صبر ، واذا عجز عن أمر توكل ، قال الله تعالى « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

(القرطبى ج ١٠ ص ١٠٧)

ويقول المراغى :

« الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » أى هؤلاء هم الذين صبروا على مانالهم من أذى قومهم ، ولم يرجعوا القهقرى ، وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار فى دار ، وقد فوضوا أمرهم الى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه » . (المراغى ج ١٤ ص ٨٦)

ويقول القاسمى :

« الذين صبروا » أى على ماأوذوا فى سبيل الله « وعلى ربهم يتوكلون » أى فلا يخشون أحدا غيره ، والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل ، من أمهات الصفات التى يجب على الداعى الى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقا له . اذ لا ظفر بغاية الا بهما . (القاسمى ج ١٠ ص ٣٨١١ ، ٣٨١٢)

٣ ـ وقال تعالى :

« انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » . (النحل : ٩٩)

يقول القاسمى :

بين تعالى أن أثر وسوسة الشيطان ، انما يكون فيمن له سلطان عليهم ، أى تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته ، وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم، فصبروا على المكاره ، ولم يبالوا بما يلقون فى سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له سلطان عليهم ، فهم يضادون أمانيه ، ويهدمون كل مايلقيه ، لأن ايمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره » . (القاسمى ج ١٠ ص ٣٨٥٧ بتصرف) .

ويقول المراغى :

«انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» أى انه لاتسلط للشيطان على الذين يصدقون بلقاء الله ، ويفوضون أمورهم اليه ، وبه يعوذون، واليه يلجئون ، فلا يقبلون ما يوسوس به ، ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته . (المراغى ج ١٤ ص ١٤٠)

ويقول صاحب التفسير الواضح :

انه ليس للشيطان سلطان ولا قوة على المؤمنين المتوكلين ، انما سلطانه وقوته على الذين يتولونه ، والذين رسخ فى نفوسهم حب المادة وحب الدنيا ، والذين هم بربهم يشركون ، وهذا كقوله تعالى « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » . (الواضح ج ١٤ ص ٦١)

٤ ـ وقال تعالى : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ».(العنكبوت : ٥٩)

يقول المراغى :

« الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » أى هؤلاء العاملون هم الذين صبروا على أذى المشركين ، وشدائد الهجرة وغيرهما من الجهود والمشاق ، وتوكلوا على ربهم فيما يأتون وما يذرون ، كأرزاقهم وجهاد أعدائهم ، فلا ينكلون عنهم ولا يتراجعون ثقة منهم بأن الله معل كلمتهم ، وموهن كيد الكافرين ،وأن ماقسم لهم من الرزق لن يفوتهم . (المراغى جـ ٢١ ص ١٥ ، ١٦ بتصرف) .
ويقول صاحب التفسير الواضح :

الذين صبروا على الأذى ، مادام المصير خيرا للدين والدعوة ، وعلى ربهم يتوكلون ان سافروا وهاجروا فى سبيل الله ، أو قاموا بعمل نافع .

واذا كان الأمر كله بيد الله ، وهو الرزاق ذو القوة المتين ، فاعلم أنه يرزق من ليس له حيلة ، حتى يتعجب صاحب الحيلة ، ويرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا . نعم كم من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها من حيث لا تعلم ، ويرزقكم يا أيها المهاجرون وان لم يكن معكم زاد ولا نفقة ، وهو السميع لكل قول ، العليم بكل فعل وهذا غرس لمبدأ التوكل » . (الواضح جـ ٢١ ص ٩ ، ١٠)
ويقول الطبرى :

« الذين صبروا على أذى المشركين فى الدنيا ، وما كانوا يلقون منهم ، وعلى العمل بطاعة الله وما يرضيه وجهاد أعدائه ، وعلى ربهم يتوكلون فى أرزاقهم وجهاد أعدائهم ، فلا ينكلون عنهم ثقة منهم بأن الله معلى كلمته وموهن كيد الكافرين . وأن ما قسم لهم من الرزق فلن يفوتهم » . (الطبرى جـ ٢١ ص ٨)

٥ — وقال تعالى :

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » . (الشورى : ٣٦)
يقول القرطبى :

« وما عند الله خير وأبقى » يريد من الثواب على الطاعة « للذين آمنوا » صدقوا ووحدوا « وعلى ربهم يتوكلون » نزلت فى أبى بكر الصديق ، حين أنفق جميع ماله فى طاعة الله فلامه الناس . جاء فى الحديث أنه : « أنفق ثمانين ألفا » .
(القرطبى جـ ١٦ ص ٣٥)

ويقول القاسمى :

« وما عند الله » أى من ثوابه الأخروى « خير وأبقى » وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه « للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » أى فى أمورهم وقيامهم بأسبابهم » • (القاسمى ج ١٤ ص ٥٢٤٩)

ويقول المراغى : « وعلى ربهم يتوكلون » •

أى وعلى من رباهم على احسانه يعتمدون ، ويفوضون اليه أمورهم ، ولا يلتفتون الى غيره فى مهام أمورهم •

روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين تصدق بماله فلامه المسلمون وخطأه الكافرون • (المراغى ج ٢٥ ص ٥٢)

ويقول الطبرى :

« والذى عند الله لأهل طاعته والايمان به فى الآخرة ، خير مما أوتيتموه فى الدنيا من متاعها وأبقى لأن ما أوتيتم فى الدنيا فان نافد ، وما عند الله من النعيم فى جناته لأهل طاعته باق غير نافد « للذين آمنوا » يقول وما عند الله للذين آمنوا به وعليه يتوكلون فى أمورهم واليه يقومون فى أسبابهم وبه يثقون خير وأبقى مما أوتيتموه من متاع الحياة الدنيا • (الطبرى ج ٢٥ ص ٢٢ ، ٢٣)

الأدلة من السنة :

أهل الايمان هم أهل التوكل • والمتوكلون قوم وثقوا فى الله ، وأحسنوا الظن به ، فكان الله عند حسن ظنهم به فى دنياهم بالهداية والتوفيق والتأييد والنصرة ، وفى آخرتهم بالحظوة برضوان الله عنهم ورضاهم عنه ، والانعام عليهم بنعيمه فى بحبوحة الفضل وفراديس الجنان •

١ — عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : « عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط (١) ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى ليس معه أحد ، اذ رفع لى سواد عظيم (٢) ، فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى : هذا موسى وقومه (٣) ، ولكن انظر الى الأفق ، فنظرت فاذا سواد

---

(١) الرجل رقبيلته • (٢) أشخاص كثيرة • (٣) أى أمته المؤمنون •

عظيم ، فقيل لى : انظر الى الأفق الآخر فاذا سواد عظيم فقيل لى : أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ثم نهض (٤) فدخل منزله ، فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله ــ وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما الذى تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال : «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون (٥) ، ولا يتطيرون (٦) ، وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » .

« الرهيط » بضم الراء تصغير رهط ، وهم دون عشرة أنفس . « والأفق الناحية والجانب . « عكاشة » بضم العين وتشديد الكاف وبتخفيفها والتشديد أفصح .

٢ ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير» . رواه مسلم : قيل معناه متوكلون، وقيل قلوبهم رقيقة . (رياض الصالحين ص ٥٤ ، ٥٥)

٣ ــ وعن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله . فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل ، أو آجل عاجل» . رواه الترمذى بسند صحيح (التاج جـ ٥ ص ٢١٧ ، ٢١٨)

العنصر الثالث

دعوة الاسلام الى التوكل

الأدلة من القرآن :

ان دعوة الاسلام الى التوكل على الله دعوة الى مزاولة الحق ، واستبطان الثقة ، وممارسة الكمال ، ومباشرة أعمال الحق وشئون الخير فى سمو واباء ورفعة ، يستوحى المؤمن اشراقاتها من خلال الحق تبارك وتعالى وقيوميته وسلطانه . والمؤمنون ينبغى أن يكونوا أحرص الناس على ذلك ، برهانا لهم شامه بارزة تؤكد فيهم صدق الايمان وتمام اليقين .

(٤) قام . (٥) يطلبون الرقية لهم من الغير . (٦) لا يتشاءمون .

وحسبهم وهم كذلك أن يكون الله وكيلهم الكافى الذى يحفظهم بين أيديهم ومن خلفهم ويثبتهم بالحق والقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

١ — قال تعالى : « فتوكل على الله انك على الحق المبين » . (٧٩ : النمل).

يقول المراغى :

« فتوكل على الله » أى ففوض الى الله جميع أمورك ، وثق به فيها ، فانه كافيك كل ما أهمك ، وناصرك على أعدائك ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

ثم علل هذا بقوله :

« انك على الحق المبين » أى أنت على الحق المبين ، وان خالفك فيه من خالفك ممن كتب عليه الشقاء : « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية » . (المراغى جـ ٢٠ ص ١٩)

ويقول ابن كثير :

« فتوكل على الله » أى فى جميع أمورك وبلغ رسالة ربك « انك على الحق المبين » أى أنت على الحق المبين . (ابن كثير جـ ٣ ص ٣٧٤)

ويقول صاحب تفسير القرآن الكريم :

« فوض اليه أمرك يا محمد ، واعتمد عليه ، فانه ناصرك ، لأنك على الدين الحق الواضح ، المظهر لكل من تدبر وجه الصواب ، وكل من كان على الحق يجب أن يثق بالله ، ويعتمد عليه ، فانه ينصره ولا يخذله » .

(تفسير القرآن الكريم لحمزة وآخرين جـ ٢٠ ص ١٨)

٢ — وقال تعالى :

« وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا » . (٥٨ : الفرقان) .

يقول ابن كثير :

« وتوكل على الحى الذى لا يموت » أى فى أمورك كلها كن متوكلا على الله الحى الذى لا يموت أبدا الذى هو « الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل

شيء عليم» الدائم الباقي السرمدى الأبدى الحي القيوم • رب كل شيء ومليكه • اجعله ذخرك وملجأك وهو الذى يتوكل عليه ويفزع اليه فانه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك « وسبح بحمده » أى اقرن بين حمده وتسبيحه أى أخلص له العبادة والتوكل » • (ابن كثير جـ ٣ ص ٣٢٣ بتصرف)•

ويقول المراغى :

« وتوكل على الحي الذى لا يموت » أى وتوكل على ربك الدائم الباقي رب كل شيء ومليكه • واجعله ملجأك وذخرك ، وفوض اليه أمرك ، واستسلم له ، واصبر على ما نابك فيه ، فانه كافيك وناصرك ومبلغك ما تريد ، ونزهه عما يقوله هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد ، فهو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد• كما تنزهه عن الأنداد والشركاء من الأصنام والأوثان فهو لا كفء له ولا ند •

وفى قوله « الحى » ايماء الى أنه لا ينبغى أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن ، ولا على من لا بقاء له ممن يموت ، لأنه اذا مات ضاع من توكل عليه • وحكى عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال : لا ينبغى لذى لب أن يثق بعدها بمخلوق •

وخلاصة ذلك : توكلوا على من لا يموت ، وهو رب كل شيء وخالقه وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم لا يعلم كنهها الا هو • (المراغى جـ ١٩ ص ٣٠ ، ٣١ بتصرف)

ويقول القرطبى :

قوله تعالى « وتوكل على الحي الذى لا يموت » التوكل : اعتماد القلب على الله تعالى ، وان الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها • « وسبح بحمده » اى نزه الله تعالى عما يصفه به هؤلاء الكفار من شركاء . والتسبيح التنزيه وقيل « وسبح » أى وصل له ، وتسمى الصلاة تسبيحا « وكفى به بذنوب عباده خبيرا » أى عليما فيجازيهم بها » • (القرطبى جـ ١٣ ص ٦٢)

ويقول الطبرى :

يقول تعالى ذكره : وتوكل يا محمد على الذى له الحياة الدائمة التى لا موت معها فثق فى أمر ربك ، وفوض اليه ، واستسلم له ، واصبر على ما نابك فيه •

قوله « وسبح بحمده » يقول واعبده شكرا منك له على ما أنعم به عليك . قوله « وكفى به بذنوب عباده خبيرا » يقول وحسبك بالحى القيوم الذى لا يموت خبيرا بذنوب عباده فانه لا يخفى عليه شيء منها وهو يحص جميعها عليهم ، حتى يجازيهم بها يوم القيامة » . (الطبرى ج ١٩ ص ١٨ بتصرف) .

٣ — وقال تعالى « وتوكل على العزيز الرحيم » . (٢١٧ الشعراء) .

يقول القرطبى :

قوله تعالى « وتوكل على العزيز الرحيم » أى فوض أمرك اليه . فانه العزيز الذى لا يغالب ، الرحيم الذى لا يخذل أولياءه . وقرأ العامة : « وتوكل » بالواو وكذلك هو فى مصاحفهم . وقرأ نافع وابن عامر « فتوكل » بالفاء وكذلك هو فى مصاحف المدينة بالشام » . (القرطبى ج ١٣ ص ١٤٤)

ويقول المراغى :

« وتوكل على العزيز الرحيم » أى فوض جميع أمورك الى القادر على دفع الضر عنك والانتقام من أعدائك الذين يريدون السوء بك ، الرحيم بك اذ نصرك عليهم برحمته » . (المراغى ج ١٩ ص ١١١ بتصرف) .

ويقول ابن كثير :

« وتوكل على العزيز الرحيم » أى فى جميع أمورك فانه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلى كلمتك . (ابن كثير ج ٣ ص ٣٥٢)

٤ — وقال تعالى :

« رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا » . (٩ المزمل) .

يقول ابن كثير :

« رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا » أى هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب ، الذى لا اله الا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ، فاتخذه وكيلا . كما قال تعالى فى الآية الأخرى « فاعبده وتوكل عليه » وكقوله « اياك نعبد واياك نستعين » وآيات كثيرة فيها الأمر بافراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه . (ابن كثير ج ٤ ص ٤٣٧)

ويقول المراغى :

« رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا » . عليك أن تتوكل على الله فى جميع أمورك .

وجاء فى كلامهم : من رضى بالله وكيلا ،وجد فى كل خير سبيلا .

وقد ذكروا : ان مقام التوكل فوق مقام التبتل ، لما فيه من الدلالة على غاية الحب له تعالى وأنشدوا .

هواى له فرض تعطف أو جفا ومنهلـه عـذب تكدر أو صفا
وكلت الى المعشوق أمرى كله فان شاء أحيانى وان شاء أتلفا

(المراغى ج ٢٩ ص ١١٣ ، ١١٤ بتصرف)

٥ ـ وقال الله تعالى :

« وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » . (٨٤ ، ٨٥ يونس) .

يقول القرطبى :

قوله تعالى : « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم » أى صدقتم « بالله فعليه توكلوا » أى اعتمدوا « ان كنتم مسلمين » كرر الشرط تأكيـدا وبين أن كمال الايمان بتفويض الامر الى الله . « فقالوا على الله توكلنـا » أى أسلمنا أمورنا اليه ، ورضينا بقضائه وقـدره ، وانتهينا الى أمره « ربنا لا تجعلنا فتنـة للقوم الظالمين » أى لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أو لا تمتحنا بأن تعذبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدى أعـدائنا ، ولا تعذبنا بعذاب من عندك ، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلط عليهم فيفتنوا ،وقال أبو مجلز وأبو الضحا يعنى لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانا » (القرطبى ج ٨ ص ٣٧٠)

ويقول القاسمى :

« وقال موسى » أى تطمينـا لقلوبهم وازالة للخوف عنهم « ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا » أى فاليه أسندوا أمركم فى العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا ، فانه كافيكم « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقوله «ان كنتم مسلمين» أى مخلصين وجوهكم له .

قال القاشانى : جعل التوكل من لوازم الاسلام ، وهو اسلام الوجه لله تعالى أى ان كمل ايمانكم ويقينكم بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه . وان أريد الاسلام بمعنى الانقياد ، كان شرطا فى التوكل لا ملزوما له ، وحينئذ يكون معناه : ان صح ايمانكم يقينا فعليه توكلوا — بشرط أن تكونوا منقادين .

وقال الكرخى : فقوله تعالى « ان كنتم آمنتم .. » الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين شرطا لأن يصيروا مخاطبين بقوله « ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا » فكأنه يقول للمسلم حال اسلامه : ان كنتم من المؤمنين بالله فعلى الله توكلوا .

والأمر كذلك . لأن الاسلام عبارة عن الاستسلام ، وهو الانقياد لتكاليف الله ، وترك التمرد .

والايمان : عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره ، واذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره اليه تعالى ، ويحصل فى القلب نور التوكل على الله تعالى .

(القاسمى ج ٩ ص ٣٣٨٦ ، ٣٣٨٧ ، ٣٣٨٨ بتصرف)

ويقول المراغى :

« وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » أى وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد : ان كنتم آمنتم بالله حق الايمان فعليه توكلوا ، وبوعده فثقوا ، ان كنتم مستسلمين مذعنين ، اذ لا يكون الايمان يقينا الا اذا صدقه العمل وهو الاسلام .

« فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » أى فقالوا على الفور ممتثلين أمره حين علموا أن انجاز الوعد موقوف على ذلك :

على الله توكلنا ، ودعوا بأن يحفظهم ربهم من فتنة القوم الظالمين .

ذلك أن التوكل على الله وهو أعظم علامات الايمان ، لا يكمل الا بالصبر على الشدائد ، والدعاء لا يستجاب الا اذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب بأن تعمل ما تستطيع عمله ، وتطلب الى الله أن يسخر لك مالاتستطيع » .

(المراغى ج ٢١ ص ١٤٥ بتصرف)

٦ — وقال تعالى :

« الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » • (١٣ التغابن) •

يقول ابن كثير :

«الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون» فالأول خبر عن التوحيد • ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الألوهية وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه • كما قال تعالى « رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذوه وكيلا » •(ابن كثير ج٤ ص٣٧٥)

ويقول المراغى :

« الله لا اله الاهو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أي وحدوا الله ، وأخلصوا له العمل ، وتوكلوا عليه •

وفى هذه الآية ايماء الى أن المؤمن لا يعتمد الا عليه ، و لايتقوى الا به ، لأنه يعتقد أنه لاقادر فى الحقيقة الا هو ، وفيه حث لرسوله صلى الله عليه وسلم على التوكل عايه والتقوى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ،وكأنها تشير الى أن من لا يتوكل عليه فليس بمؤمن » •(المراغى ج ٢٨ ص ١٢٧ ، ١٢٨)

الأدلة من السنة :

ان التوكل على الله تعالى هو قمة الايمان وذروة اليقين • وهو اللغة التى رطبت فم النبى صلى الله عليه وسلم ، وانطلق بها لسانه مع انبثاق كل فجر وحلول كل مساء • يستقبل بها صباحه ، ويودع بها يومه ، ويعلم بها أصحابه ، ويضع أيديهم على بواعث الهداية ، ومواطن التوفيق والكفاية ، والحفظ والوقاية ، وحسبنا بالتوكل عونا على ذلك أى عون وكفيلا أى كفيل •

١ — عن ابى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يافلان اذا أويت (١) الى فراشك فقل : « اللهم أسلمت (٢) نفسى اليك ، ووجهت (٣) وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، وألجأت (٤) ظهرى اليك (٥) رغبة (٦) ورهبة (٧) اليك : لا ملجأ (٨) ولا منجا منك (٩) الا اليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت فانك ان مت من ليلتك مت على الفطرة (١٠) وان أصبحت أصبحت خيرا » • (متفق عليه) •

---

(١) انضممت (٢) جعلت نفسى منقادة طائعة لحكمك راضية بقضائك قانعة بقدرتك (٣) أقبلت بذاتى اليك (٤) أسندت (٥) الى حفظك (٦) طمعا فى ثوابك •
(٧) خوفا من عقابك (٨) لا مستند ولا مقر (٩) لا نجاة (١٠) على الايمان •

وفى رواية فى الصحيحين عن البراء قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل — وذكر نحوه — ثم قال : « واجعلهن آخر ما تقول » .

٢ — وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال — يعنى اذا خرج من بيته — بسم الله(١) توكلت على الله ، ولا حول(٢) ولا قوة الا بالله . يقال له : هديت(٣) وكفيت (٤) ووقيت ، (٥) وتنحى (٦) عنه الشيطان » (رواه أبو داود) فيقول — يعنى الشيطان — لشيطان آخر كيف لك برجل هدى وكفى ووقى (٧)

(رياض الصالحين ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩)

الآثار :

من عرف ربه حق المعرفة لن يلجأ الا اليه ، ولن يتوكل الا عليه ، ولن يلوذ الا به . ومن أحسن الظن بربه كان ربه عند حسن الظن به ، ومن وثق بالله فقد فاز بعز الدنيا وشرف الآخرة .

١ — قرأ الخواص قوله تعالى : « وتوكل على الحى الذى لا يموت » الى آخرها فقال : ما ينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ الى أحد غير الله تعالى .

٢ — وقيل لبعض العلماء فى منامه « من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته » .
(احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٣٩)

---

(١) أتحصن (٢) لا حول عن المعاصى الا بقوة الله وعصمته ولا قوة على طاعة الا باعانته وهدايته (٣) سرت الى الصراط المستقيم (٤) قضى الله كل مهم عنك دنيوى او اخروى (٥) حفظك الله من شر كل عدو (يصدقك فى قولك) (٦) مال عن طريقة (٧) حفظه الله تعالى — كيف يتيسر لك الظفر باغوائه .

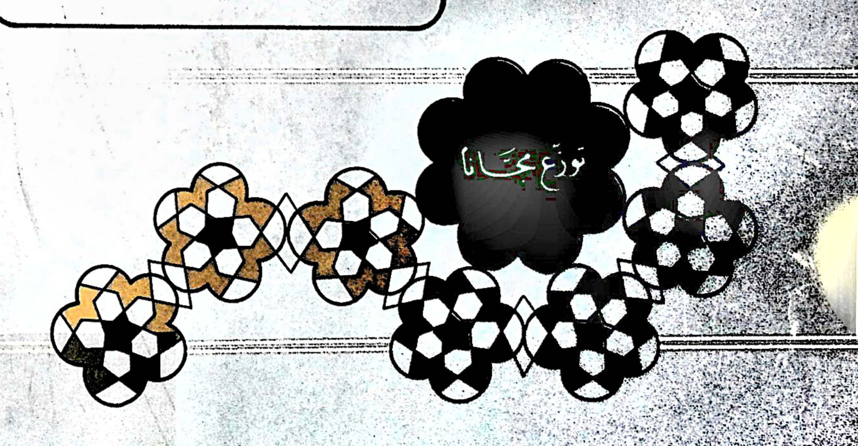


وبعد:

فان وزارة الشؤون الاسلامية والأوقاف بدولة الامارات العربية المتحدة لحريصة كل الحرص على أن يرتفع المستوى العلمي ونوع الأداء لدى دعاة الاسلام في بلاد الخليج، من الوعاظ وأئمة المساجد الذين ينتسبون لها ولوزارات الاوقاف الأخرى، ومن مدرسي التربية الاسلامية بمدارس وزارات التربية والمؤسسات العسكرية، ومن غيرهم ممن يصدع بالحق و يبشر بالتوحيد و يأمر بالمعروف حسبة لله عز وجل.

وقد وجدت في هذا الباب موسوعة جاهزة اعدتها وزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية، سبق لها أن طبقتها في تجربة رائدة ناجحة، فآثرت أن تستفيد منها، وان تعيد تعميم خيرها، وللسابق الفضل والشكر.

وتقع هذه السلسلة النافعة في عشرين من مثل هذا المجلد، تتجه النية الى اعادة طبعها كلها في بضع سنين إن شاء الله، مع تصرف يسير تقتضيه المصلحة.





مطبعة كاظم
دبي الامارات العربية المتحدة